

الدين الإسلامي

مرجع شامل

في مصادر الإسلام ومبادئه وأحكامه

بقلم:

حضرة فضيلة العلامة

محمد علي

نسخة معتمدة من مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

مع تصدير

لفضيلة الأستاذ الدكتور

محمد سيد طنطاوي

الإمام الأكبر

شيخ الجامع الأزهر الأسبق

الدين الإسلامي

مرجع شامل

في مصادر الإسلام ومبادئه وأحكامه

بقلم:

حضرة فضيلة العلامة

محمد علي

نسخة معتمدة من مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

مع مقدمة

لفضيلة الأستاذ الدكتور

محمد سيد طنطاوي

الإمام الأكبر

شيخ الجامع الأزهر الأسبق

الدين الإسلامي

الدين الإسلامي

مناقشة شاملة لمصادر الإسلام
وعقائده وعباداته وأحكامه

بقلم:

حضرة فضيلة العلامة

محمد علي

الدار الإسلامية للنشر

٢٠١٨

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الدار الإسلامية للنشر

P.O.Box 3370, Dublin, Ohio 43016, USA

تليفون: ٦١٤-٨٧٣١٠٣٠ فاكس: ٦١٤-٨٧٣-١٠٢٢

عنوان البريد الإلكتروني: aaail@aol.com

طبعت النسخة الإنجليزية للكتاب:

١٩٣٦

الطبعة الأولى

٢٠٠٦

الطبعة العربية الأولى

٢٠١٨

طبعة إلكترونية

الترقيم الدولي (ISBN): 978-1-945227-13-4

AL - AZHAR AL - SHARIF
 ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
 GENERAL DEPARTMENT
 For Research, Writing & Translation

الأزهر الشريف
 مجمع البحوث الإسلامية
 الإدارة العامة
 للبحوث والتأليف والترجمة

بناءً على الطلب المقدم من السيدة سميما مالك إلى الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بشأن الإطلاع وإبداء الرأي في مدى صلاحية كتاب بعنوان " الدين الإسلامى " تأليف مولانا محمد علي باللغة الانجليزية *
 تفيد الإدارة بالكتاب المذكور يحتوى على معلومات مفيدة ونافعة ويستفيد منه القارئ المسلم الناطق بالإنجليزية *
 والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

The Religion of Islam

تحريراً فى :
 هـ ١٤٢٣ / ٤ / ٢٠
 م ٢٠٢٢ / ٧ / ١
 ع * أبو عليوه

مدير عام
 البحوث والتأليف والترجمة

" سيد أحمد علي مصباح "



إدارة الترجمة
 ضياء الدين محمد محمد
 ١٤٧١

تصدير
فضيلة الإمام الأكبر
شيخ الأزهر

اطلعت على كتاب "الدين الإسلامي" للعلامة مولانا محمد علي
مرحمه الله وطيب ثراه، وقد لمست في هذا الكتاب النفيس
الأخلاص وصدق العقيدة والعلم النافع وأسأل الله عز وجل أن
يكون هذا الكتاب العلمي الجليل في ميزان حسنات سيادته.

وصلى الله على سيرةنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

شيخ الأزهر
محمد طنطاوي
2017/6/18

كتب أخرى للمؤلف:

بالإنجليزية:

- ترجمة معاني القرآن الكريم (مع تفسير بالإضافة إلى النص العربي)
 ترجمة معاني القرآن الكريم (مع تفسير مختصر وبدون النص العربي)
 محمد النبي (صلى الله عليه وسلم) Muhammed the Prophet
 محمد والمسيح Muhammad and Christ
 الخلافة الراشدة Early Caliphate
 مقدمة لدراسة الحديث الشريف Introduction to the Study of Hadith
 مختارات من القرآن الكريم Selections from the Holy Qur'an
 مقدمة لدراسة القرآن الكريم Introduction to the Study of the Holy Qur'an
 الأدعية في القرآن الكريم Prayers of the Holy Qur'an
 المسيح الدجال ويأجوج ومأجوج Antichrist, Gog and Magog
 تاريخ الأنبياء History of the Prophets
 النظام العالمي الجديد The New World Order
 دليل الحديث A Manual of Hadith
 التعاليم الخالدة الموحى بها إلى النبي الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم
 The Living Thoughts of The Prophet Muhammad

بالأوردية:

- بيان القرآن، ترجمة وتفسير للقرآن الكريم في ثلاثة مجلدات.
 همائل شريف، ترجمة للقرآن الكريم مع تفسير موجز.
 فضل الباري، شرح لصحيح البخاري في مجلدين.
 النبوة في الإسلام، براهين ختام النبوة.
 سيرة خير البشر، سيرة حياة النبي الكريم.
 تاريخ الخلافة الرشيدة، تاريخ الخلفاء الأربعة الأوائل.
 مقام الحديث، مكانة الحديث الشريف في الإسلام.
 زيند نبي ك زيند تعليم، التعاليم الخالدة الموحى بها إلى النبي الكريم محمد.
 جمع القرآن، جمع وترتيب القرآن الكريم.

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه الطبعة من الكتاب الشهير لحضرة فضيلة العلامة محمد علي، الذي يطلق عليه اسم "الدين الإسلامي"، هي أول طبعة تصدر بعد وفاة المؤلف. وأول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر اسم محمد علي هو الإعراب عن بالغ التقدير له على كل ما قدمه من خدمات جليلة لقضية الإسلام. وقد وُلد محمد علي عام ١٨٧٦ وحصل على ثلاث درجات جامعية في الأدب والقانون، وفي الوقت الذي كانت فيه آفاق المستقبل المهني الباهر الذي ينتظره في حياته الدنيا مفتوحة أمامه، كرس محمد علي حياته لخدمة قضية الإسلام ويا له من تكريس! لقد حمل المؤلف قلمه للدفاع عن هذه القضية عام ١٩٠١، عندما كان شاباً في العشرينات من عمره، وكان بارعاً في استخدام قلمه في الدفاع عنها بلا توقف أو كلل وبتفانٍ شديد طيلة نصف قرن من الزمان ولم يتركه حتى وافته المنية.^١

ولم تكن ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم - وهي نتاج سبع سنوات^٢ طوال من البحث الدؤوب غير المسبوق من نوعه، لم تكن إيداناً بيزوغ فجر عهد جديد في فهم المفكرين المسلمين للدين الإسلامي فحسب، وإنما كان لها أيضاً تأثيرها على الكتابات الغربية، وهو تأثير يمكن ملاحظته في تغير نظرة الغرب للإسلام وتغير أسلوب الكتابات الغربية عن الإسلام التي ظهرت منذ ذلك الوقت. وإن ما حظيت به هذه الترجمة الإنجليزية من قبول واسع المدى واستحسان شديد - وهي أول ترجمة يجريها أحد المسلمين لمعاني القرآن - لم يكن يرجع فحسب إلى الأبحاث الكثيرة التي أجراها فضيلته، وتتبع المعنى الحقيقي للألفاظ والآيات القرآنية، والإشارات المفصلة إلى الأعمال المعترف بها في علم المعاجم والتفاسير، والتركيز على المعنى الخفي لأجزاء وسور القرآن وعلى تواصل الموضوع الذي يربط السور بعضها ببعض، ولا كان يرجع فحسب إلى الأمانة الشديدة في ترجمة معاني القرآن، دون استخدام أي زخارف لفظية ودون أي محاولة منه للانحياز إلى مفاهيم مسبقة أو شائعة، ولم يرجع هذا كله، رغم ذلك، إلى المنهج المستتير العقلاني الذي اتبعه والردود التي فُتد بها جميع الانتقادات الموجهة للقرآن فحسب، وإنما كان ذلك أيضاً نتاج شيء أكبر بكثير من كل ما سبق، وهو شيء لا يمكن أن تقدمه الدراسات والأبحاث - ألا وهو نعمة الإخلاص. فقد استخدم محمد علي قلم الباحث بيد القديس وهنا يكمن السر في أن ترجمته أصبحت قوة روحانية لمن يسعون وراء الحق. وقد كان عمله عملاً رائداً غير مسبوق من نوعه وكان نموذج ترجمته نموذجاً احتذى

١ ١٣ أكتوبر ١٩٥١

٢ ١٩١٦-١٩٠٩

به المسلمون في جميع ترجماتهم اللاحقة لمعاني القرآن. وقد قام محمد علي بتقحيح ترجمته، التي نشرت في عدة طبعات، تنقيحاً وافياً في السنوات الأخيرة من حياته.^٢ وقد تم تسجيل بعض أعماله الأخرى في أماكن أخرى.

ويحتوي كتاب الدين الإسلامي، الذي نشر أول مرة عام ١٩٣٦، والذي أجرى المؤلف تعديلات طفيفة فقط فيه، على ٢٥٠٠ استشهاد من مصادر أصلية، معظمها من القرآن. وقد كانت هذه الاستشهادات مأخوذة من الترجمة المعتمدة في طبعة ١٩١٧ من الترجمة الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم للمؤلف. وقد تم الآن تنقيح كل هذه الاستشهادات وفقاً لطبعة سنة ١٩٥١ (الطبعة الرابعة) من الترجمة التي، كما سبق وذكرنا، نقحها محمد علي تنقيحاً وافياً. وفي حالات قليلة، تمت إضافة أو تعديل بعض الحواشي التوضيحية وفقاً للحواشي المذكورة في الطبعة المنقحة من الترجمة الإنجليزية. وتمثل هذه التعديلات التنقيح الرئيسي الذي أجري في هذه الطبعة من كتاب الدين الإسلامي. كما تم أيضاً تنقيح بعض أجزاء الكتاب الأخرى وتحديثها. وكان المؤلف ينوي إضافة فصلين للكتاب موضوعهما الدولة الإسلامية والأخلاق في الإسلام، إلا أنه لم يتمكن من عمل ذلك بنفسه. ومع ذلك، تناول المؤلف هذين الموضوعين، وإن كان ذلك باختصار، في عمليتين لاحقين بعنوان: النظام العالمي الجديد والتعاليم الخالدة الموحى بها إلى النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وأضيفت المادة العلمية المأخوذة من هذين المصدرين، بعد إجراء التنقيح اللازم، في فصلين إضافيين في نهاية هذا الكتاب. ومع ذلك، لم يتم تناول هذين الموضوعين بنفس التفصيل الذي تناول به المؤلف الموضوعات الأخرى التي شكلت في الأصل جزءاً من هذا الكتاب.

ونحن نقدم ببالغ الشكر والتقدير للسيد/ محمد أحمد، الحاصل على درجة الماجستير، وهو ابن المؤلف من أجل قيامه بتقحيح هذا الكتاب في الإطار المشار إليه أعلاه ومراجعة التجارب الطباعية.

الناشرون

مقدمة المؤلف

لا نجد تعليقا على التكاثر السائد بين المسلمين في الكتابة عن الإسلام أفضل من ذكر حقيقة أن إسهامات غير المسلمين في الكتابات عن الدين الإسلامي أكثر بكثير من إسهامات المسلمين. ومن الصحيح أن كثيراً من هذه الكتابات يرسم صورة مشوهة للإسلام، ولكن حتى في هذا الأمر يقع اللوم على المسلمين أكثر من وقوعه على غير المسلمين، لأن من واجب المسلم أن يعرض مادة علمية صحيحة أمام عالم لا يرتوي تعطشه للمعرفة. ولكن مهما قيل عن سطحية بعض هذه الكتابات والتعصب الذي ينطوي عليه مضمون البعض الآخر، فإننا لا يمكن أن ننكر أن أوروبا أسهمت إسهامات جليظة في الأبحاث المتعلقة بالدين الإسلامي وتاريخ المسلمين. ورغم تحول اهتمام المسلمين أيضاً إلى تأليف كتابات دينية باللغة الإنجليزية، فإن هذه المحاولة ما زالت، رغم ذلك، ضعيفة جداً حيث إنها موجهة إلى اجتذاب السوق أكثر من توجيهها إلى بذل الجهود الجادة القائمة على العمل الدؤوب والبصيرة النقدية.

"الدين الإسلامي" هو اسم كتاب ألفه القسيس/ كلين ونشر عام ١٩٠٦. ويفضل أحد الأصدقاء وقع هذا الكتاب في يدي عام ١٩٢٨، وذكر صديقي أنه قد تألم عندما قرأ الكتاب نظراً لما جاء به من صورة مشوهة للإسلام واقترح علي أن أقوم بكتابة عمل واف يشتمل على صورة حقيقية للإسلام ويتناول بالتفصيل تعاليمه. وقبل ذلك بأكثر من عشرين عاماً، وتقريباً في الوقت الذي نشر فيه هذا الكتاب في لندن، وتحديداً في ١٣ فبراير ١٩٠٧، كلفني مؤسس الحركة الأحمدية، حضرة ميرزا غلام أحمد القادياني، بكتابة كتاب باللغة الإنجليزية يضم كل ما يجب أن يعرفه المسلم أو غير المسلم عن الدين الإسلامي، ويعطي صورة حقيقية عن الدين الإسلامي الذي شوّهت صورته إلى حد كبير. وقد كانت المهام المتعددة التي كان مطلوباً مني أداؤها بصفتي رئيس الأحمدية أنجمن إشاعة إسلام (الجمعية الأحمدية لنشر الإسلام) تمثل عائقاً كبيراً أمام ذلك، ولكن نداء الواجب تغلب على هذه الصعوبات وبدأت العمل فوراً بعد قراءة كتاب كلين والآن يجري نشر العمل بنفس الاسم.

ولو كان بمقدوري تكريس كل وقتي لهذا العمل، لكان من الممكن الانتهاء منه في ثلاث سنوات. ولكن مرت سبع سنوات وما زلت غير مقتنع أن الكتاب يعطي نفس الصورة الكاملة التي أود رسمها عن الإسلام. وقد كان من حسن حظي، من وجهة نظر البعض، أنني أسهم في أنشطة الكتابات عن الإسلام، وأرأس جمعية هدفها نشر الإسلام نظراً للعلاقة الوثيقة بين العاملين، ولكن ذلك،

من وجهة نظر أخرى، كان من سوء حظي لأن كل عمل من هذين العملين يتطلب تفرغاً كاملاً له دون الآخر. ورجعت لكتاب المؤلف مراراً وتكراراً وسط المهام العديدة التي كان مطلوباً منه أداؤها بصفتي رئيساً لجمعية حديثة الإنشاء حيث كان دائماً يتم استدعائي لأداء مهمة أخرى يفرض إلحاح اللحظة علي الانتباه لها. كما أنه لم يتوافر لدي عنصر وحدة غرض المؤلف وهو عيب أعترف بأن العمل ربما يعاني منه إلى حد ما.

وهناك أيضاً واقعة أخرى ربما تنتقص من قيمة الكتاب. فقد أصبت بمرض خطير إلى حد ما في مارس ١٩٣٥، ونصحتني من استشرتهم من الأطباء أن ألتزم الراحة التامة بعض الوقت. وحتى بعد تماثلي للشفاء، نصحتني الأطباء بأن أكف عن العمل الشاق وهو أمر لم أتمكن بصراحة من تنفيذه لأنه لم يكن من الممكن تأجيل نشر الكتاب أكثر من ذلك. لذا كان علي أن أسرع بالعمل، والأكثر من ذلك، أنني اضطررت للتخلي عن الفصلين اللذين كنت أنوي في البداية إضافتهما إلى الكتاب.^٤ بالإضافة إلى ذلك، لم أتناول الفصول الختامية على النحو الوافي الذي كنت أتمناه. وإني لأمل ان يتم استئصال هذه العيوب والعيوب الأخرى إذا مد الله في أجلي حتى أصدر الطبعة الثانية.

والإسلام، كما أوضحت في مقدمة هذا الكتاب، هو دين لا يتناول طرق العبادة والسبل التي يقيم بها الإنسان علاقة وثيقة مع ربه فحسب وإنما يتناول أيضاً مجموعة متنوعة من المشكلات المتعلقة بالعالم المحيط بنا والقضايا ذات الصلة بالحياة الاجتماعية والسياسية للإنسان. وفي بحث يهدف إلى إعطاء صورة صادقة عن الإسلام، فقد كان من الضروري عدم الاقتصار على مناقشة جميع شرائع وأحكام النظام الإسلامي، إذ كان من الضروري أيضاً إلقاء الضوء على المبادئ التي يقوم عليها والمصادر المستمدة منها تعاليمه، ومبادئه، وشرائعه. لذا، قسمت هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول يتناول المصادر التي تستمد منها تعاليم الإسلام والتي يمكن أن تخدم غرض إرشاد العالم الإسلامي بشأن احتياجاته الحالية والمستقبلية، ويصف الجزء الثاني العقيدة الإسلامية أو المبادئ الأساسية للدين الإسلامي، في حين يتناول الجزء الثالث شرائع وأحكام الإسلام التي لا تنظم علاقات المسلم الأسرية والاجتماعية والعلاقات الدولية فحسب وإنما تنظم أيضاً علاقة الإنسان بربه التي تعتبر العامل الرئيسي وراء تنمية قدراته، وقد تمت إضافة مقدمة للكتاب تتناول بعض المسائل المتعلقة بالدين بوجه عام والإسلام بوجه خاص.

^٤ الأخلاق في الإسلام والدولة الإسلامية.

ل

وعمل من هذا النوع كان من الممكن أن يفقد كثيرًا من قيمته لو لم تتم الإشارة بالكامل إلى المراجع الأصلية، وهو ما جعل العمل شاقاً لأنه يشتمل على أكثر من ٢٥٠٠ مرجع واقتباس. ويحتل القرآن الكريم، بما أنه المصدر الرئيسي الذي تقوم عليه كل مبادئ الإسلام وشرائعه، المكانة الأولى في هذه القائمة ثم يأتي بعده كتاب صحيح البخاري، وهو أكثر كتب الحديث الموثوق بها. ويبنى العمل الحالي، بصفة أساسية، على هذين المرجعين، ولكن تم الاستشهاد والرجوع إلى مراجع أخرى، بالإضافة إلى هذين المرجعين، عند الضرورة.

محمد علي
لاهور

٢١ نوفمبر ١٩٣٥

مقدمة الطبعة الثانية

نظراً للطلب الشديد على الكتاب بصورة غير متوقعة، طلب مني إرسال هذه الطبعة الثانية إلى المطبعة على الفور ولم أجد الوقت اللازم لكتابة الفصلين اللذين وعدت بإضافتهما إلى الطبعة الثانية. ومع ذلك، تناولت هذين الموضوعين، أي الأخلاق في الإسلام والدولة الإسلامية، في عمل لاحق يحمل عنوان دليل الحديث الشريف، كما أضفت أيضاً فصلاً عن الدولة الإسلامية في عمل آخر لي تحت عنوان النظام العالمي الجديد، لذا أرغب من القارئ الرجوع إلى هذين الكتابين لمعرفة كل ما يلزم من معلومات بشأن هذين الموضوعين. ولذلك، يتم إرسال الكتاب إلى المطبعة بالشكل الذي طبع به أول مرة مع إجراء تعديلات طفيفة جداً عليه.

محمد علي

لاهور

مدينة لاهور الإسلامية

١٩٤٩

قائمة المحتويات

هـ	شهادة موافقة مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف على نشر الكتاب
و	مقدمة فضيلة الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي، الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأسبق
ح	مقدمة الطبعة الثالثة
ي	مقدمة المؤلف
م	مقدمة الطبعة الثانية
زز	قائمة المراجع

مقدمة

٢	الإسلام لا المحمدية
٣	دلالة لفظ الإسلام
٣	مكانة الإسلام بين ديانات العالم
٥	إدخال معنى جديد في الدين
٥	الدين قوة دافعة للتطور الأخلاقي للإنسان
٦	الإسلام أساس لحضارة غير مندثرة
٧	الإسلام أعظم قوة قادرة على توحيد الجنس البشري في العالم
٨	الإسلام أعظم قوة روحية في العالم
٩	الإسلام يقدم الحل لمشكلات العالم الكبرى
١١	المفاهيم الخاطئة الكامنة وراء الحركة المعادية للدين

الجزء الأول

مصادر الإسلام

١٤	الفصل الأول: القرآن الكريم
١٤	كيف ومتى نزل القرآن؟
١٦	القرآن أسمى صور الوحي
١٧	صور أخرى من الوحي الإلهي المنزل على البشر
١٨	تجربة النبي (ص) للوحي

- ١٩ طبيعة الوحي الذي نزل على النبي (ص)
- ٢٠ ترتيب القرآن
- ٢١ ترتيب القرآن أثناء التلاوة
- ٢٢ نسخ مكتوبة كاملة من المصحف
- ٢٢ توحيد نسخ المصحف
- ٢٤ اختلاف القراءات
- ٢٥ الشهادة بالإجماع على سلامة النص القرآني
- ٢٦ نظرية النسخ
- ٢٨ الأحاديث الواردة في موضوع النسخ
- ٢٨ استخدام كلمة "النسخ"
- ٣٠ أساس النسخ
- ٣٠ رأي السيوطي في النسخ
- ٣٠ حكم شاه ولي الله على خمس آيات
- ٣٢ تفسير القرآن
- ٣٤ أهمية الحديث والتفاسير في تفسير القرآن
- ٣٤ تقسيمات القرآن
- ٣٥ السور المكية والسور المدنية
- ٣٦ مكانة القرآن في الأدب العالمي
- ٣٨ آراء الكتاب الأوروبيين في القرآن
- ٤٠ ترجمة القرآن
- ٤٢ **الفصل الثاني: السنة والحديث**
- ٤٢ السنة والحديث
- ٤٣ نقل الحديث في عهد النبي (ص)
- ٤٤ تدوين الحديث في عهد النبي (ص)
- ٤٥ السبب في عدم تدوين الأحاديث بوجه عام
- ٤٥ إمكانية الاعتماد على الذاكرة في حفظ العلم
- جمع الحديث:
- ٤٦ المرحلة الأولى

قائمة المحتويات

ع

٤٨	المرحلة الثانية
٥٠	المرحلة الثالثة
٥٢	المرحلة الرابعة
٥٢	المرحلة الخامسة
٥٣	البخاري
٥٤	طريقة إحصاء الروايات المتعددة للحديث
٥٥	الأخبار الواردة في السير والتفاسير
٥٦	الفُصَّاص
٥٨	النقد الأوروبي للحديث
٦١	قواعد نقد الحديث المقبولة عند المسلمين
٦٢	القرآن أعظم معيار للحكم على الحديث
٦٤	إلى أي مدى استخدم المحدثون هذه المعايير؟
٦٦	أنواع الحديث المختلفة
٦٨	الفصل الثالث: الاجتهاد
٦٨	إقرار القرآن بأهمية العقل
٦٩	النبي (ص) أجاز الاجتهاد في المسائل الدينية
٧٠	اجتهاد صحابة رسول الله (ص) الأئمة العظام:
٧١	الإمام أبو حنيفة
٧١	الإمام مالك
٧٢	الإمام الشافعي
٧٢	الإمام أحمد
٧٣	الطرق المختلفة لصياغة التشريعات الجديدة
٧٣	القياس
٧٤	الاستحسان أو اجتهاد الرأي والاستصلاح أو الاستنباط وفقاً للمصلحة العامة
٧٥	الاستدلال
٧٥	الإجماع
٧٧	الإجماع مجرد اجتهاد على نطاق أوسع
٧٨	الاختلاف مع الأغلبية ليس إثماً

٧٨	مراتب الاجتهاد الثلاث
٧٩	باب الاجتهاد مازال مفتوحاً
٨١	القرآن أقر مبدأ استقلال الفكر

الجزء الثاني

العقائد في الإسلام

٨٤	الفصل الأول: الإيمان
٨٤	الإيمان والعمل
٨٤	استخدام كلمة "الإيمان" في القرآن
٨٥	استخدام كلمة "الإيمان" في الحديث
٨٦	الكفر
٨٧	تحريم تكفير المسلم
٨٩	الإيمان والإسلام
٩١	لا وجود للعقائد الجامدة المتمتزة في الإسلام
٩١	أركان الإيمان
٩٢	معنى الإيمان

الفصل الثاني: الذات الإلهية

القسم الأول - وجود الله

٩٤	التجربة المادية والداخلية والروحية للبشرية
٩٤	قانون النشوء والارتقاء دليل على الغاية والحكمة الإلهية
٩٦	الكون كله يسير وفقاً لقانون واحد
٩٦	الفطرة وهداية النفس البشرية
٩٨	الوحي الإلهي أحد مصادر الهداية

القسم الثاني - التوحيد

١٠٠	التوحيد
١٠١	خطورة الشرك

قائمة المحتويات

ص

١٠١	أنواع الشرك المختلفة
١٠٢	عبادة الأصنام
١٠٣	عبادة الطبيعة
١٠٣	التثليث
١٠٤	عقيدة البنوة
١٠٥	مغزى عقيدة التوحيد
١٠٦	وحدة الجنس البشري قائمة على عقيدة التوحيد

القسم الثالث - صفات الله

١٠٦	طبيعة صفات الله
١٠٨	العرش
١٠٨	اسم عَلم الذات الإلهية
١٠٩	الصفات الأربع الرئيسية
١١١	أسماء الله التسعة والتسعون
١١٣	المحبة والرحمة صفتان غالبتان في الذات الإلهية
١١٥	صفات الله هي نموذج كمال الصفات الواجب الاحتذاء به

١١٧	الفصل الثالث: الملائكة
١١٧	الملائكة مخلوقات روحانية غير مادية
١١٨	هل يمكن رؤية الملائكة؟
١١٨	ضيف إبراهيم
١١٩	هاروت وماروت
١٢٠	طبيعة الملائكة
١٢٠	نزول الملك على النبي (ص)
١٢٢	الوظائف المكلف بها الملائكة
	الملائكة وسطاء الله:
١٢٣	المكلفون بالنزول بالوحي
١٢٤	المكلفون بتأييد المؤمنين
١٢٦	المكلفون بتنفيذ أوامره بالعقاب
١٢٦	شفاعة الملائكة ودعاؤهم للعباد

- ١٢٧ الملائكة يساعدون في الرقي الروحي للإنسان
- ١٢٨ الملائكة تدعو العباد لفضائل الأعمال
- ١٢٩ الملائكة المكلفون بكتابة أعمال العباد
- ١٢٩ الإيمان بالملائكة
- ١٣٠ إبليس ليس من الملائكة وإنما من الجن
- ١٣١ الجن
- ١٣١ الشيطان
- ١٣٢ استخدام كلمة "جن" للإشارة إلى الإنس
- ١٣٥ الجن لا يعلم الغيب
- ١٣٩ **الفصل الرابع: الكتب المنزلة**
- ١٣٩ الإشارة إلى الكتب المنزلة بثلاثة أسماء
- ١٤٠ الوحي إلى الجماد والمخلوقات الأخرى غير البشر
- ١٤٠ الوحي إلى الأولياء
- ١٤١ الوحي إلى البشر بثلاث طرق
- ١٤٢ هدف الوحي الإلهي إلى البشر
- ١٤٣ الوحي حقيقة عامة
- ١٤٤ الإيمان بجميع الكتب السماوية أحد أركان الإيمان في الإسلام
- ١٤٤ اكتمال الوحي
- ١٤٥ القرآن أمين وحاكم على ما قبله من الكتب
- ١٤٥ القرآن صحح الأخطاء التي أدخلت على الكتب السابقة
- ١٤٦ تحريف نص الكتب السماوية السابقة
- ١٤٧ باب الوحي غير مغلق
- ١٤٩ الكلام صفة من صفات الله تعالى
- ١٥١ **الفصل الخامس: الأنبياء**
- ١٥١ النبي والرسول
- ١٥١ الإيمان يرسل الله
- ١٥٢ عالمية رسالة النبي (ص)
- ١٥٣ وجوب إيمان المسلم بالأنبياء أجمعين

قائمة المحتويات

١٥٤	الأنبياء المرسلون إلى الأمم
١٥٤	النبي المرسل إلى العالمين
١٥٧	جميع الأنبياء أمة واحدة
١٥٨	لماذا بعث الله الأنبياء؟
١٦٠	عصمة الأنبياء
١٦١	الاستغفار
١٦٢	الذنب
١٦٢	الخطأ
	حالات فردية:
١٦٣	نوح وإبراهيم
١٦٣	النبي محمد (ص)
١٦٤	موسى
١٦٥	آدم
١٦٥	مفهوم المعجزات في الإسلام
١٦٨	معجزات الإسلام
١٦٩	النبوءة
١٧٠	نبوءة انتصار الإسلام
١٧٢	الشفاعة: الله هو الشفيح الحق
١٧٣	الشفعاء
١٧٣	شفاعة الله
١٧٤	شفاعة الملائكة
١٧٤	شفاعة الأنبياء والمؤمنين
١٧٥	الشفاعة يوم القيامة
١٧٦	ختم النبوة
١٧٧	النبي المرسل إلى كل الأمم والعصور
١٧٨	توحيد الجنس البشري القائم على ختم النبوة
١٧٨	مغزى ختم النبوة
١٧٨	ظهور المسيح
١٨٠	ظهور المجددين

١٨٢	الفصل السادس: الحياة بعد الموت
١٨٢	الآخرة
١٨٢	أهمية الإيمان بالآخرة
١٨٣	العلاقة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة
١٨٤	البرزخ
١٨٤	المرحلة الثانية في الحياة الأسمى
١٨٥	التجربة الروحية في مرحلة البرزخ
١٨٦	مدة الحياة البرزخية
١٨٧	الأسماء العديدة للقيامة
١٨٧	عموم الهلاك وعموم اليقظة
١٨٨	القيامات الثلاث
١٨٩	البعث الروحي والبعث الأعظم
١٩٠	الحياة لها غاية
١٩١	جزاء الحسنه والسيئة
١٩١	البعث مبدأ يمكن تطبيقه في الحياة
١٩٢	البعث حقيقة تتفق مع المعرفة العلمية الحالية
١٩٢	هل سيكون البعث بالجسد؟
١٩٣	الجسد في الآخرة يتكون من أعمال العبد الصالحة والسيئة
١٩٤	الأمر الروحانية في الدنيا تتجسد في الآخرة
١٩٥	كتاب الأعمال
١٩٧	الميزان
١٩٨	الجنة
١٩٩	نعم الجنة
٢٠١	نساء الجنة
٢٠٢	الحوور
٢٠٣	الحوور من نعم الجنة
٢٠٤	غلمان وولدان الجنة
٢٠٤	دار السلام
٢٠٥	لقاء الله
٢٠٦	رقي العبد في الحياة الأسمى

قائمة المحتويات

ت

٢٠٧	الأسماء العديدة للنار
٢٠٧	النار: تجسيد للأمور الروحانية في الدنيا
٢٠٩	النار: علاج للأمراض الروحية
٢١٥	الفصل السابع: التقدير
٢١٦	خلق الخير والشر
٢١٩	إرادة الله وإرادة العبد
٢٢١	علم الله السابق
٢٢١	ما يصيبنا من محن وشدائد مكتوب عند الله
٢٢٣	اللوح المحفوظ
٢٢٤	ليس الله بمضلل للعباد
٢٢٥	الإضلال كصفة منسوبة إلى الله
٢٢٦	ختم الله على القلوب
٢٢٧	السنة والتقدير
٢٣٣	الإيمان بالقدر لم يرد في القرآن أو في صحيح البخاري
٢٣٤	الإيمان بالقدر عقيدة ظهرت مؤخراً
٢٣٥	معنى الإيمان بالقدر
٢٣٦	وجهة نظر الأشعري

الجزء الثالث

العبادات والأحكام في الإسلام

٢٣٩	الفصل الأول: الصلاة
	القسم الأول - فضل الصلاة
٢٣٩	أهمية الصلاة في الإسلام
٢٤٠	الصلاة تركية للنفس
٢٤٠	الصلاة وسيلة لإدراك وجود الله في قلب العبد
٢٤١	تجربة البشرية
٢٤١	الصلاة وسيلة لبلوغ سمو الأخلاقي

٢٤٢	الصلاة وسيلة لتطهير القلب
٢٤٣	الصلاة وسيلة لتوحيد الجنس البشري
٢٤٤	تنظيم أداء الصلاة
٢٤٥	مواقيت الصلاة
٢٤٦	طريقة العبادة
٢٤٧	لغة الصلاة
٢٤٩	مزايا أخرى للإبقاء على اللغة العربية في الصلاة
٢٥٠	الفاتحة
٢٥١	الصلاة تشكل الاتجاه الفكري للمسلم

القسم الثاني - المسجد

٢٥٥	لا يشترط تخصيص مكان معين للصلاة
٢٥٦	المسجد كمركز ديني
٢٥٧	المسجد ساحة لتدريب المسلمين على المساواة
٢٥٧	المسجد كمركز ثقافي
٢٥٨	المسجد كمركز لجميع الأنشطة الإسلامية
٢٥٩	احترام المساجد
٢٥٩	وجوب استقبال المساجد الكعبة
٢٦٠	بناء المسجد
٢٦١	مساجد القبائل والطوائف
٢٦٢	الإذن للنساء بالذهاب إلى المساجد
٢٦٤	القائمون على المسجد

القسم الثالث - الطهارة

٢٦٥	طهارة الظاهر تهيئاً للصلاة
٢٦٦	الوضوء
٢٦٨	المسواك
٢٦٩	الغسل
٢٦٩	التيمم

القسم الرابع - الأذان

٢٧٠	نشأة الأذان
٢٧١	رفع الأذان
٢٧٢	مغزى الأذان

القسم الخامس - مواقيت الصلاة

٢٧٣	تنظيم أداء الصلاة
٢٧٣	مواقيت الصلاة
٢٧٤	الفروض الخمسة
٢٧٥	الجمع بين الصلاتين
٢٧٥	النوافل

القسم السادس - شعائر الصلاة

٢٧٦	شكل الصلاة
٢٧٧	الحفاظ على روح الصلاة
٢٧٧	أقسام الصلاة
٢٧٨	القيام
٢٧٩	الركوع
٢٧٩	السجود
٢٧٩	القعود
٢٨٠	هل يجوز عدم الالتزام بهذه الأوضاع؟
٢٨١	الذكر
٢٨١	ذكر القيام
٢٨٤	ذكر الركوع والسجود
٢٨٤	ذكر القعود
٢٨٦	القنوت
٢٨٧	الأنكار بعد السلام
٢٨٧	الجماعة
٢٨٨	الإقامة
٢٨٨	صلاة الجماعة

٢٨٩	سجود السهو
٢٨٩	المصلون المتأخرون في حضور الجماعة
٢٨٩	صلاة المسافر
٢٩٠	الصلاة في ساحة القتال

القسم السابع - صلاة الجمعة

٢٩٠	الأمر بصلاة الجمعة على وجه الخصوص
٢٩١	التهيؤ لصلاة الجمعة
٢٩١	الخطبة
٢٩٢	شعائر صلاة الجمعة

القسم الثامن - صلاة العيدين

٢٩٣	الأعياد الإسلامية
٢٩٤	تجمع المسلمين لأداء صلاة العيد
٢٩٤	شعائر صلاة العيد
٢٩٥	خطبة العيد
٢٩٥	صدقة العيد
٢٩٦	الأضحية
٢٩٧	هل يجوز أن تحل الصدقة محل الأضحية؟
٢٩٧	مغزى التضحية بحيوان يوم العيد

القسم التاسع - صلاة الجنائز

٢٩٨	التهيؤ للصلاة
٢٩٩	شعائر صلاة الجنائز
٣٠١	القرآن أمر بالصبر على المصائب

القسم العاشر - صلاة التهجد وصلاة التراويح

٣٠٢	صلاة التهجد نافلة
٣٠٣	تهجد النبي (ص)
٣٠٣	شعائر صلاة التهجد

قائمة المحتويات

ض

٣٠٤	صلاة التراويح
القسم الحادي عشر - صلوات أخرى	
٣٠٥	صلاة الاستسقاء
٣٠٥	صلاة الكسوف
الفصل الثاني: الزكاة	
٣٠٧	الزكاة أحد الواجبين الأساسيين للمسلم
٣٠٧	الصلاة لا تنفع صاحبها بدون الزكاة
٣٠٨	مفهوم الصدقة في الإسلام
٣٠٩	صدقة التطوع
٣١١	معنى الزكاة
٣١١	منزلة الزكاة في الإسلام
٣١٢	الزكاة ركن أساسي في كل الأديان السماوية
٣١٣	مشكلة توزيع الثروة
٣١٤	حل الإسلام لمشكلة توزيع الثروة
٣١٤	الزكاة فريضة تشرف على أدائها الدولة
٣١٥	الأموال التي تجب فيها الزكاة
٣١٦	النِّصَاب
٣١٧	المقدار الواجب
٣١٧	الزكاة في ظل الأوضاع المعاصرة
٣١٨	مصارف الزكاة
٣٢٠	جواز صرف الزكاة في الدفاع عن الإسلام ونشره
٣٢٠	الصدقات الأخرى الواجبة على الأمة الإسلامية
الفصل الثالث: الصوم	
٣٢٢	الصوم
٣٢٢	تشريع الصوم في الإسلام
٣٢٣	الصوم فرض على الأمم كافة
٣٢٣	الإسلام أكسب الصوم معنىً جديداً

٣٢٥	الصوم تهذيب للنفس
٣٢٦	الصوم تهذيب للأخلاق
٣٢٦	الفوائد الاجتماعية للصوم
٣٢٧	الفوائد الجسدية للصوم
٣٢٧	شهر رمضان
٣٢٨	اختيار شهر رمضان للصوم
٣٢٩	من يرخص لهم في الفطر
٣٣١	على من يجب الصيام
٣٣٢	صوم التطوع
٣٣٣	القيود المفروضة على صوم التطوع
٣٣٤	صوم الكفارة
٣٣٤	صوم الفدية
٣٣٥	صوم النذر
٣٣٥	وقت الصوم
٣٣٧	النية
٣٣٨	المُفطرات
٣٣٨	الجانب الأخلاقي للصوم
٣٤٠	الاعتكاف
٣٤٠	ليلة القدر
٣٤٢	الفصل الرابع: الحج
٣٤٢	آراء النقاد الأوروبيين بشأن إقرار الإسلام للحج
٣٤٤	إقرار حرمة مكة والكعبة في أوائل التنزيل
٣٤٤	أسباب عدم تحويل القبلة نحو الكعبة في وقت سابق
٣٤٥	متى بدأ تشريع الحج؟
٣٤٧	وصف الكعبة
٣٤٨	تاريخ الكعبة المشرفة
٣٥٠	المسجد الحرام
٣٥٠	الأدلة التاريخية على وجود الكعبة منذ قديم الزمان
٣٥٠	تاريخ شعائر الحج يرجع إلى عهد نبي الله إبراهيم

قائمة المحتويات

ظ

٣٥٢	الإسلام دعا إلى الزهد المقترن بالاهتمام بشؤون الدنيا
٣٥٢	الحج يزِيل الفوارق بين البشر
٣٥٣	الحج تجربة روحية أسمى
٣٥٤	على من يجب الحج؟
٣٥٥	العمرة
٣٥٦	الإحرام
٣٥٨	الميقات أو المٌهل
٣٥٨	الطواف
٣٥٩	الحجر الأسود
٣٦١	مغزى الطواف بالكعبة
٣٦١	مغزى تقبيل الحجر الأسود
٣٦٢	السعي
٣٦٣	الحج - التوجه إلى منى
٣٦٣	التوجه إلى عرفات والوقوف به
٣٦٤	المزدلفة
٣٦٤	يوم النحر في منى
٣٦٥	أيام التشريق
٣٦٥	رمي الجمار
٣٦٦	الأنشطة الأخرى المسموح بها في الحج
٣٦٨	الفصل الخامس: الجهاد
٣٦٨	معنى كلمة "الجهاد"
٣٦٩	استخدام كلمة "الجهاد" في السور المكية
٣٧٠	استخدام كلمة "الجهاد" في السور المدنية
٣٧١	استخدام كلمة "الجهاد" في الحديث
٣٧٢	استخدام الفقهاء لكلمة "الجهاد"
٣٧٢	نشر الإسلام بالقوة
٣٧٣	الظروف التي أُن فيها للمسلمين بالقتال
٣٧٥	ما يعرف "بآية السيف"
٣٧٦	شروط وقف القتال

٣٧٧	الإسلام يدعو للسلم
٣٨٠	الأحاديث الواردة بشأن القتال
٣٨٤	المفهوم الخاطئ للجهاد عند الفقهاء
٣٨٧	دار الحرب ودار الإسلام
٣٨٨	الجزية
٣٨٩	الجزية ليست ضريبة دينية
٣٩١	على من تجب الجزية؟
٣٩٢	الإسلام أو الجزية أو السيف
٣٩٣	الوصايا الخاصة بالقتال
٣٩٤	أسرى الحرب
٣٩٥	إلغاء الرق
٣٩٦	النهي عن الغدر والخيانة في الحرب كقتال
٣٩٨	الردة
٣٩٨	الردة في القرآن
٤٠٠	الأحاديث الواردة بشأن الردة
٤٠٢	الردة والفقهاء
٤٠٤	الفصل السادس: الزواج

القسم الأول - مغزى الزواج

٤٠٤	العبادات والمعاملات
٤٠٤	الحدود
٤٠٥	لا تحريم إلا بنص
٤٠٥	أهمية مؤسسة الزواج
٤٠٦	الزواج رباط بين نفسين هما في الأصل نفس واحدة
٤٠٧	الزواج وسيلة لتكاثر الجنس البشري
٤٠٧	الزواج يقوي مشاعر الحب والرغبة في مساعدة الآخرين
٤٠٨	الزواج و"العلاقات غير الشرعية"

قائمة المحتويات

بب

القسم الثاني - الأئحة المحرمة في الإسلام

٤٠٩	تحريم المتعة
٤١٢	المحرمات من النساء
٤١٣	زواج المسلمين بغير المسلمات

القسم الثالث - شكل وصحة الزواج

٤١٥	مقدمات الزواج
٤١٦	الخطبة
٤١٦	سن الزواج
٤١٨	أركان عقد الزواج
٤١٨	المهر
٤٢٠	نكاح الشغار
٤٢١	إشهار الزواج
٤٢١	خُطبة الزواج
٤٢٣	الإشهاد على الزواج
٤٢٣	الولاية
٤٢٤	الولاية في الزواج
٤٢٧	زواج الأكلفاء
٤٢٨	الشروط التي تفرض وقت الزواج
٤٢٨	تعدد الزوجات
٤٢٨	تعدد الزوجات استثناء

القسم الرابع - الحقوق والواجبات الزوجية

٤٣٢	مكانة المرأة بوجه عام
٤٣٢	مكانة المرأة كزوجة
٤٣٣	العلاقة بين الزوجين
٤٣٤	تقسيم العمل
٤٣٤	المرأة لم تستبعد من أي نشاط في مجالات الحياة
٤٣٥	الحقوق الزوجية
٤٣٦	القرآن أكد على معاشره الزوجه بالمعروف

٤٣٧	الإسلام أباح للزوج اتخاذ إجراءات أكثر صرامة ضد المرأة في حالة نشوزها
٤٣٨	عزلة المرأة
٤٣٩	النقاب
٤٤٠	احتشام الملبس
٤٤١	الخصوصية
٤٤٢	الاختلاط بين الجنسين

القسم الخامس - نكاح الرقيق

٤٤٣	الإسلام ألغى البغاء وأدخل الزواج
٤٤٣	الإسلام نهى عن التسري

القسم السادس - الطلاق

٤٤٨	الزواج والطلاق
٤٤٨	إباحة الطلاق في حالات استثنائية
٤٤٩	مبدأ الطلاق
٤٥٠	حق الزوجة في الطلاق
٤٥٢	حق الزوج في التطلق
٤٥٢	الطلاق أثناء المحيض
٤٥٣	العِدَّة
٤٥٣	الطلاق الرجعي
٤٥٤	الطلاق البائن
٤٥٤	الطلاق على ثلاثة أوجه
٤٥٥	التحايلات لإكساب الطلاق الرجعي صفة البينونة
٤٥٦	أثر الطلاق البائن
٤٥٦	زواج التحليل أو الحلالة
٤٥٧	إجراءات الطلاق
٤٥٧	الإيلاء
٤٥٨	الظَّهَار
٤٥٨	اللَّعَان
٤٥٩	آراء متسامحة حول الطلاق

قائمة المحتويات

دد

٤٦٠	الفصل السابع: اكتساب المال والتصرف فيه
٤٦٠	اكتساب المال الخاص
٤٦٠	وسائل كسب المال غير المشروعة
٤٦١	ما ورد في القرآن عن ممارسة حقوق التصرف في المال
٤٦٢	الخَجْر
٤٦٣	ولي الصغير
٤٦٣	الأمانة في البيع والشراء
٤٦٤	وصايا عامة بشأن معاملات البيع
٤٦٤	الرهن
٤٦٥	الوصية
٤٦٥	الهبة
٤٦٦	الوَقْف
٤٦٧	الفصل الثامن: الميراث
٤٦٧	الإصلاحات التي أدخلها الإسلام على المواريث
٤٦٨	تشريع المواريث كما ورد في القرآن
٤٧٣	رأي الأحناف في تشريع المواريث
٤٧٤	الديون
٤٧٤	الوصية
٤٧٧	الفصل التاسع: الديون
٤٧٧	كتابة الديون
٤٧٧	استحباب التيسير على المدينين
٤٧٨	التشديد على قضاء الديون
٤٧٨	التحذير من الاستدانة
٤٧٨	تحريم الربا
٤٧٩	علة التحريم
٤٧٩	الأحاديث الواردة بشأن الربا
٤٨٠	الفائدة
٤٨١	الودائع في المصارف أو سندات الخزنة الحكومية

٤٨١	الودائع المصرفية
٤٨٢	المصارف التعاونية
٤٨٢	الفائدة على رأس المال التجاري
٤٨٣	اقتراضات الدول

٤٨٤ الفصل العاشر: أحكام عامة

القسم الأول - الأطعمة

٤٨٤	الإسلام يحث على النظافة
٤٨٤	القواعد العامة للأطعمة
٤٨٥	استحباب الاعتدال في الطعام والشراب
٤٨٥	الأطعمة المحرمة
٤٨٧	التذكية
٤٨٧	التسمية على الذبيحة
٤٨٨	الصيد
٤٨٩	ما حُرِّمَ من الطعام في السنة والفقہ
٤٩٠	آداب الطعام
٤٩١	الضيافة

القسم الثاني - الأشرية

٤٩٢	المُسْكِرَات
-----	--------------

القسم الثالث - التزین

٤٩٤	استحباب التزین والنظافة
٤٩٤	اللباس

٤٩٧ الفصل الحادي عشر: الحدود

٤٩٧	الحدود
٤٩٧	القاعدة العامة للعقوبات
٤٩٨	عقوبة القتل

قائمة المحتويات

وو

٥٠٠	قتل الذمي
٥٠٠	تخفيف العقوبة في حالات القتل
٥٠١	حد الجزابة
٥٠١	حد السرقة
٥٠٣	حد الزنا
٥٠٣	الجلد
٥٠٤	الرجم في الشريعة اليهودية
٥٠٥	اتباع النبي (ص) تعاليم الشريعة اليهودية في البداية
٥٠٦	حد القذف
٥٠٧	حد شارب الخمر
٥٠٧	وصايا عامة لإقامة الحدود
٥٠٩	الفصل الثاني عشر: الدولة
٥١٧	الفصل الثالث عشر: الأخلاق
٥١٧	خدمة البشرية
٥١٨	الصدقة
٥٢٠	بناء شخصية المسلم
٥٢٤	السلوك الاجتماعي
٥٢٦	الحياة الأسرية
٥٢٨	العمل
٥٣٠	التحول الذي أحدثه النبي (ص) في حياة البشر

قائمة المراجع

القرآن الكريم - جميع الإشارات التي لم يذكر فيها اسم المرجع هي إشارات إلى القرآن الكريم، ويشير الرقم الأول إلى رقم السورة في حين يشير الرقم الثاني إلى رقم الآية.

الشريعة المحمدية، لأمير على

عجالة نافعة، شاه عبد العزيز من دلهي

سنن أبي داود*

تفسير البحر المحيط، لأبي عبد الله محمد بن يوسف، المعروف بأبي حيان، ط مطبعة السعادة، القاهرة، ٤ مجلدات.

مسند الإمام أحمد، للإمام أحمد بن محمد بن حنبل، ط مطبعة الميمنة بالقاهرة، ٦ مجلدات، ١٣٠٦هـ.

عمدة القاري، لبدر الدين محمود بن أحمد العيني، الحنفى، ط المطابع الأميرية، القاهرة.

عون المعبود على سنن أبي داود، لأبي عبد الرحمن شرف الحق، المعروف بمحمد أشرف، ط مطبعة الأنصاري، دلهي، ٤ مجلدات، ١٣١٨ هـ.

روح الإسلام، لأمير على، شركة إس. كيه لاهيرى وشركاه للنشر، كالكوتا، ١٩٠٢م.

مبادئ الفقه المحمدى، السيد/ عبد الرحيم، مطبعة جمعية نشر المعرفة المسيحية، مدراس، ١٩١١م.

الشريعة المحمدية في الزواج و الطلاق، أحمد شكرى.

تفسير البيضاوي، للقاضى البيضاوى، وفقاً لطبعة مطبعة المجتبائى، دلهي، مجلدان، ١٣٢٦هـ.

الكتاب المقدس، تذكر الإشارات إلى الكتب المختلفة بالطريقة المعتادة.

* عند الإشارة إلى جوامع الحديث، يشير الرقم الأول إلى رقم الكتاب والرقم الثاني إلى رقم الباب. وفي حالة كتب الحديث التي لا تنقسم إلى كتب وأبواب، وذلك هو الوضع أيضاً في التفسير وكتب أخرى، تتم الإشارة إلى الصفحات ويمثل الرقم الروماني رقم المجلد عندما يتكون الكتاب من أكثر من مجلد.

محمد والمحمدية، آر. بوسويرث سميث، الطبعة الثالثة، دار جون موراي المحدودة للنشر، شارع البمارل، لندن، ١٨٨٩.

كتاب السنن**، لأبي بكر أحمد بن الحسين المعروف بالبيهقي.

صحيح البخاري، للحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري

المسند، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالدارمي.

العاطفة أساس الحضارة، جيه.إتش. دينسون، نيويورك، لندن، ١٩٢٨م.

القاموس الإسلامى، لهوجو.

تفسير الإنجيل فى مجلد واحد، راجعه جيه. آر. داميلو، شركة ماكميلان المحدودة للنشر، ١٩١٣م.

الموسوعة البريطانية، الطبعة الحادية عشرة.

الموسوعة الإسلامية، دار إي . تي . بريل لبيدين لوزاك وشركاه للنشر، لندن.

الموسوعة اليهودية، شركة فانك آند واجنلز للنشر (نيويورك و لندن)، ١٩٠٤م

الفقه الأكبر، للإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، دار الكتب العربية الكبرى للنشر، القاهرة.

فتح الباري، للحافظ أبى الفضل شهاب الدين أحمد بن علي، ط المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣ مجلدًا.

فتح البيان فى مقاصد القرآن، للصديق بن حسن بن علي البخاري، ط المطابع الأميرية، القاهرة، ١٠ مجلدات، ١٣٠١ هـ.

فتاوى المجيري، مطبعة نوال كيشور، كوانبور، ٤ مجلدات.

الإسلام إلى أين؟، للبروفسور/ إتش.إيه.آر. جيب، لندن، ١٩٣٢.

الهداية، لأبى الحسن علي بن أبى بكر المرغنانى، ط مطبعة كيرزون (المجلد الأول)، دلهى وط مطبعة المجتبائى (المجلد الثانى)، دلهى، مجلدان، ١٩١٤م.

** الكتب التى توضع أمامها علامة النجمة قد تم الاعتماد عليها فى مصادر أخرى.

- أبحاث جديدة حول تركيب وتفسير القرآن، الناشر: الجمعية الملكية الآسيوية، لندن، ١٩٠٢.
- حجة الله البالغة، تأليف شاه ولي الله، محدث، دلفي، مطبعة صديقي، برايلي، ١٢٨٦هـ.
- نزهة الأنظار شرح نخبة الفكر، لابن حجر.
- فتح المغيث، لابن الجوزي.
- السيرة النبوية، لأبي محمد عبد الملك بن محمد بن هشام.
- جامع البيان في تفسير القرآن، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط مطبعة الميمنة، القاهرة، ٣٠ مجلداً.
- تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط مطبعة الحسينية، القاهرة، ١٢ مجلداً.
- تفسير ابن كثير، للحافظ عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ط المطابع الأميرية، القاهرة، ١٠ مجلدات، ١٣٠٠هـ.
- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني.
- الإصابة في تمييز الصحابة، لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، ط مطبعة السعادة، القاهرة، ٤ مجلدات، ١٣٢٣هـ.
- كتاب الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد، وفقاً للطبعة المطبوعة في لندن، ٨ مجلدات، ١٣٢٢هـ.
- يشير الرقم الروماني الصغير إلى الجزء.
- الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي، ط مطبعة الأزهر، القاهرة، مجلدان، ١٣١٨هـ.
- جمع الجوامع*، للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي.
- الجامع الصغير، للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، ط المطبعة الخيرية، القاهرة، مجلدان.
- كشف الأسرار، لعبد العزيز البخاري.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، للشيخ علاء الدين المتقي بن هشام الدين؛ يشير الرقم الثاني إلى رقم الحديث، وفقاً للطبعة المطبوعة في حيدر آباد، دكان، ١٣١٢هـ. بواطن الأمور وظواهرها في بلاد ما بين النهرين.

- لسان العرب، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم.
- مختارات من القرآن الكريم، إي. دبليو. لين.
- المعجم العربي الإنجليزي للين.
- صحيح مسلم، للإمام أبي حسين مسلم بن الحجاج.
- الموطأ، للإمام مالك أبي عبد الله مالك بن أنس بن عامر، مطبعة المجتباءى، دلهي ١٣٢٠هـ.
- الموضوعات، للملا على قاري، مطبعة المجتباءى، دلهي، ١٣١٥هـ.
- مفتاح السعادة، لمولى أحمد بن مصطفى، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، دكان.
- المواقف، للقاضي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، مطبعة السعادة، القاهرة، ٨ مجلدات.
- مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن إسماعيل بن علي الأشعري.
- مستدرك الحاكم، للحاكم.
- مشكاة المصابيح، للشيخ ولي الدين محمد بن عبد الله. يشير الرقم الثالث (المكتوب بالأرقام الرومانية الصغيرة) إلى رقم الفصل.
- مقدمة ابن خلدون، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، مطبعة التقدم، القاهرة، ١٣٢٩هـ.
- حياة محمد، للسير موير، دار سميث إدر وشركاه للنشر، ١٨٩٤.
- الخلافة
- النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف المبارك بن محمد بن محمد الجزري والمعروف بابن الأثير.
- نور الأنوار، للحافظ الشيخ أحمد، مطبعة المجتباءى، دلهي، ١٣٣١هـ.
- سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن علي النسائي.
- القرآن، إي. إتش. بالمر.
- القاموس، للعلامة الشيخ نصر الهوريني، مطبعة الميمنة، القاهرة.

إرشاد الساري، لأحمد بن محمد الخطيب القسطلاني، مطبعة نوال كيشور، كوانبور، ١٢٨٤هـ، ١٠ مجلدات.

المفردات في غريب القرآن، للإمام أبي القاسم الحسين بن أبي الفضل الراغب.

رد المحتار على الدر المختار، للشيخ محمد أمين، المعروف بابن عابدين.

الدين الإسلامي، تأليف القسيس كلين، مطبعة جمعية نشر المعرفة المسيحية، مدراس، ١٩٠٦.

التفسير الكبير، لمحمد فخر الدين الرازي، المطابع الأميرية، ١٣٠٧هـ، ٨ مجلدات.

القرآن، جي. سيل.

الدين الإسلامي، سيل.

تاج العروس، لأبي الفيض سيد محمد مرتضى الحسيني.

شرح ديوان الحماسة، للشيخ أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، ٤ مجلدات.

تاريخ الخلفاء، للشيخ جلال الدين السيوطي، المطابع الحكومية، لاهور، ١٨٧٠م.

الأسس اليهودية للدين الإسلامي، سي. سي. توري، نيويورك، ١٩٣٣.

جامع الترمذي، للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى.

الأحاديث النبوية الإسلامية، تأليف ألفريد جيوم، مطبعة كلاريندون، أوكسفورد، ١٩٢٤م.

الشرح على المواهب اللدنية، للعلامة محمد بن عبد الباقي الزرقاني، ٨ مجلدات.

زاد المعاد، للعلامة شمس الدين أبي عبد الملك المعروف بابن القيم، مطبعة الميمنة، القاهرة،

مقدمة

مقدمة

الإسلام لا المحمدية

أول ما يجدر بنا ملاحظته في أي مناقشة حول الدين الإسلامي هو أن اسم النظام ليس المحمدية، كما يُعتقد بوجه عام في الغرب، وإنما الإسلام. ومحمد (صلى الله عليه وسلم) هو اسم النبي الكريم الذي أنزل عليه هذا الدين، وأسماء الكتاب الأوروبيون المحمدية على اسمه، وذلك قياساً على أسماء مثل البوذية، والكونفوشيوسية، والمسيحية، وما شابه ذلك، إلا أن مسمى المحمدية لم يكن معروفاً على الإطلاق لمن اتبعوا الدين الإسلامي. ولم يرد ذكره في القرآن أو في أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم). وإنما اسم النظام كما ورد في القرآن هو الإسلام^١، ومن يتبعه يطلق عليه لفظ مسلم^٢. وبصرف النظر عن تسمية النظام على اسم مؤسسه، يطلق على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه وصف مسلم^٣، وفي الواقع، فإن كل نبي من أنبياء الله قد ورد ذكره في القرآن بوصفه مسلماً^٤، مما يدل على أن الإسلام هو الدين الحق الذي جاء ليهدي البشرية جمعاء، وأن جميع الأنبياء دعوا لهذا الدين بين أممهم المختلفة في مختلف العصور، وكان النبي محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام) خاتم الأنبياء والنموذج الأمثل للأنبياء.

^١ الترجمة العربية لفظ religion هي دين أو ملة، والمعنى الأصلي للفظ دين هو الطاعة والإثابة في حين أن الأصل المشتق منه لفظ ملة هو أملى. ولللفظ ملة إشارة خاصة إلى النبي الذي أنزل عليه الدين في حين يشير لفظ دين إلى الفرد الذي يعتقد هذا الدين (المفردات في غريب القرآن). ومن الألفاظ الأخرى التي تشير إلى الدين لفظ مذهب الذي لم يستخدم في القرآن. وكلمة مذهب مشتقة من الجذر ذهب، وكلمة مذهب تعني الطريق الذي يسلكه المرء فيما يتعلق بمبادئ وشعائر الدين أو تعني رأياً خاصاً بالدين (المعجم العربي - الإنجليزي). ووفقاً لبعض المراجع، يتم التعبير عن الفرق بين الألفاظ الثلاثة على النحو التالي: يستخدم لفظ دين للإشارة إلى الرب الذي أنزله، ولفظ ملة للإشارة إلى النبي الذي أنزل عليه، ولفظ مذهب للإشارة إلى المجتهد الذي يفسر هذا الدين. ومع ذلك، يحمل لفظ مذهب كما هو مستخدم في اللغة الأردنية أو الفارسية المعنى الأوسع للدين.

^٢ "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٣)). "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٩)).

^٣ "هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا" (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٧٨)). حيث يشير تعبير من قبل إلى النبوات السابقة ولفظ هذا إلى القرآن الكريم.

^٤ "وَأَنَّا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٦٣)).

^٥ "وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٣٢)). "إِنَّا أَنْزَلْنَا النُّزُورَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّزَائِيُونَ الْأَخْبَارُ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٤٤)).

دلالة لفظ الإسلام

يتميز الإسلام بين الأديان العظيمة في العالم بأنه يحمل اسماً له دلالات، فهو اسم يشير إلى جوهره. والمعنى الأصلي لكلمة إسلام هو الدخول في سلام^٦ والمسلم هو الفرد الذي يدخل في سلام مع ربه ومع أخيه الإنسان. والسلام مع الرب يعني الإذعان الكامل لإرادته، في حين أن السلام مع الإنسان لا يعني الكف عن إنزال الشر أو إلحاق الأذى بالآخرين فحسب؛ وإنما يعني أيضاً الإحسان إليهم؛ وقد تم التعبير عن هاتين الفكرتين في القرآن الكريم بوصفهما جوهر الدين الإسلامي: "بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١١٢)). وهكذا فالإسلام، في جوهره، هو دين السلام، ومبدأه الأساسي - وحدانية الرب ووحدانية الجنس البشري أو الأخوة بين أفراد - يقدمان دليلاً إيجابياً على تطابق جوهره مع اسمه. ولم يذكر أن الإسلام هو الدين الحق لجميع أنبياء الله فحسب، كما هو موضح أعلاه، وإنما أيضاً تدل نفس الكلمة أسلم على الإذعان الكامل للتقائمي للقوانين الإلهية الذي نشهده في الطبيعة. وهذا المعنى الأشمل نجده واضحاً أيضاً في الاستعمال الفقهي لكلمة أسلم لأن الإسلام شرعاً له معنى ذو شقين: أولاً، المجاهرة بالإيمان - شهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله" (الكلمة)، ثانياً، الإذعان الكامل للإرادة الإلهية الذي لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الكمال الروحي^٧. وهكذا فإن الشخص بمجرد قبوله الدين الإسلامي، أي حديث الدخول في الإسلام، يعتبر مسلماً وكذلك من أسلم وجهه تماماً للإرادة الإلهية وأطاع جميع الأوامر الإلهية.

مكانة الإسلام بين ديانات العالم

الإسلام هو آخر الأديان العظيمة - تلك الحركات العظيمة التي أحدثت انقلاباً في العالم وغيرت مصائر الأمم. وليس الإسلام خاتم الأديان فحسب وإنما هو دين شامل يحتوي في جوهره على جميع الأديان السماوية السابقة له. ومن أبرز خصائصه أنه يقتضي ممن يعتنقونه الإيمان بأن جميع الأديان السماوية العظيمة السابقة له قد أنزلها الله سبحانه وتعالى: "وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٤)).

^٦ الإسلام يعنى الدخول في السلم ويشير لفظاً التسلّم والسلم إلى السلام (المفردات في غريب القرآن). ويستخدم كلا اللفظين بمعنى السلام في القرآن الكريم.

^٧ "الإسلام شرعاً نوعان: الأول هو مجرد الإقرار باللسان... سواءً أكان أم لم يكن مصحوباً بالإيمان (أو التغيير الحقيقي) في القلب. والنوع الآخر هو الإيمان ويقصد به أنه بالإضافة إلى الإقرار باللسان، هناك الإيمان أو التغيير الحقيقي في القلب وأداء الشعائر الدينية والإذعان لله سبحانه وتعالى في كل أوامره أو أحكامه" (المفردات في غريب القرآن).

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٣٦)).

"أَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٨٥)).

وعليه، فإن المسلم لا يؤمن بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فحسب، وإنما يؤمن أيضاً بجميع أنبياء الله الآخرين. وقد أرسل أنبياء الله، كما جاء في تعاليم القرآن، إلى جميع الأمم: "وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ" (سورة فاطر (٣٥): الآية رقم (٢٤)). وبعبارة أخرى، لا يؤمن اليهودي إلا بأنبياء بني إسرائيل فقط؛ في حين أن المسيحي يؤمن بالمسيح عيسى وكذلك - بدرجة أقل - بأنبياء بني إسرائيل؛ ويؤمن البوذي ببوذا؛ والزرادشتي بزرادشت؛ والهندوسي بالأنبياء الذين ظهروا في الهند؛ والكونفوشيوسي بكونفوشيوس، ولكن المسلم يؤمن بجميع أنبياء الله وكذلك بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وهو خاتم الأنبياء. وعليه، فإن الإسلام دين شامل يحتوي داخله على جميع الأديان السماوية؛ وبالمثل فقد ذُكر عن كتابه المقدس، القرآن الكريم، أنه جامع لجميع الكتب المقدسة التي أنزلت على العالم: "صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ" (سورة البينة (٩٨): الآيتان رقماً (٢) و(٣)).

وعلاوةً على ذلك، هناك سمة أخرى للإسلام تجعل له مكانة بارزة بين الأديان. فبالإضافة إلى كونه خاتم وجامع الأديان، يعتبر الإسلام تعبيراً كاملاً عن الإرادة الإلهية. وهكذا ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٣)). وشأنه في ذلك شأن أشكال الوعي كافة، فقد تطور الوعي الديني لدى الإنسان ببطء وبالتدرج على مر العصور، وهكذا اكتمل نزول الحق العظيم من السماء في الإسلام. وتشير العبارة التالية لعيسى المسيح إلى هذا الحق العظيم: "مَا زَالَ عِنْدِي أُمُورٌ كَثِيرَةٌ أَقُولُهَا لَكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ الْآنَ تَعْجِزُونَ عَنِ احْتِمَالِهَا. وَلَكِنْ، عِنْدَمَا يَأْتِيكُمْ رُوحُ الْحَقِّ يُرْسِدُكُمْ إِلَيَّ إِلَى الْحَقِّ كُلِّهِ" (إنجيل يوحنا ١٦: ١٢، ١٣). ومن هنا، تتمثل رسالة الإسلام العظيمة في إشاعة السلام في العالم بإقامة روح الأخوة بين الأديان السماوية كافة، وفي الجمع بين جميع الحقائق الدينية الواردة فيها، وتصحيح الأخطاء التي وقعت عليها وانتقاء الصواب من الخطأ، ونشر الحقائق الأبدية التي لم يسبق نشرها بسبب الظروف الخاصة التي تعرض لها أي جنس بشري أو مجتمع في مراحل تطوره الأولى وأخيراً تلبية جميع المتطلبات الأخلاقية والروحانية لبشرية تشهد تقدماً مستمراً.

إدخال معنى جديد في الدين

بقدم الإسلام، اكتسب مفهوم الدين دلالات جديدة. أولاً، لم يعد الدين يعامل على أنه عقيدة يجب على الإنسان تقبلها إذا كان يرغب في النجاة من الهلاك الأبدي وإنما يعامل على أنه علم مبني على تجربة البشرية جمعاء. ولم تكن هناك أمة بعينها فضلها الله على باقي الأمم ونزل عليها الوحي الإلهي؛ بل على العكس، كان الوحي عاملاً ضرورياً في الارتقاء بالإنسان؛ وبالتالي، فبينما كان الوحي، في أبسط صوره، يمثل تجربة البشرية جمعاء كان في أسمى صوره، أي الوحي النبوي، بمثابة هبة إلهية أنعم الله بها على جميع الأمم. وقد عزز من فكرة الجانب العلمي في الدين عرض مبادئه كمبادئ للسلوك والعمل الإنساني. وما من مبدأ ديني إلا وجعل أساس العمل الإنساني الذي يهدف إلى الارتقاء بالإنسان إلى مراحل من الحياة أسمى وأسمى. ثانياً، لا يقتصر نطاق الدين على العالم الآخر فحسب؛ وإنما جعل اهتمامه الأساسي بالحياة الدنيوية لكي يتمكن الإنسان، من خلال الحياة القويمة على الأرض، من الوصول إلى إدراك وجود أسمى. ومن هنا، يتناول القرآن مجموعة متنوعة من الموضوعات ذات الصلة بحياة الإنسان في الدنيا. فالقرآن لم يتناول فحسب طرق التقوى، وصور العبادة، والوسائل التي تجعل الإنسان على صلة وثيقة بربه، وإنما يتناول أيضاً بمزيد من التفصيل مشكلات العالم المحيط بنا، والموضوعات ذات الصلة بالعلاقة بين الأفراد، وحياة الإنسان الاجتماعية والسياسية، وقواعد الزواج والطلاق والميراث، وتقسيم الثروة، وعلاقات العمل ورأس المال، وسير العدالة، والتنظيم العسكري والسلام والحرب، والأموال العامة والديون والعقود وقواعد خدمة الإنسانية وحتى معاملة الحيوانات، وقوانين مساعدة الفقراء والأيتام والأرامل، ومئات الموضوعات الأخرى التي يساعد فهمها الصحيح الإنسان على أن يحيا حياة هنيئة. ولم يضع القرآن قواعد تكفل تقدم الفرد فحسب، وإنما وضع أيضاً قواعد تكفل تقدم المجتمع بأسره والأمة والإنسانية جمعاء. وقد ألقى الضوء على المشكلات ذات الصلة لا بالعلاقات بين الأفراد فحسب، وإنما أيضاً بالعلاقات بين الأقوام والأمم المختلفة التي تنقسم إليها البشرية. ومن الصحيح أن الإسلام يعد الإنسان للحياة الأخرى ولكن من خلال تمكينه من تنظيم حياته في هذا العالم.

الدين قوة دافعة للتطور الأخلاقي للإنسان

يتمثل السؤال الذي يحير جميع العقول في يومنا هذا فيما إذا كان الدين في نهاية الأمر ضرورياً للبشرية. وإذا ألقينا نظرة سريعة على تاريخ الحضارة الإنسانية، فسوف يتبين لنا أن الدين ظل أعظم قوة أثرت في تطور الإنسانية حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن. وعليه، فهناك حقيقة ربما لا ينكرها حتى الملحد - وهي أن كل ما هو خير ونبييل في الإنسان مستلهم من الإيمان بربه. فإبراهيم وموسى

وعيسى ومحمد عليهم السلام، كل منهم تمكن، بدوره ومنزلته، من تغيير مجرى تاريخ الجنس البشري ورفعته من حالة التدهور إلى سمو أخلاقي لم يحلم به. ومن خلال تعاليم هذا النبي أو ذلك أصبح الإنسان قادراً على أن يتغلب على طبيعته المتدنية وأن يضع نصب عينيه أنبل المبادئ المتمثلة في نكران الذات وخدمة الإنسانية، وسوف يتبين لنا من دراسة المشاعر النبيلة التي تلهم الإنسان في يومنا هذا أن هذه المشاعر متأصلة في تعاليم ومُثل حكيم عظيم كان يؤمن إيماناً عميقاً بربه ومن خلاله غرست بذرة الإيمان في قلوب إنسانية أخرى. وإذا كان تطور الإنسان الأخلاقي والسلوكي إلى وضعه الحالي يرجع لأي سبب، فهو إنما يرجع إلى الدين. ويجب على الإنسانية أن تعرف ما إذا كانت المشاعر السامية التي تلهم الإنسان في يومنا هذا سوف تبقى بعد جيل أو جيلين من الإلحاد وما المشاعر التي سوف تخلفها وراءها المادية. وكما تدل جميع الظواهر، سوف يستتبع عهد المادية بالضرورة طغيان الأنانية لأن الخطة الروتينية التي تهدف لتقسيم الثروة بالمساواة لن تلهم المشاعر النبيلة التي هي مفخرة الإنسان في يومنا هذا والتي غرستها في كيانه قرون طويلة من اتباع تعاليم الدين. وإذا توقف الوازع الديني في يومنا هذا، عندئذ من المتوقع أن تتراجع الجماهير الجاهلة من العوام - وسوف تظل جماهير العوام دائماً جاهلة رغم أنها قد تكون قادرة على القراءة والكتابة - بالتدرج بالطبع إلى حالة من الهمجية في حين أنه حتى من يرون أنفسهم فوق مستوى عامة الناس لن يشعروا بعد بالإلهام بالمبادئ النبيلة والسامية التي لا يمكن أن يمنحها لهم إلا الإيمان بالله.

الإسلام أساس حضارة غير مندثرة

في الواقع، تقوم الحضارة الإنسانية، على النحو الذي نراها عليه اليوم، سواء كانت الفكرة تروى لك أم لا، على الدين. فقد مهد الدين الطريق أمام حالة التحضر التي أنقذت مراراً وتكراراً المجتمع الإنساني من حالة التمزق التي كانت تهدده. وإذا ما تتبعنا تاريخ الحضارة الإنسانية في أي مكان، سوف يتبين لنا أنه عندما كانت الحضارة توشك على الانهيار، كان يظهر دائماً حافز ديني جديد لإنقاذها من الاندثار. وليس الدليل الوحيد على ذلك أن أي حضارة، بتصوير لها البقاء، يمكن أن تقوم كُليةً على أساس أخلاقي، وأن الأخلاق الصادقة الرفيعة لا تستلهم إلا من الإيمان بالله، وإنما يدل أيضاً على ذلك أن الوحدة والتماسك بين العناصر الإنسانية المتضاربة، اللذين بدونهما يستحيل بقاء أي حضارة على وجه الأرض، يتحققان على أفضل نحو بفعل قوة الدين. وكثيراً ما يقال إن الدين مسؤول عن كثير من الكراهية وإراقة الدماء في العالم، ولكن لقاء نظرة سريعة على تاريخ الدين يثبت خطأ هذا التصور السخيف. فقد كان ولا زال الحب، والوئام، والشفقة، والإحسان إلى الآخرين هي رسالة جميع الأديان السماوية، وإنما تعلمت كل أمة هذه الدروس الأساسية خالصةً من الأخطاء من خلال روح نكران الذات وخدمة الإنسانية المستلهمة من الإيمان بالله. فإذا كان هناك أنانية، وكراهية،

وإراقة دماء في العالم، فكل هذا يحدث رغم وجود الدين، وليس نتيجة لرسالة الحب التي يحملها الدين. وتوجد هذه المشاعر في العالم لأن الطبيعة البشرية ميالة لهذه الأشياء، وإن كان وجودها يدل على شيء فإنما يدل على الحاجة لمزيد من الصحة الدينية وحاجة البشرية الماسة لإيمان أكثر صدقاً بالله. ولا يدل تحول الإنسان في بعض الأحيان إلى الأشياء الوضيعة عديمة القيمة على انعدام قيمة المشاعر الأكثر نبلاً وإنما يدل على الحاجة الأكثر إلحاحاً للارتقاء بهذه المشاعر.

الإسلام أعظم قوة قادرة على توحيد الجنس البشري في العالم

إذا كانت فكرة توحيد الجنس البشري هي الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه الحضارة الإنسانية التي لا يُقصد بها حضارة أمة واحدة أو بلد واحد فحسب وإنما حضارة البشرية جمعاء، فإن الإسلام بلا شك أعظم قوة متحضرة عرفها العالم حتى الآن أو من المحتمل أن يعرفها. ومنذ أربعة عشر قرناً، كان الإسلام هو الذي أنفذ البشرية من السقوط في هاوية المهجية، وجاء لمساعدة حضارة انهارت أسسها، وشرع في وضع أساس جديد لإنشاء صرح جديد تماماً من الثقافة والأخلاق. وأدخلت فكرة جديدة متعلقة بوحدة الجنس البشري أجمع وليس وحدة هذه الأمة أو تلك في العالم - وقد كانت فكرة قوية إلى درجة أنها ألغت بين الأمم المتحاربة بعضها مع بعض منذ بداية الخليقة. ولم تظهر هذه المعجزة^٨ العظيمة، كما أطلق عليها أحد الكتاب الإنجليز، في شبه الجزيرة العربية بين القبائل دائمة التناحر فحسب - وهي معجزة يتضاءل أمام عظمتها كل شيء إلى العدم. ولم تتجح هذه المعجزة في لم شمل القبائل المتحاربة في بلد واحد فحسب وإنما نجحت أيضاً في إقامة روح الأخوة بين أمم العالم كافة، بل إنها ألغت شمل من لم يكن بينهم شيء مشترك سوى إنسانيتهم المشتركة. بالإضافة إلى ذلك، نجح الإسلام في محو جميع فوارق اللون، والجنس، واللغة، والحدود الجغرافية، والثقافة. كما ألفت الإسلام بين الإنسان وأخيه وبدأت قلوب من يعيشون في الشرق الأقصى تخفق في انسجام مع قلوب من يعيشون في أقصى الغرب. وبالفعل، أثبت الإسلام أنه ليس فحسب أعظم القوى التي وحدت بين البشر، وإنما هو القوة الوحيدة التي تمكنت من التوحيد بينهم، ذلك أنه في الوقت الذي نجحت فيه الأديان الأخرى فقط في تحقيق نوع من التآلف بين العناصر المختلفة لجنس واحد، نجح الإسلام بالفعل في التوحيد بين أجناس عديدة والتأليف بين عناصر الإنسانية

^٨ كان من الصعب أن نجد قوماً أكثر تفككاً من قبائل شبه الجزيرة العربية إلى أن حدثت المعجزة فجأة. فقد ظهر رجل تمكن بشخصيته وبما قاله عن تلقيه الهدي الإلهي المباشر من صنع المستحيل - أي التأليف بين كل هذه الأطراف المتحاربة" (بواطن الأمور وظواهرها في بلاد ما بين النهرين، ص. ٩٩).

المتضاربة المتنافرة. ويبرهن على مدى عظمة هذه القوة في إعادة الحضارة المفقودة للإنسان ما كتبه أحد الكتاب الأوروبيين^٩:

"في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، كان العالم المتحضر يقف على حافة الفوضى. ذلك أن الثقافات العاطفية القديمة التي مهدت الطريق أمام الحضارة - لأنها منحت للإنسان الشعور بالائتلاف مع غيره والاحترام لحكامه - قد انهارت ولم يوجد شيء مناسب ليحل محلها...

"وبدا حينئذ أن صرح الحضارة العظيمة الذي استغرق تشييده أربعة آلاف عام من الزمان على شفا الانهيار وأن البشرية من المحتمل أن تعود إلى حالة من الهمجية حيث كانت القبائل والعشائر تتحارب بعضها مع بعض ولم يكن القانون والنظام معروفين... وفقد الوازع القبلي القديم قوته... وأفرز الوازع الجديد الذي خلقته المسيحية في نفس الإنسان الانقسام والهدم بدلاً من الوحدة والنظام... ووقفت الحضارة أشبه بشجرة عملاقة امتدت أوراقها إلى أبعد مدى في العالم ووقفت مترنحة... متعطبة في الصميم... فهل كانت هناك أي ثقافة عاطفية في إمكانها لم شمل البشرية مرة أخرى وإنقاذ الحضارة من الانهيار؟"

ويضيف المؤلف المتبحر متحدثاً عن شبه الجزيرة العربية قائلاً إنه "بين هؤلاء القوم وُلد الرجل الذي تمكن من لم شمل شعوب العالم المعروف أجمع في الشرق والجنوب".^{١٠}

الإسلام أعظم قوة روحية في العالم

وهكذا وضع الإسلام أساساً للتآلف بين الجنس البشري لم يحلم به قط أي مصلح أو دين آخر؛ وأخوة بين البشر لا تعرف حدود اللون أو الجنس أو الدولة أو اللغة أو حتى المكانة؛ هذا فضلاً

^٩ جيه. إتش. دنيسون، العاطفة أساس الحضارة، ص. ٢٦٥-٢٦٨.

^{١٠} جيه. إتش. دنيسون، العاطفة أساس الحضارة، ص. ٢٩٦.

عما وضعه من أساس لوحدة الجنس البشري لا يمكن أن يتصوره البشر. واعترف الإسلام بالمساواة ليس فحسب في الحقوق المدنية والسياسية للأفراد وإنما أيضاً في حقوقهم الروحانية. ومن هنا كان المبدأ الأساسي الذي قام عليه الإسلام هو "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢١٣)) ولهذا السبب من المعترف به أن كل أمة نزلت عليها الهبة الروحانية المتمثلة في الوحي. على أن إرساء روح الأخوة بين جميع البشر على نطاق واسع لم يكن هو الإنجاز الوحيد للإسلام.. وإنما كان على نفس القدر من العظمة التحول غير المسبوق الذي أحدثه الإسلام في العالم؛ لأنه أثبت أنه قوة روحانية لم يعرف الجنس البشري مثيلاً لها. فقد نجح الإسلام في إحداث تحول إجازي في أحوال العالم في فترة زمنية قصيرة لا يصدقها عقل. فقد تمكن من القضاء على الخرافات الدينية، والجهل المطبق، والانحلال الأخلاقي الشديد، والعادات الشريرة القديمة التي دامت قرونًا عديدة، في حوالي عقدين من الزمان. ولا يمكن إنكار انتصاراته الروحانية التي لم يكن لها مثل عبر التاريخ، وبسبب التحول الروحاني غير المسبوق الذي أحدثه النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، تم الإقرار بأنه "أكثر الأنبياء والشخصيات الدينية نجاحًا" (دائرة المعارف البريطانية، مقال حول القرآن الكريم).

الإسلام يقدم الحل لمشكلات العالم الكبرى

يستحق الإسلام اهتمام كل مفكر ليس لكونه أكثر قوة متحضرة وأعظم قوة روحانية عرفها العالم فحسب، وإنما أيضاً لأنه يقدم حلاً للمشكلات العويصة التي تواجه البشرية في يومنا هذا. فالمادية التي أصبحت مبدأ الجنس البشري في العصور الحديثة لا يمكن أن تحقق أبداً السلام والثقة المتبادلة بين شعوب العالم. وفشلت المسيحية في القضاء على أوجه التحيز القائم على الجنس واللون. في حين أن الإسلام هو القوة الوحيدة التي نجحت بالفعل في القضاء على أوجه التمييز بين الأجناس، ومن خلال الإسلام فقط يمكن حل هذه المشكلة الكبرى التي تواجه عالمنا المعاصر. فالإسلام، أولاً وقبل كل شيء، دين عالمي، و فقط أمام مبدئه العالمي العظيم - مبدأ المساواة بين جميع الأجناس ووحدة الجنس البشري - يمكن القضاء على لعنة القومية التي كانت وما زالت مسؤولة عن متاعب العالم القديم والحديث. ولكن حتى داخل حدود الأمة أو الدولة الواحدة لا يمكن أن يتحقق السلام إذا لم يتم التوصل إلى حل عادل للمشكلتين الكبيرتين المتمثلتين في الثروة والجنس. فقد ذهبت أوروبا في اتجاهين متطرفين إلى أبعد حد فيما يتعلق بقضية الثروة - الرأسمالية والبلشفية. فهناك الاتجاه إما إلى تركيز الثروة بين الرأسماليين الكبار أو إلى المساواة بين الكسالى والمجددين عن طريق الملكية المشتركة للثروة. أما الإسلام فيقدم الحل الحقيقي لهذه المشكلة عن طريق ضمان حصول العامل على أجر نظير عمله، سواء أكان كبيراً أم زهيداً، حسب

جدارة العمل وأيضاً عن طريق تخصيص نصيب للفقراء من ثروة الأغنياء. وهكذا، فرغم الحفاظ على حقوق الملكية بمعناها الحقيقي، فإنه تم عمل ترتيب يهدف لتساوي الأوضاع عن طريق أخذ جزء من ثروة الأغنياء وتوزيعه بين الفقراء وفقاً لمبدأ الزكاة (وهي صدقة واجبة)، وكذلك عن طريق تقسيم الممتلكات بالتساوي تقريباً بين الورثة عند وفاة صاحبها. ولذا، علق أحد المستشرقين الأوروبيين في خاتمة كتابه قائلاً:

"في العالم الغربي، مازال الإسلام يحافظ على التوازن بين الأضداد المبالغ فيها. ومعارضة منه على حد سواء للفوضى المترتبة على القومية الأوروبية ونظام التكتيب المرتبط بالشيوعية الروسية، لم يستسلم الإسلام لتسلط الجانب الاقتصادي على الحياة، الذي أصبح معهوداً في أوروبا وروسيا على حد سواء في يومنا هذا. وقد لخص البروفسور/ ماسينون بأسلوب مثير للإعجاب القيم الاجتماعية للدين الإسلامي: "يتميز الإسلام بتأييد مفهوم قائم على المساواة بين البشر يتمثل في مساهمة كل مواطن بالعيش في موارد المجتمع؛ ويعارض الإسلام نظام سعر الصرف الحر، ورؤوس الأموال البنكية، وقروض الدولة، والضرائب غير المباشرة على أشياء ذات ضرورة أساسية، ولكنه يتمسك بحقوق الأب والزوج، والملكية الخاصة، ورأس المال التجاري. وفي هذا الصدد، يأخذ الإسلام مرة أخرى موقفاً وسطاً بين مذهب الرأسمالية البرجوازية ومذهب الشيوعية البلشفية."^{١١}

وبالمثل، يعتبر حل الإسلام لمشكلة الجنس هو الحل الوحيد الذي يضمن الهدوء في النهاية للأسرة. ففي الإسلام، ليست هناك علاقات جنسية بلا زواج تؤدي إلى تفكك جميع أواصر العلاقات الاجتماعية، وليس هناك الرباط الذي لا يُحل بين الرجل والمرأة والذي يحول بيوتاً كثيرة إلى جهنم حقيقية. وبحل هذه المشاكل ومئات المشاكل الأخرى، يمكن للإسلام - كما يدل اسمه - أن يحقق السعادة الحقيقية للجنس البشري.

^{١١} إتش. إيه. آر. جيب، إلى أين الإسلام؟ ص. ٣٧٨-٣٧٩.

المفاهيم الخاطئة الكامنة وراء الحركة المعادية للدين

تقوم الحركة المعادية للدين المتأصلة جذورها في روسيا على مفهوم خاطئ عن طبيعة الدين الإسلامي. وتتمثل الاعتراضات الثلاثة الرئيسية على الدين فيما يلي:

— أن الدين يساعد على الحفاظ على النظام الاجتماعي الحالي الذي أثمر الرأسمالية بما يترتب عليها من سحق لطموحات الفقراء.

— أنه يجعل الأفراد عرضة للخرافة مما يعرقل مسيرة تقدمها العلمي.

— أنه يعلمهم الصلاة من أجل تلبية احتياجاتهم بدلاً من العمل لتبليتها مما يحولهم إلى أفراد كسالى^{١١}.

وفيما يتعلق بالإسلام، فإن الحقائق منافية تماماً لهذه الادعاءات، فقد جاء الإسلام كصديق للفقراء والمحرومين، ونجح في الواقع في تحقيق إعلاء لشأن الفقراء لم يقدم التاريخ مثيلاً له. فقد رفع الأفراد من أدنى درجات السلم الاجتماعي إلى أعلى مكانة في الحياة، وجعل من العبيد لا قادة في الفكر والعقلية فحسب بل ملوكاً فعليين. ونظامه الاجتماعي نظام يقوم على مساواة لم تتصورها حقاً أي أمة أو مجتمع آخر. ووضع الإسلام من بين مبادئه الأساسية مبدأ مفاده أنه للفقراء حق معلوم في ثروة الأغنياء، حق يمارس من خلال الدولة التي تجمع سنوياً ربع العشر من الثروة التي يكسبها الأغنياء لتوزيعها بين الفقراء.

أما الادعاء الثاني بأن الدين يعوق مسيرة تقدم العلم والمعرفة فلا أساس له من الصحة أيضاً، فقد أعطى الإسلام دفعة للمعرفة في بلد لم يكن قط مركزاً للمعرفة وكان غارقاً في ظلام الخرافة. وحتى إذا رجعنا إلى الوراثة إلى عصر خلافة عمر (٦٣٤ - ٦٤٤ م)، فإننا نجد أن الدولة الإسلامية قامت بمهمة تعليم عامة الناس في الوقت الذي حمل فيه المسلمون شعلة المعرفة إلى كل بلد حققوا فيه الهيمنة السياسية؛ وظهرت المدارس والكليات والجامعات في كل مكان نتيجة للفتح الإسلامي، وليس من المبالغة أن نقول إنه من خلال الدين الإسلامي حدثت حركة النهضة في أوروبا.

والادعاء الثالث بأن الدين يحول الأفراد إلى كسالى بتعليمهم الصلاة من أجل تلبية احتياجاتهم فقد دحضه أيضاً تاريخ الإسلام. فالقرآن لا يعلم الأفراد فحسب العمل بجد من أجل النجاح في

^{١١} كما تم تلخيصه في كتاب العاطفة أساس الحضارات، ص. ٥٠٦.

الحياة ويؤكد في عبارات واضحة " أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى " (سورة النجم (٥٣): الآية رقم (٣٩))، وإنما أيضاً جعل بالفعل من العرب - أكثر أمة متخلفة آنذاك - أمة لديها قادة عظام في جميع مراحل الحياة. ولم تحدث هذه الثورة الكبرى إلا نتيجة لإيقاظ الرغبة في العمل والتحمس للسعي الجاد في نفوس العرب. فالإسلام يعلم الإنسان الصلاة ولكنها صلاة لا تهدف إلى جعله متواكلاً وإنما إلى إعداده لمزيد من الجد في الكفاح ومواصلة هذا الكفاح، رغم الفشل وخيبة الأمل، عن طريق الاتجاه إلى الله مصدر كل قوة. وهكذا، فالصلاة في الإسلام ما هي إلا حافز على العمل وليست عقبة تعترض طريقه.

الجزء الأول
مصادر الإسلام

الفصل الأول

القرآن الكريم

كيف ومتى نزل القرآن؟

يتمثل المصدر الأصلي^١ المستمدة منه جميع مبادئ وأحكام الإسلام في الكتاب الكريم الذي يطلق عليه اسم القرآن^٢. ويذكر اسم القرآن مراراً وتكراراً في الكتاب ذاته^٣ الذي يذكر فيه أيضاً على

^١ يذكر بوجه عام أن المصادر المستمدة منها مبادئ وأحكام الإسلام أربعة؛ هي: القرآن، والسنة النبوية أو الأحاديث الشريفة (أفعال وأقوال النبي محمد صلى الله عليه وسلم المحفوظة في جوامع الحديث)، والإجماع أو إجماع مجتمع المسلمين، والقياس. ويطلق على أول مصدرين لفظ الأدلة القطعية في حين يطلق على آخر مصدرين لفظ الأدلة الاجتهادية. إلا أنه نظراً لأن مصدري الإجماع والقياس بينيان حقاً على القرآن والحديث، والحديث نفسه ليس إلا تفسيراً للقرآن، كما سيذكر فيما بعد، لذا يعتبر القرآن بالفعل هو الأساس الحقيقي الذي تبنى عليه كل البنية الفوقية للإسلام، ونظراً لأن القرآن هو المرجع الوحيد المطلق والنهائي في كل مناقشة تدور حول مبادئ وشرائع الإسلام، لذا من الصواب تماماً أن نقول إن القرآن هو المصدر الوحيد المستمدة منه جميع تعاليم وشعائر الدين الإسلامي.

^٢ كلمة قرآن هي اسم مصدر مشتق من الأصل قرأ الذي يعني في الأصل جمع الأشياء معا (لسان العرب). كما تعني الكلمة أيضاً: قرأ أو تلا لأنه في القراءة أو التلاوة تجمع الحروف والكلمات معاً بترتيب معين (المفردات في غريب القرآن). ووفقاً لبعض المراجع، ترجع تسمية هذا الكتاب بالقرآن من بين الكتب السماوية إلى أنه يجمع ثمرات جميع الكتب السماوية المنزلة من عند الله، وبالأحرى إلى أنه جامع لثمار جميع العلوم، وهو ما يشار إليه في عبارة "بَيِّنَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ" (المفردات في غريب القرآن). كما تعني الكلمة أيضاً كتاباً يقرأ أو ينبغي قراءته يحتوي على إشارة تنبؤية إلى أنه سوف يصبح أكثر الكتب المقروءة (دائرة المعارف البريطانية) في شتى أنحاء العالم. وقد ورد ذكر القرآن في كتابه الكريم بعدة أسماء أخرى. حيث يطلق عليه اسم الكتاب (سورة البقرة (٢): الآية رقم ٢) الذي يعني كتاباً جامعاً وفيها بذاته؛ أو الفرقان (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم ١) أي الفرق بين الصواب والخطأ وبين الحق والباطل، أو الذكر؛ أو التذكرة (سورة الحجر (١٥): الآية رقم ٩) أي التذكرة أو مصدر علو شأن الإنسان ومجده؛ أو التنزيل (سورة الشعراء (٢٦): الآية رقم ١٩٢) أي التنزيل من العلي القدير؛ أو أحسن الحديث (سورة الزمر (٣٩): الآية رقم ٢٣)؛ أو الموعظة (سورة يونس (١٠): الآية رقم ٥٧)؛ أو الحكم (سورة الرعد (١٣): الآية رقم ٣٧)؛ أو الحكمة (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم ٣٩)؛ أو الشفاء (سورة يونس (١٠): الآية رقم ٧٥)، أو الهدى (سورة الجن (٧٢): الآية رقم ١٣)، أو الرحمة (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم ٨٢)؛ أو الخير (سورة آل عمران (٣): الآية رقم ١٠٣)؛ أو الروح (سورة الشورى (٤٢): الآية رقم ٥٢) أي الروح أو الحياة؛ أو البيان (سورة آل عمران (٣): الآية رقم ١٣٧)؛ أو النعمة (سورة الضحى (٩٣): الآية رقم ١١)؛ أو البرهان (سورة النساء (٤): الآية رقم ١٧٥)؛ أو القيم (سورة الكهف (١٨): الآية رقم ٢)؛ أو المهيمن (سورة المائدة (٥): الآية رقم ٤٨)؛ أو النور (سورة الأعراف (٧): الآية رقم ١٥٧)؛ أو الحق (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم ٨١). بالإضافة إلى ذلك، يشار إلى القرآن بعدة أسماء أخرى؛ كما يوجد أيضاً عدد كبير من الصفات التي تستخدم معه. فعلى سبيل المثال، يشار إليه بصفة كريم (سورة الواقعة (٥٦): الآية رقم ٧٧)؛ أو مجيد (سورة البروج (٨٥): الآية رقم ٢١)؛ أو حكيم (سورة يس (٣٦): الآية رقم ٢٢)؛ أو مبارك (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم ٥٠) (ترجمته الحرفية: شيء لا يمنع أبداً خيره)؛ أو مبين (سورة يوسف (١٢): الآية رقم ١) أو الذي يجعل الأشياء بينة؛ أو علي (سورة الزخرف (٤٣): الآية رقم ٤)؛ أو فصل (سورة الطارق (٨٦): الآية رقم ١٣)؛ أو عظيم (سورة الحجر (١٥): الآية رقم ٨٧) أي عظيم الشأن؛ أو مكرم أو مرفوع أو مطهرة (سورة عبس (٨٠): الآيات رقم ١٣) و(٤)؛ أو متشابه (سورة الزمر (٣٩): الآية رقم ٢٣) أي أنه لا اختلاف بين أجزائه العديدة.

^٣ (سورة البقرة (٢): الآية (١٨٥)؛ (سورة يونس (١٠): الآيات رقم ٣٧) و(٦١)؛ (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (١٠٦))، وخلافه.

من نزل القرآن، وكيفية وأسباب نزوله، والوقت الذي نزل فيه هذا بالإضافة إلى اللغة التي نزل بها. وقد نزل القرآن على محمد (صلى الله عليه وسلم): "وَأَمُّوْا بِمَا نَزَّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ" (سورة محمد (٤٧): الآية رقم (٢)). بالإضافة إلى ذلك، أنزل القرآن في شهر رمضان في ليلة معينة أطلق عليها منذ ذلك الحين اسم ليلة القدر^٤: "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٥))؛ "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ" (سورة الدخان (٤٤): الآية رقم (٣))؛ "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ" (سورة القدر (٩٧): الآية رقم (١))، وقد نزل القرآن باللغة العربية: "فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" (سورة الدخان (٤٤): الآية رقم (٥٨))؛ "إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (سورة الزخرف (٤٣): الآية رقم (٣)). كما نزل القرآن مفرداً على أجزاء حيث كان كل جزء يكتب ويحفظ في الصدور بمجرد نزوله وجاء منجماً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً من حياة النبي (عليه الصلاة والسلام) لم ينشغل خلالها إلا بإصلاح أحوال البشرية الغارقة في الظلمات "وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُتِّ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (١٠٦)). ولم يكن النبي (صلى الله عليه وسلم) هو الذي تكلم تحت تأثير روح القدس؛ وإنما كانت رسالة إلهية حملها الملك جبريل^٥ ووصلها بكلمات إلى النبي الذي بلغها بدوره للبشرية: "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ." (سورة الشعراء (٢٦): الآيات (١٩٢-١٩٥))؛ "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٩٧))؛ "قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (١٠٢)).

^٤ ليلة القدر هي واحدة من ثلاث ليالٍ في شهر رمضان: إما ليلة الخامس والعشرين أو السابع والعشرين أو التاسع والعشرين، أي الليلة السابقة لأي من هذه التواريخ (صحيح البخاري ٣٢: ٤). وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم)، عندما نزل عليه الوحي أول مرة، في الأربعين من عمره.

^٥ من الجدير بالملاحظة أن القرآن يستخدم كلمتي روح القدس وجبريل بالتبادل. وفي إحدى الروايات التي تتحدث عن بدء نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، يطلق على الملك الذي نزل بالوحي اسم الناموس الأكبر ويعني لفظ الناموس الملك المؤمن على الأسرار الإلهية (النهاية في غريب الحديث والأثر)؛ وبالطبع يقصد بالأسرار الإلهية الرسالات السماوية التي أرسلت إلى البشرية من خلال أنبياء الله. وتضيف نفس الرواية أنه كان نفس الملك الذي نزل بالوحي على موسى. وهكذا يوضح القرآن والرواية معاً أن الملك جبريل الذي يطلق عليه أيضاً اسم روح القدس أو الروح الأمين أو الناموس الأكبر هو الذي نزل بالوحي الإلهي على النبي وعلى الأنبياء من قبله، مما يبدد جميع الشكوك حول المقصود بروح القدس في الإسلام؛ ويحمل مصطلح روح القدس نفس المعنى في الأسفار التي نزلت على أنبياء العهد القديم وكذلك في الإنجيل الذي نزل على عيسى المسيح.. ورغم أنه من الصحيح أنه لم يكن مفهوم روح القدس في الأديان الأخرى بنفس وضوحه في الدين الإسلامي، إلا أنه من الصحيح أيضاً أن المفهوم المسيحي التقليدي للروح القدس لم يكن معروفاً على الإطلاق للعقلية اليهودية، وفي هذا الصدد من الجدير بالذكر أن عيسى المسيح كان يهودياً حقاً حيث كانت مفرداته مأخوذة بالكامل من اليهود. وفي مصطلحات العهد القديم، نجد أن الصيغة المستخدمة هي الروح أو روح الله. وفي المزامير (٥١: ١١) وفي سفر اشعيا (٦٣: ١٠، ١١)، كانت الصيغة المستخدمة هي الروح القدس التي هي أيضاً الصيغة المستخدمة في التلمود والمدراش (التفسير اليهودي التقليدي للتوراة). في حين أن مصطلح الطيف القدس من المصطلحات الخاصة بكتاب العهد الجديد. وكان اليهود ينظرون إلى الروح القدس على أنه أحد الأشياء المخلوقة؛ فقد كان من بين العشرة أشياء التي خلقت في اليوم الأول (دائرة المعارف اليهودية). وتوصف وظيفة الروح القدس في السطور التالية:

القرآن أسمى صور الوحي

رغم أن القرآن نزل منجماً بواسطة جبريل، إلا أن الوحي كله يعتبر كلاً كاملاً نزل بنفس الطريقة. ويأتي الوحي، كما ورد في القرآن، للبشر في ثلاث صور: "وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ" (سورة الشورى (٤٢): الآية رقم (٥١)). ويطلق على أول هذه الصور الثلاث اسم الوحي. ونظراً للحديث في هذه الآية عن أنواع الوحي المختلفة، لذا من الواضح أن كلمة وحي تستخدم بمعناها الحرفي، ومعناها الأصلي هو الإشارة السريعة (المفردات في غريب القرآن). ومن ثم، يطلق على الكلمة الموحى بها، التي تدخل قلوب الأنبياء والصالحين، لفظ الوحي لأنها تشبه الإشارة المفاجئة التي تدخل مباشرة قلب الموحى له (اللقاء في الروح). وليس الوحي رسالة معبراً عنها في كلمات وإنما مجرد فكرة تأتي مثل الوميض فتبدد الشك أو تذلّل الصعاب كما أنه ليس نتاج تأمل^٦، أما الصورة الثانية من صور الوحي فيذكر

"النتائج الواضحة لنشاط الروح القدس، وفقاً للمفهوم اليهودي، هي كتب الإنجيل التي تم تأليفها جميعاً بوحى منه. فقد تكلم جميع الأنبياء "بالروح القدس" وأبرز دليل على وجود الروح القدس هو هبة النبوة بمعنى أن الشخص الذي يستحوذ عليه الروح القدس يرى الماضي والمستقبل. ويموت آخر ثلاثة أنبياء - حجي وزكريا، وملاخي - توقف الروح القدس عن الظهور في بني إسرائيل" (دائرة المعارف اليهودية). ومما سبق يتضح لنا أن المفهوم اليهودي للروح القدس هو أن الروح ينزل بالوحي على الأنبياء، والفرق الوحيد بين هذا المفهوم والمفهوم الإسلامي هو أن المفهوم الإسلامي ينظر إلى كلمات الوحي على أنها نابعة من مصدر إلهي في حين أن المفهوم الأول يرى هذه الكلمات - بكل وضوح - على أنها كلمات النبي التي يتحدث بها تحت تأثير الروح القدس. وقد استعمل عيسى المسيح والحواريون الكلمة بنفس المعنى بالضبط. وقد جاءت تجربة عيسى الأولى للروح القدس الذي ظهر في شكل حمامة نتيجة لتعميد يوحنا المعمدان له (متى ٣: ١٦) مما يبدو أنه يوضح ارتباط الروح القدس بمرحلة معينة في التطور الروحاني للإنسان. ومن ذلك يتضح لنا أن الروح القدس لم ينزل على عيسى حتى تم تعميده. ونجد فكرة شكل الروح القدس الشبيه بالحمامة أيضاً في الكتابات اليهودية. علاوة على ذلك، يتحدث عيسى المسيح عن الروح القدس بأنه ينزل بالوحي على عباد الله الصالحين: "إِذَنْ، كَيْفَ يَدْعُوهُ دَاوُدُ بِالرُّوحِ رَبًّا لَهُ" (متى ٢٢: ٤٣)؛ "فَإِنَّ دَاوُدَ نَفْسَهُ قَالَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ" (مزمور ١٢: ٣٦)؛ "يَهْبُ الرُّوحُ الْقُدُسُ لِمَنْ يَسْأَلُونَهُ؟" (لوقا ١١: ١٣). وحتى تجربة الحواريين الأولى للروح القدس تعتبر تكراراً لما ورد في الأثر اليهودي القديم. وهناك نجد الروح تأتي بـ "صَوْتٍ زَلْزَلَةٍ عَنيفَةٍ" (حزقيال ٣: ١٢)، وهكذا ففي حالة حواربي عيسى "فَجَاءَ حَذْثٌ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ ذَوِي رِيحٍ عَاصِفَةٍ" (أعمال الرسل: ٢: ٢). وهكذا يتضح لنا أن الروح القدس كما تصوره عيسى عليه السلام والحواريون كان هو نفس الروح القدس الذي نزل على أنبياء العهد القديم، وهو مفهوم يكاد أيضاً يكون مماثلاً لمفهوم روح القدس في الإسلام وبذلك لم تظهر النظرة المسيحية التقليدية للروح على أنه أحد الأضلاع الثلاثة للثالوث المقدس، وأنه مشارك لله في الأبديّة، لم تظهر هذه النظرة إلا مؤخراً.

^٦ يقترح راغب تفسيراً مختلفاً اختلافاً طفيفاً. حيث يجعل الوحي لا يشمل الوحي أو الإشارة التي تلقى في القلوب فحسب وإنما أيضاً التسخير، أي جعل شيء ما يتبع مسلكاً معيناً وفقاً لقوانين الطبيعة، ومن أمثلة ذلك الوحي إلى النحل (سورة النحل (١٦): الآية رقم (٦٨))، والنام، أي الأحلام. في حين يرى راغب أن ثاني صور الوحي، أي التحدث من وراء حجاب، تنطبق على حالة موسى عليه السلام الذي يعتقد أن الله سبحانه وتعالى كلمه بطريقة مختلفة عن الطريقة التي كلم بها الأنبياء الآخرين، أي كلمه دون أن يراه موسى عليه السلام. والآن، فيما يتعلق بالوحي إلى النحل، نجد أن هناك خطأ واضحاً لأن الآية لم تذكر إلا الطريقة التي يكلم بها الله البشر. كما أن العبارة المتعلّقة بنوع الوحي الذي نزل على موسى خاطئة أيضاً لأن القرآن يعلن بعبارات واضحة أن الوحي نزل على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بنفس الطريقة التي نزل بها على الأنبياء من قبله بمن فيهم موسى عليه السلام: "إِنَّا أَوْحَيْنَا

أنها التحدث من وراء حجاب - حيث يرى الموحى له مشهداً يحمل دلالة أعمق كما لو كان يراه في كشف أو في رؤيا أو يسمع الشخص المتحدث إليه كلمات كما لو كانت تصدر من وراء حجاب. في حين أن الصورة الثالثة من صور الوحي تتمثل في الوحي الذي يرسل فيه الملك الذي يحمل الرسالة إلى متلقي الوحي الإلهي، وتنتقل الرسالة في صورة كلمات، وهذه هي أسمى صور الوحي. وكما سبق ذكره، فإن الملك المؤمن على الرسالة السماوية المنقولة في شكل كلمات هو جبريل أو روح القدس، وهذا النوع الثالث من الوحي يقتصر على أنبياء الله فقط - الرجال المكلفين بتبليغ رسالات سماوية هامة للبشرية - في حين أن أول نوعين من الوحي الأدنى مرتبة مألوفان بين الأنبياء وغير الأنبياء. ومن أجل نقل رسالة أسمى متعلقة بخير الإنسانية، يتم اختيار صورة أسمى من صور الوحي، صورة لا تكون فيها الرسالة مجرد فكرة فحسب وإنما يعبر عنها بالكلمات. إن قدرة النبي على تلقي كلام الله هي قدرة عظيمة تؤهله لتلقي الرسائل ليس في صورة أفكار تغرس في الذهن أو في صورة كلمات تتطوق أو تسمع تحت تأثير روح القدس فحسب، وإنما أيضاً في صورة رسالات سماوية تنقل بكلمات بواسطة روح القدس. ويطلق على هذا النوع من الوحي في المصطلحات الإسلامية الوحي المتلو، وقد نزل القرآن، من بدايته حتى نهايته، بهذه الصورة على النبي (صلى الله عليه وسلم) كما توضح الاقتباسات المأخوذة من الكتاب الكريم وضوحاً شديداً. ولا يحتوي القرآن على أي صورة أخرى من صور الوحي. فالقرآن كله وحي متلو على النبي (صلى الله عليه وسلم) في كلمات واضحة، وبالتالي يعتبر كله أسمى صور الوحي الإلهي.

صور أخرى من الوحي الإلهي المنزل على البشر

كما سبق أن ذكرنا، كانت صور الوحي الإلهي الأدنى مرتبة تنزل أيضاً على الأنبياء. فعلى سبيل المثال، ورد في الروايات أنه قبل نزول الرسالة السماوية على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) - أي قبل تلقيه للوحي القرآني أول مرة - كان يرى رؤى واضحة صادقة. "أول ما بُدئ به

إليك كما أوحينا إلى نوح والثيبين من بعده" (سورة النساء ٤): الآية رقم (١٦٣)؛ وقد أشير إلى موسى بالأخص في هذا الصدد في الآية رقم (١٦٤). ومن ثم، تشير الصورة الثانية من صور الوحي، أي من وراء حجاب، إلى الرؤيا والكشف لأنه في هذه الحالة ترى رؤية معينة لها معنى أعمق من المعنى الظاهري. وهكذا تحمل الرؤيا أو الكشف معنى معيناً، إلا أن هذا المعنى، كما لو كان، تحت حجاب ويجب البحث عنه من وراء ذلك الحجاب. ومن أمثلة ذلك الرؤى التي وردت في القرآن (سورة يوسف ١٢). فقد رأى يوسف عليه السلام الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا له ساجدين مما يدل على عظمته وتبصره بواطن الأمور. ورأى الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وكان تأويل الحلم هو أن سبعة شدادا سوف يأتين بعد سبع سنوات من النماء ويأكلن ما خزن من غلال في البلاد. ومن ثم، يقصد بكلام الله من وراء حجاب كشف حقائق معينة في الرؤى أو الكشف. وفي أحد الأحاديث النبوية الشريفة، أطلق على هذه الرؤى لفظ *المبشرات*: "لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ (أي تلقي الأنبياء من الله سبحانه وتعالى) إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ" (البخاري ٩٢: ٥). ويندرج ضمن هذا النوع من الوحي أيضاً الكلمات التي ينطق بها بعض عباد الله الصالحين أو يسمعونها تحت تأثير روح القدس.

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةَ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْهُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ." (البخاري ١ : ١). وينتمي سماع النبي (عليه الصلاة والسلام) لأصوات معينة، كما ورد في الأحاديث الشريفة^٧، لنفس نوع الوحي، في حين تنتمي تفاصيل الشرائع، كما فسرها النبي عليه السلام وكما نجدها في سنته الفعلية^٨، إلى النوع الأول للوحي، أي الفكرة التي تغرس في الذهن. ويطلق على هذا النوع من الوحي اسم "الوحي الخفي". وفي صور الوحي الأدنى مرتبة، يأتي الوحي رغم ذلك لعباد الله الصالحين من بين أتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) ولغيرهم من الأشخاص لأنه، كما سيذكر فيما بعد، فإن صور الوحي الأدنى مرتبة هي تجربة البشرية جمعاء. وهناك أيضاً اختلاف في الطريقة التي يتم بها تلقي أنواع الوحي المختلفة. فرغم أن الصورتين الأدنى مرتبة للوحي تتطويان على تغير طفيف في حالة الإنسان الطبيعية، سواء أكان في حالة اليقظة أم النوم، ورغم أنه لا ينتقل إلى حالة الغشية إلا بين الحين والآخر، فإن أسمى صور الوحي، التي يختص بها الأنبياء، يصحبها تغير عنيف؛ فهي تتطلب، في الواقع، انتقالاً حقيقياً من عالم لآخر، في الوقت الذي يكون فيه المتلقي في حالة يقظة تامة ولا يشعر هو وحده بعبء الوحي وإنما يكون ظاهراً لمن يرونه.

تجربة النبي (ص) للوحي

كانت تجربة النبي (صلى الله عليه وسلم) الأولى للوحي بينما كان في خلوته بغار حراء. وقبل ذلك الوقت، كان يرى، من حين لآخر، بعض الرؤى، ولكن عندما نزل عليه الملك بالرسالة السماوية، كان يجد نفسه منهكاً تماماً: "فَأَخَذَنِي (جبريل) فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ" وتكرر هذا ثلاث مرات (البخاري ١ : ١). وحتى بعد وصول النبي (عليه الصلاة والسلام) إلى داره، كان أثر الإجهاد مازال واضحاً عليه مما اضطره إلى أن يلزم الفراش متدثراً قبل أن يتمكن من رواية ما حدث له. وقد كانت أيضاً تجربة صعبة عندما أتته الرسالة الثانية بعد انقطاع دام بضعة شهور. وحتى بعد ذلك، كان تأثير روح القدس عليه شديداً لدرجة أنه في أكثر الأيام برودة كان العرق يتصبب من جبينه. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: "وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبُرْدِ فَيُقْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَنْقَعُ عَرَقًا"^٩ (البخاري ١ : ١). كما روى أيضاً أحد الصحابة أنه

^٧ الحديث، أقوال النبي صلى الله عليه وسلم.

^٨ السنة، أفعال النبي صلى الله عليه وسلم.

^٩ شبه بعض النقاد المضللين هذه التجربة غير العادية لنزول الوحي بنوبة الصرع. والسؤال الآن هو هل يمكن لمصاب بالصرع، عندما تصيبه النوبة، أن ينطق بهذه الحقائق الدينية السامية التي نجدها في القرآن أو ينطق حقاً بأي من الجمل المترابطة الواردة في القرآن على الإطلاق؛ وهل من الممكن أن تتوافر لديه الإرادة القوية التي جعلت كل شبه

"أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ خَذَهُ عَلَى فَخِذِي فَتَقَلَّتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُصَّ فَخِذِي" (البخاري ٨: ١٢).

طبيعة الوحي الذي نزل على النبي (ص)

يدور السؤال التالي حول طبيعة الوحي نفسه. فعندما سأل الحارث بن هشام النبي (صلى الله عليه وسلم) كيف يأتيه الوحي، أجاب النبي: "أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيُفْضِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَمْتَلُّ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ" (البخاري ١: ١). هاتان هما صورتان الوحيدتان اللتان كان الوحي القرآني يأتي بهما للنبي عليه الصلاة والسلام. وفي كلتا الحالتين، كان الملك يأتيه وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يراه؛ وفي كلتا الحالتين كان الملك ينقل له رسالة معينة بكلمات وكان النبي (عليه الصلاة والسلام) يحفظها في صدره على الفور. هذا هو لب الموضوع كله. ويتمثل الفرق الوحيد بين الحالتين في أن الملك في إحدى الحالتين كان يظهر في شكل بشر وينطق الكلمات بصوت هادئ كما يتحدث الرجل لرجل مثله؛ في حين أنه في الحالة الأخرى، لم يذكر الشكل الذي كان يأتي فيه الملك وإنما يخبرنا النبي أن الكلمات كانت تنطق مثل صلصلة الجرس، أي بصوت أجش قوي مما كان يجعل مهمة تلقي الرسالة أثقل على النبي (صلى الله عليه وسلم). ولكن الملك رغم ذلك هو الذي كان ينقل الرسالة في هذه الحالة أيضاً، كما يتضح من استخدام ضمير الغائب "هو" في الجزء الأول من الرواية. وفي كلتا الحالتين، كان النبي (عليه الصلاة والسلام) كما لو كان ينتقل إلى عالم آخر، وكان انتقاله إلى هذا العالم يعرضه للمرور بتجربة صعبة تجعله يتصبب عرقاً حتى في اليوم البارد،

الجزيرة العربية تحن في النهاية للنبي عليه الصلاة والسلام أو يمتلك القدرة التي لا نظير لها والتي نشهدها في كل مرحلة من مراحل حياته أو يتمتع بمثل أخلاقه الفاضلة أو يكون صاحب تلك الفضيلة الحميدة التي تحرر بتأثيرها بلد كامل من ظلمات عبادة الأصنام والخرافات؛ أو هل كان من الممكن أن يتخذ مئات الآلاف من الرجال الذين تتوافر فيهم صفة استقلال شخصية العرب منه قائداً تطاع أوامره في أدق تفاصيل الحياة؛ أو هل كان من الممكن أن يصنع رجالاً لديهم عزيمة وشخصية رجال من أمثال أبي بكر وعمر وآلاف الرجال الآخرين الذين انهارت أمامهم الإمبراطوريات العظمى؟ بالإضافة إلى ذلك، ليس لقصة نزول زيد من فم النبي عند نزول الوحي عليه أساس من الصحة. فقد ذكر كلاين، في كتابه الدين الإسلامي (ص ٨) الادعاء التالي استناداً إلى البخاري: "ورد في حديث آخر أنه كان ينزل من فم النبي زيد وكان يجار كالجمل." في حين أن البخاري لم يرو هذا في الموضوع المشار إليه (البخاري ١: ٢). وفي حديث آخر، روى البخاري: "فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخْمَرُ الْوُجْهِ وَهُوَ يَغْطُ" (البخاري ٢٥: ١٧). وهناك روايات وردت في كتب الحديث مشابهة للروايات المقتبسة من صحيح البخاري. فعلى سبيل المثال، وردت في صحيح مسلم الرواية التالية: "كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيَ كَرِبَ لِذَلِكَ وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ". ووفقاً لرواية أخرى، "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيَ نَكَسَ رَأْسَهُ وَنَكَسَ أَصْحَابُهُ رُءُوسَهُمْ فَلَمَّا أَتَلَى عَنْهُ رَفَعَ رَأْسَهُ". وكل هذه الروايات والروايات الأخرى الواردة في كتب الحديث الأخرى إن كانت تدل على شيء فإنما تدل على أن نزول الوحي كان يحدث تغيراً حقيقياً في النبي يشهده الآخرون أيضاً.

إلا أن صعوبة هذه التجربة تزداد عندما لا يظهر حامل الرسالة في شكل بشر ولا تكون هناك صلة بين حامل الرسالة وملتقيها. ولكن سواءً أكان الملك يظهر في شكل بشر أم لا وسواءً أكانت الرسالة تنقل بصوت أجش أم بصوت هادئ، فإن الشيء المؤكد الوحيد هو أنها كانت رسالة تنقل بكلمات؛ وأن الوحي القرآني بالتالي كله رسالة واحدة نقلت بصورة واحدة. ومن الجدير بالذكر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتلقى الرسالة في أغلب الأحيان أثناء جلوسه مع الصحابة، ولكن لم يكن الصحابة يرون الملك أو يسمعون حتى كلمات الوحي.^{١٠} ولذلك، كان النبي (عليه أفضل الصلاة والسلام) يرى الملك ويسمع كلماته بحواس غير حواس البشر العادية ومنحه هذه الحواس الأخرى بالفعل هو ما يطلق عليه الانتقال إلى عالم آخر.

ترتيب القرآن

رغم أن القرآن نزل منجماً إلا أنه من الخطأ أن نتصور أنه ظل طويلاً في حالة التفرق تلك، فكما يدل اسمه، كان القرآن كتاباً منذ البداية. ورغم أنه لم يكن من الممكن أن يكتمل حتى نزول آخر آية، إلا أنه لم يكن يفترق لنوع من الترتيب. وهناك بيئة قاطعة، داخلية وخارجية، على أنه كان لكل آية منفردة أو جزء من آية وكل سورة نزلت مكانها المحدد في الكتاب.^{١١} والقرآن الكريم واضح في

وهناك أيضاً سوء فهم يمكن إزالته في هذا الصدد. فعندما روى النبي (صلى الله عليه وسلم) تجربته الأولى للوحي لزوجته خديجة، أضاف العبارة التالية: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي" (البخاري ١: ١). وقد أساء بعض النقاد فهم هذه العبارة على أنها تعني أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يخشى من أن تكون روح شريفة قد سيطرت عليه؛ وقد روى ابن هشام تأييداً لسوء الفهم المذكور قصة سخيفة نوعاً ما عن رفع خديجة الحجاب واختفاء الملك (وهي قصة لا أساس لها من الصحة ومناقفة لجميع الحقائق التاريخية عن سيرة النبي). وتبدو القصة سخيفة نظراً لأن الملك ظهر للنبي عندما كان في خلوته بغار حراء وليس في وجود خديجة. وبإلقاء نظرة سريعة على العبارة المستشهد بها أعلاه يتبين لنا أنها لا يمكن أن تحمل هذا التأويل. فالنبي كان يعلم قطعاً أنه تلقى رسالة من الله سبحانه وتعالى لإصلاح حال البشرية المنكوبة؛ وكل ما كان يخشاه هو فشله في هذا الإصلاح المرغوب فيه. هذا هو ما فهمته خديجة لأنها طمأنته على الفور بقولها: "كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّجْمَ وَتَحْمِلَ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَغْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ" (البخاري ١: ١). وبذلك، عدت الزوجة المخلصة التي كانت تعرف زوجها حق المعرفة طيلة خمسة عشر عاماً هذه الصفات الحميدة فيه كدليل على أنه رجل بهذا الخلق الرفيع لا يمكن أن يفشل في إنجاز المهمة المعهود له بها - مهمة إصلاح شأن البشرية المنكوبة.

^{١٠} لا توجد إلا رواية واحدة فقط يبدو أنها تنقل الفكرة القائلة بأن الصحابة الذين كانوا يجلسون مع النبي (صلى الله عليه وسلم) شاهدوا ذات مرة جبريل في صورة بشر، ولكن لم ترو هذه الواقعة فيما يتعلق بالوحي القرآني. ووفقاً لهذه الرواية، جاء رجل لا يعرفه أحد إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وسأله عدة أسئلة عن الإيمان، والإسلام، والإحسان وأخيراً عن موعد قيام الساعة. ثم اختفى بعد ذلك، ويرى عن النبي أنه قال: "جاء جبريل عليه السلام يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ" (البخاري ٢: ٣٧). وربما تدل هذه العبارة على أن الإجابات التي أجابها النبي كانت من التعاليم التي نزل بها جبريل وليس أن الرجل الذي طرح الأسئلة هو جبريل.

^{١١} تم تناول هذا الموضوع باستفاضة في كتيب منفصل، في سلسلة كتب القرآن الكريم، كان عنوانه جمع وترتيب القرآن الكريم.

هذه النقطة: "قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا" (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (٣٢)). وهكذا كان ترتيب القرآن جزءاً من الترتيب الإلهي. وفيما يلي نص آية أخرى توضح أن جمع الكتاب كان جزءاً من الترتيب الإلهي: "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ" (سورة القيامة (٧٥): الآية رقم (١٧)). ومن ذلك يتضح لنا أنه كما كان جبريل يتلو القرآن على النبي (صلى الله عليه وسلم)، كان النبي بالمثل يقوم بجمع أجزاءه بتوجيه من روح القدس. كما يشهد التاريخ أيضاً على صدق هذا لأنه لا توجد فحسب قصص عديدة توضح أن هذا أو ذاك الجزء من القرآن تمت كتابته بأوامر من النبي - عليه الصلاة والسلام - وإنما أيضاً أخبرنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، ثالث الخلفاء الراشدين، أن كل جزء من الكتاب كان يكتب ويوضع في المكان المحدد له بأمر من النبي (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الرَّمَانُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ مِنَ السُّورِ ذَوَاتُ الْعَدَدِ وَكَانَ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ يَدْعُو بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ^{١١} عِنْدَهُ يَقُولُ صَعُّوا هَذَا فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا" (مسند أحمد ١: ٥٧، ٦٩).

ترتيب القرآن أثناء التلاوة

في الواقع، إذا لم تغب عنا الوجوه التي استعين فيها بالقرآن الكريم ما راودتنا ولو للحظة فكرة وجود الكتاب دون أي ترتيب لآياته وسوره في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم). فلم يكن القرآن يتلى في الصلاة فحسب وإنما كان يحفظ في الصدور ويتلى بصورة منتظمة تجنباً لنسيانه. فلو لم يكن ترتيب الآيات والسور موجوداً، لكان من المستحيل تلاوته في صلاة الجماعة أو حفظه في الصدور. وكان أقل تغيير في مكان الآية من جانب الإمام في الصلاة يقابله تصحيح من جمهور المصلين، كما هي الحال في يومنا هذا. ولأنه لم يكن أي شخص يجترئ على تغيير كلمة أو موضع كلمة في آية، لم يستطع أحد تغيير آية أو موضع آية في السورة؛ ولذلك كان حفظ الصحابة للقرآن في صدورهم وتلاوتهم له باستمرار كل هذا كان سيصبح مستحيلاً لولا اتباع ترتيب معروف.. ولم يكن النبي (صلى الله عليه وسلم) ليتمكن من تعليم القرآن للصحابة ولم يكن

^{١١} من بين من اعتاد النبي (عليه الصلاة والسلام) استدعاءهم لكتابة أجزاء من القرآن فور نزول الوحي عليه وردت أسماء: زيد بن ثابت، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وأبي، وحنظلة، وعبد الله بن سعد، وعبد الله بن الأرقم، وعبد الله بن رواحة، وشرحبيل، وخالد، وأبان بن سعيد، ومعيقب (فتح الباري - الفصل التاسع، ص. ١٨). وفي المدينة، كان يستدعي زيد بن ثابت في المقام الأول للقيام بهذه المهمة وفي عدم وجوده كان يحل محله أي من كتاب الوحي الآخرين وهذا هو السبب وراء اختيار زيد لجمع القرآن في عهد أبي بكر واختياره مرة أخرى للقيام بمهمة نسخ المصحف في عهد عثمان. وفي مكة، في أوائل ظهور الإسلام، كان هناك أبو بكر، وعلي، وخديجة زوجة النبي، وآخرون يكتبون الأجزاء التي كانت تنزل من القرآن. وكان النبي (عليه الصلاة والسلام) يبذل أقصى جهد لاصطحاب كاتب من كتاب الوحي معه ووجود مواد كتابة في حوزته في جميع الأحوال. وحتى عندما هاجر إلى المدينة، كانت في حوزته بعض مواد الكتابة (البخاري ٦٣: ٤٥).

الصحابة ليعلموه بعضهم لبعض ولم يكن أي شخص ليتمكن من أن يؤم صلاة الجماعة التي تتلى فيها أجزاء طويلة من الكتاب لولا اتباع ترتيب معروف ومقبول.

نسخ مكتوبة كاملة من المصحف

وهكذا كان القرآن الكريم محفوظاً في صورة كاملة ومرتبطة في صدور الرجال، إلا أنه لم تكن توجد آنذاك نسخة مكتوبة كاملة منه و لم يكن من الممكن عمل هذه النسخة أثناء حياة النبي واستمراره في تلقي الوحي. ولكن كان القرآن كله محفوظاً دون أي أخطاء وبترتيب معين في صدور القراء، ورغم ذلك، حدث في خلافة أبي بكر الصديق^{١٣} أن سقط كثير من القراء شهداء في موقعة اليمامة الشهيرة وعندئذ دعا عمر^{١٤} أبا بكر لجمع نسخة مكتوبة موحدة من المصحف حتى لا يذهب أي جزء من القرآن حتى وإن سقط جميع القراء شهداء. وقد تم جمع هذه النسخة، ليس من مئات النسخ التي كتبها الصحابة لاستخدامهم الشخصي وإنما من الصحائف التي كتبت تحت إشراف النبي نفسه وكان الترتيب المتبع في هذا المصحف هو نفس الترتيب المتبع في التلاوة في عصر النبي (عليه الصلاة والسلام). وهكذا، تم إعداد نسخة مكتوبة موحدة من المصحف أودعت لدى السيدة حفصة، زوجة النبي (صلى الله عليه وسلم)^{١٥}. إلا أنه رغم ذلك لم يتم عمل إجراء معين لضمان دقة نسخ المصحف التي كانت متداولة آنذاك. وهذا ما فعله عثمان^{١٦} الذي أمر بنسخ عدة نسخ من نسخة المصحف التي تم إعدادها في عهد الخليفة الأول ثم أرسلت بعد ذلك إلى الأمصار المختلفة حتى تتم مقارنة جميع النسخ التي أعدها الأفراد بنسخة المصحف الموحدة في كل من هذه الأمصار.

توحيد نسخ المصحف

وهكذا أمر أبو بكر (رضي الله عنه) بإعداد نسخة موحدة من المصحف من الصحائف التي كتبت في وجود النبي (صلى الله عليه وسلم) متبعاً نفس ترتيب السور الذي اتبعه القراء بتوجيهات من النبي (عليه الصلاة والسلام)، وأمر عثمان (رضي الله عنه) بعمل نسخ من هذه النسخة الموحدة. وإن كان

^{١٣} أول خلفاء المسلمين (١١ - ١٣هـ) (٦٣٢ - ٦٣٤م).

^{١٤} أصبح عمر ثاني خلفاء المسلمين (١٣ - ٢٣هـ) (٦٣٤ - ٦٤٤م).

^{١٥} البخاري (٦٦: ٣).

^{١٦} تولى عثمان الخلافة بعد عمر كخالف الخلفاء الراشدين (٢٣ - ٣٥هـ) (٦٤٤ - ٦٥٦م).

هناك أي اختلاف عن هذه النسخة الموحدة، كان لا يتجاوز الاختلاف بين قريش وزيد في طريقة كتابة كلمة معينة. وعندئذ كان عثمان يأمر بكتابتها بطريقة قريش^{١٧}. وهذا يرجع لأن زيدا كان من أهل المدينة في حين كان رفاقه قرشيين^{١٨}.

وفيما يتعلق بطبيعة هذه الاختلافات، يلقي الترمذي، أحد جامعي الحديث، بعض الضوء على هذه النقطة حيث يضيف الإضافة التالية إلى هذه الرواية: «اختلفوا يومئذ في التابوت والتابوه، فقال القرشيون: التابوت، وقال زيد: التابوه، فرجع اختلافهم إلى عثمان، فقال: اكتبوه التابوت، فانه نزل بلسان قريش». ومما سبق يتضح لنا أنه رغم أن الاختلافات في القراءة أو الكتابة كانت طفيفة للغاية، إلا أنه لأن الصحابة كانوا يؤمنون بأن كل كلمة وحرف من أحرف القرآن منزل من عند الله، لذا كانوا يولون أهمية حتى لأي اختلاف طفيف في الكتابة ويرفعونه إلى الخليفة. وفي هذا الصدد، يمكننا أن نضيف أن النبي في المدينة كان يستدعي زيدا في المقام الأول لكتابة الوحي القرآني وأن كلمة تابوت توجد في سورة مدنية (سورة البقرة (٢): ٢٤٨)). وقد كتبها زيد تابوه كما كان أهل المدينة يكتبونها، إلا أنه لأن قريشا كانت تكتبها تابوت، استبدل عثمان بصيغة زيد الصيغة القرشية للكلمة. كما توضح هذه الواقعة أيضاً أن نسخة المصحف المودعة لدى حفصة كانت تضم الصحائف التي كتبت في وجود النبي (صلى الله عليه وسلم). وتقدم هاتان الروايتان دليلاً قاطعاً على أنه في حالة وجود اختلاف بين نسخة المصحف الموحدة التي أمر عثمان بنسخها والنسخة التي جمعها أبو بكر، فإنه مجرد اختلاف من حيث طريقة كتابة كلمات معينة. وقصارى القول، لم يكن هناك أي تغيير سواءً أكان في الكلمات أم الآيات أم ترتيب السور.

^{١٧} قريش: من القبائل الكبرى في مكة وكان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ينتمي إلى بنى هاشم أحد بطون هذه القبيلة.

^{١٨} فيما يلي قصة ما حدث: «حَدَّثَنَا مُوسَى حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ أَنَّ حَذِيفَةَ بْنَ الِيمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَارِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ إِسْمِينَةَ وَأَذْرِبَجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَأَفْرَعُ حَذِيفَةَ اخْتِلَافَهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ فَقَالَ حَذِيفَةُ لِعُثْمَانَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَدْرِكُ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكُتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَأَرْسَلَ عُثْمَانَ إِلَيَّ حَفْصَةَ أَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهَا بِالْمُصْحَفِ نَسَخَهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَزَّهَا إِلَيْكَ فَأَرْسَلْتُ بِهَا حَفْصَةَ إِلَى عُثْمَانَ فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الرَّبِيعِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْخَارِثِ بْنَ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرُّهَيْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةَ إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَأَكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الْمُصْحَفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الْمُصْحَفَ إِلَى حَفْصَةَ وَأَرْسَلَ إِلَيَّ كُلَّ أَقْبَى بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ» (البخاري (٦٦: ٣)).

اختلاف القراءات

يمكننا التعليق بإيجاز على ما يطلق عليه الاختلاف في قراءات القرآن. فقد كانت هناك فروق طفيفة في اللغة المنطوقة التي تتحدث بها القبائل المختلفة في الجزيرة العربية في حين كانت لغة قريش هي نموذج لغة الكتابة. وقد نزل القرآن بلغة قريش (لهجتها) التي كانت لغة الكتابة المستخدمة آنذاك في الجزيرة العربية. إلا أنه، قبيل نهاية حياة النبي (صلى الله عليه وسلم)، عندما دخلت الناس من القبائل المختلفة في الجزيرة العربية في الدين الإسلامي أفواجاً، وجد أنهم لم يتمكنوا من نطق كلمات معينة بلهجة قريش حيث إنهم تعودوا منذ نعومة أظافرهم على لهجتهم الخاصة، وعندئذ رخص النبي (صلى الله عليه وسلم) لهم بنطق كلمة معينة وفقاً للهجة الخاصة بهم. ولم يرخص لهم النبي بذلك إلا لتيسير تلاوة القرآن عليهم. ورغم أن النسخ المكتوبة من القرآن كانت موحدة حيث كانت جميعها مكتوبة بلغة قريش البسيطة، إلا أن النبي سمح لأفراد القبائل الأخرى بنطقه بطريقتهم الخاصة.^{١٩}

وربما كانت هناك آيات معينة نزل بها الوحي رخص فيها النبي بالقراءة الاختيارية. ولا يمكن قبول القراءات التي تنتمي لهذه الفئة إلا بناءً على بينة لا يرقى إليها الشك كما يجب التحقق من صحة الأحاديث التي وردت بشأن هذه القراءة بما لا يدع مجالاً للشك. ولكن حتى هذه القراءات لم تجد طريقها إلى النص المكتوب الذي ظل دائماً بلا تغيير. وليس لهذه القراءات سوى قيمة تفسيرية؛ حيث إنها توضح فقط المعنى الذي يعطى للكلمة المستخدمة في النص؛ ولا تكون هذه القراءات مغايرة لما ورد في النص القرآني. وهذه القراءات معروفة لقلّة قليلة من المتقنين، فضلاً عن عموم قراء القرآن الكريم، ويعتبر لها نفس قيمة الحديث الصحيح في توضيح معنى كلمة معينة وردت في النص القرآني. وهكذا فما يطلق عليه الاختلافات في القراءات يصنف إما إلى اختلافات مرتبطة باللهجات، لم يكن المقصود منها أن تستمر وإنما كان المقصود منها هو تيسير قراءة القرآن في حالات فردية، أو اختلافات ذات طابع تفسيري يقصد منها إلقاء الضوء على النص القرآني.

^{١٩} يمكننا إعطاء بعض الأمثلة على هذه الاختلافات هنا: كانت قبيلة هذيل تنطق كلمة حتى على أنها عتي؛ وكانت كلمة تعلمون تنطقها قبيلة أسد تعلمون، وكانت قبيلة تميم تقرأ الهمزة، وهي أحد حروف الهجاء، في حين كانت قريش لا تقرأها (وهذا قبل تحولها فيما بعد إلى قراءتها استحساناً لهذه القراءة في لهجة تميم. المترجم). وفي أحد الأحاديث الشريفة، يتضح المعنى عندما تضاف العبارة التالية على لسان النبي (صلى الله عليه وسلم): "فَأَقْرَهُوا مَا تَيْسَّرُ مِنْهُ" (البخاري ٦٦: ٥) وعبارة أخرى، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يرخص لمن يتلو القرآن بأن ينطقه بأيسر طريقة عليه. وبالمعنى الصحيح للكلمة، لا تعتبر هذه الاختلافات المرتبطة باللهجات بمثابة قراءات على الإطلاق. وفي حالات استثنائية، كان يرخص للشخص الذي لا يستطيع نطق كلمة معينة أن يستبدل به نطقها في لغته. ولكن حتى هذا لا يعتبر حالة اختلاف في القراءة لأنها كانت مجرد رخصة تمنح لفرد بعينه كما أن هذه الاختلافات لم تجد طريقها مطلقاً إلى النص القرآني المكتوب.

ولم تعد الاختلافات المرتبطة باللهجات موجودة بسبب انتشار التعليم في الجزيرة العربية، في حين أن الاختلافات ذات الطابع التفسيري ما زالت لها نفس قيمتها التفسيرية الأصلية.

الشهادة بالإجماع على سلامة النص القرآني

ليست للروايات غير المؤكدة القائلة بأن آية أو سورة معينة، لم نجدها في القرآن، كانت تشكل جزءاً من النص القرآني، ليس لها قيمة على الإطلاق في مقابل الشهادة القاطعة بالإجماع التي تثبت سلامة النص القرآني. فهذه الروايات كانت في بعض الحالات ملفقة من قبل أعداء الإسلام الذين كانوا يسعون لتقويض الثقة في الدين الإسلامي.^{٢٠} وفي حالات أخرى، كان من الممكن أن ترجع هذه الروايات إلى فهم خاطئ لدى راوٍ معين. ومهما كان السبب، فمن الضروري أن نقيم الأدلة التي تثبت ما إذا كانت آية معينة تشكل أو لا تشكل جزءاً من النص القرآني. فمن الصحيح أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يعلم الصحابة كل آية من آيات القرآن، فور نزولها، وكان يعلنها على الملأ؛ بحيث تصبح جزءاً من صلاة الجماعة وكانت تتلى مراراً وتكراراً أثناء الليل وأطراف النهار بحيث يستمع إليها مئات المصلين. وعندما تم جمع صحائف القرآن أول مرة في صورة مصحف واحد في عهد أول الخلفاء الراشدين وبعد ذلك عندما تم عمل نسخ من النسخة الأصلية للمصحف في عهد ثالث الخلفاء الراشدين، كانت هناك شهادة بالإجماع أدلى بها جميع الصحابة (رضي الله عنهم) بأن كل آية خصص لها مكان في المصحف كانت تشكل جزءاً من الوحي الإلهي. ولا يمكن إبطال شهادة الأغلبية بشهادة فرد أو اثنين، ولكنه في حقيقة الأمر كانت جميع الروايات التي تم الاستشهاد بها على أنها تتال من سلامة النص القرآني تتسبب قولاً معيناً لرجل واحد فقط وليست هناك حالة واحدة يوجد فيها شخص ثانٍ ليعزز هذا القول. وهكذا فعندما كان ابن مسعود^{٢١} يدلي بقول يفيد عدم سلامة نص قرآني معين، كانت شهادة أبي جنباً إلى جنب مع شهادة كل الصحابة تعارضه؛ وبالمثل عندما كان أبي^{٢٢} يدلي بقول مماثل، كانت شهادة ابن مسعود جنباً إلى جنب مع

^{٢٠} على سبيل المثال، ذكرت في صحيح مسلم رواية تتسبب إلى أبي موسى قوله إنه كانت توجد سورة معينة في القرآن، مشابهة في الطول والأثر لسورة التوبة (٩)، ولم يتذكر منها سوى آية واحدة. إلا أن الدراسة التي تحمل عنوان ميزان الاعتدال، وهي دراسة نقدية عن رواة الحديث، تذكر أن سويدا، وهو مصدر المعلومات المباشر لهذه الرواية في صحيح مسلم، كان زنديقاً (أي شخصاً يخفي كفره ويتظاهر بالإيمان)، وعليه ليس للرواية، كما يتضح من موضوعها، أساس من الصحة. ويمكن إنزال الأربع روايات الأخرى التي تتحدث عن آيات مماثلة، لا توجد في النص القرآني، إلى نفس هذه المرتبة.

^{٢١} و^{٢٢} شخصان تتسبب إليهما هذه الروايات.

شهادة باقي الصحابة تعارضه. وعليه، يثبت لنا أنه لم يكن هناك شاهد واحد يعزز صحة ادعاء واحد يشكك في سلامة النص القرآني.^{٢٣}

نظرية النسخ

أصبح الآن نسخ آيات معينة من القرآن بآيات أخرى نظريةً مشكوكاً في صحتها. وتشير الآياتان اللتان يعتقد أن النظرية تقوم عليهما بالفعل إلى النسخ ولكن ليس إلى نسخ آيات من القرآن وإنما إلى نسخ الكتب السماوية السابقة التي حل الكتاب الكريم محلها. وقد وردت أول آية في السورة السادسة عشرة (سورة النحل) - سورة مكية - وفيما يلي نصها: "وَإِذَا بَدُلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ^{٢٤} وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (١٠١)). فمن الصحيح أن تفاصيل الشريعة الإسلامية قد نزلت في المدينة وأنه بشأن هذه التفاصيل بدأت مناقشة نظرية النسخ. وبالتالي، لا تتحدث السورة المكية عن النسخ. ولكن الإشارة في الآية سالفة الذكر ليست إلى نسخ الآيات القرآنية، وإنما إلى نسخ الرسائل أو الأديان السماوية السابقة نتيجة لنزول القرآن. ويوضح السياق بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا هو الوضع، لأن المعارضين هنا زعموا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) مفترٍ. وقد اتهم المعارضون النبي بذلك ليس لأنه أعلن نسخ آيات معينة في القرآن وإنما لأنه ادعى على حد قولهم أن القرآن رسالة سماوية حلت محل جميع الكتب السماوية السابقة لها. وجدالوا بأنه ليس وحياً على الإطلاق: "إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (١٠٣)). وبالنسبة لهم، كان القرآن كله وليس مجرد آية معينة منه افتراء. وعليه، لا يمكن أن تقوم نظرية النسخ على هذه الآية التي تتحدث فقط عن آية أو شريعة حلت محل الأخرى.

^{٢٣} في حالات عديدة، كانت الشهادة فيما بين الصحابة تثبت عدم صدق الرواية. فعلى سبيل المثال، هناك رواية تنسب القول التالي إلى السيدة عائشة (رضي الله عنها): "كانت سورة الأحزاب (السورة رقم (٣٣)) تتكون، في عهد النبي (عليه الصلاة والسلام)، من مائتي آية: وعندما كتب عثمان المصحف لم يتمكن إلا من جمع الآيات التي تحتوي عليها السورة حالياً". إلا أنه ليس من الممكن أن تتطوق السيدة عائشة بمثل هذه الكلمات لأنها تعلم جيداً أن عثمان لم يجمع قط المصحف وإنما أشرف على عمل نسخ من المصحف المحفوظ لدى السيدة حفصة. فالمفهوم الخاطئ القائل بأن عثمان قد جمع القرآن لم يظهر إلا في فترة لاحقة مما يقدم دليلاً قاطعاً على أن هذه الرواية لا أساس لها من الصحة. وبالمثل، ليس للعبارة المنسوبة إلى عمر (رضي الله عنه) بشأن رجم الزاني أساس من الصحة. فيروى عن عمر قوله: "لَوْلَا أَنْ يُقُولَ النَّاسُ زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَكُنْتُنَّهَا" (سنن أبي داود ٣٧: ٢٣). إلا أن هذا القول مناقض لنفسه. فلو كان حقاً جزءاً من القرآن فلماذا إذن يقول الناس إن عمر أضاف إلى كتاب الله؟

^{٢٤} يقصد بكلمة آية المذكورة هنا في الأساس علامة وبالتالي معناها دلالة أو دليل أو إثبات وتستخدم بمعنى معجزة. كما تعني أيضاً رسالة سماوية (تاج العروس). وتستخدم الكلمة بصورة متكررة في القرآن بمعناها العام، أي رسالة سماوية أو تبليغ رسالة سماوية ومن ثم تطلق على أي جزء من القرآن أو أي كتاب سماوي سابق. وكما يوضح السياق بما لا يدع مجالاً للشك، فإن الكلمة تحمل المعنى الثاني.

أما الآية الأخرى التي يعتقد أنها تعزز صحة هذه النظرية فنصها كما يلي: "مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِثْلُهَا أَوْ مِثْلُهَا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٠٦)). و بالرجوع إلى السياق الذي وردت فيه الآية، يتضح لنا أنها تخاطب اليهود أو من اتبعوا الأديان السماوية السابقة. وعن هؤلاء، قال تعالى: "قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَزَّاءُهُ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٩١)). وهكذا، أخبروا أنه إن كانت هناك ديانة معينة قد نسخت فإن هذا لإفساح المجال لدين أفضل. ولم يرد في الآية ذكر النسخ فحسب وإنما ورد أيضاً ذكر شيء ينسى. وعبارة "أَوْ نُنسِئُهَا"^{٢٥} لا يمكن أن تشير مطلقاً إلى القرآن، لأنه لا يمكن القول بأن جزءاً منه قد نسي بحيث يتطلب نزول جزء جديد ليحل محله. فلا معنى لافتراض أن الله سبحانه وتعالى قد جعل النبي أولاً ينسى آية معينة ثم ينزل آية جديدة مكانها. فإن كان النبي (عليه الصلاة والسلام) قد نسي حقاً آية لم لا يذكره الله سبحانه وتعالى بما نسيه؟ إلا أنه حتى وإن افترضنا أن ذاكرة النبي لم تسعفه ذات مرة في حفظ آية معينة (وهو ما لم يحدث مطلقاً)، فإن تلك الآية كانت مدونة كتابياً بلا خطأ وإن مجرد النسيان لا يقتضي بالضرورة نزول آية جديدة. ونجد عدم نسيان النبي (صلى الله عليه وسلم) مطلقاً لما كان روح القدس يقرأه عليه مذكوراً في كلمات صريحة في القرآن: "سَنُفَرِّقُكَ فَلَا تَنْسَى" (سورة الأعلى (٨٧): الآية رقم (٦)). كما يشهد التاريخ أيضاً على أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم ينس قط أي جزء من التنزيل القرآني. وأحياناً، كانت تنزل سورة طويلة جداً بالكامل عليه مرة واحدة، كما هو الحال في السورة السادسة (سورة الأنعام) التي تمتد عبر ٢٠ قسماً (ربعاً)، ولكنه كان يطلب تدوينها دون تباطؤ ويجعل الصحابة يحفظونها في صدورهم ويتلونها في صلاة الجماعة، وذلك دون أي تغيير ولو حرفاً واحداً، رغم أنه هو نفسه كان لا يقرأ من أي صحيفة ولم تكن توجد في حوزته، كقاعدة عامة، أي صحائف. وإنها لمعجزة حقاً أنه لم يكن ينسى قط أي جزء من القرآن رغم أنه كان من الممكن أن ينسى أشياء أخرى، وتشير عبارة: "إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ"^{٢٦} الواردة في الآية التالية (سورة الأعلى (٨٧): الآية رقم (٧)) إلى نسيانه لأشياء أخرى. ومن ناحية أخرى، من الصحيح أنه قد فقدت ونسيت أجزاء من الكتب السماوية السابقة وبالتالي كانت هناك حاجة لنزول القرآن ليحل محل ما نسخ وما نسيه العالم.

^{٢٥} تعتبر ترجمة سبل للعبارة مضللة مما ترتب عليه بالفعل تضليل كثير من الكتاب في موضوع الإسلام الذين لم يتمكنوا من الاطلاع على الأصل العربي. فهو يترجم كلمة نُنسِئُها على أنها تعني نُنسِكُها. إلا أن النص لا يحتوي على أي كلمة تشير إلى ضمير المخاطب (الكاف). وهذا الخطأ الطفيف يجعل معنى الآية أن الله سبحانه وتعالى أنسى النبي (صلى الله عليه وسلم) آيات قرآنية معينة، في حين أن النص الأصلي لم يذكر فيه أن الله أنسى النبي أي شيء وإنما يشير بكل وضوح إلى أن الله ينسى البشر العاديين.

^{٢٦} تستخدم كلمة إلا أحياناً في اللغة العربية للدلالة على الاستثناء المنقطع، أي أن المستثنى غير متصل من حيث الجنس بالمستثنى منه.

الأحاديث الواردة في موضوع النسخ

قال الطبري إن "الأحاديث الواردة في موضوع النسخ جميعها ضعيفة". إلا أن الأغرب رغم ذلك أن كاتبنا وراء الآخر قبل نظرية النسخ دون مجرد التفكير في أنه لا يوجد حديث واحد، حتى وإن كان ضعيفاً، يتناول موضوع نسخ آية بأخرى، ينسب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم). ولم يخطر قط ببال مؤيدي هذه النظرية أن النبي (عليه الصلاة والسلام) هو الذي كان يعلم الصحابة الآيات القرآنية وأنه هو الشخص الذي كانت سلطته ضرورية لنسخ أي آية قرآنية؛ فلا يمكن لأي صحابي ولا لأبي بكر نفسه أو علي^{٢٧} القول بأن آية معينة قد نسخت. وإنما النبي وحده هو الذي حُوِّلَ سلطة القول بذلك ولا يوجد حديث واحد يفيد قوله بذلك؛ وإنما تنسب هذه الآراء دائماً إلى صحابي ما أو الخلف من الأشخاص الثقة. وفي معظم الحالات، التي تنسب فيها رواية ما لصحابي ما يرى أن آية معينة قد نسخت، تكون هناك رواية أخرى تنسب إلى صحابي آخر تنفي نسخ هذه الآية.^{٢٨} وحتى بين الكتاب الذين ظهروا بعد ذلك، نجد أنه لا توجد آية واحدة أصدر عليها شخص ما حكم النسخ إلا وشكك في صحته شخص آخر؛ ورغم أن هناك كتابا يصدران دون تروء الحكم بالنسخ على مئات الآيات، فإن هناك كتاباً آخرين يرون أن عدد الآيات المنسوخة لا يزيد عن خمس آيات وحتى في حالة هذه الآيات الخمس شكك الكتاب السابقون لهم بشكل خطير في صحة الحكم بنسخها.

استخدام كلمة "النسخ"

نشأت نظرية النسخ في الواقع من سوء فهم استخدام كلمة النسخ على لسان الصحابة. فعندما كان يتم تقييد معنى آية ما بآية أخرى، كان يقال أحياناً عن الآية الأولى أنها نسخت بالآية الثانية. وبالمثل، عندما تؤدي الكلمات الواردة في آية ما إلى سوء فهم معين ثم تنزل آية بعد ذلك لتزيل سوء الفهم، عندئذ تستخدم كلمة "النسخ" مجازاً فيما يتعلق بهذه الآية، والفكرة الكامنة وراء استخدام كلمة النسخ هنا ليست هي نسخ الآية الأولى وإنما نسخ مفهوم معين أدت الآية إلى ظهوره.^{٢٩} وقد

^{٢٧} ابن عم وزوج ابنة النبي (صلى الله عليه وسلم). وقد تولى الخلافة بعد عثمان بصفته رابع الخلفاء الراشدين.

^{٢٨} يمكن ذكر بعض أمثلة هذه الآيات هنا - يرى البعض أن الآية رقم (١٨٠) من سورة البقرة (٢) منسوخة في حين ينفي البعض الآخر ذلك (جامع البيان في تفسير القرآن)؛ ويرى ابن عمر أن الآية رقم (١٨٤) من سورة البقرة (٢) منسوخة في حين ينفي ابن عباس ذلك (البخاري)؛ كما يرى ابن الزبير أن الآية رقم (٢٤٠) من سورة البقرة (٢) منسوخة في حين ينفي مجاهد ذلك (البخاري). وقد استشهدت بهذه الأمثلة فقط من السورة الثانية (البقرة) في القرآن.

^{٢٩} يمكن الاستشهاد بالعديد من الأمثلة على هذا النوع من النسخ. في سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٨٤)، قال تعالى: "وَأَنْ تُبَدَّلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهَا يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ"؛ في حين أنه وفقاً لما ورد في سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٨٦)، "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا". وقد ذكر في إحدى الروايات الواردة في صحيح البخاري أن أحد الصحابة، ربما يكون عبد الله بن عمر، كان يرى أن الآية الأولى نسخت بالآية الثانية. ويتضح المقصود بالنسخ في هذه

أقر الأشخاص الثقة السابقون هذا الاستخدام للكلمة: "إن القائلين بالنسخ (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٠٩)) أوردوا به البيان مجازاً^{٢٠}؛ ومرة أخرى فإن: "المراد من النسخ البيان وإيضاح المراد مجازاً"^{٢١}. فهو نسخ ولكنه ليس نسخاً لكلمات القرآن، وإنما هو نسخ لسوء فهم معناها. كما يتضح ذلك أيضاً من تطبيق حكم النسخ على الآيات التي تشتمل على أخبار في حين أن النسخ لا يمكن أن يحدث بالفعل إلا في حالة الآيات التي تشتمل على أمر أو نهي. وبالمعنى المألوف للكلمة، لا يمكن أن يكون هناك نسخ لخبر ورد بكلمة الله لأن هذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى ذكر خبراً خطأ أولاً ثم فطن إليه. ويدل استخدام الأشخاص الثقة السابقين لكلمة "النسخ" فيما يتعلق بالأخبار^{٢٢} على أنهم كانوا يستخدمون الكلمة للدلالة على إزالة فهم خاطئ لمعنى آية معينة أو لتقييد معناها. وفي الوقت نفسه، من الصحيح أن هذه الكلمة سرعان ما أصبحت تستخدم بداعٍ وبدون داعٍ، وأنه عندما يجد الفرد نفسه غير قادر على التوفيق بين آيتين، يعلن أن إحداهما منسوخة بالأخرى.

الحالة من رواية أخرى مفصلة ذكرت في مسند الإمام أحمد (مسند أحمد ١: ٣٣٢). ووفقاً لهذه الرواية، فإنه عندما نزلت الآية رقم (٢٨٤) من سورة البقرة (٢)، دخل قلوب الصحابة شيء لم يدخل قلوبهم من قبل (أو وفقاً لرواية أخرى، غمتهم غمّاً شديداً وغازتهم غيظاً شديداً) وكانوا يرون أنهم لا يطبقونها. وعندما علم النبي (صلى الله عليه وسلم) بالأمر، قال: "قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا" فألقى الله الإيمان في قلوبهم. وكما توضح هذه الرواية، حدث ما يلي: كان أحد أو بعض الصحابة يرون أن الآية رقم (٢٨٤) من سورة البقرة (٢) تقرض عليهم عبثاً جديداً حيث تجعلهم يحاسبون على كل فكرة شريرة تراودهم دون تنفيذها أو ترجمتها إلى فعل كما لو كانت ترجمت إلى فعل. إلا أن الآية رقم (٢٨٦) من سورة البقرة (٢) توضح أن هذا ليس هو المعنى المقصود من الآية رقم (٢٨٤)، لأنه، وفقاً لتلك الآية، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وقد أطلق ابن عمر على إزالة هذا المفهوم الخاطئ لفظ النسخ.

ويمكننا أن نضيف أنه ليس هناك ما يثبت أن الآية رقم (٢٨٦) نزلت بعد الآية رقم (٢٨٤) من سورة البقرة (٢). ومن ناحية أخرى، يدل استخدام النبي لعبارة "قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" لإزالة المفهوم الخاطئ عند الصحابة - وقد وردت نفس هذه العبارة في الآية رقم (٢٨٥): سورة البقرة (٢) - على أن الآيات الثلاث، أي الآيات أرقام (٢٨٤)، و(٢٨٥)، و(٢٨٦)، قد نزلت معاً ومن ثم فلا معنى لنسخ إحداها بالأخرى بالمعنى العادي للكلمة. وهناك أمثلة أخرى يعتقد فيها أن آية لاحقة منسوخة بآية سابقة لها. ولكن كيف تنسخ آية لاحقة بآية سابقة لها؟ أو ما جدوى إعطاء أمر ألغى قبل إعطائه؟ وإذا كانت كلمة النسخ، من ناحية أخرى، تؤخذ على أنها تعني تقييد معنى آية معينة أو إزالة مفهوم خاطئ ارتبط بها، فلا توجد أي مشكلة لأنه يمكن وصف آية سابقة بأنها تقييد معنى آية لاحقة أو تزيل مفهومًا خاطئًا ناشئًا عنها.

^{٢٠} روح المعاني، الجزء الأول، ص. ٢٩٢.

^{٢١} نفس المرجع السابق، ص. ٥٠٨.

^{٢٢} من أمثلة الخبر الذي ذكر أنه نسخ بخبر آخر ما ورد بشأن نسخ الآية رقم (٢٨٤) بالآية رقم (٢٨٦) من سورة البقرة (٢) (انظر الحاشية السابقة بشأنها). وهناك مثال آخر للخبر الذي ذكر أنه نسخ بأخر نجده في الآية رقم (٦٥) التي ذكر أنها منسوخة بالآية رقم (٦٦) من سورة الأنفال (٨) حيث تتكرر الآية الأولى أن المسلمين في الحرب يغلبون عشرة أضعاف عددهم في حين تتكرر الآية الثانية، بعد الإشارة إلى ضعف المسلمين في ذلك الوقت - الذي يقصد به قلة الرجال المدربين منهم ونقص عتاد الحرب ومستلزماتها - أن المسلمين يغلبون ضعف عددهم. ورغم أن الآيتين مرتبطتان بظرفين مختلفين ورغم أنه يمكن القول بأن كلاً من الآيتين تقييد معنى الأخرى، فإنه لا يمكن وصف إحداهما بأنها تنسخ الأخرى. ففي عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)، عندما كان المسلمون ضعفاء وعندما كان كل رجل، كبيراً كان أو صغيراً، يدعى للقتال وكان جيش المسلمين غير مجهز بالعتاد، غلب المسلمون ضعف عددهم بل وحتى ثلاثة أضعاف عددهم؛ ولكنه في الحروب التي خاضها المسلمون مع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية غلبوا عشرة أضعاف عددهم. ورغم أن كلا الخبرين صحيح؛ ورغم ارتباطهما بظروف مختلفة وتقييد إحداهما لمعنى الأخرى، فإنه لا يمكن القول بأن إحدى الآيتين تنسخ بالفعل الآية الأخرى.

أساس النسخ

يعتبر المبدأ الذي تقوم عليه نظرية النسخ مرفوضاً نظراً لتعارضه مع تعاليم القرآن الواضحة. وتعتبر الآية منسوخة بآية أخرى عندما يتعدى التوفيق بينهما، وبعبارة أخرى، عندما تبدو الآيتان متناقضتين إحداهما مع الأخرى. إلا أن القرآن يقوض هذا الأساس عندما يعلن أنه ليس هناك تعارض بين أجزائه: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٨٢)). ونظراً لعدم تدبر القرآن كان يعتقد أن آية ما تتعارض مع آية أخرى؛ وبالتالي، فتقريباً في جميع الحالات التي يقر فيها شخص ما بنسخ آية ما بأخرى، يدحض شخص آخر، قادر على التوفيق بين الآيتين، صحة النسخ المزعوم.

رأي السيوطي في النسخ

لم نجد الاتجاه لزيادة عدد الآيات التي يعتقد أنها منسوخة إلا بين الخلف من المفسرين، وقد قدر بعضهم عدد الآيات المنسوخة بخمسمائة آية. وفي هذا الصدد، علق السيوطي، وهو من مشاهير المفسرين، بقوله: "إن الذي أورده المكثرون (من عدد الآيات المنسوخة) أقسام: قسم ليس من النسخ في شيء ولا من التخصيص (لخبر عام) ولا له علاقة بهما بوجه من الوجوه وذلك مثل قوله تعالى: "وَمِمَّا زَكَّنَّا هُمْ يُنْفِقُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٣))؛ "وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ" (سورة المنافقون (٦٣): الآية رقم (١٠))؛ ونحو ذلك قالوا: إنه منسوخ بآية الزكاة وليس كذلك هو باق"^{٣٣}. ويحصى السيوطي نفسه عدد الآيات التي يرى أنها منسوخة بما يصل إلى إحدى وعشرين آية^{٣٤} يرى أنه يوجد في بعضها نسخ، في حين يرى في البعض الآخر مجرد تخصيص لأمر عام يتم بآية نزلت بعدها؛ ولكنه يقر بأن هناك اختلافاً في الرأي حتى حول هذه الآيات.

حكم شاه ولي الله على خمس آيات

ومع ذلك، ذكر أحد الكتاب الذين ظهوروا بعد ذلك، وتحديداً الكاتب الهندي الشهير/ شاه ولي الله، معلماً على النسخ في كتابه فوز الكبير، أنه لا يمكن إثبات حكم النسخ في حالة ست عشرة

^{٣٣} الإيقان في علوم القرآن، الجزء الثاني، ص. ٢٢.

^{٣٤} المرجع السابق، ص. ٢٣.

آية من الإحدى والعشرين آية التي حددها السيوطي، ولكنه في حالة الخمس آيات الباقية، يرى الكاتب أن الحكم بنسخها نهائي. وقد تم تناول الآيات الخمس في كتابه على النحو التالي:

(١) سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٠): "كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ". وفي الحقيقة، استشهد كل من البيضاوي وابن جرير^{٣٥} بأشخاص ثقة ذكروا أن هذه الآية لم تنسخ؛ ومن المذهل أن تعتبر هذه الآية منسوخة بالآيتين رقمي (١١) و(١٢) من سورة النساء (٤) اللتين تتحدثان عن الأنصبة التي تعطى للورثة "من بعد وصية يوصي بها أو دين" مما يدل بوضوح على أن الوصية التي ورد ذكرها في الآية رقم (١٨٠) من سورة البقرة (٢) كانت مازالت سارية المفعول. وفي الواقع، تتحدث هذه الآية عن الوصية للأغراض الخيرية التي أقرها المسلمون الآن بمقدار ثلث التركة.^{٣٦}

(٢) سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٤٠): "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ". إلا أننا لدينا كلمة شخص ثقة في وزن مجاهد يقول بأن هذه الآية غير منسوخة: "جعل الله لها (الأرملة) تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سکنت في وصيتها (كان لها نفقتها وسكنها في الدار سنة) وإن شاءت حرجت (وتزوجت ثانية) وهو قول الله تعالى (فإن حرجت فلا جناح عليكم) (البخاري ٦٥، سورة البقرة (٢): ٤١). ومن ثم، لا تتعارض هذه الآية مع ما ورد في الآية رقم (٢٣٤). علاوة على ذلك، هناك ما يثبت أنها نزلت بعد الآية رقم (٢٣٤) ومن ثم لا يمكن القول إنها منسوخة بالآية رقم (٢٣٤).

(٣) سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٦٥): "إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئْتِينَ" إلى آخر الآية. ويقال إن هذه الآية منسوخة بالآية التالية لها: "الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين". ويتضح عدم الحكم بالنسخ هنا مطلقاً من كلمات الآية الثانية التي تشير بوضوح إلى غزوات النبي الأولى التي كان فيها المسلمون ضعفاء حيث كان ينقصهم عتاد الحرب والخبرة في القتال وكان الكبير والصغير يضطر للخروج والقتال؛ في حين تشير الآية الأولى إلى مرحلة لاحقة كانت فيها جيوش المسلمين منظمة ومجهزة بالعتاد على أكمل وجه.

(٤) سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٥٢): "لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ". وقد ذكر أن هذه الآية منسوخة بآية يبدو أنها نزلت قبلها: "يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك" (سورة الأحزاب (٣٣):

^{٣٥} من مشاهير مفسري القرآن.

^{٣٦} تتم مناقشة موضوع الوصية بمزيد من التفصيل في الفصل الذي يحمل عنوان الميراث.

الآية رقم (٥٠)). فقد حدث سوء فهم للموضوع كله. فكما سبق أن ذكرنا، لا يمكن أن تنسخ الآية بآية نزلت قبلها. ويبدو أن ما حدث كان ما يلي: عندما نزلت الآية رقم (٣) من سورة النساء (٤) التي حددت عدد الزوجات بأربع، إذا اقتضت ظروف استثنائية ذلك، أمر النبي بألا يطلق العدد الذي زاد عن أربع زوجات وهذا الأمر أعطي بواسطة الآية رقم (٥٠) من سورة الأحزاب (٣٣)؛ ولكنه في نفس الوقت أمر بألا يتزوج أي نساء بعد ذلك وهذا الأمر أعطي له بواسطة الآية رقم (٥٢) من سورة الأحزاب (٣٣).

(٥) سورة المجادلة (٥٨): الآية رقم (١٢): "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَاسَّوْا عَلَىٰ نَفْسٍ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا اللَّهَ مَثَلًا لَّيْسَ لَهُ شُرَكَاءُ فِي سُدُورِهِمْ إِذْ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَطَيْنَا وَأَنزَلَ إِلَيْنَا الْكِتَابَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَهُمْ أَوْلَىٰ بِاللَّهِ تَقْوَىٰ" الآية منسوخة بالآية التالية لها: "أَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تُفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ". وليس من السهل أن نعرف كيف ينسخ أي من الأوامر بأمر آخر لأنه ليس هناك أدنى اختلاف فيما تقوله الآيتان. فالآية الثانية تقدم مجرد شرح للآية الأولى حيث توضح أن الأمر يأتي في شكل وصية، أي أنه يمكن للإنسان أن يعطي الصدقة مما زاد عن حاجته وقد كانت الزكاة هي الصدقة الوحيدة الواجبة.

وبذلك تبطل نظرية النسخ بجميع الاعتبارات.

تفسير القرآن

تذكر القاعدة المتبعة في تفسير القرآن في الكتاب الكريم نفسه: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٧)). أولاً، ذكر في هذه الآية أن هناك نوعين من الآيات في القرآن؛ هما تحديداً: الآيات المحكمات والآيات المتشابهات - والآيات المتشابهات هي تلك الآيات التي تحتمل عدة تفسيرات. ثم خبرنا الآية أن الآيات المحكمات هن أم الكتاب، أي أنها تشتمل على المبادئ الأساسية للدين. ومن ثم، فهما كانت الاختلافات في التفسير، فلن تتأثر بها المبادئ الأساسية للدين حيث إن كل هذه الاختلافات لها علاقة فقط بالأمر الثانوي. والنقطة الثالثة التي تطرحها الآية هي أن بعض الناس يسعون لتأويل الآيات المتشابهات بطريقتهم وبذلك يسعون للفتنة. وبعبارة أخرى، لا تنشأ الأخطاء الجسيمة إلا عندما يفرض تأويل خاطئ على الكلمات التي تحتمل معنيين. وأخيراً، في العبارة الختامية، تتم الإشارة

إلى الأسلوب الصحيح في تأويل الآيات المتشابهات: "كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا" - بمعنى أنه ليس هناك أي تعارض بين أجزاء الكتاب المتعددة. وفي الواقع، ذكر هذا الخبر في موضع آخر كما سبق أن استشهدنا (انظر سورة النساء (٤): الآية رقم (٨٢)). ومن ثم، يكون المبدأ الهام الذي يوضع نصب الأعين عند تفسير القرآن هو ضرورة البحث عن المعنى داخل القرآن وعدم تفسير أي آية بأسلوب يجعلها تتعارض مع آية أخرى وخاصة مع المبادئ الأساسية التي تم إرساؤها في الآيات المحكمات. وهذا المبدأ، كما ورد في كلمات الآية، هو المبدأ الذي يتبعه "الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ".^{٣٧} ومن ثم، يمكن إرساء القواعد التالية بشأن تفسير القرآن:

- ذكرت مبادئ الإسلام بكلمات محكمة في القرآن ومن ثم لا ينبغي محاولة إرساء مبدأ ما استناداً إلى أي آية متشابهة أو كلمات تحتمل عدة معان.
- ينبغي البحث عن تفسير الكتاب أولاً في القرآن نفسه؛ لأن ما يذكر بإيجاز أو يكتفى بمجرد الإشارة إليه في موضع ما نجده مفصلاً ومفسراً بالكامل في موضع آخر في القرآن.
- من المهم أن نتذكر أن القرآن يحتوي على المتشابه والمجازي جنباً إلى جنب مع الواضح والمحكم وأن الشيء الوحيد الذي يضمن عدم تضليل المتشابه أو المجازي للأفراد هو ضرورة اتفاق تفسير تلك الآيات تماماً مع ما تم إرساؤه من مبادئ بكلمات واضحة محكمة وعدم تعارضه معه.

^{٣٧} تتم معالجة موضوع تفسير الآيات القرآنية على نحو وافٍ في الآيات الافتتاحية من سورة آل عمران (السورة الثالثة) التي تبدأ بحوار مع النصارى، لأنه يجب أن يوضع في الاعتبار أن المبادئ الأساسية للمسيحية تستند بالفعل إلى تفسير خاطئ لبعض الآيات المتشابهات. والمبدأ الأساسي لدين جميع الأنبياء في العهد القديم هو وحدانية الله، إلا أنه هناك بعض النبوءات التي تمت صياغتها بلغة مجازية تشير إلى قدوم المسيح. وبدلاً من تفسير هذه الآيات وفقاً للكلمات الواضحة لمبدأ وحدانية الله، أرسى النصارى أسس الدين المسيحي على اللغة المجازية للنبوءات ونتيجة لعدم مراعاة القاعدة الصحيحة المتبعة في التفسير ضلوا إلى حد الإعراض عن المبادئ الأساسية لدين الأنبياء. وقد كان يعتقد أن المسيح إله استناداً إلى التعبيرات المجازية وبذلك أصبح مبدأ الثالوث المقدس أساس دين جديد. قد استخدمت صفة "ابن الله" بلا تعقيد في الكتابات اليهودية ودائماً ما تتخذ بمعناها المجازي. وقد ورد هذا اللفظ في أوائل سفر التكوين (الأصحاح ٦: الآية ٢) حيث يذكر أن "أبناء الله" يتخذون من بنات الناس زوجات. وقد ورد نفس اللفظ مرة أخرى في أيوب (الأصحاح ١: الآية ٦) و(الأصحاح ٣٨: الآية ٧) ويقصد في كلا الموضعين الرجال الصالحون. وفي سفر الخروج (الأصحاح ٤: الآية ٢٢) وفي مواضع أخرى كثيرة، يوصف اليهود بأنهم أبناء الله: "إسرائيل ابني البكر". ويستخدم التعبير بنفس المعنى المجازي في الأناجيل. وحتى في الإنجيل الرابع، حيث يتم التعبير عن ألوهية المسيح بجرأة أكثر مما ورد في الأناجيل المتوافقة، ذكر أن المسيح عيسى رد على من اتهموه بالتجديف لوصف نفسه بابن الله بقوله: "أليس مكتوباً في ناموسكم أنا قلت إنكم آلهة؟ إن قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله، ولا يمكن أن ينقض المكتوب؛ فالذي قدسه الأب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأنني قلت إنني ابن الله" (يوحنا، الأصحاح ١٠: الآيات ٣٤-٣٦). وبذلك يتضح لنا أنه حتى على لسان عيسى كان لفظ "ابن الله" مجازياً وأنه عندما أخذته الكنيسة بالمعنى الحرفي له هدمت أسس الدين. ويشير القرآن إلى هذا الخطأ الجسيم المرتبط بالمسيحية عن طريق ذكر قاعدة تفسير الآيات المتشابهات في مناقشة للدين المسيحي.

— عندما يتم وضع قانون ما أو إرساء مبدأ ما، يجب تفسير أي جملة تحمل معنى مشكوكًا فيه أو أي جملة تبدو متعارضة مع أحكام القانون الذي تم وضعه وفقاً للمبدأ الذي تم إعلانه. وبالمثل، يجب تفسير ما هو خاص على ضوء ما هو عام ووفقاً له.

أهمية الحديث والتفاسير في تفسير القرآن

في هذا الصدد، يمكننا أن نضيف أيضاً أن الحديث يقدم أيضاً تفسيراً للقرآن، إلا أنه لا يمكن قبول الحديث إلا إذا كان موثقاً في صحته ولا يتعارض مع التعاليم المذكورة بوضوح في القرآن.^{٣٨} وفيما يتعلق بالتفاسير، يجب التحذير من الاتجاه لاعتبار ما يذكر في كتب التفسير على أنه القول الفصل أو التفسير النهائي، لأنه بذلك سوف تحجب عن أعيننا كنوز المعرفة النفيسة التي يكشف عنها تفسير القرآن في ضوء التطور الحديث ويصبح القرآن كتاباً مغلقاً أمام الجيل الحاضر. وقد بحث العلماء المتبحرون في العصور السالفة دون قيود عن معانيه وفقاً لفهمهم وظروفهم ونفس الحق يعتبر حقاً مكتسباً للجيل الحاضر. كما يجب أيضاً أن نضيف أنه رغم أن هذه التفاسير تعتبر ذخائر نفيسة من المعرفة من أجل معرفة تعاليم القرآن، إلا أنه لا يمكن قبول العديد من الحكايات والأساطير الحافلة بها كثير من التفاسير إلا بحذر شديد وبعد تمحيص مدقق.^{٣٩}

تقسيمات القرآن

ينقسم القرآن إلى ١١٤ سورة.^{٤٠} والسور ذات أطوال مختلفة حيث تشكل أطول سورة في القرآن واحداً على اثني عشر من الكتاب كله. وتنقسم جميع السور، فيما عدا الخمس وثلاثين سورة الأخيرة، إلى أقسام (ركوع) حيث يتناول كل قسم بوجه عام موضوعاً معيناً وتكون الأقسام المختلفة مرتبطة بعضها ببعض. وكل قسم يحتوي على عدد من الآيات.^{٤١} ويبلغ إجمالي عدد الآيات ٦٢٤٠ آية^{٤٢}

^{٣٨} انظر أيضاً الفصل المتعلق بالسنة أو الحديث.

^{٣٩} معظم هذه القصص مأخوذ عن اليهود والنصارى، وبشأن هذه النقطة أود أن أحيل القارئ إلى تعليقاتي المنكورة تحت عنوان "روايات في السيرة والتفاسير" الوارد في الفصل القادم حيث ذكرت أن أفضل الأشخاص الثقات أدانوا معظم هذه المادة باعتبارها مأخوذة من مصادر يهودية ومسيحية.

^{٤٠} معناها الحرفي منزلة رفيعة (المفردات في غريب القرآن) (ص. ٦٩٥) كما تعني أيضاً أي مستوى في البناء (المعجم العربي - الإنجليزي للين).

^{٤١} تعني في الأصل علامة أو رسالة من الله سبحانه وتعالى.

^{٤٢} كان هناك اختلاف طفيف في عد الآيات في الأمصار المختلفة. حيث أحصى القراء في الكوفة عددها بـ ٦٢٣٩ وفي البصرة ٦٢٠٤ وفي سوريا ٦٢٢٥ وفي مكة ٦٢١٩ وفي المدينة ٦٢١١. ولكن هذا مجرد اختلاف في العد فقط

أو ٦٣٥٣ آية شاملة ١١٣ آية "بسم الله" التي تفتتح بها السور.^{٤٢} ولغرض التلاوة، يتم تقسيم القرآن إلى ثلاثين جزءاً متساوياً كل منها ينقسم بدوره إلى أربعة أجزاء متساوية. وهناك تقسيم آخر يتم فيه تقسيم القرآن إلى سبعة أجزاء (منازل) وهو تقسيم الهدف منه الانتهاء من تلاوة القرآن في سبعة أيام. وليس لتقسيمات القرآن لغرض التلاوة علاقة بموضوع القرآن.

السور المكية والسور المدنية

هناك تقسيم هام للقرآن يتعلق بالسور المكية والسور المدنية. فبعد الدعوة، أمضى النبي (صلى الله عليه وسلم) ثلاثة عشر عاماً في مكة ثم اضطر للهجرة مع الصحابة إلى المدينة حيث أمضى العشر سنوات الأخيرة من حياته. ومن مجموع السور البالغ عددها ١١٤ سورة، نزلت ٩٢ سورة خلال الفترة التي أمضاها في مكة و ٢٢ سورة خلال الفترة التي أمضاها في المدينة،^{٤٣} إلا أن السور المدنية تشكل تقريباً ثلث الكتاب الكريم نظراً لأنها تكون بوجه عام أطول من السور المكية. ومن حيث الترتيب، يعتبر التنزيل المكي متداخلاً مع التنزيل المدني؛ حيث نجد أعداد السور المكية والسور المدنية متتالية بالتعاقب: ١، ٤، ٢، ١٤، ١، ٨، ١، ١٣، ٣، ٧، ١٠، ٤٨. وعند الرجوع إلى الموضوع الذي يعالجه التنزيل المكي والتنزيل المدني، نجد أن هناك ثلاث سمات عامة تتميز بها كلتا الفئتين من السور. أولاً، يتناول التنزيل المكي في المقام الأول موضوع الإيمان بالله ويخصص بصفة خاصة لترسيخ ذلك الإيمان في قلوب المسلمين في حين يهدف التنزيل المدني في المقام الرئيسي إلى ترجمة ذلك الإيمان إلى فعل. ورغم أنه من الصحيح أننا نجد في التنزيل المكي الدعوة لعمل الأعمال الصالحة المكرومة في حين يذكر في التنزيل المدني أن الإيمان هو الأساس الذي ينبغي أن يبني عليه هيكل الأعمال، فإنه في الغالب يكون التركيز في التنزيل المكي على الإيمان بالله القدير الموجود الذي يجازي على كل أعمال الخير والشر في حين يتناول التنزيل المدني في المقام الأول ما هو خير وما هو شر، وبيانات أخرى، يتناول تفاصيل الشريعة الإسلامية. أما السمة الثانية التي يتميز بها التنزيلان فهي أنه رغم أن التنزيل المكي كان يتناول بوجه عام النبوة، فإن التنزيل المدني كان يتناول تحقيق هذه النبوة. ثالثاً، في الوقت الذي يوضح فيه التنزيل المكي مدى راحة البال الحقيقية التي يصل إليها العبد بالتقرب إلى ربه، يوضح التنزيل المدني كيف يمكن أن تكون معاملة الإنسان لأخيه مصدر سعادة وراحة له. ومن ثم، يبني الترتيب

^{٤٢} حيث كان بعض القراء يضعون علامة نهاية الآية في حين كان البعض الآخر لا يضعها.

^{٤٣} تبدأ كل سورة في القرآن بالبسملة فيما عدا سورة التوبة (السورة التاسعة).

^{٤٤} نزلت سورة النصر (١١٠) في مكة أثناء حجة الوداع ومن ثم تنتمي إلى الفترة التي أمضاها النبي في المدينة.

العلمي للقرآن بالضرورة على تداخل التنزيلين، ومزج الإيمان بالأعمال، ومزج النبوءة بتحقيقها، والمزج بين تقرب العبد إلى ربه وعلاقة الإنسان بأخيه ومعاملته له.

وفي هذا الصدد، يمكننا أن نضيف أن الفكرة القائلة بأن الترتيب الصحيح للقرآن ينبغي أن يكون ترتيباً زمنياً: هذه الفكرة مغلوطة. فمعظم السور القرآنية نزلت منجمة ومن ثم سوف يترتب على الترتيب الزمني للتنزيل هدم ترتيب السور تماماً. فعلى سبيل المثال، أول سورة نزلت على النبي وفقاً للترتيب الزمني هي السورة السادسة والتسعون وفقاً للترتيب الحالي للمصحف. فرغم أن أول خمس آيات من السورة كانت بلا شك أول ما نزل به الوحي على النبي (صلى الله عليه وسلم)، إلا أن باقي السورة لم ينزل قبل العام الرابع من بعثة النبي. ونفس الشيء ينطبق على السورة الثانية وفقاً للترتيب الحالي للمصحف؛ فرغم أن معظم السورة نزل على النبي (عليه الصلاة والسلام) في العامين الأول والثاني من الهجرة، فإن بعض الآيات نزلت في أواخر حياة النبي (صلى الله عليه وسلم). ومن ثم، يعتبر الترتيب الزمني للقرآن أمراً مستحيلاً.

مكانة القرآن في الأدب العالمي

إنه لغني عن القول أن القرآن يحتل مكانة رفيعة في الأدب العربي لم تكن من نصيب أي كتاب آخر؛ إلا أننا يمكن أن نزيد في القول ونؤكد بكل ثقة أن المكانة التي احتلتها القرآن لم يصل إليها في أي زمان أي كتاب في أي مكان. فأين ذلك الكتاب في تاريخ الجنس البشري الذي لم يظل، طيلة ثلاثة عشر قرناً من الزمان، باعتراف الجميع نموذجاً يحتذى به من حيث اللغة المكتوب بها فحسب وإنما أدى أيضاً إلى خلق أدب عالمي؟ فالعمل العظيم الذي أنجزه القرآن عمل فريد من نوعه في تاريخ الكلمة المكتوبة أجمع. فقد حول القرآن لهجة، تتحدث بها شعوب تقطن منطقة محدودة جداً في جزء منسي من العالم، إلى لغة عالمية صارت اللغة الأم لبلاد شاسعة وإمبراطوريات عظمى وأدى إلى خلق أدب يشكل أساس ثقافة الأمم القوية في شتى أنحاء العالم. فمن الصحيح أنه لم يكن يوجد أدب باللغة العربية قبل نزول القرآن؛ فالقطع الشعرية القليلة التي كانت توجد لم تتجاوز نطاق مدح الخمر أو النساء أو الخيل أو السيف. ويفضل القرآن، نشأ الأدب العربي ومن خلاله صارت اللغة العربية لغة قوية تتحدث بها شعوب بلدان كثيرة ولها تأثيرها على تاريخ الأدب في كثير من البلاد الأخرى. وبدون القرآن، لم يكن من الممكن أن تستخدم اللغة العربية في أي مكان في العالم. فكما يقول الدكتور/ ستاينجاس:

"ولكننا يمكن أن نتساءل أيضاً عما كان سيحدث، في جميع الاحتمالات، لهذه اللغة بدون محمد والقرآن الذي نزل عليه. فهذا التفكير ليس تفكيراً بلا جدوى أو هدف على الإطلاق. فمن الصحيح أن اللغة العربية قد أنتجت بالفعل العديد من النماذج الرائعة للشعر الأصيل الطنان، إلا أن هذا الشعر كان معظمه، إن لم يكن كله، محفوظاً في ذاكرة الناس... علاوة على ذلك، لا يعتبر الشعر بمثابة أدب... فلولا إرسال محمد ونزول القرآن عليه، لكان العرب، الذين كانوا منقسمين فيما بينهم إلى قبائل عديدة منخرطة في قتال مستمر بعضها مع بعض وبما كانوا يتحدثون به من لهجات عديدة، لكان من الممكن أن يزدادوا تفرقاً وكان الشعر تأثر من جراء ذلك ولكن من الممكن أن ينقسم سكان الجزيرة العربية إلى عدد كبير من العشائر لكل منها شعراؤها الذين يمكن للرحالة المقدمين في يومنا هذا جمع أغاني الحب والحرب التي كتبوها... وعندئذ يتضح لنا أنه بفضل القرآن وحده تطورت اللغة العربية القديمة لتصبح لغة أدبية... ولكن القرآن لم يحدث هذا التطور في الأدب العربي فقط عن طريق رفع لهجة معينة، من خلال تعميمه، إلى قوة اللغة وجعل استخدام الكتابة أمراً لا غنى عنه؛ وإنما أيضاً أسهم النسيج القرآني نفسه بعاملين كانا ضروريين بالفعل من أجل إحداث هذا التطور: فقد أضاف هذا النسيج إلى الشعر الذي كان موجوداً آنذاك أصول البلاغة والنثر... إلا أن محمداً اتخذ خطوة أعظم من ذلك لا يمكن إنكارها من أجل خلق أدب لقومه. ففي تلك السور، التي كان ينظم فيها جوانب الحياة الخاصة والعامة للمسلم، تمكن من خلق نثر ظل نموذجاً لسلامة اللغة الكلاسيكية منذ ذلك الوقت".^{٤٥}

وهناك اعتبارات أخرى توهم القرآن لشغل مكانة رفيعة لا يمكن أن يطمح أي كتاب آخر للوصول إليها. فالقرآن يلقي الضوء على جميع المبادئ الأساسية للدين،^{٤٦} ووجود الله ووحديته، وجزاء الخير والشر، والحياة بعد الموت، والجنة والنار، والوحي، وغيرها من الموضوعات. وبالإضافة إلى الكشف لنا عن أسرار الغيب، يقدم القرآن حلاً لأصعب المشكلات التي تواجهنا في الحياة، مثل توزيع الثروة، ومشكلة الجنس، وجميع القضايا الأخرى التي تتوقف عليها إلى حد ما سعادة الإنسان ورفيحه. وتزداد قيمة هذا الوابل من الأفكار عندما يتبين لنا أن القرآن لم يعلم الإنسان المبادئ العقائدية المتعنتة وإنما يذكر أسباب كل قول سواءً أكانت له صلة بالحياة الروحية أم بالحياة المادية. وهناك مئات الموضوعات التي أسهم بها القرآن في إثراء الأدب العالمي، وسواءً أكان يناقش القضايا المتعلقة بالحياة الروحية أم بالحياة المادية هنا على الأرض، كان القرآن يتبنى أسلوباً عقائدياً في المناقشة ويقنع بالحجة وليس بالتعنت.

^{٤٥} القاموس الإسلامي لهوجو، مقال موضوعه "القرآن"، ص. ٥٢٨، ٥٢٩.

^{٤٦} تم تناول هذا الموضوع على أتم وجه في الجزء الثاني من الكتاب.

والأعجب من ذلك هو التأثير الذي أحدثه القرآن. فالتحول الذي أحدثه القرآن ليس له نظير في تاريخ العالم. فقد أحدث القرآن تحولاً شاملاً في حياة أمة كاملة في فترة زمنية قصيرة لا يصدقها عقل - فترة لا تزيد عن ثلاثة وعشرين عاماً. فرغم أن القرآن وجد العرب يعبدون الأصنام، والأحجار غير المنحوتة، والأشجار، وكومات الرمال، إلا أنه في خلال أقل من ربع قرن من الزمان سادت عبادة الله الواحد الأحد وزالت عبادة الأصنام من المنطقة بأسرها. ونجح الإسلام في القضاء على جميع الخرافات التي كانت سائدة قبل ظهوره وأحل محلها أعظم دين عقلاني يمكن أن يحلم به العالم. فقد تحول العربي الذي تعود على الفخر بجهله إلى شخص محب للمعرفة ينهل من كل نبع للمعرفة يمكنه الوصول إليه. وقد كان هذا هو التأثير المباشر لتعاليم القرآن الذي لم يخاطب العقل فحسب مراراً وتكراراً وإنما أكد أيضاً على عدم ارتواء تعطش الإنسان للمعرفة. وقد ذهبت مع الخرافات الرذائل المتأصلة في العربي وأحل الكتاب الكريم محلها رغبة عارمة في عمل أفضل وأنبئ الأعمال التي تخدم الإنسانية. إلا أن القرآن لم يحدث تحولاً في الفرد وحده وإنما أحدث أيضاً تحولاً في الأسرة والمجتمع والأمة نفسها. كما أُلّف القرآن بين الأطراف المتحاربة من الجنس العربي إذ أصبحوا أمةً واحدةً متآلفةً تدب فيها الحياة والروح وتتهار أمام مسيرة تقدمها أعظم ممالك العالم كما لو كانت أشياء تتضائل أمام واقع الدين الجديد. وهكذا، أحدث القرآن تحولاً في مصير البشرية نفسها - تحولاً مادياً ومعنوياً، وبقضةً فكريةً وروحانيةً. وما من كتاب آخر تمكن من إحداث ذلك التحول المذهل في حياة البشر مثل الكتاب الكريم.

آراء الكتاب الأوروبيين في القرآن

يشهد أكثر الكتاب الأوروبيين تحيزاً على تلك المكانة التي احتلها القرآن في الآداب والكتابات العالمية:

"يتميز أسلوب القرآن بوجه عام بالجمال والسلاسة... وفي مواضع كثيرة يكون أسلوبه رفيعاً وبديعاً خاصة عند وصف جلال الله وصفاته... كما نجح القرآن في تحقيق إنجازات باهرة ونجح بشكل مذهل في سلب مستمعيه ألبابهم لدرجة أن العديد من معارضيه كانوا يعتقدون أن ذلك تأثير السحر".^{٤٧}

"ليس من المذهل أن أعظم الكتاب العرب لم ينجحوا في إنتاج أي عمل مماثل في القيمة للقرآن نفسه".^{٤٨}

^{٤٧} سيل، حوار تمهيدى، ص. ٤٨.

^{٤٨} بالمر، مقدمة، ص. ٤.

"أول ما نزل من السور المكية هو تلك السور التي تحتوي على أسمى التعاليم في دين عظيم وأظهر ما اتصف به رجل عظيم".^{٤٩}

"كلما رجعنا إليه، شعرنا بالضيق في البداية ثم سرعان ما يتبدد هذا الشعور ليحل محله جذب الانتباه والدهشة وفي النهاية يحظى على احترامنا. ويكون أسلوبه، بما يتفق مع مضمونه والهدف منه، قوياً بديعاً رائعاً ويكون أحياناً أسلوباً رفيعاً بحق... وهكذا سوف يظل لهذا الكتاب أقوى تأثير نتصوره عبر العصور".^{٥٠}

"يمكننا القول بأن القرآن أحد أعظم الكتب التي كتبت حتى وقتنا هذا... فأسلوبه رفيع بسيط عندما يدعو للإيمان بالحقيقة السامية المتمثلة في وحدانية الله؛ ويناشد بأسلوبه الطنان خيال الأشخاص ذوي الموهبة الشعرية عندما يصف العواقب الأبدية المترتبة على إذعان الإنسان لإرادة ربه أو عصيانه لها؛ ويكون أسلوبه مؤثراً بما فيه من جدية بسيطة تكاد تكون صريحة عندما يسعى مراراً وتكراراً لطمأنة أو مواساة رسول الله ويوجه تحذيراً جاداً لمن أرسل لهم الرسول في قصص الأنبياء السابقين؛ وتتناسب لغة القرآن مع ضرورات الحياة اليومية الملحة عندما يدعو القرآن لتوافق هذه الحياة اليومية، بجوانبها الخاصة والعامة، مع المبادئ الأساسية للشريعة الجديدة".

"من ثم، ينبغي هنا قياس مزياه كأثر أدبي ليس وفقاً للمبادئ المسبقة الخاصة بالذوق الشخصي والفني وإنما من الآثار التي أحدثها القرآن في حياة معاصري محمد وأبناء عشيرته. فإذا كان القرآن قد خاطب قلوب من يستمعون له بحجة وإقناع لدرجة أنه ألف بين العناصر المتباعدة التي كانت متنازعة حتى عهد النبي فجعل منهم كياناً منظماً مترابطاً تبعث فيه الروح أفكار بعيدة كل البعد عن الأفكار التي تسبطر على العقلية العربية حتى وقتنا هذا، فعندئذ كانت بلاغته كاملة لأنه نجح في خلق أمة متحضرة من القبائل الهمجية وفي نسج خيوط جديدة على نول التاريخ القديم".^{٥١}

"منذ قديم الزمان، كانت مكة وشبه الجزيرة العربية غارقتين في سبات روحاني عميق. وكان التأثير الطفيف والعابر لليهودية أو المسيحية أو الدراسة الفلسفية على العقلية العربية أشبه بتحريك الأمواج هنا وهناك على سطح بحيرة هادئة؛ في حين ظل كل ما هو تحت السطح ساكناً بلا حراك. وكان الناس غارقين في الخرافة، والوحشية، والرذيلة... وكان دينهم عبادة الأصنام البغيضة

^{٤٩} مختارات من القرآن الكريم للكاتب لين، مقدمة، ص. ٦.

^{٥٠} جوته - القاموس الإسلامي لهوجو، ص ٥٢٦.

^{٥١} ستاينجاس - القاموس الإسلامي لهوجو، ص. ٥٢٧، ٥٢٨.

وكانت عقيدتهم العيش في ظلمات الرعب الخرافي من المخلوقات غير المرئية... وقبل الهجرة بثلاثة عشر عاماً، كانت مكة بلا حياة في حالة الانحطاط ذلك... وبإله من تغيير ذلك الذي أحدثته الثلاثة عشر عاماً... وكانت الحقيقة اليهودية قد دوت منذ فترة طويلة في آذان أهل المدينة؛ ولكنهم لم يستيقظوا من سباتهم العميق وتدب فيهم فجأة حياة جديدة جادة حتى سمعوا صوت ذلك النبي العربي الذي بعث فيهم الروح.^{٥٢}

"كان من الصعب أن نجد أناساً أكثر تفككاً من القبائل التي كانت تعيش في الجزيرة العربية حتى حدثت المعجزة فجأة. فقد ظهر رجل تمكن بشخصيته وبما أعلنه من تلقيه الهداية الإلهية المباشرة من تحقيق المستحيل بالفعل - ألا وهو لم شمل جميع الأطراف المتحاربة."^{٥٣}

"لقد كان المعجزة الوحيدة التي جاء بها محمد - والتي أطلق عليها لفظ "المعجزة الباقية": وإنه حقاً لمعجزة".^{٥٤}

"ما من قوم تمكنوا من الوصول إلى الحضارة بسرعة أكثر من العرب عن طريق الإسلام."^{٥٥}

"لا يضاهي القرآن من حيث قدرته على الإقناع، وبلاغته، ونسيجه... كما يرجع إلى القرآن أيضاً بصورة مباشرة ذلك التطور المذهل في جميع فروع العلم في العالم الإسلامي."^{٥٦}

ترجمة القرآن

يرى بعض علماء الدين أنه لا ينبغي ترجمة القرآن إلى أي لغة ولكن من الواضح أن هذا الرأي لا يمكن الدفاع عنه. فقد أنزل الكتاب الكريم صراحة من أجل كل الأمم؛ وأطلق عليه مراراً وتكراراً أنه "ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ" (سورة القلم ٦٨): الآية رقم (٥٢)؛ سورة التكويد (٨١): الآية رقم (٢٧)؛ وسور

^{٥٢} حياة محمد، لموير، ص. ١٥٥، ١٥٦.

^{٥٣} بواطن الأمور وظواهرها في بلاد ما بين النهرين.

^{٥٤} محمد والمحمدية، لبوسويرث سميث، ص. ٢٩٠.

^{٥٥} أبحاث جديدة في جمع وتفسير القرآن، لهيرشفيلد، ص. ٥.

^{٥٦} المرجع السابق، ص. ٨، ٩.

أخرى). ويوصف النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه أرسل "لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا" (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (١)). وما من إنذار يمكن أن ينقل لأمة إلا بلغتھا الخاصة وعليه لا يمكن أن يوصف القرآن بأنه ذكر للعالمين إلا إذا كان يراد من رسالته أن تنقل للعالمين بلغتهم الخاصة. وبالتالي، تنبأ الكتاب الكريم نفسه بترجمته إلى لغات أخرى.^{٥٧}

^{٥٧} قام المسلمون أنفسهم بالفعل بترجمة القرآن إلى لغات عديدة. فهناك ترجمة فارسية تنسب إلى الشيخ سعدى في حين أن هناك ترجمة أخرى إلى الفارسية تنسب إلى العالم الهندي التقي الشهير/ شاه ولي الله الذي توفي منذ ١٥٠ عاماً. كما قام أفراد أسرة شاه ولي الله بترجمة القرآن إلى الأوردية؛ وهم تحديداً: شاه رفيع الدين وشاه عبد القدير في حين تمت إضافة المزيد من الترجمات إلى الأوردية في الآونة الأخيرة. كما توجد أيضاً ترجمات أخرى بلغات أخرى عديدة. وقد ذكرت أول ترجمات للقرآن باللغات الأوروبية في القاموس الإسلامي لهوجو على النحو التالي: "أول محاولة قام بها الأوروبيون لترجمة القرآن كانت ترجمة لاتينية قام بها مواطن إنجليزي يدعى روبرت من مدينة ريتينا ومواطن ألماني يدعى هيرمان من دالماتيا. وقد ظلت هذه الترجمة، التي أجريت بناء على طلب القديس بيتر، رئيس دير كلوجني عام ١١٤٣ م، محجوبة عن الأنظار قرابة ٤٠٠ عام من الزمان حتى نشرها تيودور بيلياندر في مدينة بازل عام ١٥٤٣ ثم ترجمت بعد ذلك إلى الإيطالية، والألمانية، والهولندية... وأقدم ترجمة فرنسية للقرآن أجراها إم. دو ريبه (باريس، ١٦٤٧). وظهرت ترجمة روسية للقرآن في مدينة سانت بيترزبرج عام ١٧٧٦... وكانت أول ترجمة إنجليزية للقرآن هي ترجمة إلكسندر روس عن الترجمة الفرنسية التي أجراها دو ريبه (١٦٤٩-١٦٨٨). وقد ظهر عمل سيل الشهير أول مرة عام ١٧٣٤... وفي عام ١٨٦١، طبعت ترجمة للقرآن أجراها القس/ جيه. إم. رودويل... وفي عام ١٨٨٠، ترجم البروفسور/ بالمر من كامبريدج القرآن" (ص. ٥٢٣).

الفصل الثاني

السنة والحديث

السنة والحديث

تعتبر السنة أو الحديث (أي أفعال وأقوال النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)) المصدر الثاني الذي يأتي بلا شك بعد القرآن والمستمدة منه تعاليم الإسلام^١ وبالمعنى الأصلي للكلمة، تشير كلمة السنة إلى أفعال النبي (صلى الله عليه وسلم) في حين يشير الحديث إلى أقواله عليه الصلاة والسلام؛ ولكن في الحقيقة كلاهما يتناول نفس الموضوع ويطلق على أفعاله وأقواله صلى الله عليه وسلم، فالحديث هو سرد وتدوين للسنة ولكنه يحتوى، بالإضافة إلى ذلك، على عناصر النبوة والعناصر التاريخية المختلفة. وتنقسم السنة إلى ثلاثة أنواع. فقد تكون سنة قولية (أي قولاً من أقواله عليه الصلاة والسلام ذا صلة بقضية دينية معينة)، أو سنة فعلية (أي فعلاً)، أو سنة تقريرية (أي ما كان عليه الصلاة والسلام يقره من أفعال الغير).

والآن، سوف نتناول بالمناقشة إلى أي مدى استمدت تعاليم الإسلام، ومبادئه، وشرائعه من هذا المصدر. فأى دارس للقرآن يعلم أن الكتاب الكريم يتناول بوجه عام مجمل مبادئ أو أسس الدين ولا يخوض في تفاصيل إلا في حالات نادرة. والنبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه هو الذي فصل هذه المبادئ إما بتوضيح طريقة تنفيذ أمر معين ورد في القرآن من خلال أفعاله أو بتفسيره بالقول.

ولم تكن السنة أو الحديث النبوي، كما يعتقد بوجه عام، شيئاً ربما لم يشعر المسلمون بالحاجة إليه إلا بعد وفاة النبي (عليه الصلاة والسلام) إذ كانت هناك حاجة ماسة إليه في حياته صلى الله عليه وسلم أيضاً. فرغم أن أهم فريضتين من فرائض الإسلام، على سبيل المثال، هما الصلاة والزكاة (الصدقة الواجبة)، فإنه عندما نقلت الأوامر المتعلقة بهما - والتي تكرر ذكرها في التنزيلين

^١ المعنى الحرفي لكلمة السنة هو طريقة أو قاعدة أو أسلوب تصرف أو أسلوب حياة في حين أن الحديث هو قول ينقل إلى رجل إما من خلال السماع أو من خلال الوحي. ومن ثم، يوصف القرآن الكريم أيضاً بأنه حديث (سورة الكهف (١٨): الآية رقم (٦)؛ سورة الزمر (٣٩): الآية رقم (٢٣)). وتستخدم كلمة السنة في القرآن بمعناها العام، أي طريقة أو قاعدة. وهكذا تعني "سنة الأولين" (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٣٨)؛ سورة الحجر (١٥): الآية رقم (١٣)؛ سورة الكهف (١٨): الآية رقم (٥٥)؛ سورة فاطر (٣٥): الآية رقم (٤٣)) طريق أو مثل الأولين وتستخدم كلمة سنة كثيراً في القرآن للدلالة على طريقة معاملة الله سبحانه وتعالى لعباده والتي توصف أيضاً بأنها "سنة الله" أو طريقته سبحانه وتعالى. ومع ذلك، يستخدم الجمع سُنن للدلالة على الطرق التي ينبغي على الإنسان سلوكها: "يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٦)).

المكي والمدني - لم ترد في الكتاب الكريم تفاصيل عنهما. فعبارة "أَقِيمُوا الصَّلَاةَ" تشير إلى أمر قرآني والنبوي (صلى الله عليه وسلم) نفسه هو الذي بين بأفعاله تفاصيل الصلاة (أي عدد ركعاتها وأوقاتها). وبالمثل، فعبارة "آتُوا الزَّكَاةَ" تشير إلى أمر تكرر كثيراً في القرآن، إلا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) هو الذي وضع شروط وأحكام دفع الزكاة وجمعها. وهذان فقط مثالان على المجمل في القرآن الذي بينته السنة؛ ولكنه نظراً لأن الإسلام تناول جميع ميادين النشاط البشري لذا كان على النبي أن يبين مئات الموضوعات بكونه قدوة يقتدى بها في الفعل والقول في حين أنه عليه الصلاة والسلام كان، في الجانب الأخلاقي، أسوة وجب على كل مسلم اتباعها (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٢١)). ومن ثم، كان من يعتنق الإسلام في حاجة ماسة للقرآن والسنة معاً.

نقل الحديث في عهد النبي (ص)

وهكذا، أصبح نقل أفعال وأقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) من شخص لآخر أمراً ضرورياً أثناء حياته عليه الصلاة والسلام. وفي الواقع، كان النبي نفسه يوصي بتبليغ ما كان يعلمه للمسلمين. وهكذا، فعندما أتى وفد قبيلة ربيعة إلى النبي ليقدم له فروض الولاء والطاعة في أوائل أيامه بالمدينة، اختتم عليه الصلاة والسلام وصاياه إليهم بقوله: "اَحْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُمْ".^٢ وقد صدرت عنه وصايا مماثلة في حالة أخرى عندما قال: "ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَعَلِمُوهُمْ" (البخاري ٣: ٢٥). وهناك حديث آخر حرم فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) أثناء الحج على المسلمين دماءهم، وأموالهم، وأعراضهم، وبعد ذلك أضاف قائلاً: "وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ" (البخاري ٣: ٣٧). كما وردت أيضاً في التاريخ أدلة كافية تثبت أنه عندما كان قوم يعتنقون الإسلام، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يرسل إليهم رسولاً أو أكثر من رسله الذين كانوا لا يعلمونهم القرآن فحسب وإنما كانوا أيضاً يوضحون لهم عملياً طريقة تنفيذ ما ورد فيه من أوامر. كما سجل التاريخ أيضاً أن الناس كانوا يأتون إلى النبي (عليه الصلاة والسلام) ويطلبون منه معلمين يعلمونهم القرآن والسنة. وقد كان صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعلمون جيداً أنه وجب عليهم اتباع أفعاله إذا لم يرد أمر صريح في القرآن. ويروى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سأل معاذ بن جبل عندما عينه حاكماً على اليمن كيف يقضي إذا عرض عليه قضاء فأجاب "أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ". وعندما سأله عما سيفعل إذا لم يجد في كتاب الله أجاب: "فَيَسْتَنْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (أبي داود ٢٣: ١١). وعليه، تم إقرار السنة في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) كمصدر للهدى في الأمور الدينية.

^٢ مشكاة المصابيح، الجزء الأول، ١-١.

تدوين الحديث في عهد النبي (ص)

وتنفي الحقائق سالفة الذكر الفكرة الشائعة في الغرب بأن المسلمين قد شعروا بالحاجة للسنة وأعطوا لها قوة الشريعة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم).^٢ وبالمثل، لم يكن حفظ أفعال أو أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) فكرة خطرت ببال المسلمين بعد وفاته لأن الصحابة عندما كانوا يترجمون معظم أقواله إلى فعل، كانوا يجتهدون أيضاً لحفظها في ذاكرتهم وكذلك على الورق. ويمكن إرجاع الحاجة للسنة، واكتسابها قوة الشريعة، وحفظها في الذاكرة وعلى الورق إلى عهد النبي (صلى الله عليه وسلم). فمنذ البداية، أوليت أهمية غير عادية لأقواله وأفعاله، عليه الصلاة والسلام، التي كان أتباعه ينظرون إليها على أنها مصدر للهدى. فقد كانوا مدركين للحاجة لحفظ هذه الأشياء من أجل الأجيال المقبلة؛ ومن ثم لم يحفظوها في ذاكرتهم فحسب وإنما استعانوا أيضاً بالكتابة من أجل حفظها. ويروي أبو هريرة أن رجلاً من الأنصار شكاً إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) عدم قدرته على حفظ ما يسمعه منه من حديث فأجابته النبي بأنه ينبغي عليه أن يستعين بيمينه (مشيراً إلى استخدام القلم).^٤ وهناك حديث آخر معروف رواه عبد الله بن عمرو قال فيه: "كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرِيدُ جَفْظَهُ (فَتَهْتَيْتُ فُرَيْشًا) فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ".^٥ وهناك أيضاً حديث آخر رواه أبو هريرة قال فيه: مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلَا أَكْتُبُ".^٦ وقد روى أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق دون عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أحكام الزكاة.^٧ كما دون أيضاً علي (رضي الله عنه) أقوال النبي كتابة.^٨ وفي عام فتح مكة،

^٣ وهكذا كتب موير في مقدمة كتابه حياة محمد يقول: "وجد العرب، وهم جنس بسيط على طبيعته، في القرآن أحكاماً كثيرة تنظم شؤونهم - الدينية، والاجتماعية، والسياسية. إلا أن هذا الجانب في الإسلام سرعان ما خضع لتغيير شديد. فما أن دفن النبي حتى خرج أتباعه من أرض شبه الجزيرة العربية الجذباء عاقدين العزم على فرض الدين الإسلامي على جميع أمم الأرض... وقد كانت المدن المزدهمة، مثل الكوفة، والقاهرة، ودمشق، في حاجة لتشريعات مفصلة من أجل إرشاد المحاكم فيها بشأن الأحكام التي تصدرها؛ وقد كان توسيع العلاقات السياسية يتطلب نظام عدل عالمياً... كل هذه الاعتبارات كانت تقتضي، بشكل ملح، أن يتم تقصيل التعاليم غير الوافية المجردة التي وردت في التنزيل... وقد حسمت المشكلة باتباع سنة محمد؛ أي أقواله وأفعاله، كتمتم للقرآن... وهكذا اكتسبت السنة قوة الشريعة وبعض حجية الوحي" (ص. ٢٩). وقد كتب كاتب معاصر، يدعى جيوم، في كتابة الأحاديث النبوية الإسلامية يقول: "كان النبي أثناء حياته الهادي الوحيد للمسلمين في جميع أمورهم سواء أكانت روحانية أم دنيوية. ويمكن القول بأن الحديث، أو اصطلاحاً السنة، قد بدأ يكتسب قوة الشريعة بعد وفاته" (ص. ١٣).

^٤ الترمذي ٣٩: ١٢. لاحظ أن هذا الحديث يوجد بعدة صيغ.

^٥ سنن أبي داود ٢٤: ٣. هذا الحديث معروف ويوجد بثلاثين صيغة مختلفة توجد بينها اختلافات طفيفة.

^٦ البخاري ٣: ٣٩.

^٧ البخاري ٢٤: ٣٩.

^٨ المرجع السابق ٣: ٣٩.

خطب النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما قتل رجل انتقاماً منه لارتكابه ظلماً في الماضي. وعندما انتهت الخطبة، تقدم رجل من أهل اليمن وطلب منه عليه الصلاة والسلام أن يأمر بكتابة الخطبة من أجله فأمر النبي بذلك.^٩ وتدل هذه الروايات على أنه رغم أن الحديث كان بوجه عام يحفظ في الذاكرة، فإنه كان في بعض الأحيان يدون عندما تكون هناك حاجة لذلك. وتقدم الواقعة سאלفة الذكر دليلاً قاطعاً على أنه ما كان الصحابة يسمعون من النبي (صلى الله عليه وسلم)، كانوا يجتهدون لحفظه في ذاكرتهم، وإلا فكيف يمكن إعطاء أمر بكتابة خطبة شفوية إن لم تكن تحفظ في الذاكرة؟

السبب في عدم تدوين الأحاديث بوجه عام

ورغم ذلك، فمن الصحيح أن أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) لم تكن بوجه عام تكتب وأن الذاكرة كانت هي الوسيلة الأساسية لحفظها. وقد كان النبي يعترض أحياناً على كتابة أقواله عليه الصلاة والسلام. فيروي عن أبي هريرة قوله: "كُنَّا فُعُودًا نَكْتُبُ مَا نَسْمَعُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ مَا هَذَا تَكْتُبُونَ فَقُلْنَا مَا نَسْمَعُ مِنْكَ فَقَالَ أَكْتَابَ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ؟" ويدل الاستتكار في هذه الحالة بوضوح على خوف النبي (صلى الله عليه وسلم) من أن تختلط أحاديثه بكلمة القرآن المنزلة من عند الله رغم أنه لم يكن في الأساس هناك شيء خطأ في تدوين هذه الأحاديث كما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم ينة عن ذلك. ومن ناحية أخرى، نجده عليه الصلاة والسلام، في أواخر فتح مكة، يعطي أوامر بنفسه بكتابة قول معين من أقواله بناء على طلب من سمعه. كما كان عليه الصلاة والسلام أيضاً يكتب الكتب ويأمر بتدوين العهود كتابة مما يدل على أنه لم يكن يقصد أن كتابة أي شيء مع كتاب الله محرمة. وإنما كان ما يخشاه عليه الصلاة والسلام، كما يوضح الحديث، هو أنه في حالة تدوين أقواله بوجه عام مثل القرآن قد يختلط الاثنان مما يترتب عليه احتمال النيل من سلامة النص القرآني.

إمكانية الاعتماد على الذاكرة في حفظ العلم

لم تكن الذاكرة قط وسيلة لا يعتمد عليها في حفظ الحديث لأن القرآن نفسه كان يحفظ بدون أخطاء في ذاكرة صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا بالإضافة إلى تدوينه. وفي الواقع، لو كان القرآن حفظ فقط كتابةً لكان من المستحيل أن ينقل إلى الأجيال القادمة بتمامه. وقد كان يتم اللجوء إلى وسيلة الذاكرة لزيادة التأكد من سلامة النص. وقد كان العربي يتمتع بذاكرة قوية مرهفة الاستنكار كان يمكنه أن يخزن فيها معرفته بأشياء لا تحصى. ففي هذه الحافظة المأمونة ظل الشعر الجاهلي كله حياً غير

^٩ المرجع السابق.

منقوص. وفي الواقع، نجد أنه في العصر الجاهلي قلما كان العرب يلجأون للكتابة وكانوا يعتمدون في المقام الأول على الذاكرة في حفظ جميع أمورهم الهامة. وكان يمكن لرجل واحد أن يسرد من ذاكرته مئات بل وآلاف الأبيات الشعرية كما كان من يسردون الشعر يتذكرون أيضاً أسماء الأشخاص الذين نقلت إليهم هذه الأبيات من خلالهم. ويقول الأصمعي، وهو من الخلف من رواة الحديث، أنه حفظ عن ظهر قلب اثني عشر ألف بيت من الشعر قبل بلوغه؛ ويقول الأصمعي عن أبي زمزم أنه كان يسرد الأبيات الشعرية التي كان يحفظها عن مئات الشعراء في جلسة واحدة؛ ويقول الشعبي أنه كان يحفظ عن ظهر قلب كثيراً من الأبيات الشعرية لدرجة أن سردها كان من الممكن أن يأخذ منه شهراً؛ وقد كانت هذه الأبيات الشعرية هي الأساس الذي بنيت عليه المفردات العربية بل وعلم النحو العربي. ومن بين صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان هناك الكثيرون الذين حفظوا عن ظهر قلب آلاف أبيات الشعر الجاهلي ومن هؤلاء كانت السيدة عائشة (رضي الله عنها)، زوجة النبي (صلى الله عليه وسلم). كما كان المحدث الشهير البخاري يركن إلى ذاكرته فقط في حفظ ستمائة ألف حديث وكان كثير من تلاميذه يصححون صحائفهم بمقارنتها بما كان يحفظه في ذاكرته فقط.

جمع الحديث: المرحلة الأولى

وهكذا تم اتخاذ الخطوات الأولى نحو حفظ الحديث في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم)^{١٠}، ولكن لم يكن جميع أتباعه مهتمين بنفس القدر بهذا الأمر ولم تتح لهم فرص متساوية لذلك. فقد كان على كل فرد العمل لكسب رزقه في الوقت الذي ألقى فيه الدفاع عن الأمة الإسلامية ضد الصراعات الشديدة بعبء آخر على عاتق معظمهم. ورغم ذلك، كانت هناك فئة من طلبة العلم أطلق عليهم اسم أصحاب الصفة كانوا يعيشون في المسجد وقد تم إعدادهم إعداداً خاصاً لتعليم الدين للقبائل التي كانت تقطن خارج المدينة المنورة. وقد كان بعض هؤلاء يذهبون للسوق ويقومون بقليل من العمل من أجل كسب رزقهم؛ في حين كان الآخرون لا يباليون حتى بذلك. ومن أشهر أفراد هذه الفئة الصغيرة أبو هريرة الذي كان يلازم النبي (صلى الله عليه وسلم) مهما كلفه الأمر ويخزن في ذاكرته كل شيء يقوله أو يفعله النبي (عليه الصلاة والسلام). وقد كانت جهوده، منذ البداية، موجهة نحو حفظ الحديث. ويروي عنه قوله ذات مرة: "إِنَّكُمْ تَقُولُونَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْتَبُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقُولُونَ مَا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا

^{١٠} وهكذا كتب جيوم في كتابه الأحاديث النبوية الإسلامية بقول: "لا يبطل الحديث الذي سبق الاستشهاد به القول بأن الأحاديث الشريفة كانت تدون مباشرة من فم النبي؛ فالأهمية غير العادية التي أوليت لكل قول من أقواله جعلت بالطبع أتباعه القادرين على الكتابة يدونون أقواله ليكرروها على من كانوا يرغبون في معرفة أقواله؛ ولا يوجد على الإطلاق في أي من الكتابات الأولى ما يثبت أن هذه الممارسة لم تكن مستحبة لمحمد" (ص. ١٧).

يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَأَنَّ يَشْعَلُهُمْ صَفْقٌ بِالْأَسْوَاقِ وَكُنْتُ أَلْتَرُّمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مِلاءِ بَطْنِي فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا وَكَأَنَّ يَشْعَلُ إِخْوَتِي مِنَ الْأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ وَكُنْتُ أَمْرًا مَسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ أَعْيَ حِينَ يَنْسُونَ" (البخاري ٣٤: ١). ويروى عن صحابي آخر، هو طلحة بن عبيد الله، قوله عن أبي هريرة: "فَلَا أَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَمْ نَسْمَعْ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَسْكِينًا لَا شَيْءَ لَهُ ضَيْقًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". ويروى عن محمد بن عماره قوله: "قعد في مجلس مشيخة من الصحابة بضعة عشر رجلاً فجعل أبو هريرة يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديث فلا يعرفه بعضهم فيراجعون فيه حتى يعرفوه ثم يحدثهم بالحديث كذلك ثم فعل مراراً فعرفت يوماً أن أبا هريرة أحفظ الناس".^{١١} ووفقاً لرواية أخرى، كان الناس يقولون في حياة النبي إن أبا هريرة أكثر في التحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم). وهكذا، سأل أبو هريرة رجلاً منهم عن أي السور قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) البارحة ليلاً في صلواته. فلم يتمكن الرجل من الإجابة على السؤال، فذكر أبو هريرة نفسه السور^{١٢} مما لا يدل فحسب على أن أبا هريرة كان يتمتع بحافظة قوية وإنما يدل أيضاً على أنه كان يبذل أقصى ما في وسعه لحفظ كل شيء.

كما كانت السيدة عائشة (رضي الله عنها)، زوجة النبي (صلى الله عليه وسلم)، ممن كانوا يجتهدون لحفظ سنة النبي. فقد كانت تتمتع أيضاً بحافظة قوية كما وهبها الله، بالإضافة إلى ذلك، ذهناً صافياً كانت بفضلها لا تقبل أي شيء لا تفهمه: وروي أنها: "كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ".^{١٣} وبعبارة أخرى، كانت لا تقبل أي شيء، حتى ولو كان من فم النبي (صلى الله عليه وسلم)، حتى تقتنع تماماً بمعناه. كما كان عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس صحابيين آخرين ممن كانوا منشغلين بصفة خاصة بأعمال حفظ ونقل علم القرآن والحديث شأنهما في ذلك شأن عبد الله بن عمرو الذي كان يدون أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم). وبالإضافة إلى هؤلاء، كان كل صحابي يبذل قصارى جهده لحفظ أقوال وأفعال النبي التي ترد إلى علمه. وقد اتفق عمر (رضي الله عنه)، الذي كان يقطن على بعد حوالي ثلاثة أميال من المدينة المنورة، مع جار له على أن يتناوبا النزول على النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلبغ الحاضر منهما الغائب بما حدث في غيابه.^{١٤} والأهم من ذلك كله، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) مراراً وتكراراً يلقي على عاتق

^{١١} فتح الباري، الجزء الأول، ص. ١٩١.

^{١٢} البخاري ٢١: ١٨.

^{١٣} البخاري ٣: ٣٥.

^{١٤} المرجع السابق ٣: ٢٧.

كل من أتباعه واجب تبليغ الآخرين بأقواله صلى الله عليه وسلم: "وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ"^{١٥} وهي الجملة التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يختتم بها أهم أقواله عليه الصلاة والسلام، وكل هذا يقدم دليلاً قاطعاً على أن مهمة حفظ ونقل أفعال وأقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) بدأت أثناء حياته. وكانت هذه هي المرحلة الأولى من مراحل جمع الحديث.

جمع الحديث: المرحلة الثانية

ب وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم)، دخل عمل جمع الحديث في مرحلته الثانية. و في هذه المرحلة، كان يجب الرجوع إما إلى كتاب الله أو إلى حكم أو قول من أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) للفصل في كل مسألة، مما ترتب عليه تداول أحكامه وأقواله عليه الصلاة والسلام على نطاق واسع. وقد سجل التاريخ عدة حالات تم فيها المطالبة بحق ما استناداً إلى حكم أو قول من أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) وكانت تطلب شهادة الصحابة لإثبات صحة هذا القول.^{١٦} وهكذا، كان يتم القيام بعملين؛ فلم يكن يتم التحقق بما لا يدع مجالاً للشك من صحة حديث بعينه فحسب وإنما كان يتم أيضاً تداوله على نطاق واسع. وهكذا، أدت الاحتياجات المتعددة لأمة تتزايد أعداد أفرادها بسرعة وتمتد في أماكن كثيرة، وازدادت احتياجاتها عشرة أضعاف احتياجاتها من قبل بسبب مسيرة تقدمها نحو الحضارة، هذه الاحتياجات أدت إلى معرفة عدد كبير من الأحاديث، التي كانت معرفتها مقصورة فقط على فرد أو عدد قليل من الأفراد، والتي تم التصديق على صحتها لأنه كانت توجد في ذلك الوقت شهادة مباشرة على صحة تلك الأحاديث.

ولم يكن هذا هو العامل الوحيد الذي أعطى دفعة لنشر علم الحديث. فقد شكل دخول أعداد كبيرة من الناس في الإسلام لم يروا قط النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه وإنما شهدوا بأنفسهم التحول المذهل الذي أحدثه في البشرية، ومن ثم كانت ذكره بالنسبة لهم عطرة، إلى أقصى درجة،

^{١٥} المرجع السابق ٣: ٣٧.

^{١٦} روى صحابي يدعى قبيصة بن ذؤيب أن جدة متوفى جاءت إلى أبي بكر، أول الخلفاء الراشدين، وطلبت حقها في الميراث من حفيدها. فقال أبو بكر أنه لا يجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ما يمنحها الحق في أي نصيب، ولكنه سوف يسأل الناس عنه. وعندما سأل الناس، شهد المغيرة بن شعبة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعطى الجدة السدس. فطلب منه أبو بكر إحضار شاهد آخر لتعزيز شهادته فمثل أمامه محمد بن مسلمة يعزز شهادة المغيرة. وبناء على هذه الشهادة، حكم للجدة (الترمذي ٢٨: ٩؛ أبي داود ١٨: ٥). كما طالبت أيضاً السيدة فاطمة (رضي الله عنها)، ابنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بحق في الميراث من أبيها. فلم يجب أبو بكر طلبها مستشهداً بقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لَا تُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً". ولم يشكك أحد في صحة هذا الحديث ورُفِضَ طلب السيدة فاطمة (البخاري ٨٥: ٢). وقد كانت هذه الوقائع تحدث يوماً وأصبحت سبباً في التحقق من صحة أو عدم صحة كثير من الأحاديث التي رويت عن النبي (صلى الله عليه وسلم).

هذا شكل في حد ذاته عاملاً هاماً وراء الرغبة العامة الشديدة في معرفة كل أقوال وأفعال هذا الرجل العظيم. وكان من الطبيعي أن يهتم حديث الدخول في الإسلام اهتماماً شديداً بمعرفة كل ما يجب عليه معرفته عن المعلم العظيم الذي بعث حياة جديدة في عالم ميت. وهكذا أصبح كل فرد رآه مصدراً للمعرفة بالنسبة لمن يدخلون بعده في الإسلام ونظراً لأن الوقائع كانت حاضرة في ذاكرة الصحابة كان يتم نقلها بدقة شديدة للجيل الجديد.

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن النجاح المذهل الذي حققه الإسلام خلال فترة زمنية قصيرة جداً والسرعة التي ذاع بها صيت النبي الذي جاء بهذا الدين، كل هذه كانت هي الأسباب التي أدت إلى حفظ الحقائق الفعلية عنه عليه الصلاة والسلام. فخلال عشرين عاماً منذ اليوم الذي بدأ فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) عمل المصلح، كانت لشخصيته والدين الذي جاء به أهمية لا مثيل لها في الجزيرة العربية وفي خلال عشر سنوات من وفاته انتشر الإسلام في بلاد كثيرة خارج حدود الجزيرة العربية. وعليه، أصبح كل شيء له صلة بالنبي (صلى الله عليه وسلم) موضع نقاش بين العرب وغير العرب والأصدقاء والأعداء. ولو كان النبي (عليه الصلاة والسلام) ظل منسياً طيلة قرن من الزمان أو نحو ذلك ثم ذاع صيته لكان من الممكن أن تفقد كثير من أقواله أو أفعاله بالنسبة للعالم وكان من الممكن أن تتقل للأجيال القادمة مبالغات جيل لاحق وليس الحقائق الفعلية. إلا أن الوضع بالنسبة له كان مختلفاً. فقد ارتفع النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكانة متواضعة إلى أعلى منزلة يمكن أن يرقى إليها إنسان وذلك في خلال أقل من ربع قرن من الزمان ومن ثم لم تكن هناك واقعة في حياة النبي إلا أصبحت معروفة للجميع دون إمكان تعرضها للنسيان.

وقد كان هناك عامل آخر ذو أهمية قصوى أعطى دفعة إلى نشر علم الحديث في هذه المرحلة. فقد كان الدين الذي جاء به النبي (صلى الله عليه وسلم)، بالنسبة للصحابة، لا يقدر بمال لدرجة أنهم رفعوه فوق كل شيء آخر في العالم. فمن أجله، تركوا تجارتهم، وديارهم، وأهلهم؛ وضحوا بحياتهم دفاعاً عنه. وقد أصبح نقل هذه النعمة، وهي أعظم هبة من الله سبحانه وتعالى، إلى الآخرين هو أسمى هدف في حياتهم؛ ومن ثم أصبح نشر تعاليمه هو شغلهم الشاغل. بالإضافة إلى ذلك، ألقى المعلم العظيم على عاتق الحاضر والشاهد والسامع لأقواله واجب تبليغ ما شاهده من أفعال وما سمعه من أقوال للغائب ولمن كان وراءه. وكانت عبارة "وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ" هي العبارة التي كانت بسبب تكرارها تدوي باستمرار في آذانهم. وقد أدوا الواجب العظيم الذي ألقى على عاتقهم. فكانوا يسافرون شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً وفي أي اتجاه كانوا يذهبون وفي كل بلد كانوا يصلون إليه كانوا يحملون معهم القرآن والسنة. وكان كل شخص لم يكن يعلم سوى واقعة واحدة عن حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) يرى أنه من واجبه تبليغها للغير. وقد أصبح أفراد

مثل السيدة عائشة (رضي الله عنها)، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وأنس بن مالك، وكثيرين آخرين ممن جعلوا حفظ أقوال وأفعال النبي (صلى الله عليه وسلم) هدف حياتهم الأول، أصبح كل هؤلاء كما لو كانوا مراكز علمية يلجأ إليها الناس من مختلف ربوع المملكة الإسلامية لاكتساب المعرفة بتعاليم الدين الإسلامي وبالنبي الذي جاء به. وأصبحت ديارهم في الواقع مدارس لنشر علم الحديث. فقد تتلمذ على يد أبي هريرة وحده ثمانمائة تلميذ. كما كان مئات من طلبة العلم المتحمسين يلجأون أيضاً إلى دار السيدة عائشة (رضي الله عنها). وبالمثل، كان صيت عبد الله بن عباس ذائعاً ورغم صغر سنه كان واحداً من أهم مستشاري عمر (رضي الله عنه) بسبب معرفته بالقرآن والسنة. وقد كان حرص الأجيال الجديدة على اكتساب المعرفة شديداً لدرجة أن طلاب العلم كانوا يسافرون من مكان لآخر لإكمال دراساتهم الدينية وكان بعضهم يقطع مسافات طويلة للحصول على معلومات عن حديث واحد ممن سمعه مباشرة من النبي (صلى الله عليه وسلم).^{١٧}

جمع الحديث: المرحلة الثالثة

وبرحيل الجيل الذي شاهد أفعال النبي (صلى الله عليه وسلم) وسمع أقواله، دخلت أعمال جمع الحديث في مرحلتها الثالثة. فلم تعد هناك أحاديث في حاجة للتحقق من صحتها من أشخاص مختلفين وأصبح الحديث بأكمله الآن ملكاً للمعلمين الذين كانوا يقومون بتدريسه في عدة مراكز ولذا كان من الممكن في المرحلة الثالثة تعلم الحديث كله بالتوجه إلى هذه المراكز بدلاً من الاستفسار عنه من الأفراد. بالإضافة إلى ذلك، أصبح تدوين الحديث في هذه المرحلة أكثر شيوعاً من ذي قبل. فقد استعان عدد كبير من طلبة العلم الذين كانوا يدرسون في المراكز العلمية المختلفة،

^{١٧} يروى أن جرير بن عبد الله سافر من المدينة المنورة إلى بلاد الشام من أجل التحقق من صحة حديث واحد (فتح الباري، الجزء الأول، ص. ١٥٨). وقد استغرقت رحلته شهراً كما ذكر جرير نفسه (البخاري ٣: ١٩). وتروى في كتاب الشرح الشهير المعروف باسم فتح الباري في شرح صحيح البخاري عدة وقائع من نفس النوع. فيروى أن أبا أيوب الأنصاري، على سبيل المثال، قطع رحلة طويلة ليسمع أحد أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) من عقبه بن عامر. ويروى عن سعيد بن المسيب قوله إنه كان يرحد الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد. ويروى أن صحابياً آخر قطع رحلة إلى مصر من أجل التحقق من صحة حديث واحد. كما كان حرص الجيل التالي للصحابة على التحقق من صحة الحديث شديداً أيضاً. فيروى عن أبي العالية قوله: "كنا نسمع عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا نرضى حتى خرجنا إليهم فسمعنا منهم" (فتح الباري، الجزء الأول، ص. ١٥٩). ويروى في سنن أبي داود أن أبا الدرداء كان جالساً في مسجد بدمشق عندما جاءه رجل وسأله عن أحد أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلاً في الوقت نفسه إنه لم يأت لغرض آخر سوى التحقق من صحة الحديث الذي رواه أبو الدرداء (أبي داود ٢٤: ١).

بالنظر إلى كثرة المادة العلمية التي كان يجب عليهم استيعابها بالإضافة إلى المهمة الأخرى الملقاة على عاتقهم والمتمثلة في حفظ أسماء الرواة، استعان هؤلاء الطلبة بالكتابة حتى تصبح مهمتهم أسهل. وفي ذلك الوقت، أصبحت ممارسة الكتابة شائعة وأصبحت مواد الكتابة وفيرة. بالإضافة إلى ذلك، لم يعد هناك في هذه المرحلة خوف من اختلاط الحديث بالقرآن. ورغم ذلك، يجب ألا يغيب عن الأذهان أنه في هذه المرحلة كان يتم تدوين الأحاديث فقط كأداة مساعدة للذاكرة؛ ومن ثم لم يكن العثور على حديث ما بين صحائف شخص ما دليلاً على صحته إذ لم يكن من الممكن التحقق من صحته إلا بإسناده إلى راوٍ ثقة. وقد كان عمر بن عبد العزيز الذي كان يعرف لدى عموم الناس باسم عمر الثاني، وهو الخليفة الأموي، الذي حكم قبيل نهاية القرن الأول الهجري، كان أول من أصدر أوامر محددة بجمع كتب الحديث. ويروي أنه كتب إلى أبي بكر بن حزم يقول: "انظُرْ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَكْتُبُهُ فَإِنِّي خِفْتُ ذُرُوسَ الْعِلْمِ وَذَهَابَ الْعُلَمَاءِ وَلَا تَقْبَلْ إِلَّا حَدِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلْتَقَسُوا الْعِلْمَ وَلْتَجْلِسُوا حَتَّى يُعْلَمَ مَنْ لَا يُعْلَمُ فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرًّا".^{١٨} وتكمن أهمية هذه الواقعة في اهتمام الخليفة نفسه بجمع الحديث في حين لم ينشغل الخلفاء الأمويون بوجه عام بهذا العمل العظيم حتى عهده. وقد كان أبو بكر بن حزم هو الحاكم الذي عينه الخليفة في المدينة؛ وهناك أدلة على أنه كتب رسائل مماثلة إلى الأمصار الأخرى.^{١٩} إلا أن عمر الثاني توفي بعد فترة حكم قصيرة، عامين ونصف، ولم يكن من خلفه يبدو مهتماً بهذا الأمر. وحتى إن كان تم وفقاً لهذه الأوامر جمع كتاب حديث، وهو أمر مشکوك فيه، إلا أنه لم تصلنا نسخة منه.^{٢٠}

ولكن في القرن التالي من الزمان، تم القيام بهذا العمل دون الاعتماد على مساندة الحكومة، مما يشكل بداية المرحلة الرابعة في جمع الحديث.

^{١٨} البخاري ٣: ٣٤.

^{١٩} فتح الباري، الجزء الأول، ص. ١٧٤.

^{٢٠} يرى جيوم أن إصدار الخليفة عمر الثاني أوامر بجمع الحديث هو فكرة ليس لها أساس من الصحة ظهرت في وقت لاحق. ويرى الكاتب ذلك بقوله إنه لم يصلنا هذا الكتاب الذي جمع فيه الحديث كما أنه لم ترد أي إشارة إليه في أي عمل آخر. إلا أن السبب، كما سبق أن ذكرت، في عدم جمع كتاب الحديث المذكور، إن كان لم يكن قد اختفى بالفعل، هو قصر مدة حكم عمر الثاني وعدم اهتمام الخلفاء الأمويين الآخرين بذلك. والسبب الآخر الذي يذكره جيوم هو ارتباط اسم ابن شهاب الزهري، وفقاً لإحدى الروايات، بهذا الأمر. إلا أن هذا يؤكد صحة أوامر عمر لأن هذه الأوامر، كما سبق أن ذكرت، تم توزيعها على عدد كبير من حكام الأمصار. وهكذا كان موبر صائباً عندما قال: "بعد وفاة محمد بحوالي مائة عام من الزمان، أصدر الخليفة عمر الثاني أوامر موجهة لعدد كبير من حكام الأمصار بجمع كل الأحاديث الموجودة رسمياً. وقد ظل هذا العمل، الذي بدأ بهذه الطريقة، يتابع بهمة ونشاط" (حياة محمد، مقدمة، ص. ٣٠).

جمع الحديث: المرحلة الرابعة

قبل منتصف القرن الثاني الهجري، بدأ الحديث يأخذ شكلاً لا يمحي مع الزمن حيث بدأت كتب الحديث ترى النور. وفي ذلك الوقت، انخرط المئات من طلبة العلم في دراسة علم الحديث في الأمصار المختلفة، إلا أن مهمة حفظ السند والمتن أصبحت أكثر صعوبة بالنسبة لكل معلم وطالب جديد، مما جعل تجميع كتب الحديث أمراً لا غنى عنه. وأول عمل معروف في هذا الموضوع هو كتاب الإمام/ عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، المعروف لدى عموم الناس بابن جريج. ويرى البعض، رغم ذلك، أن سعيد بن أبي عروبة أو ربيع بن صهيب كان لهما سبق في هذا الموضوع. وقد توفي كل هؤلاء المؤلفين قرابة منتصف القرن الثاني الهجري. وقد كان ابن جريج يعيش في مكة في حين أن الآخرين الذين كتبوا كتب الحديث في القرن الثاني الهجري هم الإمام/ مالك بن أنس وسفيان بن عيينة في المدينة المنورة، وعبد الله بن وهب في مصر، ومعمر وعبد الرزاق في اليمن، وسفيان الثوري ومحمد بن فضيل في الكوفة، وحمام بن سلمة وروح بن عبادة في البصرة، وهشيم بن واسط وعبد الله بن مبارك في خراسان، وأهم كتب الحديث التي جمعها هؤلاء المؤلفون جميعاً هو موطأ الإمام مالك. وقد كانت كل هذه الكتب، رغم ذلك، بعيدة عن أن تكون وافية. وهو ما يرجع إلى عدة أسباب. أولاً، كان الهدف من تجميع هذه الكتب هو فقط جمع روايات الحديث التي تمس الحياة اليومية للمسلمين. ومن هنا، كانت روايات الحديث المتعلقة بعدد كبير من الموضوعات، مثل الإيمان، والعلم، وحياة النبي (صلى الله عليه وسلم)، والمغازي، وتقاسير القرآن، كل هذه الروايات كانت خارج نطاق عملهم. ثانياً، لم يكن كل مؤلف يجمع سوى روايات الحديث التي تدرس في المركز العلمي الذي كان يعمل فيه. فحتى الموطأ لا يحتوي إلا على الأحاديث التي وصلت إلى الإمام/ مالك من خلال أهل الحجاز. ومن ثم، كانت كل هذه الأعمال غير وافية، ولكنها كانت تمثل تقدماً ملحوظاً بالقياس إلى نقل الحديث شفويّاً في مجال العمل الخاص بجمع الحديث.

جمع الحديث: المرحلة الخامسة

وصل هذا العمل العظيم إلى مرحلة الاكتمال في القرن الثالث الهجري. ففي ذلك الوقت، تم تجميع نوعين من كتب الحديث؛ هما: المسند (وهو النوع الذي ظهر أولاً) والجامع أو المصنف. وكلمة مسند مشتقة من السند وإسناد الحديث يقصد به إسناده من خلال عدة رواة إلى الصحابي الذي يعتمد الحديث على سنده المتصل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم). وقد كان يتم ترتيب كتب الحديث التي أطلق عليها اسم المسند، ليس وفقاً لموضوع الحديث، وإنما وفقاً لاسم الصحابي الذي

يعتمد الحديث على سنده النهائي المتصل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم). وأهم الأعمال من هذا النوع هو مسند الإمام أحمد بن حنبل^{٢١} الذي يحتوي على ثلاثين ألف رواية حديث. ويرجع الفضل إلى الجامع أو المُصنَّف في الوصول بعلم الحديث إلى مرحلة الاكتمال. ولم يكن الجامع ترتب فيه روايات الحديث وفقاً لموضوعها فحسب وإنما كان يتميز أيضاً بطابع نقدي أكثر من الكتب الأخرى. وقد تم بوجه عام الاعتراف بستة كتب حديث تحمل هذا العنوان، وهي كتب الحديث التي جمعها محمد بن إسماعيل^{٢٢}، المعروف لدى عموم الناس بالبخاري (توفي عام ٢٥٦ للهجرة)، ومسلم (توفي عام ٢٦١ للهجرة)، وأبو داود (توفي عام ٢٧٥ للهجرة)، والترمذي (توفي عام ٢٧٩ للهجرة)، وابن ماجه (توفي عام ٢٨٣ للهجرة)، والنسائي (توفي عام ٣٠٣ للهجرة).^{٢٣} وقد كانت روايات الحديث تصنف في هذه الكتب وفقاً للموضوعات المختلفة مما سهل إمكانية الرجوع إلى الحديث، ليس فحسب بالنسبة لرجال القانون والقضاة وإنما أيضاً بالنسبة لطلبة العلم والباحثين مما أعطى دفعة أخرى لدراسة علم الحديث.^{٢٤}

البخاري

يحتل صحيح البخاري المرتبة الأولى من نواحٍ عديدة بين كتب الحديث الستة سالفة الذكر^{٢٥} في حين يأتي صحيح مسلم في المرتبة الثانية.^{٢٦} ويرجع ذلك لعدة أسباب. أولاً، يتمتع المحدث الشهير/ البخاري بميزة لا ينازعه عليها أي محدث آخر وهي أنه أول من جمع كتاب حديث صحيح في حين أن المحدثين الآخرين صاغوا كتبهم على غرار صحيحه. ثانياً، يعتبر البخاري أكثر المحدثين تدقيقاً.^{٢٧} فلم يكن يقبل أي رواية حديث إلا إذا كان جميع رواياتها ثقات وإلا إذا كان هناك

^{٢١} ولد عام ١٦٤ للهجرة وتوفي عام ٢٤١ للهجرة. وهو واحد من الأئمة الأربعة المعترف بهم.

^{٢٢} ولد محمد بن إسماعيل البخاري في بخارى عام ١٩٤ للهجرة. وقد بدأ دراسة الحديث عندما كان في الحادية عشرة من عمره فقط وعندما بلغ السادسة عشرة ذاع صيته بتفقهه في علم الحديث. وقد كان يتمتع بذاكرة قوية قادرة على الاسترجاع وكان دارسو الحديث يصححون صحائفهم بمقارنتها بما كان يسرده من أحاديث من ذاكرته.

^{٢٣} تعرف أعمال أبي داود، وابن ماجه، والنسائي لدى عموم الناس باسم سنن (جمع سنة).

^{٢٤} يعترف الشيعة بكتب الحديث الخمسة التالية: ١- الكافي لأبي جعفر محمد بن يعقوب (٣٢٩ للهجرة)؛ ٢- من لا يستحضره الفقيه للشيخ علي (٣٨١ للهجرة)؛ ٣- التهذيب للشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن حسين (٤٦٦ للهجرة)؛ ٤- الاستبصار لنفس المؤلف؛ ٥- نهج البلاغة لسيد الرازي (٤٠٦ للهجرة). ومن الملاحظ أن كل هذه الكتب ظهرت بعد كتب الحديث الستة سالفة الذكر بفترة كبيرة.

^{٢٥} يطلق على هذه الكتب اسم الصحاح الستة.

^{٢٦} يطلق على الكتابين معاً اسم الصحيحين.

^{٢٧} أبدى كاتب معاصر أجرى دراسة خاصة للحديث الرأي التالي في البخاري: "يقدر ما يستطيع المرء الحكم، نشر البخاري ثمرة أبحاثه في متن الأحاديث الصحيحة من وجهة نظره بنفس الدقة الشديدة التي يبذلها المحقق المعاصر.

دليل يثبت أن الراوي اللاحق قد التقى بالراوي السابق له؛ كما أن مجرد معاصرة الراويين بعضهم لبعض (وهو المحك الذي أخذ به الإمام/ مسلم في صحيحه) لم يكن يرضيه. ثالثاً، فاق البخاري الجميع بفقهه. رابعاً، يعنون البخاري أهم أبواب صحيحه بنص من القرآن مما يدل على أن الحديث هو بيان للقرآن وبذلك يعتبر المصدر الثاني لتعاليم الإسلام.

طريقة إحصاء الروايات المتعددة للحديث

يعتقد النقاد الأوروبيون بوجه عام أنه عندما شرع مؤلفو المصنفات في عملهم، كانت هناك مجموعة كبيرة من الأحاديث غير الصحيحة لدرجة أن المحدثين لم يقرؤا بصحة أكثر من واحد أو اثنين في المائة من هذه المجموعة الشائعة من الأحاديث وقد حكم بصحة هذه الأحاديث فقط استناداً إلى وثيقة الرواة دون إيلاء أي اهتمام إلى الموضوع.^{٢٨} ولعل الاعتقاد بأن المجموعة الكبيرة من روايات الحديث التي كان يتم تدريسها في مدارس الحديث في الأمصار المختلفة في القرن الثالث الهجري كانت موضوعة لعل هذا الاعتقاد مبني على سوء فهم. فمن الصحيح أن البخاري كان يعرف ٦٠٠,٠٠٠ رواية حديث وحفظ عن ظهر قلب حوالي ٢٠٠,٠٠٠ رواية. كما أنه من الصحيح أيضاً أن كتابه لا يحتوى على أكثر من ٩٠٠٠ حديث. إلا أنه ليس من الصحيح أنه وجد الـ ٥٩١,٠٠٠ رواية الأخرى موضوعة أو مختلفة. وفي هذا الصدد، ينبغي أن نعلم جيداً أن القائمين على نشر ودراسة علم الحديث كانوا ينظرون إلى كل رواية على أنها تمثل حديثاً مختلفاً عندما كان يتغير ولو حتى راوٍ واحد في سلسلة الرواة. فلنأخذ، على سبيل المثال، حديثاً كان سنده

وهكذا، دون البخاري في صحيحه الروايات التي كانت هناك اختلافات طفيفة بينها في الحديث وكلما شعر بحاجة لتعليق توضيحي سواء أكان في الإسناد أم في المتن كان يضع علامة واضحة أمامه تدل على أنه تعليقه" (الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٢٩).

^{٢٨} كتب جيوم عن البخاري يقول: "كرر في الأثر أن هذا الرجل البارز كان يعرف ٦٠٠,٠٠٠ حديث ويحفظ عن ظهر قلب أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ حديث. ومن هذا العدد، تمكن هذا الرجل من أن يحفظ لنا ٧,٣٩٧ حديثاً، أو وفقاً لمصادر أخرى، ٧٢٩٥ حديثاً. وإذا أضف المرء إلى هذا العدد مقتطفات الأحاديث المذكورة في التراجم بلغ إجمالي عددها ٩,٠٨٢ حديثاً. وعندما يفكر المرء في تلك الأرقام التي سجلها أحد المؤرخين المسلمين والتي تثبت أن الإمام/ البخاري التقى لم يحكم بصحة أكثر من واحد في المائة تقريباً من جملة الأحاديث التي يقال إنها كانت متداولة على الملأ بسند متصل إلى النبي، عندئذ تضعف ثقة المرء في صحة باقي الأحاديث إلى حد كبير. وعندما يحكم بعدم صحة هذه الأغلبية العظمى من مادة الحديث، عندئذ لا يمكن أن تستعاد الثقة في صحة باقي الأحاديث إلا بالنجاح في تطبيق القواعد الحديثة للإثبات." (الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٢٨، ٢٩). وكتب مير عن البخاري يقول: "ثبت بشهادة المحدثين أنفسهم أن آلاف وعشرات الآلاف من الأحاديث كانت متداولة في عصورهم ولم يكن لها أدنى سند متصل إلى النبي... وبعد عدة سنوات من التمهيص والتحقيق، توصل البخاري إلى أنه من بين الـ ٦٠٠,٠٠٠ حديث التي تحقق البخاري من تداولها آنذاك، لا يوجد سوى ٤٠٠٠ حديث صحيح فقط" (حياة محمد، مقدمة، ص. ٣٧).

الأصلي هو أبا هريرة. فقد تتلمذ على يد أبي هريرة حوالي ٨٠٠ تلميذ وكان من الممكن أن يروي نفس الحديث عشرة من تلاميذه مع تغيير أو بدون تغيير المتن. ووفقاً للمحدثين، تشكل كل رواية من هذه الروايات حديثاً منفصلاً. ولنفتقر أيضاً أن كل راوٍ من رواة الحديث الذي كان أبو هريرة هو سنده المتصل إلى النبي نقل عنه الحديث راويان، فعندئذ نجد أن نفس الحديث سوف تكون له عشرون رواية مختلفة. وهكذا، يستمر عدد روايات الحديث في الزيادة بزيادة عدد الرواة. وفي الوقت الذي انكب فيه البخاري على حفظ الحديث في العقد الأول من القرن الثالث الهجري، كانت توجد مدارس للحديث في الأمصار المختلفة وكان المئات من طلبة العلم يحفظون الحديث وينقلون رواياته للأخريين. ففي سلسلة مكونة من أربعة أو خمسة رواة، وهو العدد المعهود من الرواة، لك أن تتخيل عدد الروايات التي سوف تنشأ من نفس الحديث بسبب تغيير الرواة وعندئذ من السهل أن تعرف أن العدد ٦٠٠,٠٠٠ لا يعني وجود عدد كبير من الروايات التي تتناول موضوعات مختلفة ولكنه عدد كبير من الروايات التي تنقل من خلال عدة رواة يشير كثير منهم إلى نفس الواقعة أو ينقلون نفس الموضوع مع تغيير أو دون تغيير المتن. ويتضح لنا من صحيح البخاري أن تلك هي الطريقة التي كان البخاري يتبعها في إحصاء روايات الحديث إذ كان يعتبر الرواية مختلفة^{٢٩} عند تغيير ولو حتى راوٍ واحد في سلسلة مكونة من أربعة أو خمسة رواة. ويرجع ما يعرف في صحيح البخاري بظاهرة التكرار إلى هذه الحقيقة.

الأخبار الواردة في السير والتفاسير

كثيراً ما يخلط النقد الأوروبي بين الحديث النبوي والأخبار التي وردت في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي تفاسير القرآن. وما من عالم مسلم علق على الأخبار التي وردت في السير نفس الأهمية التي علقها على الأحاديث المروية في كتب الحديث سالفه الذكر. ومن ناحية أخرى، يقر جميع النقاد المسلمين بأن كُتَّاب السير لم يبذلوا قط جهداً يذكر من أجل فصل الصواب عن الخطأ. وقد لخص الإمام/ أحمد بن حنبل وجهة نظر المسلمين في موثوقية الأخبار التي وردت في السير عندما ذكر أن السير "لا تقوم على أي مبدأ"^{٣٠} ويقول الحافظ زين الدين العراقي إنها "تحتوي على ما هو صحيح وما هو غير صحيح". وفي الواقع، كان من الممكن أن يكون كثير من النقد الأوروبي للحديث في محله لو كان موجهاً إلى الأخبار التي وردت في السير ونفس الشيء ينطبق على الأخبار التي وردت في التفاسير والتي يكتفها قدر أكبر من الشك في

^{٢٩} "من ناحية أخرى، كثيراً ما يتم تكرار نفس الحديث أكثر من مرة في أبواب مختلفة، بحيث إننا إذا أغفلنا هذا التكرار انخفض عدد الأحاديث المختلفة ليصل إلى ٢٧٦٢ حديثاً" (الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٢٨).

^{٣٠} الموضوعات، ص. ٥٨.

صحتها. وقد خلط كثير من المفسرين غير المدققين بين الحديث وقصص اليهود والنصارى وأطلقوا لأنفسهم العنان في استخدام هذه القصص كما لو كانت بمثابة روايات متعددة. ويقول ابن خلدون متحدثاً عن التفاسير: "إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب... فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاجون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثن والملاحم وأمثال ذلك وهؤلاء مثل كعب الأبحار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم فامتألت التفاسير من المنقولات عندهم. وفي أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليس مما يرجع إلى الأحكام فتتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات".^{٣١}

وقد كتب شاه ولي الله بلغة مشابهة يقول: "من الضروري أن نعلم أن معظم الإسرائيليات التي وجدت طريقها إلى كتب التفسير والتاريخ منقولة من قصص اليهود والنصارى وعليه لا يمكن أن يستند إليها أي حكم أو معتقد".^{٣٢}

وفي الواقع، ففي بعض التفاسير، كانت الأخبار التي تم الاستشهاد بها لا يصدقها عقل. فحتى تفسير ابن جرير، رغم كل ما له من قيمة كأثر أدبي، إلا أنه لا يمكن الاعتماد عليه. ورغم ذلك، يعتبر تفسير ابن كثير استثناءً لأنه يحتوي في المقام الأول على أحاديث مأخوذة من كتب صحيحة.

القصاص

ومع ذلك، هناك شيء آخر يجب أن نحترس منه وهو الخلط بين الحديث والقصاص. فكما هي الحال في كل أمة أخرى، ظهرت بين المسلمين فئة من مروجي الأساطير كان شغلها الشاغل هو مداعبة خيال العوام بالقصاص الملففة. وقد كانت هذه القصص مأخوذة عن اليهود، والنصارى، والفرس

^{٣١} مقدمة ابن خلدون، الجزء الأول، ص. ٤٨١، فصل "علوم القرآن".

^{٣٢} حجة الله البالغة، الجزء الأول، ص. ١٧١، فصل "الاعتصام بالكتاب".

الذين كان المسلمون على اتصال بهم أو كانت مجرد قصص ملفقة. ويبدو أن القصص المحترفين^{٣٣} ظهروا في فترة مبكرة لأنه، كما يقول الإمام/ الرازي، أمر الخليفة علي (رضي الله عنه) بعقاب كل من يروي قصة سيدنا داود كما كان القصص يروونها (وفي هذا إشارة إلى القصة المأخوذة من الإنجيل التي تدور حول زنا سيدنا/ داود بامرأة جاره/ أوريا) بمائة وستين جلدة، وهو ضعف الحد الذي كان يقام على القاذف العادي.^{٣٤} مما يدل على أن مهنة القاص قد بدأت في هذه الفترة المبكرة، ولكن يجب ألا يغيب عن الأذهان أنه حتى العوام الأميون لم يخلطوا قط بين القاص وراوي الحديث. فإن مهنة القاص - إذ كانت أقل شأنًا - كانت بالضرورة ذات سمة مختلفة تماما عن مهنة راوي الحديث. في حين كان الحديث يدرس بصفة منتظمة في مدارس الحديث في الأمصار المختلفة، كما عرفنا من قبل، وكان القائلون على تدريسه في المقام الأول هم صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذوي الصيت الذائع، أمثال أبي هريرة، وابن عمر، والسيدة عائشة (رضي الله عنها)؛ والذين حل محلهم بعد ذلك أساتذة الحديث الذين لم يقلوا عنهم صيتاً من بين التابعين. وما من قاص، كان نطاق عمله يقتصر على مجرد الوقوف في أحد جانبي الطريق حيث يمكنه جذب أنظار المارة وربما يجمع حوله بعض المتسكعين، كان يرنو حتى للاقترب إلى أي من مدارس الحديث. وكما قال أحد الكتاب: "كان القصص يجمعون حولهم حشداً كبيراً من الناس؛ وكان القاص يقف على أحد جانبي الطريق ويروي الأحاديث عن فضائل علي في حين يقف زميله على الجانب الآخر يمجّد مناقب أبي بكر. وبذلك، كانا يحصلان على المال من الناصبي وكذلك من الشيعي ويقسمان المكاسب بعد ذلك بالتساوي بينهما".^{٣٥} ومن الصعب أن نصدق أن أي إنسان عاقل كان من الممكن أن يحسب مروجي القصص رواة للحديث؛ ورغم ذلك كثيراً ما يسعى الكتاب أمثال سير ويليام موير وغيره من مشاهير المستشرقين للخلط بين الاثنين ويتحدثون عن هذه القصص كما لو كانت لها علاقة بالحديث. وحتى لو كان من الصحيح أن بعض هذه القصص وجدت مكاناً لها في بعض التفسيرات التي كان مؤلفوها مغرمين بكل ما هو غريب ونادر ولم يولوا اهتماماً يذكر إلى فصل الصواب عن الخطأ، فإن المحدثين لم يتصوروا قط قبول أي قصة من هذا المصدر. فقد كانوا يعرفون القصاص وقصصهم التي لا يصدقها عقل حق المعرفة وكانوا بالفعل مدققين في اختياراتهم لدرجة أنهم كانوا لا يقبلون الرواية إذا عرف عن أي من رواتها أنه كذب أو وضع رواية^{٣٦} في حالة واحدة. وهذا هو ما يحتاج كل ناقد أوروبي للحديث حاجة ماسة للاعتراف به؛ فكيف يمكن إذن أن يقبل هؤلاء المحدثون تلك القصص الملفقة السخيفة

^{٣٣} كان يطلق عليهم لفظ قُصاص (المفرد قاص)، وهي مشتقة من الفعل قَصَّ أي روى قصة.

^{٣٤} التفسير الكبير، المجلد السابع، ص. ١٨٧، ٣٨: ٢١-٢٥.

^{٣٥} استشهد بهذه الفقرة جيوم، كتاب الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٨٢.

^{٣٦} عند الحديث عن الطعن (أي اتهام الراوي بالكذب)، قال ابن حجر في كتابه شرح نخبه الفكر إنه إذا تثبت أن الراوي كذب في رواية حديث أو حتى اتهم بالكذب، عندئذ يطعن في روايته (ص. ٦٦).

التي كان يرويهها القاص الذي يقف على أحد جانبي الطريق والذي كان يزاول مهنته فقط لكسب النقود القليلة التي كانت تدرها عليه؟ فمن الصحيح أنه قد وردت بعض القصص التي لا يصدقها عقل في كتب الحديث، إلا أنها قليلة جداً لدرجة أنه لا يمكن التشكيك أدنى شك عن حق في صحة هذه الكتب نفسها لهذا السبب فالسبب في وجودها هو شيء مختلف تماماً.

النقد الأوروبي للحديث

هناك فكرة شائعة بين النقاد الأوروبيين، تقريباً بدون استثناء، بأن النقاد المسلمين للحديث لم يتجاوزوا نطاق نقد سلسلة السند ولم يتطرقوا بالنقد إلى متن الحديث. كما لمح بعض النقاد الأوروبيين أيضاً إلى أنه حتى صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كانوا في بعض الأحيان غير مدققين لدرجة أنهم كانوا يضعون الأحاديث، رغم أنه من المعروف لدى الجميع أن أكثر النقاد المسلمين تشدداً في نقد السند أجمعوا على أنه عندما يتم إسناد الحديث إلى أحد صحابة رسول الله، عندئذ لا يرقى الشك إلى صحته. ويلمح أحد الكتاب الأوروبيين إلى أن أبا هريرة كان يضع الأحاديث: "يوجد أخطر اعتراف بعدم وثاقة الرواة في الحديث نفسه الذي ورد في صحيح البخاري. فقد روى ابن عمر أن محمداً أمر بقتل جميع الكلاب فيما عدا كلب الغنم وكلب الصيد. فأضاف أبو هريرة كلمة "أو زرع"؛ فبعدها علق ابن عمر أن أبا هريرة يمتلك أرضاً مزروعة. ولا يمكن أن نجد توضيحاً للدافع من وراء وضع حديث ما أفضل من ذلك."^{٣٧}

وفي الاقتباس سالف الذكر، يقصد بكلمة "زرع" "أرض مزروعة" كما يلمح الكاتب إلى أن أبا هريرة أضاف هذه الكلمة بدوافع شخصية. إلا أنه بادئ ذي بدء، لم يرو أبو هريرة وحده أنه يمكن اقتناء الكلاب من أجل الصيد وحراسة الغنم أو الزرع. فقد ذكر البخاري في صحيحه حديثاً رواه سفيان بن أبي زهير كان نصه كما يلي: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اقتنى كلباً لا يُغني عنه زرعاً ولا صرعاً نقص كل يوم من عقله فيراط فقلت أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إي ورب هذا المسجد"^{٣٨}. ومن الواضح أن هذه الرواية تشير إلى كلاب الحراسة التي يتم اقتناؤها من أجل حراسة الغنم وكذلك الكلاب التي يتم اقتناؤها من أجل الزرع، ولكنها لا تشير إلى كلاب الصيد التي أحل القرآن صراحة اقتناءها.^{٣٩} وتذكر صراحة في رواية أبي هريرة التي وردت في نفس الباب، والتي تسبق الرواية التي تم الاستشهاد بها أعلاه، جميع

^{٣٧} جيوم، الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٧٨.

^{٣٨} البخاري ٤١: ٣.

^{٣٩} سورة المائدة (٥): الآية رقم (٤).

هذه الأنواع، أي الكلاب التي يتم اقتناؤها من أجل حراسة الغنم أو الزرع و كلاب الصيد مما يدل فحسب على أن أبا هريرة كان يمتلك ذاكرة أقوى من الرواة الآخرين. وبالنسبة لتعليق ابن عمر، فليس هناك أدنى دليل على أنه يحتوي على أي تلميح إلى عدم عدالة أبي هريرة. فقد يكون مجرد تعليق توضيحي أو تلميح إلى أن أبا هريرة قد انتبه لحفظ ذلك الجزء من الحديث، لأنه هو نفسه كان يقتني كلاب الحراسة من أجل أرضه المزروعة. فرغم كل الأخطاء التي من الممكن أن يكون أبو هريرة ارتكبها في رواية عدة أحاديث، فإنه لم يشكك أي ناقد من قبل في عدالته؛ وفي الواقع، أجمع النقاد على أن أي صحابي من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يكذب قط كذبة واحدة. وهكذا، يقول ابن حجر: "تفق أهل السنة على أن الجميع (الصحابة) عدول".^{٤٠}

علاوة على ذلك، يزعم نفس الكاتب الأوروبي أن المفكرين المستقلين في القرنين الثاني والثالث الهجريين لم يشككوا في سند الحديث بجملته فحسب وإنما أيضاً سخروا من نظام الحديث نفسه: "كانت توجد رغم ذلك مجموعة كبيرة من المفكرين خارج دائرة المفكرين التقليديين رفضت نظام الحديث برمته. فلم يعن هؤلاء المفكرون بإقرار الأحاديث التي كانت تتفق مع آراء العلماء ومذاهبهم أو التي كانت تتفق مع الأحاديث التي يمكن اعتبارها عن حق بأنها تؤيد وجهة نظرهم في الحياة. فبعيداً عن التأثير بجدية المحدثين الذين دققوا في تحري الإسناد، أو بهالة القداسة التي تحيط بالرواة الأوائل للحديث، سخر المفكرون المستقلون في القرنين الثاني والثالث الهجريين علناً من نظام الحديث برمته ومن الأشخاص والموضوعات التي وردت فيه".^{٤١}

وكدليل يعزز هذه التعليقات الجزافية، يضيف الكاتب الأوروبي قائلاً: "توجد بعض أبرز أمثلة هذه الهجائيات في كتاب الأغاني الذي تم فيه صب قصص المجون في نفس القالب الذي كان الحديث ينقل به عادة إلى الخلف".^{٤٢}

وهكذا، كان "المفكرون المستقلون" الذين رفضوا نظام الحديث و"سخروا علناً من نظام الحديث برمته" هم مؤلفي الهجائيات الذين ورد ذكرهم في الجزء الأخير من الفقرة. إلا أن كتاب الأغاني،^{٤٣}

^{٤٠} الإصابة في تمييز الصحابة. الجزء الأول، ص. ٦. تعني كلمة عدالة، التي تستخدم في وصف رواة الحديث، أنه ليس هناك حيد متعمد عن الحق وهذا لا يرجع فحسب إلى التقدير الذي حظى به صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأن نقاد رواة الحديث لم يرحموا أي راوٍ لمجرد أنه كان يحظى بمكانة كبيرة في قلوبهم.

^{٤١} الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٨٠.

^{٤٢} المرجع السابق.

^{٤٣} تتناول دائرة المعارف الإسلامية بالمناقشة كتاب الأغاني في الفقرة التالية: "يعتبر كتاب الأغاني العظيم، وهو العمل الوحيد الذي تم الحفاظ عليه من أجل الأجيال، هو أهم عمل للأصفهاني، وفي هذا العمل جمع المؤرخ الأغاني التي

الذي يشار إليه كما لو كان مجموعة من الهجائيات الموجهة نحو الحديث، هو في الحقيقة عبارة عن مجموعة هامة من القصائد الغنائية التي كتبها المؤرخ العربي الشهير/ أبو الفرج بن علي بن حسين، المعروف لدى عموم الناس بالأصفهاني (ولد عام ٢٨٤ للهجرة). ويعجز المرء عن فهم السبب الذي جعل هذا المؤلف الغربي المتبحر ينظر إلى الكتاب على أنه محاولة للسخرية من نظام الحديث. فقد تكون هناك بعض قصص المجون المرتبطة بهذه الأغاني إلا أن وجود هذه القصص لم يغير من الطابع الأصلي للعمل الذي يأخذ طابع العمل التاريخي.^{٤٤} كما أنه لم يرد في الكتاب نفسه أو في أي من الكتابات السابقة له ما يثبت أن الكتاب قد تم تأليفه بغرض السخرية؛ وبالنسبة لإعطاء الأغاني التي تم جمعها أسماء الأشخاص الذين نقلت من خلالهم، نجد أن ذلك كان هو الأسلوب الشائع المتبع في جميع الكتابات والأعمال التاريخية في ذلك الوقت، كما يتبين لنا على الفور عند الرجوع إلى الكتابات التاريخية لابن سعد أو ابن جرير؛ وقد تم اختيار هذا الأسلوب ليس للإساءة إلى طريقة رواية الحديث وإنما فقط نظراً للقيمة التاريخية للعمل. وفي هذا الصدد، ذكر الناقد الأوروبي/ جيوم أيضاً اسمي مفكرين من كبار المفكرين المسلمين، هما ابن قتيبة وابن خلدون، إلا أنهما لم يرفضاً نظام الحديث برمته ولم يسخر من ذلك النظام أو من الأشخاص والموضوعات التي ورد ذكرها فيه. وإنما دافع ابن قتيبة عن القرآن والحديث ضد التشكيك فيهما، وجيوم نفسه استشهد باستحسان بتعليق الدكتور/ نيكلسون بأن "كل باحث نزيه يقر بصحة قول ابن قتيبة بأنه "ما من دين يحتوي على أسناد مثل الدين الإسلامي".^{٥٥} والكلمة العربية أسناد هي جمع كلمة سند التي تشير بصفة خاصة إلى الرواة الذين كان الحديث يقبل بناء على سندهم المتصل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم). وهكذا، يطالب ابن قتيبة بأن يكون للحديث مرجعية أكبر من تلك التي يطالب بها في أي عمل تاريخي آخر في ذلك الوقت وقد أقر كل من نيكلسون وجيوم بأهمية هذا المطلب. وفي دائرة المعارف الإسلامية، ذكر صراحة أن ابن قتيبة "دافع عن القرآن والحديث ضد هجمات التشكيك التي شنّها الفلاسفة عليهما". كما أن ابن خلدون لم ينتقد قط الحديث نفسه كما أن انتقاداته لا تنطبق إلا على القصص التي رفضها المحدثون بوجه عام.

كانت متداولة في عصره مضيئاً إليها بعض التعليقات حول مؤلفيها ومنشئهم، التي كانت تبدو ذات أهمية بالنسبة له... ويذكر بجانب كل أغنية في الكتاب، اللحن وفقاً للمفردات الموسيقية... وأضيفت إلى هذه الأغاني تعليقات مفصلة خاصة بالشاعر وكثيراً ما كانت تتعلق أيضاً بمؤلفيها ومغنيها من الجنسين. ورغم عدم ترتيب الكتاب وفقاً لنظام معين، فإنه لم يكن فحسب أهم حجة كان يتم الرجوع إليها بشأن تاريخ الأدب حتى القرن الثالث الهجري وإنما كان أيضاً حجة يتم الرجوع إليها بشأن تاريخ الحضارة" (مقالة أبو الفرج).

^{٤٤} رغم وجود بعض قصص المجون في بعض كتب الإنجيل، فإن الإنجيل مازال يحتفظ بطابعه المقدس.

^{٥٥} الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٧٧.

قواعد نقد الحديث المقبولة عند المسلمين

ما من شك أن المحدثين قد علقوا أهمية قصوى على وثاقة الرواة. وكما يقول الناقد الأوروبي/ جيوم: "كان المحدثون يتحررون أحوال الرواة عما إذا كانوا عدولاً في دينهم وأخلاقهم، وعما إذا كان يؤخذ عليهم أي من معتقدات الزنادقة، وعما إذا كان قد عرف عنهم الصدق وعدم الكذب والقدرة على نقل الأحاديث التي سمعوها بأنفسهم. وأخيراً يجب أن يكون الرواة شهوداً ذوي أهلية تقبل شهادتهم في محكمة القانون المدني".^{٤٦} بالإضافة إلى ذلك، بذل المحدثون أقصى ما في وسعهم للتحري عما إذا كان كل حديث قد اتصل بسنده بالفعل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) عبر المراحل العديدة اللازمة. وحتى الصحابة أنفسهم كانوا لا يقبلون أي حديث يرد إلى علمهم حتى يتأكدوا تماماً من قول النبي (صلى الله عليه وسلم) له. إلا أن المحدثين تجاوزوا نطاق نقد السند ووضعوا قواعد نقد تطبق أيضاً على المتن. وعند الحكم بصحة أو عدم صحة حديث معين، لم يتحرر المحدثون وثاقة الرواة فحسب وإنما أيضاً كانوا يطبقون قواعد أخرى للنقد لا تقل بأي شكل من الأشكال عن أساليب النقد الحديثة. وقد لخص شاه عبد العزيز في كتابه *عجالة نافلة* هذه القواعد، ووفقاً لهذه القواعد لا يتم قبول الحديث في أي من الحالات التالية:

- إذا كان يتعارض مع الحقائق التاريخية المقبولة.
- إذا كان الراوي من الشيعة وكان الحديث يأخذ شكل اتهام موجه إلى الصحابة أو إذا كان الراوي من الخوارج وأخذ الحديث شكل اتهام موجه لأي من آل بيت النبي (صلى الله عليه وسلم). ورغم ذلك، يقبل الحديث إذا كانت هناك شهادة مستقلة تؤيد صحته.
- إذا رواه راوٍ واحد وكان الحديث من النوع الذي يجب على الجميع معرفته والعمل به.
- إذا كان الزمان والظروف التي روي فيها الحديث ينطويان على دليل يثبت أنه موضوع.^{٤٧}

^{٤٦} الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٨٣.

^{٤٧} ومثال لهذا ما ورد في الواقعة التالية التي رويت في كتاب *حياة الحيوان*. فقد كان الخليفة/ هارون الرشيد يعجبه الحمام. فأهديت له حمامة. وكان يجلس بجواره في ذلك الوقت القاضي/ أبو البخترى وليدخل السرور على قلب الخليفة روى حديثاً مفاده أنه لا سبق إلا في خف أو حافر أو جناح. إلا أن العبارة التي اختتم بها القاضي حديثه "أو جناح" كانت موضوعة من عند القاضي وكان الخليفة يعلم ذلك. ولذلك، عندما انصرف القاضي، أمر الخليفة بذبح الحمامة قائلاً إن وضع هذا الجزء من الحديث إنما سببه تلك الحمامة. ولهذا السبب، لم يقبل المحدثون أي رواية لأبي البخترى.

- إذا كان منافياً للعقل^{٤٨}، أو متعارضاً مع تعاليم الإسلام الصريحة.^{٤٩}
- إذا كان يشير إلى واقعة لو كانت وقعت بالفعل لعرفها ورواها أعداد كبيرة من الناس في حين أنه في حقيقة الأمر لم يرو تلك الواقعة أي شخص سوى الراوي المذكور.
- إذا كان منته أو ألفاظه غير سليمة أو غير صحيحة؛ فعلى سبيل المثال إذا كانت الألفاظ تخالف المعروف من المفردات العربية أو إذا كان المتن لا يليق بقدر النبي (صلى الله عليه وسلم).
- إذا ورد فيه وعيد بعقاب شديد على ذنوب عادية أو وعد بجزاء كبير على أعمال صالحة عادية.
- إذا كان يتحدث عن الجزاء الذي سوف يعطيه الأنبياء والرسل لمن يعمل صالحاً.
- إذا اعترف الراوي بأنه وضع الحديث.^{٥٠}

القرآن أعظم معيار للحكم على الحديث

بالإضافة إلى قواعد النقد سالفة الذكر، هناك معيار آخر في غاية الأهمية يمكن الحكم به على صحة الحديث، وهو معيار أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه باستخدامه. فيُروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "إذا روي عني حديث فاعرضوه على كتاب الله، فإذا وافقه فاقبلوه وإن خالفه فردوه". ولا يمكن أن يرقى الشك إلى صحة هذا الحديث نظراً لأنه يستند على أقوى أساس.^{٥١}

^{٤٨} لم يتردد ابن عبد البر (توفي عام ٤٦٣ للهجرة) والإمام/ النووي (توفي عام ٦٧٦ للهجرة) في الطعن في صحة الأحاديث التي كانت تبدو من وجهة نظرهم منافية للعقل أو تحط من قدر النبي (صلى الله عليه وسلم) (الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٩٤).

^{٤٩} من أمثلة ذلك الأحاديث التي وردت بشأن صلاة القضاء العمري، أي أداء ركعات الصلوات اليومية الخمس في جمعة الوداع في شهر رمضان كقضاء لسائر الصلوات الفائتة من عمر المرء أو الحديث الذي ورد فيه ما يلي: "لا تأكلوا البطيخ حتى تقطعوه".

^{٥٠} وضع الملا/ علي الفارسي في كتابه الموضوعات قواعد مشابهة لنقد الحديث وكذلك ابن الجوزي في كتابه فتح المغيب وابن حجر في كتابه نزاهة النظر.

^{٥١} يحكم النقاد الأوروبيون على الفور على الحديث، مهما كان منته صحيحاً ومهما كان سنده قوياً، بأنه موضوع عندما لا يتناسب مع قواعد النقد التي يتبعونها. وهكذا، فبعد أن استشهد الناقد الأوروبي/ جيوم بالحديث النبوي المعروف، الذي رواه جمع كبير من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - جمع كبير جداً لدرجة أنه لا يمكن أن يرقى أدنى شك إلى صحته - "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" - علق قائلاً: "لن تكشف دراسة النظم الدينية في العالم عن محاولة بسيطة للسب على الصراط المستقيم أكثر من هذه المحاولة" (الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٧٩). ويعلق نفس المؤلف مشيراً إلى نفس الحديث بقوله: "لمحاربة الأحاديث الموضوعية، وضعوا أحاديث أخرى غير متصلة السند أيضاً إلى النبي" (الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٧٨). ولا تتناسب هذه التعليقات غير المسؤولة مع عمل نقدي. فلا مجال للشك في صحة هذا الحديث الذي قبله المحدثون. ولا يمكن أن ننكر أن هناك

وحتى النقاد الأوروبيون أقروا، كما سبق أن ذكرنا، بأن المسلمين كانوا يتبعون السنة في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) كما يتضح أيضاً من عدة وقائع ما كان يحظى به القرآن من حجية تفوق حجية الحديث النبوي. ووفقاً لأحد الأحاديث الصحيحة، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ.. إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ".^{٥٢} كما يروى عنه صلى الله عليه وسلم أيضاً قوله: "كلامي لا ينسخ كلام الله، وكلام الله ينسخ كلامي".^{٥٣} بالإضافة إلى ذلك، يضع الحديث الذي روي بشأن معاذ بن جبل، والذي سبق الاستشهاد به في موضع آخر،^{٥٤} القرآن في المرتبة الأولى ثم تأتي السنة بعده. وقد كانت السيدة عائشة (رضي الله عنها) تستشهد بأية قرآنية معينة عندما كانت تسمع قولاً من النبي (صلى الله عليه وسلم) ترى أن مدلوله يتعارض مع تعاليم القرآن. وقد كان الإمام الكبير/ البخاري يستشهد بأية قرآنية قبل الاستشهاد بالحديث عندما يجدها تتناسب مع متن الحديث، مما يدل على أن القرآن له الأولوية على الحديث؛ وإجماع الأمة الإسلامية، أطلق على البخاري، الذي يعتبر أصح كتب الحديث، أنه أصح الكتب بعد كتاب الله. ويشكل هذا الحكم للأمة الإسلامية جمعاء دليلاً كافياً على أنه حتى صحيح البخاري إذا تعارض مع القرآن، فإن كتاب البخاري هو الذي يجب رده وليس كتاب الله. وكما سبق أن ذكرنا في بداية هذا الفصل، فإن السنة ليست إلا بيانا للقرآن وبالتالي تكون للقرآن الأولوية عليها. وأخيراً، أجمع المؤرخون المسلمون وغير المسلمين على أن القرآن قد نقل إلينا بتمامه، أي بكل ألفاظه وحروفه، في حين أنه لا يمكن الجزم بأن الحديث نقل إلينا بتمامه. وكل هذه الاعتبارات تدل على أن الحديث القائل بوجود الحكم على الحديث بالقرآن يتفق تماماً مع تعاليم النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا داعي حقاً للشك في صحته. وحتى لو افترضنا أن هذا الحديث غير موجود، فإن المعيار المقترح فيه مازال هو المعيار السليم للحكم على صحة الحديث لأن القرآن يتناول مبادئ الشريعة الإسلامية في حين تتناول السنة تفاصيلها كما أنه من المعقول ألا تقبل إلا تلك التفاصيل التي تتفق مع المبادئ. كما أنه ذكر أيضاً في القرآن صراحة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يتبع إلا "مَا يُوحَىٰ" إليه^{٥٥} ولا يعصي كلمة مما أوحى إليه،^{٥٦} ولذا يستتبع

نظماً دينية وضع مبادئها الأساسية رجال أتقياء، إلا أنه في حالة الإسلام تعتبر التفاصيل نفسها أموراً تاريخية ولا تجد "أكاذيب الأتقياء" هنا أرضاً لتنمو فيها.

^{٥٢} مشكاة المصابيح ١: ٦-١.

^{٥٣} المرجع السابق ١: ٦-٣.

^{٥٤} عند تعيين معاذ بن جبل حاكماً على اليمن، سأله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كيف يقضي إذا عرض له قضاء. فأجاب: "أُقضي بكتاب الله". فسأله النبي: "فإن لم تجد في كتاب الله". فأجابه معاذ: "فبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". فاستحسن النبي (صلى الله عليه وسلم) رده (أبي داود ٢٣: ١١).

^{٥٥} سورة الأنعام (٦): الآية رقم (٥٠)؛ الأعراف (٧): الآية رقم (٢٠٣)؛ الأحقاف (٤٦): الآية رقم (٩).

^{٥٦} سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٥)؛ يونس (١٠): الآية رقم (١٥).

ذلك بلا شك أنه إذا كان هناك في الحديث ما يتعارض مع القرآن فلا يمكن أن يكون صدر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وبالتالي يجب رده.

إلى أي مدى استخدم المحدثون هذه المعايير؟

ولكن ينشأ الآن السؤال عما إذا كان جميع المحدثين قد أولوا نفس القدر من الاهتمام إلى قواعد النقد سالفة الذكر. فمن الواضح أنهم لم يفعلوا ذلك. كما كان أول هؤلاء المحدثين، الإمام/ البخاري، لحسن الحظ، أكثرهم تدقيقاً. فلم يكن البخاري أكثر المحدثين دقة في قبول وثاقة الرواة فحسب وإنما كان أيضاً يولى اهتماماً شديداً إلى آخر المعايير النقدية المذكورة سلفاً: معيار الحكم على الحديث بالقرآن. حيث إنه يُعنون كثيراً من الكتب والأبواب المدرجة في صحيحه بآيات قرآنية وكان يكتفي أحياناً بذكر آية قرآنية معينة لتعزيز متن الحديث. مما يدل على أن نقده للحديث لم يقتصر فحسب على مجرد تحري أحوال الرواة، كما يبدو أن النقاد الأوروبيين يعتقدون، وإنما كان البخاري أيضاً يستخدم المعايير النقدية الأخرى. وقد كانت عملية النقد، بالطبع، تجرى في ذهنه ومن ثم لا يتوقع المرء أن يجد في كتابه سجلاً مدونة فيه إجراءات ذلك النقد. وكذلك كان الوضع بالنسبة للمحدثين الآخرين. فقد اتبعوا قواعد النقد الضرورية، إلا أنهم لم يكونوا جميعاً على نفس مستوى التدقيق ولم يتمتعوا جميعاً بنفس الرؤية أو الخبرة النقدية. وبالفعل، كانوا أحياناً يخفون عن عمد من صرامة قواعد النقد الخاصة بتحري أحوال الرواة وكذلك المعايير النقدية. كما فرقوا أيضاً بين الأحاديث المتعلقة بالمسائل الفقهية والأحاديث الأخرى، مثل الأحاديث المتعلقة بالتاريخ الماضي أو بالنبوءات أو غيرها من المواد التي لا تكون ذات صلة بالحياة العملية للإنسان. وعلمنا أنهم كانوا متشددين في المسائل الفقهية أكثر منهم في الأحاديث الأخرى. وهكذا، يقول البيهقي في كتابه المدخل إلى السنن: "إذا روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحلال والحرام والأحكام، شددنا في الأسانيد، وانتقدنا في الرجال، وإذا روينا في الفضائل والعقاب، سهلنا في الأسانيد، وتسامحنا في الأحاديث." ويقول أحمد بن حنبل في سيرة ابن إسحاق: "ابن إسحاق رجل يكتب الأحاديث (أي الأحاديث المتعلقة بحياة النبي (صلى الله عليه وسلم))، وإذا جاء الحلال والحرام أرونا قوماً هكذا - وقبض أصابعه الأربعة"، أي شبك أصابعه وضم يديه إشارة إلى الانتماء إلى أمة قوية وإلى متانة أخلاق الرواة.

ويجب أن نعترف، رغم ذلك، بأن معظم المحدثين أولوا اهتماماً إلى تحري أحوال الرواة أكثر من اهتمامهم بالمعايير النقدية الأخرى؛ وقد كان لديهم ما يبرر ذلك لأن هدفهم كان هو تخريج كتب حديث صحيحة، ومن ثم كان شغلهم الشاغل هو التأكد من وجود سند صحيح للأحاديث متصل

إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) من خلال سلسلة من الرواة الثقة. وقد ازدادت الحاجة لهذه الجزئية النقدية لأنه كلما كانت سلسلة الرواة أطول، ازدادت صعوبة قياس مدى وثاقته. ويمكن تطبيق معايير نقدية أخرى على أي حديث في أي زمان وليس من المحتمل أن يؤثر مرور ألف عام من الزمان بأي شكل من الأشكال على قيمة هذه المعايير، ولكن مرور قرن آخر من الزمان كان من الممكن أن يجعل مهمة تحري أحوال سلسلة الرواة صعبة بحيث تصل إلى المستحيل بالنسبة لجميع الأغراض العملية. ومن ثم، كان المحدثون على حق في تركيز اهتمامهم على هذا المعيار. كما أن مهمة جمع الحديث لم تعلق الباب أمام المزيد من النقد. فقد اكتفى المحدثون بتخريج كتب حديث صحيحة في المقام الأول تاركين باقي مهمة النقد إلى الأجيال المقبلة. ولم يزعموا قط خلو أعمالهم من الخطأ؛ وحتى البخاري لم يزعم ذلك. فقد بذلوا قصارى جهدهم في ممارسة قدرتهم على الحكم، ولكنهم لم يزعموا قط، ولم يزعم أي مسلم بالنيابة عنهم، خلو أحكامهم من الخطأ. وفي الواقع، فقد بدأ هؤلاء المحدثون عملاً كان من المقدر له أن يستمر للأجيال المقبلة. فحتى وإن أمكن وضع مائة قاعدة نقدية أخرى، فإنه يبقى رغم ذلك حكم شخص واحد بشأن قبول أو رد حديث معين. ويعتبر كل كتاب عملاً أخرجته محدث واحد، وحتى إن كانت تسعة وتسعون في المائة من أحكامه صحيحة، فإنه لا يزال هناك مجال لممارسة الآخرين لقدرتهم على الحكم على الحديث. ويخطئ الناقد الغربي عندما يعتقد أنه يمكن الزعم أن أيًا من المحدثين معصوم من الخطأ وأن ممارسة محدث معين للحكم على صحة حديث ما تحول دون حكم المحدثين الآخرين على مدى صحته.

كما أنه يجب ألا يغيب عن أذهاننا أيضاً أنه مهما كانت الاختلافات الكثيرة بين المحدثين في أحكامهم بشأن ضرورة استخدام قواعد نقدية صارمة، فإنهم شرعوا في عملهم بأذهان خالية تماماً من أي تحيز أو تأثير خارجي. فقد كانوا يؤثرون التضحية بحياتهم على الحيد عن الحق من وجهة نظرهم. وقد كانت كثير من الشخصيات الدينية المشهورة تؤثر العقاب أو السجن على نطق كلمة ضد عقيدتهم. وهذه حقيقة معترف بها لدى عموم الناس فيما يتعلق بالحكم الأموي. وكما قال أحد الكتاب الأوروبيين: "كانوا يسعون لتطبيق سنة الأمة كما كانت الحال، أو كما يعتقد أنها كانت، في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) ولذا وجدوا أعداء ألداء من بين أفراد الأسرة الحاكمة."^{٥٧} كما أن استقلال فكر كبار العلماء المسلمين لم يتأثر قط في ظل الحكم العباسي. بل وكانوا لا يقبلون أي منصب في ظل حكم أي حاكم مسلم: فكما قال تيودور ويلم جوينبال في دائرة المعارف الإسلامية: "لقد باتت من المعروف حق المعرفة أن كثيراً من الرجال الأتقياء المستقلين الذين عاشوا في تلك الأيام كانوا يرون أنه من الخطأ بل ويرفضون الانضمام إلى خدمة الحكومة أو شغل أي منصب تابع لها." (ص. ٩١).

^{٥٧} جيوم، الأحاديث النبوية الإسلامية، ص. ٤٢.

أنواع الحديث المختلفة

تناول ابن حجر بالتفصيل الشديد أنواع الحديث المختلفة في كتابه شرح نخبه الفكر . وأهم تقسيم من تقسيمات الحديث هو تقسيمه إلى متواتر وآحاد . ويقال عن الحديث إنه متواتر (والمعنى اللغوي للكلمة هو ما جاء بعضه في أثر بعض وترأ وترأ من غير أن ينقطع) عندما يرويه جمع من الرواة لدرجة أنه لا يخشى تواطؤهم على الكذب بحيث إن الإجماع على قبوله لا يجعل مجالاً للشك في سنده . وتنتمي إلى هذه الفئة من الأحاديث الأحاديث التي قبلها كل جيل من أجيال المسلمين منذ عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)^{٨٠} . ويتم قبول الأحاديث المتواترة دون نقد أسانيدھا . ويطلق على كل الأحاديث الأخرى التي لا تنتمي إلى هذه الفئة اسم "الآحاد" (جمع أحد أو واحد، أي المنفرد الواحد).

وتنقسم الأحاديث الآحاد إلى ثلاثة أنواع؛ هي: المشهور (والمعنى اللغوي للكلمة هو المعروف لدى الناس)، ومعناه الاصطلاحي هو الحديث الذي رواه أكثر من راويين في كل طبقة؛ والعزير (ومعناها اللغوي القوي)، وهو الحديث الذي لا يقل عدد رواته عن اثنين؛ والغريب (ومعناها اللغوي غريب أو غير مألوف)، وهو الحديث الذي يوجد في سلسلة سنده راو واحد تقدر بروايته في أي طبقة. ومن الجدير بالذكر أنه في هذا التصنيف لا ينطبق شرط رواية أكثر من شخصين أو شخصين أو أقل من شخصين للأحاديث في أي طبقة إلا على الأجيال الثلاثة اللاحقة لجيل صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وقد تم قبول سلسلة إسناد النوع الأول من النوعين الرئيسيين للحديث: المتواتر والآحاد، إلا أن النوع الثاني من الحديث ينقسم إلى قسمين فرعيين آخرين؛ هما: المقبول، أي ما يمكن قبوله، والمردود أي ما يمكن رده. وتنقسم الأحاديث المقبولة أيضاً إلى قسمين فرعيين؛ هما: الصحيح والحسن. والحديث الصحيح هو الذي تتوافر فيه الشروط التالية: (١) أن يكون رواته عدولاً (رجالاً) تقبل أقوالهم وقراراتهم أو لا تحيد رغبتهم عن الطريق المستقيم)، منضبطين تماماً (أي حافظين ومتيقظين لما يروونه بالضبط)؛ (٢) أن يكون متصل السند، أي اتصال أسانيدہ بحيث لا يكون هناك انقطاع في السند؛ (٣) أن يكون غير معتل، أي لا تشوبه علة تقدر في صحته؛ (٤) ألا يكون شاذاً (المعنى اللغوي للكلمة هو ما خرج على الجماعة أو خالفها)، أي ما يكون مخالفاً لرواية الناس أو ما يتعارض مع شهادة الآخرين بالإجماع. والحديث الذي لا يرقى إلى هذه المرتبة العالية ولكن تتوافر فيه نفس شروط الحديث الصحيح فيما عدا شرط أن يكون رواته منضبطين تماماً

^{٨٠} هناك اختلاف في الرأي حول عدد رواة الأحاديث المتواترة فيرى البعض أن أقل عدد لهم هو أربعة في حين يرى البعض الآخر أنه خمسة أو سبعة أو عشرة رواة، ويرفع آخرون عددهم ليصل إلى أربعين أو حتى سبعين راوياً. ولكن الرأي المقبول لدى العموم هو أن قبول الحديث على نطاق واسع هو الذي يرفعه إلى مرتبة الحديث المتواتر .

(أي حافظين ومتيقظين لما يروونه بالضبط) يطلق عليه اسم حديث حسن. ويعتبر هذا الحديث صحيحاً عند تعويض علة عدم تمام الضبط بعدد رواته الكبير. ولا يقبل الحديث الصحيح إذا كان هناك دليل أقوى يقدر في صحة ما ذكر فيه. وقد سبق أن ذكرنا أن المحدثين أقرّوا بإمكانية رد الحديث إما بسبب وجود علة في سنده أو بسبب عدم قبول متنه. وهكذا يقول ابن حجر إن عدم قبول متن الحديث يعتبر من بين أسباب رده. فعلى سبيل المثال، يتم رد الحديث إذا كان متعارضاً مع آية قرآنية معينة أو مع حديث معترف به أو مع إجماع الأمة الإسلامية أو منافياً للعقل.

وفيما يتعلق بالعلل في السند، يقال عن الحديث إنه مرفوع عندما يتصل سنده إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) دون وجود أي علة في سنده، ويكون متصلاً عندما لا يكون هناك انقطاع في إسناده، وموقوفاً عندما لا يتصل سنده إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، ومعنعناً عندما تربطه كلمة لا تدل على اتصال أسانيده، ويكون معلقاً عندما يسقط اسم راوٍ أو أكثر من سلسلة السند، (ويكون منقطعاً عندما يسقط اسم راوٍ أو أكثر من منتصف سلسلة السند ومرسلاً عندما يسقط الاسم من نهاية سلسلة السند).

الفصل الثالث

الاجتهاد

يعتبر الاجتهاد هو المصدر الثالث للتشريع في الإسلام. والكلمة نفسها مشتقة من جذر الكلمة جهد التي تعني استفرغ ما في الوسع أو الطاقة. وكلمة اجتهاد، التي تحمل نفس المعنى اللغوي، تستخدم اصطلاحاً للإشارة إلى استفرغ رجل القانون ما في وسعه في إعمال العقل بغرض تكوين رأي في قضية ما بشأن مسألة صعبة مشكوك فيها (المعجم العربي - الإنجليزي للين).

إقرار القرآن بأهمية العقل

يلعب الاجتهاد أو إعمال الرأي، في المسائل الدينية والشرعية، دوراً هاماً للغاية في الدين الإسلامي، وقد تم إقرار أهمية العقل صراحة في القرآن الحافل بنصائح مثل ما يلي: "أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ؟"، "أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟"، "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"، "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"؛ وآيات أخرى. ويشبه أولئك الذين لا يستخدمون ملكة الاجتهاد بالدواب ويوصفون بأنهم صم، بكم، عمي كما ورد في قوله تعالى:

"وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ غَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٧١)).

"لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا تَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٧٩)).

"إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٢٢)).
"أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا" (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (٤٤)).

وفي الوقت الذي يذم فيه أولئك الذين لا يستخدمون عقولهم أو يجتهدون الرأي، يمتدح أولئك الذين يستخدمونه أو يجتهدون:

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" (سورة آل عمران (٣): الآيتان رقما (١٩٠) و(١٩١)).

ويقر القرآن بأن الوحي مصدر للمعرفة أسمى من العقل، ولكنه في الوقت نفسه يقر بأنه يمكن الحكم بالعقل على صحة المبادئ التي أرساها الوحي، ومن ثم يخاطب العقل مراراً وتكراراً ويذم أولئك الذين لا يستخدمون ملكة الاجتهاد. كما يقر أيضاً بضرورة إعمال الرأي للتوصل إلى حكم، كما ورد في قوله تعالى: "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِ وَّلَوُ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ تِئْتَنَّبَطُونَهُ مِنْهُمْ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٨٣)).^١

وتقر الآية الكريمة مبدأ إعمال الرأي الذي هو نفسه مبدأ الاجتهاد ورغم أن المناسبة التي نزلت فيها الآية خاصة، فإن المبدأ الذي تم إقراره عام.

النبي (ص) أجاز الاجتهاد في المسائل الدينية

تم إقرار الاجتهاد في الحديث باعتباره الوسيلة التي يمكن من خلالها التوصل إلى حكم في مسألة ما عندما لا يرد بشأنها أمر في القرآن أو السنة. ويعتبر الحديث التالي هو الأساس الذي يستند عليه الاجتهاد في الإسلام: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قِضَاءٌ قَالَ أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ قَالَ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ قَالَ فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا فِي كِتَابِ اللَّهِ قَالَ أُجْتَهَدُ رَأْيِي وَلَا أَلُو فَضْرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدْرَهُ وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لَمَّا يُرْضِي رَسُولُ اللَّهِ" (أبي داود ٢٣: ١١). ولا يدل هذا الحديث فحسب على أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أجاز الاجتهاد، وإنما يدل أيضاً على أن صحابة رسول الله كانوا على علم تام بالمبدأ وأنهم كانوا يلجأون إلى الاجتهاد بدون قيود عندما تدعو الحاجة إليه، حتى في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم).

^١ كلمة يستنبطون مأخوذة من كلمة استنباط المشتقة من عبارة "نبط البئر" التي تعني "حفر البئر واستخرج ما فيها من ماء". واستنباط الفقيه مشتق من هذا ويعني اجتهاده في البحث عن المعنى الخفي وهو نفس معنى "استخراج"، أي استدلال قائم على القياس" (تاج العروس).

اجتهاد صحابة رسول الله (ص)

من الخطأ أن نعتقد أن الاجتهاد لمواكبة ما يستجد من أوضاع لم يستخدم إلا بظهور الأئمة الأربعة العظام المعترف برأيهم الآن لدى عموم المسلمين في العالم الإسلامي. وقد بدأ الاجتهاد، كما سبق أن ذكرنا، في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) لأنه كان من المستحيل عرض كل مسألة تحتاج للفصل عليه صلى الله عليه وسلم. وبعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم)، أصبح مبدأ الاجتهاد أكثر شيوعاً، وكلما كانت تضاف مجالات جديدة إلى العالم المادي والروحاني للإسلام، ازدادت الحاجة للجوء إلى الاجتهاد. ولم يخول الخلفاء الراشدون لأنفسهم سلطة الفصل في الأمور بالكامل. وإنما كان يوجد في عهدهم مجلس تحال إليه كل قضية هامة وكان الخليفة وجامعة المسلمين يوافقون على الحكم الصادر منه بأغلبية الأصوات. وعلى ذلك، كتب السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء استناداً إلى أبي القاسم البغوي الذي روى عن ميمون بن مهران قوله: "كان أبو بكر (الخليفة الأول) إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضى به بينهم قضى به وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك الأمر سنة قضى بها فإن أعياه خرج فسأل المسلمين وقال أثنائي كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في ذلك بقضاء فربما اجتمع إليه نفر كلهم يذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا فإن أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم فإن أجمع أمرهم (بالأغلبية) على رأي قضى به".^٢

ومن الصحيح أن هذا المجلس لم يكن بالضبط مجلساً تشريعياً بالمعنى الحديث للكلمة، وإنما يمكن أن نرى بوضوح نواة مجلس تشريعي في هذا المجلس الذي كان يفصل في المسائل الهامة كافة، وإذا اقتضى الأمر، كان يصدر التشريعات. كما كانت له أيضاً سلطة الفصل في المسائل الدينية والدنيوية على حد سواء. وقد اتبع نفس الأسلوب الخليفة عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين، الذي كان يلجأ إلى الاجتهاد بلا قيود، ولكنه كان يهتم دائماً بجمع أئمة الصحابة لاستشارتهم. وعندما ينشأ اختلاف في الرأي، كان يؤخذ برأي الأغلبية. وبالإضافة إلى هذا المجلس، كان هناك معلمون عظام أمثال السيدة عائشة (رضي الله عنها)، وابن عباس، وابن عمر، وآخرين، ممن كان رأيهم يحترم. وكان يتم إصدار الأحكام وسن التشريعات وإصدارها على ألا تتعارض مع كتاب الله أو سنة رسوله (صلى الله عليه وسلم).

^٢ تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص. ٤٠.

الأئمة العظام: الإمام أبو حنيفة

في القرن الثاني الهجري، ظهر الأئمة العظام الذين قاموا بتقنين الشريعة الإسلامية حسب احتياجات عصرهم. وأول هؤلاء الأئمة والإمام الذي اتبع مذهبه السواد الأعظم من العالم الإسلامي هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، الذي ولد في البصرة عام ٨٠ هـ (٦٩٩ م)، وهو من أصل فارسي. ورغم ذلك، كانت مدينة الكوفة هي مركز نشاطه وتوفي عام ١٥٠ هـ (٧٦٧ م). وقد كان الأساس الذي يستند عليه القياس الذي استخدمه هو القرآن، وكان لا يقبل الحديث إلا إذا كان مقتنعاً تماماً بصحته؛ ولأن المحدثين لم يكونوا قد بدأوا بعد في أعمال جمع الحديث ولأن الكوفة نفسها لم تكن من الأمصار الكبرى المتخصصة في ذلك الفرع من فروع المعرفة، لم يقبل أبو حنيفة بطبيعة الحال سوى عدد لا يذكر من الأحاديث وكان يحتكم دائماً إلى كتاب الله في آرائه الفقهية. وفيما بعد، عندما تم جمع الحديث وأصبح أكثر تداولاً على الألسنة، أدخل أتباع المذهب الحنفي - كما كان يطلق على المدرسة الفقهية لأبي حنيفة - المزيد من الأحاديث فيه. وقد تتلمذ على يد أبي حنيفة تلميذان معروفان، هما محمد وأبو يوسف، وفي الغالب فإن آراءهما في مبادئ المعلم العظيم هي التي تشكل الآن الأساس الذي يستند عليه المذهب الحنفي. وقد كان أبو حنيفة رجلاً يتمتع بشخصية مستقلة تماماً وعندما رغبت الحكومة الإسلامية آنذاك، قبيل نهاية حياته، في استمالة إلى جانبها، أثر السجن على منصب كان سوف يحول دون استقلال فكره. ولم يكن مذهبه هو الأول من حيث الترتيب الزمني فحسب، وإنما كان أيضاً هو المذهب الذي اتبعته الغالبية العظمى من المسلمين، وقد كان من الممكن أن يعود تطوير مذهبه بالأسلوب الصحيح بنفع كبير على العالم الإسلامي. وقد كان الإمام أبو حنيفة أول من استوقف الانتباه إلى الأهمية الكبرى للقياس في التشريع. كما أرسى أيضاً مبدأ الاستحسان، الذي لم يكن من الممكن من خلاله سن التشريعات الجديدة فحسب، وإنما كان من الممكن أيضاً رفض الاستنتاجات المنطقية عندما يثبت أنها غير منصفة. ولم يقر الإمام أبو حنيفة حجية الأعراف والعادات فحسب، وإنما أيضاً استخدم مبدأ استقلال الرأي وعرسه في تلاميذه لدرجة أن أتباع المدارس الفقهية الأخرى أطلقوا عليه وعلى أتباعه لفظ "أهل الرأي".

الإمام مالك

ولد ثاني الأئمة المعروفين، الإمام مالك بن أنس، في المدينة المنورة عام ٩٣ هـ (٧١٣ م)؛ وعمل وتوفي هناك في الثانية والثمانين من عمره. وقد كاد يقتصر في جمعه للأحاديث على تلك التي وجدها في المدينة، وخاصة الأحاديث المتعلقة بالأفعال التي كانت سائدة هناك، ويستند مذهبه

الفقهي كليةً على أقوال وأفعال أهل المدينة. وقد كان شديد التدقيق في إطلاق أحكامه وعندما كان يراوده أدنى شك في صحة حكمه، كان يقول: "لا أعلم". ورغم صغر حجم كتاب الحديث الذي جمعه نسبياً، أي الموطأ، ورغم اقتصره على أقوال وأفعال أهل المدينة، فإنه يعتبر أول عمل من نوعه وهو من الكتب الصحاح.

الإمام الشافعي

ولد ثالث الأئمة الأربعة، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، في فلسطين عام ١٥٠ هـ (٧٦٧ م). وقد أمضى شبابه في مكة، ولكنه عمل معظم حياته في مصر، حيث توفي عام ٢٠٤ هـ. ولم يكن له نظير في عصره من حيث علمه بالقرآن وكان يبذل أقصى جهده في دراسة الأحاديث حيث كان يسافر من مكان لآخر بحثاً عن المعلومات. وقد كان على دراية تامة بالمذاهب الحنفي والمالكي، ولكن المذهب الذي أسسه كان مبنياً، إلى حد كبير، على الحديث، وبذلك يتميز عن المذهب الحنفي الذي كان مبنياً على القرآن ولم يكثر من استخدام الحديث. ويتميز المذهب الشافعي عن المالكي، الذي بني أيضاً على الأحاديث، في أن الأحاديث التي استخدمها الإمام الشافعي كانت أكثر شمولاً وتم جمعها من أمصار مختلفة في حين اكتفى الإمام مالك فقط بالأحاديث التي وجدها في المدينة المنورة.

الإمام أحمد

كان آخر الأئمة الأربعة العظام هو الإمام أحمد بن حنبل الذي ولد في بغداد عام ١٦٤ هـ وتوفي هناك عام ٢٤١ هـ. وقد أجرى أيضاً دراسة للحديث حيث يحتوي عمله الشهير في هذا الموضوع - مسند أحمد بن حنبل - على قرابة ثلاثين ألف حديث. وقد بني هذا الكتاب الخالد الذي جمع فيه الحديث، والذي قام بإعداده ابنه/ عبد الله، على المادة التي قام بجمعها الإمام بنفسه. ورغم ذلك، فإنه في المسند، كما سبق أن ذكرنا، لا يتم ترتيب الأحاديث حسب الموضوع، وإنما حسب أسماء الصحابة الذين يتصل إليهم السند النهائي للحديث. ورغم أن مسند أحمد يحتوي على عدد كبير من الأحاديث، فإن الإمام أحمد لم يطبق قواعد النقد المتشددة التي فضل تطبيقها رجال أمثال البخاري ومسلم. فقد كان فقط ترتيب الأحاديث حسب الموضوع هو الذي يتيح إمكانية نقد متن الحديث، كما أنه لم يكن من الممكن في المسانيد، التي تكون فيها الروايات المتعلقة بنفس الموضوع متناثرة في أبواب الكتاب كافة، إيلاء اهتمام شديد إلى الموضوع كما أنها لم تكن تتسم بالتدقيق الكافي في تحري أحوال الأسانيد.

وعليه، لا يمكن القول بأن مسند أحمد يتوافر فيه نفس القدر من الصحة، من حيث مادته، الذي توافر في كتب مشاهير المحدثين الآخرين. ومن طبيعة اجتهاداته، يتضح لنا أن الإمام أحمد بن حنبل استخدم القياس في أضيق الحدود ولأنه كاد يعتمد بشكل كلي على الحديث، كانت النتيجة أنه قبل حتى أضعف الأحاديث. وعلى ذلك، يتضح لنا أن مذهب أحمد بن حنبل يتميز عن مذهب أبي حنيفة، الذي كان يستخدم القياس دون قيود وكان يسعى لاستنباط أحكام جميع المسائل من القرآن بمساعدة العقل، بأن الإمام أحمد يستخدم العقل بأقل قدر ممكن وهكذا كان هناك انحراف ملحوظ لدى آخر الأئمة الأربعة العظام عن المبادئ الرفيعة لأول الأئمة، فيما يتعلق بإعمال العقل في المسائل الدينية. وحتى مذهب الإمام أبي حنيفة نفسه تأثر بسبب عدم تطوير الخلف الذين اتبعوا ذلك المذهب للمبادئ السامية التي وضعها المعلم، مما ترتب عليه توقف العالم الإسلامي بالتدرج عن الاجتهاد وحل الركود محل التطوير البناء.

الطرق المختلفة لصياغة التشريعات الجديدة

وهكذا، أجمع الأئمة الأربعة المعترف بهم لدى أهل السنة جميعاً على إعطاء مكانة هامة في التشريع لمبدأ الاجتهاد، بل وعلق الشيعة عليه أهمية أكبر بكثير.^٣ وفي الواقع، يعتبر مجال الاجتهاد واسعاً لأنه يسعى لتلبية جميع احتياجات الأمة الإسلامية التي لم يتم تلبيتها صراحة في القرآن والسنة. وقد حاول أئمة الإسلام العظام تلبية هذه المتطلبات بطرق عديدة يطلق عليها اصطلاحاً الألفاظ التالية: القياس، والاستحسان، والاستصلاح، والاستدلال. وقبل المضي في المناقشة، يمكن تقديم وصف موجز لهذه الطرق لتوضيح كيف تتم صياغة تشريعات جديدة باتباعها.^٤

القياس

أهم الطرق المذكورة سلفاً، التي أجاز استخدامها تقريباً لدى عموم المسلمين، هي القياس^٥، الذي يمكن وصفه بأنه "استنباط حكم واقعة لم يرد فيها نص بالقياس بواقعة أخرى ورد فيها نص". فقد

^٣ وهكذا، ينظر إلى الإجماع، الذي سوف أتناوله بالمناقشة فيما بعد والذي يعني في الحقيقة اجتهاد الكثيرين، وإلى الاجتهاد على أنهما مصدران آخران للتشريع في الإسلام جنباً إلى جنب مع الكتاب والسنة، رغم أن ثاني مصدرين يعتبران "أدلة قطعية" في حين يطلق على أول مصدرين "الأدلة الاجتهادية".

^٤ تناول السير/ عبد الرحيم هذا الموضوع بتمكن شديد في كتابه الفقه المحمدي حيث أشار إلى الأدلة الأصلية. وإنني لمدين له بالمادة العلمية المستخدمة في هذا الكتاب.

^٥ المعنى الحرفي للكلمة هو قياس الشيء بغيره أو حمل الشيء على نظيره أو الحكم عليه بالقياس في حين يستخدم

تحتاج واقعة معينة للحكم فيها، ولم يرد فيها حكم صريح في القرآن أو السنة. عندئذ، يبحث الفقيه عن واقعة مشابهة لها في القرآن أو في السنة وبالقياس، يتوصل إلى حكم فيها. وهكذا، يعتبر القياس امتداداً لأحكام الشريعة التي وردت في القرآن والسنة، ولكنه ليست له نفس الحجية التي يحظيان بها لأنه لم يزعم أي فقيه قط خلو الاستنباطات أو الأحكام والتشريعات المبنية على القياس من الخطأ؛ كما أنه من مبادئ الاجتهاد المعترف بها أن الفقيه قد يخطئ في حكمه. ومن هنا كانت الاختلافات الكثيرة في الاستنباطات الفقهية حتى بين أعظم الفقهاء. وكما يتضح من طبيعة القياس، فإن قياس جيل ما يمكن أن يرفضه جيل لاحق.

الاستحسان أو اجتهاد الرأي

والاستصلاح أو الاستنباط وفقاً للمصلحة العامة

يعني الاستحسان،^٦ في اصطلاح الأصوليين، اجتهاد الرأي ليس بالقياس وإنما وفقاً لاعتبارات المصلحة العامة أو لصالح العدالة. ووفقاً للمذهب الحنفي، فإنه عند عدم قبول حكم تم استنباطه بالقياس إما لتعارضه مع قواعد العدل الأكثر سماحة أو لأنه لا يكون في الصالح العام ومن المحتمل أن يؤدي إلى مشقة لا داعي لها بالنسبة لمن يطبق عليهم، عندئذ يكون للمجتهد مطلق الحرية في أن يعدل عن ذلك الحكم ويطبق بدلاً منه حكماً يخدم الصالح العام أو يتفق مع قواعد العدالة الأكثر سماحة. وهذه الطريقة خاصة بالمذهب الحنفي دون غيره من المذاهب، ولكنه نظراً للمعارضة الشديدة من جانب المدارس الفقهية الأخرى لهذه الطريقة، فإنه لم يتم تطويرها، حتى في ذلك المذهب، حتى تصل إلى طور الاكتمال. ورغم ذلك، فإن المبدأ الذي تستند عليه هذه الطريقة سليم تماماً ويتفق تماماً مع روح الكتاب. علاوة على ذلك، يكون احتمال الخطأ في هذه الطريقة أقل منه في القياس غير المقنع الذي كثيراً ما يؤدي إلى نتائج محدودة تتعارض مع روح الكتاب الكريم السمحة. وفي المذهب المالكي، تم اتباع قاعدة مشابهة أطلق عليها اسم الاستصلاح وتعني "استنباط حكم شرعي وفقاً لاعتبارات المصلحة العامة".

الفقهاء الكلمة للإشارة إلى عملية استنباط يتم من خلالها تطبيق حكم، ثبت بالنص، على الوقائع، التي رغم أنه لم يرد بشأنها نص، يحكم عليها بعلّة وردت في النص.

^٦ المعنى اللغوي للكلمة هو اعتبار شيء حسناً أو تفضيل الشيء.

الاستدلال

المعنى اللغوي للاستدلال هو الاستدلال على الشيء بشيء آخر والمصدران الرئيسيان المعترف بهما في استنباط هذه الاستدلالات هما العادات والأعراف وشرائع الأديان السماوية السابقة. فمن المعترف به أن العادات والأعراف التي كانت سائدة في الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام والتي لم ينسخها الإسلام لها قوة الشريعة. وبنفس المبدأ، يمكن قبول العادات والأعراف السائدة في أي مكان، عندما لا تتعارض مع روح تعاليم القرآن أو عندما لا يجرمها لأنه، وفقاً لمبدأ فقهي معروف، "فإن الإباحة هي الأصل"، ومن ثم فكل ما لا يحكم بتحريمه يكون مباحاً. وفي الواقع، فإنه نظراً لأن العادة تكون معترفاً بها لدى السواد الأعظم من الناس، فإنه ينظر إليها على أن لها قوة الإجماع، ومن ثم تكون لها الأسبقية على أي حكم شرعي يتم استنباطه بالقياس. والشرط الوحيد المطلوب توافره هو ألا تتعارض مع نص قرآني صريح أو حديث نبوي صحيح. وقد أكد المذهب الحنفي بصفة خاصة على أهمية العادات والأعراف.^٧ وفيما يتعلق بما شرع قبل الإسلام، فقد اختلف الرأي. حيث يرى بعض الفقهاء أن كل الأحكام التي لم تتسخ صراحة لها قوة الشريعة حتى في وقتنا هذا في حين يرى البعض الآخر خلاف ذلك. ووفقاً للمذهب الحنفي، فإن ما شرع من قبلنا يعتبر ملزماً طالما أنه ذكر في القرآن دون نسخه.

الإجماع

في اصطلاح الأصوليين المسلمين، يعني الإجماع^٨ اتفاق المجتهدين المسلمين في عصر معين بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على حكم شرعي في مسألة ما. ويستدل على هذا الإجماع بثلاث طرق: أولاً، بالقول أي إبداء الأئمة المعترف بهم رأياً في مسألة بعينها؛ ثانياً، بالفعل أي عندما يكون هناك إجماع على فعل ما؛ ثالثاً، بالسكوت - أي عندما لا يعارض الأئمة المعترف بهم رأياً أبداه واحد أو أكثر منهم. ويعتقد بوجه عام أن الإجماع يعني إجماع المجتهدين فقط على حكم شرعي ولا يشترك فيه أولئك الأفراد غير الفقهاء في الشريعة، إلا أنه يرى البعض أن الإجماع هو اتفاق المسلمين كافةً. وهناك اختلاف في الرأي حول ما إذا كان الإجماع يقتصر

^٧ وهكذا، ورد في كتاب الأشباه والنظائر أنه يُبنى الكثير من الأحكام الشرعية على العرف والعادات إلى حد كبير لدرجة أن هذا يعتبر مبدأ قانونياً.

^٨ كلمة إجماع مشتقة من كلمة جمع التي تعني جمع المتفرق أو ضم بعضه إلى بعض وكلمة الإجماع تحمل المعنى المزدوج التالي: أولاً: تسوية شيء لم تتم تسويته ومن ثم تعني الفصل في أمر وتسويته؛ ثانياً: الاتفاق أو الإجماع في الرأي (القاموس العربي الإنجليزي للين).

على مكان معين أو جبل بعينه أو أكثر. فالإمام مالك بنى اجتهاده على إجماع أهل المدينة. ولكن، من الناحية النظرية، فإنه يمكن انتقاد هذا القصر لأن العلماء لم يوجدوا في المدينة المنورة فحسب وكان يتم إرسالهم إلى الأماكن النائية في البلاد حتى في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم). والرأي المقبول لدى العموم هو ضرورة اشتراك الناس من جميع الأماكن في الإجماع. كما يستبعد مذهب أهل السنة أيضاً المجتهدين الشيعة من نطاق الإجماع والعكس بالعكس. في حين يرى الشيعة أن أحق الناس بممارسة الاجتهاد هم آل علي (رضي الله عنه) والسيدة فاطمة، ابنة النبي (صلى الله عليه وسلم) فقط. وبين أهل السنة، يرى بعض الفقهاء أن الإجماع يقتصر فقط على صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حين يرى البعض الآخر أنه يمتد إلى جبل التابعين، ولكن الرأي الشائع لدى العموم هو أن الإجماع غير مقصور على أي جبل أو بلد بعينه ومن ثم لا ينعقد الإجماع إلا بإجماع جميع المجتهدين من جميع البلاد في أي عصر معين وهذا يكاد يكون مستحيلاً.

وهناك اختلاف شديد في الرأي حول ما إذا كان الإجماع ينعقد باتفاق أغلبية المجتهدين أم باتفاقهم جميعاً. حيث يشترط معظم الفقهاء إجماع جميع المجتهدين في عصر معين بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حين يؤمن البعض الآخر بالرأي المخالف. ورغم ذلك، فمن المتفق عليه لدى عموم المسلمين أنه إذا كانت الأغلبية العظمى من المجتهدين تؤمن برأي معين، عندئذ يعتبر هذا الرأي نافذاً وملزماً، رغم أنه ليس قطعياً^٩. ويقال إن الإجماع قطعي عندما يتفق جميع المجتهدين في عصر معين على حكم شرعي في مسألة معينة، رغم أن البعض يرون أنه من الضروري أن يكون كل هؤلاء المجتهدين قد توفوا دون تغيير رأيهم في تلك المسألة. ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك ويؤكدون أن الإجماع لا ينعقد إلا إذا ثبت أنه لم يبد أي مجتهد ولد في ذلك العصر رأياً مخالفاً.

وعندما ينعقد الإجماع على مسألة ما، يترتب على ذلك أنه لا يجوز لأي مجتهد بمفرده إعادة فتح باب الاجتهاد في هذه المسألة، إلا إذا سبق أن أبدى مجتهد كان يعيش في العصر الذي انعقد فيه الإجماع رأياً مخالفاً. ورغم ذلك، يجوز أن يبطل الإجماع بإجماع آخر في نفس العصر أو في عصر لاحق مع التحفظ القائل بأنه لا يجوز إبطال إجماع صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من جانب أي أجيال لاحقة^{١٠}. وتختلف الآراء حول ما إذا كان الإجماع الذي يؤيد الرأي أو الرأي الآخر يحظر أم لا عندما يكون هناك اختلاف في الرأي بين صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مسألة ما.

^٩ مستترك الحاكم، الجزء الثاني، ص. ٣٥؛ جامع الجوامع، الجزء الثالث، ص. ٢٩١.

^{١٠} كشف الأسرار، الجزء الثاني، ص. ٢٦٢.

ومن المعترف به لدى العموم أنه حتى الصحابي كان من الممكن أن يخطئ في تكوين الرأي ومن ثم، فإنه من الناحية الفنية، لا يمكن الاعتراض على إجماع يخالف رأي صحابي من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وهناك نقطتان أخريان يجب توضيحهما لإدراك الانعقاد الكامل للإجماع. فمما سبق ذكره، يتضح أن انعقاد الإجماع يحتاج لاتفاق عدد كبير جداً من المجتهدين. ورغم ذلك، يعتقد أنه إذا اشترك ثلاثة مجتهدين أو حتى اثنان في مناقشة مسألة ما، عندئذ يعتبر الإجماع صحيحاً في حين يرى أحد الفقهاء أنه إذا كان لا يوجد في عصر معين سوى مجتهد واحد عندئذ يكون لرأيه الفردي حجية الإجماع. والآن نأتي إلى أهم سؤال؛ وهو: ما هو الدليل الذي يستند عليه الإجماع؟ فوفقاً للأئمة الأربعة العظام، يجوز أن يستند الإجماع إلى الكتاب أو السنة أو القياس. ورغم ذلك، يرى المعتزلة أنه لا يمكن أن يستند إلى الأحاديث الأحاد أو القياس^{١١}. حيث إنهم يرون وكذلك يرى آخرون أنه نظراً لأن الإجماع يكون قطعياً، كذلك أيضاً يجب أن يكون الدليل الذي يستند عليه قطعياً.

الإجماع مجرد اجتهاد على نطاق أوسع

وهكذا، يتبين لنا أن من الخطأ أن نصف الإجماع بأنه مصدر مستقل من مصادر التشريع في الإسلام. فالإجماع في الأساس عبارة عن اجتهاد مع فرق أنه اجتهاد أجمع عليه كل أو أغلبية المجتهدين في عصر معين بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم). ومن المعترف به أيضاً أنه، باستثناء إجماع الصحابة، يجوز إبطال إجماع جيل من المسلمين بإجماع جيل آخر. ورغم ذلك، فمن الصحيح أنه لو كان الإجماع يؤخذ على أنه يعني اتفاق جميع المجتهدين من جيل معين من المسلمين، لتعذر تطبيقه ربما بعد الأيام الأولى للصحابة. فالمسلمون، نظراً لأنهم كانوا ينتشرون في كل مكان ويعيشون في أماكن نائية، لم يتمكنوا جميعاً من الانشغال بمناقشة مسألة معينة في نفس الوقت. وحتى في نفس البلد، فإن نفس المسألة لا تشغل بالضرورة اهتمام جميع المجتهدين في نفس الوقت. ورغم ذلك، لا يمكن أن ننكر أنه إذا اتفق عدد كبير منهم في الرأي في مسألة معينة، عندئذ يكون لرأيهم ثقل أكبر من رأي الفرد الواحد، ولكن حتى رأي الأكثرية أو الجميع لا يمكن أن يكون معصوماً من الخطأ. وأخيراً، ليس الإجماع سوى اجتهاد على نطاق أوسع وشأنه شأن الاجتهاد، فإنه يظل دائماً قابلاً للتصحيح.

^{١١} جامع الجوامع، الجزء الثالث، ص. ٣٩٦.

الاختلاف مع الأغلبية ليس إثماً

يمكن أن نضيف في هذا الصدد أن المعنى الذي تستخدم به كلمة الإجماع لدى عموم الناس في يومنا هذا معنى خاطئ تماماً لأنها تؤخذ على أنها تعني رأي الأغلبية ويعتقد لدى عموم الناس أن المسلم يرتكب إثماً باختلافه مع آراء الأغلبية. وقد وصف الاختلاف النزيه في الرأي بأنه رحمة، وليس إثماً، كما ورد على لسان النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي يروى عنه قوله "اختلاف أمتي رحمة".^{١٢} ويوصف الاختلاف في الرأي بأنه رحمة لأنه فقط من خلال تشجيع هذا الاختلاف يتم تطوير ملكة الاجتهاد ويتم اكتشاف الحقيقة في نهاية الأمر. وقد كانت هناك اختلافات كثيرة في الرأي بين الصحابة كما كانت هناك أيضاً مسائل كان الرجل الفرد يتجرباً على إبداء رأي مخالف للآخرين بشأنها. فعلى سبيل المثال، كان أبو ذر وحده هو الذي يعتقد أن امتلاك المال إثم. فقد كان يرى أنه لا ينبغي على العبد أن يكسب المال وأنه إذا امتلك مالا، فعليه توزيعه على الفقراء فوراً. في حين كان كل الصحابة الآخرين معارضين لهذا الرأي، ورغم ذلك لم يحتج برأي الأغلبية ضده ولم يجرؤ أحد على القول إنه يستحق العقاب لاختلافه في الرأي مع الصحابة جميعاً.^{١٣} ومن ناحية أخرى، شجع النبي (صلى الله عليه وسلم) على الاجتهاد في أحد أحاديثه التي وعد فيها المجتهد بالأجر حتى وإن أخطأ في حكمه: "إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ".^{١٤}

مراتب الاجتهاد الثلاث

أشار الخلف من الفقهاء إلى ثلاث مراتب للاجتهاد، رغم أنه ليس هناك ما يعزز ذلك في القرآن أو السنة أو في كتابات الأئمة الأربعة العظام. وهذه المراتب الثلاث هي: الاجتهاد في الشرع، والاجتهاد في المذهب، والاجتهاد في المسائل. ويعتقد أن النوع الأول من الاجتهاد في سن تشريعات جديدة مقصور على الثلاثة قرون الهجرية الأولى، ويتركز، عملياً، في الأئمة الأربعة الذين يعتقد أنهم قاموا بتقنين الشريعة وأدرجوا في مذهبهم كل ما روي عن صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والتابعين. وبالطبع، لم يذكر في كثير من العبارات الواضحة أن باب الاجتهاد في التشريع أغلق بعد القرن الثاني الهجري، ولكنه ذكر أن الشروط الواجب توافرها في المجتهد من المرتبة الأولى لم تتوافر في أي شخص

^{١٢} الجامع الصغير، ص. ١١.

^{١٣} كتاب الطبقات الكبرى، الجزء الرابع. الفصل الأول، ص. ١٦٦.

^{١٤} مشكاة المصابيح، ١٧: ٣-١.

بعد أول أربعة أئمة كما يعتقد أيضاً أنه ليس من المتوقع أن تتوافر في أي شخص حتى يوم القيامة. وهذه الشروط ثلاثة؛ هي: معرفة وافية بالقرآن بشتى جوانبه، ومعرفة الحديث بأسانيده، ومتمونه، وشتى المعاني الواردة فيه؛ ومعرفة الجوانب المختلفة للقياس.^{١٥} ولم يذكر السبب في عدم توافر هذه الشروط إلا في أربعة رجال في القرن الثاني الهجري كما أنه لم يذكر أيضاً السبب في عدم توافرها في أي شخص بين الصحابة أو في القرن الأول الهجري. مما يدل على أنه ادعاء لا أساس له من الصحة. وذكر أن المرتبة الثانية للاجتهد - أي الاجتهاد في المذهب - قد منحت للتلاميذ الذين تتلمذوا مباشرة على يد أول أربعة أئمة. وينتمي إلى هذه المرتبة محمد وأبو يوسف، التلميذان المعروفان للإمام أبي حنيفة، وأي إجماع منهم في الرأي على أي مسألة، حتى وإن كان يتعارض مع رأي معلمهم، يجب قبوله. أما المرتبة الثالثة للاجتهد - أي الاجتهاد في المسائل - فقد وصل إليها الخلف من المجتهدين الذين تمكنوا من الفصل في مسائل معينة كانوا ينظرونها ولم يفصل فيها المجتهدون الذين ينتمون إلى أول مرتبتين، على أن تتفق هذه الأحكام اتفاقاً تاماً مع أحكام المجتهدين الذين ينتمون إلى أول مرتبتين. كما يعتقد أيضاً أن باب ذلك النوع من الاجتهاد قد أغلق بعد القرن السادس الهجري. وفي الوقت الحالي، يقال إنه لا يمكن أن يوجد سوى المقلدين، والمعنى اللغوي للكلمة هو "من يتبعون الغير فيما يقول أو يفعل، مؤمنين إيماناً شديداً بصوابه فيما يقول أو يفعل، بصرف النظر عن وجود إثبات أو دليل على صحة ذلك." ولا يمكن للمقلدين سوى الاستشهاد بفتوى عن السلف من المجتهدين، أو عندما تكون هناك آراء مختلفة للسلف من المفتين يختارون أحدها، ولكن لا يمكنهم التشكيك في صحة ما قيل. وعلى ذلك، فمن الناحية العملية، يوضع الاجتهاد، الذي لم يعتبره الأئمة الأربعة العظام أو تلاميذهم المباشرين دليلاً قطعياً، الآن على نفس المستوى مع القرآن والسنة ومن ثم لا يعتبر أي شخص الآن أهلاً لممارسة الاجتهاد.

باب الاجتهاد مازال مفتوحاً

ولكن من الخطأ أن نعتقد أن باب الاجتهاد أغلق بعد الأئمة الأربعة السالف ذكرهم. فمن الواضح تماماً أن القرآن أجاز حرية الاجتهاد في حين أجاز القرآن والسنة في عبارة صريحة الاستنباط، واستناداً إلى هذه الأوامر مازال العالم الإسلامي يجتهد في التشريع لنفسه. وقد مارس الصحابة الاجتهاد حتى في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما لم يكن من المناسب عرض كل مسألة تحتاج للفصل فيها عليه (صلى الله عليه وسلم) شخصياً؛ وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام، عندما استجدت بعض الأوضاع، سن أغلبية المجلس الذي شكله الخليفة تشريعات جديدة

^{١٥} كشف الأسرار. الجزء الرابع، ص. ١٥.

وأعطى أهل العلم من بين الصحابة أحكاماً جديدة لمواكبة هذه الأوضاع؛ وأضاف التابعون إلى معرفة الصحابة؛ وكان كل جيل لاحق غير راضٍ عما أنجزه الجيل السابق يجتهد الرأي دون قيود. وقد شهد القرن الثاني الهجري بزوغ النجوم الأربعة العملاقة في أفق الاجتهاد ويعتبر ظهور هؤلاء الأئمة العظام واحداً وراء الآخر، حيث كان من الواضح أن كلاً منهم غير راضٍ عما أنجزه سلفه، دليلاً آخر مقنعاً على أن الإسلام أجاز حرية اجتهاد الرأي لمواكبة ما يستجد من أوضاع. فالإمام مالك لم يكن راضياً عما أنجزه سلفه العظيم الإمام/ أبو حنيفة ولم يكن الإمام الشافعي أيضاً راضياً عما أنجزه سلفاه؛ ورغم أن الأئمة الثلاثة من الناحية العملية استنفدوا نبع الفقه، فإن أحمد بن حنبل قدم للعالم، الذي لا يرتوي تعطشه للمعرفة، ثمرة اجتهاده. ولم يجتهد الأئمة العظام الرأي فيما يستجد من أوضاع فحسب، وإنما أيضاً اختلفوا في مبدئهم الفقهي، مما يدل على أنه لم يكن أي منهم يرى أن الآخرين معصومون من الخطأ. وإن لم يكونوا معصومين من الخطأ آنذاك، فكيف إذن أصبحوا هكذا بعد مرور عدة قرون من الزمان عندما اقتضى مرور الزمن سن تشريعات جديدة لتلبية ما يستجد من احتياجات؟ فمن الواضح تماماً أن النبي (صلى الله عليه وسلم) فتح باب الاجتهاد كما أنه من المعترف به لدى جميع الناس أنه (صلى الله عليه وسلم) لم يأمر قط بإغلاق باب الاجتهاد بعد عصر معين؛ وحتى الأئمة العظام لم يغلقوا ذلك الباب. فلم يقل الإمام أبو حنيفة أو مالك أو الشافعي أو حتى الإمام أحمد بن حنبل أنه لا يجوز لمن بعدهم أن يجتهد رأيه ولم يزعم أي منهم أنه معصوم من الخطأ؛ ولم يذكر في أي من كتب أصول الفقه أن اجتهاد المرء في سن تشريعات جديدة محظور على المسلمين بعد الأئمة الأربعة، ولم يذكر حتى أن اجتهادهم نفس الدليل القطعي الذي يحظى به القرآن والسنة. وقد كان الاجتهاد نعمة كبيرة أنعم بها سبحانه على الأمة الإسلامية؛ فقد كان الاجتهاد هو الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها تلبية احتياجات الأجيال التالية وكذلك متطلبات الأجناس المختلفة التي تدخل في الإسلام. ولم يقل النبي (صلى الله عليه وسلم) أو أي من الصحابة (رضي الله عنهم) أو أي من الأئمة العظام أنه لا يجوز للمسلمين اجتهاد الرأي لمواكبة ما يستجد من أوضاع وتلبية الاحتياجات المتغيرة باستمرار لأمة يتزايد أفرادها باستمرار بعد زمن معين؛ ولم يقل أي منهم، ما لم يستطع أي فرد في الواقع أن يقوله، أنه لن تظهر أي أوضاع جديدة بعد القرن الثاني الهجري. وإنما ما حدث كان أن اهتمام كبار المفكرين في القرن الثالث الهجري كان موجهاً نحو جمع الحديث ونقده. ومن ناحية أخرى، ارتفع الأئمة الأربعة إلى مرتبة أعلى بكثير من الفقهاء العاديين لدرجة أن هؤلاء الفقهاء تضاءلوا إلى لا شيء؛ وبالتدرج ساد الاعتقاد بأنه لا يجوز لأي فرد الاجتهاد باستقلال عن سبقوه. وقد أدى هذا الاعتقاد بدوره إلى فرض قيود على الاجتهاد واستقلال الفكر الذي دعا إليه الإسلام. وبتقييد العقلية الإسلامية باعتقاد خاطئ، تعرضت هذه العقلية لخسارة فادحة وتوقف طلب المعرفة المتزايد وحل محله الركود والجهل.

القرآن أقر مبدأ استقلال الفكر

يقر القرآن مبدأ استقلال الرأي للفرد وللجميع ويأمر بعدم تقديم الطاعة المطلقة إلا لله ورسوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٥٩)). وتتحدث هذه الآية أولاً عن طاعة أولي الأمر بالإضافة إلى طاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم تذكر النزاعات التي يجب الفصل فيها بردها إلى الله ورسوله. ويدل إغفال عبارة "أُولِي الْأَمْرِ" من الجزء الثاني من الآية بوضوح على أن التنازع المشار إليه له علاقة بالخلافات مع "أُولِي الْأَمْرِ"، وفي حالة هذا الخلاف تكون سلطة الفصل فيه لله والرسول أو للكتاب والسنة. وتشمل عبارة "أُولِي الْأَمْرِ" كل سلطة في الإسلام، سواء كانت مادية أو روحانية، وهكذا أقر القرآن مبدأ استقلال الفكر لكل مسلم عندما أجاز له الاختلاف مع الجميع فيما عدا الكتاب والسنة. ويجب طاعة الصحابة، والمحدثين، والأئمة الأربعة، وغيرهم من الأئمة الذين تشملهم فئة "أُولِي الْأَمْرِ"، ولكنه أجاز صراحة الاختلاف مع أي منهم أو معهم جميعاً عندما يكون لدى المسلم دليل من القرآن والسنة. وبما أن القرآن نفسه هو المحك الأساسي لاختبار صحة الحديث، فإن الاستنتاج الواضح هو أن الإسلام أجاز استقلال الفكر مع مراعاة شرط عدم مخالفة المبادئ التي تم إرساؤها في القرآن.

وهكذا يتضح لنا أنه من حق أي أمة مسلمة التشريع لنفسها، بشرط ألا يتعارض ذلك التشريع مع أي مبدأ أرساه القرآن. كما أن الاعتقاد السائد في العالم الإسلامي في وقتنا هذا بأنه ليس من حق أي فرد، حتى في ضوء الأوضاع الجديدة التي أدى إلى ظهورها ألف عام من تقدم العالم، أن يختلف مع الأئمة الأربعة، هذا الاعتقاد خاطئ تماماً. فالحق في الاختلاف مع أسمى البشر بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) هو حق طبيعي مكتسب للمسلمين كافة وحرمانهم من ذلك الحق إنما يقضي على وجود الإسلام نفسه. وفي ظل الأوضاع الحالية، عندما تغيرت الأوضاع في العالم تماماً وظل العالم في تقدم مستمر طيلة ألف عام من الزمان في حين ظل المسلمون تقريباً في حالة من السكون، يصبح من واجب الدول الإسلامية والشعوب المسلمة اجتهاد الرأي لمواكبة تغير الأوضاع وإيجاد السبل والوسائل اللازمة لخلاصهم الدنيوي. وفي الواقع، أدان النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه إغلاق باب الاجتهاد والاتجاه للقضاء على استقلال الفكر الذي سيطر على العالم الإسلامي بعد القرن الثالث الهجري في قوله (صلى الله عليه وسلم): "خير الناس قرني ثم الثاني ثم الثالث ثم يجيء قوم لا خير فيهم".^{١٦} كما يروى عنه (صلى الله عليه وسلم) قوله:

^{١٦} كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. الجزء السادس، ٢٠٦٨.

"خير هذه الأمة أولها وآخرها، وأولها فيهم رسول الله، وآخرها فيهم عيسى ابن مريم،^{١٧} وبين ذلك نهج أعوج ليسوا مني ولست منهم".^{١٨}

وتشير القرون الثلاثة المذكورة في الحديث الأول إلى ثلاثة أجيال حيث يشير القرن الأول إلى قرن صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأن آخر الصحابة توفي في نهاية القرن الأول الهجري بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) ويشير القرنان الثاني والثالث إلى قرني الجيلين التاليين لجيل الصحابة اللذين أطلق عليهما جيل التابعين وجيل تابعي التابعين. وفي الواقع، نجد أنه رغم أنه كان مسموحاً بممارسة استقلال الفكر دون قيود في القرون الثلاثة الأولى وحتى محمد وأبو يوسف، تلميذا الإمام أبي حنيفة، لم يترددا في الاختلاف مع إمامهما العظيم، فإن الصرامة أصبحت القاعدة المتبعة بعد ذلك مع استثناءات قليلة فقط. ولذلك، ذم النبي (صلى الله عليه وسلم) العصر الذي لا تتم فيه ممارسة حرية الفكر بقوله إنه عصر الصحبة العوجاء.

^{١٧} يقصد بعيسى، ابن مريم، المسيح الذي وعد المسلمون بنزوله فيهم عندما يوصف في عبارات واضحة بأنه: "إمامكم منكم" (البخاري ٦٠: ٤٩).

^{١٨} كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. الجزء السادس، ٢٠٧٣.

الجزء الثاني
العقائد في الإسلام

الفصل الأول

الإيمان

الإيمان والعمل

يمكن تقسيم الدين الإسلامي بوجه عام إلى قسمين - قسم نظري، أو ما يطلق عليه، أركان الإيمان أو العقائد الإسلامية؛ وقسم عملي يشمل كل ما يجب على المسلم عمله، أي النهج العملي الذي يجب على المسلم السير عليه في حياته. ويطلق على القسم الأول لفظ *أصول* (والكلمة جمع أصل ومعناها اللغوي جذر أو قاعدة) في حين يطلق على القسم الثاني لفظ *فروع* (والكلمة جمع فرع ومعناها اللغوي ما يتفرع عن غيره). كما يطلق أيضاً على القسم الأول لفظ *عقائد* (والكلمة جمع عقيدة ومعناها اللغوي ما يلتزم به الفرد) في حين يطلق على القسم الثاني لفظ *أحكام* (والكلمة جمع حكم ومعناها اللغوي أمر)، أي أحكام وقواعد الدين الإسلامي. ووفقاً للشهرستاني، يعتبر القسم الأول معرفة في حين يعتبر القسم الثاني طاعة. وهكذا، تكون المعرفة هي الأصل؛ في حين تكون الطاعة أو العمل هي الفرع. وفي القرآن، يشار إلى هذين القسمين العامين بشكل متكرر بلفظي *الإيمان* ^١ و*العمل* وكثيراً ما يستخدم اللفظان معاً لوصف المؤمن؛ حيث نجد الوصف التالي: "الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" هو الوصف المتكرر للمؤمنين الحق. ويجب أن نضع دائماً نصب أعيننا علاقة الإيمان بالأعمال لفهم المعنى الحقيقي للإسلام.

استخدام كلمة "الإيمان" في القرآن

تستخدم كلمة *الإيمان* بمعنيين مختلفين في القرآن. فوفقاً لراغب، المؤلف الشهير لمعجم مفردات القرآن، أحياناً لا يكون *الإيمان* سوى إقرار باللسان بالإيمان بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، كما ورد على سبيل المثال في هاتين الآيتين الكريميتين: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ..."

^١ كلمة *الإيمان* مشتقة من الفعل *آمن* الذي يعني، عندما يستخدم كفعل لازم، صار *ذاً آمناً*؛ وعندما يستخدم كفعل متعدي، يعني *جعل (له) الأمان*. ومن ثم، يطلق على العبد لفظ *مؤمن*، الذي يعني المرء الذي يصير *ذاً آمناً*، لأنه أقر المبادئ التي تنزل السكينة في قلبه أو تجعله في مأمن من الخوف؛ ومن أسماء الله الحسنى اسم *المؤمن*، أي المؤمن لعباده من العذاب والخوف (سورة الحشر (٥٩): الآية رقم (٢٣)).

(سورة البقرة (٢): الآية رقم (٦٢))؛ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٣٦)). ولكن، كما أضاف راغب، فإن الإيمان يدل أيضاً على الحالة التي يكون فيها الإقرار باللسان مقترناً بالتصديق بالقلب والعمل بالجوارح، كما ورد في الآية التالية: "وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ" (سورة الحديد (٥٧): الآية رقم (١٩)).

ورغم ذلك، تستخدم كلمة الإيمان أيضاً بأي من المعنيين الأخيرين، أي إما فقط بمعنى التصديق بالقلب أو عمل الصالحات. ومثال على ذلك ما ورد في الآية التالية: "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ" (سورة الحجرات (٤٩): الآية رقم (١٤)). وفي هذه الآية، من الواضح أن الإيمان يشير إلى التصديق بالقلب كما هو موضح في الآية نفسها. وكذلك الآية التالية: "وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (سورة الحديد رقم (٥٧): الآية رقم (٨)) حيث تشير عبارة "تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" إلى بنى التصديقات في سبيل الله كما يوضح السياق. وهكذا تشير كلمة الإيمان، كما وردت في القرآن، إما إلى مجرد إقرار اللسان بالحق أو إلى مجرد التصديق بالقلب والافتناع الراسخ بالحق الذي جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو عمل الصالحات والعمل بالجوارح تطبيقاً للمبدأ الذي تم إقراره أو قد تشير إلى المعاني الثلاثة مجتمعة. ورغم ذلك، تستخدم كلمة الإيمان بوجه عام للدلالة على التصديق بالقلب المقترن، بالطبع، بالإقرار باللسان بما نزل على الأنبياء من عند ربهم، تمييزاً له عن عمل الصالحات، وبالتالي يوصف الصالحون، كما سبق أن ذكرنا، بالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

استخدام كلمة "الإيمان" في الحديث

في الحديث الشريف، تستخدم كلمة الإيمان بشكل متكرر بمعناها الأوسع، أي بمعنى أن يتضمن الإيمان عمل الصالحات وأحياناً تستخدم للإشارة فقط إلى عمل الصالحات. وعلى ذلك، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "الإيمان بضغ وسنون شعبة والحياء شعبة من الإيمان" (البخاري ٢: ٣). وفي حديث آخر، روي عنه (عليه الصلاة والسلام) قوله: "الإيمان بضغ وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق" (مسلم ١: ١٠). وفي حديث آخر، يروى عنه (صلى الله عليه وسلم) قوله: "آية الإيمان حُبُّ الأَنْصَارِ" (البخاري ٢: ١٠)؛ وفي رواية

^٢ يطلق على أهل المدينة الذين ناصروا النبي (صلى الله عليه وسلم) عند هجرته إلى المدينة اسم الأنصار، جمع نصير أي من يقدم العون.

أخرى، قال (صلى الله عليه وسلم): "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" (البخاري ٢: ٧). وفي حديث ثالث، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (البخاري ٢: ٨). وعليه، تستخدم كلمة الإيمان للإشارة إلى جميع الأعمال الصالحة وقد عنون البخاري أحد أبواب كتاب الإيمان (الكتاب الثاني) كما يلي: "من قال إن الإيمان هو العمل"؛ ويعززه بآيات من القرآن. ومن الآيات التي تتحدث عن زيادة الإيمان،^٣ احتج البخاري بأن الأعمال الصالحة تعتبر جزءاً من الإيمان لأنه لا يمكن الحديث عن الإيمان إلا بهذا المعنى.

الكفر

كما أن الإيمان هو إقرار الحق الذي جاء به النبي (صلى الله عليه وسلم)، فكذلك الكفر هو إنكار ما جاء به (عليه الصلاة والسلام)، وكما أن الإقرار العملي للحق أو عمل الصالحات يطلق عليه إيمان أو جزء من الإيمان فكذلك يطلق على الإنكار العملي للحق أو عمل السيئات لفظ كفر أو جزء من الكفر. وفيما يلي عنوان أحد الأبواب الواردة في صحيح البخاري: "المعاصي من أمر الجاهلية" (البخاري ٢: ٢٢). ويقصد بكلمة جاهلية (ومعناها اللغوي عدم العلم)، في المصطلح الإسلامي، "عصر الجاهلية" قبل ظهور النبي (صلى الله عليه وسلم)، وبذلك تكون مرادفة لكلمة الكفر. وتعزيزاً لذلك، هناك حديث يروى فيه عن أبي ذر أنه سب رجلاً فاعيره بأمه، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): "يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ" (البخاري ٢: ٢٢). وهكذا، يطلق على سب الرجل ومعايرته بأصله الأسود لفظ جاهلية أو كفر. ووفقاً لحديث آخر، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) تحذير للصحابه بالكلمات التالية: "لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفْرًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ" (البخاري ٢٥: ١٣٢). وفي هذا الحديث، يدين الإسلام قتل المسلم لأخيه المسلم بأنه عمل من أعمال الكفر. وفي حديث آخر، يروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ" (البخاري ٢: ٣٦). ومع ذلك، فرغم أن اقتتال المسلمين بعضهم مع بعض يطلق عليه كفر - حتى إن أولئك الذين يقتتلون فيما بينهم يطلق عليهم لفظ كفار - في هذه الأحاديث، فإن القرآن يصف طائفتين متحاربتين من المسلمين كمؤمنين (سورة الحجرات ٤٩: الآية رقم ٩).^٤ وهكذا، يتضح لنا أن هذا السلوك يطلق عليه لفظ كفر لأنه معصية.

^٣ "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ" (سورة الفتح ٤٨: الآية رقم ٤). "وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا" (سورة الحشر ٧٤: الآية رقم ٣١). "فَزَادَهُمْ إِيمَانًا" (سورة آل عمران ٣: الآية رقم ١٧٢).

^٤ "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَتَّقِيَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ" (سورة الحجرات ٤٩: الآية رقم ٩).

وقد شرح ابن الأثير هذه النقطة في معجمه الشهير في الحديث والأثر الذي يطلق عليه اسم النهاية في غريب الحديث والأثر. وكتب ابن الأثير عن كلمة الكفر يقول: "الكُفْرُ صِنْفَان: أحدهما الكُفْرُ بأصل الإيمان وهو ضده، والآخر الكُفْرُ بَعْرَع من فُرُوع الإسلام، فلا يَخْرُج به عن أصل الإيمان". وكما سبق أن ذكرنا، فإن فروع الإسلام هي أحكامه وعليه فرغم أن الإنكار العملي لأي من أحكام الإسلام يسمى كُفْرًا فإنه ليس كُفْرًا بالمعنى الاصطلاحي للكلمة، أي كُفْرًا بأصل الإسلام. كما يسرد ابن الأثير أيضا واقعة تلقي الضوء على هذا الموضوع. سئل الأزهري عن (أي المسلم) يقول بخلق القرآن هل يسميه كافراً فقال إن الذي يقوله كفر، فأعيد عليه السؤال مراراً، فأضاف قائلاً: "قَدْ يَقُولُ الْمُسْلِمُ كُفْرًا". وعليه، يتضح لنا أن المسلم يظل مسلماً رغم أنه قد يكون قد ارتكب عملاً من أعمال الكفر.

تحريم تكفير المسلم

يوضح الجزء الأخير في الفقرة سالفة الذكر أن المسلم لا يصح تكفيره. وبما أن كل إثم أو معصية تعتبر جزءاً من الكفر، فإنه حتى المسلم قد يرتكب عملاً من أعمال الكفر. والعكس صحيح، أي أنه بما أن كل عمل صالح يعتبر جزءاً من الإيمان، فإنه حتى الكافر قد يقوم بعمل من أعمال الإيمان. ولا تنطوي هذه الأقوال على أي تناقض يُذكر. حيث إن الخط الفاصل بين المسلم والكافر أو بين المؤمن وغير المؤمن هو الشهادة لله بالتوحيد المقرونة بالشهادة للرسول (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة، أي شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ويصبح العبد مسلماً أو مؤمناً بنطق هذه الشهادة وطالما أنه لم يرتد عن إيمانه، يظل مسلماً أو مؤمناً بالمعنى الاصطلاحي للكلمة، رغم أي رأي قد يعتنقه بشأن أي قضية دينية أو أي إثم قد يرتكبه؛ والعبد الذي لا ينطق بهذه الشهادة يعتبر غير مسلم أو كافراً بالمعنى الاصطلاحي للكلمة، رغم ما قد يعمل من صالحات. ولا يعني ذلك ألا يعاقب المسلم على ما يرتكبه من آثام أو ألا يجازى غير المسلم على ما يعمل من صالحات. فقانون الثواب والعقاب هو قانون قائم بذاته يسري بصرف النظر عن العقائد وقد عبر القرآن عن ذلك في كلمات واضحة: "مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ." (سورة الزلزلة (٩٩): الآيتان رقم (٧) و(٨)). حيث إن المؤمن قد يرتكب إثمًا والكافر قد يعمل صالحاً وكل منهما سوف يجزى بما عمل. ولكنه ليس من حق أي مسلم أن يخرج أخاه من حظيرة الإسلام طالما أنه يشهد لله بالتوحيد ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة. والقرآن والحديث واضحان تماماً في هذه النقطة. وعليه، نجد في القرآن قوله تعالى: "وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٩٤)). وعلى ذلك، تعتبر تحية الإسلام - السلام عليكم - دليلاً كافياً على أن العبد الذي يليقها مسلم، ولا يحق لأحد أن

يكفره، حتى وإن لم يكن صادق النية. ويتحدث القرآن عن طائفتين من المسلمين تقتتلان ورغم ذلك يصفهما بأنهما مؤمنون: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما" (سورة الحجرات ٤٩): الآية رقم (٩). وتمضي السورة فتقول: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (سورة الحجرات ٤٩): الآية رقم (١٠).

وحتى أولئك الذين عرف عنهم النفاق كان النبي (صلى الله عليه وسلم) والصحابه (رضي الله عنهم) يعاملونهم معاملة المسلمين، رغم أنهم رفضوا الانضمام إلى صفوف المسلمين في القتال الذي اضطر المسلمون للانخراط فيه دفاعاً عن النفس، وعندما توفي زعيم المنافقين الشهير، عبد الله بن أبي، صلى النبي (صلى الله عليه وسلم) صلاة الجنازة على قبره وعامله معاملة المسلمين. والحديث الشريف صريح في هذه النقطة. فوفقاً لأحد الأحاديث الشريفة، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "مَنْ صَلَّى صَلَاتِنَا وَاسْتَقْبَلَ قَبْلَتَنَا وَأَكَلَ نَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَلَا تُحْفَرُوا اللَّهُ فِي ذِمَّتِهِ" (البخاري ٨: ٢٨). وفي حديث آخر، يروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ الْكُفُّ عَمَّنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُكْفِرُهُ بِذَنْبٍ وَلَا تُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ..." (أبي داود ١٥: ٣٣). ووفقاً لحديث ثالث، روى ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "مَنْ كَفَرَ أَهْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَهُوَ إِلَى الْكُفْرِ أَقْرَبُ". ومن الواضح أن أهل لا إله إلا الله أو الموحدين يقصد بهم المسلمون، كما أنه من الواضح تماماً أن من ينطق بالكلمة، أي لا إله إلا الله محمد رسول الله، يصبح مسلماً وأن تكفيره يعتبر أكبر الكبائر. وعليه، يتضح لنا أن أخوة الإسلام ليست شيئاً يعيسه عالم دين عظيم له باع طويل في المناظرة المنطقية، وإنما يعيسه رجل الشارع العادي أو رجل ذو فطرة سليمة أو حتى الرجل الجاهل الذي يمكنه الحكم على الناس من مظهرهم والذي يكفي بمجرد إلقاء تحية الإسلام، والذي لا يحتاج لأي حجة أخرى عندما يرى شخصاً يتوجه إلى قبلة المسلمين والذي يعني الإسلام بالنسبة له الشهادة لله بالتوحيد ولمحمد (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة.

وعلى ذلك، فإن المبدأ الذي يتم إرساؤه بوضوح وإقناع شديد في القرآن والسنة لا يحتاج لدعم العظماء والمثقفين من بين المسلمين. ولكنه، رغم الانقسامات والاختلافات الدينية التي ظهرت فيما بعد ورغم التعقيدات الكثيرة التي تسلت إلى الدين الإسلامي البسيط نتيجة للاختلافات المنطقية في الرأي بين علماء الخلف، فإن المبدأ سالف الذكر قد أيده جميع العلماء المسلمين. وعلى ذلك، فقد لخص مؤلف كتاب *المواقف* آراء علماء الدين المسلمين حين ذكر اتفاق جمهور العلماء والفقهاء على عدم تكفير أي من أهل القبلة (كتاب *المواقف*، ص. ٦٠٠). كما كتب العالم الشهير/ أبو الحسن الأشعري في مقدمة كتابه *مقالات الإسلاميين واختلافات المصلين* يقول:

° الكلمة، أو الشهادة لله بالتوحيد ولمحمد (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة.

"اختلف الناس بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم في أشياء كثيرة ضلل فيها بعضهم بعضاً وبرئ بعضهم من بعض فصاروا فرقاً متباينين وأحزاباً متشتتين إلا أن الإسلام يجمعهم ويشتمل عليهم" (مقالات الإسلاميين، ص. (١) و(٢)).^٦ ونقل عن الإمام الطحاوي أيضاً قوله: "لا يخرج العبد من الإيمان إلا بحدود ما أدخله فيه" (رد المحتار، الجزء الثالث، ص. ٣١٠). وبالمثل، قال أحمد بن المصطفى أن المعتصبيين فقط هم الذين يكفرون بعضهم بعضاً لأن الأئمة الثقات من الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة والأشاعرة يرون أنه لا يصح تكفير أحد من أهل القبلة (مفتاح السعادة، الجزء الأول، ص. ٤٦). وفي الواقع، يعتبر الخوارج هم أول من أدخل الانقسامات أو الطائفية في الدين الإسلامي عندما كفروا إخوانهم المسلمين لمجرد اختلافهم معهم في الرأي.

الإيمان والإسلام

سبق أن أوضحنا معنى كلمتي الإيمان والإسلام. وفي الأصل، تعني كلمة الإيمان الاعتقاد بالقلب في حين تعني كلمة الإسلام الاستسلام لله في جميع ما قضى وقدر ومن ثم ترتبط بصفة خاصة بالعمل. وقد تم التعبير عن هذا الفرق في المعنى الأصلي للكلمتين في القرآن والحديث، رغم أنهما، في الاستخدام العادي، ينقلان نفس المعنى حيث تستخدم كلمتا المؤمن والمسلم بالتبادل. ونجد مثالا للفرق في استخدام الكلمتين في القرآن (سورة الحجرات (٤٩): الآية رقم (١٤)): "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ".^٧ ولكن هذا لا يعني، بطبيعة الحال، أنهم لم يؤمنوا

^٦ ذكر الأشعري هذا المبدأ كمقدمة لمناقشة حول الفرق الإسلامية المختلفة ثم يمضي للقول بأن المسلمين انقسموا إلى فرق الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، وفرق أخرى. ثم يمضي لمناقشة الفرق الرئيسية المتفرقة من هذه الفرق؛ ويتمثل فرق الشيعة في الفرق الثلاث التالية: الغالبة التي تنقسم بدورها إلى خمس عشرة فرقة؛ والرافضة التي تنقسم إلى أربع وعشرين فرقة مختلفة؛ والزيدية التي تنقسم إلى ست فرق. ويتناول المؤلف أيضاً الفرق المتفرقة من الخوارج البالغ عددها خمس عشرة فرقة وهكذا دواليك مع الفرق الرئيسية الأخرى. ويصف الأشعري كل هذه الفرق والفرق الفرعية المختلفة بأنهم مسلمون وحتى فرق الغالبة لم يخرجهم من الإسلام، رغم أنهم تقريباً جميعاً كانوا يؤمنون بأن زعيماً من زعمانهم نبي وكانوا يحللون أموراً معينة حُرمت صراحة في القرآن. فعلى سبيل المثال، كانت فرقة البيهانية تؤمن بنبوة بيان بن سمان التميمي، مؤسس الفرقة؛ وكان أتباع عبد الله بن معاوية يؤمنون بأن مؤسس فرقته إله ونبي؛ وهكذا أيضاً مع العديد من الفرق الأخرى. وحتى هؤلاء الأشخاص يطلق عليهم لفظ مسلمين لأنهم ما زالوا يؤمنون بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ونزول القرآن من عند الله ويتبعون أحكام الشريعة الإسلامية. وينبغي أن يستفيد من هذا الدرس أتباع الأشعري المعاصرون الذين يكفرون إخوانهم المسلمين بسبب أبسط الاختلافات في الرأي.

^٧ يشير استخدام كلمتي الإيمان والإسلام في الحديث أحياناً إلى فرق مماثل في المعنى، رغم أنها عادة ما يستخدمان بالتبادل. وهكذا، في كتاب الإيمان، يروي البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قوله: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا بَارِئًا لِلنَّاسِ إِذْ أَثَاءَ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْأَخْرَجِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمُرْصُوصَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ" (البخاري ٢: ٣٧). وفي حديث آخر روي في نفس

بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم). وقد تم توضيح معنى دخول الإيمان القلب في الآية الكريمة التالية: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" (سورة الحجرات (٤٩): الآية رقم (١٥)). وفي الواقع، تستخدم الكلمتان، أي الإيمان والإسلام، للدلالة على مرحلتين مختلفتين من مراحل التطور الروحاني للعبد. حيث يقال عن العبد إنه آمن عندما يعلن إيمانه بوحداية الله ونبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهو ما يعتبر في الواقع المرحلة الأولى في الإيمان، لأن العبد يضع قدميه على بداية الطريق فقط بالإعلان عن إقرار مبدأ معين؛ وكذلك يقال عن العبد إنه آمن عندما يبذل أقصى ما في وسعه لتطبيق المبدأ الذي أعلن إيمانه به. وقد سبق أن ذكرنا أمثلة لهذين الاستخدامين: ومن أمثلة الاستخدام الأول الآية رقم (٦٢): سورة البقرة (٢)، والآية رقم (١٣٦): سورة النساء (٤)؛ وقد استشهدنا أعلاه بمثال للاستخدام الثاني للكلمة (سورة الحجرات (٤٩): الآية رقم (١٥)). والفرق الوحيد بين الاستخدامين هو أنه، في الاستخدام الأول، يكون الإيمان في مرحلته الأولى، أي مرحلة الإقرار باللسان - الإقرار بالمبدأ؛ في حين أنه، في الاستخدام الثاني، يكون الإيمان قد اكتمل ويشير إلى المرحلة الأخيرة من الإيمان التي يكون فيها الإيمان قد دخل في أعماق القلب، وأحدث التغيير المطلوب. وينطبق نفس الشيء على استخدام كلمة الإسلام؛ ففي المرحلة الأولى، يكون مجرد استعداد للاستسلام لله في كل ما قدر وقضى به، كما ورد في الآية سالفة الذكر (سورة الحجرات (٤٩): الآية رقم (١٤))؛ في حين أنه في مرحلته الأخيرة يكون استسلاماً تاماً لله، كما ورد في الآية رقم (١١٢): سورة البقرة (٢): "بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". وعلى ذلك، يكون الإيمان والإسلام متماثلين في المرحلة الأولى والأخيرة لكل منهما - حيث يتطوران من مجرد إقرار باللسان بلوغ مرحلة الكمال - مروراً بكل المراحل التي تتخلل هاتين المرحلتين. ولكل من الإيمان والإسلام نقطة بداية وغاية؛ والعبد الذي يكون عند نقطة البداية، أي حديث العهد بالإسلام، والعبد الذي بلغ الغاية المحددة، رغم كل الفروق بينهما، فكلاهما يطلق عليه لفظ مؤمن أو مسلم، شأنهما في ذلك شأن المسافرين اللذين يكونان في مراحل مختلفة في الرحلة.

الكتاب، يروى كيف كان أحد صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كلما تحدث عن صحابي آخر كان يقول أنه ليراه مؤمناً فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول له كل مرة: أو مسلماً (البخاري ٢: ١٩)؛ مما يدل على أن الناس قد يحكمون بعضهم على بعض بناءً على سلوكياتهم الخارجية. وفي بداية ذلك الكتاب، رغم ذلك، يروى عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قوله عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إن الإسلام أيضاً يشمل الإيمان: "بَيَّنِّي الْإِسْلَامَ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَالْحَجُّ وَصَوْمُ رَمَضَانَ" (البخاري ٢: ١). ورغم ذلك، فإن الكلمة المستخدمة في الحديث هي شهادة وليس إيمان والشهادة، في هذه الحالة، رغم أنها تتطلب إيماناً بصدق ما يذكر، فإنها رغم ذلك سلوك خارجي.

لا وجود للعقائد الجامدة المتمتزة في الإسلام

كما تقودنا أيضاً المناقشة المذكورة آنفاً إلى استنتاج أنه لا توجد في الإسلام عقائد جامدة متمتزة، أي مجرد عقائد تفرض على العبد من أجل إنقاذه المزعوم من الضلال. والإيمان، وفقاً للإسلام، ليس مجرد إيمان بصحة مبدأ معين فحسب وإنما هو أيضاً في الأساس إقرار مبدأ معين كأساس للعمل. ويؤيد القرآن بشكل قاطع هذا الرأي لأنه، كما ورد في القرآن، رغم أن مبدأ وجود الطاغوت صحيح شأنه في ذلك شأن صحة مبدأ وجود الملائكة، فإن الإيمان بالملائكة يذكر مراراً وتكراراً أنه جزء من إيمان المسلم في حين وردت في القرآن في عبارات واضحة ضرورة الكفر بالطاغوت: "فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٥٦)). والكلمتان المستخدمتان في هذه الآية للتعبير عن الإيمان بالله والكفر بالطاغوت هما كلمتا الإيمان و الكفر، على التوالي. ولو كان الإيمان يعني مجرد الإيمان بوجود شيء ما ولو كان الكفر يعني مجرد إنكار وجود الشيء، لما كان من الممكن أن يذكر أن الكفر بالطاغوت ضروري جنباً إلى جنب مع الإيمان بالله. فالله موجود، والملائكة موجودون، والطواغيت موجودة؛ إلا أنه في الوقت الذي يجب علينا فيه الإيمان بالله وملائكته، يجب علينا أيضاً الكفر بالطواغيت. ذلك أن الملاك، كما ورد في القرآن، هو المخلوق الذي يحث على عمل الخير في حين أن الطاغوت هو المخلوق الذي يحرض على عمل الشر، بحيث يعني الإيمان بالملائكة المسارعة إلى عمل الخير في حين يعني الكفر بالشياطين رفض الاستجابة لنوازع الشر. وعلى ذلك، يعني الإيمان إقرار مبدأ معين كأساس للعمل وينطبق هذا الوصف على كل تعاليم الإسلام. حيث لا توجد عقائد أو غيبيات أو إيمان لا يتطلب عملاً؛ لأن كل ركن من أركان الإيمان يشير إلى مبدأ يجب تطبيقه من أجل رفعة الإنسان.

أركان الإيمان

يتلخص الدين الإسلامي كله في الجملتين القصيرتين التاليتين: لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله أو أن الله وحده لا شريك له هو المستحق للحب والعبادة، ومحمد رسول الله. و فقط بالشهادة بصحة هذين المبدأين البسيطين يدخل العبد في حظيرة الإسلام. ويعتبر الجزء الأول من شهادة الإيمان موضوعاً يتناوله القرآن باستمرار كما يذكر بشكل متكرر أن الإيمان بوحداية الله، أي بأنه لا إله إلا الله، ليس فحسب ركن الدين الإسلامي وإنما أيضاً ركن كل دين منزل من الله عز وجل. وقد جاء ذكر الإيمان بوحداية الله في عدة صيغ: كما وردت في الآيات التالية: "أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ"، "أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ؟"، "أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، "أَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ"، "أَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ"، "لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا". كما يتناول

القرآن أيضاً بصفة مستمرة الجزء الثاني من شهادة الإيمان والذي يتعلق بالشهادة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة وقد وردت عبارة "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ" في الآية رقم (٢٩) من سورة الفتح (٤٨). ومن الحديث الشريف، يتبين أيضاً أن الشرط الأساسي للدخول في الإسلام هو إقرار هذين الجزأين المكونين لشهادة الإيمان (البخاري ٤٠: ٢).

ويطلق على الإيمان سالف الذكر، في اصطلاح علماء الخلف، لفظ الإيمان المجمل في حين أن الإيمان، الذي يطلق عليه علماء الخلف لفظ الإيمان المفصل، يذكر في بداية القرآن كما يلي: الإيمان بالغيب (أي بالله)، والإيمان بما أنزل على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، والإيمان بما أنزل على الأنبياء من قبله، والإيمان بالآخرة (سورة البقرة (٢): الآيات أرقام (٢-٤)). وفيما بعد في نفس السورة، تذكر أركان الإيمان الخمسة في عبارات واضحة: "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٧٧)). ويبين القرآن مرارا وتكرارا أن الإيمان لا ينعقد إلا بهذه الأركان الخمسة. وفي الحديث الشريف، هناك اختلاف طفيف عن ذلك. فقد ورد في صحيح البخاري أن الإيمان هو: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبُعْثِ" (البخاري ٣٧: ٢). وسوف يلاحظ أن الإيمان بقاء الله ذكر في هذا الحديث على حدة في حين أنه ورد متضمناً في الإيمان بالله في الآية سالف الذكر، كما يذكر أيضاً على حدة عدة مرات كما ورد في سورة الرعد رقم (١٣): الآية رقم (٢). كما أنه في الحديث أيضاً، لم تذكر كلمة "الكتب" على حدة وإنما جاءت متضمنة في كلمة "الرسول". وهكذا يبنى الإيمان على خمسة أركان، وفقاً لما ورد في القرآن والحديث؛ هي تحديداً: الإيمان بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، والبعث^٨.

معنى الإيمان

كما سبق أن ذكرنا، تعتبر جميع أركان الإيمان في الحقيقة مبادئ سلوك. وبعبارة أخرى، الله هو الخالق الذي يتصف بصفات الكمال وعندما يطلب من العبد الإيمان بربه، فإنما يطلب منه في الحقيقة التحلي بأسمى الخصال الأخلاقية ويكون هدفه هو التحلي بالصفات الإلهية. ويجب أن يضع نصب عينيه أسمى وأنقى نموذج لكمال الصفات يمكن أن يعيه قلب العبد ويحتذي في سلوكه بذلك النموذج. ويعني الإيمان بالملائكة أن يتبع المؤمن دوافع الخير الكامنة داخله لأن الملاك هو المخلوق الذي يحث على عمل الخير. ويعني الإيمان بكتب الله أن نتبع الأوامر التي

^٨ في بعض الأحاديث، تضاف عبارة: "أَنْ تُؤْمِنَ... وَالْقَدْرَ" (والكلمة معناها اللغوي مقدار). وقد ورد في القرآن بلا شك أن القدر هو حكم الله ولكنه لم يرد فيه مطلقاً بوصفه ركناً من أركان الإيمان، وإن كل مسلم يسلم بكل ما يحكم به الله. انظر فصل القدر أو التقدير.

جاءت فيها لتتمية ملكاتنا الداخلية. ويعني الإيمان بالرسول أنه يجب علينا الاقتداء بهم كأسوة حسنة والتضحية بحياتنا في سبيل البشرية كما فعلوا. أما الإيمان بالآخرة فيدل على أن الرقي الجسدي أو المادي ليس غاية أو هدف الحياة؛ وإنما غايتها الحقيقية هي غاية أسمى من ذلك بكثير يعتبر البعث أو اليوم الآخر مجرد البداية لها.

الفصل الثاني

الذات الإلهية

القسم الأول - وجود الله

التجربة المادية والداخلية والروحية للبشرية

يكاد أن يكون وجود الله حقيقةً مسلماً بها في جميع الكتب السماوية. ومع ذلك، يقدم القرآن العديد من الأدلة لإثبات وجود ذات عليا - الله - خالقة لهذا الكون ومهيمنة عليه. وتنقسم هذه الأدلة بالتفصيل إلى ثلاثة أنواع. أولاً، هناك أدلة مستمدة من الخلق تتعلق بتجربة البشرية المادية أو الأدنى مرتبة؛ ثانياً، هناك أدلة الفطرة التي تتعلق بالتجربة الداخلية للبشرية؛ ثالثاً، هناك أدلة قائمة على الوحي الإلهي الذي نزل على الإنسان، قد يطلق عليها اسم تجربة البشرية الروحانية أو الأسمى مرتبة. وسوف يتبين، مما سيذكر فيما بعد، أنه كلما كان نطاق التجربة أضيق، كانت الأدلة أكثر إقناعاً. وتثبت أدلة الخلق ببساطة أنه يوجد حتماً خالق لهذا الكون ومهيمن عليه أيضاً، ولكنها لا تذهب بعيداً إلى حد إثبات أنه يوجد إله. وتمضى أدلة الفطرة خطوةً للأمام لأنها تنطوي على إدراك وجود الله رغم أن هذا الإدراك قد يختلف باختلاف الطبائع بناء على ما إذا كان النور الموجود داخل الإنسان ساطعاً أم خافتاً. و فقط الوحي هو الذي يكشف عن وجود الله في بهاء نوره ويبين الصفات العلى التي يجب على العبد أن يتشبه بها إذا كان يرجو بلوغ الكمال، بالإضافة إلى توضيح السبل التي يمكن للعبد من خلالها التقرب إلى الله تعالى.

قانون النشوء والارتقاء دليل على الغاية والحكمة الإلهية

يتركز الدليل الأول، المستمد من الخلق، حول كلمة رب. وفي أول ما نزل على النبي (صلى الله عليه وسلم)، قال تعالى: "أَفْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" (سورة العلق (٩٦): الآية رقم (١)). وفي الحقيقة، تحمل كلمة رب معنى مختلفاً تماماً. فوفقاً لأفضل مؤلفي المعاجم العربية، تشتمل الكلمة على معنيين؛ هما: أولاً: التربيّة، أو التنشئة أو التغذية، ثانياً: التنظيم، والاكتمال، والإنجاز (المعجم العربي - الإنجليزي للين، تاج العروس). وهكذا يتضح لنا أن الفكرة الكامنة وراء الكلمة هي فكرة إنشاء الأشياء من حالتها الأولى وصولاً بها إلى أسمى درجات الكمال. وبعبارة أخرى،

فكرة النشوء والارتقاء. وقد كان راغب^١ أكثر وضوحاً في هذه النقطة. فوفقاً لراغب، تعنى كلمة رب التربية، وهي إنشاء الشيء حالاً فحالا إلى حد التمام. وهكذا، نجد أن في استخدام كلمة رب دلالة على أن كل مخلوقات الله عز وجل تحمل طابع الخلق الإلهي، بما يتميز به من الارتقاء من مرحلة أدنى إلى مرحلة أعلى فأعلى حتى يصل إلى مرحلة الكمال. وقد تم تناول هذا الدليل بمزيد من التفصيل والإيضاح في آية أخرى من أوائل التنزيل حيث قال تعالى: "سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى." (سورة الأعلى (٨٧): الآيات أرقام (٣-١)). وفي هذه الآيات، يتضح المعنى الكامل لكلمة رب: الذي يخلق الأشياء ويسويها في أحسن الهيئات؛ وهو الذي يخلق الأشياء بمقدار ويهدها إلى السبيل الذي تبلغ به الكمال. وقد تم توضيح فكرة النشوء والارتقاء على نحو وافٍ في أول عمليين، أي الخلق والتسوية، كي تصل كل مخلوقات الله عز وجل إلى التسوية التي قدرها سبحانه لها. ويوضح آخر عمليين كيف تتم تسوية المخلوقات في أحسن الهيئات أو الارتقاء بها. فكل شيء يخلق بقدر، أي أن هناك قوانين تطور معينة ملازمة له؛ كما أنه أيضاً يهده، أي أنه يعرف السبيل الذي يجب عليه أن يسلكه كي يصل إلى غايته المتمثلة في الاكتمال. وهكذا يتضح لنا أن القوة الخالقة ليست قوة تسير على غير هدى وإنما هي قوة تمتلك الحكمة وتتصرف وفقاً لغاية. وحتى الشخص العادي يمكنه ملاحظة تلك الحكمة والغاية في كل خلق الله بدءاً من أصغر ذرة تراب أو ورقة عشب حتى الأجرام السماوية الهائلة التي تسير في الكون في المسارات المحددة لها لأن كلاً منها يسير في مسار معين متجهاً نحو الغاية المحددة له المتمثلة في الاكتمال.

وفي هذا الصدد يمكن استيقاف الانتباه إلى سمة أخرى من سمات خلق الله. وتتمثل هذه السمة، كما ورد في الآيات الكريمة، في أن الله خلق من كل شيء زوجين: "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ. وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ. وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ." (سورة الذاريات (٥١): الآيات أرقام (٤٧-٤٩))، "سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِثُ الْأَرْضُ وَمَنْ أَنْفُسَهُمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ" (سورة يس (٣٦): الآية رقم (٣٦)). "وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا" (سورة الزخرف (٤٣): الآية رقم (١٢)). مما يدل على أن الله خلق من كل شيء زوجين ليس فحسب في عالم الحيوانات وإنما أيضاً "مِمَّا تُنْبِثُ الْأَرْضُ" أي، في المملكة النباتية، وكذلك "مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ". وفي الواقع، تتطور فكرة الزوجية في الخلق لتصل إلى أقصى درجاتها بحيث توصف السماوات والأرض كما لو كانتا زوجين نظراً لخاصية الحركة التي تتميز بها إحداها والسكون في الأخرى. كما تدل أيضاً هذه العلاقة المتبادلة الوثيقة بين المخلوقات على الغاية الإلهية من الخلق كله.

^١ مؤلف معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم.

الكون كله يسير وفقاً لقانون واحد

هناك نقطة أخرى يركز عليها القرآن بشكل خاص تتمثل في أنه رغم ترامي أطراف الكون وتنوع ما فيه من مخلوقات فإنه ليس هناك سوى قانون واحد يُسيره كله: "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاطُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ." (سورة الملك (٦٧): الآيتان رقما (٣) و(٤)). وفي هاتين الآيتين، يقول تعالى إنه ليس هناك في الخلق تفاوت تخضع بسببه المخلوقات التي تنتمي إلى نفس النوع لقوانين مختلفة؛ كما أنه ليس هناك خلل يمكن بسببه ألا يسرى القانون على نسق واحد؛ بحيث يصبح ذلك الانتظام والاتساق العجيب الذي يطبق به القانون وسط مجموعة لا يمكن تصورها من الأوضاع المتضاربة في الكون دليلاً على وجود غاية وحكمة إلهية من خلق الأشياء. فبدءاً من أصغر ذرة تراب حتى أكبر الأجرام السماوية، كل شيء يخضع لسيطرة ويسير وفقاً لقانون معين؛ ولا يدخل أي شيء في المسار الذي يسبح فيه غيره أو يعوقه عن الحركة؛ في حين أنه، من ناحية أخرى، كل المخلوقات تساعد بعضها بعضاً لبلوغ مرحلة الكمال. وقد أكد القرآن هذه الحقيقة مراراً وتكراراً حيث قال تعالى: "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (له سبحانه وتعالى)". (سورة الرحمن (٥٥): الآيتان رقما (٥) و(٦)). "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ." (سورة يس (٣٦): الآيات أرقام (٣٨-٤٠)). "ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ." (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (١١)). "اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَيَنْتَبِهُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ." (سورة الجاثية (٤٥): الآيتان رقما (١٢) و(١٣)). "وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ " (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٥٤)). وتدل كل هذه الآيات على أنه بما أن كل الأشياء تسير بأمر وسيطرة لتحقيق غاية معينة، إذن لا بد أن هناك إلهًا حكيمًا مهيمناً على الكون كله.

الفطرة وهداية النفس البشرية

يتعلق النوع الثاني من أدلة وجود الله بالنفس البشرية. أولاً، هناك إدراك لوجود الله. حيث يوجد داخل كل إنسان نور يرشده إلى وجود ذات عليا، إله، خالق للكون. وكثيراً ما يظهر هذا الدليل الداخلي في صورة سؤال. ويبدو كما لو كان مناشدة لنفس الإنسان الداخلية. وأحياناً يبقى السؤال

بلا إجابة كما لو كان الإنسان يدعى لإمعان النظر فيه: "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ (لأنفسهم). أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" (سورة الطور (٥٢): الآيتان رقما (٣٥) و(٣٦)). وأحياناً، تعطى الإجابة على السؤال كما جاء في قوله تعالى: "وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ" (سورة الزخرف (٤٣): الآية رقم (٩)). وفي وقت ما، يطرح الله بنفسه السؤال مباشرة على النفس البشرية: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٧٢)). هذه بلا شك هي أدلة الفطرة التي ورد ذكرها في مواضع أخرى بوصفها: "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا" (سورة الروم (٣٠): الآية رقم (٣٠)). وأحياناً يشار إلى هذا الإدراك لوجود الله من جانب النفس البشرية من حيث قربها الشديد من الذات الإلهية: "وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ" (سورة ق (٥٠): الآية رقم (١٦)). ومرة أخرى: "وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ (النفس) مِنْكُمْ" (سورة الواقعة (٥٦): الآية رقم (٨٥)). وتدل فكرة قرب الله عز وجل من العبد أكثر من نفسه على أن إدراك وجود الله في النفس البشرية أوضح من إدراكها لوجودها هي نفسها.

وإذا كان هناك ذلك الإدراك التام لوجود الله داخل النفس البشرية، فكيف إذن يوجد بعض الناس الذين ينكرون وجود الله عز وجل؟ ذلك هو السؤال الذي قد يطرحه البعض. وفي الإجابة على هذا السؤال، ينبغي أن نضع نصب أعيننا أمرين. أولاً، لا يكون النور الموجود داخل كل إنسان، والذي يجعله يدرك وجود الله، ساطعاً بنفس القدر في جميع الحالات. وللمزيد من التوضيح، يكون ذلك النور لدى البعض ساطعاً في كامل بهائه، كما في حالة كبار رجال الدين في كل عصر وبلد، وبالتالي يكون إدراكهم لوجود الله قوياً. وفي حالة الأشخاص العاديين، يكون ذلك الإدراك أضعف والنور الداخلي خافتاً؛ بل وقد توجد حالات يكون فيها ذلك الإدراك في حالة جمود ويكاد يكون النور الداخلي قد انطفأ. ثانياً، حتى الملحد أو المعاند يدرك وجود علة أولى أو قوة عليا، رغم أنه قد ينكر وجود إله يتصف بصفات معينة؛ وأحياناً يستيقظ ذلك الوعي بداخله ويؤكد النور الداخلي وجوده، خاصة في أوقات الشدة أو الضر. ويبدو الأمر كثيراً كما لو كانت الراحة والنعيم، مثل الشر، قد وضعا حجاباً على النور الموجود داخل الإنسان ثم تأتي الشدة التي تحل به لترفعه - وهي حقيقة استوقف القرآن الانتباه إليها مراراً وتكراراً: "وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دَعَاٍ غَرِيضٍ" (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (٥١)). "وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَاؤُ رَبِّهِمْ مُبِينٌ" (سورة الروم (٣٠): الآية رقم (٣٣)). "وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْمِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ" (سورة لقمان (٣١): الآية رقم (٣٢)). "وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمْ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاؤُونَ" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (٥٣)).

ويوجد في نفس الإنسان شيء أكثر من مجرد إدراك وجود الله؛ يوجد في نفسه تشوق لخالقه - ميل فطري لطلب العون من الله - هناك حب مغروس في نفسه لله عز وجل الذي تكون النفس على استعداد للتضحية في سبيله بكل شيء. وأخيراً، لا يمكن للنفس البشرية أن تتعم بالرضا التام بدون الله.

الوحي الإلهي أحد مصادر الهداية

يتعلق النوع الثالث من الأدلة التي وردت في القرآن، لإثبات وجود الله، بالوحي الإلهي - وهو أوضح وأكثر الأدلة القاطعة - الذي لا يثبت حقيقة وجود الله فحسب وإنما أيضاً يلقي بكثير من الضوء على صفات الله التي بدونها كان من الممكن أن يظل وجود الذات الإلهية مجرد مبدأ بلا بينة. ومن خلال هذا الكشف عن صفات الله يصبح الإيمان بالله أهم عامل في الارتقاء بالإنسان لأن معرفة تلك الصفات تمكن الإنسان من أن يضع نصب عينيه غاية سامية متمثلة في التشبه بأخلاق الله؛ ومن خلال ذلك فقط يمكن للإنسان أن يرقى إلى أعلى درجات السمو الأخلاقي. فالله رب كل شيء في الخلق ومليكه، فكذاك من يعبده سوف يبذل أقصى ما في وسعه ليس لخدمة مصلحة البشرية فحسب وإنما أيضاً جميع المخلوقات. والله ودود رؤوف بمخلوقاته، فكذاك من يؤمن به سوف يحركه دافع الحب والرأفة بالخلقة. والله رحيم غفور للعباد، فكذاك يجب على عبده أن يكون رحيماً غفوراً لإخوانه من بني البشر. ويعتبر الإيمان بالله الذي يتصف بصفات الكمال التي أعلنها الوحي الإلهي هو أسمى غاية يمكن أن يضعها الإنسان نصب عينيه؛ ودون هذه الغاية، يملأ الخواء حياة الإنسان وتتقصها الجدية والطموحات النبيلة.

ومن ناحية أخرى، فإن الوحي الإلهي يقرب العبد من ربه ويجعله يشعر بوجوده سبحانه كحقيقة في حياته وذلك من خلال الاقتداء بنموذج الرجل كامل الصفات الذي يتقرب إلى ربه. أن الله حقيقة - هو في الواقع أعظم حقيقة في هذا العالم - وأن العبد يمكنه أن يشعر بوجود ربه ويدركه في كل ساعة من حياته اليومية ويقيم علاقة وطيدة به سبحانه؛ وأن هذا الإدراك لوجود الله يحدث تغيراً في حياة العبد حيث يجعله قوة روحانية لا تقاوم في العالم، كل هذا ليس تجربة فردية لفرد أو لأمة واحدة وإنما هو تجربة جماعية لكل البشر في كل الأمم والبلدان والعصور. فعلى سبيل المثال، إبراهيم، وموسى، وعيسى، وكونفوشيوس، وزرادشت، وراما، وكرشنا، وبودا، ومحمد كل هؤلاء العظماء أحدثوا في العالم ثورة أخلاقية بل وكانت في بعض الحالات أيضاً مادية، عجزت موارد الأمم مجتمعة عن مقاومتها ورفعت البشرية من أدنى مراتب الانحطاط إلى

أسمى درجات السمو الأخلاقي بل والمادي؛ وإنما يدل ذلك على الآفاق التي يمكن أن ترقى إليها النفس البشرية إذا أقامت علاقة صادقة بربها.

ويمكن دراسة أحد النماذج سالفة الذكر بالمزيد من التفصيل - وتحديدًا نموذج النبي الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم). فقد ظهر رجل بمفرده وسط أمة كاملة منغمسة في جميع أنواع الرذائل والانحلال الأخلاقي. ولم تكن هناك قوة تسانده، ولا حتى رجل واحد، ورغم ذلك تمكن، بدون مقدمات على الإطلاق، من القيام بالمهمة الصعبة والمستحيلة، كما يبدو للجميع، المتمثلة ليس في إصلاح أمة واحدة فحسب وإنما أيضاً في إصلاح البشرية جمعاء من خلالها. وبدأ بتلك القوة الواحدة، أي القوة الإلهية، التي تحقق المستحيل - "أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ!" "قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ". وقد كانت الرسالة إلهية واعتمد نجاحها على عون الله تعالى. ومع بزوغ فجر كل يوم جديد، كانت المهمة تزداد صعوبة وكانت المعارضة تزداد قوة حتى بدا للناظر أنه ليس هناك سوى خيبة الأمل السائدة في كل مكان. ورغم ذلك، كانت عزيمته تزداد قوةً بزيادة قوة المعارضة ورغم أنه في أوائل التنزيل لم تكن هناك سوى نصوص قرآنية عامة بشأن انتصار دعوته وهزيمة العدو، فإن هذه النصوص أصبحت أكثر وضوحاً وتحديدًا عندما أصبحت احتمالات النجاح، كما دلت جميع الظواهر، ميؤوساً منها. وفيما يلي بعض هذه الآيات حسب ترتيب النزول: "مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ." (سورة الفلم (٦٨): الآيتان رقما (٢) و(٣)). "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُؤْتُرَ" (سورة الكوثر (١٠٨): الآية رقم (١)). "فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا" (سورة الشرح (٩٤): الآية رقم (٥)). "وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى. وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى." (سورة الضحى (٩٣): الآيتان رقما (٤) و(٥)). "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ." (سورة التكويم (٨١): الآيتان رقما (١٩) و(٢٠)). "وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ (أي القرآن)... عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا." (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٧٩)). "طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى." (سورة طه (٢٠): الآيتان رقما (١) و(٢)). "وَيَوْمَئِذٍ يُفْرَخُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَظَرِ اللَّهِ... (سورة الروم (٣٠): الآيتان رقما (٤) و(٥))." "إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ" (سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٥١)). "تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا" (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (١٠)). "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا" (سورة النور (٢٤): الآية رقم (٥٥)). "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ" (سورة الفتح (٤٨): الآية رقم (٢٨)).

وبالمثل، جاء وصف نهاية معارضة الكفار لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أواخر التنزيل أوضح منه في أوائله، رغم أن تلك المعارضة كانت تزداد قوة بمرور الأيام. وقد نزلت الآيات

الثلاث التالية في ثلاث فترات زمنية مختلفة: "حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا" (سورة الجن (٧٢): الآية رقم (٢٤)). "أَمْ يُثَوِّلُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُثَوِّلُونَ الدُّبُرَ." (سورة القمر (٥٤): الآيتان رقم (٤٤) و(٤٥)). "قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٢)). وقد حدث كل هذا بعد التنبؤ بهذه الأمور ببضع سنوات، رغم أنه في ذلك الوقت لم يكن هناك ما يعزز تلك النبوءات وكانت جميع الظروف تتعارض معها. وما من رجل كان من الممكن أن يتنبأ بما ذكر بوضوح شديد أنه من المؤكد حدوثه وما من قوة بشرية كان من الممكن تطويعها لإلحاق الهزيمة الساحقة بأمة بأكملها حشدت جميع مواردها ضد رجل أعزل وعقدت العزم على القضاء عليه. وهكذا، يعتبر الوحي الإلهي هو أوضح وأكثر الأدلة الفاطحة على وجود الله الذي يستوي في علمه الماضي والحاضر والمستقبل والذي يهيمن على قوى الطبيعة ومقادير البشر على حد سواء.

القسم الثاني - التوحيد

التوحيد

تم تناول جميع أركان الإسلام على نحو وافٍ في القرآن وكذلك أيضاً مبدأ الإيمان بالله، الذي يعتبر الإيمان بعقيدة التوحيد ركنه الأساسي. وأفضل تعبير عن التوحيد هو ذلك الذي ورد في شهادة لا إله إلا الله. وتتكون الشهادة من الكلمات الأربع التالية: لا، وإله (المعبود)، وإلا (غير)، والله (اسم علم الذات الإلهية). وهكذا، تنقل هذه الكلمات معنى مفاده أنه لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له. وهذه الشهادة عندما تقترن بالشهادة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة - محمد رسول الله - هي التي تدخل العبد في حظيرة الإسلام. ويدل التوحيد، كما ورد في القرآن، على أن الله واحدٌ في ذاته، واحدٌ في صفاته، واحدٌ في أفعاله. ويعني توحيد الذات عدم إشراك أحد مع الله عز وجل في ذاته؛ ويعني توحيد الصفات عدم إشراك أحد مع الله في صفة أو أكثر من صفات الكمال؛ في حين يعني توحيد الأفعال عدم إشراك أحد مع الله في الأفعال الخاصة بالربوبية.^٢ وقد تم تلخيص عقيدة التوحيد بأسلوب بديع في واحدة من قصار وأوائل ما نزل في القرآن: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ." (سورة الإخلاص (١١٢)).

^٢ فسر البعض توحيد الصفات على أنه يعني أن الله جل جلاله لا يمتلك قدرتين أو علمين، إلخ، وفسروا توحيد الأفعال على أنه يعني أنه ليس لأحد سلطان عليه سبحانه.

خطورة الشرك

نقيض التوحيد هو الشرك الذي يعني أن يكون الشيء بين شريكين لا ينفرد به أحدهما . وفي القرآن، تستخدم كلمة الشرك للدلالة على إشراك أحد مع الله سواءً في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو في الطاعة الواجبة له وحده لا شريك له. وقد ذكر في القرآن أن الشرك أكبر الكبائر: "إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" (سورة لقمان (٣١): الآية رقم (١٣))؛ "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٤٨)). وهذا لا يرجع إلى الشعور بالغيرة من جانبه سبحانه - لأن الغيرة في الواقع، كما ورد في القرآن، صفة لا تليق بالذات الإلهية؛ وإنما يرجع ذلك إلى أن الشرك يؤدي إلى الانحلال الأخلاقي للعبد في حين أن التوحيد يؤدي إلى سموه الأخلاقي. وكما ورد في القرآن، فإن الإنسان خليفة الله في الأرض (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٣٠)) مما يدل على أن الله وهبه القدرة على السيطرة على باقي مخلوقات الأرض. وقد ورد صراحة في كتابه الكريم أن الإنسان خلق ليسود العالم: "اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَتَّجِرَ مِنْهُ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَتَعْلَمُوا أَنَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ". (سورة الجاثية (٤٥): الآيتان رقم (١٢) و(١٣)). وهكذا رفع الإنسان فوق كل المخلوقات. بل فوق الملائكة الذين سجدوا له كما ورد في الآيات الكريمة (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٣٤)). وإن كان الإنسان خلق ليسود العالم ووهبه الله القدرة على إخضاع كل شيء وتسخيره لمنفعته، ألا يخط الإنسان من قدره إذن باتخاذ آلهة من دون الله، بالسجود لنفس الأشياء التي خلق لإخضاعها والسيطرة عليها؟ هذه حجة معارضة للشرك قدمها القرآن نفسه. وبالتالي، نجد قوله تعالى: "قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٦٤)) يليها في الآية التالية قوله تعالى "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ". كما ورد أيضاً قوله تعالى: "أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٤٠)). ومن ثم، يعتبر الشرك أكبر الكبائر لأنه يحط من قدر العبد ويجعله غير مؤهل ليتبوأ المكانة العالية التي قدرها الله له في تدبيره سبحانه.

أنواع الشرك المختلفة

تدل أنواع الشرك المختلفة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم على الرسالة النبيلة التي يقوم عليها مبدأ التوحيد. وتتلخص أنواع الشرك في الآية الكريمة التالية: "أَلَّا تُعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

^٢ تحمل كلمة عبادة في الأصل معنى واسعاً، هو إبداء أقصى غاية الخضوع أو الطاعة المقرنة بغاية التواضع والتذلل، ولكن الكلمة في الاستخدام العادي تعني اتخاذ الجسم وضعا يدل على الإجلال تجاه شيء ما في حين يكون العقل منشغلاً بأفكار العظمة والابتهاال إليه. وبهذا المعنى تستخدم كلمة عبادة هنا.

وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٦٤)). وهذه بالفعل ثلاثة أنواع للشرك - هناك نوع رابع سوف يذكر على حدة. ويتمثل أكثر أنواع الشرك وضوحاً في عبادة أي شيء من دون الله، مثل الأحجار أو الأصنام أو الأشجار أو الحيوانات أو القبور أو الأجرام السماوية أو قوى الطبيعة أو الكائنات البشرية التي يعتقد أنها أنصاف آلهة أو آلهة أو تجسيدات لآلهة أو أبناء أو بنات الله. أما النوع الثاني من الشرك، والذي يكون أقل وضوحاً، فهو اتخاذ شركاء لله سبحانه، أي الاعتقاد أن الأشياء والكائنات الأخرى تمتلك نفس صفات الذات الإلهية. ويندرج تحت هذا النوع من الشرك الاعتقاد بأن الذات الإلهية موجودة في ثلاثة أقانيم (أشخاص) وأن الابن والروح القدس، مثله عز وجل، يمتلكان صفات الأزلية، والقدرة والعلم بكل شيء، كما في المسيحية، أو أن هناك إلهًا للشر وإلهًا للخير، كما في الزرادشتية، أو أن المادة والروح مشاركتان في الأزلية لله وموجودتان بذاتهما مثله عز وجل، كما في الهندوسية. والنوع الأخير من الشرك هو اتخاذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً. وقد أوضح النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه معنى هذا النوع من الشرك في رده على سؤال طرح عليه. فعندما نزلت الآية رقم (٣١) من سورة التوبة (٩) - "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ" - قال عدى بن حاتم، الذي تحول من المسيحية إلى الإسلام، للنبي (صلى الله عليه وسلم) أن اليهود والنصارى لا يعبدون أحبارهم ورهبانهم. فسأله النبي (صلى الله عليه وسلم) عما إذا كان ليس صحيحاً أنهم اتبعوهم فيما حلوا وحرموا فكان رد عدى بالإيجاب. وتوضح هذه الرواية أن الاتباع الأعمى لأوامر العظماء يعتبر أيضاً شركاً. أما النوع الرابع من الشرك فيشار إليه في الآية الكريمة التالية: "أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ" (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (٤٣)). ففي هذه الآية، يوصف الانقياد الأعمى للمرء وراء أهوائه في كلمات تستخدم للدلالة على الشرك. وهكذا، يعني الإيمان بعقيدة التوحيد أن الطاعة الخالصة واجبة لله وحده لا شريك له وأن من يفضل اتباع أرباب أو أهوائه الشخصية على أوامر ربه فقد ارتكب حقاً أكبر الكبائر، أي الشرك.

عبادة الأصنام

من بين أنواع الشرك المختلفة، يتم الاستشهاد بعبادة الأصنام بشكل متكرر أكثر من جميع الأنواع الأخرى كما يتم استنكارها بعبارات مقدزة في القرآن. وهذا مرده إلى أن عبادة الأصنام هي أبشع أنواع الشرك كما كانت أيضاً أكثرها انتشاراً في شتى أنحاء العالم عند ظهور الإسلام. ولم يستنكر الإسلام عبادة الأصنام بصورتها البشعة التي تسلم بأن الصنم ينفع ويضر فحسب وإنما أيضاً استنكر الفكرة القائلة بأنه هناك مغزى من وراء هذا النوع البشع من العبادة: "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (يقولون) مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" (سورة الزمر (٣٩):

الآية رقم (٣)). ويقدم بعض عبدة الأصنام في يومنا هذا مبرراً مشابهاً. حيث يزعمون أن الصنم يستخدم فقط لتمكين من يعبده من أن يركز انتباهه وليصبح أكثر استغراقاً في تأمل ربه. إلا أن القرآن عارض هذه الفكرة في الآية المذكورة آنفاً - "لِيُزَيِّنُوا إِلَيَّ اللَّهُ زُلْفَى". ولكن حتى في هذه الحالة، يعتقد العابد حتماً أن الصنم الذي يركز عليه انتباهه يعتبر رمزاً للذات الإلهية وهي فكرة خاطئة تماماً؛ علاوة على ذلك، فإن الصنم وليست الذات الإلهية، هو الذي ينصب عليه انتباه من يعبده. كما أنه من الخطأ أيضاً أن نعتقد أنه لا بد من وجود رمز مادي من أجل التركيز لأنه يمكن تركيز الانتباه بسهولة بالغة على شيء روحاني و فقط عندما يكون موضع الانتباه شيئاً روحانياً، عندئذ يمكن أن يساعد ذلك التركيز على تقوية العزيمة. وبالإضافة إلى تحريم عبادة الأصنام، حرم القرآن أيضاً النذر للأصنام (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٣٧)).

عبادة الطبيعة

هناك نوع آخر شائع من الشرك تم استنكاره في القرآن وهو عبادة الشمس أو القمر أو النجوم أو، في الواقع، عبادة كل شيء قد يبدو أنه يتحكم في مقادير البشر. وقد حرم القرآن هذا النوع من العبادة صراحة كما جاء في قوله تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ" (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (٣٧)). ولا تنطبق الحجة المعارضة لعبادة الشمس والقمر على جميع الأجرام السماوية^٤ فحسب وإنما أيضاً بنفس القدر على جميع قوى الطبيعة التي في الواقع ورد عنها في القرآن مراراً وتكراراً أنها مسخرة للإنسان.

التثليث

كما يستنكر القرآن أيضاً التثليث باعتباره نوعاً من الشرك: "قَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٧١)). وأحياناً يزعم البعض أن مفهوم التثليث كما ورد في القرآن خاطئ لأنه يتحدث عن اتخاذ عيسى ومريم العذراء إلهين:

^٤ كما تقدم هذه الحجة أيضاً بوضوح في مجادلة إبراهيم لقومه بأن هذه الأشياء نفسها تخضع لسيطرة قوة عليا: "وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلَاقِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَبِيئًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (سورة الأنعام (٦): الآيات أرقام (٧٥-٧٩)).

^٥ في الآية رقم (٤٩) من سورة النجم (٥٣)، هناك إشارة إلى عبادة نجم الشعري حيث يطلق على الله لفظ "رَبِّ الشَّعْرَى".

"يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (١١٦)). ومن الواضح أن هناك إشارة في هذه الآية إلى المريمانية (المبدأ القائل بأن عيسى والسيدة مريم العذراء إلهان). فمن الصحيح أن السيدة مريم كانت تعبد و إشارة القرآن إلى ذلك ذات مغزى^٦ ولكنه من الجدير بالذكر أنه لم يرد في القرآن أو عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في أي من المواضع أن السيدة مريم كانت الأقنوم (الشخص) الثالث في الثالوث. وفي المواضع التي يستتكر فيها القرآن التثليث، نجده يتحدث عن عقيدة البنوة وليس عن عبادة السيدة مريم على الإطلاق؛ وفي المواضع التي يتحدث فيها القرآن عن عبادة السيدة مريم، نجده لا يشير إلى التثليث.

عقيدة البنوة

هناك نوع آخر من الشرك، ورد استتكاره في القرآن، يتمثل في العقيدة القائلة بأن الله أبناء أو بنات. حيث نسب المشركون العرب لله البنات في حين كان النصارى يعتقدون أن الله ولدًا. ورغم أن مبدأ نسب البنات لله ذكر في القرآن عدة مرات^٧، فإنه يتعارض مع المبدأ المسيحي الذي يؤكد عليه الكتاب الكريم بشدة: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَتَجْرُ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا." (سورة مريم (١٩): الآيات أرقام (٨٨-٩١)). وقد استتكرت عقيدة البنوة مرارًا وتكرارًا^٨، حتى في أوائل التنزيل، مما يدل على أنه، منذ البداية، أخذ القرآن على

^٦ تعتبر عقيدة وطوقس المريمانية، كما أطلق عليها المجادلون الأرثوذكس، معروفة على نطاق واسع. وفي تعاليم الكنيسة الرومانية، توجد المبادئ التالية: "أن مريم العذراء هي حقاً أم الله...؛ أنها أم المسيح وراعي البشرية على وجه الخصوص؛ وأن صورتها قيمة كبيرة". كما يذكر أيضاً أن شفاعتها تطلب مباشرة في أدعية الصلاة العامة. علاوة على ذلك، كانت هناك نساء في تراقيا (اليونان حالياً)، وسيثيا (رومانيا حالياً)، والجزيرة العربية يعبدن مريم العذراء واتخذن منها إلهة، وكانت إحدى مظاهر تلك العبادة تقديم قربان لها عبارة عن كعكة. "ومنذ عهد مجلس أفيسوس، أصبح عرض صور السيدة مريم وهي تحمل المسيح وهو طفل تعبيراً معترفاً به عن الدين القويم... وبعد القرار الذي تم اتخاذه في أفيسوس، أصبح من المستحيل تتبع تاريخ ظهور الطائفة المريمانية في الشرق والغرب على حد سواء... وقد أشار الإمبراطور جستينيان في أحد القوانين التي سنّها إلى حمايتها لإمبراطوريته... كما يعول عليها القائد البيزنطي نارساس لإعطائه توجيهات في أرض المعركة. ويضع الإمبراطور هرقل صورتها على بيرقه. ويصفها القديس يوحنا النمشقي بأنها سيدة ذات سلطة عليا خضعت لها الخليقة جمعاء بسبب ابنها. ويقر بيتر ديميان بأنها أسمى الخلق ويخاطبها بلقب الإله المخول السلطة في السماوات والأرض" (دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الحادية عشرة، الجزء السابع عشر، ص. ٨١٣).

^٧ انظر سورة النحل (١٦): الآية رقم (٥٧)؛ سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٤٠)؛ سورة الصافات (٣٧): الآية رقم (١٤٩).

^٨ على سبيل المثال في سورة البقرة (٢): الآية رقم (١١٦)؛ سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٠١)؛ سورة يونس (١٠): الآية رقم (٦٨)؛ سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (١١١)؛ سورة الكهف (١٨): الآيتين رقمي (٤) و(٥)؛ سورة مريم (١٩): الآيات أرقام (٣٥) و(٩١) و(٩٢)؛ سورة المؤمنون (٢٣): الآية رقم (٩١)؛ سورة الصافات (٣٧): الآيتين رقمي (١٥١) و(١٥٢)؛ سورة الإخلاص (١١٢): الآية رقم (٣). ومن بين هذه السور، تعتبر سورة الإخلاص (١١٢)

عاقته مهمة تصحيح هذا الخطأ الفادح. ويلاحظ أن أي إشارة إلى عقيدة البنوة غالباً ما تليها كلمة سبحانه، وهي كلمة تستخدم للدلالة على تنزيه الله عن كل نقص وعيب. والسبب في هذا يرجع إلى أن عقيدة البنوة ترجع إلى اعتقاد أن الله لا يمكن أن يغفر الخطايا إلا إذا تلقى تكفيراً عنها ويعتقد أن ابن الله، الذي يقال إنه وحده كان بلا خطيئة، قد كفر عن تلك الخطايا بصلبه. وبذلك، تنفي عقيدة البنوة عملياً عن الله صفة المغفرة وتنسب إليه سبحانه النقص. ولهذا السبب أيضاً، فإن الاستنكار الشديد لعقيدة البنوة يليه قوله تعالى: "وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا" (سورة مريم (١٩): الآية رقم (٩٢)). وتعني كلمة الرحمن في الأصل الله ذا الرحمة الواسعة الذي لا يحتاج لإرضاء أو مقابل نظير إبداء صفة الرحمة المتأصلة في ذاته سبحانه وبذلك تثبت صفة الرحمن خطأ عقيدة البنوة.

مغزى عقيدة التوحيد

تدل الإشارة في القرآن إلى أنواع الشرك المختلفة على أن القرآن ينقل إلى العالم، من خلال عقيدة التوحيد، رسالة نبيلة تتمثل في الارتقاء بالإنسان على جميع المستويات، أي المادية والأخلاقية والروحية. حيث يتحرر الإنسان ليس من عبوديته لكل ما هو حي وجماد فحسب وإنما أيضاً من خضوعه لقوى الطبيعة الهائلة العجيبة التي يمكنه تسخيرها لمنفعته كما ورد في كتابه العزيز. وتمضي عقيدة التوحيد إلى أبعد من ذلك وتخلص الإنسان من أشد أنواع العبودية، أي عبوديته لبني البشر. ولا تمنح لأي بشر مكانة الله أو مرتبة أعلى من مرتبة البشر؛ لأن أعظم البشر يؤمر أن يقول: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ" (سورة الكهف (١٨): الآية رقم (١١٠)). وهكذا، تحرر عقل الإنسان من كل الأغلال التي كانت تكبله ووضع الإنسان على الطريق نحو التقدم. حيث أن العقل المستعبد، كما ورد في القرآن صراحة، يعجز عن عمل كل ما هو خير وعظيم^٩ ومن ثم كان أول شرط لارتقاء الإنسان هو تحرير عقله من أغلال العبودية بجميع أشكالها، الذي تم من خلال رسالة التوحيد.

^٩ بلا شك من أوائل التنزيل، بينما تعتبر سورة الإسراء (١٧) وسورة الكهف (١٨) وسورة مريم (١٩) أيضاً من أوائل التنزيل المكي.

^٩ "صُرِبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ... وَصُرِبَ اللَّهُ مَثَلًا مِثْلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لِأَيِّاتٍ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ" (سورة النحل (١٦): الآيات (٧٥-٧٦)). "وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ" (سورة إبراهيم (١٤): الآية رقم (٣٣)). "وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ... وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ... وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ" (سورة النحل (١٦): الآيات أرقام (١٢-١٤))؛ "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَاءَ فِي الْأَرْضِ" (سورة لقمان (٣١): الآية رقم (٢٠))؛ وغيرها من الآيات.

وحدة الجنس البشري قائمة على عقيدة التوحيد

تحمل عقيدة التوحيد، بالإضافة إلى تحرير العقل البشري من قيود العبودية التي كبلته وبذلك تمهد الطريق لرقيه، مغزى آخر نبيلاً، إن لم يكن أنبل من ذلك المغزى، وهو تحديداً: فكرة وحدة الجنس البشري. فالله رب العالمين. وتعني كلمة رب في اللغة العربية إنشاء الشيء حالاً فحالا إلى حد التمام (المفردات في غريب القرآن). وبالتالي، تدل عبارة رب العالمين على أن جميع أمم العالم، كما لو كانت، أبناء أب واحد وأنه يتولى رعايتهم جميعاً بالتساوي بحيث يوصلهم جميعاً بالتدرج إلى غايتهم المتمثلة في بلوغ الكمال. ومن ثم، ورد ذكره سبحانه في القرآن على أنه لا يهب غذاء الجسد فحسب وإنما أيضاً غذاء الروح، أي الوحي، للأمم كافة: "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ" (سورة يونس (١٠): الآية رقم (٤٧))؛ "وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ" (سورة فاطر (٣٥): الآية رقم (٢٤)). كما نجد أيضاً أن القرآن يؤيد الفكرة القائلة بأن الله، بما أنه رب العالمين، يعاملهم جميعاً سواء. فهو سميع لدعائهم جميعاً، بصرف النظر عن دينهم أو جنسهم. وهو رحيم تسع رحمته جميع العباد غفور لذنوبهم. وهو سبحانه يجازي المسلم وغير المسلم سواء على أعماله الصالحة؛ ولم يعامل جميع الأمم سواء فحسب وإنما أيضاً فطر الناس على فطرته كما ورد في كتابه العزيز: "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا" (سورة الروم (٣٠): الآية رقم (٣٠)). كما يتم أيضاً تأكيد وحدة الجنس البشري، التي هي نتيجة طبيعية لعقيدة التوحيد، في العبارات الصريحة التالية: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢١٣))؛ "وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً" (سورة يونس (١٠): الآية رقم (١٩)).

القسم الثالث - صفات الله

طبيعة صفات الله

قبل الحديث عن صفات الله، من الضروري تحذير القارئ من سوء فهم معين بشأن طبيعة الذات الإلهية. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن الله عز وجل ورد عنه في القرآن أنه يبصر، ويسمع، ويتكلم، ويغضب، ويحب، ويعطف، ويقبض، ويهيمن، وغيرها من الصفات؛ إلا أن استخدام هذه الكلمات يجب ألا يؤخذ بأي شكل من الأشكال على أنه يشير إلى تجسيم الذات الإلهية.^{١٠} لأنه ورد صراحة في القرآن أنه سبحانه فوق جميع الإدراكات المادية: "لَا تُدْرِكُهُ

^{١٠} لم يلق مفهوم التجسيم الذي يشبه الله سبحانه وتعالى بالإنسان استحساناً لدى المسلمين. حيث كانت فرقة دينية

الأبصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٠٣)). كما أنه سبحانه ليس منزهاً عن التجسيم فحسب وإنما أيضاً عن التشبيه: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" (سورة الشورى (٤٢): الآية رقم (١١)). وللدلالة على محبته، وقدرته، وعلمه سبحانه، وغيرها من الصفات، تستخدم نفس الكلمات كما هي مستخدمة عادة في حالة البشر، إلا أن المفهوم يكون مختلفاً تماماً. وحتى "يُذَا" الله ورد ذكرهما في القرآن (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٦٤))، ولكنهما لم تُذكر إلا للتعبير عن قدرته المطلقة على أن يهب النعم لمن يشاء. كما تستخدم أيضاً كلمة يد مجازاً للإشارة إلى النعمة أو الحفظ (المفردات في غريب القرآن). وهكذا، ورد في الآية رقم (٢٣٧) من سورة البقرة (٢) قوله تعالى: "الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النَّجَاحِ"، حيث تستخدم كلمة يد مجازاً. وفي النهاية في غريب الحديث والأثر، تفسر كلمة يد على أنها تعني الحفظ والدفاع، وتعتبر لهذا المعنى يستشهد المؤلف بالحديث الذي ورد بشأن يأجوج ومأجوج والذي كان نصه أنه لا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَاتِلِهِمْ، مما يعني أنه لا قدرة ولا طاقة (يَدَانِ) لأحد على قتالهم. ومن ثم، ترمز عبارة يَدَا اللهُ الواردة في سورة المائدة (٥): الآية رقم (٦٤) إلى نعمه سبحانه في اللغة العربية. وهناك سوء فهم آخر شديد بشأن معنى عبارة "كشف عن الساق". وقد استخدمت العبارة مرتين في القرآن، مرةً فيما يتعلق بملكة سبأ (سورة النمل (٢٧): الآية رقم (٤٤)) ومرةً في صيغة المجهول دون ذكر الفاعل (سورة القلم (٦٨): الآية رقم (٤٢)). ولم تستخدم العبارة قط فيما يتعلق بالله. وتستخدم كلمة ساق في عبارة كشف عن الساق بمعنى مختلف تماماً عن معناها الحرفي، لأن كلمة ساق أيضاً تعني شدة أو كَرَبًا والعبارة موضوع النقاش تعني إما تأهب المرء لمواجهة الشدائد أو الكشف عن الكرب (تاج العروس؛ المعجم العربي - الإنجليزى للين).

صغيرة جداً تعرف باسم الكرامية (سميت على اسم مؤسسها محمد كرام) أو المجسمة (الكلمة مشتقة من كلمة جسم وبذلك سميت الطائفة على اسم المبدأ الذي كانت تعتنقه) كانت تؤمن بالرأي القائل بأن الله جسمًا، ولكن علماء المسلمين كانوا دائماً يرفضون هذا الرأي. وقد ورد بلا شك في أحد الأحاديث النبوية أن النبي (صلى الله عليه وسلم) في رؤيا شعر بلمسة يد الله تعالى بين كتفيه، ولكنه ليس من المعقول أن نسلم بحقيقة ما يشاهد في رؤيا. ويقول الأشعري: "وقال أهل السنة وأصحاب الحديث: الله ليس بجسم ولا يشبه الأشياء وأنه على العرش... استوى بلا كيف وأنه نور" (مقالات الإسلاميين، ص. ٢١١). كما يمضي قائلًا إن الله تعالى يدين وعينين بلا كيف وخلافه. كما يتم أيضاً إرساء مبدأ أساسي بشأن صفات الله تعالى يقول إن الله "لا يشبه شيئاً من الأشياء من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه" (الفقه الأكبر، ص. ١٤). علاوة على ذلك، فإن أسماء الله تعالى إنما تؤخذ باعتبار الغايات (تفسير البيضاوي). وقد كان شاه ولي الله أكثر وضوحاً وقال في عبارات واضحة إنه يُعصد ببسط اليد في حالته سبحانه أنه جزيل العطاء (حجة الله البالغة، الجزء الأول، ص. ٦٣)؛ في حين أنه فيما يتعلق بأسماء وصفات الله بوجه عام، كتب شاه ولي الله بنفس أسلوب البيضاوي قائلًا إن "استخدامها إنما يكون حسب الغايات" وأضاف قائلًا إن رحمته سبحانه، على سبيل المثال، إنما يقصد بها الإتيان بجلال النعم وليس رقة القلب بالفعل (حجة الله البالغة).

العرش

ورد ذكر عرش الله في القرآن، ولكنه لا يدل على أي مكان وإنما يرمز إلى هيمنته على المخلوقات شأنه في ذلك شأن عرش الإمبراطور الذي يرمز إلى سلطة الحكم: "عرش الله: ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم، وليس كما تذهب إليه أوهم العامة... هو إشارة إلى العز والسلطان والمملكة" (المفردات في غريب القرآن). وتعتبر صيغة استوى على العرش هي الصيغة التي كثيراً ما تستخدم عند ذكر كلمة عرش وتذكر دائماً بعد ذكر خلق السماوات والأرض وعند الإشارة إلى هيمنته سبحانه على المخلوقات والقانون والنظام الذي جعل الخالق العظيم الكون يسير وفقاً له. وكلمة استوى يليها حرف الجر على تعني الاستيلاء (المفردات في غريب القرآن). ولم يرد في أي موضع في القرآن أن الله تعالى يجلس على عرش؛ وإنما يُذكر دائماً استواؤه عند ذكر عرشه. وهناك سوء فهم مماثل بشأن كلمة كرسي إذ يعتقد البعض أيضاً أنه شيء مادي في حين أن شخصاً ثقة مثل ابن عباس يفسر كلمة كرسي بمعنى العلم (تفسير البيضاوي - سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٥٥)) وحتى وفقاً لمؤلفي معاجم مفردات القرآن قد يقصد بكلمة كرسي هنا العلم أو الملك (المفردات في غريب القرآن). ومن ثم، يرمز الكرسي والعرش إلى علم الله سبحانه وهيمنته على الخلق.

اسم علم الذات الإلهية

الله هو اسم علم أو اسم الذات الإلهية، نظراً لتمييزه عن جميع الأسماء الأخرى التي تعرف بأسماء الصفات، أي الأسماء الدالة على الصفات. كما يعرف أيضاً باسم الله الأعظم. وبما أنه اسم علم، فإنه لا يحمل أي معنى، ولكن بما أنه اسم علم الذات الإلهية فإنه يضم جميع الصفات التي ورد كل منها على حدة في أسماء الصفات. ومن ثم، يقال إن الاسم الله يضم جميع صفات الكمال المنفرد بها الله عز وجل. وبما أن كلمة الله تعتبر اسم علم، فإنها بالتالي اسم جامد، أي أنها ليست مشتقة من أي كلمة أخرى. كما أنها ليست لها أي علاقة بكلمة إله^{١١} (رب أو معبود). وأحياناً يزعم أن كلمة الله هي صيغة مختصرة من كلمة الإله، ولكن ذلك خطأ، لأنه لو كانت ال في كلمة الله عبارة عن بادئة إضافية تضاف إلى أول الكلمة، لما أتيح استخدام صيغة يا الله، التي هي صيغة صحيحة، لأن صيغة يا الإله أو يا الرحمن غير مباح استخدامها. علاوة على ذلك، يدل هذا الفرض على أنه كانت هناك عدة آلهة (كلمة آلهة جمع إله)، ثم أصبح أحدهم معروفاً

^{١١} الكلمة مشتقة إما من الجذر آله التي تعني تحير أو أصبح متحيراً أو هي صيغة معدلة من كلمة ولاه المشتقة من الجذر ولة التي تعني أصبح متيمماً.

بالتدرج باسم الإله ثم حذفت الألف وأدغم اللامان فصار الله. إلا أن هذا غير صحيح لأن الاسم الله "كان دائماً وأبداً اسم الذات الأزلية" (القاموس الإسلامي لهوجو). ووفقاً لجميع مؤلفي المعاجم العربية، لم تطلق كلمة الله إلا على الذات الإلهية. وقد كان العرب يعبدون عدة آلهة ولكنه لم يطلق على أي منهم اسم الله، رغم أن المشركين كانوا يعترفون بأن الذات العليا التي يطلق عليها اسم الله هي المستقلة بخلق الكون (سورة العنكبوت (٢٩): الآية رقم (٦١))، ولم يحظ بتلك المكانة أي إله آخر مهما كانت عظمته.

الصفات الأربع الرئيسية

من بين أسماء صفات الله التي وردت في القرآن، هناك أربعة أسماء تحتل مكانة بارزة وهذه الأسماء هي بالضبط التي وردت في سورة الفاتحة التي تعتبر، بإجماع الآراء ووفقاً لأحد الأحاديث النبوية، أم الكتاب. وتبدأ السورة باسم علم الذات الإلهية، أي الله، ثم يليه أعظم أسماء الصفات جميعاً، أي الاسم رب. ووفقاً لأفضل مؤلفي معاجم مفردات القرآن، فإن المعنى الحقيقي للكلمة هو التريبة، أي إنشاء الشيء حالاً فحالا إلى حد التمام (المفردات في غريب القرآن). ومن ثم، تعني كلمة رب الرب الذي يسوي كل ما في هذا الكون في أحسن الهيئات من خلال مراحل التطور المختلفة^{١٢}، وبما أن هذه المراحل تشمل أدنى المراحل وأبعدها التي، كلما رجعنا بأذهاننا إلى الوراء، تتضاءل حتى تصل إلى حالة العدم، فإن كلمة رب تحمل في طياتها فكرة خالق الكون كله. وبالتالي، تعتبر كلمة رب هي الصفة الرئيسية التي يتصف بها الله جل جلاله ومن ثم يوجه الدعاء بوجه عام إلى الرب ويبدأ بكلمة ربنا^{١٣}. وبالفعل يعطى القرآن للاسم رب المرتبة التالية من حيث الأهمية بعد اسم علم الذات الإلهية، أي الله.

^{١٢} يشار صراحة في القرآن عدة مرات إلى نظرية النشوء والارتقاء التي هناك إشارة مؤكدة إليها في كلمة رب. وهكذا، قال تعالى في الحديث عن الحالة الأولى للسموات والأرض: "أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا" (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٣٠)). وهذا يشير بالتأكيد إلى مرحلة أولى من مراحل النشوء عندما كانت هناك حالة من الفوضى الكونية التي نشأ منها النظام الحالي شديد التعقيد رغم أنه في غاية الإحكام. وعند الحديث عن خلق الإنسان، قال تعالى: "وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا" (سورة نوح (٧١): الآية رقم (١٤)) مما يدل على أن الإنسان بلغ مرحلة الكمال الجسدي الحالية بعد اجتياز عدة مراحل. وفي موضع آخر، قال تعالى عن الإنسان "لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ" (سورة الانشقاق (٨٤): الآية رقم (١٩))، ومن المرجح أن تلك إشارة إلى التطور الروحاني للإنسان.

^{١٣} في هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن المسيح عيسى بن مريم خاطب الله بلفظ الأب الذي استخدم القرآن بدلاً منه لفظ رب. ورغم أن كلمة أب تتقل فكرة عاطفة الأبوة المقترنة بالتربية، فإن كلمة رب تتقل فكرة أعظم من ذلك بكثير، فكرة الحب والعطف الذي لا حدود له من خالق الكون كله الذي لم يهبئ للخليفة كلها سبل العيش فحسب وإنما أيضاً قَدَّر مسبقاً لكل المخلوقات نطاق قدرة وفي إطار ذلك النطاق وقَرَّ لهم الوسيلة التي يمكنهم من خلالها المضي نحو بلوغ غايتهم المتمثلة في الكمال بالتدرج، مما يوضح إلى أي مدى طُوِّر التنزيل القرآني الأفكار البسيطة التي وردت في الكتب السماوية السابقة إلى مستوى رفيع.

ويعتبر الترتيب الذي اتبعه القرآن عند التحدث عن صفات الله ترتيباً علمياً من الدرجة الأولى. ووفقاً لهذا الترتيب، يأتي اسم علم الذات الإلهية، أي الله، في المرتبة الأولى في سورة الفاتحة يليه اسم رب، أهم أسماء الصفات. ومما يثبت الأهمية النسبية للاسمين سالف الذكر أن اسم الله ورد في القرآن حوالي ٢,٨٠٠ مرة في حين ورد اسم رب حوالي ٩٦٠ مرة، ولم يرد اسم آخر في القرآن بنفس معدل التكرار. ويأتي بعد اسم رب من حيث الأهمية أسماء الرحمن، والرحيم^٤، والمالك التي تلي اسم رب في سورة الفاتحة. وتوضح هذه الأسماء في الواقع مدى تأثير صفة الربوبية أو بلوغ الكمال من خلال تربية الخلق. حيث يدل اسم الرحمن على أن صفة المحبة صفة غالبية على الذات الإلهية لدرجة أنه ينعم على العباد بجلال النعم ويشملهم برحمته حتى إن لم يفعل العبد ما يجعله يستحقها. فتهيئة سبل العيش اللازمة لتطور الحياة المادية للعبد ونزول الوحي الإلهي اللازم لتطوره الروحاني كل هذا مرده إلى صفة المحبة التي لا حدود لها المتأصلة في ذاته سبحانه. ثم تأتي المرحلة التي يستغل فيها الإنسان هذه الموارد المختلفة التي تساعد على تطوير حياته المادية والروحانية ويسخرها لمنفعته. وفي هذه المرحلة تظهر الصفة الثالثة التي ينفرد بها الله تعالى، أي الرحيم، الذي برحمته يجازي العبد على كل أعماله الصالحة؛ وبما أن العبد لا يكف ولا ينقطع عن الأعمال، فإن الله أيضاً لا تنقطع رحمته التي يتم التعبير عنها في اسم الرحيم. وينطبق نفس الشيء أيضاً على التطور الجسدي والروحاني للعبد. ويروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه قوله: "الرحمن هو الله الرحمن الذي يتجلى حبه ورحمته في خلق هذا العالم، والرحيم هو الله الرحيم الذي يتجلى حبه ورحمته في الآخرة" (البحر المحيط، الجزء الأول، ص. ١٧).

ولبلوغ الخليقة مرحلة الكمال، كان لا بد، رغم ذلك، من إبداء صفة أخرى. فكما أن الامتثال لأوامر الشريعة الإلهية يؤدي إلى تقدم الإنسان الذي يترتب عليه مكافأته، وكذلك تؤدي مخالفة أوامر الشريعة حتماً إلى إعاقة تقدمه أو إنزال العقاب به. وفي الواقع، يكون لعقاب المعصية في تدبير الله بالضبط نفس ضرورة ثواب الأعمال الصالحة، وما العقاب في الحقيقة سوى مرحلة مختلفة من المراحل التي يتم فيها إظهار صفة الربوبية؛ لأن الخير في نهاية الأمر ما زال هو الهدف. ومن ثم، فكما أن صفة الرحيم ضرورية لمكافأة من يعمل الصالحات أو يمتثل لأوامر الشريعة، كذلك أيضاً كان لا بد من وجود صفة أخرى لجزاء السيئة. ومن ثم، تلي صفة الرحيم في سورة الفاتحة صفة مالك يوم الدين، أي مالك يوم الجزاء والحساب في الآخرة. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن استخدام كلمة مالك، أي السيد، عند ذكر جزاء السيئة له مغزى لأنه، كما هو معتاد،

^٤ اسما الرحمن والرحيم مشتقان من الجذر رحمة التي تعني رقة تقتضي الإحسان وبذلك تشمل فكريتي المحبة والرحمة. ويأتي اسم الرحمن على وزن فعلان ويعبر عن سعة رحمة الله في حين يأتي اسم الرحيم على وزن فعيّل ويعبر عن عدم انقطاع رحمته عز وجل.

من المتوقع أن يكون هناك قاضٍ يصدر حكماً بعقاب مرتكب الإثم. والفرق الأساسي بين القاضي والسيد هو أن القاضي يجب عليه تنفيذ العدالة ومعاقبة مرتكب الإثم على كل ما اقترفه من آثام في حين أن السيد يمكنه ممارسة سلطته التقديرية ويمكنه إما معاقبة مرتكب الإثم أو العفو عنه بل ومغفرة أكبر الكبائر.^{١٥} وقد تم تناول هذه الفكرة على نحو وافٍ في القرآن حيث ورد مراراً وتكراراً أن الحسنه بعشر أمثالها أو أكثر وأن السيئة إما تغفر أو تجازى بمثلها. وفي أحد المواضع، ورد أن رحمة الله واسعة لدرجة أن "اللَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا" (سورة الزمر (٣٩): الآية رقم (٥٣)). ومن ثم، يستخدم اسم الصفة مالك لربط فكرة الجزاء بفكرة المغفرة وذلك هو السبب في أنه، رغم أن اسم مالك يذكر في سورة الفاتحة على أنه الاسم التالي من حيث الأهمية لاسم الرحيم، فإنه في القرآن يحتل اسم الغفور تلك المرتبة من حيث الأهمية، وذلك يرجع إلى أن أول اسمين، أي الرحمن والرحيم، وصيغ مصدرهما وردت في القرآن حوالي ٥٦٠ مرة في حين أن اسم الغفور، الذي يحتل المرتبة التالية من حيث التكرار، ورد بصيغته الاسمية والفعلية حوالي ٢٣٠ مرة. ومن ثم، يتبين لنا أن القرآن يعطي أهمية كبرى لصفتي المحبة والرحمة المتأصلتين في ذاته سبحانه إلى حد ليس له نظير في أي من الكتب السماوية الأخرى التي نزلت.

أسماء الله التسعة والتسعون

هكذا، يتبين لنا من شرح الأسماء الأربعة، وهي: رب، ورحمن، ورحيم، ومالك، وتكرارها في القرآن الذي لم يرد بنفس معدله أي من الأسماء الأخرى، وذكرها في سورة الفاتحة، أن هذه الأسماء الأربعة هي أسماء الصفات الرئيسية لله تعالى وأن جميع صفاته الأخرى إنما هي صفات مشتقة من هذه الصفات الأربع الرئيسية. واستناداً إلى حديث رواه أبو هريرة، واعتبره الترمذي، رغم ذلك، حديثاً ضعيفاً غريباً، فإن لله تسعة وتسعين اسماً بوجه عام والمائة هو اسم الله؛ ولكن رغم أن بعض هذه الأسماء ورد في القرآن، فإن البعض الآخر لم يستدل عليه إلا من فعل من أفعاله سبحانه وتعالى تم التعبير عنه في الكتاب الكريم. ومع ذلك، لم يرد عن أي من الثقافات السبحة أو غيرها من الوسائل في عد هذه الأسماء. حيث إنه لم يستخدم النبي (صلى الله عليه وسلم) أو أي من الصحابة (رضي الله عنهم) السبحة. وقد قال تعالى في القرآن: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ

^{١٥} ارتكب معتقو الدين المسيحي أكبر خطأ في هذه الجزئية. حيث يرون أنه يجب على ابن الله تكفير خطايا البشرية أو تقديم تعويض عنها لأن الله، بصفته قاضياً، لا يمكن أن يغفر الذنوب إلا إذا وُجد شخص ما يقدم له تعويضاً. وفي القرآن، ورد أن الله هو المالك وبالتالي يمكنه العفو. وفي الواقع، ينفي الدعاء إلى الله صحة ما ورد في الدين المسيحي لأنه في هذا الدعاء ندعو ربنا بأن يغفر ذنوبنا بالضبط كما نغفو عن المدينين لنا. ولكن كيف نغفو عن المدينين لنا؟ لا يكون العفو بالحصول على المال منه وإنما بالتنازل عن الدين. وإذا كان الإنسان يستطيع العفو، فكيف لا يستطيع الرب؟

بِهَا وَذَرُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٨٠)). ويوضح السياق أن دعاء الله بأسمائه الحسنى إنما يعني ألا ينسب إليه سبحانه أي شيء يحط من قدره؛ لأنه، في الجزء الثاني من الآية، يوبخ الله تعالى أولئك الذين يلحدون في أسمائه عز وجل^{١٦}، وقد فسر الإلحاد في أسماء الله الحسنى بوضوح على أنه يعني إما نعت الله سبحانه وتعالى بصفات لا تليق بجلاله أو نعت المخلوقات بصفات الله عز وجل. ومن ثم، يعني دعاء الله بأسمائه الحسنى ألا ينعت الله عز وجل إلا بتلك الصفات العلى التي تليق بجلاله. وتتمثل أسماء الله التي وردت في القرآن فيما يلي:

١- أسماء متعلقة بذاته: الواحد أو الأحد، الحق، القدوس، الصمد، الغني، الأول، الآخر، الحي، القيوم.

٢- أسماء متعلقة بالخلق: الخالق، البارئ، المصور، البديع.

٣- أسماء متعلقة بصفتي المحبة والرحمة (بالإضافة إلى أسماء رب، والرحمن، والرحيم): الرؤوف، الودود، اللطيف، التواب، الحليم، العفو، الشكور، السلام، المؤمن، التبر، رفيح الدرجات، الرزاق، الوهاب، الواسع.

٤- أسماء متعلقة بعظمته وجلاله: العظيم، العزيز، العلي أو المتعال، القوي، القهار، الجبار^{١٧}، المتكبر، الكبير، الكريم، الحميد، المجيد، المتين، الظاهر، ذو الجلال والإكرام.

^{١٦} يمكن الإلحاد في أسماء الله تعالى بثلاث طرق: (١) نعت المخلوقات بأسماء الله الحسنى (٢) نعت الله سبحانه وتعالى بأسماء لا تليق بجلاله (٣) نعت الله سبحانه وتعالى بأسماء غير معلومة المعنى (التفسير الكبير للرازي). ووفقاً لراغب، فإن الإلحاد في أسماء الله يأتي على وجهين: (١) أن يوصف بما لا يصح وصفه به و(٢) أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به (المفردات في غريب القرآن).

^{١٧} هناك سوء فهم شديد بشأن المعنى الحقيقي لاسم الجبار حيث بلغ من شطط أحد الكتاب المعاصرين في دائرة المعارف الإسلامية أن ترجمه بكلمة *Tyrant* (ظالم) في حين ترجم نفس الكاتب الاسم التالي المتكبر بكلمة *Haughty* (المتعطرس). وترجع هذه الترجمة بلا شك إلى فكرة مسيطرة على الكتاب المسيحيين مفادها أن الله في الإسلام رمز للقسوة، والظلم، والتخويف في حين أن صورة الرب الودود الرحيم خاصة بالدين المسيحي فقط. ولو كان الكاتب رجح إلى القاموس الإسلامي لهوجو، لما ارتكب هذا الخطأ الفادح. حيث يترجم هوجو اسم الجبار على أنه يعني *Repairer* أي المصلح واسم المتكبر على أنه يعني *the Great* أي العظيم. وتعتبر الترجمة الواردة في دائرة المعارف تشويهاً شديداً للمعنى. ولأن كلمة جبار، كما يقول الكاتب، تستخدم بمعنى سيئ مع الناس، فإنها تنقل نفس المعنى عند استخدامها مع الله سبحانه وتعالى. وفي كل لغة، توجد مئات الكلمات التي تستخدم بمعنى حسن ومعنى سيئ وما من شخص عاقل يمكن أن يزعم أنه لأن الكلمة استخدمت بمعنى سيئ لا يمكن استخدامها بمعنى حسن. ويؤكد القرآن في عبارات صريحة أن أسماء الله كلها حسنى؛ والسؤال الآن هو: هل تتماشى الترجمة *haughty* أو *tyrant* مع هذا القول؟ كما يعلن القرآن أكثر من مرة أن الله ليس "بظلام" للعبيد (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (٤٦)؛ سورة ق (٥٠): الآية رقم (٢٩)) وأن الله لا يظلم مثقال ذرة (سورة النساء (٤): الآية رقم (٤٠)). والسؤال الآن هو: هل يمكن أن ننتعه سبحانه بصفة الظلم رغم هذا الوصف؟ وإذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية،

٥- أسماء متعلقة بعلمه: العليم، الحكيم، السميع، الخبير، البصير، الشهيد، الرقيب، الباطن، المهيمن.

٦- أسماء متعلقة بقدرته وهيمته على المخلوقات: القادر أو القدير أو المقتدر، الوكيل، الولي، الحافظ، المَلِك، الفتح، الحاسب أو الحسيب، المنتقم أو ذو انتقام، المقيت.

وتتمثل الأسماء الأخرى المشتقة من فعل من أفعاله سبحانه وتعالى أو صفة من صفاته الواردة في القرآن الكريم فيما يلي: القابض، الباسط، الرافع، المعز، المنزل، المجيب، الباعث، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، مالك الملك، الجامع، المعني، المعطي، المانع، الهادي، الباقي، الوارث.

وفيما يتعلق بباقي الأسماء التسعة والتسعين، نجد أن النور ليس بالفعل اسماً من أسماء الله تعالى - فالله نور بمعنى أنه الهادي للعباد (سورة النور (٢٤): الآية رقم (٣٥))؛ ويمكن أن تستنبط الأسماء التالية من المعنى: الصبور، الرشيد، المقسط، الوالي، الجليل، العدل، الخافض، الواجد، المقدم، المؤخر، الضار، النافع. وسوف تتم الإشارة إلى صفتين أخريين تدرجان تحت هذا التصنيف فيما بعد لأنه يجب تناولهما بالتفصيل؛ هاتان الصفتان هما صفتا الكلام والإرادة اللتان يتم تناولهما في فصلي الكتب السماوية المنزلة والقدر، على التوالي.

المحبة والرحمة صفتان غالبتان في الذات الإلهية

سوف يتبين لنا أن صفات الله سألقة الذكر ليست لها علاقة بصفات الاستبداد، وعدم الرأفة، والانتقام، والقسوة التي ينسبها الكتاب الأوروبيون بوجه عام إلى صورته سبحانه التي رسمت له في القرآن. وإنما على النقيض من ذلك، يتم تأكيد صفتي محبة الله ورحمته بعباده في القرآن أكثر من أي كتاب مقدس آخر. حيث إن كل سورة لا تبدأ باسمي الرحمن والرحيم فحسب، مما يدل على أن صفتي المحبة والرحمة صفتان غالبتان في ذاته سبحانه، وإنما أيضاً يمضي الكتاب الكريم إلى

سوف نجد أن كلمة جبر، المشتقة منها صفة الجبار، تعني في الأصل إصلاح الشيء بضرب من القهر (المفردات في غريب القرآن). ويمضي نفس المؤلف قائلًا إن الجبر يستخدم تارة للدلالة على الإصلاح المجرد وتارة للدلالة على القهر المجرد. وعندما يسيء الإنسان استخدام سلطته، عندئذ يصبح جباراً بالمعنى السيئ للكلمة. ولكن في القرآن نفسه، تستخدم كلمة جبار مع الناس فقط بمعنى أقوياء. فعندما طلب موسى من قومه دخول الأرض المقدسة، قالوا له: "قالوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٢٢). وقد أجمع جميع الأشخاص النقات على أن كلمة الجبار، عندما تصف الله سبحانه وتعالى، تعني إما من يجبر الناس بهتهم على ما يريد أو الجبار العالي فوق خلقه.

أبعد من ذلك ويؤكد في عبارات صريحة على سعة رحمة الله التي لا حدود لها. وتعتبر الآيات التالية أمثلة على ذلك:

"كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٢))؛ "كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (٥٤)). "رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٤٧)). "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٥٦)). "إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ" (سورة هود (١١): الآية رقم (١١٩)). "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا" (سورة الزمر (٣٩): الآية رقم (٥٣)). "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا" (سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٧)).

وهكذا، فإن رحمة الله واسعة لدرجة أنها تعم الناس أجمعين مؤمنين وكفارًا كما توضح الآيات سالفة الذكر. وحتى أعداء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ورد عنهم في القرآن أن الله كان يشملهم برحمته: "وَإِذَا أَنْقَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لَّهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا" (سورة يونس (١٠): الآية رقم (٢١)). وقد ورد عن المشركين مراراً وتكراراً أنهم كانوا يناجون الله ويدعونه في أوقات الشدة وأنه سبحانه كان يكشف عنهم ما نزل بهم. وبذلك نجد أن صورة صفات الله المرسومة في القرآن هي، بوجه عام، صورة تغلب عليها المحبة والرحمة وأنه بينما ترد الإشارة إلى هاتين الصفتين تحت العديد من أسماء الصفات المختلفة ورغم تكرارهما مئات المرات، فإن صفة العقاب - ذو انتقام - لم ترد في القرآن كله سوى أربع مرات^{١٨}. ومن الصحيح أن عقاب السيئة هو موضوع أكد عليه القرآن تأكيداً شديداً، ولكن الهدف منه في هذه الحالة إنما هو أن تطبع في ذهن الإنسان الفكرة القائلة بأن السيئة شيء مقيت ينبغي تجنبه؛ ومن خلال المقارنة، لم يؤكد القرآن بشدة على ثواب الأعمال الصالحة فحسب وإنما أيضاً يمضي إلى أبعد من ذلك ويعلم مراراً وتكراراً أن السيئة إما تغفر أو تجازى بمثلهما في حين أن الحسنه بعشرة أمثالها وبمئة ضعف أو بغير حساب. ولكن، في الوقت نفسه، يجب أن نضع نصب أعيننا أن العقاب ذاته، الذي ذكر في القرآن، ذو طابع علاجي ولا ينطوي على أي انتقام - إنه علاج لمرض ابتلى الإنسان به نفسه. وهكذا، نجد أنه يعتبر رغم ذلك محبة لأن الهدف منه ما زال هو وضع الإنسان على الطريق نحو التقدم الروحاني من خلال شفاؤه من المرض الذي أصابه. ومن بين أسماء الله، التي أدرجها علماء الدين ضمن التسعة والتسعين اسماً، اسم الضار، رغم أنه لم يذكر في القرآن، ولكن إنزال الضر بالبعد إنما يكون بالمعنى المحدود المتمثل في أنه عقاب على ارتكاب معصية هدفه الأساسي هو الإصلاح:

^{١٨} سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٤)؛ سورة المائدة (٥): الآية رقم (٩٥)؛ سورة إبراهيم (١٤): الآية رقم (٤٧)؛ سورة الزمر (٣٩): الآية رقم (٣٧).

"قَلَوْلًا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا تَضَرَّعُوا" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (٤٢))؛ "أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٩٤)).

صفات الله هي نموذج كمال الصفات الواجب الاحتذاء به

مثلاً يعتبر الإيمان بعقيدة التوحيد مصدراً للارتقاء بالإنسان، حيث يجعله يدرك رفعة قدر الطبيعة البشرية، ويلهمه بالأفكار الرفيعة المتمثلة في تسخير الطبيعة والمساواة بين بني البشر، كذلك فإن المراد من صفات الله تعالى العديدة، التي وردت في القرآن، هو بالفعل بلوغ شخصية الإنسان الكمال. وتعتبر صفات الله بالفعل بمثابة نموذج لصفات الكمال يجب على العبد أن يسعى للاحتذاء به. فعلى سبيل المثال، الله رب العالمين؛ إذا وضع الإنسان هذا النموذج نصب عينيه، فإنه يكون من الواجب عليه أن يسعى ليجعل خدمة البشرية، بما في ذلك المخلوقات العجماء، هدف حياته. والله هو الرحمن الذي يهب النعم للإنسان ويبيد حبه له رغم أن الإنسان لم يفعل ما يجعله يستحق ذلك؛ كذلك أيضاً يجب على الإنسان الذي يسعى لبلوغ الكمال أن يحسن إلى بني البشر الذين لم يتلقوا هو نفسه منهم - ولا يتوقع أن يتلقى منهم - إحساناً. والله هو الرحيم الذي يجعل لكل عمل صالح ثوابه؛ كذلك أيضاً يجب على الإنسان أن يقابل الخير من أخيه الإنسان بمثله. والله هو المالك، الذي يجازي السيئة، ليس بقصد الانتقام أو حتى العدالة الصارمة، وإنما بقصد العفو وبروح السيد الذي يعامل عبده؛ كذلك أيضاً يجب على الإنسان أن يكون عفواً في معاملاته مع الآخرين إن كان يود بلوغ الكمال.

الصفات المذكورة سلفاً هي الصفات الأربع الرئيسية لله عز وجل، ومن السهل معرفة كيف تعتبر هذه الصفات بمثابة نماذج يجب على العبد أن يحتذي بها. وينطبق نفس الشيء أيضاً على جميع صفاته عز وجل الأخرى. فلنأخذ، على سبيل المثال، صفتي المحبة والرحمة. الله هو الرؤوف، الودود، اللطيف، التواب، الحليم، العفو، الشكور، السلام، المؤمن، الجبار، البر، رافع الدرجات، الواسع، الرزاق، إلى غير ذلك من أسمائه الحسنی؛ كل هذه الصفات يجب على العبد أيضاً أن يسعى للتخلي بها. ولنأخذ أيضاً صفات العلم التي يتصف بها سبحانه وتعالى. الله هو العليم، الحكيم، الخبير، البصير، الرقيب، الباطن؛ ويجب أيضاً على العبد أن يسعى لبلوغ مرحلة الكمال في علمه بالأشياء واكتساب الحكمة. وفي الواقع، عندما ورد في القرآن أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض، ذكر أن السمة الرئيسية المميزة له كسيد للكون هي صفة العلم بالأشياء.^{١٩}

^{١٩} انظر سورة البقرة (٢): الآيتين رقمي (٣٠) و(٣١).

وفيما يتعلق بصفة الحكمة، ورد في القرآن أن النبي (صلى الله عليه وسلم) بعث ليعلم الحكمة.^{٢٠} ثم تأتي بعد ذلك صفات القدرة، والعظمة، والهيمنة على جميع المخلوقات؛ وحتى الملائكة أمرهم الله عز وجل بأن يسجدوا للإنسان مما يدل على أن الإنسان رُفِعَ فوقهم درجات. كما ورد في القرآن مراراً وتكراراً أن كل ما في السماوات والأرض مسخر للإنسان. ومن الصحيح أن صفات المحبة، والرحمة، والعلم، والحكمة، والهيمنة على المخلوقات حين يتصف بها الإنسان لا تقارن بنماذج تلك الصفات عند الله، ولكن مهما بلغت الهوة التي تفصل الإنسان عن بلوغ الكمال في تحقيق تلك النماذج، تظل الحقيقة أن أمام الإنسان نموذج أخلاق الله التي يجب عليه أن يسعى للتشبه بها.

^{٢٠} سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٥١)؛ سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٦٤)؛ سورة الجمعة (٦٢): الآية رقم (٢).

الفصل الثالث

الملائكة

الملائكة مخلوقات روحانية غير مادية

صيغة الجمع من كلمة مَلَك هي مَلَائِكَة^١. ويشير القرآن إلى خلق الإنسان من طين وخلق الجن من نار، ولكنه لم يشير إلى خلق الملائكة. ورغم ذلك، يروى عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال إن الجن خلق من مارح من نار وإن الملائكة خلقت من نور. (صحيح مسلم ٥٢: ٢٢). مما يدل على أن الملائكة مخلوقات روحانية غير مادية كما يدل أيضاً على أن الجن والملائكة نوعان مختلفان من المخلوقات ومن الخطأ أن نعتبر أنهما ينتميان إلى نفس النوع. وفي القرآن، يوصف الملائكة بكونهم "رُسُلًا أُولِي أجنحةٍ"^٢ (سوف فاطر (٣٥): الآية رقم (١)). ويشير وصفهم بأنهم رسل^٣ إلى الوظيفة الروحانية التي كلف الله بها الملائكة والمتمثلة في حمل الرسالات الإلهية. وفي صفحات التاريخ المسيحي، يصور الملائكة بالفعل على أن لهم أجنحة، ولكن فيما يتعلق بالقرآن، فإنه يعتبر خطأ فادحاً أن نخلط بين جناح الملك والجناح الأمامي للطائر الذي يمكنه من الطيران. ويعتبر الجناح رمزاً للقوة التي تمكن تلك المخلوقات الروحانية غير المادية من أداء الوظائف التي يكلفها بها الله بسرعة فائقة؛ وفي اللغة العربية، تستخدم كلمة جَنَاح بعدة معانٍ. ففي الطيور، يطلق على ما تطير به الطيور لفظ جناح؛ ويسمى جانب الشيء جناحيه؛ وفي الإنسان، توصف يده بأنها جناحه (المفردات في غريب القرآن). كما استخدمت الكلمة أيضاً مجازاً في القرآن في مواضع عديدة، كما جاء في سورة الحجر (١٥): الآية رقم (٨٨) وفي سورة الشعراء (٢٦): الآية رقم (٢١٥)، حيث يرمز "خفض الجناح" إلى "الإحسان". والمثل العربي "هو مقصوص الجناح" يعني بالفعل أنه عاجز عن عمل شيء ما (المعجم العربي - الإنجليزي للين)، مما يدل أيضاً على أن كلمة جناح تستخدم في العربية للدلالة على القوة. وفي المخلوقات الروحانية

^١ الجذر الذي اشتقت منه الكلمة هو أَلَك أو أَلُوكة التي تعني رسالة أو حمل الرسالة. وحذفت الهمزة من صيغة المفرد التي كانت في الأصل مَأَلِك ثم تم تغييرها بعد ذلك لتصبح مَلَأك (ومن هنا كانت صيغة الجمع مَلَائِكَة)، وهذه التغييرات شائعة في اللغة العربية. ورغم ذلك، يرى بعض علماء اللغة أن صيغة ملك هي الصيغة الأصلية ويرجعونها إلى الجذر مَلِك أو مَلِك بمعنى سلطة وقد حول الكاتب دي. بي. ماك دونالد هذا الاختلاف في الرأي إلى حجة بأن الكلمة مأخوذة من اللغة العبرية، رغم أنه يعترف بأنه ليس هناك أثر للفعل في اللغة العبرية (أو في اللغة الفينيقية حيث ورد الاسم بالكتابة الحديثة) (دائرة المعارف الإسلامية، مقال حول موضوع الملائكة).

^٢ أجنحة جمع جناح.

^٣ جمع رسول.

غير المادية التي تسمى الملائكة والتي خلقت من نور والتي بالتالي لا يمكن تصور وجود جناح مادي لديها، يكون الجناح مجرد رمز للقوة التي يظهر أثرها بسرعة.

هل يمكن رؤية الملائكة؟

يعتقد لدى عموم الناس أن المخلوقات الروحانية غير المادية، التي تسمى بالملائكة، يمكن أن تتمثل في أي صورة تشاء، إلا أنه لم يرد في القرآن ما يعزز هذه الفكرة. وإنما على النقيض من ذلك، ورد مراراً في القرآن رداً على طلب أعداء النبي (صلى الله عليه وسلم)، الذين كانوا يريدون أن يروا ملكاً أو أن يُبعث إليهم ملك رسول، أن الملائكة لا يمكن رؤيتهم وأنه لو كان الملائكة، وليس البشر، يعيشون على الأرض لبعث الله لهم ملكاً رسولاً، كما جاء في قوله تعالى: "وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا. قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَعْمُرُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا." (سورة الإسراء (١٧): الآيتان رقما (٩٤) و(٩٥)). وقد ورد في القرآن في موضعين أن الجنود الملائكة الذين أرسلهم الله لنصرة المسلمين لم ترهم العين البشرية، كما جاء في قوله تعالى: "ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٢٦)). "الذِّكْرُ وَالنِّعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٩)). كما ورد في القرآن أيضاً أن الشياطين أو الجن لا يمكن رؤيتهم بالعين البشرية: "إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٢٧)).

ضيف إبراهيم

ورغم ذلك، هناك واقعتان جديرتان بالدراسة، أولاً، هناك قصة ضيف إبراهيم^٤ الذين أتوه أولاً وبشروه بغلام اسمه إسحاق ثم ذهبوا إلى لوط وأمروه بأن يسري مع من اتبعه لأنه سوف ينزل بقومه عذاب أليم. ويُعتقد بوجه عام أنهم كانوا ملائكة، لأن الملائكة فقط هم الذين يكلفون بتبليغ الرسالات إلى الأنبياء، كما ورد في الإنجيل أنهم ملائكة. ولكن القرآن يشير إليهم فقط بعبارة "ضيف إبراهيم" وبلفظ "رسلنا" ولم يرد في أي من المواضع أنهم ملائكة. فلو كانوا ملائكة، لبلغوا الرسالة الإلهية إلى إبراهيم ولوط بنفس الطريقة التي يبلغ بها الملائكة تلك الرسالات، أي بإنزال

^٤ سورة هود (١١): الآيتان رقما (٦٩) و(٧٠)؛ سورة الحجر (١٥): الآيتان رقما (٥١) و(٥٢)؛ سورة الذاريات (٥١): الآيتان رقما (٢٤) و(٢٥).

الرسالة الإلهية على قلب النبي، كما جاء في قوله تعالى: "فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٩٧))؛ ورغم أن الملك قد يأتي في صورة بشر فإنه لا يرى بالعين المادية للنبي وإنما بعينه الروحانية. ومن ثم، فلو كان الضيوف الذين ورد ذكرهم ملائكة، لظهروا حتماً لإبراهيم ولوط في حالة كشف، وهي الحالة التي ينزل بها الوحي على أنبياء الله؛ ولكن إذا كان إبراهيم ولوط قد شاهداهم بالعين المادية، فهم إذن بشر وليسوا ملائكة. ويدل عدم اقترابهم من الطعام عندما قدمه لهم إبراهيم على أنهم لم يكونوا في حاجة إليه أو أنهم كانوا صائمين في ذلك الوقت. وقد تلقى إبراهيم نبأ ابنه بدونهم كما أنبئ لوط أيضاً بالهلاك الذي أوشك أن ينزل بقومه دون وساطتهم.^٥

هاروت وماروت

هناك واقعة أخرى جديدة بالدراسة؛ وهي قصة هاروت وماروت. وقد ركز على هذه النقطة بشكل غير عادي كُتَّاب الغرب بوجه عام والمبشرون بالمسيحية بوجه خاص واستتجوا، مما ورد بشأنهما في القرآن، أن الملائكة ليست مخلوقات روحانية غير مادية وأنها تسيطر عليها الشهوات مثل البشر؛ وبذلك يسعى هؤلاء لتكذيب كل ما ورد في القرآن من تعاليم بشأن الملائكة من خلال قصة لا تستند إلى القرآن أو إلى أي حديث صحيح. وفي الواقع، فإن القرآن كدَّب القصة التي كانت متداولة بين المجوس واليهود عن هذين الملكين. ووفقاً لسيل، فإن مجوس فارس "تكرروا قصة ملكين عَصِيَا أمر ربهما متشابهين في الاسم، وهما الآن معلقان من قدميهما ورأس كل منهما إلى أسفل، في أرض بابل". ويضيف سيل قائلاً: "إن لدى اليهود شيئاً مماثلاً عن الملك شامهوزاي الذي تاب بعد أن أغوته النساء وكفر عن خطيئته بتعليق نفسه بين السماء والأرض". وقد كدَّب القرآن هذه القصص وغيرها من القصص التي تنسب إلى النبي سليمان السحر في قوله تعالى: "وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِلَّا طَائِفَةٌ مُّضِلَّةٌ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ لَمَّا كَانُوا هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٠٢)). والنص هنا يحمل هذا المعنى. فبدلاً من اتباع كلمة الله، اتبع اليهود السحر الذي نسبوه إلى سليمان والملكين في بابل. وقد برأ الله سليمان من السحر في كتابه العزيز كما جاء فيه أيضاً أن قصة الملكين مختلفة لا أساس لها من الصحة. ويؤمن جميع المفسرين التفات بنفس الرأي الذي ورد في النص القرآني. والحديث الذي تم الاستشهاد به لتعزيز الرأي الآخر لم يرد في الصحاح الستة، وإنما ورد فقط في مسند الإمام أحمد الذي يحتوي على كثير من الروايات غير الصحيحة. علاوة على

^٥ "وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوَالَاءِ مَقْطُوعٌ مُّضْبِحِينَ" (سورة الحجر (١٥): الآية رقم (٦٦)).

ذلك، لا يمكن قبول أي شيء يتعارض مع المبادئ التي تم إرساؤها في القرآن على أساس ذلك السند الضعيف. وقد انتقد المفسرون بالفعل الرواية المزعومة بأنها فاسدة مردودة (التفسير الكبير للرازي). وقد ذكر أحد المفسرين الثقات الآخرين أنه ما من شيء في هذه القصة يمكن رفعه إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ويصفها بأنها خرافات (روح المعاني للألوسي). وعليه، لا يمكن أن نتخذ قصة هاروت وماروت المزعومة، التي كذبها القرآن والتي لا تستند إلى أي حديث صحيح، أساساً لمعارضة المبدأ الذي تم إرساؤه في القرآن والقاتل بأن الملائكة لا يمكن رؤيتهم للعيان.

طبيعة الملائكة

رغم أن الملائكة يوصفون بأنهم مخلوقات، فإن الله لم يهبهم القدرة على الاختيار التي وهبها للبشر؛ وفي هذا الصدد، يمكن القول بالفعل إن الملائكة يشتركون مع قوى الطبيعة في الصفات أكثر منهم مع الإنسان. ووظيفتهم هي الطاعة وهم معصومون من المعصية. وقد جاء في القرآن في عبارات واضحة قوله تعالى: "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" (سورة التحريم (٦٦): الآية رقم (٦))؛ مما يثبت أيضاً أن قصة هاروت وماروت، التي تنسب إلى الملائكة صفة المعصية، ليس لها أساس من الصحة. وبما أن الله وهب الإنسان الإرادة في حين لم يهبها للملك، فإن للإنسان مرتبة أعلى من الملك؛ ومما يدل على علو مرتبته أيضاً أن الملائكة أمروا بأن يسجدوا لآدم (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٣٤)).

نزول الملك على النبي (ص)

من الصحيح أنه ورد في القرآن أن الملك جبريل نزل بالوحي الإلهي على النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولكن، كما سبق أن ذكرنا آنفاً، كان النبي الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) يتلقى الوحي بالحواس الروحانية ومن ثم لم يرَ جبريل بالعين المادية. وكان الملك يأتيه (صلى الله عليه وسلم) أحياناً في صورة بشر؛ وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يسمع أحياناً كلمات الوحي بنفس قوة صلصلة الجرس؛ ورغم ذلك لم يكن الجالسون بجواره يرون الملك أو يسمعون كلمات الوحي، رغم إدراكهم التام لما يحدث له (صلى الله عليه وسلم) من تغيير. وقد رويت عدة وقائع كان النبي (صلى الله عليه وسلم) فيها يتلقى الوحي أثناء جلوسه بين الصحابة (رضي الله عنهم)، ومع ذلك لم يرَ أي من الصحابة قط الملك أو حتى سمع صوته، وحتى عندما كان جبريل يأتيه في أوقات أخرى، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يراه دائماً بالعين الروحانية. وقد كانت السيدة عائشة (رضي الله عنها) واضحة في هذه النقطة. حيث يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله لها

ذات مرة: "يا عائشةُ هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامُ فَقَالَتْ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ تَرَى مَا لَا أَرَى" (البخاري ٥٩: ٦). مما يدل على أنه حتى السيدة عائشة (رضي الله عنها) لم تر قط جبريل، سواء وقت نزوله بالوحي أو في أوقات أخرى.

ورغم ذلك، هناك عدة أحداث متفرقة، رويت في بعض الأحاديث، استنتج منها أن هناك أشخاصاً آخرين بالإضافة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) رأوا جبريل، ولكن مما سبق ذكره، يتضح لنا أنهم إما رأوه في كشف ومن ثم رأوه بالحواس الروحانية، أو أن هناك سوء فهم في رواية الحادثة. فعلى سبيل المثال، يروى أن رجلاً لا يعرفه أحد جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) أثناء جلوسه مع الصحابة وسأله أسئلة عن الإيمان والإسلام؛ وعندما انصرف، قال النبي (صلى الله عليه وسلم) إنه جبريل جاء يعلمهم دينهم (البخاري ٢: ٣٧). ولكن ليس من المؤكد ما إذا كان النبي (صلوات الله وسلامه عليه) يقصد أن الرجل الذي طرح عليه الأسئلة هو جبريل أم أن جبريل هو الذي لقنه الإجابات التي أعطاها صلى الله عليه وسلم لذلك الرجل الذي لا يعرفه أحد. ويتفق التفسير الثاني لقوله صلى الله عليه وسلم مع المبدأ الذي تم إرساؤه والفاعل بأنه لا يمكن رؤية الملك بالعين المادية وكذلك مع الغالبية العظمى للأحداث الأخرى التي كان فيها جبريل يأتي النبي (صلوات الله وسلامه عليه) ويراه صلى الله عليه وسلم وحده دون أي من الحاضرين في ذلك الوقت. ومن المحتمل أيضاً أن القلة التي كانت موجودة مع النبي (صلى الله عليه وسلم) اشتركت معه فيما رآه من كشف ورأت جبريل بالعين الروحانية.

وهناك واقعتان أخريان يبدو أن هناك سوء فهم بشأنهما. الأولى هي واقعة أم سلمة، زوجة النبي (صلى الله عليه وسلم). فيروى أن شخصاً كان يحدث النبي (صلى الله عليه وسلم) وحسبته أم سلمة دحية الكلبي. وبعد ذلك، سمعت خطبة النبي (صلى الله عليه وسلم) التي فهمت منها أنه كان جبريل (البخاري ٦٦: ١). وفي هذه الواقعة، يبدو واضحاً أن هناك سوء فهم. حيث إن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يخبر أم سلمة أو أي شخص آخر أن جبريل هو الذي كان يحدثه في حضور أم سلمة. فقد كان انطباعها الأول أنه دحية وعندما أبدت ذلك الرأي للنبي (صلى الله عليه وسلم)، لم يعارضها، مما يدل على أنها صائبة. وبعد ذلك، أعطتها بعض الكلمات التي وردت في الخطبة انطباعاً أنه جبريل، ولكنها لم تعرب قط عن ذلك الرأي للنبي (صلى الله عليه وسلم)، ومن ثم، لا يمكن قبول انطباعها الثاني في ضوء أنه عندما كان جبريل يظهر للنبي (صلى الله عليه وسلم)، سواء كان ينزل بالوحي أم لا، لم يكن يراه أحد سوى النبي (صلوات الله وسلامه عليه) وكان يراه أيضاً بالنور الداخلي. أما الواقعة الثانية فهي واقعة دؤنثا ابن سعد يروى فيها أن السيدة عائشة (رضي الله عنها) رأت جبريل.^٦

^٦ الإصابة في تمييز الصحابة، الجزء رقم (٨)، ص. ١٤٠.

ولكن لا يمكن قبول هذه الواقعة لأنه، وفقاً للحديث الذي تم الاستشهاد به سلفاً من صحيح البخاري، فإن السيدة عائشة نفسها أخبرت النبي (صلى الله عليه وسلم) أنها لا ترى الملك الذي يراه.

الوظائف المكلف بها الملائكة

ورد في القرآن أن للملائكة بوجه عام علاقة بالحالة الروحانية للعبد. فقد كان الملك، الذي اسمه جبريل، هو الذي نزل بالوحي على النبي (صلى الله عليه وسلم) (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٩٧)؛ سورة الشعراء (٢٦): الأيتان رقما (١٩٣) و (١٩٤) وعلى الأنبياء من قبله (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٦٣)). وورد أيضاً أن نفس الملك هو الذي كلفه الله بتأييد الأنبياء (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٨٧) والمؤمنين (سورة المجادلة (٥٨): الآية رقم (٢٢)). ورغم أنه ورد أن الملائكة بوجه عام تنتزل على المؤمنين وتنزل السكينة والطمأنينة في قلوبهم (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (٣٠))، فإنهم أيضاً وسطاء الله المكلفون بالنزول بالوحي على أولئك العباد الذين ليسوا أنبياء، كما في حالة زكريا (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٣٩)) والسيدة مريم (سورة آل عمران (٣): الآيات أرقام (٤٢-٤٤)). كما أرسل الله الملائكة لنصرة المؤمنين على أعدائهم (سورة آل عمران (٣): الأيتان رقما (١٢٣) و (١٢٤)؛ سورة الأنفال (٨): الآية رقم (١٢))؛ وهم يصلون على النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٥٦)) وعلى المؤمنين (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٤٣))؛ وهم يستغفرون للعباد جميعاً، مؤمنين وكفاراً (سورة الشورى (٤٢): الآية رقم (٥))؛ وهم يتوفون المؤمنين (سورة النحل (١٦): الآية رقم (٣٢)) وكذلك الكفار (سورة النساء (٤): الآية رقم (٩٧)؛ سورة النحل (١٦): الآية رقم (٢٨))؛ وهم يكتبون أعمال العباد (سورة الانفطار (٨٢): الآيات أرقام (١٠-١٢))؛ وسوف يشفعون للعباد يوم القيامة (سورة النجم (٥٣): الآية رقم (٢٦)). وليست هناك إشارة واضحة إلى وظيفة الملائكة في العالم المادي إلا إذا اعتبر التوفي وقبض الأرواح كذلك، ولكنني أصنفها على أنها وظيفة روحانية لأن الموت يدخل المؤمنين والكفار على حد سواء في حياة جديدة. وفي هذا الصدد، يمكن أن نضيف أنه ورد في الحديث أن هناك ملكاً موكلاً بالأرحام، أي ملكاً موكلاً على كل جنين عندما يتحرك في بطن أمه (البخاري ٥٩: ٦). ورغم ذلك، وردت في القرآن آيات تدل على أن للملائكة علاقة بالعالم المادي. وأهم هذه الآيات هي تلك التي تتحدث عن خلق الإنسان (آدم). فعندما أراد الله خلق الإنسان، أبلغ الملائكة بذلك (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٣٠)؛ سورة الحجر (١٥): الآية رقم (٢٨)؛ سورة ص (٣٨): الآية رقم (٧١)). مما يدل على وجود الملائكة قبل خلق الإنسان ومن ثم لهم حتماً علاقة من نوع ما بالعالم المادي والقوى التي أدت إلى خلق الإنسان. ولو لم يعتبر الملائكة وسطاء الله المكلفين بتنفيذ إرادته، لما كان هناك معنى لإبلاغهم بإرادة الله في خلق الإنسان. ومن ثم، تقودنا

هذه الآيات لاستنتاج أن قوانين الطبيعة يتم التعبير عنها من خلال الملائكة. وبسبب هذه الوظيفة التي كلفهم بها الله، يطلق على الملائكة أنهم رسل (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٧٥)؛ سورة فاطر (٣٥): الآية رقم (١)). والتعبير عن الإرادة الإلهية هو رسالة إلهية والملائكة بصفتهم حملة تلك الرسالة ينفذونها. ويقودنا وصفهم بأنهم حملة العرش الإلهي (سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٧)؛ سورة الحاقة (٦٩): الآية رقم (١٧)) إلى نفس الاستنتاج لأن كلمة العرش، كما سبق أن ذكرنا، ترمز إلى سيطرة الله عز وجل على الكون، والملائكة، حملة ذلك العرش، هم في الواقع الوسطاء الذين يتم من خلالهم ممارسة تلك السيطرة.

ورغم ذلك، تعلّق أهمية أكبر بكثير على الوظيفة المكلف بها الملائكة في العالم الروحاني، لأن القرآن يُعنى في المقام الأول بالتطور الروحاني للعبد. وقصارى القول، فإن الوظيفة المكلف بها الملك في العالم الروحاني لا تختلف عن وظيفته في العالم المادي - أي القيام بدور الوسيط المكلف بتنفيذ الإرادة الإلهية التي تتمثل، في العالم المادي، في المساعدة في تطور الخليقة وفي العالم الروحاني في المساعدة في تطور الإنسان. ووفقاً لتعاليم الإسلام، فإن للملك صلة وثيقة بحياة العبد منذ مولده، بل ومنذ وجوده في رحم أمه، حتى وفاته، وحتى بعد الوفاة تكون له صلة وثيقة بالتطور الروحاني للعبد في الجنة وعلاج الأمراض الروحانية، التي أصابته، في جهنم. ويمكن بوجه عام تصنيف الوظائف المختلفة المكلف بها الملك فيما يتعلق بالحياة الروحانية للعبد إلى سبعة أنواع تذكر بالتفصيل أدناه.

الملائكة وسطاء الله المكلفون بالنزول بالوحي

تتمثل أهم وأبرز وظيفة مكلف بها الملك، في العالم الروحاني، في النزول بالوحي الإلهي على الأنبياء أو تبليغهم الرسائل الإلهية. حيث لا يرى النبي الملك فحسب وإنما أيضاً يسمع صوته ومن ثم يصبح الملك، بالنسبة له، واقعاً. وقد ظلت هذه هي تجربة البشرية جمعاء في سائر العصور. وبما أن الملك مخلوق روحاني غير مادي، فإن النبي يراه أحياناً في صورة بشر وأحياناً في صور أخرى. وعلى ذلك، كان الملك جبريل كثيراً ما يظهر للنبي (صلى الله عليه وسلم) في صورة بشر، ولكنه كان يراه أحياناً "في صورته" وقال عنه إنه "سأدّ ما بيّن الأُفق" (البخاري ٥٩: ٧). ولم تذكر طبيعة تلك الصورة وربما لا يمكن وصفها؛ ولا يمكن أن تتركها سوى العين الروحانية. وذات مرة، رآه (صلى الله عليه وسلم) له ستمائة جناح (البخاري ٥٩: ٧)، مما يرمز بالتأكيد إلى قوته الهائلة. ومرة أخرى، رآه (صلى الله عليه وسلم) في سحابة (البخاري ٥٩: ٦)، وربما كانت السحابة نفسها جزءاً من الكشف.

ووفقاً لما ورد في القرآن، فإن الملك الذي نزل بالوحي على النبي (صلى الله عليه وسلم) يعرف باسم جبريل (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٩٨)). والصيغة العربية هي جبريل، التي قال عكرمة^٧ إنها مكونة من كلمة جبر بمعنى عبد وإيل التي تعني الله (سورة البقرة (٢): ٩٧، البخاري (٦٥)). كما يشار في القرآن أيضاً إلى جبريل باسم الروح الأمين (سورة الشعراء (٢٦): الآيتان رقما (١٩٣) و(١٩٤)) واسم روح القدس (سورة النحل (١٦): الآية رقم (١٠٢)). وقد ورد في كل هذه المواضع أن جبريل أو الروح الأمين أو روح القدس نزل بالقرآن على النبي (صلى الله عليه وسلم). وقد ورد في الكتاب العزيز أنه قد أُوحِيَ إلى الأنبياء من قبله على النحو الذي أُوحِيَ به إليه (صلى الله عليه وسلم) (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٦٣)). وفي الحديث، يشار إلى جبريل باسم الناموس الأكبر ويذكر أن نفس الناموس هو الذي نزل الله به على موسى (البخاري ١: ١). كما يطلق على جبريل أيضاً أنه الرسول الذي كلم الله أنبياءه من خلاله (سورة الشورى (٤٢): الآية رقم (٥١)).

وبينما ورد في القرآن أن جبريل نزل بالوحي على الأنبياء، ورد أيضاً أن الملائكة بوجه عام تنزل بالوحي على عباد الله الصالحين، كما جاء في قوله تعالى: "يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (٢)). كما جاء أيضاً في قوله تعالى: "رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ" (سورة غافر (٤٠): الآية رقم (١٥)). وكل هذه نصوص قرآنية عامة؛ وفي حالة السيدة مريم التي لم تكن بالتأكيد من الأنبياء، ورد أيضاً أن الملائكة يحملون الرسالات الإلهية، كما جاء في قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٤٢))؛ وكما جاء أيضاً في قوله تعالى: "إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٤٥)). وكذلك أيضاً في حالة زكريا، والد يحيى المعمد: "فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِيحْيَى" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٣٩)). وعن المؤمنين بوجه عام، قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ" (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (٣٠)).

الملائكة وسطاء الله المكلفون بتأييد المؤمنين

تتمثل الوظيفة الثانية التي كلف الله بها الملائكة، كما نزل في القرآن، في تأييد عباد الله الصالحين، والأنبياء وغيرهم وإنزال السكينة والطمأنينة في قلوبهم في المحن والشدائد. وفي هذا

^٧ ذكر نفس المفسر الثقة أن كلمة ميكائيل تحمل نفس المعنى حيث تتكون من ميكا وإيل وميكا بمعنى عبد.

الصدد، يخص بالذكر المسيح عيسى بن مريم بسبب مزاعم اليهود الخطيرة ضده. فقد ورد في ثلاثة مواضع^٨ في القرآن أن الله عز وجل أيد المسيح عيسى بن مريم بروح القدس الذي هو، كما سبق أن ذكرنا، اسم آخر لجبريل، كما ورد في القرآن.^٩ كما ورد أن الله أيد المؤمنين عامة بروح منه، كما ورد في قوله تعالى: "وَأُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ" (سورة المجادلة (٥٨): الآية رقم (٢٢))، حيث وردت بدلاً من روح القدس عبارة روح منه، التي تحمل نفس المعنى. وفي أحد الأحاديث، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه طلب من حسان، الشاعر، أن يهجو المشركين وأضاف قائلاً: "اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" (البخاري ٨: ٦٨). وفي رواية أخرى، روي عنه (صلى الله عليه وسلم) قوله: "وَجِبْرِيلُ مَعَكَ" (البخاري ٥٩: ٦). كما ورد في القرآن أيضاً وصف الملائكة بأنهم أولياء المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (٣١)). وبهذا المعنى، أي تأييد المؤمنين، أرسل الله الملائكة إليهم لنصرتهم في قتالهم للكفار، كما جاء في الآيات الكريمة التالية: "إِذْ تَسْتَعْجِلُونَ رَبَّكُمْ فَاَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدِّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ" (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٩))؛ "الَّذِينَ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ" (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٣))؛ "وَعَدَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَمُدَّهُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٢٥)). ويوضح القرآن نفسه السبب في إرسال الملائكة إلى المؤمنين، كما جاء في قوله تعالى: "وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٢٦))؛ وكذلك في قوله تعالى: "وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ" (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (١٠)). وبذلك، كلف الملائكة بتثبيت قلوب المؤمنين (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (١٢)). وقد كان هؤلاء الجنود الملائكة يرسلون عندما كان المسلمون يقاتلون دفاعاً عن أنفسهم ضد أعداد كبيرة، ٣٠٠ ضد ألف، ٧٠٠ ضد ٣٠٠٠، و١٥٠٠ ضد ١٥٠٠٠. وفي كل الغزوات الثلاث، نصر الله المسلمين وانقلب الكفار خائبين.^{١٣} ومن ثم، يعتبر تثبيت القلب من خلال الملائكة حقيقة تاريخية مؤكدة.

^٨ سورة البقرة (٢): الآيات رقم (٨٧) و(٢٥٣)؛ سورة المائدة (٥): الآية رقم (١١٠).

^٩ انظر سورة النحل (١٦): الآية رقم (١٠٢) وسورة البقرة (٢): الآية رقم (٩٧).

^{١٠} كان عدد جنود العدو ألفاً في غزوة بدر وثلاثة آلاف في غزوة أحد.

^{١١} كان عدد جنود العدو ألفاً في غزوة بدر وثلاثة آلاف في غزوة أحد.

^{١٢} "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلِفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ" (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (١٢)).

^{١٣} "... فَيَقْلِبُوا خَائِبِينَ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٢٦)).

الملائكة وسطاء الله المكلفون بتنفيذ أوامره بالعقاب

ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتأييد المؤمنين الوظيفة الثالثة التي كلف الله بها الملائكة - أي تنفيذ أوامر الله بعقاب الفجار لأنه في الصراع بين الأبرار والفجار، يتساوى عقاب الفجار ونصرة الأبرار. وكثيراً ما يقول أولئك الذين يسعون لمحو الحقيقة بالقوة المادية إنه لو كان هناك رب اتخذ من النبي رسولاً له ولو كانت هناك ملائكة تنصر دعوته، فلماذا لا ينزلون عليهم؟ "لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا" (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (٢١)). "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢١٠)). "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (٣٣)). "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٥٨)).

ويرد القرآن على هذه المطالب في الآيتين الكريميتين التاليتين: "وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا. الْمَلِكُ يُؤَمِّنُ الْحَقَّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا." (سورة الفرقان (٢٥): الآيتان رقما (٢٥) و(٢٦)). مما يدل على أن هناك إشارة في نزول الملائكة إلى وعيد الله بالعذاب للظالمين. وفي موضع آخر، قال تعالى: "وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنْبَازَهُمْ" (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٥٠)). "فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنْبَازَهُمْ." (سورة محمد (٤٧): الآية رقم (٢٧)). وفي وقت واحد، تم الجمع بين الطلب والإجابة عليه، كما جاء في قوله تعالى: "لَوْ مَا تَأْتَيْنَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ. مَا نُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ." (سورة الحجر (١٥): الآيتان رقما (٧) و(٨)).

شفاعة الملائكة ودعائهم للعباد

من الوظائف الأخرى الهامة التي كلف الله بها الملائكة وظيفة الشفاعة - شفاعة تشمل المؤمن والكافر على حد سواء. ولأن الله "كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٢)) ولأن رحمته "وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٥٦)) - وفي الواقع، فإن الله سبحانه خلقهم ليرحمهم (سورة هود (١١): الآية رقم (١١٩)) - يستتبع ذلك أن الملائكة، الذين هم وسطاء الله المكلفون بتنفيذ إرادته، يشملون الجميع بشفاعتهم. وقد وردت في القرآن الإشارة إلى شفاعة الملائكة مرة واحدة، كما جاء في قوله تعالى: "وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن يَخُذَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى" (سورة النجم (٥٣): الآية رقم (٢٦)). كما وردت في الحديث أيضاً إشارة إلى شفاعة الملائكة (البخاري ٩٨: ٢٤). والشفاعة بالفعل هي

التوجه بالدعاء لله لمغفرة ذنوب المذنبين يوم القيامة، ولكن جاء في كتابه العزيز أيضاً أن الملائكة يدعون للعباد حتى في الحياة الدنيا: "وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ" (سورة الشورى (٤٢): الآية رقم (٥))، وتشمل عبارة "لِمَن فِي الْأَرْضِ" المؤمن والكافر على حد سواء. ورغم أن هذا الدعاء يشمل الجميع، فإن الملائكة يكثرون منه في حالة المؤمنين، كما جاء في قوله تعالى: "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ... وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ... وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ" (سورة غافر (٤٠): الآيات أرقام (٧-٩)). وببركة دعاء الملائكة، يخرج المؤمنون بالفعل من الظلمات إلى النور، كما جاء في قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٤٣)). كما تصلي الملائكة على النبي (صلى الله عليه وسلم)، كما جاء في قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٥٦)). وهكذا، تزداد علاقة الملائكة بالعبد قوة كلما ازدادت تقواه. وبالنسبة للعباد بوجه عام، فإن الملائكة يستغفرون لهم لكي لا يصيبهم العذاب الذي توعدهم به الله على سيئاتهم؛ وبالنسبة للمؤمنين، فإن الملائكة تخرجهم من الظلمات إلى النور وبذلك تمكنهم من بلوغ الرقي الروحي؛ وبالنسبة للنبي (صلى الله عليه وسلم)، فإن الملائكة يصلون عليه وبذلك يساعدون في نشر دعوته في العالم.

الملائكة يساعدون في الرقي الروحي للإنسان

ويتضح لنا أنه، في الوظيفة الروحانية التي كلف الله بها الملك، يراد منه مساعدة الإنسان في رقيه الروحي. حيث ينزل الملك بالوحي، و فقط بمساعدة ذلك الوحي يتمكن الإنسان من إدراك معنى الحياة الروحانية والرقي بنفسه روحانياً عن طريق تنمية قدراته الداخلية. وقد أيد الملك النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي نزل من خلاله قانون الرقي الروحي، كما يؤيد المؤمنون الذين يساعدون في نقل الرسالة النبيلة إلى البشرية، وبذلك يقدم العون في إرساء قانون الرقي الروحي؛ ونفس الغاية تتحقق بعقاب أولئك الذين يسعون للقضاء على ذلك القانون ومؤيديه. وبلا شك، فإن الهدف من شفاعة الملك ودعائه حتى للكافر هو وضعه على طريق الرقي الروحي، في حين أن إخراجة للمؤمنين من الظلمات إلى النور وصلواته على النبي (صلى الله عليه وسلم) إنما يهدف إلى نشر دعوة الرقي الروحي. وهكذا، فعند تحليل كل وظيفة من الوظائف التي كلف الله بها الملك، نجد أن الهدف منها هو مساعدة الإنسان في رقيه الروحي وبلوغ مرحلة الكمال الروحي.

ومما يثبت صحة ذلك أيضاً أن هناك ملائكة حتى في الجنة والنار^{١٤}، اللتين تعتبران مكانين أو حالتين مختلفتين تماماً، حيث يتمكن الإنسان من مواصلة رقيه الروحي بعد الموت، فالجنة تفتح أمام الإنسان آفاقاً واسعة من الرقي الروحي^{١٥} في حين أن النار تظهر الإنسان من الأمراض الروحية^{١٦} التي أصاب بها نفسه بحياة المعصية التي عاشها في الدنيا.

الملائكة تدعو العباد لفضائل الأعمال

تعتبر جميع الأعمال الصالحة الفاضلة نتاج ما يدعو الملك العبد له من فعل الخير. وقد جاء في القرآن أن الملك والشيطان يقودان الإنسان إلى نهجين مختلفين في الحياة: فالملك، كما سبق أن ذكرنا، يقود الإنسان إلى حياة صالحة كريمة تهدف إلى تنمية قدراته البشرية في حين أن الشيطان، كما سنذكر فيما بعد، يقوده إلى حياة الرذيلة والفجور التي تؤدي إلى إماتة تلك القدرات. وقد جاء في كتابه العزيز أنه قد وكل بكل إنسان قرينان: قرين من الملائكة وقرين من الشياطين. ويطلق على قرينه من الملائكة اسم شهيد في حين يطلق على قرينه من الشياطين اسم سائق، كما جاء في قوله تعالى: "وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ فَبَصُرْتُمُ النَّيْمَ حَقِيدٌ." (سورة ق (٥٠): الآيتان رقم (٢١) و(٢٢)). والسائق هو الشيطان الذي يغوي الإنسان بفعل الشر ويقوده إلى حالة من الانحطاط في حين أن الشهيد هو الملك الذي يساعد الإنسان في المضي نحو غاية كريمة فاضلة. وقد جاء في الآية الكريمة أن الإنسان في غفلة عن هذا حيث يوجد على عينيه غطاء لا يمكنه من رؤية ما آل إليه حاله، ولكنه سوف يرى النتيجة بوضوح يوم القيامة. وفي الحديث، ورد أنه قد وكل بكل إنسان قرين من الملائكة وقرين من الشياطين. وهكذا، يروي مسلم عن ابن مسعود قوله: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ (أي قرينه من الجن) فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِالْخَيْرِ"^{١٧}. وفي حديث آخر، يروي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر و تكذيب بالحق و أما لمة الملك فإيعاد بالخير و تصديق بالحق"^{١٨}.

^{١٤} عن ملائكة الجنة، قال تعالى "وَالْمَلَائِكَةُ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِمْ مِّنْ كُلِّ بَابٍ" (سورة الرعد (١٣): الآية رقم (٢٣)). وعن ملائكة النار، قال تعالى: "وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً" (سورة المدثر (٧٤): الآية رقم (٣١)).

^{١٥} ذكر أن يوماً واحداً من ذلك الرقي مقداره خمسون ألف سنة: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" (سورة المعارج (٧٠): الآية رقم (٤)).

^{١٦} انظر المناقشة التي تدور حول جهنم.

^{١٧} مشكاة المصابيح ١: ٣-١؛ مسند أحمد ١، ص. ٣٨٥، ٣٩٧، ٤٠١.

^{١٨} مشكاة المصابيح ١: ٣-٢.

الملائكة المكلفون بكتابة أعمال العباد

من الوظائف الروحانية الأخرى التي كلف الله بها الملائكة، والتي تم التأكيد عليها بصفة خاصة في القرآن، كتابة حسنات وسيئات العباد. ويوصف هؤلاء الملائكة بكونهم "كِرَامًا كَاتِبِينَ"، والعبارة مأخوذة من الآية القرآنية التالية: "وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ." (سورة الانفطار (٨٢): الآيات أرقام (١٠-١٢))، وفي موضع آخر قال تعالى: "إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدًا. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ." (سورة ق (٥٠): الآيتان رقما (١٧) و(١٨)). "سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ. لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" (سورة الرعد (١٣): الآيتان رقما (١٠) و(١١)).

ويشير الحفظ في الآية السابقة إلى حفظ أعمال العباد. وبما أن الملائكة مخلوقات روحانية غير مادية، فإن حفظها للأعمال يتم أيضاً بأسلوب مختلف عن الأسلوب الذي يحفظ به الإنسان أي شيء. وفي الواقع، يتم حفظ العمل في شكل عاقبة ذلك العمل: "وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (١٣)). ومما لا شك فيه أن إلزام العبد بما طار عنه من عمل في عنقه إنما هو إلزامه بعاقبة أعماله التي يعجز عن محوها، ويقول تعالى إن هذه العاقبة سوف يجدها الإنسان في شكل كتاب مفتوح يتلقاه يوم القيامة، مما يدل على أن حفظ الملك للأعمال هو بالفعل تسجيل لعاقبة العمل.

الإيمان بالملائكة

وهكذا، ترتبط الوظائف المختلفة التي كلف الله بها الملائكة في العالم الروحاني، بطريقة أو بأخرى، إما بإيقاظ الحياة الروحانية داخل الإنسان أو برفقه وتقدمه. وهنا يكمن السبب في ضرورة اقتران الإيمان بالله بالإيمان بالملائكة، كما جاء في قوله تعالى: "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٧٧)). "آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٨٥)).

والإيمان بأي مبدأ، كما ورد في القرآن، هو في الأساس إقرار مبدأ ما كأساس للعمل. ومن ثم، يعني الإيمان بالملائكة أن هناك حياة روحانية للإنسان وأنه يجب عليه تطوير تلك الحياة بالعمل وفقاً لما تدعو إليه الملائكة من فعل الخير واستخدام القدرات التي وهبها الله إياها؛ هذا هو

السبب - رغم أن وجود الشيطان، الذي يغوي الإنسان بفعل الشر، يعتبر حقيقة شأنه شأن وجود الملك الذي يدعوه لفعل الخير - في أن القرآن يدعو إلى الإيمان بالملائكة والكفر بالطاغوت.^{١٩} إلا أن هذا لا يعني، بالطبع، أنه يجب على المرء أن ينكر وجود الشيطان. وإنما المعنى واضح تماماً: حيث إنه يجب على المرء طاعة أوامر ربه وعدم اتباع نزغات الشيطان. ومن ثم، فالإيمان بالملائكة يعني وجوب قبول كل دعوة لفعل خير - وذلك هو ما يدعو إليه الملك - لأن ذلك يؤدي إلى التطور الروحي للإنسان.

إبليس ليس من الملائكة وإنما من الجن

هناك اعتقاد خاطئ شائع، يؤمن به كثير من مشاهير الكتاب، وهو أن إبليس من الملائكة. وقد نجم الاعتقاد الخاطئ من أنه عندما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، هناك إشارة أيضاً إلى إبليس الذي أبى أن يسجد، كما جاء في قوله تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٣٤)). ومن هذه الكلمات، يتضح لنا أن إبليس كان من الكافرين وعصى أمر ربه، ومن ثم لا يمكن أن يكون من الملائكة لأنه جاء في كتابه العزيز في عبارات صريحة أن الملائكة "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ". (سورة التحريم (٦٦): الآية رقم (٦)). وفي مواضع أخرى، جاء في عبارات عديدة أن إبليس ليس من الملائكة وإنما من الجن: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ" (سورة الكهف (١٨): الآية رقم (٥٠)). والجن والملائكة نوعان مختلفان من المخلوقات، وليس هناك أي شيء مشترك بينهما في الخلق والوظائف التي كلف بها كل منهما. فالجن، كما سبق أن ذكرنا، خلق من نار في حين خلقت الملائكة من نور؛ كما نكر أيضاً أن وظيفة الجن تختلف تماماً عن الوظيفة التي كلف الله بها الملك. ومن ثم، فإنه لخطأ فادح أن ننظر إلى الجن على أنه ينتمي إلى عالم الملائكة.

^{١٩} قَمْنُ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٥٦)).

^{٢٠} أحياناً تستخدم كلمة *إلا*، التي تعني عادة فيها *عدا* والتي تستخدم للدلالة على الاستثناء، للدلالة على الاستثناء المنقطع، وهو ما كان فيه المستثنى من غير جنس المستثنى منه بحيث ينتمي الاثنان إلى جنسين. وعلى ذلك، يقولون: *جاء القوم إلا حمازاً*، التي تعني أن القوم جاءوا فيما عدا حمازاً، حيث ينتمي القوم والحمار إلى جنسين مختلفين تماماً. وبهذا المعنى بالضبط تستخدم كلمة *إلا* هنا، حيث تنتمي الملائكة وإبليس إلى جنسين مختلفين تماماً. وأحياناً يجادل البعض أنه لو لم يكن إبليس من الملائكة، لما ورد ذكره مطلقاً في الأمر الموجه إلى الملائكة بالسجود لآدم. والحقيقة هي أن الأمر الذي كان موجهاً إلى الملائكة إنما هو في الواقع أمر موجه إلى جميع المخلوقات بما في ذلك المخلوقات السفلية، أي الجن. وتدل عبارة "إِنَّ أَمْرُكَ" - التي جاءت في سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٢) في مخاطبة إبليس - على أن الأمر الذي كان موجهاً إلى المخلوقات العلوية كان يشمل ضمناً المخلوقات السفلية التي تسمى بالجن.

الجن

كلمة الجن مشتقة من الفعل جَنَّ الذي يعني غطى أو ستر أو أخفى أو وقى.^{٢١} وقد استخدمت كلمة الجن في القرآن تحديداً بمعنيين. أولاً، تستخدم الكلمة للإشارة إلى الأرواح الشريرة أو المخلوقات التي تغوي الإنسان بفعل الشر، على النقيض من الملائكة التي تدعوه لفعل الخير، وكلاهما لا يمكن رؤيته بالحواس المادية.^{٢٢} وقد جاء في القرآن أن هذه المخلوقات خلقت من نار وذكر أن وظيفتها هي إثارة نوازع الشر أو الشهوات الدنيئة في نفس الإنسان. والقرآن صريح في هاتين النقطتين. فعن خلق الجن، قال تعالى: "وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ." (سورة الحجر (١٥): الآية رقم (٢٧))؛ كما قال تعالى: "وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ." (سورة الرحمن (٥٥): الآية رقم (١٥)). ولإثبات عدم اختلاف الجن عن الشياطين، جاء في كتابه أن الشيطان قال لله عز وجل: "أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ (أي الإنسان) خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ." (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٢)). أما عن وظيفة الجن، فقد كان القرآن واضحاً أيضاً: "الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ." (سورة الناس (١١٤): الآيات أرقام (٤-٦)). كما سبق الاستشهاد بأحاديث جاء فيها أن كل إنسان وكل به قرين من الملائكة يلهمه بالأفكار الخيرة النبيلة وقرين من الجن يثير الرغبات الدنيئة داخله.

الشيطان

كثيراً ما يطرح السؤال حول العلة التي من أجلها خلق الله المخلوقات التي تقود الإنسان إلى الضلال؟ ولكن هناك سوء فهم في هذا السؤال. فالله خلق الإنسان وفي داخله نوعان من الرغبات: رغبات سامية توقظ داخله حياة روحانية أو سامية ورغبات دنيئة ترتبط بوجوده المادي؛ وفي مقابل هذين النوعين من الرغبات، هناك نوعان من المخلوقات: الملائكة والشياطين. وتعتبر الرغبات الدنيئة ضرورية للحياة المادية للإنسان، ولكنها تصبح عقبة أمام رقيه إلى الحياة السامية عندما

^{٢١} أجمع كل مؤلفي المعاجم العربية على أن الكلمة من أصل عربي بالإضافة إلى أنه قد اشتقت من نفس الجذر العديد من الكلمات المستخدمة في اللغة العربية، مثل الفعل جن الذي يعني ستر أو غطى (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (٧٦))، والاسم جنة بمعنى بستان لأن أشجاره تستر الأرض - والجنان هو القلب، لكونه مستورا عن الحاسة، والمجن والمجنة والجنة هي الترس الذي يجن صاحبه أي يستره. والجنين هو الولد ما دام في بطن أمه. ورغم ذلك، يعتبر أحد الكتاب في دائرة المعارف الإسلامية أن الكلمة مأخوذة من لغة أجنبية.

^{٢٢} ثانياً، تستخدم هذه الكلمة في القرآن للإشارة إلى الملوك العظماء أو الزعماء ذوي السلطة الذين، بما لهم من شأن عظيم وبانعزالهم عن العامة، لا يختلطون بهم ويظنون بعيدين عن الأنظار أو "محجوبين عن أعينهم". وسوف نقاش هذا الاستخدام للكلمة فيما بعد.

تتور وتخرج عن نطاق سيطرته. لذا، يجب على الإنسان أن يسيطر على هذه الرغبات. وإذا تمكن من ذلك، فإنها تصبح عوناً له على رقيه وليست عقبة أمامه. هذا هو المعنى الذي يكمن في إجابة النبي (صلى الله عليه وسلم) على الصحابة في الحديث الذي سبق الاستشهاد به عندما سأله (صلوات الله وسلامه عليه) عما إذا كان له أيضاً قرين من الجن. "قَالَ وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ". وبذلك أسلم قرين النبي (صلى الله عليه وسلم) له وبدلاً من إغوائه بفعل الشر لا يأمره إلا بالخير، أي أنه أصبح عوناً له في تطور حياته السامية.

ذلك هو المغزى الحقيقي لقصة آدم. فقد أبى إبليس في البداية أن يسجد لآدم، أي أن يصبح عوناً له على رقيه الروحي، وعقد العزم على أن يستخدم كل الوسائل الممكنة لإضلاله وإثارة الرغبات الدنيئة داخله: "لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا. وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ" (سورة النساء (٤): الآيتان رقما (١١٨) و(١١٩)). ولكنه يمكن إخضاعه بمساعدة الوحي الإلهي، كما أن الذين يتبعون ما أوحى به من ربهم لا خوف عليهم من إغواء الشيطان، كما جاء في قوله تعالى: "فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ (أوحى بها إليه) فَتَابَ عَلَيْهِ... فَأِمَّا يَا تَيْتُكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". (سورة البقرة (٢): الآيتان رقما (٣٧) و(٣٨)). وعلى ذلك، يدل وجود الشيطان على أنه، في المراحل الأولى للتطور الروحي، يجب على الإنسان التغلب على الشيطان بعدم اتباع نزغات الشر التي يوسوس بها له وأي إنسان يجاهد هذه المجاهدة من المؤكد أنه سوف يخضع الطرف الشرير؛ في حين أنه، في المراحل الأسمى، بعد السيطرة على الرغبات الدنيئة، يصبح الشيطان بالفعل عوناً للإنسان، كما قال (صلى الله عليه وسلم): "قَلَّا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ" حتى إن الشهوات الحسية تصبح عوناً للإنسان في حياته الروحانية. ودون مجاهدة الشيطان، لا يبلغ الإنسان الرقي في الحياة، وحتى في المراحل الأولى، يكون الشيطان وسيلة أساسية تساعد الإنسان على فعل الخير ما لم يختار الإنسان بالطبع اتباعه، بدلاً من مقاومته دون توان.

استخدام كلمة "جن" للإشارة إلى الإنس

لكلمة جن استخدام آخر يتمثل في الإشارة إلى نوع معين من البشر.^{٢٣} وحتى كلمة شيطان أو شياطين استخدمت في القرآن للإشارة إلى الإنس كما أن رؤوس وقادة الشر يشار إليهم مراراً

^{٢٣} يرى بعض علماء اللغة أن كلمة جن تستخدم أيضاً للإشارة إلى الملائكة، ولكن ينبغي أن يوضع في الاعتبار أن الكلمة تستخدم هذا الاستخدام بالمعنى اللغوي الدقيق لها. والمعنى اللغوي لكلمة جن هو مخلوق مستتر عن الحواس وبما أن الملائكة تعتبر أيضاً مخلوقات مستترة عن الحواس، فإنه يمكن أن يطلق عليها لفظ جن بالمعنى الدقيق للكلمة. وخلاف ذلك، ليس هناك أي شيء مشترك بين الملائكة والجن.

بلفظ "شياطين"^{٢٤}. ولكن استخدام كلمة جن عند وصف الإنس كان معترفاً به في الأدب العربي الجاهلي. فعلى سبيل المثال، يفسر قول الشاعر الجاهلي موسى بن جابر في أحد أبياته "قما نفرت جن"، الذي يعني لغوياً "ولم تفرّ جيئ"، على أنه يعني "ولم يفر رفاقي الذين كانوا مثل الجن" (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وفي هذا البيت الشعري، تفسر كلمة جن بوضوح على أنها تشير إلى الإنس. كما يقول التبريزي أيضاً إن العرب يشبهون الإنسان الحاذق البارِع في الأمور بالجني والشيطان.^{٢٥} وهناك أمثلة أخرى في الشعر الجاهلي استخدمت فيها كلمة جن للإشارة إلى الرجال العظماء أو البواسل.^{٢٦} بالإضافة إلى ذلك، يفسر مؤلفو المعجم العربية كلمة جن على أنها تعني معظم الناس (القاموس للهوري؛ وتاج العروس). ويطلق العرب على كل الغرباء لفظ جن لأنهم مستورون عن أعينهم. وبهذا المعنى، تستخدم كلمة جن في القرآن في قصة سيدنا سليمان: "وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيِّنًا يُدْهِئُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ... يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ" (سورة سبأ (٣٤): الآيتان رقم (١٢) و(١٣)). ويدل وصف الجن في هذه الآية بأنهم بناءون على أن الكلمة تشير إلى الإنس. كما يوصفون أيضاً بأنهم شياطين في سورة ص (٣٨): الآية رقم (٣٧) حيث يشار إلى أنهم بناءون وغواصون، كما يضاف أن بعضهم كانوا "مَقْرَبِينَ فِي الْأَضْفَادِ". وبالتأكيد، فإن أولئك الذين يبنون المباني ويغوصون في البحر ليسوا أرواحاً غير مرئية كما أن الأرواح غير المرئية لا يتم تقييدها بالأغلال. وإنما كان هؤلاء في الواقع غرباء أخضعهم سليمان لحكمه وأجبرهم على خدمته.^{٢٧}

وفي أحد المواضع في القرآن، يخاطب الجن والإنس بلفظ "معشر"^{٢٨}. وفي هذه الآية، يطرح على الجن والإنس السؤال التالي: "أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ". والرسل الذين ورد ذكرهم في القرآن أو السنة هم جميعاً من الإنس ولم ترد في الكتاب الكريم إشارة إلى رسول من الجن. ومن ثم، تشير كلمة الجن في هذه الحالة إما إلى غير العرب أو إلى رؤوس وقادة الشر الذين يضلون الآخرين. وفي إحدى الآيات الكريمة، قال تعالى: "لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَأَيَأْتُونَ بِمِثْلِهِ" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٨٨))، في حين أنه، في آية أخرى، وبنفس لهجة

^{٢٤} سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٤)؛ سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٧٥)؛ سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٤٨)؛ سورة الحجر (١٥): الآية رقم (١٧)؛ سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٨٢)، وغيرها من الآيات.

^{٢٥} الجزء الأول من أحد مؤلفات التبريزي، ص. ١٩٣.

^{٢٦} استشهدت بهذه الأبيات في تفسيري للقرآن، الذي نشر باللغة الأوردية، بعنوان بيان القرآن ٦: ١٢٨.

^{٢٧} وسوف يوضح هذه النقطة أيضاً إجراء مقارنة بسفر أخبار الملوك الثاني ٢: ١٨: "فجعل منهم سبعين الف حمّال وثمانين الف قطّاع على الجبل".

^{٢٨} يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذِّكُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٣٠)). المعشر هم كل جماعة أمرهم واحد (المعجم العربي - الإنجليزي للين).

التحدي بالضبط، استخدمت كلمة "شهداءكم" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣)) بدلاً من كلمة جن. ومن الواضح أن الجن الذين ورد ذكرهم في القسم الأول من سورة الجن (٧٢) هم نصارى غرباء لأنه ذكر أنهم يعتقدون عقيدة البنوة (سورة الجن (٧٢): الآيتان رقما (٣) و(٤)). وفي سورة الجن (٧٢): الآية رقم (٦)، يطلق عليهم لفظ رجال (جمع رجل)، والكلمة تستخدم للدلالة على الذكور البالغين من بني آدم فقط (لسان العرب). وفي سورة الأحقاف (٤٦) أيضاً، استخدمت كلمة جن بمعنى غرباء عندما أتى إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) نفر من الجن واستمعوا للقرآن وآمنوا به،^{٢٩} لأن جميع التعاليم التي وردت في القرآن موجهة للإنس ولا يوجد أي منها للجن. ومن الواضح أنهم كان نفرًا من يهود نصيبين كما ورد في الروايات، وقد جاء في القرآن أنهم كانوا يؤمنون بموسى.^{٣٠} وتعليقاً على هذه الواقعة، استشهد ابن كثير بعدة روايات من مسند الإمام أحمد تثبت الحقائق التالية. لقي النبي (صلى الله عليه وسلم) نفرًا من الجن بنخلة عندما كان عائداً من الطائف في السنة العاشرة للعودة. ويروى أنهم كانوا من نينوى. ومن ناحية أخرى، هناك قصة مؤكدة يروى فيها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) في طريق العودة من الطائف استراح في بستان حيث لقي نصرانياً من أهل نينوى؛ واستمع الرجل إلى رسالته (صلى الله عليه وسلم) وآمن به. وربما كان لهذا الرجل رفاق آخرون حدثهم عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وأتوا إليه (صلوات الله وسلامه عليه) بعد ذلك. ويروى أن نفرًا آخر من الجن انتظره (صلى الله عليه وسلم) عندما كان بمكة ويروى أنه (صلى الله عليه وسلم) خرج من مكة ليلاً حتى بلغ مكاناً منعزلاً وقضى ليلة كاملة معهم. ويروى أنه في الصباح شوهدت آثارهم وآثار النيران التي أوقدها ليلاً. وعندما حان موعد الصلاة وصلى النبي (صلى الله عليه وسلم) في صحبة ابن مسعود، الراوي، أتى اثنان منهم وانضما لهما في الصلاة. ويعتقد أنهم يهود نصيبين وكان عددهم سبعة (ابن كثير، سورة الأحقاف (٤٦): الآية رقم (٢٩)). ومن الواضح أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ذهب لرؤيتهم خارج مكة لأن قريشاً كانت ستمنع لقاءه بهم وكانت تسيء معاملته من يأتي للقائه (صلى الله عليه وسلم). وعلى أي حال، لم يتحدث القرآن والسنة عن الجن كما هو شائع في خيال العامة أنهم يتدخلون في شؤون الناس أو يسيطرون على قوى الطبيعة أو يتمثلون في صورة بشر أو في أي صورة أخرى أو يلبسون الرجال أو النساء ويصيبونهم بأمراض معينة.^{٣١}

^{٢٩} وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذْرِبِينَ. (سورة الأحقاف (٤٦): الآية رقم (٢٩)).

^{٣٠} قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ. (سورة الأحقاف (٤٦): الآية رقم (٣٠)).

^{٣١} ارتبطت هذه الأفكار لسوء الحظ بذكر الشياطين في الأناجيل. وتعتبر قصص إخراج المسيح للشياطين من أجساد البشر أكثر عجباً من قصص الجنيات: "وكانت شياطين أيضاً تخرج من كثيرين وهي تصرخ وتقول أنت المسيح ابن الله" (لوقا ٤: ٤١). وقد أخرج الشيطان من جسد رجل أخرس وبدأ يتكلم (متى ٩: ٣٣)؛ وقد كانت لدى امرأة

الجن لا يعلم الغيب

هناك سوء فهم آخر شائع بشأن الشياطين أو الجن ينبغي إزالته. إذ يُظن أنه وفقاً لتعاليم القرآن، فإن الشياطين يعلمون أسرار الغيب ويسترقون السمع للوحي الإلهي الذي يبلغ به الملائكة. إلا أن هذا اعتقاد خاطئ لدى العرب أخذوه عن اليهود^{٣٣} أو أهل فارس وكذّبه القرآن بعبارات جازمة. وهكذا، قال تعالى عن تنزيل الكتاب الكريم: "وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ... وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِتْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُولُونَ." (سورة الشعراء (٢٦): الآيات أرقام (١٩٢-٢١٢)). وفي ضوء هذه الكلمات، لا يمكن الزعم بأن القرآن يؤيد المبدأ القائل بأن الشياطين يعلمون الغيب. حيث أوثمن جبريل، الذي يسمى في الآية بالروح الأمين، على الرسالة الإلهية مما يدل على أنه أمين تماماً على الرسالة؛ وقد نزل بهذه الرسالة مباشرة على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم). وقد كذب القرآن بشدة الفكرة القائلة بأن الشياطين عندما كانت تسترق السمع في السماء سمعت القرآن؛ لأنهم لم يصعدوا إلى السماء كما يُعتقد لدى عموم الناس ولم ينزلوا إلى الأرض بأسرار الغيب؛ ولا ينبغي لهم ولا يستطيعون صعود السماء والنزول بالوحي؛ إنهم حتى عن سماعه معزولون، وبالتالي فإن الاعتقاد بأن الشياطين تسترق السمع لأسرار الغيب لا أساس له من الصحة. وفي آية أخرى، قال تعالى: "أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ (إلى الغيب) فَلَيَأْتِيَنَّ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ." (سورة الطور (٥٢): الآية رقم (٣٨)). وفي هذه الآية أيضاً، يكذب القرآن في عبارات صريحة الادعاء الناجم عن الاعتقاد الخاطئ بأن الشياطين يمكنهم أن يصعدوا السماء ويقعدوا منها لمقاعد للسمع حيث يستمعون لأسرار الغيب. ورغم ذلك، جاء في آية ثالثة أن الله لا يظهر غيبه إلا للرسول ولا يعلمه أحد غيرهم: "لَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا." (سورة الجن (٧٢): الآيتان رقما (٢٦) و(٢٧))

كنعانية ابنة تملك منها الشيطان ورفض عيسى في بادئ الأمر إخراجه من جسدها لأنها ليست من بني إسرائيل (متى ١٥ : ٢٢-٢٤)؛ وخرج من جسد مريم المجدلية سبع شياطين (لوقا ٨ : ٢)؛ كان عدد الشياطين التي خرجت من جسد رجلين يكفي قطيعاً كاملاً من الخنازير: "ومضوا إلى قطيع الخنازير. وإذا قطيع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف إلى البحر ومات في المياه." (متى ٨ : ٣٢). وقد منحت هذه القدرة على إخراج الشياطين لكل المؤمنين بعباسي (مرقس ١٦ : ١٧).

^{٣٣} وفقاً لتعاليم التلمود، فإن الملائكة خلقت من نار وكلفها الله بعدة وظائف... والجن طبقة وسط بين الملائكة والإنس... ويعلمون الغيب لأنهم يسترقون السمع لأسرار الغيب" (كتاب الدين الإسلامي لكلين، ص. ٦٨). في حين تتعارض تعاليم القرآن مع هذا؛ فليست الملائكة وإنما الجن هم الذين خلقوا من نار. والجن لا يعتبرون طبقة وسطاً بين الملائكة والإنس؛ ولإنسان مرتبة أعلى منهم جميعاً، بل أعلى من الملائكة؛ والجن مخلوقات غير مرئية من أدنى مرتبة ووظيفتهم الوحيدة هي الوسوسة بالشر في قلوب الناس كما أنهم لا يعلمون الغيب.

ويبدو أن الفكرة القائلة بأن الشياطين يسترقون السمع لأسرار الغيب نشأت من سوء فهم كلمات معينة، وخاصة كلمتي "شيطان" و"رجم". فمن المعترف به أن كلمة شيطان، كما سبق أن ذكرنا، استخدمت للإشارة إلى رؤوس الشر المعارضين للنبي (صلى الله عليه وسلم)، كما في حالة المنافقين: "وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٤)). وقد أجمع كل المفسرين على أن المقصود هنا بكلمة "شياطينهم" هم رؤوسهم وقادتهم في الكفر.^{٣٣} وقد نبعت معارضة النبي (صلى الله عليه وسلم) بصفة رئيسية من مصدرين؛ هما تحديداً: رؤوس الكفر والكهان (جمع كاهن). ولأن ظهور الدين الإسلامي البسيط كان إيذاناً بالقضاء على جميع الخرافات ولأن منصب الكاهن كان من أكبر الخرافات التي استعبدت العقل العربي حتى الآن، الذي يميل للخرافات في جميع الأوقات، فقد حارب الكهان النبي (صلى الله عليه وسلم) بكل ما أوتوا من قوة وعزم. وكانوا يخدعون الناس بنبوءاتهم وزعمهم التنبؤ بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) سوف يهلك عن قريب. وشأنهم شأن رؤوس الكفر الذين ورد ذكرهم في الآية التي سبق الاستشهاد بها، يوصف هؤلاء الكهان في القرآن أيضاً بأنهم شياطين لأنهم كانوا يقودون الناس إلى طرق المعصية في الحياة.

والكلمة الأخرى التي أسيء فهم معناها هي كلمة رجم (التي تستخدم في مجال وصف هؤلاء الشياطين أو الكهان). فكلمة رجم تعني، بلا شك، الرمي بالرجام، ولكنها تستخدم أيضاً للإشارة إلى الرمي بالظن أو التوهم أو الشتم أو الطرد (المفردات في غريب القرآن). وقد جاءت الكلمة بمعنى ظن في سورة الكهف (١٨): الآية رقم (٢٢) - "رَجِمًا بِالْغَيْبِ" - وبمعنى شتم في سورة مريم (١٩): الآية رقم (٤٦) والتي تفسر فيها كلمة "الرَّجْمَانُ" على أنها تعني "لأقولن فيك ما تكره" (المفردات في غريب القرآن). ويضيف مؤلف معجم مفردات القرآن قائلاً إن الشيطان يوصف بأنه رجم لأنه "مطروود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى". (المفردات في غريب القرآن).

وقد جاءت الكلمتان اللتان تم تفسير معناهما أعلاه في الآية الكريمة التالية: "وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ". وفي ضوء ما سبق ذكره، يتضح لنا أن معنى عبارة "رجوماً للشياطين" هو ظنوناً للشياطين أو الكهان، أي المنجمين. وقد أقر أفضل المفسرين الثقات المعنى التالي للعبارة: "وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطين الإنس وهم المنجمون" (المعجم العربي الإنجليزي للين، تفسير البيضاوي، تاج العروس). وذكر مفسر آخر: "وقيل معنى الآية وجعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجمون" (روح المعاني للأوسى). وقد أعطى ابن الأثير التفسير التالي للعبارة: "وقيل أراد بالرجوم الظنون التي تُحزَر وتُظَنُّ.... وما يُعانيه المُتَّجِمُونَ

^{٣٣} جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، الجزء الأول، ص. ٩٩؛ تفسير البيضاوي؛ التفسير الكبير للرازي، وتفسير أخرى.

من الحَدْس والظَّن والحُكْم على اتِّصال النجوم وافتراقها، وإيَّاهم عَنَى بالشیاطين لأنهم شياطين الإِثْس. "وقد جاء في بعض الأحاديث حمن أقتبس بآباً من علم النجوم... فقد أقتبس شُعْبَة من السِّحْر، المُتَّجِم كاهنٌ، والكاهن ساحرٌ، والساحرُ كافرٌ > فجعل المُتَّجِم الذي يتعلَّم النجوم للحُكْم بها (على المستقبل) وعليها، ويُشَبُّ التَّأثيراتِ من الخير والشر إليها كافرًا" (النهاية في غريب الحديث والأثر - مادة: رجم). وعلى ذلك، هناك خطأ في تفسير الآية القرآنية الواضحة التي تدين بالفعل شعوذة الكهان على أنها تعني أن النجوم استخدمت رجومًا للشياطين التي كانت تصعد إلى السماء. وقد وردت إشارة إلى هذا الموضوع في موضعين آخرين في القرآن: "إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ. لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ". (سورة الصافات (٣٧): الآيات أرقام (٦-١٠)). "وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ". (سورة الحجر (١٥): الآيات أرقام (١٦-١٨)).^{٢٤} وفي هاتين المرتين، ذكر بعبارات قوية مراراً ذلك المبدأ القائل بأن الكهان لا يصلون إلى السماوات أو النجوم التي يبنون عليها ظنونهم وحدهم؛ إنهم هم الذين يوصفون في هذه الآيات بأنهم شياطين مردة أو مرجومون - "لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى". ولكن جاء في الآيات أيضاً أنهم "يُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُخُورًا"، أي أن أولياءهم لا يقدرتهم ويلامون لأن ما زعموه ثبت عدم صحته، ومن ثم يعيشون في عذاب دائم مستمر. ثم يذكر بعد ذلك استثناء: "إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ". ومن الواضح أن خطفة الكهان، بعد أن ذكر أنهم يقذفون من كل جانب دحوراً، لا تعني سوى أنه أحياناً يثبت صحة حدسهم. وقد تم التعبير عن نفس الفكرة في الآية الثانية بعبارة "مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ". ولا يقصد بالطبع أن أمور الغيب كانت تبحث بصوت مسموع في مكان ما في السماء وأن الشيطان كان مختبئاً فسمعها. فالوحي الإلهي، كما سبق أن ذكرنا استناداً إلى القرآن، أوتمن عليه الروح الأمين، أي جبريل، الذي بدوره نزل به على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) - ومن ثم، لا مجال لاستراق السمع في هذه العملية.^{٢٥} كما أثبت أيضاً استناداً إلى الكتاب أن الشياطين

^{٢٤} كلمة شهاب تعني فقط شعلة من نار (المعجم العربي الإنجليزي للين، قارن الآية بالآية رقم (٧) في سورة النمل (٢٧) حيث ذهب موسى ليأتي بشهاب)؛ في حين تعني كلمة ثاقب أنه يقبب الليل أو مضيء (المعجم العربي - الإنجليزي للين) - والمعنى هو أن الكاهن لا يحصل إلا على فرصة واحدة، ولكن سرعان ما يتبعها شهاب يبدد الظلمات التي قاد إليها الناس.

^{٢٥} لا يمكن أن يؤخذ الحديث التالي بمعناه الحرفي نظراً لتعارض أجزاء معينة منه مع القرآن. يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله إنه عندما يريد الله إرسال الوحي، تهتز السماء وتضرب الملائكة بأجنحتها خضعاناً. ويكون جبريل أول من يرفع رأسه ويكشف الله عن رغبته. ثم تسأل الملائكة بعد ذلك جبريل عما قال الله فيجب: الحق وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقق السمع. ويدرك الشهاب البعض فيحرقهم، ولكن البعض الآخر ينجح في أن يرمي بها إلى الآخرين قبل أن يحرقهم الشهاب فيلقون بها إلى الكاهن على الأرض. (٣٤: ١؛ البخاري ٦٥). وهناك روايات عديدة لهذا الحديث، ولكنني أخذت أبرز النقاط الواردة فيها جميعاً. وبينما جاء في عدد كبير من الروايات، والقرآن أيضاً صريح في هذه النقطة، أن الوحي ينزل به جبريل مباشرة على النبي (صلى الله عليه وسلم)، دون أي توسط،

لا تستطيع الصعود إلى السماء ولا تعلم الغيب. ومن ثم، فإن القول بأن الشياطين تسترق السمع لأسرار الغيب يخالف كل هذه المبادئ التي تم إرساؤها بوضوح في القرآن. ومن الواضح أنه يشار في الآيتين إلى كهان الجزيرة العربية. ولا تشير خطفة الكاهن في بعض الأحيان واستراقه السمع إلا إلى تحقق حدسه أحياناً في حين يشير الشهاب المبين الذي يتبعه إلى الفشل والإحباط الذي يأتي بعد ذلك نتيجة لظهور الإسلام الذي يبطل مفعول مزاعم الكاهن. وقد جاء في القرآن وصف الحقائق الروحانية على أساس القوانين المادية السائدة في العالم؛ ومن الصحيح أن نور الإسلام بدد كليله ظلمات الخرافات - وقد كان منصب الكاهن بلا شك خرافة - بحيث يمكن القول بالفعل إنه ثبت أن الإسلام شهاب من نار أحرق خرافات العرافة والكهانة.

فإن هذه الرواية ورد فيها أن جبريل يبلغ الملائكة الآخرين بالوحي وأن هذا يتم بطريقة تسمح للشياطين بسماعه، في حين أنه، كما جاء في القرآن، فإن الشياطين "عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُولُونَ". (سورة الشعراء (٢٦): الآية رقم (٢١٢)). ومن ثم، يتعارض الحديث مع القرآن والأحاديث الأخرى ولا يمكن قبوله بالكامل. وهناك بلا شك سوء فهم ما في سلسلة السند التي تسلت إليها وجهة النظر الخاطئة لراو ما.

الفصل الرابع

الكتب المنزلة

الإشارة إلى الكتب المنزلة بثلاثة أسماء

يشار في القرآن إلى الكتب المنزلة من عند الله بثلاثة أسماء. الاسم الأول هو كِتَاب (والجمع كُتُب).^١ وتستخدم كلمة الكِتَاب للإشارة إلى القرآن نفسه، وسوره، وأي من الكتب المنزلة السابقة (سورة الرعد (١٣): الآية رقم (٤٣))، وكل الكتب المنزلة السابقة مجتمعة (سورة البينة (٩٨): الآية رقم (٣))، وكل الكتب المنزلة بما في ذلك القرآن (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١١٩)). ويشار أيضاً إلى الكتب المنزلة بلفظ "صُحُف" (جمع صحيفَة)^٢ كما جاء في سورة الأعلى (٨٧): الآيتين رقمي (١٨) و(١٩)، حيث يشار بذلك الاسم إلى جميع الكتب السابقة، وخاصة كتب موسى وإبراهيم، أو كما جاء في سورة عبس (٨٠): الآية رقم (١٣) وفي سورة البينة (٩٨): الآية رقم (٢) حيث يشار إلى القرآن نفسه بلفظ "صُحُف". والاسم الثالث الذي يشار به إلى الكتب المنزلة هو زُبُر (جمع زُبُور)^٣، كما جاء في سورة الشعراء (٢٦): الآية رقم (١٩٦)، وسورة النساء (٤): الآية رقم (١٦٣)، وآيات أخرى. ولم ترد صيغة المفرد "زُبُور" في القرآن سوى ثلاث مرات، مرتين للإشارة إلى الكتاب الذي نُزِّل على داود: "وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٦٣))؛ سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٥٥)؛ وفي أحد المواضع، يتم الاستشهاد بنص مقتبس من الزبور: "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (١٠٥)).

^١ جاء في سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٨٥) وفي مواضع أخرى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين آمنوا بكتبه. وكلمة كُتُب هي جمع كِتَاب المشتقة من الجذر كَتَبَ الذي يعني حَطَّ أو ضم الحروف بعضها إلى بعض والكِتَاب هو كتابة كاملة في حد ذاتها. وعلى ذلك، يمكن أن يطلق على الرسالة لفظ كِتَاب، وهو المعنى الذي وردت به الكلمة في سورة النمل (٢٧): الآيتين رقمي (٢٨) و(٢٩) للإشارة إلى رسالة سيدنا سليمان إلى ملكة سبأ. ورغم ذلك، تستخدم كلمة كِتَاب للإشارة إلى وحي الله للأنبياء سواء أكان مكتوباً أم لا (المفردات في غريب القرآن)، في حين أنها تستخدم بلا قيود للإشارة إلى قضاء الله أو أحكامه (انظر سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٦٨)؛ سورة التوبة (٩): الآية رقم (٣٦)؛ سورة الرعد (١٣): الآية رقم (٣٨)، وآيات أخرى).

^٢ كلمة صحيفَة مشتقة من صحف والصحيفَة تعني المبسوط من الشيء (المفردات في غريب القرآن). والمُصْحَف هو ما جعل جامعاً للصحف المكتوبة كما يطلق أيضاً علي القرآن لفظ "مُصْحَف".

^٣ كلمة زُبُور مشتقة من الفعل زَبَرَ الذي يعني كتب أو كتبه كتابة غليظة أو بارعة أو نقش أو كتب على الحجر (تاج العروس)؛ والزَّبُور هو أي كتابة أو كتاب ويطلق لفظ الزَّبُور خاصة على كتاب مزامير داود (المعجم العربي الإنجليزي للبين).

الوحي إلى الجماد والمخلوقات الأخرى غير البشر

يدل الوحي، في أسمى صورته، على الكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبياء الله وأوليائه الذين لم يرقوا إلى مرتبة النبوة؛ (المفردات في غريب القرآن). وكما ورد في القرآن، فإن الوحي حقيقة عامة لدرجة أنه جاء في كتابه العزيز أيضاً أنه حتى الجماد يوحى له: "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا" (سورة فصلت (٤١): الآيتان رقما (١١) و(١٢)). وفي موضع آخر، هناك إشارة إلى الوحي للأرض: "إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا. وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا." (سورة الزلزلة (٩٩): الآيات أرقام (١-٥)). وفي المثال الأول، يدل تكليم الله عز وجل للسموات والأرض ووحيه للسماء على أن هناك نوعاً من الوحي تنفذ من خلاله الشرائع الإلهية في الكون؛ وفي المثال الثاني، يشار إلى زلزلة الأرض - تقسر عبارة "أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا" على أنها تعني كشفت عن كنوزها (المفردات في غريب القرآن) في صورة معادن ومواد أخرى - على أنها نوع من الوحي. وهناك أيضاً الوحي للحيوانات الدنيا: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِّي مِنَ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ" (سورة النحل (١٦): الآيتان رقما (٦٨) و(٦٩)). هذا بالفعل مثال للوحي الإلهي للمخلوقات الدنيا بحيث إن ما تفعله بالغريرة يكون بالفعل وحياً. ويدل هذان المثالان على أن هدف الوحي هو تطور كل شيء وبلوغه طور الكمال في المسار المقدر له. وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة أيضاً إلى الوحي للملائكة: "إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْبِئُوا مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا" (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (١٢)). وبما أن الوحي نفسه ينزل بواسطة الملائكة، إذن من الواضح أن هناك عدة درجات للملائكة؛ ولهذا السبب، فإن جبريل، وهو الملك المكلف بالنزول بالوحي على أنبياء الله، يعتبر كبير الملائكة.

الوحي إلى الأولياء

هناك اعتقاد خاطئ شائع بشأن نطاق الوحي إلى البشر. حيث يعتقد لدى عموم الناس أن الوحي مقصور على أنبياء الله. إلا أن هذا ليس صحيحاً لأن القرآن يعتبر الوحي، بصورة أو بأخرى، التجربة العامة للبشرية جمعاء. ويعرّف مؤلف معجم مفردات القرآن راغب - الذي سبق الاستشهاد بتعريفه - الوحي، اصطلاحاً، بأنه الكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبياء الله وأوليائه. وفي

مواضع عديدة، جاء في القرآن أنه يوحى إلى الأولياء الذين لا يعتبرون أنبياء، رجالاً ونساءً على حد سواء. فقد جاء في كتابه العزيز أنه أوحى لأم موسى رغم أنها لم تكن بالتأكيد من الأنبياء، وكذلك أوحى للحواريين الذين لم يكونوا أنبياء: "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْبَحْرِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا زَادُوهُ رِزْقًا وَإِلَيْكَ رَجَعُلُوهُ مِنَّا" (سورة القصص (٢٨): الآية رقم (٧))؛ "وَإِذْ أُوحِيْتُ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (١١١)). وهذه الآيات لا تدع أدنى شك في أن الوحي كان يؤتى لغير الأنبياء بالإضافة إلى الأنبياء، وعلى ذلك، فإن باب الوحي ليس مغلقاً، رغم أنه لن يُبعث أي نبي بعد محمد (صلى الله عليه وسلم). ذلك أنه لم ينقطع بوفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سوى الوحي الموثوق به، أي ذلك النوع من الوحي المختص بالأنبياء، أي الوحي الذي ينزل بواسطة جبريل والذي نتناوله بالشرح في الفقرة التالية.

الوحي إلى البشر بثلاث طرق

يعتبر الوحي إلى الجماد، والحيوانات الدنيا، والملائكة ذا طبيعة مختلفة عن الوحي إلى البشر الذي يهمنها بصفة خاصة. وقد جاء في القرآن أن الوحي الإلهي إلى البشر له ثلاثة أنواع: "وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وُحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ" (سورة الشورى (٤٢): الآية رقم (٥١)). وأول هذه الأنواع، الذي هو أصل الوحي، هو إلقاء فكرة ما في الروح، لأن كلمة وحي تستخدم هنا بمعناها الأصلي، أي إشارة سريعة أو إلقاء في الروح، تمييزاً له عن الوحي بالكلام^٥. ورغم أن هذا النوع من الوحي عبارة عن "إلقاء فكرة في الروح"، فإنه يوصف بأنه إحدى صور تكليم الله للبشر. ويطلق على هذا النوع من الوحي اصطلاحاً "الوحي الخفي" وتتدرج ضمن هذا النوع من الوحي أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) ذات الصلة بالمسائل الدينية. ويروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه قوله في ذلك الشأن: "إن رُوحَ القُدسِ نَفَثَ في رُوعي" (النهاية في غريب الحديث والأثر). إنه إذن فكرة تلقى في الروح، تمييزاً له عن الوحي بالمعنى الضيق للكلمة، الذي يعني رسالة يتم تبليغها بالكلام. ويشترك في الوحي، في هذه الصورة، كل من الأنبياء وغير الأنبياء^٦.

٥ لأننا نتناول بالمناقشة في هذا القسم أنواع الوحي الثلاثة، فإن المقصود هو استخدام كلمة وحي بمعناها الأصلي، أي إشارة سريعة تلقى مباشرة إلى قلب الموحى له. وبهذا المعنى، جاء في كتابه العزيز أنه أوحى لأم موسى (سورة القصص (٢٨): الآية رقم (٧)) وإلى الحواريين الذين لم يكونوا أنبياء (سورة المائدة (٥): الآية رقم (١١١)).

٦ بهذا المعنى تقريباً، أي بمعنى إلقاء فكرة في الروح، أو ما يطلق عليه لمة أو وسوسة الشيطان، ورد أن الشياطين يوحون لأوليائهم: "وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٢١)).

أما النوع الثاني من تكليم الله للبشر فقد جاء في القرآن أنه يكون "مِن وَرَاءِ حِجَابٍ" وهذا يشمل الرؤيا والكشف، والإلهام (عندما تسمع أصوات أو تنطق كلمات في حالة من الغشية، ويكون الموحى إليه في حالة لا هي استغراق في النوم ولا هي بقطعة تامة). ويشترك في هذا النوع من الوحي أيضاً كل من الأنبياء وغير الأنبياء كما أن الرؤيا، في أبسط صورها، تمثل التجربة العامة للبشرية جمعاء. وقد ورد في القرآن ذكر رؤيا الملك، الذي كان من الواضح أنه ليس مؤمناً بالله (سورة يوسف (١٢): الآية رقم (٤٣)) - وهي رؤيا تحمل معني عميقاً. مما يدل على أنه طبقاً لما ورد في القرآن، فإن الوحي، في أدنى صورته، يعتبر التجربة المشتركة للبشرية جمعاء، أي الكفار والمؤمنين، والأتمين والصالحين.

والنوع الثالث للوحي، وهو الذي يختص به أنبياء الله، هو ذلك الوحي الذي يبلغ فيه الملك (جبريل) الرسالة الإلهية بالكلام. وهذا هو أوثق وأوضح أنواع الوحي وذلك هو الوحي الذي نزل بالقرآن على النبي (صلى الله عليه وسلم). ويطلق على هذا النوع من الوحي اسم "الوحي المتلوه". وهو أسمى صور الوحي وأكثرها اكتمالاً؛ وبهذه الطريقة أوحى إلى كل أنبياء الله في كل أمة.^٧ وتعتبر الكتب المنزلة تدويناً لهذا الوحي رفيع المنزلة وتستخدم كلمة الوحي اصطلاحاً للإشارة إلى هذه الصورة من الوحي تمييزاً له عن صورته الأدنى.

هدف الوحي الإلهي إلى البشر

في الحديث عن قصة آدم، ذكر القرآن السبب في الحاجة للوحي له بكلمات من ربه والغرض الذي خدمه ذلك الوحي. فالإنسان أمامه هدفان؛ هما: قهر الطبيعة وقهر النفس، أي السيطرة على قوى الطبيعة وعلى رغباته الحسية. وقد جاء في قصة خلق آدم الذي يعتبر النموذج الأول للإنسان،

^٧ ضلل المفهوم المسيحي للوحي بعض المسلمين للاعتقاد أن الوحي إنما يعني فقط تنوير العقل وأن القول بأن الله يتكلم إنما هو مجاز لأن الموحى له هو الذي يتكلم تحت تأثير إلهي معين. ولسوء الحظ، فإنه بعد فقدان الإنجيل الأصلي، الذي نزل على المسيح عيسى ابن مريم، ظهر أربعة رجال في فترات زمنية مختلفة كتبوا أربعة أناجيل تحتوي على قصة حياة المسيح بالإضافة إلى ما تبقى من تعاليمه. ويعتقد أن هذه الأناجيل كتبت تحت تأثير إلهي ومن ثم لا يمكن أن يذهب المفهوم المسيحي للوحي إلى أبعد من ذلك. وكما جاء في القرآن، فإن تنوير العقل أو إلهام عقل الإنسان بفكرة معينة، أو كما يطلق عليه في القرآن، إلقاء إشارة سريعة في الروح، إنما هو أدنى صور الوحي المشترك بين الأنبياء وغير الأنبياء، والفاقر الوحيد هو أنه، في حالة الأنبياء، تكون الفكرة في غاية الوضوح في حين أنه، في حالة الآخرين، قد تكون الفكرة واضحة أو غامضة، حسب قدرة الموحى له. ويعتبر الوحي، الذي تبلغ فيه كلمات رسالة إلهية إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) بواسطة الملك جبريل، أسمى صور الوحي وأكثرها اكتمالاً في حين يأتي في المرتبة التالية من حيث المفعول والوضوح الكلمات التي يبلغ بها الصالحون من بين المسلمين أو الرؤيا التي تُرى لهم.

كما وردت في القرآن^٨، أن الله علم آدم أسماء الأشياء كلها، أي أن الله وهبه القدرة على معرفة كل الأشياء؛ ووهبه أيضاً القدرة على قهر الطبيعة لأنه سبحانه أمر الملائكة (أي المخلوقات التي تسيطر على قوى الطبيعة) بالسجود لآدم؛ إلا إبليس (الذي يثير الرغبات الدنيئة في نفس الإنسان) أبي أن يسجد له، ووقع الإنسان فريسة وساوسه له بالشر. وقد كان الإنسان قوياً في مواجهة كل شيء، ولكنه كان ضعيفاً أمام نفسه. فقد تمكن من بلوغ الكمال في اتجاه معين بما بذله من جهد؛ حيث تمكن من قهر الطبيعة بمعرفته للأشياء والقدرة التي وهبها الله له؛ ولكن القهر الأكبر والكمال الأعظم كانا يكمنان في التغلب على نفسه وهذا القهر لم يكن من الممكن أن يتحقق إلا بالتقرب إلى الله تعالى. وكان الوحي ضرورياً لتمكينه من بلوغ هذا النوع من الكمال. وهكذا، ورد في القرآن أنه عندما كان الإنسان ضعيفاً أمام رغباته وشهواته الحسية، جاءه عون الله حيث تلقى "من ربه كلماتٍ فتاب عليه، أي في صورة الوحي الإلهي لآدم. وعن ذرية آدم، ذكر الحكم الإلهي في قوله تعالى: "قَائِمًا يَأْتِيَنكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هَذَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٣٨)). وفي هذه الكلمات، يقول الله تعالى للإنسان إنه، بمساعدة الوحي الإلهي، لا خوف عليه من إغواء الشيطان له، وبتذليل العقبة التي تعترض سبيل رقيه وتنمية قدراته، سوف يمضي الإنسان على الطريق نحو الكمال.

الوحي حقيقة عامة

سبق أن ذكرنا أن الوحي في أدنى صورته، أي في صورة إلهام أو في صورة رؤيا أو كشف، يعتبر التجربة العامة للبشرية جمعاء، ولكنه حتى في أسمى صورته لا يقتصر - طبقاً لما جاء في القرآن - على إنسان بعينه أو أمة بعينها. ومن ناحية أخرى، ورد في القرآن عبارات تأكيدية أنه

^٨ انظر (سورة البقرة (٢): الآيات أرقام (٣٠-٣٨)). وأستشهد هنا بأهم الآيات في هذا القسم: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (أي عرّف آدم بأسماء الأشياء كلها)... وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ... فَتَلَمَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ (أوحى بها إليه) فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا قَائِمًا يَأْتِيَنكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هَذَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". ويلقي الضوء على هذا الموضوع ما ورد في مواضع أخرى في نفس الصد: "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ... وَإِنَّا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ... فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا" (سورة الأعراف (٧): الآيات أرقام (١١-٢٠)). وتوضح الآية الأخيرة أنه، في قصة آدم، تروى قصة كل بني آدم أن الشيطان أغوى الإنسان بوسسته له بالشر وأن هذه الوسوسة ترتبط بنزعة الشر داخل الإنسان. ويتضح هذا أكثر بتحذير الله عز وجل لكل بني آدم في قوله تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٢٧)).

كما أعطى الله الغذاء الجسدي لكل الأمم، فكذا أعطاهم الغذاء الروحي اللازم لرفيها الأخلاقي والروحي. ويكفي الاستشهاد بآيتين من القرآن للدلالة على أن الوحي في أسمى صورته كان يؤتى كل أمة: "وإن من أمة إلا خلا فيها نذير" (سورة فاطر (٣٥): الآية رقم (٢٤)). "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ" (سورة يونس (١٠): الآية رقم (٤٧)). ويدل ذلك على شمولية فكرة الوحي في الإسلام شأنها شأن البشرية نفسها.

الإيمان بجميع الكتب السماوية أحد أركان الإيمان في الإسلام

وعلى ذلك، فإنه من أركان الدين الإسلامي الإيمان ليس بالقرآن فحسب وإنما بجميع الكتب السماوية المنزلة من عند الله على كل أمم العالم. ففي أوائل السور، قال تعالى في كلمات واضحة: "وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٤)). كما جاء أيضاً في كتابه العزيز قوله تعالى: "أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٨٥)). وقد أوتي كل نبي من أنبياء الله كتاباً: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢١٣)؛ "فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٨٤)). ولم تُذكر في القرآن أي كتب باسمها الخاص سوى كتابين؛ هما: التوراة (الكتاب المنزل على موسى عليه السلام) والإنجيل (الكتاب المنزل على عيسى عليه السلام). كما ذكر في القرآن أيضاً إعطاء داود كتاباً (الزبور) (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٥٥)) وذكر صحف إبراهيم وموسى معاً في سورة النجم (٥٣): الآيتين رقمي (٣٦) و(٣٧)، وسورة الأعلى (٨٧): الآية رقم (١٩). ولكن، كما سبق أن ذكرنا، فإنه يجب على المسلم الإيمان ليس بما سمى الله من كتب فحسب وإنما أيضاً بجميع الكتب المنزلة على كل أنبياء الله، وبعبارة أخرى، بالكتب السماوية المنزلة على كل الأمم لأنه لكل أمة رسول ولكل رسول كتاب.

اكتمال الوحي

كما جاء في القرآن، فإن الوحي ليس شمولياً فحسب وإنما هو أيضاً تدريجي حيث اكتمل بخاتم الأنبياء، محمد (صلى الله عليه وسلم). حيث إنه أوحى لكل أمة حسب احتياجاتها وفي كل عصر حسب قدرة من يعيشون في ذلك العصر. وكلما كان العقل البشري يزداد تطوراً، كان الوحي يلقي مزيداً من الضوء على الغيبيات، ووجود الذات الإلهية وصفاتها، وطبيعة الوحي من عند الله، وجزاء الحسنة والسيئة، والحياة بعد الموت، والجنة والنار. ويُطلق على القرآن أنه كتاب "مُبين" لأنه ألقى

بكامل الضوء على أركان الدين، وبَيَّن ما ظل حتى نزوله، بحكم الضرورة، غامضاً. وبسبب اكتمال بهاء الضوء الذي ألقاه القرآن على جميع المسائل الدينية، جاء في كتابه العزيز أنه أكمل الدين: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٣)). وقبل نزول هذا الوحي بستمائة عام، قال المسيح عيسى ابن مريم: "إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق" (يوحنا ١٦: ١٢، ١٣). وفي هذا بالتأكيد إشارة إلى نزول وحي سوف يكتمل به الدين، ومن بين الكتب السماوية المنزلة في العالم، قدم القرآن وحده الحجة التي تثبت أنه أكمل الدين؛ ووفقاً لتلك الحجة، ألقى القرآن ضوءاً كاملاً على جميع المسائل الدينية.

القرآن أمين وحاكم على ما قبله من الكتب

بالإضافة إلى إكمال الوحي وبيان ما كان غامضاً في الكتب السماوية السابقة، جاء في كتابه العزيز أن القرآن أمين على تلك الكتب، أي حافظ للتعاليم الأصلية لأنبيا الله، وحاكم يفصل فيما كان بينهم من اختلافات. وهكذا، فبعد الحديث عن التوراة والإنجيل (سورة المائدة (٥): الآيتان رقما (٤٤) و(٤٦))، قال تعالى: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٤٨)). وجاء في موضع آخر في القرآن أنه قد تم تحريف تعاليم الكتب السابقة، ومن ثم، لم يكن من الممكن فصل التعاليم الإلهية الحقة عن الباطل الذي تسلل إليها إلا بوحي من عند الله. وهذا ما فعله القرآن ولذا يوصف بأنه أمين على ما قبله من كتب. وعن حجية القرآن كحكم، قال تعالى: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ... وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ" (سورة النحل (١٦): الآيتان رقما (٦٣) و(٦٤)). وقد ازدادت الاختلافات بين الأديان إلى أقصى درجة. فرغم أن كل الأديان منزلة من عند الله، فإن كلاً منها كان يتهم الآخر بأنه يقود الإنسان إلى الهلاك؛ وبلغت الاختلافات بين تعاليم هذه الأديان حد أنه لم يكن من الممكن تصديق أن تكون هذه التعاليم مستمدة من نفس المصدر الإلهي؛ حتى جاء القرآن فبيَّن أوجه الاتفاق بينها، وهي تحديداً: وحدانية الله وشمولية الوحي.

القرآن صحح الأخطاء التي أدخلت على الكتب السابقة

هناك كثير من التعاليم المشتركة بين القرآن والكتب السابقة، وخاصة الكتاب المقدس. وقد ذكر القرآن مراراً أن تعاليم جميع الأديان متشابهة، و فقط التفاصيل هي التي تختلف حسب العصر ومرحلة تطور البشر. وقد أرسى القرآن كل هذه التعاليم في صورة أكثر اكتمالاً وكانت العبر تؤخذ أحياناً من

التاريخ الماضي. ولكن الشيء الملحوظ هو أن القرآن، سواء في مناقشاته أو في تعاليمه الدينية وفي إشاراته إلى التاريخ، أزال الأخطاء التي أدخلت على ما قبله من كتب. فلنأخذ، على سبيل المثال، الكتاب المقدس. فقد وردت في الكتاب المقدس العديد من الأحداث، التي بصرف النظر عن أنها لم تكن تنقل أي رسالة نبيلة، كانت تحط من قدر النبوة بل وكانت أحياناً ذات طابع مجوني. وأي يهودي أو مسيحي متعلم كان يفضل ألا يحتوي كتابه المقدس على مزاعم مثل الزعم بأن سيدنا إبراهيم، ذلك الأب العظيم الموقر في كل الأمم، كان كذاباً؛ وأن لوطاً غشي محارمه بمضاجعة ابنتيه؛ وأن هارون صور عبثاً وأمر بني إسرائيل بعبادته؛ وأن داود، الذي تشكل مزاميره الرائعة نصوص الخطب في الكنائس والمعابد، زنى بزوجة جاره أوريا؛ وأن سليمان، بكل ما أوتي من حكمة، عبد الأصنام إرضاءً لزوجاته! ورغم أن القرآن تحدث عن كل هؤلاء العظماء، فإنه لم يقبل أيّاً من هذه المزاعم وكذب معظمها في عبارات واضحة. كما تحدث القرآن أيضاً عن إغواء إبليس لأدم، ولكن بلغة توضح أنها قصة التجربة اليومية للإنسان؛ فلم يرد في القرآن ذكر ذلك التمثال المخلوق من طين الذي تنفخ الحياة في فتحتي أنفه؛ أو أن ضلع آدم خلع لتخلق منه حواء؛ أو تحريم شجرة معرفة الخير والشر؛ أو الأفعى التي تغوي حواء أو أن حواء تغوي آدم؛ أو أن الله يمشي في الجنة عند هبوب رياح النهار؛ أو عقاب الأفعى بأن تمشي على بطنها وتأكّل الطين؛ أو عقاب حواء بولادة الأطفال أو آدم بالعمل في الحقول. وبالمثل، روى القرآن قصة سيدنا نوح عدة مرات، ولكن لم يُذكر فيه مرة واحدة الطوفان الذي غطى الأرض كلها وأهلك جميع المخلوقات الحية على وجه الأرض. وإنما ورد فيه ذكر الطوفان الذي أهلك قوم نوح. وهناك أمثلة أخرى كثيرة^٩ تثبت أنه رغم أن القرآن يروي قصص بعض الأنبياء السابقين لنتخذ منها عبراً، فإنه لم يقتبس أيّاً منها من الكتاب المقدس. وإنما علمه بها مستمد من المصدر الإلهي، ومن ثم، فعند الإشارة إلى تلك القصص، يزيل القرآن كل ما أدخل عليها من مغالطات.

تحريف نص الكتب السماوية السابقة

توضح الأمثلة سالفة الذكر أنه، رغم تنزيل الكتب السماوية السابقة من عند الله، فإنها خضعت لتحريفات كثيرة؛ ولا ينطبق هذا على الكتاب المقدس فحسب وإنما ينطبق أيضاً بنفس القدر من الصحة على جميع الكتب المنزلة السابقة. وقد أثبت الآن النقد الحديث للإنجيل، فضلاً عما أمكن الوصول إليه من مخطوطات قديمة، أن الكتاب المقدس قد خضع لكثير من التحريفات؛ فقد مضى الآن أكثر من ألف وثلاثمائة عام منذ اتهام القرآن لأتباع الكتاب المقدس بتحريف نصه وذلك في وقت لم يكن يعلم أحد فيه بإدخال تلك التحريفات في نصه. ويمكن الاستشهاد باقتباس واحد

^٩ ذكرت هذه الاختلافات بالإضافة إلى غيرها من الاختلافات بين القرآن والكتاب المقدس في حواشي ترجمتي لمعاني القرآن الكريم، التي يمكن أن أحيل إليها القارئ الذي يبحث عن المزيد من المعلومات عن هذه النقطة.

فقط من القرآن في هذا الشأن: "أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (هذا)... قَوْلٌ لِلَّذِينَ يُكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشَرْتُوا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا" (سورة البقرة (٢): الآيات أرقام (٧٥-٧٩)).^{١٠} ومن ثم، ينبغي أن نضع نصب أعيننا أنه رغم ما ورد مراراً في كتابه العزيز من أن القرآن جاء "مُصَدِّقًا" لما قبله من كتب، فإن هذا لا يعني ولا يمكن أن يعني أنه ليست هناك تحريفات في تلك الكتب. ومن ناحية أخرى، يَكْدِبُ القرآن العديد من التعاليم التي أرساها أتباع الكتب السابقة، مما يدل على أنه رغم أنه من المسلم به أن هذه الكتب منزلة من عند الله، فإنه من الواضح في الوقت نفسه أن هذه الكتب لم تصلنا كما نزلت وأن الحق الذي نزل فيها قد اختلط بالباطل بسبب تحريف نصها بأيدي البشر.

باب الوحي غير مغلق

يُنظر إلى الوحي الإلهي، تقريباً في كل ديانة عظيمة، على أنه التجربة الخاصة بجنس بعينه أو أمة بعينها، وحتى في تلك الأمة، ينظر إلى باب الوحي على أنه أغلق بوفاة شخصية عظيمة معينة أو بعد عصر معين. ولكن الإسلام الذي يجعل الوحي التجربة العامة للبشرية جمعاء ينظر في الوقت نفسه إلى أبواب الوحي على أنها مفتوحة طوال الوقت. إلا أن هناك فكرة مغلوطة في بعض الأذهان مفادها أنه، في الإسلام، أغلق باب الوحي بوفاة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لأنه جاء في القرآن أنه خاتم الأنبياء. وسوف نناقش في الفصل القادم السبب في أنه لن يُبعث أي نبي بعده (صلى الله عليه وسلم)، ولكن من الخطأ أن نخلط بين انقطاع النبوة وانقطاع الوحي. وقد سبق أن ذكرنا أنه، من بين أنواع الوحي الثلاثة، هناك نوعان يشترك فيهما الأنبياء وغير الأنبياء في حين

^{١٠} الأمثلة التالية للتحريفات في بعض أسفار العهدين القديم والجديد مأخوذة من تعليقات أحد المعلقين المسيحيين على الكتاب المقدس. فيما يتعلق بكتاية أسفار العهد القديم الخمسة التي تنسب بوجه عام إلى موسى عليه السلام، قال المعلق: "عند إجراء دراسة واقية لنص الأسفار، يجب أن نقر بأن الأسفار تكشف عن العديد من السمات المتناقضة مع الرأي التقليدي القائل بأن الأسفار، في شكلها الحالي، تنسب إلى موسى. فعلى سبيل المثال، من المسلم به بالتأكيد أن موسى لم يكتب التعليق على وفاته المذكور في سفر التثنية ٣٤... في سفر التكوين ١٤: ١٤، وفي سفر التثنية ٣٤، وردت الإشارة إلى أرض دان؛ ولكن الأرض لم تسم بذلك الاسم حتى فتحها بنو دان، بعد وفاة موسى عليه السلام بفترة طويلة (شعوش ١٩: ٤٧؛ القضاة ١٨: ٢٩). كما يستشهد أيضاً في سفر العدد ٢١: ١٤، ١٥ "بكتاب حروب الرب"، كأحد المراجع القديمة، الذي من الواضح أنه ليس من الممكن أن يكون قبل أيام موسى. ويتمثل الآيات الأخرى التي يكاد يكون من غير الممكن أن تنسب إلى موسى عليه السلام فيما يلي: سفر الخروج ٦: ٢٦، ٢٧؛ ١١: ٣؛ ١٦: ٣٥؛ ٣٦؛ سفر اللاويين ١٨: ٢٤-٢٨؛ سفر العدد ١٢: ٣؛ سفر التثنية ٢: ١٢" (تعليق داميلو، ص. ١٥). ومضى المعلق قائلاً: "إن الدراسة المتأنية للأسفار الخمسة تقود العديد من علماء الدين للاعتقاد بأن كتابات موسى لا تشكل سوى مسودة مادة الأسفار أو جزء منها وأن الأسفار، في صورتها الحالية، ليست عمل رجل واحد، وإنما تم تجميعها من الوثائق التي كانت توجد في الماضي" (تعليق داميلو، ص. ١٦). كم كان صحيحاً ما جاء في القرآن منذ ١٣٠٠ عام: "قَوْلٌ لِلَّذِينَ يُكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ".

أن هناك نوعاً واحداً، وهو أسمى صور الوحي، يرسل فيه الملك جبريل برسالة ينقلها بالكلام، يختص به الأنبياء، ومن ثم، فعند القول إنه لن يبعث أي نبي بعد محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإنه يستنتج من ذلك أن الباب قد أغلق على أسمى صور الوحي؛ ولكن لا يمكن، بالتوسع في تفسير الكلمات، القول بأن الوحي نفسه انقطع. وبما أن الوحي لغير الأنبياء يعتبر حقيقة مسلماً بها، كما سبق أن ذكرنا استناداً إلى آيات قرآنية واضحة، فإن الوحي مازال موجوداً وما زال بإمكان البشرية الوصول دائماً إلى هذه النعمة الإلهية الكبيرة، رغم أن النبوة، التي اكتملت، انقطعت بطبيعة الحال. وهناك ما يعزز مبدأ استمرار الوحي في القرآن والسنة. حيث جاء في كتابه العزيز: "الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ" (سورة يونس (١٠): الآيتان رقما (٦٣) و(٦٤)). **وَالْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هِيَ "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ"**، وفقاً لأحد الأحاديث النبوية (التفسير الكبير للرازي). وكما جاء في أحد الأحاديث الصحيحة، فإن **الْبُشْرَى أَوْ الْمُبَشِّرَاتُ** - تحمل الكلمتان نفس المعنى - تعتبر جزءاً من النبوة. ويروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: **"لَمْ يَبْقَ مِنْ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ"** (البخاري ٩٢: ٥). فسئل عن المقصود بـ **"الْمُبَشِّرَاتُ"**، فأجاب (صلى الله عليه وسلم) بقوله **"الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ"** (البخاري ٩٢: ٥). وكما جاء في حديث آخر، يروى عنه (صلى الله عليه وسلم) قوله: **"رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِنَّتِهِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النَّبُوءَةِ"** (البخاري ٩٢: ٤). وفي رواية أخرى، وردت عبارة **الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ** بدلاً من عبارة **رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ**. وتستخدم كلمة **رُؤْيَا** هنا بمعنى واسع وتشمل إلهام العباد الصالحين. ذلك أنه يروى عنه (صلى الله عليه وسلم) في حديث آخر قوله: **"لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجَالٌ يَكْلُمُونَ مَنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعَمَّرُ"** (البخاري ٦٢: ٦). وكل هذه الأحاديث والآيات القرآنية التي سبق الاستشهاد

ولم تكن الأسفار الأخرى في الكتاب المقدس أفضل حالاً. فمن المعترف به أنه حتى الأناجيل تم تحريفها. حيث لا توجد النسخة الأصلية للإنجيل الذي كتبه المسيح عيسى ابن مريم في أي مكان. بل إن هناك شكاً في كون القديس متى والقديسين الآخرين هم من كتبوا الأناجيل التي تحمل أسماءهم. وكما يقول داميلو: **"ليس من المحتمل أن يكون الرسول متى هو الذي كتب هذا الإنجيل مباشرة"** (تعليق داميلو ص. ٦٢٠). وعن إنجيل مرقس، يقول داميلو: **"تفسير الأدلة المأخوذة من الإنجيل نفسه تحديداً إلى استنتاج مفاده أن القديس مرقس لم يكتب الاثنتي عشرة آية الأخيرة (أي ١٦: ٩-٢٠)"** (المرجع السابق، ص. ٧٣٢). وكان تبريره لكيفية وجود هذه الآيات في الإنجيل جديراً بالاهتمام. حيث ذكر المعلق أن إنجيل مرقس تم تداوله على نطاق واسع في البداية لأنه كان أول رواية موثوق بها لحياة المسيح عيسى ابن مريم؛ ولكن، فيما بعد، أصبح إنجيلا القديسين متى ولوقا أكثر تداولاً بين الناس وتوارى إنجيل القديس مرقس في الظل. **"وعندما أجريت محاولة في نهاية عصر الرسل (ربما كان ذلك في روما) لجمع المذكرات الصحيحة للرسل ورفاقهم، لم يسهل العثور على نسخة الإنجيل الثاني الذي لم يكن يستخدم. والإنجيل الذي تم العثور عليه بالفعل والذي كان يستخدم لنسخ النسخ منه كانت الصفحة الأخيرة مفقودة منه وبالتالي أضافت يد أخرى خاتمة مناسبة (الملحق الحالي المرفق به)"** (تعليق داميلو، ص. ٧٣٣). ويمكن الاستشهاد بكثير من الأمثلة الأخرى للتعديلات التي أدخلت على نص الإنجيل، ولكن يكفي الاستشهاد بمثال آخر. وتعليقاً على اعتراف المسيح المشهور: **"لماذا تدعوني صالحاً"** (مرقس ١٠: ١٨)، يقول داميلو إنه في النسخة المعدلة من إنجيل متى جاء رد المسيح كما يلي: **"لماذا تسألني عما هو صالح؟ ويضيف داميلو قائلاً: "لقد أجرى مؤلف إنجيل متى تعديلاً طفيفاً في النص حتى لا يعتقد القارئ أن المسيح أنكر أنه كان صالحاً"** (المرجع السابق، ص. ٧٣٠).

بها تثبت أن الوحي، في أدنى صورته، مستمر بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأن الوحي في أسمى صورته - أي الذي ينزل به جبريل - هو فقط الذي انقطع بانتهاء النبوة.

الكلام صفة من صفات الله تعالى

وعلى ذلك، فإنه من العقائد الأساسية في الإسلام أن الله يتكلم كما يسمع ويبصر. وقد ذكر أنه لم يشر إلى الله تعالى في القرآن بأنه متكلم أو كليم. ^{١١} وقد سبق أن ذكرنا أنه توجد العديد من أسماء الله تعالى المشتقة من صفة أو فعل ما يُنسب إليه عز وجل في القرآن، مثل أسماء الرفع، والقابض، والباسط، والمحيب، والمحيب، وغيرها من أسماء الله الحسنى. بل توجد أسماء ليست مشتقة من صفة صريحة أو فعل صريح وإنما مستتبطة من المعنى مثل الواجد، والمقدم، والمؤخر، وغيرها من الأسماء. وقد وردت الإشارة إلى صفة الكلام عند الله مراراً في القرآن. فقد كلم الله موسى عليه السلام (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٦٤)؛ سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٤٤))؛ وكلم غيره من الأنبياء (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٥٣))؛ ويكلم غير الأنبياء (سورة الشورى (٤٢): الآية رقم (٥١))، مما لا يدع مجالاً للشك أن صفة الكلام من صفات الله، كما جاء في القرآن، شأنها شأن صفتي السمع والبصر. ورغم أن قائمة أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين التي تم إعدادها قد لا تحتوي على هذه الصفة، فإنه جاء في القرآن في عبارات جازمة قطعية مراراً أن الله يكلم عباده. ومن ثم، فرغم أنه لن يبعث أي نبي بعد محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإن الله ما زال يكلم عباده الصالحين لأن الكلام من صفاته عز وجل ولأن صفاته لا يمكن أن تتوقف عن العمل.

ويبدو أن الجدل العقيم الذي شغل في الماضي اهتمام العالم الإسلامي حول ما إذا كان القرآن مخلوقاً أم غير مخلوق وعما إذا كان القرآن أزلياً قديماً أم محدثاً، والذي تعرض بسببه كثير من مشاهير الرجال لمحن شديدة، هذا الجدل يرجع إلى سوء فهم معين. فمن المعترف به لدى الجميع أن صفة الكلام من صفات الله وأن جميع صفات الله غير منفصلة عن ذاته؛ وبالفعل لا يمكن تصور وجود الله دون هذه الصفات. وعلى ذلك، لا يمكن القول بأن أي صفة من صفاته عز وجل مخلوقة أو محدثة. ولكن ليس هناك شك أن صفات الله تعالى تظهر في جميع الأزمنة. فالله سبحانه وتعالى يسمع ويرى منذ الأزل ويسمع ويرى الآن وسوف يسمع ويرى في المستقبل. وبالمثل، فالله تعالى يتكلم منذ الأزل، ويتكلم الآن، وسوف يتكلم في المستقبل. وعندما جاء آدم إلى هذا العالم، أوحى له ربه؛ ثم أوحى من بعده نوح ثم إبراهيم ثم موسى. وقد أوحى الله لكل أمم العالم، كل

^{١١} دائرة المعارف الإسلامية، مادة: الكلام.

في زمن معين وبلغت تلك الأمة. وذلك الوحي، وفي الواقع جميع الأحداث المستقبلية، موجودة في علمه الذي لا حدود له منذ الأزل، ولكن فيما يتعلق بالتجربة البشرية، فإنها تعتبر محدثة ويجب علينا التحدث على أساس التجربة البشرية. وأي شيء لا يكون محدثاً عند الله أياً كان وقت عمله، ولكن حسب مفهومنا للأشياء، فإن الوحي لآدم ونوح وكل الأنبياء الآخرين كان محدثاً عندما أتاهم. والقرآن صريح في هذه النقطة: "مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ" (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٢)). وبهذا المعنى، فإن القرآن كان أيضاً محدثاً في مفهومنا، رغم أنه موجود في علم الله من قديم الأزل. ولكن لا يمكن القول إن الأشياء أزلية وغير مخلوقة فقط لأنها موجودة في علم الله منذ الأزل.

الفصل الخامس

الأنبياء

النبي والرسول

يتمثل الركن التالي من أركان الإيمان، وفقاً لتعاليم الإسلام، في الإيمان بالأنبياء. والكلمة العربية نَبِيٍّ مشتقة من كلمة نبأ، ومعناها خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم (المفردات في غريب القرآن). ويضيف نفس مؤلف معجم مفردات القرآن قائلاً إن كلمة نبأ لا تستخدم إلا للدلالة على ذلك الخبر الذي يتعرى عن الكذب.^١ ويفسر نفس المؤلف كلمة نَبِيٍّ على أن معناها هو سفير بين الله وبين ذوي العقول من عباده (المفردات في غريب القرآن). ووفقاً لمؤلف آخر من مؤلفي المعاجم، فإن النَبِيَّ هو المُخْبِرُ أو المُبَلِّغُ عن الله تعالى (القاموس للهوريني).^٢ كما أن النَبِيَّ يُسمى أيضاً رَسُوْلًا.^٣ وتستخدم الكلمتان، نَبِيٍّ وَرَسُوْلٍ، بالتبادل في القرآن حيث يطلق على نفس الشخص أحياناً لفظ نَبِيٍّ وأحياناً لفظ رَسُوْلٍ؛ في حين أنه يتم أحياناً الجمع بين اللفظين. ويبدو أن السبب في ذلك هو أن للنبي صفتين؛ هما: أولاً، يتلقى النبأ من الله تعالى؛ ثانياً، يبلغ الرسالة التي أنبأه الله بها إلى البشر. ويسمى نَبِيًّا بصفته الأولى وَرَسُوْلًا بصفته الثانية، ولكن هناك فرقاً بين الكلمتين. فكلمة رَسُوْلٍ تحمل معنى أوسع حيث تستخدم للإشارة إلى كل رسول بالمعنى الحرفي للكلمة؛ ويسمى الملائكة "رُسُلًا"؛ الله لأنهم أيضاً حملة الرسالات الإلهية عندما يطيعون أمر الله.

الإيمان برسول الله

سبق أن ذكرنا أن الإيمان بالوحي الإلهي يعتبر أحد أركان الإسلام، ولأنه يجب تبليغ الوحي بواسطة بشر، فإنه يستتبع ذلك بالطبع وجوب الإيمان بالرسول، وقد ورد الإيمان بهم في القرآن

^١ من الجدير بالذكر أن الهمزة في جذر الكلمة نبأ حذفت في كلمة نَبِيٍّ. ولهذا السبب، يرى بعض علماء اللغة أن كلمة نَبِيٍّ مشتقة من النُبُوَّة التي تعني الرفعة.

^٢ فسر أحد مؤلفي المعاجم كلمة نَبِيٍّ على أنها تشير إلى من نبئته الله بتوحيده ويكشف له أسرار الغيب ويبلغه بأنه نبي الله (تاج العروس).

^٣ المعنى اللغوي لكلمة رَسُوْلٍ هو من يبعث برسالة.

^٤ رُسُل جمع رَسُوْلٍ. انظر سورة فاطر (٣٥): الآية رقم (١).

جنباً إلى جنب مع الإيمان بالكتب المنزلة. ° وفي الواقع، فإن هناك معنى أعمق يكمن وراء الإيمان بالأنبياء، ومن ثم فهناك تأكيد أكبر على هذا الركن من أركان الإيمان. فالنبي ليس فحسب حامل الرسالة الإلهية، وإنما هو يبين أيضاً كيف يتم تفسير تلك الرسالة في الحياة العملية؛ ومن ثم، فإنه الأسوة الواجب الاقتداء بها. والتأسي بالنبي هو الذي يغرس الإيمان الحي في قلوب من يتبعونه ويحدث تحولاً حقيقياً في حياتهم. وهذا هو السبب وراء تركيز القرآن بصفة خاصة على أن يكون النبي بشراً: "قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٩٥))؛ "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ... وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ" (سورة الأنبياء (٢١): الآيتان رقما (٧) و(٨)).

عالمية رسالة النبي (ص)

إن النبوة موهبة ° وهبها الله بمحض فضل منه لمن شاء من عباده، كما جاء في القرآن. فكمها وهب الله نعم الغذاء الجسدي لكل الناس سواسية، فكذا أيضاً تعتبر تلك النعمة الروحانية المتمثلة في النبوة، التي يتم من خلالها إيقاظ الحياة الروحانية في نفس العبد، بمثابة نعمة وهبها الله لجميع أمم العالم بمحض فضل منه. وكما يتضح من الكتاب المقدس، فإن الأنبياء لم يبعثوا بين بني إسرائيل فحسب. ووفقاً للقرآن، فإنه ما من أمة لم يبعث فيها نبي: "وَأِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ" (سورة فاطر (٣٥): الآية رقم (٢٤)). كما ورد أيضاً في موضع آخر قوله تعالى: "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ" (سورة يونس (١٠): الآية رقم (٤٧)). كما جاء في كتابه العزيز أيضاً أنه كان هناك أنبياء لم يرد ذكرهم بالإضافة إلى أولئك الذين ورد ذكرهم في القرآن: "وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٦٤)). وقد ورد بالفعل في أحد الأحاديث أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي في حين أنه لم ترد في القرآن سوى أسماء خمسة وعشرين نبياً، من بينهم العديد من الأنبياء الذين لم يرد ذكرهم في الكتاب المقدس، مثل هود وصالح في الجزيرة العربية، ولقمان في أثيوبيا، ونبي بعث في عصر سيدنا موسى (عليه السلام) (كان يعرف لدى العموم باسم سيدنا الخضر) في السودان، وذو القرنين (داريوس الأول الذي كان أيضاً ملكاً)

° انظر سورة البقرة (٢): الآيتين رقمي (١٧٧) و(٢٨٥).

٦ يوصف القرآن بأنه نعمة أنعم الله بها على العباد: "الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ." (سورة الرحمن (٥٥): الآيتان رقما (١) و(٢)). أي أنه نعمة أنعم الله بها على العباد بمحض فضل منه، وليست نتيجة أي عمل من جانب الإنسان لأن اسم الرحمن يعني المنعم بجلال النعم بمحض فضل منه. كما جاء في كتابه العزيز أيضاً أن الإنسان لا يمكن أن يرقى إلى مقام النبوة بجهده؛ وإنما الله هو الذي يرفع العبد إلى ذلك المقام عندما يشاء إصلاح حال العباد. وعلى ذلك، يأتي الرد على سؤال المشركين عن السبب في عدم نزول الوحي عليهم في قوله تعالى: "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٢٤)).

في فارس؛ كل هذا يتفق تماماً مع نظرية عالمية رسالة النبي. وبما أنه قد ورد في الكتاب الكريم في عبارات واضحة أن الله بعث أنبياء إلى كل الأمم، وبما أنه لم يذكر أسماءهم جميعاً، وهو أمر لم يكن هناك داع له في الواقع، فإنه يمكن للمسلم أن يؤمن بأن الشخصيات رفيعة المقام التي أقرت الأمم الأخرى أنها كانت مصدر هدايتها، هم الأنبياء المرسلون لتلك الأمم.

وجوب إيمان المسلم بالأنبياء أجمعين

ورغم ذلك، لم يُرسِ القرآن فحسب النظرية القائلة بأن الأنبياء قد بعثوا لكل الأمم؛ وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك ويجعل من الواجب على المسلم الإيمان بأولئك الأنبياء أجمعين. وفي أوائل سور القرآن، جاء أن الإيمان بما أنزل على جميع الأنبياء السابقين واجب على المسلمين: "وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٤))؛ وبعد ذلك ببضع آيات، قال تعالى: "أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٣٦)). حيث تشير كلمة *النَّبِيُّونَ* بوضوح إلى الأنبياء المرسلين إلى الأمم الأخرى. كما جاء في القرآن أيضاً أن المسلمين يؤمنون بأنبياء الله أجمعين وليس بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وحده: "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٧٧))؛ "أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٨٥)). وفي الواقع، فإن القرآن استتكر الإيمان ببعض الأنبياء وجدد البعض الآخر بأنه كفر: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا" (سورة النساء (٤): الآيتان (١٥٠) و(١٥١)). وعلى ذلك، يعتبر الإيمان بأنبياء العالم أجمعين أحد أركان الإسلام، ورغم أن الإيمان في الإسلام يتلخص في جملتين قصيرتين، لا إله إلا الله ومحمد رسول الله، فإن الإنسان الذي يقر بإيمانه بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إنما بذلك يؤمن بالأنبياء أجمعين الذين بعثهم الله للعالم، سواء نكرت أم لم تذكر أسماءهم في القرآن. ومن ثم، يحظى الدين الإسلامي بعالمية لا يطمح أي دين آخر إلى الوصول إليها كما أنه وضع أساس روح من الأخوة تضم البشرية جمعاء.

^٧ رغم أنه ورد في الآية الكريمة وجوب الإيمان بالأنبياء أجمعين، فإن كلمة *الْكِتَابِ* وردت في الآية في صيغة المفرد. ومن ثم، فإن *الْكِتَابِ* يرمز إلى الوحي الإلهي بوجه عام أو إلى الكتب المنزلة على الأنبياء أجمعين؛ أو لأن القرآن كتاب فيه *كُتِبَ قِيَمَةٌ* (سورة البينة (٩٨): الآية رقم (٣))، فإنه ربما يقصد *بالْكِتَابِ* القرآن.

الأنبياء المرسلون إلى الأمم

يمكن تلخيص التدبير الإلهي الذي وفقاً له بُعث الأنبياء لهداية العالمين، كما هو موضح في القرآن، في المناقشة التالية. فقد بعث الله الأنبياء في كل أمة، ولكن رسالتهم كانت مقصورة على أمة بعينها وفي بعض الحالات كان تقتصر على جيل أو عدة أجيال. كل هؤلاء الأنبياء أنبياء مرسلون إلى أمة بعينها وبالتالي كانت مهمتهم مقصورة على السمو الأخلاقي والهداية الروحانية لأمة واحدة فقط. ولكن بينما أن تطور الأمم كان حتماً هو الخطوة الأولى نحو تحقيق ذلك، في الوقت الذي كانت فيه كل أمة تحيا حياة تكاد تكون منعزلة وكانت وسائل الاتصال بينها وبين الأمم الأخرى منقطعة، فإن الهدف العظيم للتدبير الإلهي كان هو رقي ووحدة الجنس البشري كله. وكان من المستحيل أن تظل البشرية للأبد منقسمة إلى أمة منعزلة تماماً بعضها عن بعض، تم تأسيسها على أساس العرق أو الحدود الجغرافية. وفي الواقع، أصبحت هذه الانقسامات، من منطلق الغيرة، عاملاً باعثاً على النزاع والكراهية بين الأمم المختلفة، التي تنتظر كل منها إلى نفسها على أن شعبها هو شعب الله المختار وتنتظر بعين الازدراء لباقي الأمم. وقد أدت تلك الآراء إلى إطفاء أي بصيص أمل خافت في وحدة الجنس البشري. ومن ثم، كانت الخطوة الأخيرة في نظام النبوة هو إرسال نبي واحد إلى الأمم كافة، حتى يدرك الجنس البشري وحدته. وبذلك، انتهى زمن النبي المرسل إلى أمة بعينها؛ لقد خدم الغرض المقصود، وطلع على البشرية فجر اليوم الذي أرسل فيه نبي واحد للعالمين في شخص النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

النبي المرسل إلى العالمين

لا تستند فكرة النبي المرسل إلى العالمين إلى آية واحدة وردت في القرآن بشأن نطاق رسالة هذا النبي أو ذلك؛ وإنما تشير الفكرة إلى تدبير إلهي مكتمل. فعند ذكر الأنبياء السابقين، ورد في القرآن أن نوحاً أرسل "إلى قَوْمِهِ"^٨، وكذلك هود^٩ وصالح^{١٠} وشعيب^{١١} - كل منهم أرسل إلى قومه. كما جاء في كتابه العزيز أن موسى أمر "أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"^{١٢}، وعن عيسى قال تعالى

^٨ سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٥٩)؛ سورة نوح (٧١): الآية رقم (١).

^٩ سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٦٥).

^{١٠} سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٧٣).

^{١١} سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٨٥).

^{١٢} سورة إبراهيم (١٤): الآية رقم (٥).

أنه بُعث "رَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ"^{١٣}، ولكن عند الحديث عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، قال تعالى في عبارات واضحة: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ^{١٤} تَبَشِيرًا وَنَذِيرًا". وفي موضع آخر أيضاً، يتم التأكيد على عالمية رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٥٨)). والشيء المؤكد هو أنه لم يرد في القرآن أو في أي كتاب سماوي آخر^{١٥} أن هناك نبياً آخر أرسل إلى الناس كافة أو إلى الشعوب أو الأمم كافة؛ كما أنه لم يرد أيضاً في القرآن أن النبي محمداً (صلى الله عليه وسلم) أرسل إلى قومه فقط.^{١٦} كما يطلق على القرآن نفسه مراراً أنه "ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ"^{١٧}. ولم يرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) نذيراً للعالمين فحسب، وإنما أرسل أيضاً رحمة لهم جميعاً: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (١٠٧)).

ويتناول القرآن بمزيد من التفصيل فكرة النبي المرسل إلى العالمين والمبعوث إليهم بعد الأنبياء المرسلين إلى أممهم. وفي إحدى السور المدنية^{١٨}، تذكر في عبارات واضحة الفكرة بالكامل، أي إرسال نبي إلى العالمين، والسمة المميزة للدين الذي يدعو إليه، ووجوب الإيمان به. وفيما يلي النص الكامل للآيات التي وردت في هذا الشأن: "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ

^{١٣} سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٤٩).

^{١٤} كلمة النَّاس تحمل فكرة جميع الناس والهدف من إضافة كلمة كَافَّةً هو التأكيد على أنه ما من أمة إلا وشملتها الرسالة السماوية المنزلة على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

^{١٥} كان المسيح عيسى ابن مريم آخر هؤلاء الأنبياء المرسلين إلى أممهم؛ ورغم أنه قد تم الآن تبليغ رسالة المسيحية إلى جميع أمم العالم، فإن تلك لم تكن قط فكرة المسيح. فقد كان عليه السلام واثقاً تمام الثقة أنه لم يرسل "إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (متى ١٥: ٢٤)؛ وقد كان بالفعل واثقاً جداً لدرجة أنه لم يتردد في أن يطلق على أولئك الذين لم يكونوا من بني إسرائيل لفظ "كلاب" بالمقارنة "بالبنين" الذين كانوا من بني إسرائيل (متى ١٥: ٢٦) وأنه لا يمكن أن يطرح خبز البنين للكلاب. ورغم ذلك، فإن فكرة طرح الخبز الإلهي الذي أعطي لعيسى إلى "الكلاب" الذين لم يكونوا من بني إسرائيل خطرت ببال أحد الحواريين عندما لم يبد "البنون" رغبة في قبول ذلك الخبز.

^{١٦} من الصحيح بما لا يدع مجالاً للشك أنه (صلى الله عليه وسلم) أمر بأن ينذر "قَوْمًا مَّا أَنْذَرَ آبَاؤُهُمْ" (سورة يس (٣٦): الآية رقم (٦))، ولكن هذا لا يعني أنه لم يبعث لينذر أقواماً آخرين غير العرب لأنه ذكر في سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (١) في عبارات صريحة أنه بُعث "لِيُكُونَ لِّلْعَالَمِينَ نَذِيرًا".

^{١٧} سورة القلم (٦٨): الآية رقم (٥٢)؛ سورة التكويم (٨١): الآية رقم (٢٧)؛ سورة ص (٣٨): الآية رقم (٨٧)؛ سورة يوسف (١٢): الآية رقم (١٠٤).

^{١٨} طرح الكاتب إبه. جيه. وينسينك في كتابه الذي يحمل عنوان الدين الإسلامي، نظرية جديدة مفادها أنه رغم وجود آيات في القرآن تتحدث عن عالمية رسالة النبي محمد، فإن هذه فكرة ظهرت في أوائل الإسلام ثم تم التخلي عنها فيما بعد: "من الصحيح أنه توجد في القرآن آيات يبدو أنها تتناول نطاقاً أوسع للرسالة. وقد رأينا بالفعل نموذجاً لهذا في الآية التالية: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا). ورغم ذلك، فإنه يبدو أن أيًا من هذه الآيات لم تنزل بعد الهجرة" (ص. ٧). ولا يستوعب المرء قوة الحجة، إن كانت هناك حجة، التي يتم التعبير عنها في هذه الكلمات. فعندما يذكر مبدأ بوضوح، فما أهمية ما إذا كان نزل في مكة أو في المدينة. وفي الواقع، فإن السور المدنية والسور المكية واضحة على حد سواء بشأن عالمية رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم).

وَحِكْمَةٍ نُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أُسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ. قُلْ أَمَّا بِلِلَّهِ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ". (سورة آل عمران (٣): الآيات أرقام (٨١-٨٥)).

ويتضح لنا أن الآيات تتحدث عن نبي مرسل إلى العالمين من فرض الإيمان به - "لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ" - على أتباع كل الأنبياء الذين خلوا من قبله. وبما أن الأنبياء أرسلوا، كما ورد في تعاليم القرآن، إلى كل أمة، فإنه يستتبع ذلك بالتأكيد وجوب إيمان أتباع كل نبي بخاتم الأنبياء. والسمة المميزة للنبي المرسل إلى العالمين كما ورد في الآيات هي أنه "مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ"، وبعبارة أخرى أنه شاهد على صدق أنبياء العالم. ويمكن للمرء أن يقلب صفحات جميع الكتب المقدسة ويبحث في تاريخ أديان كل أمة وسوف يجد أنه ليس هناك سوى نبي واحد هو الذي جاء مصدقاً لكتب جميع الأديان وشاهداً على صدق الأنبياء المرسلين إلى كل أمة. وفي الواقع، فإنه ما من أحد لا يعامل البشرية جمعاء كأمة واحدة يمكن أن يطمح إلى بلوغ مكانة النبي المرسل إلى العالمين؛ وقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) هو الإنسان الوحيد الذي عامل البشرية كأمة واحدة عندما أعلن أن الله قد بعث الأنبياء في كل أمة، وأن كل من يؤمن به يجب عليه أيضاً الإيمان بأنبياء العالم أجمعين. ومن ثم، فإن الآية التي تدعو إلى وجوب الإيمان بأنبياء الله أجمعين - أي الإيمان بإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وعيسى، وأخيراً الإيمان بالأنبياء أجمعين - والتي وردت عدة مرات في القرآن، هذه الآية تكررت هنا أيضاً ويليهما الإعلان الواضح أن الإسلام، أو الإيمان بأنبياء الله أجمعين، إنما هو دين الله ومن يبتغ غير الإسلام ديناً - أي من يؤمن بنبي في حين يكفر بكل الأنبياء الآخرين - فلن يقبل منه، لأن الإيمان بأحد الأنبياء، رغم كل ذلك، إنما هو قبول لجزء من الحق ويعتبر بمثابة تكذيب للحق كله، أي أن الله بعث الأنبياء في كل أمة.

ومن ثم، لم يُرسل محمد (عليه الصلاة والسلام) فحسب إلى الناس كافة أو لم يكن نذيراً لجميع الشعوب ورحمة للعالمين فحسب، وإنما أيضاً وضع أسس دين عالمي عندما جعل الإيمان بالأنبياء المرسلين إلى كل الأمم أساس الإيمان به. هذا هو المبدأ الوحيد الذي يمكن أن تتفق عليه البشرية جمعاء، وهو الأساس الوحيد لمعاملة كل الأمم سواسية. وليست فكرة النبي المرسل إلى العالمين فكرة عارضة وردت في القرآن؛ كما أنها لا تستند إلى آية أو آيتين فحسب تذكران أنه (صلى الله عليه وسلم) قد بعث لهداية الأمم كافة؛ وإنما تعالج الفكرة بالتفصيل كما تدكر على نحو وافي جميع التعاليم التي تشكل أساس دين عالمي. وقد جاء في كتابه العزيز أن كل الناس أمة واحدة (سورة البقرة (٢):

الآية رقم (٢١٣))؛ كما ورد أيضاً في القرآن أن الله رب (أي أنه ينشئ الشيء من حال إلى حال التمام) العالمين (سورة الفاتحة (١): الآية رقم (١))؛ كما بعث الأنبياء في كل الأمم للراقي بها (سورة فاطر (٣٥): الآية رقم (٢٤))؛ وقضى الإسلام على كل أشكال التمييز القائمة على اللون، والجنس، واللغة (سورة الروم (٣٠): الآية رقم (٢٢)؛ سورة الحجرات (٤٩): الآية رقم (١٣))؛ كما تم إرساء أخوة واسعة النطاق، تمتد في شتى أنحاء العالم، بحيث يجب على كل من أفرادها الإيمان بالأنبياء المرسلين إلى الأمم كافة ومعاملة كل الأمم سواسية. وعلى ذلك، لم يكن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فحسب نبياً مرسلأ إلى العالمين حل محل الأنبياء الذين بعثهم الله إلى كل أمة، وإنما أيضاً أرسى أسس دين عالمي يحل فيه إدراك وحدة الجنس البشري محل فكرة القومية.

جميع الأنبياء أمة واحدة

بما أن الأنبياء مرسلون من عند الله، فإنهم جميعاً إخوة. ولم يتم إرساء مبدأ أخوة جميع الأنبياء في تحريم التفريق بين أنبياء الله فحسب، كما سبق أن ذكرنا، وإنما تم إرساؤه أيضاً بأوضح العبارات في القرآن والسنة. وعلى ذلك، فإنه بعد الحديث عن العديد من الأنبياء في سورة الأنبياء، قال تعالى: "إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً" (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٩٢)). وفي موضع آخر، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ". وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ". (سورة المؤمنون (٢٣): الآيتان رقم (٥١) و(٥٢)). كما ورد في الحديث أيضاً أن كل الأنبياء إخوة: "الأنبياء إخوة لعلاتٍ بيئهم واحدٌ وأمهاتهم شتى" (البخاري ٦٠: ٤٨). وقد تكون لكل نبي صفة مميزة له، ولكن، بوجه عام، فإن ما يُذكر في القرآن عن مكارم أخلاق أحدهم أو شخصيته العظيمة أو تعاليمه الفاضلة أو توكله على الله ينطبق على كل الأنبياء. وعلى ذلك، فعن إبراهيم، قال تعالى إنه كان "صِدِّيقًا" (سورة مريم (١٩): الآية رقم (٤١))؛ وعن موسى إنه كان "مُخْلِصًا" (سورة مريم (١٩): الآية رقم (٥١)) أو "لِئْتَنَعَ عَلَى عَيْنِي" (سورة طه (٢٠): الآية رقم (٣٩))؛ وعن إسماعيل إنه كان "صَادِقَ الْوَعْدِ" أو إنه "كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا" (سورة مريم (١٩): الآيتان رقم (٥٤) و(٥٥))؛ وعن نوح، وهود، وصالح، ولوط إن كلاً منهم "أَمِينٌ" (سورة الشعراء (٢٦): الآيات أرقام (١٠٧)، و(١٢٥)، و(١٤٣)، و(١٦٢))؛ وعن عيسى ابن مريم إنه كان "وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٤٥))؛ وعن يحيى المعمد قال تعالى "وَأَتَيْنَاهُ الْكُفْمَ صَبِيًّا. وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا". (سورة مريم (١٩): الآيات أرقام (١٢-١٤)) أو إنه كان "سَيِّدًا وَحَصُورًا" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٣٩)). وإنه لخطأ فادح أن نعتقد أن الصفات الكريمة المنسوبة إلى أحد الأنبياء قد لا تتوافر لدى الآخرين. فالأنبياء جميعاً أمة واحدة؛ بعثوا جميعاً لغرض واحد؛ وكانت تعاليمهم جميعاً متماثلة في

الأساس؛ وكانوا جميعاً صديقين، وأمناء، ووجهاء؛ وكانوا جميعاً مقربين إلى الله، وكلهم زكاهم الله، وكانوا جميعاً أتقياء، وكانوا جميعاً أسياداً حصورين، ولم يكن أي منهم جباراً أو عصياً لأمر ربه.^{١٩}

لماذا بعث الله الأنبياء؟

بعث الله الأنبياء للرفي بالبشرية وتحرير البشر من قيود الخطيئة. وقد سبق أن ذكرنا في الفصل السابق أنه كانت هناك حاجة للوحي الإلهي لتمكين الإنسان من قهر الشيطان الذي لولا ذلك الوحي لأصبح عقبة كبيرة في طريق رقيه الأخلاقي والروحاني. وقد أمر الله الإنسان بأن يعيش في جنة روحانية، ولكن لأنه عجز عن مقاومة إغواءات الشيطان، فأتاه الوحي من ربه ليعينه على ذلك؛ وأرسيته قاعدة لهداية البشر كافة في كل الأوقات: "فَأِمَّا يَا أَيُّنَّكُمْ مَّيِّي هُدَىٰ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٣٨)). ويشير نفي الخوف إلى الخوف من إغواء الشيطان، وكعلاج لذلك الخوف، أوتي الإنسان في البداية الوحي الإلهي. بالإضافة إلى ذلك، فإن كل نبي يأتي برسالة التوحيد وقد سبق أن ذكرنا (في سورة البقرة (٢)) أن مغزى هذه الرسالة هو رقي الإنسان في نواحٍ عديدة، أي في النواحي الجسدية والروحانية والأخلاقية. وكل نبي يوصف بأنه "مُتَّبِعٌ" و"مُنْذِرٌ"

^{١٩} لأن الدين المسيحي مبني على الاعتقاد بأن المسيح عيسى ابن مريم هو ابن الله وأنه وحده هو الذي يمكنه التكفير عن خطايا البشرية لأنه معصوم من الخطيئة، فإن كل كاتب مسيحي بذل قصارى جهده ليجد في القرآن ما يعزز قصر العصمة على المسيح عيسى ابن مريم، في حين أن الأنجيل تقوض تلك العصمة بذكر رد المسيح الواضح على الرجل الذي ناداه بلقب "المعلم الصالح": "لماذا تدعوني صالحاً. ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله" (متى ١٩: ١٧؛ مرقس ١٠: ١٨). وفي القرآن، يُنظر إلى كل الأنبياء على أنهم أمة واحدة. وعلى ذلك، فإن الحجة التي يحتج بها المسيحيون والقائلة بأن المسيح عيسى ابن مريم ورد عنه في القرآن أنه كان "وَجِبَّهَا" و"مِنَ الْمُقَرَّبِينَ" ومن ثم لا يتصف الأنبياء الآخرون بذلك، تدل، في حالة الاحتجاج بها ضده، أنه نظراً لما ورد في القرآن عن يحيى من أنه كان "خضوفاً" و"تقيّاً" فبالتالي لم يكن المسيح عيسى ابن مريم حصوراً أو تقيّاً؛ أو لأنه ورد عن إبراهيم في القرآن أنه كان "صديقاً"، ولم يوصف عيسى بذلك، فإن عيسى لم يكن صديقاً. ومن الجدير بالذكر أنه ورد في القرآن عن عيسى ابن مريم أنه كان "مِنَ الْمُقَرَّبِينَ" وفي موضع آخر، ورد عن صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنهم مقربون (سورة الواقعة (٥٦): الآية رقم (١١)). وتعتبر فكرة قصر العصمة على المسيح عيسى ابن مريم فكرة غريبة تماماً عن القرآن؛ كما أن وصف المسيح عيسى ابن مريم بأنه كلمته وروح منه لا يثبت بأي شكل من الأشكال أنه يعتبر أكثر من بشر لأن انتماءه إلى بني البشر قد تم تأكيده مراراً وبأوضح الكلمات: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٥٩))؛ "مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُوَّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٧٥)). وإذا كان المسيح عيسى ابن مريم يوصف بأنه كلمة الله، فإنما يدل هذا على أنه ينظر إليه على أنه مخلوق كسائر البشر، لأن كل المخلوقات توصف بأنها كلمات الله: "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِذَابًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جُنُودًا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" (سورة الكهف (١٨): الآية رقم (١٠٩)). وعلى ذلك، يعتبر المسيح عيسى ابن مريم واحدة من هذه الكلمات التي لا تحصى. وبالمثل، فإن المسيح يوصف بأنه روح من الله وليس روح الله كما يعتقد الكتاب المسيحيون بوجه عام: "يَا أَغْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٧١)). الكلمتان رُوحٌ وروح تحملان معنى رحمة الله وفقاً للأزهرى (انظر المعجم العربي الإنجليزي للين، مادة رُوح). كما أن كلمة رُوح معناها أيضاً إلهام أو وحي من الله (تاج العروس؛ المعجم العربي - الإنجليزي للين). وعلى ذلك يكون معنى الآية أن قدوم المسيح يكون وفقاً لنبوءة وحي من الله تعالى. وحتى إن أخذنا كلمة رُوح على أنها تعني الروح، فإنها لا تجعل المسيح عيسى ابن مريم يتخطى حدود كونه بشراً لأنه عن آدم أيضاً يقول تعالى: "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي" (سورة الحجر (١٥): الآية رقم (٢٩)).

(سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢١٣))؛ وتكون البشرية برقي الإنسان وسموه في حين يكون الإنذار من تعطل تقدمه أو عرقته. وقد ذكر أن المهام الأربع المكلف بها النبي (صلى الله عليه وسلم)، كما ورد ذكرها في القرآن عدة مرات، تتضح مما يلي: "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكُتَابَ وَالْحِكْمَةَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٥١)، وآيات أخرى). والكلمة العربية يزكي مشتقة من كلمة زكا التي تعني في الأصل، وفقاً لراغب مؤلف معجم مفردات القرآن، النمو الحاصل عن بركة الله تعالى (أي بتنمية القدرات التي أودعها الله في الإنسان) ويتعلق ذلك بالأمر الدنيوية والأخروية، أي بالبرقي الجسدي والروحي للإنسان. ومن ثم، فإن الرسالة المكلف بها النبي (صلى الله عليه وسلم)، أي التزكية، لا تدل فحسب على تطهير النفس من الخطيئة، وإنما تدل أيضاً على وضع الإنسان على الطريق نحو الرقي الروحي والأخلاقي.^{٢٠} وكل هذه الإشارات إلى الكتاب الكريم تدل على أن الهدف من إرسال الأنبياء إنما هو الرقي بالإنسان لتمكينه من التغلب على رغباته الحيوانية، وإلهامه بالرغبات النبيلة والسامية، وغرس أخلاق الله داخله.

وفي الواقع، فإنه قد ورد في القرآن أن كل إنسان نفخ فيه من روح الله: "ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهُ سُلَٰلَةً مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ" (سورة السجدة (٣٢): الآيتان رقمًا (٨) و(٩)). وهكذا، يعتبر كل إنسان روحاً من الله؛ بل إنه أكثر من ذلك لأن الإنسان يوصف بأنه خليفة الله (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٣٠)). وأحياناً، يستشهد بأحد الأحاديث تعزيراً للنظرية القائلة بقصر العصمة على عيسى ابن مريم: "مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمِشُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ غَيْرَ مَرْمٍ وَإِبْنَهَا" (البخاري ٦٠: ٤٤). ويروى حديث مشابه عن يحيى المعتمد: "مَا مِنْ أَحَدٍ يَلْقَى اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا ذَا ذَنْبٍ إِلَّا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا" (ابن كثير). ولكن هذين الحديثين يتعارض كل منهما مع الآخر؛ لأنه وفقاً للحديث الأول، فإنه حتى يحيى وُلد ومسه الشيطان، في حين أنه، وفقاً للحديث الثاني، فإنه حتى مريم وعيسى يكونان ذوي ذنب. ومن ثم، فمن المستحيل أن نأخذ الحديثين بمعناها الحرفي. وفي الواقع، تذكر مريم وابنها، في الحديث الأول، ويحيى، في الحديث الثاني، على أنهم نماذج للعبد الصالح. وقد جاء في القرآن نفسه أن مريم كانت من عباده المؤمنين: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ... وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَوَاتِينِ" (سورة التحريم (٦٦): الآيات أرقام (١٠-١٢)). ومثل المؤمن الذي لم يتحرر بعد من قيود الخطيئة كمثّل امرأة فرعون؛ فقد كان فرعون نموذجاً مجسداً للشر؛ ومثل المؤمن الذي تحرر من الخطيئة كمثّل مريم ابنة عمران التي حفظت فرجها وصدقت بكلمات ربها. ومن ثم، تعتبر مريم، كما جاء في القرآن، مثلاً للعبد الذي يعجز الشيطان عن إغوائه، أو الذي لا يسهه الشيطان وفقاً لما ورد في الحديث؛ في حين قال تعالى عن ابنها في نفس الآية: "فَتَفَقَّحْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا". ومن ثم، يخبرنا الحديث الأول أن هناك نوعين من البشر لا يغويهم أو يسهمهم الشيطان؛ منهم غير النبيين، مثل مريم، الذين يحفظون فرجهم ويطيعون أمر ربهم، والنبيون، مثل عيسى، الذين ينزل عليهم الوحي الإلهي. وفي الحديث الثاني، يشار إلى هذين باسم يحيى الذي يعني لغوياً أنه حي، أي البشر الذين توظف الحياة الروحانية داخلهم. وكل الآخرين يقال إن الشيطان يسهمهم، أي أن الشيطان يغويهم أحياناً، ولكن لأنهم مؤمنون بربهم فإنهم يصرخون طلباً للمساعدة وذلك هو معنى كلمة "صارحاً" المستخدمة في الحديث. ويشير وقت الميلاد المذكور إلى الميلاد الروحي الذي تتسم بداياته بمجاهدة الشر أو مجاهدة إغواءات الشيطان، وهي المجاهدة التي يشار إليها بالصرخة طلباً لعون الله في التغلب على تلك الإغواءات. ومن ثم، يجب قبول هذين الحديثين فقط مجازاً؛ لأنه إذا أخذناهما بمعناها الحرفي، فإنهما يتعارضان أحدهما مع الآخر، بل إنهما يتعارضان مع جميع تعاليم الدين أيضاً ومن ثم لا يمكن قبولهما بالتاكيد.

^{٢٠} هناك سوء فهم شديد من جانب علماء الدين المسيحيين للهدف الذي بعث الأنبياء لتحقيقه. حيث يعتقدون أن الخلاص من قيود الخطيئة يعتبر أهم شيء في الحياة الدنيوية للإنسان، وهو أسمى مرحلة روحانية يمكن أن يبلغها الإنسان؛ ومن ثم، يعتقدون أنه الله أرسل الأنبياء فقط لهذا الغرض. ومن ناحية أخرى، ينظر القرآن إلى العصمة من الخطيئة على أنها نقطة بداية الرقي الروحي للإنسان. وبالطبع، فإنه وفقاً لتعاليم القرآن، يجب على العبد أن يقاوم إغواء الشيطان، ولكن هذا إنما هو الخطوة الأولى في التنمية السليمة للقدرات الهائلة التي وهبها الله للإنسان، كما أن رقي الإنسان لا حدود له لدرجة أنه يستمر حتى بعد الموت، في الحياة الجديدة.

عصمة الأنبياء

يجب أن يكون البشر الذين عيّنهم الله في منصب النبوة معصومين من الخطيئة، والأكثر من ذلك أن يتحلوا بمكارم الأخلاق إذا كانوا يرجون تأدية المهمة التي كلفهم بها الله. ومن ثم، ظل مبدأ عصمة الأنبياء دائماً مبدأ معترفاً به لدى المسلمين. ورغم ذلك، فإن الكتاب المسيحيين الذين كتبوا عن الإسلام سعوا جاهدين لإثبات أن هذا المبدأ يتعارض مع ما ورد في القرآن،^{٢١} ولكن ما من شيء أبعد عن الحقيقة من ذلك. فالقرآن لم يُثنِ فحسب على الأنبياء كل على حدة أجمل الثناء، وإنما يعلن أيضاً في عبارات واضحة عامة أنه ليس للأنبياء أن يخالفوا أمر ربهم، سواء بالقول أو الفعل: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ. وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يُسْئِرُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ." (سورة الأنبياء ٢١): الآيات أرقام (٢٥-٢٧)).^{٢٢} وفي موضع آخر، قال تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلُ" (سورة آل عمران ٣): الآية رقم (١٦١)). وتذكر هاتان الآيتان بعبارات عامة مبدأ عصمة الأنبياء، في حين أنه سبق أن

^{٢١} يقر الكتاب سبيل في كتاب الدين الإسلامي بأن "المعتقد الصحيح هو أن الأنبياء معصومون من الخطيئة" (ص. ٢٩٩) ثم يمضي قائلاً إن هذا "يتعارض مع الحقائق الفعلية". ورغم أن كلاين في كتابه الدين الإسلامي يقر بأنه وفقاً لتعاليم الإسلام، فإن النبي يجب أن تتوافر فيه صفات الأمانة، والصدق، وما شابه ذلك من صفات، وأنه من المستحيل أن تنسب إلى الأنبياء صفات تتعارض مع ذلك مثل عدم الأمانة، أو الخيانة، أو الكذب أو السفاهة أو البلادة أو إخفاء الرسالة (ص. ٧٣، و٧٤)، فإنه يقول إنه يوجد "تعارض بين تعاليم القرآن وآراء رجال الدين". والحقيقة هي أن عقيدة التكفير المسيحية هي التي تعزى إليها كل هذه الاعتراضات الواهية التي يبديها المناظرون المسيحيون. ولأنه كان لا بد أن يكفر "ابن الله" عن خطايا البشر، فإن جميع الأنبياء الذي بعثوا لهداية البشر كانوا حتماً غير معصومين من الخطيئة. ولو كان هناك أنبياء آخرون مع عيسى ابن مريم معصومون من الخطيئة، لما كان العالم في حاجة لـ "ابن الله". ورغم الكثير من التحريفات في الكتاب المقدس، فإنه يحتوي على دليل قاطع يثبت عصمة الأنبياء. فعن نوح، ورد في الكتاب المقدس أنه كان "رجلاً باراً كاملاً في أجياله" (سفر التكوين ٦: ٩). وقال الرب لإبراهيم: "سر أمامي وكن كاملاً" (سفر التكوين ١٧: ١). وإلى موسى، قال الرب: "تكون كاملاً لدى الرب الهك" (سفر التثنية ١٨: ١٣). وكلمة كاملاً تعني أكثر من معصوم من الخطيئة. كما جاء في الإنجيل نفسه: "طوبى للكاملين طريقاً السالكين في شريعة الرب... أيضاً لا يرتكبون إثماً. في طريقه يسلكون" (المزامير ١١٩: ١، ٣). كما ورد في الكتاب المقدس أيضاً: "شريعة إلهه في قلبه. لا تتقلقل خطواته" (المزامير ٣٧: ٣١). ولم يكن زكريا، وفقاً لكتاب الإنجيل، نبياً ومع ذلك ورد في الإنجيل أنه كان هو وزوجته معصومين من الخطيئة: "وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم" (لوقا ١: ٦). وعن يحيى، ابنهما، ورد في الإنجيل أنه كان "من بطن أمه يمتلئ من الروح القدس" (لوقا ١: ١٥). وفي ضوء تلك الكلمات الواضحة التي تعزز مبدأ عصمة الأنبياء بل وعصمة العباد الصالحين غير الأنبياء، فإنه لتحذير كبير لما جاء في الكتب المقدسة أن ننسب إلى الأنبياء عدم العصمة من أجل نبي لام الآخرين لأنهم وصفوه بأنه "صالح" (مرقس ١٠: ١٧، ١٨). ومن ثم، فإن مبدأ عصمة الأنبياء يستند إلى القرآن والإنجيل.

^{٢٢} المفسرون الذين فسروا الكلمات الأخيرة من الآية على أنها تنطبق على الملائكة إنما فعلوا ذلك لأنهم لم يولوا أي انتباه إلى السياق الذي وردت فيه. فما من شك أنه، في موضع آخر، استخدمت كلمات مماثلة لوصف الملائكة: "لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" (سورة التحريم ٦٦): الآية رقم (٦). ولكن السياق هنا واضح جداً لدرجة أنه لا يحتاج لأي تعليق. فالآيات تتحدث عن الأنبياء ثم عن العقيدة المسيحية التي تقول بأن الله اتخذ لنفسه ولداً، والتي تستند إلى نظرية عدم عصمة الأنبياء أجمعين، كما سبق أن ذكرنا، ومن ثم، تذكر الآية في عبارات واضحة أن جميع الأنبياء معصومون من الخطيئة.

ذكرنا كيف كان كل نبي على حدة يثنى عليه أجمل الثناء؛ فأحدهم يوصف بأنه صديق (أي من لا يكذب أبداً)؛ وآخر خلصه الله بيده من الدنس وتربى بعين الله؛ وثالث يوصف بأنه كان عند ربه مرضياً؛ ورابع يذكر أن الله زكاه وكان تقياً ولم يكن قط عصياً؛ وخامس يذكر أنه كان وجيهاً ومن المقربين إلى الله؛ وكثير منهم، بما في ذلك النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، يوصف بأنه أمين أي أمين فيما بعثه الله به. ومن ثم، لم يدع القرآن أدنى شك في عصمة الأنبياء.

الاستغفار

رغم ذلك، توجد بعض الكلمات التي أساء بعض النقاد فهمها، الذين أسرعوا على الفور إلى الخلوص إلى الاستنتاج الخاطئ الذي مفاده أن القرآن لا يعزز مبدأ عصمة الأنبياء. وأهم هذه الكلمات كلمة الاستغفار التي تفسر بوجه عام على أنها تعني طلب المرء المغفرة من الله على ما ارتكبه من ذنب. ورغم ذلك، فإن الكلمة تحمل معنى واسعاً. فطلب الوقاية من الذنب^{٢٣} يعتبر أحد معاني الاستغفار شأنه شأن طلب الوقاية من الوعيد بالعذاب. وعندما يثبت، وفقاً لتعاليم القرآن، أن الأنبياء معصومون من الخطيئة، ففي هذه الحالة لا يمكن تفسير كلمة الاستغفار إلا على أنها تعني طلب الوقاية من الذنوب المعرض لها الإنسان لأنه لا يمكن أن يظل الأنبياء معصومين إلا بحفظ الله لهم. ومن ثم، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في أحد الأحاديث أنه كان يستغفر الله مائة مرة في اليوم؛ أي أنه (صلى الله عليه وسلم) كان في كل لحظة يستغفر الله ويدعوه بأن يعينه على عدم معصيته. والاستغفار أو طلب الغفر من الله هو في الواقع استعانة بالله في الرقي إلى مراحل أسمى من الكمال الروحي. وعلى ذلك، فإنه حتى أولئك الذين يدخلون الجنة ورد عنهم في كتابه العزيز أنهم يسألون الله الغفر: "رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآخِرُ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (سورة التحريم (٦٦): الآية رقم (٨)). وليس للغفر، بالمعنى الضيق للكلمة، أي مغفرة الذنوب، معنى في هذا السياق لأنه لن يدخل الجنة إلا من تغفر ذنوبه. ومن ثم، يرمز الغفر هنا إلى عون الله للإنسان في رقيه الروحي الذي يستمر حتى بعد الموت. وفي موضع آخر، توصف المغفرة، التي تحمل نفس معنى الغفر، بأنها نعمة من نعم الجنة: "وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ" (سورة محمد (٤٧): الآية رقم (١٥)). ومن ثم،

ويمكن أن نضيف أنه عند الإشارة إلى العقيدة القائلة بأن المسيح عيسى ابن مريم هو ابن الله تضاف عبارة "عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ". وتلقت هذه العبارة النظر إلى أنه كان هناك آخرون غير عيسى قيل عنهم إنهم أبناء الله، ولكن اللقب لا يدل على أي شيء سوى أنهم عباد مكرمون.

^{٢٣} كلمة استغفار مشتقة من الجذر غفر الذي يعني إلباس الشيء ما يصونه عن الدنس (المفردات في غريب القرآن). ومن ثم، فإن كلمة استغفار تعني طلب الستر أو الوقاية مما توعدهم الله لعبيده المذنب من عذاب. وقد وضع القسطلاني، في كتابه إرشاد الساري في شرح البخاري، هذا وأضاف أن كلمة غفر معناها ستر، أي الستر بين العبد وذنوبه أو بين الذنب وعقابه (إرشاد الساري، الجزء الأول، ص. ٨٥).

تعتبر المغفرة من النعم التي ينعم بها العباد الصالحون في الجنة ومن ثم تعتبر بمثابة عون من الله للإنسان في ترقيه فيها إلى مراتب أسمى.

الذنب

وهناك كلمة أخرى أساء النقاد فهمها وهي كلمة "ذنب" التي تحمل أيضاً معنىً واسعاً جداً.^{٢٤} فالكلمة تستخدم للإشارة إلى الإثم الذي يرتكب بسبب الضلال بقدر ما تستخدم للإشارة إلى التقصير في العمل الناجم عن السهو. وفيما يتعلق بالمعنى الثاني للكلمة، فإن هناك فرقاً شاسعاً بين العبد الصالح والمذنب. فالعبد الصالح، دون أن يحيد مطلقاً عن طريق الصلاح، يشعر دائماً بأنه قصر في عمل الخير إزاء البشرية أو في أداء واجبه تجاه ربه؛ وعلى ذلك، فعلى الرغم من أنه يعمل الخير، فإنه يشعر بأنه مقصر في شيء ما. وهناك فرق شائع بين تقصير هذا العبد الصالح وتقصير المذنب. فتقصير المذنب أو الذنب الذي ارتكبه هو أنه عصى أمر ربه متممداً وعمل السيئات في حين أن تقصير العبد الصالح يكمن في عدم اقتناعه بأنه عمل كل الخير الذي كان في وسعه عمله.

الخطأ

هناك كلمة أخرى تحتاج لشرح في هذا الصدد، وهي كلمة خطأ. ولهذه الكلمة أيضاً معنى واسع حيث تشمل جميع الأفعال والأخطاء غير المتعمدة بالإضافة إلى الأخطاء في الحكم.^{٢٥} ومن ثم، لا يدل استخدام الكلمة مع أحد الأنبياء على ارتكاب أي ذنب.

^{٢٤} وفقاً لأحد مؤلفي معاجم مفردات القرآن، فإن كلمة ذنب في الأصل تعني الأخذ بنزب الشيء ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه (المفردات في غريب القرآن). ووفقاً لمؤلف أحد المعاجم، فإن كلمة ذنب معناها إما إثم أو جرم أو خطأ ويقال إن الذنب يختلف عن الإثم في أنه إما يكون متعمداً أو يرتكب عن غير قصد في حين أن الإثم يكون متعمداً بشكل مؤكد (المعجم العربي - الإنجليزي للين).

^{٢٥} وفقاً لراغب، فإنه عندما يريد الإنسان ما يحسن فعله ولكنه يقع منه خلاف ما يريد، فإن هذا أيضاً يكون خطيئة. ووفقاً لأحد المفسرين الثقات، فإن الفرق بين الخطيئة والإثم هو أنه في الإثم يكون هناك تعمد، وهو لا يوجد بالضرورة في الخطيئة (جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء الخامس، ص. ١٦٢). وعندما لا يتوصل المجتهد إلى حكم صائب ويخطئ في حكمه، فإن له رغم ذلك أجراً كما روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) لأن مقصده كان حسناً. ومن ثم لا تدل كلمة خطيئة أو خطأ بالضرورة على ارتكاب ذنب.

حالات فردية: نوح وإبراهيم

إن النقد المسيحي للإسلام يوجّه، بصفة خاصة، لمبدأ عصمة الأنبياء، وهذا يرجع، كما سبق أن ذكرنا، إلى عقيدة التكفير المسيحية التي تنهار من تلقاء نفسها في اللحظة التي يعتبر فيها أي شخص آخر مشاركاً للمسيح عيسى ابن مريم في شرف العصمة. ورغم ذلك، فإن هذا النقد لا يستند على أي مبدأ ورد في القرآن، لأنه قد جاء في القرآن في كلمات واضحة أن كل أنبياء الله لا يعصون، بالقول والفعل، أوامر ربهم، حتى في بعض حالات أنبياء بعينهم. ويرجع معظم هذا النقد، الذي لا يعتبر في محله، إلى خطأ في فهم الكلمات الأربع التي سبق تفسيرها أعلاه، أي غفر، واستغفار، وذنّب، وخطأ. فعلى سبيل المثال، قال النقاد إن نوحاً كان مذنباً لأنه دعا ربه قائلاً: "رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (سورة هود (١١): الآية رقم (٤٧)). والكلمة المستخدمة للإشارة إلى المغفرة مشتقة من كلمة غفر التي تعني، كما سبق أن ذكرنا، طلب الوقاية، كما أن دعاءه ليس فيه أدنى إشارة إلى أي اعتراف بالذنّب من جانب نوح. وبالمثل، ينظر أولئك النقاد إلى إبراهيم على أنه مذنب لأنه ورد عنه في القرآن أنه كان يطمع أن يغفر الله له خطيئته، كما جاء في قوله تعالى: "وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ". (سورة الشعراء (٢٦): الآية رقم (٨٢)). ولكن هناك فرقاً بين ارتكاب خطيئة ومعصية أوامر الله، وليس من الممكن أن يحزّف أي ناقد راجح العقل هذه الكلمات ليجعلها تشير إلى اعتراف بالذنّب.

النبي محمد (ص)

قال نقاد الإسلام عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إنه مذنب لأنه (عليه الصلاة والسلام) أمرَ بأن يستغفر لذنّبه (سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٥٥)). إلا أن طلب الوقاية من الذنب (وهو أحد معاني الاستغفار) لا يعني أن ذنبا قد ارتكب - وإنما من يستغفر ربه، أي يطلب الوقاية الإلهية من الذنب، يحمي نفسه من ارتكاب الذنب؛ بالإضافة إلى ذلك فإن الكلمة المستخدمة في الآية هي كلمة نذب التي تعني أي تقصير من جانب البشر في أداء واجبهم تجاه ربهم. ورغم ذلك، يمكن مناقشة الآيتين التاليتين بمزيد من التفصيل: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ" (سورة الفتح (٤٨): الآيتان رقماً (١) و(٢)). وحتى إن أخذنا ذنّبك بمعنى الذنب الذي ارتكبه، فليس هناك إثم ينسب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، وإنما ينسب إليه فقط تقصير البشر لأن كلمة نذب، كما سبق أن ذكرنا، تحمل ذلك المعنى الأوسع. ولكن، في

الواقع، فإن كلمة ذَنْبِكَ هنا يقصد بها الذنب المنسوب إليك^{٢٦} وليس الذنب الذي ارتكبه. واستناداً إلى أفضل التفات،^{٢٧} فإن الفتح الذي ورد ذكره في الجملة الأولى هو صلح الحديبية. فخلال حالة الحرب التي دامت فترة طويلة بين المسلمين وأعدائهم، لم تكن هناك فرصة أمام أعدائهم ليتفكروا في محاسن الإسلام، وإنما كانوا، في الواقع، يكونون قدراً من الكراهية له. ولم يتعاملوا مع النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا كأعداء على أرض المعركة، ومن ثم رسموا له صورة مظلمة كعدو. وقد كان الصلح الذي أبرم في الحديبية بمثابة نصر للإسلام أو، على الأقل، كان مكسباً لقضية الإسلام لأنه أوقف القتال الدائر بين الطرفين؛ وبعد أن حل السلام في البلاد، اختلط غير المسلمين بالمسلمين دون قيود وتركت محاسن الإسلام ومكارم أخلاق النبي (صلى الله عليه وسلم) أثراً عليهم. وأزيل سوء الفهم وبدأ الناس يجذبون لصورة الإسلام المشرفة. وبهذا المعنى، أصبح صلح الحديبية، الذي يسمى فتحاً مبيناً للإسلام، بمثابة الوسيلة التي وقى (غفر) بها الله تعالى النبي (صلى الله عليه وسلم) مما قيل عنه من قول سوء. لقد كان نصراً على قلوب الرجال كما غير موقفهم العقلي تجاه الإسلام في الوقت الذي ازداد فيه عدد المسلمين زيادة كبيرة. وتشير عبارة "مَا تَأَخَّرَ" إلى الانتقادات التي سوف يوجهها إليه (صلى الله عليه وسلم) نقاد الإسلام فيما بعد، كما تدل على أنه سوف يقال عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قول سوء فيما بعد أيضاً وأنه سوف تتم إزالة كل ذلك التحريف للحقائق وسوء الفهم.

موسى

قال النقاد أيضاً عن موسى إنه ارتكب ذنباً عندما قتل قبطياً، ولكن القرآن يوضح أن موسى وكز ذلك القبطي بقبضة يده ليصد الهجوم عن فرد من بني إسرائيل كان القبطي يؤذيه (سورة القصص (٢٨): الآية رقم (١٥))، وعلى ذلك لم يكن موته مقصوداً. وما من قانون يدين إنساناً في ظل تلك الظروف. ومن الصحيح أن كلمة ضل تستخدم لوصف موسى في هذه الحادثة في موضع آخر (سورة الشعراء (٢٦): الآية رقم (٢٠))، ولكن كلمة ضلّ تعني أنه كان مرتكباً أو متحيراً (المعجم العربي - الإنجليزي للين)، وبهذا المعنى تستخدم الكلمة في الآية. كما تستخدم كلمة ضال أيضاً للإشارة إلى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في سورة الضحى (٩٣): الآية رقم (٧) بنفس

^{٢٦} يعتبر مفهوم الإضافة من المفاهيم الشائعة في اللغة العربية. حيث يتحدث القرآن مراراً وتكراراً عن شركاء الله رغم أن المعنى المقصود هو الشركاء الذين نسبهم المشركون إلى الله تعالى. وبالمثل ففي سورة المائدة (٥): الآية رقم (٢٩)، فإن كلمة إِيْمِي لا تعني الإثم الذي ارتكبه وإنما تعني الإثم الذي يُرتكب ضدي، كما جاء في قوله تعالى: "إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَإِثْمِكَ".

^{٢٧} سورة الفتح (٤٨): الآية رقم (١)؛ البخاري (٦٤: ٣٧).

المعني تقريباً، أي أنه غير مهتد لما سيق إليه من النبوة (المفردات في غريب القرآن). وهذا لا يتبين من السياق فحسب، وإنما يتبين أيضاً من سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) التي ورد فيها أنه منذ طفولته (صلى الله عليه وسلم) لم يكن ينصرف فحسب عن عبادة الأصنام، وإنما أيضاً عن كل أفعال الشر التي كانت سائدة في مجتمع العرب. وعندما كان يعيش (صلى الله عليه وسلم) وسط ذلك المجتمع، لم يكن فحسب يبتعد عن رذائله، وإنما كان أيضاً يرنو لإيجاد سبيل لتخليص ذلك المجتمع من تلك الرذائل. وكان (صلى الله عليه وسلم) يرى حوله تدهور حال البشرية الغارقة في الانحطاط الأخلاقي، ولكنه لم يكن يرى سبيلاً للارتقاء بها؛ والله هو الذي هداه إلى ذلك السبيل، كما يوضح نص الآية الكريمة: "وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ". (سورة الضحى (٩٣): الآية رقم (٧)).

آدم

وعن آدم، ورد في القرآن بلا شك قوله تعالى: "وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ" (سورة طه (٢٠): الآية رقم (١٢١))، ولكن، حتى في هذا السياق، ليس هناك ارتكاب للذنب، لأنه - على سبيل التمهيد لتلك الحادثة - ورد في كتابه العزيز في عبارات واضحة قوله تعالى: "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَيْهِ وَلمَ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (على أن يعصي)" (سورة طه (٢٠): الآية رقم (١١٥)). أي أنه لم تكن هناك نية لدى آدم لمعصية أمر ربه؛ وإنما النسيان فقط هو الذي أدى إلى المعصية. وفي سورة البقرة (٢): الآية رقم (٣٦)، حيث تروى نفس الحادثة، تستخدم بدلاً من كلمة معصية كلمة مشتقة من كلمة زلة التي تعني خطأ. وعلى ذلك، لم يرد في القرآن أن أحد الأنبياء ارتكب ذنباً ومن ثم لا يمكن الهجوم على مبدأ عصمة الأنبياء.

مفهوم المعجزات في الإسلام

الكلمة المستخدمة في القرآن للإشارة إلى المعجزة هي كلمة آية التي تعني في الأصل العلامة الظاهرة وحقيقته لكل شيء ظاهر (المفردات في غريب القرآن). ووفقاً لاستخدام الكلمة في القرآن، فإنها تحمل بوجه عام أحد معنيين؛ هما: العلامة أو الدليل أو البرهان، والرسالة الإلهية أو التبليغ عن الله عز وجل. وبالمعنى الأول، فإن الكلمة تشمل المعجزة في معناها وبالمعنى الثاني تشمل الآية القرآنية. ومن الجدير بالملاحظة أن نفس الكلمة تستخدم للدلالة على الرسالة الإلهية بالإضافة إلى البرهان الدال على صدقها. ويدل هذا الاستخدام على أن الرسالة الإلهية نفسها تشكل، أولاً وقبل كل شيء، برهاناً دالاً على صدقها، ومن ثم ينظر كل المسلمين دائماً إلى القرآن على أنه أعظم معجزة أيد الله بها النبي (صلى الله عليه وسلم). وإنه حقاً أعظم معجزة أنعم الله بها على

نبي، لأنه لا يحتاج لأي دليل آخر يعززه، وإنما هو في حد ذاته برهان حي دالّ على صدقه طوال الوقت.

وبوجه عام، يرى الكتاب المسيحيون الذين كتبوا عن الإسلام أنه رغم أن القرآن يسجل معجزات معينة للأنبياء الآخرين، فإنه ينفي أن النبي محمداً (صلى الله عليه وسلم) قد أوتي أي آيات على الإطلاق سوى الكتاب الكريم نفسه. ومن الصحيح أن مفهوم المعجزات في القرآن مختلف تماماً عن مفهومها في المسيحية. حيث إنه في المسيحية، تكون للمعجزات أهمية كبرى. فالمعجزات في المسيحية لا تحل محل الحجة فحسب، وإنما أيضاً يرتكز المبدأ الأساسي للدين المسيحي على معجزة مزعومة. فماذا يكون قيام السيد المسيح سوى معجزة؟ بل إنه معجزة دون أي دليل على صدقها. ورغم ذلك، فإن لم يقدّم عيسى، فسوف ينهار الأساس الذي يرتكز عليه بنیان المسيحية كله. وبما أن المبدأ الأساسي للمسيحية هو المعجزة، فلا عجب أنه، في الأناجيل، تحل المعجزات ليس فحسب محل الحجة، وإنما أيضاً محل الفرائض الدينية، والتعاليم الأخلاقية، والليقظة الروحية. ففي المسيحية، يُحيي المسيح عيسى ابن مريم الموتى، ويشفي كثيراً من المرضى، ويُبرئ الأكمه، ويجعل الكساح يمشي، ويُسمع الأصم، ويحوّل الماء إلى خمر، ويطرد الشياطين من أجساد البشر، ويصنع معجزات أخرى كثيرة.^{٢٨} وأن هذه المعجزات مجرد مبالغات أو سوء فهم أو حتى قصص ملفقة فهذا أمر آخر؛ وإنما الانطباع الذي يأخذه المرء هو أن الهدف العظيم أمام المصلح ليس إحداث تحول عن طريق غرس الإيمان بالله في عقل العبد؛ وأنه يسعى لبلوغ الإيمان بالحق، ليس بالحجة أو مناقشة القلب، وإنما بترويع العقل بالمعجزات. في حين أن مفهوم المعجزة، كما ورد في القرآن، مختلف تماماً. فهنا الهدف الأسمى أمام النبي (صلى الله عليه وسلم) هو إحداث تحول أخلاقي وروحي في حياة العبد؛ والوسائل المستخدمة في ذلك هي مخاطبة ملكة التفكير المنطقي داخله، ومناقشة قلب العبد لإقناعه بأن هدف الرسالة الإلهية هو الرقي به، وبيان العبر المستمدة

^{٢٨} رغم أن الأناجيل تركز بشدة على المعجزات، فإن قوة برهان المعجزات، إن كان هناك أي برهان، تسلب بسبب حقيقتين بارزتين. أولاً، وفقاً لما ورد في الأناجيل، فإنه حتى أعداء المسيح عيسى ابن مريم صنعوا معجزات مماثلة لأنه هو نفسه يقول: "وإن كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين فأبناؤكم بمن يُخرجون." (متى ١٢: ٢٧؛ لوقا ١١: ١٩). ومن ثم، كان في إمكان الحواريين من الفريسيين صنع المعجزات التي أتى بها عيسى. كما ينقل عنه قوله أيضاً: "كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة." (متى ٧: ٢٢). وحتى المسحاء الكذبة كانوا يستطيعون عمل المعجزات التي ظهرت من عيسى: "لأنه سيقوم مسحاء كذبة وانباء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب" (متى ٢٤: ٢٤). وأخيراً، كانت توجد في تلك الأيام بركة الشفاء: "وفي أورشليم عند باب الضأن بركة يقال لها بالعبرانية بيت حسدا لها خمسة أروقة. في هذه كان مضطجعا جمهور كثير من مرضى وعمي وعرج وعسم يتوقعون تحريك الماء. لأن ملاكا كان ينزل أحيانا في البركة ويحرك الماء. فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض" (يوحنا ٥: ٢-٤). وإذا كانت المعجزات يسيرة جداً في تلك الأيام، وإذا كان حتى الحواريين من الفريسيين والمسحاء الظلمة والكذبة يمكنهم صنع نفس المعجزات التي أتى بها "ابن الله"، وإذا كانت توجد تلك البركة العجيبة، فما هو إذن الدليل الذي تستطيع أن تقدمه هذه المعجزات؟

من التاريخ الماضي التي تثبت أن قبول الحق كان دائماً يعود بالنفع على الإنسان وأن رفضه أدى إلى هلاكه. وللمعجزة مكانتها في التدبير الإلهي، فهي شيء عظيم خارج نطاق قدرة البشر وإدراكهم يحدث من حين لآخر ليثبت أن مصدر رسالة الحق العظيمة هو مصدر خارق للطبيعة، مصدر إلهي. وهكذا، يوضح القرآن أن إحداث التحول هو الهدف الحقيقي الذي بعث من أجله الأنبياء وأن هذا الهدف يتحقق بعدة وسائل كل منها بالتالي ليس له سوى أهمية ثانوية، وأنه بين هذه الأدلة على صدق النبي (صلى الله عليه وسلم)، لا تحتل المعجزة أعلى مرتبة.

وعلى ذلك، فرغم أن القرآن يحتوي على حجج كثيرة، ويخاطب الطبيعة البشرية مراراً، ويشير بشكل متكرر إلى قصص الأولين، فإنه قلما يرد فيه ذكر المعجزات. ولكنه، رغم ذلك، لا ينكر وجود المعجزات، كما جاء في قوله تعالى: "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلُوبُهُمْ إِنَّهَا آيَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْ لَأَيُّؤْمِنُونَ" (سورة الأنعام ٦): الآية رقم (١٠٩)). وتدل عبارة "إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ" بوضوح، كما تدل أيضاً الكلمات التي تليها، على أنه سوف تبيّن آيات خارقة للعادة كدليل على صدق الرسالة الإلهية التي نزلت على النبي (صلى الله عليه وسلم). ومن المستغرب أن هناك نقاداً يرون في هذه الآية إنكاراً لإظهار الآيات للناس فقط لأنه ورد أن الآيات من عند الله. ومن الصحيح أن القرآن لا يصور النبي محمداً (صلى الله عليه وسلم) على أنه صانع المعجزات كما تصور الأنجيل المسيحي عيسى ابن مريم. ومعنى الآية هو أن الآيات تبيّن، ليس عندما يرغب النبي (صلى الله عليه وسلم) في ذلك أو عندما يطلب أعداؤه، وإنما عندما يشاء الله؛ ومن ثم، فعندما طلب الكفار أن تبيّن لهم آية خارقة للعادة تثبت صدق النبي (صلى الله عليه وسلم)، كان الرد هو أن تلك الآية سوف تأتي عندما يشاء الله.

وهناك آية قرآنية أخرى أساء النقاد فهمها تتعلق بإظهار الآيات، وفيما يلي نص الآية: "وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ... وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيلاً" (سورة الإسراء ١٧): الآية رقم (٥٩)). ولا تعني هذه الكلمات أنه لأن الأولين كذبوا بالآيات، فإن الله تعالى لن

ومع ذلك، هناك اعتبار آخر يجعل دليل المعجزات الواردة في الأنجيل عديم القيمة. فالمعجزة في حياة أي نبي تكون ضرورية لتأكيد صدق رسالته للقوم الذين بعث إليهم ولإقناع أصحاب العقول العادية بأنه هناك قوة خارقة للطبيعة تؤيده. ومن ثم، فالسؤال الآن هو: على فرض أن عيسى ابن مريم أتى بالمعجزات التي دونت عنه في الأنجيل، فما هو الأثر الذي أحدثته تلك المعجزات؟ وبالتأكيد، لو كان عيسى أتى بتلك المعجزات، لكان ينبغي على العامة اتباعه دون تردد. ولكنه ورد في الأنجيل أنه رغم اتباع أعداد كبيرة من المرضى له وشفائهم ورغم أن الإيمان كان شرطاً أساسياً للشفاء، فإنه لم يكن لعيسى قط عدد كبير من الأتباع. فقد اتبعته قلة قليلة ربما لم يزد عددها عن خمسمائة شخص. كما أن الحواريين لم يظهر بأي شكل ملحوظ تأثير المعجزات على حياتهم. فمن بين الاثني عشر الذين اختارهم المسيح، كان أحدهم خائناً، وآخر ملعوناً، وفر الباقون تاركين المعلم في حالة سيئة. ومن ثم، فحتى إذا كان عيسى ابن مريم قد أتى بالمعجزات، فإنه يبدو أنها لم تحقق الغرض الذي أوتيت من أجله القوة الخارقة.

يرسل آيات بعد ذلك. ولو كان هذا هو المعنى، لتوقف الله حتى عن إرسال الرسالات السماوية، لأن الأولين كذبوا من قبل بتلك الرسالات. ولكن لأن كلمة آيات تعني علامة ورسالة، فإن حجة التأكيد تتسحب عليهما على حد سواء. ومعنى الكلمات واضح تماماً. وهو أنه لو كان هناك شيء يمكن أن نعتبر أنه قد منع الله من إرسال رسالة جديدة أو آية، لكان ذلك الشيء بالتأكيد هو تكذيب الأولين بتلك الآيات، ولكن الله لم يمتنع عن إرسالها قط. وإنما كان الله تعالى رحيماً بكل الأجيال ولم يكن تكذيب الأولين بآياته مبرراً لحرمان الآخرين من الآيات والهداية الإلهية.

معجزات الإسلام

كما سبق أن ذكرنا، فإن أعظم معجزة في الإسلام هي القرآن. وليست هذه فكرة خطرت ببال المسلمين بعد ذلك، لأن الله تعالى قال إن كتابه الكريم معجزة وتحدى العالم أن يأتي بمثله: "قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا." (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٨٨)). "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (سورة هود (١١): الآية رقم (١٣)). "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (سورة يونس (١٠): الآية رقم (٣٨)). "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣)).

ويكمن البرهان الدال على صحة هذا في النتيجة التي تحققت - أي التحول المذهل الذي أحدثته - والذي أقرّ به أصدقاء ونقاد الإسلام على حد سواء. فعن القرآن، يقول بعض الكتاب المعاصرين: "إنه المعجزة الوحيدة التي أتى بها محمد - "معجزته الباقية" كما أسماها؛ وإنه حقاً لمعجزة".^{٢٩} "ليس للقرآن نظير من حيث القدرة على الإقناع، والبلاغة، والتركيب... ولم يقطع قوم قط مسيرة الحضارة بخطى أسرع من العرب من خلال الإسلام".^{٣٠} "كان من الصعب أن نجد قوماً متفريقين أكثر من العرب حتى حدثت المعجزة فجأة! فظهر رجل تمكن بالفعل، بشخصيته وبما أعلنه من تلقيه الهداية الإلهية المباشرة، من تحقيق المستحيل - أي لم شمل جميع الأطراف المتناحرة".^{٣١} "لا عجب ألا ينجح أفضل الكتاب العرب في أن يأتوا بمثل القرآن من حيث مزايها".^{٣٢}

^{٢٩} حياة محمد، بوسويرث سميث، ص. ٢٩٠.

^{٣٠} أبحاث جديدة حول تركيب وتفسير القرآن، هيرشفيلد، ص. ٨٥.

^{٣١} ظواهر وبعاطن الأمور في بلاد ما بين النهرين، ص. ٩٩.

^{٣٢} مقدمة لترجمة القرآن، بالمر، ص. ٤.

وخلاصة القول، فإن القرآن يعتبر معجزة لأنه أحدث أعظم تحول شهده العالم حتى الآن - تحول في حياة الفرد، والأسرة، والمجتمع، والأمة، والدولة، أحدث يقظة على المستويات المادية والأخلاقية والفكرية والروحية. وقد أحدث تأثيراً أكبر بكثير من تأثير أي معجزة أخرى سجلت عن أي من الأنبياء؛ ومن ثم لا جدال ولا نزاع على كونه أعظم المعجزات كافةً.

النبوءة

من بين كل المعجزات، يعطي القرآن المرتبة الأولى للنبوءة، وفي الواقع فإن للنبوءة، من حيث بعض الاعتبارات، أهمية أكبر من تلك التي تنسب إلى المعجزات الأخرى. والمعجزات بوجه عام هي دلائل على قدرات الله تعالى، والنبوءة هي التي تبرز علم الله الذي لا حدود له والذي يشمل المستقبل والماضي والحاضر. ولكن هناك موطن ضعف شديد ملازم لجميع المعجزات التي تكون مجرد دلائل على القدرة. فمن الصعب للغاية إيجاد أدلة موثوق بها تعززها في ظل جميع الظروف. فقد يكون بعض الرجال شاهداً حدوث تلك المعجزة وقد يقنع الدليل المتوافر لديهم معاصريهم، ولكن، مع مرور الوقت، يفقد دليلهم كثيراً من قيمته. ومن ثم، تحتاج المعجزة لإثبات تام قبل التمكن من استخدامها كدليل يؤيد نبوءة أي من أنبياء الله، وفي معظم الحالات، يكون من الصعب جداً، إن لم يكن من المستحيل، أن نورد أي دليل على حدوث المعجزة بالفعل. وهناك صعوبة أخرى توجد بوجه عام في مسألة المعجزة هي أنها رغم كونها حدثاً خارجاً للعادة، فإنه يمكن تفسيرها علمياً، وبالتالي تفقد كل قيمتها كدليل على صدق الرسالة الإلهية التي نزلت على صانع تلك المعجزة. فلنأخذ على سبيل المثال المعجزات العظيمة للمسيح عيسى ابن مريم. وأعظم هذه المعجزات هي معجزة إحيائه الموتى، وفي إحدى الحالات، أي في حالة ابنة الحاكم، يقول عيسى ابن مريم: "الصبيبة لم تمت لكنها نائمة" (متى ٩ : ٢٤). ولم تكن هناك شهادة طبية تثبت أن الفتاة قد ماتت بالفعل، ورغم انطباع أقاربها بأن ذلك هو الوضع، فإن المسيح عيسى ابن مريم نفسه كان يعلم أنها كانت نائمة أو ربما كانت في حالة فقدان للوعي. ولو فرضنا أن الحواريين لم يسيئوا فهم كلماته الرمزية - وقد كان عيسى يتكلم كثيراً بالكناية^{٣٣} - فإنه لا يزال هناك احتمال أن الشخص الذي ظنَّ

^{٣٣} ما من أدنى شك أن عيسى ابن مريم كان كثيراً ما يتكلم بالنبوءة ويكثر من استخدام اللغة الرمزية: "ودع الموتى يدفنون موتاهم" (متى ٨ : ٢٢). "إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله... فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج..." (يوحنا ٥ : ٢٥-٢٩). ويبدو أنه ما من شك في أن كلمات كهذه كانت هي المصدر الذي نبعت منه معجزات مثل ما يلي: "وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنتين من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت والصخور تشقق، والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين. وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين." (متى ٢٧ : ٥١-٥٣). وعن هذه الحادثة، قال أحد مفسري الإنجيل المعاصرين إنه "يبدو أنه إعلان واضح للحقيقة أن قيام السيد المسيح بنطوي على قيام جميع القديسين حيث إنه يمكن القول إلى حد ما إنه في عيد الفصح قام جميع المسيحيين معه" (تفسير الإنجيل لداميلو).

بالخطأ ميتاً لم يكن في الواقع قد مات. وهذا بالضبط هو ما حدث في حالة عيسى نفسه الذي ظنَّ الناس بالخطأ أنه ميت، ولكنه لم يكن بالفعل ميتاً كما يتضح لنا من الحقائق التي دونت عنه في الأناجيل. ورغم ذلك، فإن الشك في معجزة عيسى الخاصة بشفاء المرضى يزداد بالنظر إلى أن أعداءه كانوا يصنعون معجزات مماثلة وإلى أنه كانت هناك، كما نعلم، بركة شفاء، في تلك الأيام، تعيد البصر إلى الأعمى وتشفى جميع الأمراض. ورغم ذلك، لا توجد هذه الشكوك في حالة النبوءة، التي تثبتت أمام محك الدراسة العلمية. علاوة على ذلك، فإن الأدلة في تلك الحالة تستند على أساس أكثر رسوخاً كما أن تحقق النبوءة بوجه عام يحدث بعد فترة زمنية طويلة. والنبوءة التي تأتي من مصدر إلهي تكشف بالطبع عن حدث ما خارج نطاق علم البشر ولا يمكن اكتشافه بعيد نظر البشر. كما يجب أيضاً أن ترتبط بغاية إلهية خفية تتعلق بالسمو بالبشرية لأن النبوءات ليس الهدف منها إرضاء حب استطلاع البشر فحسب. وأخيراً، يجب أن تساند النبوءة قوة إقناع بحيث إنها لا تنطق فحسب بأقوى يقين وإنما تنطق أيضاً في ظل ظروف تتعارض في ظاهرها مع ما يتم الكشف عنه في النبوءة. والنبوءة التي تتوافر فيها هذه الشروط الثلاثة تعتبر من أعظم المعجزات، فهي معجزة تثبت بمخاطبتها للعقل أن هناك إلهاً يكشف أسرار الغيب للعبد ويمكن للعبد التقرب إليه.

نبوءة انتصار الإسلام

تغطي النبوءات التي ورد ذكرها في القرآن وتلك التي نطق بها النبي (صلى الله عليه وسلم)، والتي تمتلئ بها كتب الحديث، حيزاً شاسعاً جداً وترتبط بمستقبل بعيد جداً لدرجة أنها تحتاج لمعالجة منفصلة. ولكن يمكن أن نعطي مثلاً توضيحياً لما ذكر أعلاه. فعلى سبيل المثال، يبرز القرآن النبوءة العظيمة بانتصار الإسلام كما أن السور الأولى من القرآن حافلة بتلك النبوءات المنطوقة بصيغ عديدة. وقد نزلت هذه السور ونطق بهذه النبوءات في وقت كان فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) وحيداً أعزل تماماً يهاجمه من كل الجهات أعداء يتآمرون للقضاء على حياته. كما أجبرت القلة التي كانت تؤمن بقضيته على مغادرة منازلها واللجوء إلى أرض غريبة من جراء الاضطهاد الشديد الذي تعرضت له. ولم يكن هناك أي توقُّع بأن يحرز الإسلام أي تقدم أمام القوى الهائلة للشرك وعبادة الأصنام وذلك القدر الهائل من الخرافات والشر بكل أنواعه التي احتشدت جميعاً ضده. وقد باءت بالفشل الذريع جميع المساعي السابقة الرامية لإصلاح حال الجزيرة العربية، تلك المساعي التي بذلتها الأمة اليهودية التي كانت تستقر في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية، ومساعي المبشرين المسيحيين الذين كانت تساندهم الإمبراطورية الرومانية القوية في الشمال والحبشة في الجنوب والغرب، وكذلك مسعى السكان العرب الأصليين الذي كان يعرف بالحركة الحنيفية، وهكذا لم يكن فشل كل مسعى سابق سوى رمز لليأس من أي حركة إصلاح

جديدة. ورغم ذلك، فإنه في ظل هذه الظروف غير المواتية، ووسط لا شيء سوى اليأس الذي كان يحق بالنبي من كل الجهات، نجد النبوة تلو الأخرى التي تنطق بأكثر العبارات ثقة وتأكيدا والتي تعيد أن قوى المعارضة الشديدة سوف يقضى عليها، وأن أعداء الإسلام سوف يخذلون ويهلكون، وأن الإسلام سوف يصبح الدين السائد في شتى أنحاء الجزيرة العربية، وأن الإمبراطورية الإسلامية سوف يتم تأسيسها وأن المسلمين سوف يخوضون المعارك التي سوف ينتصرون فيها ويغلب فيها العدو، وأن الإسلام سوف ينشر في أقصى ربوع الأرض، وأخيراً أنه سوف ينتصر على سائر أديان العالم.^{٣٤} كل هذا ورد في القرآن في كلمات واضحة وفي وقت لم يكن فيه أي توقع بأن يحرز الإسلام أي تقدم، وكل هذا أيضاً تحقق، على غير التوقعات، في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم). وما من أحد لديه دراية بالقرآن والتاريخ الإسلامي يمكن أن تراوده شكوك في هذا الصدد.

ورغم ذلك، فإن قيمة النبوة، كمعجزة من معجزات الإسلام، تعتبر أشمل وأعم من ذلك بكثير. فهناك نبوءات عظيمة وعجيبة وردت في الكتاب وأكثر منها ورد في السنة، وهي تمتد إلى المستقبل البعيد، وتحقق كثير منها في عصرنا، وتقريباً كل جيل من المسلمين يشهد بأعينه تحقق نبوءة أو أكثر من هذه النبوءات العظيمة، ولا يحتاج أن يقلب صفحات التاريخ ليتعرف على المعجزات التي صنعها النبي (صلى الله عليه وسلم) في العصر السابق. ومن السمات الأخرى التي يتميز بها هذا النوع من المعجزات أنها تعطى حتى للعباد الصالحين الذين يتبعون النبي (صلى الله عليه وسلم)

^{٣٤} في هذا الصدد، أود أن أستشهد ببعض الاقتباسات من الكتاب الكريم: "أَكْفَرُكُمْ (فرعون والآخرون) خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمُ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ. أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ. سَيُجْزَى الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ". (سورة القمر (٥٤): الآيات (٤٣-٥٤)).
 "وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ. وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرَهُمْ لِلْأَعْيُنِ لَمِنَ اللَّهِ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفًا وَعِدَّهُ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ". (سورة إبراهيم (١٤): الآيات أرقام (٤٥-٤٧)).

"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَموالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا... كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ. قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَهْلٌ يُسْأَلُونَ وَيُسْأَلُونَ وَتُسْأَلُونَ إِلَى جَهَنَّمَ" (سورة آل عمران (٣): الآيات (١٠-١٢)).

"سُئِرْتُمْ بِآيَاتِنَا فِي الْأَقْصَى وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (٥٣)).

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ" (سورة إبراهيم (١٤): الآيات رقم (١٣) و(١٤)).

"وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ غَابِدِينَ". (سورة الأنبياء (٢١): الآيات رقم (١٠٥) و(١٠٦)).

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خُوفِهِمْ أَمْنًا" (سورة النور (٢٤): الآية رقم (٥٥)).

"هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ" (سورة الصف (٦١): الآية رقم (٩)؛ سورة الفتح (٤٨): الآية رقم (٢٨)؛ سورة التوبة (٩): الآية رقم (٣٣)).

في كل عصر. وعلى ذلك، فليست فقط نبوءات النبي (صلى الله عليه وسلم) هي التي يشهدها المسلمون في كل عصر لأن النبوءة أيضاً ميراث لمن يتبعه من العباد المتقين والمؤمنين.^{٣٥}

الشفاعة: الله هو الشفيع الحق

هناك نقطة أخرى ينبغي إلقاء الضوء عليها فيما يتعلق بمكانة الأنبياء في الإسلام وهي مبدأ الشفاعة. والكلمة العربية شفاعة^{٣٦} تعني الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى (المفردات في غريب القرآن). وقد ورد في القرآن أن الله هو الشفيع الحق: "لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (٥١))؛ "لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (٧٠)). وفي موضع آخر، قال تعالى: "لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا" (سورة الزمر (٣٩): الآية رقم (٤٤)). وأحياناً يرد ذكر شفاعة الله عند الإشارة إلى هيمنته سبحانه على المخلوقات: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ" (سورة السجدة (٣٢): الآية رقم (٤)). وعلى ذلك، تكون الشفاعة، وفقاً لما جاء في القرآن، بالفعل بيد الله، بالضبط كما تكون الهيمنة على المخلوقات بالفعل في يده سبحانه، ومن هنا كانت الآية التي تتكرر كثيراً في القرآن والتي تقيد أنه ما من شفيع عند الله إلا بإذنه (سورة يونس (١٠): الآية رقم (٣)؛ سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٥٥)).

ولا تقبل الشفاعة في حالة أولئك الذين ينصبون أنفسهم آلهة: "وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ" (سورة الروم (٣٠): الآية رقم (١٣))؛ "وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ" (سورة يونس (١٠): الآية رقم (١٨)).

^{٣٥} عن المؤمنين، قال تعالى: "لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" (سورة يونس (١٠): الآية رقم (٦٤))؛ وفي موضع آخر، قال تعالى: "تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ" (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (٣٠)). وكما جاء في الحديث الشريف، فإنه: "لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبِئَةِ إِلَّا الْمُنْبِئَاتُ" (البخاري (٥: ٩٢) ويفسر (صلى الله عليه وسلم) المنبشرات بأنها الرؤيا الصالحة، وتوصف تلك الرؤيا الصالحة بأنها جزء من أجزاء النبوءة (البخاري (٥: ٩٢)).

^{٣٦} الشفاعة مشتقة من شفع التي تعني ضم الشيء إلى مثله ليصبح أحد زوجين (تاج العروس) أو ضم الشيء إلى مثله (المفردات في غريب القرآن).

الشفاعة

من بين أولئك الذين تجوز لهم الشفاعة عند الله بإذنه، يُذكر الملائكة، كما جاء في قوله تعالى: "وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرْضَى" (سورة النجم (٥٣): الآية رقم (٢٦)). كما ورد في كتابه العزيز أيضاً أن الأنبياء شفاعة عند الله: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ. وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. ٢٧ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى" (سورة الأنبياء (٢١): الآيات أرقام (٢٥-٢٨)). كما جاء أيضاً في القرآن أن المؤمنين تجوز لهم الشفاعة عند الله: "وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (سورة الزخرف (٤٣): الآية رقم (٨٦)). ولأن كل مؤمن يشهد بالحق، فإنه يمكن بوضوح اعتبار هذه الآية تشير إلى شفاعة المؤمنين. وقد وردت آية أخرى في هذا الصدد: "لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا" (سورة مريم (١٩): الآية رقم (٨٧))، ولأنه يمكن القول بأن كل مؤمن حق يتخذ عهداً مع الله، فإن من الواضح أيضاً أن الآية الكريمة تتحدث عن شفاعة المؤمنين الحقيقيين. كما وردت أيضاً في السنة شفاعة الله رب العالمين، وشفاعة الملائكة، والأنبياء، والمؤمنين. وهكذا، يختتم أحد أحاديث الشفاعة، وهو حديث متفق عليه، بالعبرة التالية: "شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ" (صحيح مسلم ١: ٧٢). ومن الجدير بالذكر أن قبضة الله لا يمكن أن تترك أي شيء.

شفاعة الله

كما سبق أن ذكرنا، فإنه وفقاً للمعاجم اللغوية العربية، يكون المعنى الحقيقي للشفاعة هو تقديم المساعدة ممن هو أعلى مرتبة لمن هو أدنى مرتبة ويحتاج لتلك المساعدة. وقد استخدمت الكلمة بالضبط بنفس المعنى في القرآن. وفكرة الوساطة - التي تصوّر، من ناحية، الله غاضباً على العباد عاقد العزم على تنفيذ حكم العقاب، ومن ناحية أخرى عبداً يتضرع إلى الله ليغفر ذنب مذنب - لا تعبر عن معنى الشفاعة الذي ورد في القرآن. لأنه في القرآن، يكون الشفيع الحق هو الله، وليس الله الغاضب على العباد العاقد العزم على معاقبة المذنبين على ما ارتكبه أو ما لم يرتكبه من ذنب،^{٢٨} وإنما أرحم الراحمين الذي يرأف بالبشرية إلى حد أنه يخرج من النار حتى أولئك الذين

^{٢٧} انظر أيضاً الحاشية رقم ٢٢.

^{٢٨} وفقاً لتعاليم الكنيسة المسيحية، فإنه يجب أن يعاني الإنسان بسبب ما يسمى "بالخطيئة الأصلية"، أي الخطيئة التي لم يرتكبها الإنسان وإنما ارتكبتها أحد أجداده من بعيد في الماضي البعيد.

لم يعملوا خيراً قط. ومن ثم، فإن شفاعَةَ الله تعتبر بمثابة عون من الله الرحمن يمكِّن المذنبين من النجاة من العواقب الوخيمة لأعمالهم، عندما تستنفد جميع السبل الأخرى.

شفاعة الملائكة

وعلى ذلك، ورد في القرآن ذكر شفاعَةِ الملائكة للعباد: "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ." (سورة غافر (٤٠): الآيات أرقام (٧-٩)). "تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْقَطِرُنَ مِنْ قُوَّهِمْ" وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (سورة الشورى (٤٢): الآية رقم (٥)).

ورد في أولى هذه الآيات أن الملائكة يستغفرون للمؤمنين، بصفة خاصة، ويطلبون رحمة الله بهم، رغم أنهم يشملون بدعائهم فيما بعد آباءهم، وأزواجهم، وذريتهم؛ وفي الآية الثانية، ورد أن الملائكة يستغفرون للمؤمنين والكفار على حد سواء. ومن ثم، فإن شفاعَةِ الملائكة تشمل كلاً من المؤمنين والكفار. والعلاقة الروحية التي تربط الملك بالعبد^{٣٩} هي علاقة دعوة العبد لفضائل الأعمال وصالحها، ومن ثم تكون شفاعَةِ الملائكة لأولئك الذين عملوا بعض الخير سواء أكانوا يؤمنون بنبي أم لا يؤمنون. وتأخذ هذه الشفاعَةُ شكل الدعاء بأن يظهر الله رحمته ومغفرته لعباده.

شفاعة الأنبياء والمؤمنين

كما يُظهر الله أيضاً رحمته من خلال الأنبياء وهذه هي شفاعَةُ الأنبياء. ومن الخطأ أن نعتقد أن الشفاعَةَ لا تتم إلا يوم القيامة؛ أو أنها تقتصر على الاستغفار للموتى.^{٤٠} وتظهر شفاعَةُ النبي في التغيير الذي يحدثه في حياة قوم، وفي تخليصهم من قيود الرذيلة، ووضعهم على الطريق

^{٣٩} يرجع الرجوع إلى فصل "الملائكة".

^{٤٠} في مادة شفاعَةِ التي وردت في دائرة المعارف الإسلامية، ورد النص التالي: "ولكن من الجدير بالذكر أن النبي يقال إنه كان يشفع للعباد حتى في حياته. حيث تروي عائشة أن النبي كان كثيراً ما يترك الفراش ليلاً في هدوء ليذهب إلى مقابر بقيع الغرقد ليستغفر للموتى... وبالمثل، كان يستغفر للموتى في صلاة الجنائز... كما يوضح أثر الاستغفار... وعندئذ أصبح الاستغفار للذنوب أو ظل جزءاً لا يتجزأ من هذه الصلاة... ويعزى له قدر كبير من الأهمية".

نحو الرقي. وعلى ذلك، ورد في القرآن أن النبي محمداً (صلى الله عليه وسلم) بُعث إلى الناس ليزكيهم^{٤١} وتعتبر معجزة تركية الجزيرة العربية ورقبها على المستويات المادية والفكرية والأخلاقية والروحية هي أوضح دليل على نجاحه في الشفاعة للعباد. فكان (صلى الله عليه وسلم) لا يكف عن الدعاء من أجل صلاح حال من يتبعونه، وقد ورد في كتابه العزيز أن دعاءه "سَكُنْ" لمن يدعوا لهم.^{٤٢} كما أمر (صلى الله عليه وسلم) أيضاً بأن يستغفر لهم،^{٤٣} وهذه بالتأكيد، كما في حالة الملائكة، شفاعة لهم.

وتأخذ شفاعة المؤمنين نفس شكل شفاعة الأنبياء. فالمؤمنون الأعلى في المرتبة الروحية يساعدون من هم أدنى منهم وذلك بتجسيد القدوة والدعاء لهم. وقد ورد في القرآن بوضوح ذكر الشفاعة عن طريق الاقتداء: "مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٨٥)). ومعنى الآية هو أنه عندما يسأل الإنسان سنةً حسنةً يعمل بها الآخرون وينتفعون منها، فله أجر عليها.

الشفاعة يوم القيامة

يتضح لنا مما سبق أن الهدف الحقيقي لعقيدة الشفاعة في الإسلام هو إظهار رحمة الله الواسعة بالعباد. وتتم هذه الشفاعة، في المقام الأول، في الحياة الدنيا. فهناك ملائكة الله الذين يدعون العباد لعمل الصالحات ويدعون الله أن يقيهم السيئات وأن يشملهم برحمته وبركاته؛ وهناك أنبياء الله المكلفون بتحقيق هدف واضح - يتمثل في تخليص العباد من قيود الرذيلة ووضعهم على الطريق المستقيم نحو الرقي - الذين، بتجسيد الأسوة والدعاء لهم، يُخرجون البشر من ظلمات الشر إلى نور رحمة الله وبركاته؛ وهناك أيضاً المؤمنون الذين بلغوا مرحلة الكمال الذين، تأسيماً بأنبياء الله العظام، يشفعون لمن خلفهم. ولكن، وفقاً لما ورد في القرآن، فإن رقي الإنسان لا يقتصر على الحياة الدنيا. فهناك مجالات نشاط أوسع نطاقاً بكثير تنتظره في الآخرة كما أن يوم البعث هو اليوم العظيم الذين تظهر فيه عواقب جميع الأعمال الصالحة والسيئة. ووفقاً لما ورد في أحد الأحاديث

^{٤١} انظر سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٥١). الكلمة العربية يزكي مشتقة من زكا التي تحمل في الأصل معنى النمو الحاصل عن بركة الله تعالى (المفردات في غريب القرآن).

^{٤٢} سورة التوبة (٩): الآية رقم (١٠٣).

^{٤٣} سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٥٩)؛ سورة النساء (٤): الآية رقم (٦٤)؛ سورة النور (٢٤): الآية رقم (٦٢)؛ سورة محمد (٤٧): الآية رقم (١٩)؛ سورة الممتحنة (٦٠): الآية رقم (١٢).

الشريفة^{٤٤}، فإن لشفاة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في ذلك اليوم الأولوية والأهمية الكبرى. وذلك لأنه، حتى في الحياة الدنيا، فإن شفاعته (صلى الله عليه وسلم) تفوق شفاعة أي نبي آخر. وقد كان التحول المادي والمعنوي والروحي الذي أحدثه النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) هائلاً جداً لدرجة أنه من المعترف به، بإجماع الآراء، أنه يعتبر "أكثر الأنبياء والشخصيات الدينية نجاحاً"^{٤٥}. والله يصدق نعمه على البشرية من خلال الملائكة والأنبياء ومن اتبعوا أنبياءه من العباد الصالحين، كما أن العون الذي يقدمونه للبشر هو في حد ذاته دليل على أنهم، في الحياة الأسمى، سوف يقدمون نفس العون؛ ولكن، لأن رحمة الله واسعة لا حدود لها، فإنه حتى أولئك الذين لم يستجيبوا لدعوة الملك لهم في الحياة الدنيا أو لدعوة أنبياء الله أو حتى لدعوة عباده الصالحين، والذين، كما ورد في الحديث، لم يعملوا خيراً قط، سوف ترفعهم رحمة الله أرحم الراحمين، وبعد نجاتهم من العواقب الوخيمة لأعمالهم، سوف يوضعون على الطريق نحو الرقي الذي لا حدود له والذي يمهد للبشرية البعث.

ختم النبوة

ورد في القرآن أن نبي الله محمدًا (صلى الله عليه وسلم) هو خاتم النبيين: "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٤٠)). وتعني العبارتان "خَاتَمَ النَّبِيِّينَ" و"خَاتِمَ النَّبِيِّينَ" أنه آخر النبيين لأن الكلمتين "خَاتَم" و"خَاتِم" تعنيان آخر الشيء (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وقد أجمع أفضل مؤلفي معاجم اللغة العربية على أن عبارة "خَاتَمَ الْقَوْمِ" يقصد بها آخر القوم (تاج العروس). ومن ثم، يستند مبدأ ختم النبوة بمحمد (صلى الله عليه وسلم) على كلمات القرآن الواضحة.

وقد كانت السنة أوضح في هذه النقطة. فقد شرح النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه معنى عبارة "خَاتَمَ النَّبِيِّينَ" في الحديث التالي: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسَ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْبُدُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَذَا وَصَعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبْنَةُ وَأَنَا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ" (البخاري ٦١: ١٨). وهذا الحديث، الذي يصف فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه بأنه حجر زاوية النبوة وخاتم النبيين، رواه أيضاً مسلم والترمذي وأحمد في أكثر من عشرة مواضع. وقد ورد حديث آخر يصف فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه

^{٤٤} البخاري ٨١: ٥١.

^{٤٥} دائرة المعارف البريطانية، مادة قرآن، الطبعة الحادية عشرة.

بأنه خاتم النبيين وذلك في العبارات التالية: "كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ" (البخاري ٦٠ : ٥٠). وقد روى أيضاً هذا الحديث مسلم وأحمد في عدة مواضع. ووفقاً لحديث آخر، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله لعلي (رضي الله عنه) عندما خرج (صلى الله عليه وسلم) في غزوة تبوك واستخلف علياً في المدينة: "أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي" (البخاري ٦٢ : ٩). وهناك أحاديث كثيرة وردت في كتب الحديث الأخرى أوضح فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه لن يأتي نبي بعده.

النبي المرسل إلى كل الأمم والعصور

إن فكرة ختم النبوة في شخص النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ليست فكرة عارضة. ومن ناحية أخرى، فإنها النتيجة الطبيعية لعالمية نظرية الوحي التي تعتبر المبدأ الأساسي الذي بني عليه الدين الإسلامي. فالوحي، وفقاً لما ورد في القرآن، ليس تجربة فردية تختص بها هذه الأمة أو تلك، وإنما هو التجربة الروحية للجنس البشري كله. وقد ورد في أول سورة في القرآن أن الله هو رب العالمين، أي الذي يربي وينشئ الجنس البشري كله من حال إلى حال حتى يبلغ الكمال الجسدي والروحي. وانطلاقاً من ذلك الأساس العريض، يتناول القرآن بالتفصيل النظرية القائلة بأن الأنبياء قد أرسلوا إلى كل أمة: "وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ" (سورة فاطر ٣٥): الآية رقم (٢٤)؛ "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ" (سورة يونس ١٠): الآية رقم (٤٧). وفي الوقت نفسه، ورد في القرآن أن كل نبي كان يرسل إلى أمة بعينها، ومن ثم، فرغم أن النبوة كانت، من ناحية، حقيقة عامة، فإنها كانت تقريباً نظاماً مرتبطاً بأمة بعينها، أي أن نطاق تعاليم كل نبي كان مقصوراً على الأمة التي أرسل إليها. وظهور النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) هو الذي أضفى الطابع العالمي على نظام النبوة بالمعنى الحقيقي للكلمة. وبذلك، انتهى عصر النبي المرسل إلى أمته وبعث نبي واحد للعالمين، والأمة كافة، ولكل العصور: "تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ۖ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا" (سورة الفرقان ٢٥): الآية رقم (١). "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" (سورة الأعراف ٧): الآية رقم (١٥٨). "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" (سورة سبأ ٣٤): الآية رقم (٢٨).

^{٤٦} الفرقان (معناها اللغوي التفريق بين الشئيين) هو أحد أسماء القرآن وذلك لأنه يفرق بوضوح بين الحق والباطل.

توحيد الجنس البشري القائم على ختم النبوة

ومن ثم، حل النبي المرسل إلى العالمين محل النبي المرسل إلى أمة بعينها، وهكذا اكتملت الفكرة العظيمة المتمثلة في توحيد الجنس البشري كله ولم شمله تحت راية واحدة. وقد تمت إزالة جميع الحواجز الجغرافية شأنها شأن كل حواجز اللون والجنس التي أزيلت، وارتكز أساس وحدة الجنس البشري على المبدأ العظيم القائل بأن الجنس البشري كله واحد وبأن الناس كافةً، أينما وجدوا، أمة واحدة (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢١٣)). ولم يكن من الممكن تحقيق تلك الوحدة لولا ختم النبوة، لأنه لو ظل الأنبياء يبعثون بعد النبي المرسل إلى العالمين، لكان من المؤكد أنهم سوف يحظون بولاء هذا الجزء من العالم أو ذلك، مما يترتب عليه تقويض نفس الأسس التي بنيت عليها الوحدة التي يهدف إليها الإسلام من إرسال نبي واحد إلى العالمين.

مغزى ختم النبوة

ورغم ذلك، يمكننا أن نضيف أنه بختم النبوة، لم يحرم الإسلام العالم من نعمة أنعم الله بها على الأجيال السابقة. فقد كان الهدف من إرسال نبي إلى قوم بعينهم هو إعلان إرادة الله وتوضيح السبل التي عندما يسلكها البشر يمكنهم بها التقرب إلى ربهم. وقد اكتمل ذلك الهدف أيضاً من خلال إرسال النبي العظيم إلى العالمين، الذي كانت رسالته مكتملة لدرجة أنها لم تلبّ فحسب احتياجات الأمم المعاصرة كافة، وإنما أيضاً احتياجات كل الأجيال القادمة. وهذا ما يؤكد القرآن في عبارات واضحة، وهو تأكيد لم يطرحه أي كتاب سماوي أو أي دين آخر: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٣)). وعلى ذلك، نجد أن إكمال الدين اقترن بإتمام نعمة النبوة، وبما أن نعمة النبوة قد أتمها الله في شخص النبي (صلى الله عليه وسلم)، إذن فالقول بأنه إذا لم يُبعث أنبياء آخرون بعد النبي (صلى الله عليه وسلم)، فسوف يحرم المسلمون من نعمة النبوة - هذا القول منافٍ للحقيقة لأن المسلمين يمتلكون تلك النعمة في أتم صورها. وبما أن الدين قد اكتمل والنبوة قد أتمت، فإنه لم تعد هناك حاجة لظهور أي دين آخر بعد الإسلام أو إرسال أي نبي آخر بعد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

ظهور المسيح

هناك نبوءة في كتب الحديث ورد فيها أن المسيح سوف يظهر بين المسلمين. وفيما يلي نص النبوءة التي وردت في صحيح البخاري: "كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ"

(البخاري ٦٠: ٤٩). وفي صحيح مسلم، وردت بدلاً من عبارة "إِمَامُكُمْ مِّنْكُمْ" العبارة "أَمَّكُمْ مِّنْكُمْ" (مسلم ١: ٦٧)، وهي تحمل بالضبط نفس معنى العبارة الواردة في صحيح البخاري. وقد أدت هذه النبوة إلى اعتقاد خاطئ لدى عموم الناس تقريباً بأن نبي بني إسرائيل المسيح عيسى ابن مريم سوف يظهر بين المسلمين، وهو اعتقاد خاطئ يرجع إلى عدم إيلاء الانتباه الواجب إلى مبدأ ختم النبوة، لأنه إذا لم تكن هناك حاجة لظهور نبي، كما ورد بوضوح في القرآن، فلا يمكن أن يأتي نبي جديد أو نبي سابق بعد النبي (صلى الله عليه وسلم). وفي الواقع، فإن ظهور أي من الأنبياء السابقين سوف يقوض مبدأ ختم النبوة وسوف يحط من منزلة خاتم النبيين المرسل إلى العالمين بنفس القدر الذي يترتب على ظهور نبي جديد. إلا أن كلمات النبوة واضحة جداً لدرجة أنه لو كان أولي إليها الانتباه الواجب، لما كان من الممكن أن ينشأ مطلقاً أي اعتقاد خاطئ. فمن الواضح أن ابن مريم الذي ورد ذكره في النبوة يوصف بعبارة "إِمَامُكُمْ مِّنْكُمْ" ومن ثم لا يمكن أن يكون المقصود هو نبي بني إسرائيل المسيح عيسى ابن مريم، الذي كان من بني إسرائيل.

وتعتبر النبوة بظهور المسيح بين المسلمين مشابهة للنبوة بظهور النبي إيليا مرة أخرى بين بني إسرائيل. وفي الواقع، فإن هناك توافقاً غريباً بين حالتي النبي إيليا والمسيح عيسى ابن مريم. فعن إيليا، ورد في الإنجيل: "فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء" (الملوك الثاني ٢: ١١). واستناداً إلى هذا الدليل الموحى به، يعتقد اليهود أن النبي إيليا حي في السماء. ثم هناك أيضاً النبوة التالية: "هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف" (ملاخي ٤: ٥)، مما يدل على أنه سوف يعود إلى الحياة الدنيا قبل ظهور المسيح. ورغم ذلك، لم تتحقق هذه الآمال المبنية على ذلك الدليل القوي. وواجه المسيح عيسى ابن مريم الصعوبة التالية: "وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتابة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً" (متى ١٧: ١٠). ويدون رد عيسى ابن مريم عليهم في العبارات التالية: "إن إيليا يأتي أولاً... ولكنني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا... حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان" (متى ١٧: ١١-١٣). وقد سمي يوحنا المعمدان في النبوة إيليا لأنه قد قيل عنه: "ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته" (لوقا ١: ١٧).

ولم يرد عن عيسى ابن مريم في أي موضع في القرآن أنه رفع في السماء. ومن ناحية أخرى، فقد ورد في عبارات واضحة أنه توفي وفاة طبيعية.^{٤٧} ومن ثم، ليس هناك سبب للاعتقاد بأن

^{٤٧} يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرتك من الذين كفروا وجاءل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٥٥)).

"وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت فلتاً فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت غلامٌ الخُيوب. ما قلت لهم

عيسى ابن مريم حي في السماء . بالإضافة إلى ذلك، ورد في الكتاب المقدس أن النبي إيليا سوف يُبعث، ولكن النبوة التي وردت في الحديث بظهور المسيح تضيف الكلمات الواضحة التالية: "إِمَامُكُمْ مِنْكُمْ". وحتى لو كان عيسى ابن مريم حياً ولو كانت الكلمات التي تم الاستشهاد بها أعلاه لا توضح المغزى الحقيقي للنبوة، لكان تشابهها مع النبوة بظهور النبي إيليا كافياً لإزالة كل الاعتقادات الخاطئة بشأن ظهور المسيح مرة أخرى. ولكن، بالإضافة إلى كل ذلك، هناك حقيقة محددة بوضوح ومثبتة بأدلة قوية وهي ختم النبوة التي تحول دون ظهور أي نبي، سابق أو جديد، بعد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

ظهور المجددين

ورغم ذلك، يجب أن نضع نصب أعيننا أنه، كما أوضحنا في الفصل السابق، فإن الوحي الإلهي يُؤتاه الأنبياء وغير الأنبياء، وأنه لذلك السبب ما زال الله يهب نعمة الوحي الإلهي لعباده الصالحين كما كان من قبل رغم ختم النبوة التي لم تعد هناك حاجة لها. ورغم أنه لم يعد البشر في حاجة لظهور نبي جديد لأنهم يجدون شريعة كاملة في القرآن، فإنهم يحتاجون بالتأكيد للنعم الإلهية، وأسمى هذه النعم جميعاً نعمة الوحي الإلهي. علاوة على ذلك، فإن الكلام صفة من صفات الله تعالى شأنه شأن صفتي السمع والبصر، وصفات الله لا تتوقف أبداً عن العمل. كما ذكرنا أيضاً في الفصل السابق أنه، وفقاً لأحد الأحاديث الصحيحة، فإن جزءاً من النبوة يسمى *الْمُبَشِّرَاتُ* (أي *الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ*) يبقى بعد النبوة (البخاري ٩٢: ٥)، ووفقاً لحديث آخر، فإن الله يكلم الصالحين في هذه الأمة رغم أنهم ليسوا أنبياء (البخاري ٦٢: ٦). وهناك حديث آخر ورد فيه أن المجددين سوف يظهرون بين المسلمين: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ (الإسلامية) عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ

إِلَّا مَا أُرْسِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ". (سورة المائدة (٥): الآياتان رقما (١١٦) و(١١٧)).

والكلمتان "مَتَوَفَّيْتُكَ" و"مَتَوَفَّيْتَنِي" تعنيان "مسيحك" و"أمّتي" ليس أكثر. ويقول ابن عباس أن معنى كلمة "مَتَوَفَّيْتُكَ" هو "مسيحك". وطبقاً لما ورد في معجم لسان العرب، "فإنك تقول توفاه الله إذا قبض نفسه أو قبض روحه". ووفقاً للمعجم العربي - الإنجليزي للين، فإن الكلمة تعني "قبض الله روحه... أو أماته". وعلى ذلك، فعندما تستخدم الكلمتان هذا الاستخدام، فإنهما لا تحملان أي معنى آخر.

وفي الآية الأولى، ورد ذكر رفع المسيح عيسى ابن مريم إلى الله. وكلمة رفع معناها: *إعلاء* (الجسم عن *مقره*)؛ ورفع *القدر والمنزلة والتشريف* (تاج العروس؛ المعجم العربي - الإنجليزي للين). ولكن عندما يرد في القرآن أو في الكتابات الدينية المتعلقة بالإسلام رفع إنسان إلى الله، فإنه يرد دائماً بالمعنى الثاني، لأن رفع الإنسان بجسده إلى الله عز وجل يعني أن الله تعالى مقيد بمكان. كما يدل على هذا أيضاً الدعاء الذي يكرره المسلم عدة مرات يومياً في صلاته عندما يكون في وضع الجلوس بين السجدين؛ أي قوله "وارفعني". وفي تفسير هذه الآية الكريمة، يقول الرازي: *هذا يدل على أن المقصود بالرفع هنا هو الرفع في القدر والثناء وليس في المكان والاتجاه*.

يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا" (أبي داود ٣٦: ١). والمجدد هو مصلح مكلف بإزالة الأخطاء التي تتسلل بين المسلمين وإلقاء ضوء جديد على الحقائق الدينية العظيمة في الإسلام في الظروف الجديدة التي يجب على الأمة الإسلامية مواجهتها.

الفصل السادس

الحياة بعد الموت

الأخرة

إن الإيمان بالحياة بعد الموت هو آخر أركان الإيمان في الإسلام. والكلمة المستخدمة بوجه عام في القرآن للإشارة إلى هذه الحياة هي كلمة الأخرة^١. فوفقاً لما ورد في القرآن، فإن الموت ليس نهاية حياة الإنسان؛ وإنما يمهّد أمامه السبيل نحو حياة أخرى أسمى: "تَحْنُ قَدْرَتْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ." (سورة الواقعة (٥٦): الآيتان رقمًا (٦٠) و(٦١)). فكما ينشأ الإنسان من نطفة، ولا يفقد هويته رغم كل ما يتعرض له من تغيرات، كذلك أيضاً ينشأ من هذا الإنسان إنسان أسمى حيث يبذل الله تعالى حاله وينشئه نشأة لا يعلمها في الحياة الدنيا. ويوضح القرآن أيضاً أن هذه الحياة الجديدة هي حياة أسمى: "انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٢١)).

أهمية الإيمان بالأخرة

يولي القرآن إلى الإيمان بالأخرة أهمية تلي في المرتبة أهمية الإيمان بالله. وكثيراً ما تتلخص عقيدة الإيمان برمتها في الإيمان بالله والأخرة: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٨)). "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٦٢)).

وعلى ذلك، فإنه لا ينظر إلى أول سورة في القرآن، أي الفاتحة، على أنها أم الكتاب فحسب، وإنما ينظر إليها بالفعل على أنها السورة التي تلعب أعظم دور في خلق عقلية المسلم الحق؛ لأنه يجب على المسلم أن يتلوها في الصلوات الخمس أكثر من ثلاثين مرة كل يوم. وفي هذه السورة،

^١ الآخر هو مقابل الأول وبذلك يعني اللاحق أو المقبل أو الأخير. وتستخدم عبارة *اليوم الآخر* في القرآن بدلاً من كلمة *الأخرة* (سورة البقرة (٢): الآيات أرقام (٨)، و(٦٢)، وآيات أخرى)؛ وأحياناً تستخدم عبارة *النار الآخرة* (سورة القصص (٢٨): الآية رقم (٧٧)؛ سورة العنكبوت (٢٩): الآية رقم (٦٤)؛ سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٢٩)؛ وقد وردت مرة واحدة عبارة *النشأة الآخرة* وهي المعنى الحقيقي الذي تنقله كل هذه العبارات.

وُصف الله بـ "مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ"، وبذلك تستحضر في ذهن المسلم باستمرار فكرة وجوب جزاء كل عمل. وتكرار فكرة جزاء الأعمال بصفة مستمرة يرسخ بالتأكيد في ذهن المسلم حقيقة الحياة الأخرى التي يكون فيها لكل عمل جزاؤه. والسبب في إيلاء تلك الأهمية البالغة للحياة بعد الموت واضح. فكلما زاد الإيمان بحسن أو سوء عاقبة العمل، كان الحافز للإنسان على الإقدام على ذلك العمل أو الامتناع عنه أكبر. وعلى ذلك، فإن هذا الإيمان هو أكبر دافع لعمل الأعمال الصالحة والفاضلة كما أنه أيضاً أكبر رادع للأعمال السيئة أو غير المتبصر بعقباها. ولكن الأكثر من ذلك هو أن ذلك الإيمان يجعل الدوافع وراء أي عمل منزهة عن أي مصلحة. فهذا الإيمان يجعل العبد يعمل بدوافع منزهة عن أي منفعة لأنه لا يسعى لنيل أجر عمله؛ وإنما يسعى من وراء عمله لبلوغ غايات سامية نبيلة مرتبطة بحياة ما بعد القبر.

العلاقة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة

لم يتحدث القرآن فحسب عن الحياة بعد الموت التي تفتح أمام العبد عالماً جديداً من الرقي يتضاءل أمامه التقدم الذي يحرزه في هذه الحياة الدنيا إلى لا شيء؛ وإنما يوضح أيضاً أن أساس تلك الحياة الأخرى يوضع في هذه الحياة الدنيا. فالحياة الآخرة ليست من غيبات ما بعد القبر؛ وإنما هي تبدأ في الحياة الدنيا. فبالنسبة للأبرار، تبدأ حياة الفردوس في هذه الدنيا وكذلك أيضاً فإنه بالنسبة للفجار تبدأ حياة جهنم في هذه الدنيا، رغم أن قيود هذه الحياة الدنيا لا تتيح لمعظم البشر إمكانية إدراك هذا. "لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَك فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ خَدِيدٌ" (سورة ق (٥٠): الآية رقم (٢٢)). ويدل ذلك على أن الحياة الروحية المحجوبة عن عين البشر بسبب القيود المادية سوف تصبح واضحة يوم القيامة؛ لأن إدراك البشر سوف يصبح أكثر حدة آنذاك بعد رفع غطاء القيود المادية عنه. وقد ورد في القرآن أن الله وعد الأبرار بجنتين والفجار بعذابين، بالضبط كما ورد فيه ذكر حياة الفردوس وحياة جهنم التي تبدأ في هذه الحياة الدنيا. "وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ" (سورة الرحمن (٥٥): الآية رقم (٤٦)). "يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي." (سورة الفجر (٨٩): الآيات أرقام (٢٧-٣٠)). "كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ. لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ" (سورة التكاثر (١٠٢): الآيتان رقما (٥) و(٦)). "تَأْرَ اللَّهُ الْمُوقَدَّةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ" (سورة الهمزة (١٠٤): الآيتان رقما (٦) و(٧)).

وأحياناً تستخدم كلمة الآخرة للإشارة إلى الحالة المقبلة في هذه الحياة الدنيا بالمقارنة بالحالة السابقة، كما جاء في سورة الضحى (٩٢): الآية رقم (٤): "وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ" ومعنى الآية هو أن المستقبل يدخر للنبي (صلى الله عليه وسلم) أحداثاً عظيمة وأن دعوته (صلى الله عليه وسلم) سوف تستمر في الانتشار مع مرور الوقت.

"وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٧٢)). "كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (سورة القلم (٦٨): الآية رقم (٣٣)).

البرزخ

يطلق على حالة ما بين الموت والبعث لفظ البرزخ ومعناه اللغوي الشيء الذي يقع حائلاً بين شيئين أو الحاجز أو المانع (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وقد استخدمت كلمة برزخ بالمعنى الثاني، أي بمعنى حاجز، في موضعين في القرآن (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (٥٣) وسورة الرحمن (٥٥): الآية رقم (٢٠)) حيث يسمى الحاجز بين البحرين برزخاً. وقد وردت الكلمة للدلالة على حالة ما بين الموت والبعث في الآيتين الكريميتين التاليتين: "حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ". (سورة المؤمنون (٢٣): الآيتان رقمًا (٩٩) و(١٠٠)). ورغم أن حالة ما بين الموت والبعث يطلق عليها أيضاً اسم القبر، فإن الكلمة استخدمت أيضاً بمعناها الأوسع للدلالة على حالة ما بعد الموت. وعلى ذلك، ترد في القرآن الحالات الثلاث، أي الموت، والقبر، والبعث، وتشير كلمة القبر بالتأكيد إلى عالم البرزخ: "ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ. ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ". (سورة عبس (٨٠): الآيتان رقمًا (٢١) و(٢٢)). وقد ورد في القرآن أن البعث يوم القيامة هو بعث من في القبور، كما جاء في سورة العاديات (١٠٠): الآية رقم (٩) وسورة الحج (٢٢): الآية رقم (٧)، حيث يقصد كل الناس، سواء تم دفنهم بالفعل أم لم يتم. ومن ثم، فإن حالة القبر هي نفس حالة البرزخ، أي الحالة التي يوضع فيها كل إنسان بعد الموت وقبل البعث.

المرحلة الثانية في الحياة الأسمى

ورد في القرآن ذكر نشأة حياة أسمى حتى في هذه الحياة الدنيا، لذا فإن التجربة الروحية للإنسان هي المرحلة الأولى في تلك الحياة الأسمى. ورغم ذلك، فإنه عادة ما يكون الإنسان في غفلة عن هذه التجربة السامية، ولا يدرك تلك الحياة الأسمى سوى الأشخاص الذين بلغوا مرحلة متقدمة من التطور الروحي. والبرزخ هو بالفعل المرحلة الثانية في تطور هذه الحياة الأسمى ويبدو أنه، في هذه المرحلة، يكون لدى كل البشر نوع من الإدراك لهذه الحياة الأسمى، رغم أنه لم يكتمل بعد تطور تلك الحياة. وقد ورد في القرآن أنه حتى تطور الحياة الجسدية يمر بثلاث مراحل: المرحلة الأولى هي نشأة الإنسان من الأرض؛ والثانية هي كونه جنيناً في بطن أمه؛ والثالثة هي مولده. وعلى ذلك، جاء في كتابه العزيز قوله تعالى: "إِذْ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ"

(سورة النجم (٥٣): الآية رقم (٣٢)). "وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ" (سورة السجدة (٣٢): الآيات أرقام (٧-٩)); "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ.... ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ". (سورة المؤمنون (٢٣): الآيات أرقام (١٢-١٤)). وقد ورد في القرآن ثلاث مراحل يمر بها الإنسان في تطوره الروحي مقابلة لهذه المراحل الثلاث التي يمر بها في تطوره الجسدي، أي مرحلة خلقه من طين ثم مرحلة كونه جنيناً في بطن أمه وأخيراً مرحلة مولده. وأولى هذه المراحل هي نشأة حياة روحية تبدأ في هذه الحياة الدنيا، ولكنها مرحلة لا يدركها الإنسان عادة في هذه الحياة، شأنها شأن مرحلة خلق الإنسان من طين التي يمر بها في تطوره الجسدي. ثم يأتيه الموت الذي به يدخل الإنسان في المرحلة الثانية في الحياة الأسمى أو الحياة الروحية، أي مرحلة البرزخ أو القبر، وهي مقابلة لمرحلة كونه جنيناً في بطن أمه، التي يمر بها الإنسان في تطوره الجسدي. وفي هذه المرحلة، تأخذ الحياة شكلاً محدداً وينشأ بعض الإدراك لتلك الحياة، ولكنه ليس بعد الإدراك الكامل الذي يبلغه عند اكتمال تطور الحياة الروحية الذي يحدث بالبعث، والذي بالتالي يمكن تشبيهه بالمولد الفعلي للإنسان، بوضعه على الطريق نحو الرقي الحقيقي، باليقظة الكاملة على الحقيقة الكبرى. ويعتبر تطور الحياة الأسمى في عالم البرزخ مرحلة ضرورية في العالم الروحي شأنها شأن تطور الحياة الجسدية في المرحلة الجنينية. وبذلك تتساوى الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

التجربة الروحية في مرحلة البرزخ

يتضح لنا من آيات قرآنية عديدة أن هناك نوعاً ما من إيقاظ الوعي بتجربة روحية جديدة بعد الموت مباشرة. فعلى سبيل المثال، تعرض الآيات، التي ورد فيها ذكر البرزخ^٢، التجربة الروحية لمرتكب الذنب، الذي يدرك فور موته أنه في حياته الأولى كان يعمل ما لا ينفع الآن نشأة الحياة الأسمى داخله، ومن ثم يرغب في أن يرجع إلى الحياة الدنيا ليعمل أعمالاً صالحةً ربما تساعد على تطور هذه الحياة الأسمى. ويدل ذلك على أن إدراك وجود حياة أسمى قد نشأ داخله مباشرة بعد الموت. وفي موضع آخر، جاء في كتابه العزيز أن الله تعالى يذيق أصحاب الذنوب سوء عاقبة أعمالهم في البرزخ حيث يصبح إدراكهم للعذاب قوياً يوم القيامة: "وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ." (سورة غافر (٤٠): الآيتان رقما (٤٥) و(٤٦)).

^٢ سورة المؤمنون (٢٣): الآيتان رقما (٩٩) و(١٠٠).

ومن الجدير بالذكر أنه رغم ما ورد في القرآن من أن أصحاب الذنوب يذوقون العذاب في حالة البرزخ، فإنه في السنة يشار إلى هذا العذاب بأنه عذاب القبر. ففي صحيح البخاري، يبدأ البخاري باب عذاب القبر^٣ بآيات مأخوذة من القرآن، وإحدى هذه الآيات تدور حول عذاب آل فرعون في البرزخ التي سبق الاستشهاد بها في نهاية الفقرة السابقة. ويدل ذلك على أن البخاري ينظر إلى هذين العذابين على أنهما عذاب واحد ومن ثم يسوي بين القبر والبرزخ. كما يؤب البخاري أيضاً الباب التسعين من نفس الكتاب كما يلي: "المَيِّتِ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ" (البخاري ٩٠: ٢٣)، وتحت هذا العنوان، يروي عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ (فِي الْآخِرَةِ) بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ" (البخاري ٩٠: ٢٣). ويوضح هذا الحديث أيضاً أن عذاب القبر إنما يقصد به الحالة الروحية لأصحاب الذنوب في عالم البرزخ.

وبالمثل، جاء في كتابه العزيز أن المتقين يذوقون ثمرة أعمالهم الصالحة بعد الموت مباشرة: "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ فَرجينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (سورة آل عمران (٣): الآيتان رقما (١٦٩) و(١٧٠)). وتوضح الآيتان أن الموتى يدركون ما تركوا خلفهم وهذا يقيم نوعاً من العلاقة بين هذا العالم والعالم الآخر.

مدة الحياة البرزخية

تعتبر جميع الأمور المرتبطة بالحياة الأخرى ذات طابع معقد لأنها ليست أموراً يمكن إدراكها بالحواس البشرية؛ وإنما هي "أمور غيبية" لا تعرف إلا بعد الموت، كما جاء في القرآن؛ كما أنه يروي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ" (البخاري ٥٩: ٨). وكما سوف يوضح فيما بعد، فإن نفس مفهومي الزمان والمكان المرتبطين بالعالم الآخر يختلفان عن مفهومهما في هذا العالم، ومن ثم لا يمكننا تصور مدة الحياة البرزخية بمقياس الزمن في هذا العالم. علاوة على ذلك، فإن الوعي الكامل بتلك الحياة الأسمى سوف يحدث في البعث، ومن ثم فإن حالة البرزخ هي حالة شبه وعي، إذا جاز التعبير. ومن ثم، فإنها تشبه أحياناً بحالة الرقاد بالمقارنة ببقظة البعث الكبرى، لأن الكفار يقولون: "يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا" (سورة يس (٣٦): الآية رقم (٥٢)). وبالنسبة لمن أضعوا فرصهم في عمل الصالحات

^٣ البخاري (٢٣: ٨٧).

^٤ سورة السجدة (٣٢): الآية رقم (١٧).

في هذه الحياة الدنيا، فإن حالة البرزخ تدوم حتى يوم البعث، كما جاء في القرآن: "وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ" (سورة المؤمنون (٢٣): الآية رقم (١٠٠)). ولم تثر مسألة طول مدة الحياة البرزخية بالنسبة للبعض وقصر مدتها بالنسبة للبعث الآخر، لأنه لا يبدو أنهم يدركون طول الفترة الزمنية: "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِبُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُفَكَّرُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ." (سورة الروم (٣٠): الآيتان رقمًا (٥٥) و(٥٦)). وبالنسبة لأولئك الذين استيقظت الحياة الروحية داخلهم أثناء الحياة الدنيا، فإن الوعي في حالة البرزخ يزداد بالتأكيد قوة وقد ورد في أحد الأحاديث الشريفة أن الصالحين يرفعون بعد أربعين يوماً وبذلك يحرزون تقدماً حتى في تلك الحالة.

الأسماء العديدة للقيامة

ورد ذكر القيامة بعدة أسماء، أكثرها تكراراً هو يوم القيامة الذي ورد في القرآن سبعين مرة. يليه اسم الساعة الذي ورد في القرآن أربعين مرة؛ ثم اليوم الآخر الذي ورد ستاً وعشرين مرة في حين ورد اسم الآخرة أكثر من مائة مرة. يليه في الأهمية اسم يوم الدين. ثم يوم الفصل الذي ورد في القرآن ست مرات، ويوم الحساب الذي ورد خمس مرات. وهناك أسماء أخرى وردت مرة أو مرتين فقط، مثل يوم الفتح، ويوم التلاق، ويوم الجمع، ويوم الخلود، ويوم الخروج، ويوم البعث، ويوم الحسرة، ويوم التناد، ويوم الأزفة، ويوم التغابن. والأسماء الأخرى التي وردت مرة أو مرتين غير مقترنة بكلمة يوم هي القارعة، والغاشية، والصاخة، والطامة، والحاقة، والواقعة.

عموم الهلاك وعموم اليقظة

يتبين لنا مما سبق أن معظم الأسماء المذكورة تشير إما إلى هلاك أو إلى يقظة وبعث؛ كما ترتبط بالقضاء على نظام قديم وإرساء نظام جديد. وسوف توضح هذه النقطة بعض الآيات الكريمة التي تصف يوم القيامة. "يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ. كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ. يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ.... كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ. وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ. تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ." (سورة القيامة (٧٥): الآيات أرقام (٦-٢٥)). "قِذَا النَّجُومُ طُمِسَتْ. وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ. وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَّتْ." (سورة المرسلات (٧٧): الآيات أرقام (٨-١١)). "إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا. يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأثُرُونَ أَفْوَاجًا. وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا. وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا." (سورة النبأ (٧٨): الآيات أرقام (١٧-٢٠)).

"يَوْمَ تَرَجُّفُ الرَّاجِعَةُ. تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ. قُلُوبٌ يَوْمئِذٍ وَاجِفَةٌ. أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ..... فَإِنَّمَا هِيَ رَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ." (سورة النازعات (٧٩): الآيات أرقام (٦-١٤)). "يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا. إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا." (سورة النازعات (٧٩): الآيات أرقام (٤٢-٤٤)). "إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا..... يَوْمئِذٍ يَصُدُّ النَّاسُ أُنثَاتًا لِيُرَوُا أَعْمَالَهُمْ." (سورة الزلزلة (٩٩): الآيات أرقام (١-٦)). "يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ" (سورة المعارج (٧٠): الآية رقم (٤٣)). "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ.... يَوْمئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ." (سورة الحاقة (٦٩): الآيات أرقام (١٣-١٨)). "إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ. خَافِضَةٌ (لِلْبَعْضِ) رَافِعَةٌ (لِلْبَعْضِ الْآخَرِ)." (سورة الواقعة (٥٦): الآيات أرقام (١-٣)). "يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ" (سورة إبراهيم (١٤): الآية رقم (٤٨)).

القيامات الثلاث

الكلمتان المستخدمتان بشكل متكرر للإشارة إلى يوم القيامة هما القيامة والساعة. وتشير الكلمة الأولى بوضوح إلى البعث، في حين تشير الكلمة الثانية إلى الهلاك في ساعة الهلاك. وعن الكلمة الثانية، قال راغب إن الساعات التي هي القيامة ثلاث: الساعة الكبرى، وهي بعث الناس للمحاسبة؛ والساعة الوسطى، وهي موت أهل القرن الواحد؛ والساعة الصغرى، وهي موت الإنسان. وفيما يلي مثال من القرآن على الاستخدام الأخير لكلمة الساعة: "قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (٣١)). وتشير كلمة الساعة هنا بوضوح إلى موت الإنسان. وبالنسبة لاستخدام كلمة الساعة بمعنى موت أهل القرن الواحد، فإنه يمكن الاستشهاد بأحد الأحاديث النبوية التي يروى فيها عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله عن عبد الله بن أنيس الذي كان آنذاك غلاماً: "إن يطل عمر هذا الغلام لم يمض حتى تقوم الساعة" (المفردات في غريب القرآن)، ويروى أنه كان آخر من مات من جيل الصحابة؛ وبعبارة أخرى، فإن كلمة الساعة في هذه الحالة تعني موت جيل الصحابة (رضي الله عنهم). وقد وردت أمثلة على هذا الاستخدام في القرآن أيضاً: "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ" (سورة القمر (٥٤): الآية رقم (١)). والساعة في هذه الحالة تشير إلى هلاك أعداء النبي (صلى الله عليه وسلم). كما ورد أيضاً في موضع آخر قوله تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ. سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ." (سورة القمر (٥٤): الآيات أرقام (٤٤-٤٦)). وتعليقاً على هذه الآيات، يقول البخاري إنه عندما واجه النبي (صلى الله عليه وسلم) موقفاً عصيباً يوم غزوة بدر، حيث كان المسلمون معرضين لخطر الإبادة التامة على يد أعدائهم الأقوياء وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يدعو ربه

من أجل سلامتهم، تذكر (عليه الصلاة والسلام) هذه النبوءة وطمأن الصحابة بتلاوة هذه الآيات عليهم بصوت مسموع^٥ مما يدل على أنه يقصد بكلمة الساعة هنا ساعة هزيمة العدو.

البعث الروحي والبعث الأعظم

بالضبط كما تستخدم كلمة الساعة بمعنى واسع وتشير أحياناً، بالإضافة إلى يوم الدين، إلى موت الفرد وأحياناً موت أهل القرن الواحد، فكذاك أيضاً ترد كلمتا القيامة والبعث بمعنى واسع. وعلى ذلك، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "من مات فقد قامت قيامته"^٦. وفي هذا الحديث، يُطلق على حالة البرزخ اسم قيامة مما يدل على أنه ما أن يموت العبد حتى يبعث لحياة جديدة. كما ينبغي أيضاً أن نضع نصب أعيننا أنه في المواضع العديدة التي يتحدث فيها القرآن عن الموتى، فإنه يشير إلى موتى القلوب، ويشير بإحيائهم إلى إحداث يقظة روحية داخلهم، كما ورد، على سبيل المثال، في الآية الكريمة التالية: "أَوْ مَنْ كَانَ مُتِيًّا فَآخِيئِنَّا وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٢٢)). وفي هذه الآية، تشير كلمة الميت إلى ميت القلب ويقصد بإحياء الله له إحياء روحه. وفي موضع آخر، فإن عبارة "مَنْ فِي الْقُبُورِ" يقصد بها موتى القلوب: "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ. إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ." (سورة فاطر (٣٥): الآياتان رقم (٢٢) و(٢٣)). ويوضح السياق أن المقصود بعبارة "مَنْ فِي الْقُبُورِ" الذين أدرك الموت قلوبهم والذين أنذرهم النبي (صلى الله عليه وسلم) ولكنهم لم يستمعوا. وفي موضع آخر، فإن عبارة "مَنْ فِي الْقُبُورِ" تنقل معنى مزدوجاً حيث تشير إلى اليقظة الروحية التي أحدثها النبي (صلى الله عليه وسلم) كما تشير إلى الحياة الجديدة في البعث: "وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ." (سورة الحج (٢٢): الآيات أرقام (٥-٧)). ويوضح الجزء الأول من الآيات الكريمة، الذي ورد فيه إحياء الأرض الميتة بانزال المطر عليها، أن الجزء الثاني يشير إلى إحياء الروح بواسطة الوحي الإلهي، وقد ورد مراراً في القرآن تشبيه الوحي بالمطر. وتشير "الساعة" هنا، كما ورد في العديد من المواضع الأخرى، إلى هلاك أعداء النبي (صلى الله عليه وسلم) كما تشير كلمة "الْمَوْتَى" وعبارة "مَنْ فِي الْقُبُورِ" بوضوح إلى موتى القلوب. ولكن، رغم أن الآيات تتحدث في المقام الأول عن البعث الروحي، فإن هناك أيضاً إشارة إلى البعث الأعظم. وفي الواقع، فإنه لم يقتصر ذكر البعث الروحي الذي أحدثه النبي (صلى الله عليه وسلم)

^٥ البخاري ٦٤: ٤.

^٦ مشكاة المصابيح ٢٦: ٧.

بالبعث الأعظم في هذا الموضوع فحسب وإنما ورد أيضاً ذكرهما معاً في العديد من المواضع الأخرى في القرآن، كما لو كان أحدهما دليلاً على وجود الآخر،^٧ لأن إيقاظ الوعي بالحياة الروحية يكشف عن وجود حياة أسمى يعتبر تطورها هو الهدف الحقيقي للبعث الأعظم. هذه هي أول حجة مقنعة ورد ذكرها من أول القرآن إلى آخره بشأن حقيقة البعث الأعظم. والبعث الروحي، أي إيقاظ الوعي بالحياة الروحية، الذي أحدثه النبي (صلى الله عليه وسلم) يجعل الحياة الأسمى تجربة البشرية جمعاء وبذلك يمهّد الطريق نحو تطور تلك الحياة على مستوى أسمى من قيود هذا العالم المادي.

الحياة لها غاية

يعتبر تسخير جميع الخلائق على هذه الأرض لخدمة الإنسان ووجود غاية وهدف عظيم للحياة البشرية حجة أخرى قدمها القرآن لتعزيز حقيقة البعث، كما جاء في قوله تعالى: "أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى" (سورة القيامة (٧٥): الآية رقم (٣٦))؛ "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ" (سورة المؤمنون (٢٣): الآية رقم (١١٥)). فكما أن فكرة وجود الله ترقى ب حياة العبد وتمدها بأنقى وأسمى الدوافع، فكذلك أيضاً فكرة البعث تضفي على حياة العبد جدية لا يمكن الوصول إليها بسبل أخرى. وإنها لنظرة تحط من قدر الطبيعة البشرية أن نتصور أنه رغم كل ما أوتي الإنسان من إمكانات هائلة للسيطرة على الطبيعة وقواها العجيبة، فإنه ليست للحياة البشرية نفسها غاية. فإذا كانت كل المخلوقات في الطبيعة مسخرة لخدمة الإنسان، فلا يمكن أن تسير الحياة البشرية نفسها بلا هدف. ويشير القرآن إلى هذه الحجة في الآيات الكريمة التالية: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ." (سورة التين (٩٥): الآيات أرقام (٤-٦)). وتشير الكلمات الأخيرة في الآية بوضوح إلى الحياة الأسمى التي لن تنقطع أبداً. فلا يُعقل أن تخدم جميع الخلائق غرضاً معيناً وأن تكون حياة الإنسان

^٧ ينطبق هذا بصفة خاصة عندما يرد إحياء الأرض الميتة بواسطة الأمطار كدليل على وجود البعث. وفي تلك الحالات، يشار إلى البعث الروحي والبعث الأعظم لأن أحدهما في الواقع دليل على وجود الآخر. وقد ورد بوضوح في الآيتين الكريمتين التاليتين أن البعث الروحي يعتبر دليلاً على وجود البعث الأعظم: "لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ" (سورة القيامة (٧٥): الآيتان رقما (١) و(٢)). وفي هاتين الآيتين، ورد ذكر البعث الروحي كدليل على يوم القيامة والمقصود بالفعل هو أن البعث الروحي الذي أحدثه النبي (صلى الله عليه وسلم) (وهذا هو معنى كلمة القيامة هنا) يعتبر دليلاً على البعث الأعظم. ويتضح لنا أن البعث الروحي يقدم كدليل على البعث الأعظم من اقتران عبارة "بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ" به، وهي المرحلة الأولى في نشأة الحياة الروحية داخل الإنسان لأنه عندما تلوم الإنسان نفسه على المعصية، عندئذ تبدأ مجاهدته للشر بشكل جدي، وهي مجاهدة تعتبر أول دليل على نشأة الحياة الروحية؛ ولكن عندما يعمل الإنسان السيئات دون أن يؤكد الصوت الداخلي وجوده، فإن هذا دليل على موت قلبه. وتعتبر مرحلة النفس اللوامة هي أدنى مرحلة من مراحل نشأة الحياة الروحية، في حين أن المرحلة الأسمى تسمى مرحلة "النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّة" التي تدخل الجنة حتى في هذه الحياة الدنيا (سورة الفجر (٨٩): الآيات أرقام (٢٧-٣٠)).

وحده، الذي هو سيد الكون والذي وهبه الله إمكانات السيطرة على الكون، بلا هدف. والبعث فقط هو الذي يحل تلك المعضلة. حيث إن للإنسان هدفاً أسمى يسعى لتحقيقه وتنتظره حياة أسمى سوف يعيشها في عالم آخر غير هذا العالم؛ تلك هي غاية الحياة البشرية في هذا العالم.

جزاء الحسنة والسيئة

من الحجج الأخرى التي قدمها القرآن لتعزيز حقيقة البعث حجة جزاء الحسنة والسيئة. فمن بين جميع الكائنات الحية، يمتلك الإنسان وحده القدرة على التمييز بين الخير والشر. ويعتبر إدراكه للخير والشر قوياً جداً لدرجة أنه يسعى بكل ما أوتي من قوة للدعوة للخير والقضاء على الشر. ويسن القوانين لخدمة هذا الغرض ويستخدم كل منظومة القوة المتاحة لديه لوضع هذه القوانين موضع التنفيذ. ورغم ذلك، فما الذي نراه اليوم في الحياة الواقعية؟ كثيراً ما يُترك الخير ويجذب في حين ينمو الشر ويزداد. وذلك ما لا ينبغي أن يكون. "فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (سورة هود (١١): الآية رقم (١٥)؛ سورة يوسف (١٢): الآية رقم (٩٠)؛ وآيات أخرى)؛ "إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا" (سورة الكهف (١٨): الآية رقم (٣٠))؛ "أَنْتِي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٩٥))؛ "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ." (سورة الزلزلة (٩٩): الآيتان رقماً (٧) و(٨)) - تلك هي بعض التعاليم الواضحة التي ذكرها القرآن. وعندما نتأمل في الطبيعة حولنا، نجد نفس القانون سارياً. فلكل دعوة أثر ولكل عمل ثمرة. وحتى أعمال الإنسان في العالم المادي تؤدي حتماً ثمارها. فلماذا إذن تستنتج أعمال العبد الصالحة أو السيئة من هذه القاعدة العامة السارية في الكون كله؟ وإذا لم تكن هذه الأعمال استثناءً، فالنتيجة واضحة وهي أن للحسنة والسيئة جزاءهما الوافي في الحياة الأخرى، مما يدل على استمرار حياة الإنسان في عالم آخر، عندما ينهي الموت حياته في هذا العالم.

البعث مبدأ يمكن تطبيقه في الحياة

مما سبق، يتبين لنا أن البعث ليس عقيدة جامدة مترتبة يجب على الإنسان الإيمان بها من أجل خلاصه في الآخرة؛ وإنما هو مبدأ يمكن تطبيقه في الحياة البشرية، مبدأ يضيف على تلك الحياة مزيداً من الجدية والجدوى، في الوقت الذي يوقظ فيه داخل الإنسان إدراك وجود حياة أسمى. فالإنسان الذي يؤمن إيماناً صادقاً بالبعث سوف يبذل أقصى ما في وسعه لاغتنام كل فرصة تتاح له ليحيا حياته بما يخدم غاية أسمى؛ وسوف يبذل أقصى جهده ليعمل كل ما في وسعه عمله من خير لمخلوقات الله وسوف يدرأ أي شر بقدر المستطاع. وعلى ذلك، يعتبر الإيمان بالبعث ضرورياً في المقام الأول

ليجعل هذه الحياة الدنيا جديرة بأن يعيشها الإنسان. ودون ذلك الإيمان، لا تقف الحياة معناها فحسب، تاركة الإنسان دون أي هدف حقيقي أو دائم، وإنما تقف أيضاً كل حافز على عمل الخير ودفع الشر.

البعث حقيقة تتفق مع المعرفة العلمية الحالية

تعتبر فكرة الحياة بعد الموت فكرة غريبة جداً بالنسبة لذهن الشخص العادي لدرجة أن القرآن يجيب مراراً على السؤال حول كيفية حدوث البعث. والإجابة على السؤال في جميع الحالات هي أن الخالق العظيم لكل الخلائق، الذي خلق هذا الكون مترامي الأطراف من العدم، لقادر أيضاً على أن يخلق خلقاً جديداً. "أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ" (سورة ق (٥٠): الآية رقم (١٥)). "فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا (إلى خلق جديد) قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٥١)). "وَقَالُوا أَيُّذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ" (سورة الإسراء (١٧): الآيتان رقماً (٩٨) و(٩٩)). "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ. وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا" (سورة إبراهيم (١٤): الآيات أرقام (١٩-٢١)).

ويعالج الموضوع مراراً في القرآن لإتاحة إمكانية استعراض المعاني الواردة في جميع الآيات المتعلقة به، ولكن الفكرة الأساسية المطروحة في كل الآيات هي أنه سوف يُستبدل بهذا الخلق القديم، أي الأرض والسماء، وباقي الكون، خلق جديد. وسوف يُستبدل بالنظام القديم نظام جديد تماماً. وسوف يكون ذلك يوم "تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ" (سورة إبراهيم (١٤): الآية رقم (٤٨)). فكما تطور هذا الكون من فوضى وسديم إلى حالته الحالية المتمثلة في نظم المجرات، والنجوم وتوابعها، فإنه، بدوره، سوف يُستبدل به نظام أُسمى سوف ينشأ منه. وهذه الفكرة تتفق تماماً مع المعرفة العلمية المتعلقة بالكون التي توصل إليها الإنسان في العصر الحاضر - أي فكرة النشوء والارتقاء، أي نشوء النظام من الفوضى، والنظام الأسمى من نظام أدنى، ومن هذا النظام الكوني، سوف ينشأ نظام أُسمى للحياة البشرية لا يمكن إدراكه بحواسنا الحالية.

هل سيكون البعث بالجسد؟

هناك سؤال آخر مرتبط بالبعث يدور حول ما إذا كان البعث سوف يتم بالجسد. فيما يتعلق بتجربتنا الحالية، فإنه من خلال الجسد تتلقى الروح كل الأحاسيس بالمتعة والألم، وتعرف الأشياء وتذكرها، وتتطور دوافعها ومشاعرها. وفي الواقع، فإنه وفقاً للوضع الراهن لمعرفتنا، فإننا لا يمكن

أن تنصور وجود الروح بدون الجسد. ولكن السؤال عما إذا كانت الروح في البعث سوف ترجع إلى نفس الجسد الذي فارقت في هذا العالم هو سؤال مختلف تماماً. ولم يرد في القرآن ما يدل على أن الجسد الذي فارقت الروح عند الموت سوف يتم إرجاعه إليها. ومن ناحية أخرى، هناك آيات تدل على أن ما يكون عند البعث هو خلق جديد تماماً. وتدل الآيات التي تم الاستشهاد بها في الفقرة الأخيرة بوضوح على أن الخلق القديم ليس هو الذي سوف يعاد يوم القيامة. وحتى السماوات والأرض القديمة سوف تزول وتستبدل بها سماوات وأرض جديدة (سورة إبراهيم ١٤): الآية رقم (٤٨)). وإذا كانت الأرض والسماوات سوف تتبدل يوم القيامة، فكيف يمكن أن يظل الجسد البشري كما هو؟ وفي الواقع، فإن القرآن قد ذكر بوضوح أنه سوف يكون جسداً جديداً تماماً. وفي أحد المواضع، يوصف البشر بأنهم سوف يكونون عند البعث مثل الجنس البشري الحالي: "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ" (سورة الإسراء ١٧): الآية رقم (٩٩))، حيث يشير الضمير "هُم" الذي ورد في كلمة "مِثْلَهُمْ" إلى البشر، لا إلى السماوات والأرض. وفي موضع آخر، فإن الآية التي ورد فيها تبديل الأجساد أوضح في هذه النقطة. وفي تلك الآية، يذكر في البداية سؤال الكفار: "أَيُّدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" (سورة الواقعة ٥٦): الآية رقم (٤٧)). ويأتي الرد على سؤالهم في قوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ. أَنَأْنُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ. نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَتَذَكَّرُونَ". (سورة الواقعة ٥٦): الآيات أرقام ٥٨-٦٢)). وبعد أن يصير الناس تراباً وعظاماً، سوف يبعثون، ولكن حالهم سوف يتبدل تماماً وسوف تكون النشأة الجديدة "مَا لَا تَعْلَمُونَ" رغم أنكم "عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ". وعلى ذلك، فإن الجسد البشري عند البعث يعتبر خلقاً جديداً بحواسنا الحالية، لا يمكننا حتى أن نعلمه. وينطبق هذا على الجسد البشري بقدر ما ينطبق على جميع المخلوقات في الآخرة، ونعم الجنة، وعذاب جهنم، فهي أشياء يصفها قول النبي (صلى الله عليه وسلم): "مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبٍ بَشَرٍ" (البخاري ٥٩: ٨). وعلى ذلك، ليس هناك أي شيء مشترك بين الجسد عند البعث والجسد في هذه الدنيا سوى الاسم أو الشكل الذي يحافظ على هوية الإنسان.

الجسد في الآخرة يتكون من أعمال العبد الصالحة والسيئة

ليفهم المرء كيف يتكون ما يسمى بالجسد الروحي في الحياة بعد الموت، يجب عليه الرجوع أيضاً إلى القرآن. ففي كتابه العزيز، ورد أن الملائكة توكل بالعبد لحفظ أعماله الصالحة والسيئة. وعلى ذلك، فإنه في الآيات الأولى من سورة الرعد (١٣)، يلي التأكيد بالبعث - "أَيُّدَا كُنَّا تُرَابًا أَنِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ" (سورة الرعد ١٣): الآية رقم (٥)) - الرد عليهم في قوله تعالى: "سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ

أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ. لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" (سورة الرعد (١٣): الآيتان رقما (١٠) و(١١)). فقد ورد أولاً أنه سواء بالنسبة لله تعالى من أسر القول ومن جهر به، ومن يعمل خيراً أو شراً في ظلام الليل ومن يعمله في ضوء النهار، ثم يضاف بعد ذلك أن هناك ملائكة يحفظون العبد من بين يديه ومن خلفه. وبذلك، لا يختلف حفظ العبد عن حفظ أعماله. وفي الواقع، فقد تم توضيح هذا في إحدى السور التي نزلت قبل سورة الرعد: "كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ. وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَلْمُؤُونَ مَا نَقَلْتُمْ". (سورة الانفطار (٨٢): الآيات أرقام (٩-١٢)). وفي هذه الآيات، يوصف الملائكة الذين يطلق عليهم لفظ *حافظين*، وهم بالتأكيد المعقبات (سورة الرعد (١٣): الآية رقم (١١))، بأنهم الملائكة الكاتبون الذين يعلمون أعمال العبد. وبذلك، تدل الآيتان على أن نفساً داخلية للإنسان تتطور من خلال أعماله، وذلك هو المقصود بحفظ العبد في حالة وحفظ أعماله في الحالة الأخرى. والنفس الداخلية هي التي تتخذ شكلاً بعد الموت وتشكل أولاً الجسد في عالم البرزخ ثم تتطور بعد ذلك لتصبح جسداً عند البعث.

وفي موضع آخر، يُدحض تكذيب مماثل بالبعث بقوله تعالى^٨ إن الله يعلم أن الجسد يصير تراباً ثم تليه الآية الكريمة التالية: "وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ" (سورة ق (٥٠): الآية رقم (٤))، أي أن عند الله كتاباً يحفظ فيه كل ما هو ضروري للتطور في الحياة الآخرة. وذلك الكتاب الحفيظ هو كتاب الأعمال الصالحة والسيئة الذي تحفظه الملائكة الحفظة بحيث إنه ورد في نفس الآية أيضاً أنه رغم أن اللباس الخارجي للروح، أي الجسد، يصير تراباً ويعود إلى الأرض، فإن النفس الداخلية يحافظ عليها وتشكل أساس الحياة الأسمى - أي الحياة عند البعث.

الأمر الروحانية في الدنيا تتجسد في الآخرة

ورد مراراً في القرآن والسنة أن الأمور الروحانية في الحياة الدنيا تتجسد في الآخرة - وهو ليس تجسداً بالمعنى المقبول في هذه الحياة الدنيا، وإنما هو تجسد العالم الجديد الذي سوف ينشأ من العالم الحالي. فعلى سبيل المثال، سوف يجد من يهتدون بنور الإيمان في هذه الحياة الدنيا نوراً من بين أيديهم ومن خلفهم يوم القيامة، كما جاء في قوله تعالى: "أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٢٢))؛ "يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ" (سورة الحديد (٥٧): الآية رقم (١٢)).

^٨ العبارة الفعلية المستخدمة هي: "قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ"، أي أن الجسد يصير تراباً.

كما ورد ذكر ثمار الأعمال الصالحة على أنها ثمار الجنة: "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٥)). وبالمثل، فإن النار التي تحترق في قلب الإنسان في الحياة الدنيا، بسبب حبه الجم للمال، تصير نار جهنم في الآخرة: "تَارُ اللَّهُ الْمُوقَدَةَ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ" (سورة الهمزة (١٠٤): الآيتان رقما (٦) و(٧)). ويتحول عمى القلب في هذه الحياة الدنيا إلى عمى البصر في الآخرة: "وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ (الدنيا) أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٧٢)). وتتحول سبعون سنة من عمل المعاصي - سبعون سنة هي متوسط عمر البشر - إلى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً (سورة الحاقة (٦٩): الآية رقم (٣٢)). والعبد الذي يعمل بكتاب الله أو يأخذه بيمينه سوف يؤتى كتابه بيمينه يوم القيامة، والعبد الذي لا يعمل بكتاب الله ويلقيه من وراء ظهره سوف يؤتى كتابه من وراء ظهره أو بشماله (سورة الحاقة (٦٩): الآيتان رقما (١٩) و(٢٥)؛ سورة الانشقاق (٨٤): الآيتان رقما (٧) و(١٠)). كما تحتوي السنة أيضاً على أمثلة كثيرة على ذلك. وعلى ذلك، فإن الأمور الروحانية في هذه الحياة الدنيا تتجسد بالفعل في الآخرة. هذه هي الحقيقة التي تكمن وراء كل نعم الجنة وجميع أشكال عذاب النار.

كتاب الأعمال

من الجدير بالملاحظة أن حفظ أعمال العبد الصالحة والسيئة، التي تشكل أساس الحياة الأسمى، ورد ذكره على أنه كتابة هذه الأعمال؛ كما ورد مراراً ذكر كتاب الأعمال الصالحة والسيئة. وفيما يلي بعض الاقتباسات من الكتاب العزيز: "أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ" (سورة الزخرف (٤٣): الآية رقم (٨٠)). "هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (سورة الجاثية (٤٥): الآية رقم (٢٩)). "وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَايِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا" (سورة الكهف (١٨): الآية رقم (٤٩)). "فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ" (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٩٤)).

وليس لكل فرد فحسب كتاب أعمال، وإنما ورد أنه حتى الأمم لها أيضاً كتب أعمال: "وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِعَةٍ كُلِّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (سورة الجاثية (٤٥): الآية رقم (٢٨)).

ويوضح كتاب أعمال الأمة المقصود بكتاب أعمال الفرد. فعبارة كتاب الأعمال لا تعني أي شيء سوى أثر أعمال الفرد أو الأمة. ومن الخطأ أن نأخذ كلمة كتاب في حالة كتابة الأعمال الصالحة والسيئة على أنها تعني مجموعة من الصحف المكتوبة بالقلم والحبر. فكلمة كتاب لا تعني دائما صحيفة فيها كتابة؛ وإنما تعني أحياناً علم الله أو حكمه أو إيجابه (المفردات في غريب القرآن). والفعل كتب لا يعني دائماً النظم بالخط؛ وإنما يعني أيضاً أوجبه أو قدره أو قضاه أو فرضه (نفس المرجع السابق). ووفقاً لنفس المرجع، فإن معنى الكتابة في سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٩٤)، حيث ورد ذكر كتابة الأعمال الصالحة، هو أن الله مثبت تلك الأعمال لصاحب العمل ومجازيه بها.

وتعود دراسة الآيات التي يشار فيها إلى حفظ الأعمال أو إلى كتب الأعمال إلى استنتاج أن المقصود هو أثر تلك الأعمال. فعلى سبيل المثال، جاء في كتابه العزيز: "وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّلرَّمْنَاهُ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخِرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (١٣)). ويدل تعلق الأعمال في عنق صاحب العمل بلا شك على إظهار أثر الأعمال على الشخص المقصود؛ وبعبارة أخرى، فإن جميع الأعمال، صالحة كانت أم سيئة، تترك أثراً على العبد.^٩ وهذا يتفق مع ما سبق أن ذكرناه، وهو أنه يتم إعداد نفس داخلية للإنسان في هذه الحياة الدنيا. وتلك النفس الداخلية هي بالفعل كتاب أعماله، أي كتاب يدون فيه أثر كل عمل من أعماله. وهذا ما تشير إليه الكلمات التي تختتم بها الآية حيث ورد أن كتاب الأعمال، أي النفس الداخلية، المحجوب عن العين البشرية في الحياة الدنيا، سوف يصير كتاباً مفتوحاً يوم القيامة. وتماشياً مع هذا، تضيي الآية التالية لتقول: "أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٤)). وبعبارة أخرى، فإن أثر أعمال العبد يصبح واضحاً جداً يوم القيامة لدرجة أنه لا تكون هناك حاجة لحساب خارجي. وإنما العبد نفسه هو الذي يقرأ كتابه، أي هو الذي يرى كل أعماله في الأثر الذي تتركه عليه، ويحكم على نفسه لأن الحساب قد جرى بالفعل داخل نفسه.

ويتفق مع هذا ما ورد في آيتين أخريين في واحدة من أوائل السور: "كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ" (سورة المطففين (٨٣): الآية رقم (٧))؛ "كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنٍ" (سورة المطففين (٨٣): الآية رقم (١٨)). وعلى النقيض من الأبرار الذين هم في أعلى عليين، كان يُفترض أن يوصف الفجار بأنهم في أسفل سافلين، ولكن بدلاً من ذلك، ورد في الآية الكريمة أنهم في سجين مما يدل على أنه قد وضع حاجز يحول دون رقيهم؛ ومن ثم ورد فيما بعد أن الفجار "عَن رَّبِّهِمْ

^٩ يطلق على العمل، في هذه الآية، لفظ "طائر"، وإلى جانب معناه المعروف فإنه يرد أيضاً بمعنى عمل. ويطلق على عمل الإنسان لفظ طائر للدلالة على أنه يطير حال عمله بحيث إنه لا يكون في مقدرة الإنسان إرجاعه كما تذكر الآية بوضوح، ويترك أثره الدائم على صاحبه.

يَوْمَئِذٍ لَمُخْجُوبُونَ" (سورة المطففين (٨٣): الآية رقم (١٥))، في حين يواصل الأبرار رقيهم إلى مراتب أعلى. وكلمة كتاب هنا تشير بوضوح إلى نفس الإنسان الداخلية؛ وبأي تفسير آخر، فإن وضع الكتاب في سجين لا معنى له. وعلى ذلك، يتضح لنا من الأوصاف المختلفة "لكتاب الأعمال" أن المقصود هو أثر الأعمال الصالحة أو السيئة الذي يسرع بالتقدم الروحي للعبد أو يبطئه، حسبما تكون الحالة، وأن كتابة الأعمال ليست سوى الأثر الذي يترك على العبد عندما يعمل صالحاً أو سيئاً - وهو أثر تعجز عن رؤيته عين البشر، ولكنه لا يمكن أن يرتاب في حقيقته أي مفكر أمين.

الميزان

كما ورد أيضاً ذكر الميزان فيما يتعلق بأعمال العبد الصالحة والسيئة. وتعتبر كلمة الميزان أيضاً من الكلمات التي هناك سوء فهم شائع بشأنها. والوزن هو ببساطة معرفة قدر الشيء (المفردات في غريب القرآن). فمن الصحيح أن وزن الأشياء المادية يقدر بالميزان أو أي آلة وزن أخرى، ولكن أعمال الإنسان لا يحتاج وزنها لميزان. وقد كان راغب، مؤلف معجم مفردات القرآن، واضحاً في هذه النقطة عندما قال إن المقصود بالوزن أو الميزان، في حالة أعمال العباد، هو "العدل في محاسبة الناس". واستشهد بالأمثلة التالية: "وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٨))؛ "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ" (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٤٧))، حيث يوضح المعنى بالفعل في القرآن نفسه بإضافة عبارة "فَلَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا". وفي موضع آخر أيضاً، يشار إلى أن الميزان يوضع في الطبيعة نفسها: "وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ." (سورة الرحمن (٥٥): الآيات أرقام (٧-٩)). وقد ورد في البداية أن الميزان أقيم عند خلق السماء ثم يليه الأمر بأن يقيم الناس أيضاً الوزن بالقسط. ويقصد بالميزان الذي يعمل في الطبيعة القانون الذي تخضع له كل المخلوقات، بحيث إنه رغم وجود قوى متعارضة، فإن كلاً منها يخضع لقانون. وكل شيء يسير بقدر وكذلك ينبغي أيضاً أن يسير الإنسان بقدر. ومن هنا، كان الأمر بالأل يطغى الناس في الميزان.

وقد ورد في موضع آخر بوضوح أن الله تعالى قد أنزل "الميزان" الخاص بالبشر: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ" (سورة الحديد (٥٧): الآية رقم (٢٥)). فقد أنزل الله تعالى الوحي، أي الكتاب، ليوقظ الحياة الروحية داخل الإنسان، ومن ثم، فإنه لا بد أيضاً أن للميزان، الذي ورد أنه نزل مع الوحي، صلة بالحياة الروحية للإنسان. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن الإنسان، في تطوره الجسدي، يخضع بالتأكيد لنفس الميزان الذي

تخضع له باقي الطبيعة، ورغم ذلك، فإنه فيما عدا ذلك تكون له حياة أسمى، الحياة الروحية، التي تنشأ من الحياة الحالية، والكتاب الذي أنزل مع الأنبياء والميزان كلاهما يرتبط بتطور الحياة الروحية للإنسان. فالكتاب يحتوي على التعاليم من حيث المبدأ، أي عمل الخير ودفع الشر، بحيث تأخذ الحياة الروحية التي توقظ داخل الإنسان منعطف الخير أو الشر، أي صورة أسمى أو أدنى، بناء على ما إذا كان الخير أم الشر هو الذي سوف ترجح كفته. وعلى ذلك، فإنه إلى جانب أن الأعمال الصالحة والسيئة تترك أثرها، فإنه يكون هناك أيضاً ميزان يجسّد ذلك الأثر ويتيح إمكانية التطور الروحي أو يترتب عليه تعطل ذلك التطور إذا ما رجحت كفة الشر.

ومن ثم، فإن "الميزان" في الآخرة لا يختلف إطلاقاً عن "الميزان" في الحياة الدنيا، فيما عدا أنه يأخذ شكلاً ملموساً بدرجة أكبر. ويوضع المبدأ العام ذو الصلة في الآيات الكريمة التالية: "وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ" (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٤٧)). "وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ" (سورة الأعراف (٧): الآيتان رقماً (٨) و(٩)).

وقد ورد ذكر فئة معينة من الناس لا يقام لهم وزن قط يوم القيامة. هؤلاء هم الذين أضاعوا كل طاقتهم في الأعمال الدنيوية: "قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا." (سورة الكهف (١٨): الآيات أرقام (١٠٣-١٠٥)).

الجنة

للحياة بعد الموت صورتان؛ هما: حياة في الجنة لمن ترجح كفة الخير عندهم على كفة الشر، وحياة في النار لمن ترجح كفة الشر عندهم على كفة الخير. ولم ترد كلمة الفردوس في القرآن سوى مرتين، ففي أحد المواضع وردت مقترنة بكلمة جنات^{١٠} وفي الموضع الآخر وردت بمفردها^{١١}. وكلمة جنة (أو جمعها جنات) هي الكلمة المستخدمة بوجه عام للإشارة إلى دار الأبرار^{١٢}. ولاستخدام هذا الاسم للإشارة إلى دار النعيم معنى أعمق، لأنه ورد عن الجنة في عبارات واضحة أن نعيمها

^{١٠} سورة الكهف (١٨): الآية رقم (١٠٧).

^{١١} سورة المؤمنون (٢٣): الآية رقم (١١).

^{١٢} كلمة جنات مشتقة من كلمة جن التي تعني ستر الشيء عن الحاسة وكلمة جنات، في استخدامها العادي، تعني كل بستان ذي شجر لأنه يستر بأشجاره الأرض.

مما لا يمكن إدراكه بالحواس المادية. والوصف الذي عادة ما توصف به الجنة هو جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، والذي يقابله وصف الأبرار بوجه عام بأنهم الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. وعند قراءة هذين الوصفين في ضوء ما سبق ذكره بشأن تجسد الأمور الروحية الخاصة بالحياة الدنيا في الآخرة، نجد أنهما يدلان على أن الإيمان، الذي هو ماء الحياة الروحية، يتحول إلى أنهار والأعمال الصالحة، النابعة من الإيمان، تصير بذورًا تنبت أشجارًا في الآخرة.

نعم الجنة

ورد في القرآن في وصف الجنة في كلمات واضحة بأنها مثل الجنة التي تجري من تحتها الأنهار، ولكنها ليست بالفعل تلك الجنة، بلغة الحياة الدنيا: "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ" (سورة الرعد (١٣): الآية رقم (٣٥))؛ "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ..." (سورة محمد (٤٧): الآية رقم (١٥)). وتماشياً مع هذا الوصف، وردت آية كريمة في موضع آخر تقيد أن نعم الجنة لا يمكن تصورها في الحياة الدنيا، لأنها ليست أشياء تنتمي إلى هذا العالم: "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (سورة السجدة (٣٢): الآية رقم (١٧)). وقد فسر النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه هذه العبارة عندما قال: "قَالَ اللَّهُ أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا حَظَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ" (البخاري (٥٩: ٨)). ويروى عن ابن عباس، الصحابي والمفسر الشهير، قوله: "ليس في الجنة من أطعمة الدنيا إلا الأسماء"^{١٣}.

ويمكن إضافة بعض أمثلة نعم الجنة. فعلى سبيل المثال، ورد في القرآن أن الظل يعتبر من بين نعم الجنة: "هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ" (سورة يس (٣٦): الآية رقم (٥٦))؛ "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَغُيُوبٍ" (سورة المرسلات (٧٧): الآية رقم (٤١))؛ "أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا" (سورة الرعد (١٣): الآية رقم (٣٥)). وكلمة ظل^{١٤} في كل هذه الأمثلة لا تحمل بالفعل معنى ظل؛ فالاسم مستخدم ولكن معناه مختلف تماماً. وفي الواقع، فإنه قد ورد في القرآن بكلمات واضحة أنه ليست هناك شمس في الجنة: "لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا" (سورة الإنسان (٧٦): الآية رقم (١٣)).

^{١٣} روح المعاني، الجزء الأول، ص. ١٧٢.

^{١٤} تستخدم نفس الكلمة أيضاً للإشارة إلى أهوال جهنم: "وَظِلِّ مِّنْ يَّخْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ" (سورة الواقعة (٥٦): الآيتان رقم (٤٣) و(٤٤)). "انظُرُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ" (سورة المرسلات (٧٧): الآية رقم (٣٠)). ويضيف راغب أن الظل هو كل سائر محمودا كان أو مذموما؛ ومن ثم ورد ذكر الظل على أنه من أهوال جهنم.

ومن ثم، فإنه في حالة الجنة، يعبر الظل عن المنعة أو العزة، بوصفها الفكرة التي تكمن وراء كلمة ظل (المفردات في غريب القرآن).

وقد ورد في القرآن أن أهل الجنة يهبهم الله الرزق. ولكن لا يمكن أن يكون المقصود به هنا ذلك الرزق الذي يتغذى به الجسد. وإنما هو الرزق اللازم لغذاء النفس الداخلية للإنسان، ولهذا السبب تسمى الصلاة أيضاً رزقاً.^{١٥} كما أن ثمار الجنة، سواء ورد ذكرها باسم معين أو بوجه عام، ليست هي ثمار الدنيا، وإنما هي ثمار الأعمال. فالاسم متشابه، ولكن المعنى مختلف تماماً. وعلى ذلك، قال تعالى في كتابه العزيز: "كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٥)). ومن الواضح أن المقصود هنا هو ثمار الأعمال الصالحة وليست الثمار التي تؤتيها الأرض، لأن ثمار الدنيا لا تعطى لكل المؤمنين الحق في الدنيا في حين أن ثمار الأعمال الصالحة تعطى لهم جميعاً. وينطبق هذا على أنهار الماء، واللبن، والعسل، التي ورد في كلمات واضحة أنها أمثال مجازية؛^{١٦} والسرر المرفوعة، والوسائد، والبسط؛^{١٧} والحلي، والأساور، والثياب الحرير^{١٨} - فكل هذه ليست أشياء تنتمي إلى الحياة الدنيا، وإنما تذكر فقط لتدل على أن كل ما من شأنه إكمال صورة سعادة الإنسان سوف يوجد في الجنة. وبالنسبة للشكل الذي سوف تأخذه هذه الأشياء بالضبط، فإن هذا لا يمكن تعريفه للإنسان لأن حواسه عاجزة عن إدراكه. وكل وصف لنعم الآخرة إنما يكون تشبيهاً أو مثلاً، كما هو موضح في القرآن.^{١٩}

كما سبق أن ذكرنا، فإن البعث يدل على حياة جديدة تماماً ونظام جديد للأشياء، وسما وأرض جديدتين. وبقليل من التكثير، سوف يتبين لنا أن أفكارنا عن المكان والزمان لا تنطبق على الحياة الأخرى. فالجنة عرضها السماوات والأرض، أي الكون كله: "وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٣٣)؛ "سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ" (سورة الحديد (٥٧): الآية رقم (٢١)). وعندما سئل النبي (صلى الله عليه وسلم) أين النار إذا كانت الجنة عرضها السماوات والأرض، فأجاب (عليه الصلاة والسلام) بقوله: "فأين الليل إذا جاء النهار؟"^{٢٠} مما يدل على أن الجنة والنار أشبهه بالثنتين أكثر منهما بمكانين. بالإضافة إلى ذلك، فرغم أن الجنة والنار قطبان متباعدان، فإحدهما في أعلى

^{١٥} سورة طه (٢٠): الآية رقم (١٣٢).

^{١٦} سورة محمد (٤٧): الآية رقم (١٥).

^{١٧} سورة الغاشية (٨٨): الآيات أرقام (١٦-١٣).

^{١٨} سورة الكهف (١٨): الآية رقم (٣١).

^{١٩} سورة الرعد (١٣): الآية رقم (٣٥)؛ سورة محمد (٤٧): الآية رقم (١٥).

^{٢٠} روح المعاني، الجزء الأول، ص. ٦٧٠.

عليين والأخرى في أسفل سافلين، فإنه لا يفصل بينهما سوى جدار رقيق، كما جاء في قوله تعالى: "فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ" (سورة الحديد (٥٧): الآية رقم (١٣)). وفي موضع آخر، قال تعالى عن أهل الجنة وأهل النار: "وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٤٦)). ومن المستحيل، بأفكارنا الحالية عن المكان، أن نتصور وجود هذين الشيتين في نفس الوقت. كما ورد أيضاً مراراً ذكر نار جهنم بأن "لَهَا شَهِيْقًا وَهِيَ تَقُورٌ"^{٢١} ولكن أهل الجنة "لَا يَسْمَعُونَ حَسِيْسَهَا"^{٢٢} رغم أنهم يسمعون أهل النار ينادونهم: وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة: "أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ. الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَعَلْبًا وَعَرَنَّهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا" (سورة الأعراف (٧): الآيتان رقم (٥٠) و(٥١)). وعلى ذلك، فإن أهل الجنة يسمعون حديث أهل النار، ولكنهم لا يسمعون نار جهنم وهي تقور. مما يدل على أن التغيير، الذي سوف يحدث للإنسان في البعث، سوف يكون تاماً جداً لدرجة أنه سوف تتبدل بحواسه الحالية حواس أخرى لا يمكنه تصورها في الحياة الدنيا، حواس سوف تسمع أخفض النبرات ولكنها لن تسمع الأصوات المفزعة.

نساء الجنة

وبناءً على ما سبق، فإن الأشياء التي ورد ذكرها من بين نعم الجنة ليست أشياء تنتمي إلى الحياة الدنيا، وإنما هي أشياء لم نرها أو نسمع عنها في الحياة الدنيا؛ ولا يمكننا حتى إدراكها بحواسنا الحالية. وكل أوصاف نعم الجنة إنما تذكر لتدل على أن حياة الأبرار سوف تكون مثالية عند البعث. وبوضع نفس الهدف في الاعتبار، ترد الإشارة إلى اقتران الرجل بالمرأة في تلك الحالة، وهي علاقة أعطى لها ذوو الميول الحسية معنى حسياً. وكتب راغب^{٢٣} تحت كلمة زوج، المستخدمة في القرآن للإشارة إلى اقتران الرجل بالمرأة، يقول: "زوجناهم بحور عين أي: قرناًهم بهن، ولم يجئ في القرآن زوجناهم حورا، كما يقال زوجته امرأة، تنبئها أن ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة."^{٢٤} كما ذكر أيضاً أنه في العلاقات مع النساء في الجنة ليس

^{٢١} سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (١٢)؛ سورة الملك (٦٧): الآية رقم (٧).

^{٢٢} سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (١٠٣).

^{٢٣} المؤلف الشهير لمعجم مفردات القرآن.

^{٢٤} انظر أيضاً المعجم العربي - الإنجليزي للين، الذي يؤكد أن كلمة زوج عندما تستخدم كفعل متعدي لمفعولين دون أن يليها حرف جر تعني الزواج وعندما تستخدم كفعل متعدي لمفعولين يليه حرف الجر الباء "تعني يقرن الشيء بقرينه أو مثيله. بالإضافة إلى ذلك، استشهد مؤلف المعجم بالآية رقم (٧) من سورة التكويد (٨١) حيث يقول تعالى: "وَإِذَا التَّقْوِيْسُ رُزِيَتْ".

هناك توالد؛^{٢٥} وبما أن العلاقة الجنسية، كما هو معروف في الحياة الدنيا، تعتبر من المتطلبات الفطرية للمساعدة على التوالد، فإنه من الواضح أن العلاقة بين الجنسين أو اقتران الرجل بالمرأة عند البعث له معنى مختلف تماماً.

وقد ورد ذكر المرأة في القرآن، في المقام الأول، للدلالة على أن الرجل والمرأة سواسية أمام الله وأن كليهما سوف ينعم بالحياة الأسمى عند البعث. وقد ورد بوضوح في مواضع عديدة أن النساء عامة سوف يدخلن الجنة مثل الرجال: "وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ" (سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٤٠))؛ "وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٢٤)). "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (٩٧)). "أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٩٥)).

وقد ورد في القرآن أن زوجات الصالحين بصفة خاصة يرافقن أزواجهن في الجنة: "هُمُ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأُرَائِكِ مُتَكِنُونَ" (سورة يس (٣٦): الآية رقم (٥٦)). "رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ" (سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٨)). "ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ" (سورة الزخرف (٤٣): الآية رقم (٧٠)).

الحوار

من بين الأوصاف العديدة لنساء الجنة وصفهن بكلمة حوار التي وردت في القرآن أربع مرات. وهي جمع كلمة أُحْوَر (للرجل) وحوراء (للمرأة) ومعناها صاحب أو صاحبة العين التي تتصف بصفة الحَوَر (المعجم العربي - الإنجليزي للين).^{٢٦} والنقاء هو الفكرة المهيمنة في معنى كلمة حوار ومن ثم، فإن كلمة حوار،^{٢٧} المشتقة من نفس الجذر، معناها صديق مخلص نقي من كل عيب. وفيما يلي المواضع الأربعة التي ورد فيها وصف نساء الجنة بأنهن حوار: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ.... وَرَوْحَانَهُمْ يُجُورِ عَيْنٍ." (سورة الدخان (٤٤): الآيات أرقام (٥١-٥٤)).

^{٢٥} روح المعاني، الجزء الأول، ص. ١٧٢.

^{٢٦} كلمة حَوَر تعني في الأصل البياض (وهو رمز النقاء)، وكلمة حوراء تستخدم للإشارة إلى امرأة يكون لون جسدها أبيض وبياض عينها شديد البياض وسوادها شديد السواد (لسان العرب). كما أن كلمة أحوار، بالإضافة إلى استخدامها للإشارة إلى الرجل الذي يوصف بالحوار، تعني أيضاً نقاء أو صفاء الذهن (المعجم العربي - الإنجليزي للين).

^{٢٧} في القرآن، تستخدم هذه الكلمة بصفة خاصة للإشارة إلى حواربي عيسى عليه السلام، ولكنها في الحديث تستخدم بمعنى عام للإشارة إلى خلاء أي نبي من الأنبياء عليهم السلام وصفوته.

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ.... مُكْنَيْنَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّجْنَا لَهُمْ بُحُورٍ عَيْنٍ." (سورة الطور (٥٢): الآيات أرقام (١٧-٢٠)). "فِيهِنَّ (أي في الجنات) حَيْرَاتٌ حِسَانٌ.... حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ." (سورة الرحمن (٥٥): الآيات أرقام (٧٠-٧٢)). "وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (لله). فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.... عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ.... وَحُورٍ عَيْنٍ. كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ. جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ." (سورة الواقعة (٥٦): الآيات أرقام (١٠-٢٤)).

ولكن هل الحور هن النساء اللاتي يدخلن الجنة، أي زوجات الصالحين؟ فقد وردت في أحد الأحاديث الشريفة إشارة إلى ذلك. وآخر المواضع التي ورد فيها ذكر الحور في سورة الواقعة (٥٦): الآيات أرقام (١٠-٢٤)، ومتابعة للموضوع وردت الآيات الكريمة التالية: "إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا. غُرْبًا أَتْرَابًا. لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ." (سورة الواقعة (٥٦): الآيات أرقام (٣٥-٣٨)). وفيما يتعلق بإنشائهن نشأة جديدة، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله إنه المراد بهذا النساء اللاتي كن في الدنيا عجائز.^{٢٨} ومن ثم، فإن معنى الآية هو أن جميع النساء الصالحات سوف يخلقهن الله خلقاً جديداً في حياة البعث بحيث يجعلن جميعاً أبقاراً متساويات في الأعمار. ويدل شرح النبي (صلى الله عليه وسلم) للآية على أن كلمة حور تستخدم لوصف النشأة الجديدة التي سوف ينشئها الله تعالى لنساء الدنيا. كما يروى أيضاً في قصة أن عجزاً أتت إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما كان يجلس مع الصحابة وطلبت منه أن يدعو الله أن يدخلها الجنة. فبروح من المرح، علق النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله إن الجنة لا تدخلها عجز. وكانت على وشك أن تتصرف في غاية الحزن عندما طمأنها النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله إن كل نساء الدنيا سوف ينشئنهن الله نشأة جديدة بحيث لا تكون هناك عجز في الجنة قرأ عليها الآيات التي سبق الاستشهاد بها.^{٢٩}

الحور من نعم الجنة

ورد في القرآن ما يعزز أيضاً الاستنتاج الذي يقود إليه هذا الحديث. فوصف الحور، كما ورد في القرآن، يتضمن أفضل صفات المرأة الصالحة، والنقاء من كل عيب، والحسن، والشباب، وقصر الطرف، هذا بالإضافة إلى التحبب لزوجها. ولكن حتى لو اعتبرنا أن كلمة حور تشير إلى نعم الجنة لا إلى نساء الدنيا، فإنها نعمة وعد الله بها الرجال والنساء على حد سواء. فكما أن البساتين، والأنهار، واللبن، والعسل، والفاكهة، والعديد من الأشياء الأخرى في الجنة أعدت للرجال والنساء على حد سواء، فكذلك أيضاً نعمة الحور. ولا يعلم أحد طبيعة هذه النعم بالفعل، وإنما

^{٢٨} الترمذي ٤٤: سورة الواقعة (٥٦).

^{٢٩} روح المعاني، الجزء الثامن، ص. ٣٢٠.

الصورة الكاملة المرسومة للجنة في القرآن تدين بشدة ربط أي فكرة حسية بها. ورغم ذلك، فقد نتساءل لماذا توصف هذه النعم بكلمات تستخدم لوصف النساء؟ والحقيقة هي أن الجزء الذي ورد ذكره ينطوي على إشارة خاصة إلى النقاء من كل عيب وحسن الخلق، وإذا كان هناك رمز للنقاء والحسن، فإنه المرأة وليس الرجل.

غلمان وولدان الجنة

ما ينطبق على نساء الجنة ينطبق أيضاً على الغلمان. وقد ورد في القرآن، في أحد المواضع، ذكر وجود الغلمان (جمع غلام ومعناها صبي) في الجنة كما ورد ذكر الولدان (جمع ولد أي الابن أو الطفل) في موضعين: "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ" (سورة الطور (٥٢): الآية رقم (٢٤))؛ "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ" (سورة الواقعة (٥٦): الآية رقم (١٧))؛ سورة الإنسان (٧٦): الآية رقم (١٩)). وفي الحالة الأولى، هناك إشارة إلى أن هؤلاء الصبية، الذين يطلق عليهم لفظ غلمان، هم ذرية المؤمنين؛ حيث يوصفون بأنهم غِلْمَانٌ لَهُمْ، كما ورد في القرآن في عبارات واضحة أن الله تعالى سوف يلحق بالصالحين ذريتهم كما جاء في قوله تعالى: "أَلَحَقْنَا بِهِمْ (أي بالعباد الصالحين) ذُرِّيَّتَهُمْ" (سورة الطور (٥٢): الآية رقم (٢١)). وقد ورد في موضع آخر ما يفيد أن ذرية المؤمنين سوف تدخل الجنة معهم (سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٨)). ومن ثم، فإن الغلمان والولدان هم الصغار الذين ماتوا في طفولتهم. ورغم ذلك، هناك احتمال أن يكون هؤلاء الغلمان والولدان من نعم الجنة لأن الغلمان، شأنهم شأن النساء، رمز للنقاء والحسن.

دار السلام

ما من أحد يقرأ القرآن يعجز عن إدراك أن الصورة الحقيقية المرسومة للجنة في القرآن لا تنطوي على أي دلالة، أيًا كانت، على أي متعة حسية. ويمكن الاستشهاد ببعض الآيات التي توضح الطبيعة الحقيقية للجنة: "وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٧٢)). "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ". (سورة يونس (١٠): الآيتان رقم (٩) و(١٠)). "تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ" (سورة إبراهيم (١٤): الآية رقم (٢٣)). "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ. لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ". (سورة الحجر (١٥):

الآيات أرقام (٤٥-٤٨)). "وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ." (سورة فاطر (٣٥): الآيتان رقما (٣٤) و(٣٥)). "لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَاءٌ يَدْعُونَ. سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ." (سورة يس (٣٦): الآيتان رقما (٥٧) و(٥٨)). "ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ. لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ." (سورة ق (٥٠): الآيتان رقما (٣٤) و(٣٥)). "لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِنَّ إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا" (سورة الواقعة (٥٦): الآيتان رقما (٢٥) و(٢٦)).

وتماشياً مع هذا الوصف للجنة، فإن أحد الأسماء التي يشار بها إلى الجنة في القرآن هو دار السلام.^{٢٠}

لقاء الله

ورد في القرآن أن الهدف الأساسي لحياة الإنسان هو لقاء الله. ففي واحدة من أوائل السور، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ" (سورة الانشقاق (٨٤): الآية رقم (٦)). ولكن هذا الهدف لا يمكن تحقيقه على أتم وجهه في الحياة الدنيا؛ وإنما فقط في الحياة بعد الموت، أي في الحياة الأسمى، يمكن للإنسان أن يبلغ هذه المرحلة. ومن ثم، ورد في كتابه العزيز أن من يَكْدِبُونَ بالحياة بعد الموت يَكْدِبُونَ أيضاً بقاء الله: "وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" (سورة السجدة (٣٢): الآية رقم (١٠)). ويُدين القرآن مراراً الرضا بالحياة الدنيا وعدم التطلع لبلوغ هدف أسمى وحياة أسمى: "إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ" (سورة يونس (١٠): الآيتان رقما (٧) و(٨))؛ "فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" (سورة يونس (١٠): الآية رقم (١١))؛ "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (سورة العنكبوت (٢٩): الآية رقم (٢٣))؛ "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ. أُولَئِكَ يَتَعَنَّوْنَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ." (سورة الروم (٣٠): الآيتان رقما (٧) و(٨)). وإن الذين يكونون على يقين من أنهم ملاقو ربهم هم فقط الذين يعملون بصبر لتحقيق هذا الهدف العظيم: "وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ." (سورة البقرة (٢): الآيتان رقما (٤٥) و(٤٦)). فلقاء الله هو الهدف العظيم الذي من أجل بلوغه يعمل

^{٢٠} سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٢٧)؛ سورة يونس (١٠): الآية رقم (٢٥).

الإنسان كل الأعمال الصالحة: "فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" (سورة الكهف (١٨): الآية رقم (١١٠)). وما جهنم نفسها إلا مكان محبوب عن الله تعالى: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ." (سورة المطففين (٨٣): الآيات أرقام (١٤-١٦)). ومن ثم، فإن الجنة هي المكان الذي يلتقي فيه العباد الصالحون بربهم كما أن الحياة في الجنة تفوق جميع التصورات المادية.

رقي العبد في الحياة الأسمى

ورغم ذلك، فتلك إنما هي بداية الحياة الأسمى. فرغم أن الهدف قد تحقق، فإن ذلك لا يمثّل أكثر من فتح آفاق واسعة لمزيد من الرقي. وإذا كان الله قد وهب الإنسان تلك الإمكانيات الهائلة في الحياة المادية، فإنه يستتبع ذلك أن يكون رقيه لا حدود له، وألا يتوقف ذلك الرقي ببلوغ الحياة الأسمى. ووفقاً للفكرة القائلة بأن البعث هو مولد الإنسان في حياة أسمى، فإن القرآن يتحدث عن الرقي غير المنقطع للعباد الصالحين في تلك الحياة، الذين يرتقون باستمرار إلى مزيد من الدرجات العلى. وليست الراحة والمتعة هما هدف الحياة البشرية. فكما أنه قد غرست في النفس البشرية الرغبة في بلوغ مزيد من الرقي في الحياة الدنيا، فكذلك أيضاً توجد تلك الرغبة في الجنة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (سورة التحريم (٦٦): الآية رقم (٨)). ويتضح لنا من الجزء الأول من الآية أن الله يكفر السيئات عن الذين يدخلون الجنة، وكما يتبين من الجزء الأخير فإن نفس العباد الصالحين تحركها باستمرار الرغبة في مزيد من النور الذي يشير بوضوح إلى الرغبة في الارتقاء إلى درجات أعلى في الحياة الروحانية. وهناك وسيلة لتحقيق كل رغبة في الجنة: "لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ" (سورة يس (٣٦): الآية رقم (٥٧)). ولذلك، لا يمكن أن تظل الرغبة في الارتقاء إلى مزيد من الدرجات العلى دون تحقيق: "لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ" (سورة الزمر (٣٩): الآية رقم (٢٠)). ومن ثم، فإن الحياة الجديدة التي يهبها الله لعباده الصالحين في الجنة إنما هي نقطة بداية لبلوغ رقي جديد يواصل فيه الإنسان الارتقاء إلى مزيد من الدرجات العلى. كما أن الإنسان لا يمسه عناء أو إعياء عند بلوغ هذه الدرجات العلى التي لا يمكن حتى تكوين تصور عنها الآن لأنه، كما قال تعالى في كتابه العزيز: "لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ" (سورة فاطر (٣٥): الآية رقم (٣٥))؛ "وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ" (سورة الحجر (١٥): الآية رقم (٤٨)). وعلى ذلك، فإن متع الجنة هي بالفعل المتع الحقيقية للرقي.

الأسماء العديدة للنار

ورد ذكر النار في القرآن بسبعة أسماء مختلفة، ويعتقد البعض أن هذه الأسماء هي أسماء دركات النار السبعة. وأكثر هذه الأسماء تكراراً اسم جهنم، الذي يعتبر اسم علم للنار.^{٣١} والكلمة معناها القعر البعيد. وهناك اسم آخر للنار يحمل معنى مماثلاً، ولكنه لم يرد في القرآن سوى مرة واحدة،^{٣٢} وهو اسم الهاوية، والهاوية هي كل مهواة لا يدرك قعرها (لسان العرب).^{٣٣} وهناك أربعة أسماء للنار مأخوذة من تشبيه النار، وهي تحديداً: جحيم، المشتقة من الجذر جحم، ومعناه شدة التهاب أو تأجج النار، ولكن هذه الكلمة تستخدم للدلالة على شدة القتل في معترك الحرب وكذلك للدلالة على شدة لهيب النار، في حين أن كلمة تجحّم، وهي صيغة أخرى مشتقة من نفس الجذر، تعني تحرق شوقاً أو حرصاً وبخلاً أو تضايق (المعجم العربي - الإنجليزي للين)؛ وسعير المشتقة من الجذر سعر ويعني التهاب النار وتستخدم الكلمة مجازاً للدلالة على استعار الحرب (المفردات في غريب القرآن)؛^{٣٤} وسقر من سقرته الشمس أي لَوَّحَتْه وأذابتَه (المفردات في غريب القرآن)؛ ولظى التي تعني اللهب الخالص و تستخدم الكلمة بصيغة معينة (تلظى) مجازاً بمعنى "توقد من شدة الغضب" (لسان العرب). والاسم السابع للنار هو الحطمة، الذي لم يرد سوى مرتين في نفس السياق، (سورة الهمزة (١٠٤): الآيتان رقماً (٤) و(٥))، والكلمة مشتقة من الجذر حَطَمَ الذي يعني كسر الشيء، ويقال حَطَمْتُهُ التَّيْنَ أي أَسَسْتُ وضعف، في حين أن الحَطْمَةُ هي النار الشديدة والحَطْمَةُ هي الجذب (المعجم العربي - الإنجليزي للين؛ لسان العرب).^{٣٥}

النار: تجسيد للأمور الروحانية في الدنيا

يتبين لنا مما سبق أن الأسماء العديدة للنار تعبر عن ثلاث أفكار مختلفة؛ هي تحديداً: فكرة السقوط في أسفل سافلين، وفكرة الاحتراق، هذا بالإضافة إلى فكرة التحطم. وعلى ذلك، فكما أن فكرة بلوغ أعلى عليين مرتبطة بالجنة، فكذلك تكون فكرة السقوط في أسفل سافلين مرتبطة بشكل رئيسي بالنار؛ وكما أن فكرتي الرضا والسعادة مرتبطتان بالجنة، فكذلك فكرة الاحتراق ترتبط بالنار،

^{٣١} جهنم تعني القعر البعيد ويتر جهنم هي بئر بعيدة القعر (لسان العرب).

^{٣٢} سورة الفارعة (١٠١): الآية رقم (٩).

^{٣٣} الجذر المشتقة منه الكلمة هو هوى، والهوى سقوط من علو إلى أسفل، ومن ثم تشير الكلمة إلى الأهواء (المفردات في غريب القرآن).

^{٣٤} استخدمت كلمة سُعِرَ بمعنى كرب وغم في القرآن (سورة القمر (٥٤): الآية رقم (٢٤)).

^{٣٥} استخدمت كلمة حَطَامٍ، المشتقة من نفس الجذر، في سورة الحديد (٥٧): الآية رقم (٢٠) وفي مواضع أخرى للإشارة إلى "ما يبس وتحطم" من النبات.

التي ما هي إلا نتاج احتراق الإنسان من الرغبة الشديدة في الحياة الدنيا؛ وأخيراً، فكما أن فكرة الحياة المثمرة ترتبط بالجنة، فإن الحياة في النار تصور على أنها حياة جدياء. كل هذا هو نتاج أعمال العبد. فلأنه يتبع أهواءه ورغباته الدنيئة، فإنه يسقط نفسه في الهاوية؛ ويتحول الاحتراق من الأهواء والرغبات الدنيوية إلى نار موقدة بعد الموت؛ ولأن الغاية الوحيدة التي يضعها نصب عينيه هي تحقيق مكسب ما في الحياة الدنيا، فإن تلك الأعمال لا يمكن أن تؤتي ثماراً بعد الموت. وكما أن نعم الجنة تعتبر تجسيداً للحقائق الخفية في الحياة الدنيا، وكذلك أيضاً السقوط في أسفل سافلين، والنار، والجذب في الحياة الآخرة، لأن يوم القيامة هو اليوم الذي تظهر فيه الحقائق الخفية^{٣٦} عندما يُرفع الغطاء عن عيني الإنسان بحيث يرى بوضوح عواقب أعماله التي كان في غفلة عنها في الحياة الدنيا.^{٣٧} وبعبارة أخرى، فإن ضروب العذاب الروحي والألم النفسي، الذي يشعر به الإنسان بوجه عام دون أن يدركه تقريباً في الحياة الدنيا، تأخذ شكلاً ملموساً في الآخرة. ويعطى رد واضح على السؤال عن ماهية النار بأنها "نارُ الله الموقدة. الَّتِي تَطَّلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ" (سورة الهزمة (١٠٤): الآيتان رقما (٦) و(٧)). والنار التي تأكل الأفئدة هي النار التي تنتج عن الرغبات العارمة التي تسيطر على الإنسان. كما توصف أيضاً الحسرة بسبب ارتكاب المعاصي بأنها نار، كما جاء في قوله تعالى: "كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٦٧)). وتصبح أهواء الحياة الدنيا، التي كثيراً ما تشكل عقبة أمام يقظة وعي الإنسان بحياة أسمى وأهداف أنبل، الهاوية أو جهنم التي يسقط فيها صاحب الذنوب نفسه. وحتى في القرآن، جاء قوله تعالى: "فَأَجْتَبِئُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَبِئُوا قَوْلَ الزُّورِ. حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ" (سورة الحج (٢٢): الآيتان رقما (٣٠) و(٣١)). وعن الذين يقتصر سعيهم على الحياة الدنيا، قال تعالى: "الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ" (الكهف (١٨): الآيات أرقام (١٠٤-١٠٦)).

ورغم أن النار كثيراً ما تُذكر بوصفها عاقبة عمل السيئات، وهو ما سوف نذكر أسبابه فيما بعد، فإن هناك بعض الجوانب الأخرى المتعلقة بسوء عاقبة الأعمال السيئة. فعلى سبيل المثال، قال تعالى: "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْتَهُمُهَا ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ." (سورة يونس (١٠): الآيتان رقما (٢٦) و(٢٧)). كما ورد أيضاً ذكر سواد الوجه على أنه ضرب من ضروب عذاب النار:

^{٣٦} سورة الطارق (٨٦): الآية رقم (٩).

^{٣٧} سورة ق (٥٠): الآية رقم (٢٢).

"يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌُ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌُ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٠٦)). كما جاء أيضاً في سورة من أوائل ما نزل قوله تعالى: "وَوُجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجَرَةُ." (سورة عبس (٨٠): الآيات أرقام (٤٠-٤٢)).

وقد ورد في العديد من المواضع الأخرى أن الخزي هو عذاب أصحاب الذنوب: "ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ... إِنَّ الْخِزْيَ النَّوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (٢٧))؛ "... لِنُذِقَهُمُ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ" (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (١٦)). كما ورد أيضاً أن أهل النار يطلبون أحياناً من أهل الجنة أن يُفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله: "وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٥٠)). ولكن الماء الذي يسكب عليهم يكون "حَمِيمًا وَعَسَاقًا" (سورة النبأ (٧٨): الآية رقم (٢٥)). ورغم ذلك، فإنه في مواضع أخرى يطلب أهل النار النور: "يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِن تَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا" (سورة الحديد (٥٧): الآية رقم (١٣)).

النار: علاج للأمراض الروحية

ومن ثم، فإن النار إنما تجسد سوء عاقبة الأعمال السيئة، ولكنها رغم ذلك ليست مجرد مكان تلحق فيه بالعبد عواقب أعماله؛ وإنما هي أيضاً تدبير يهدف لعلاج الأمراض الروحية. وبعبارة أخرى، فإن الهدف من عذاب النار ليس العذاب في حد ذاته وإنما التطهير بحيث يصبح العبد مؤهلاً للراقي الروحي عندما يتخلص من العواقب السيئة لأعماله التي جلبها على نفسه بيديه. وقد أرسى القرآن نفس القانون حتى بالنسبة لضروب العذاب التي تنزل بالعبد في الحياة الدنيا على الأرض: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٩٤)). ويتبين لنا من هذا أن الله ينزل العذاب بأصحاب الذنوب لعلهم يتوجهون له بالدعاء، أو بعبارة أخرى، لعلهم يستيقظ وعيهم بالحياة الأسمى. ومن ثم، فإن نفس الشيء هو حتماً الهدف من عذاب جهنم.

وفي الواقع، فإنه بقليل من التفكير يتبين لنا أن القرآن يأمر بالمعروف لأنه يساعد على تقدم الإنسان وينهى عن المنكر لأنه يعرقل ذلك التقدم. فمن عمل صالحاً فلنفسه؛ ومن أساء فعليها.

وهو موضوع تناوله القرآن مراراً: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا"^{٣٨}. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" (سورة الشمس (٩١):
الآيتان رقما (٩) و(١٠)). "إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى. فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ
لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى." (سورة الليل (٩٢): الآيات
أرقام (٤-١٠)). "إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ لِنَفْسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٧)).
"مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ" (سورة فصلت (٤١): الآية رقم
(٤٦)). "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ" (سورة الجاثية (٤٥):
الآية رقم (١٥)).

وبما أن التطهير هو الهدف العظيم، فإن الإنسان الذي أضاع فرصته في الحياة الدنيا ينزل به
حتماً عذاب جهنم ليصل إلى هذا الهدف. وهناك عدة اعتبارات أخرى تقودنا إلى نفس الاستنتاج.
بادئ ذي بدء، تم التأكيد بشدة على صفة الرحمة عند الله تعالى حتى إنه ورد في كتابه العزيز
أنه سبحانه "كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ"^{٣٩} وتوصف رحمة الله بأنها وسعت كل شيء^{٤٠} لدرجة أنه
حتى الذين أسرفوا على أنفسهم لا ينبغي أن يقنطوا من رحمة الله؛^{٤١} وأخيراً ورد في كتابه العزيز أنه
سبحانه للرحمة خلق العباد.^{٤٢} فالرحمن لا يمكن أن يعذب إنساناً إلا لتحقيق غاية عظيمة، وهي
إعادته مرة أخرى إلى الطريق نحو الحياة الأسمى بعد تطهيره من الشر.

ويتمثل الهدف الأساسي لحياة الإنسان في عبادة الله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"
(سورة الذاريات (٥١): الآية رقم (٥٦)). ورغم أن العبد الذي يحيا حياة المعصية يكون محجوباً عن
الله عز وجل،^{٤٣} فإنه بعد أن تطهره النار من الشر، يصبح مؤهلاً مرة أخرى لعبادة الله. ومن ثم،
توصف النار، في أحد المواضع، بأنها مولى أصحاب الذنوب؛^{٤٤} وأهمهم في موضع آخر.^{٤٥} ويدل
هذان الوصفان بوضوح على أن الهدف من عذاب النار هو تربية العبد بتنقية نفسه من خبث الشر،
بالضبط كما تنقي النار الذهب من الخبث. ولتوضيح هذه الحقيقة، استخدم القرآن كلمة فتنة (اختبار
الذهب أو إدخال الذهب النار لتنقيته من الخبث) للإشارة إلى ضروب العذاب التي تنزل بالمؤمنين

^{٣٨} تشير إلى النفس والقدرات التي وهبها الله للإنسان.

^{٣٩} سورة الأنعام (٦): الآيتان رقما (١٢) و(٥٤).

^{٤٠} سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٤٧)؛ سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٥٦)؛ سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٧).

^{٤١} سورة الزمر (٣٩): الآية رقم (٥٣).

^{٤٢} سورة هود (١١): الآية رقم (١١٩).

^{٤٣} سورة المطففين (٨٣): الآية رقم (١٥).

^{٤٤} سورة الحديد (٥٧): الآية رقم (١٥).

^{٤٥} سورة الفارعة (١٠١): الآية رقم (٩).

في الحياة الدنيا^{٤٦} والعذاب الذي سوف ينزل بأصحاب الذنوب في جهنم^{٤٧}، وبذلك، تتطهر نفوس المؤمنين من خلال معاناتها، في سبيل الله، في الحياة الدنيا؛ في حين يتم تطهير نفوس أصحاب الذنوب بنار جهنم. وتوصف جهنم بأنها "مولى" أصحاب الذنوب لأنها من خلال المعاناة سوف تعدهم للتقدم الروحي كما توصف بأنها "أمهم" لأنها سوف ترببهم في صدرها بحيث يتمكنون من السير على طريق حياة جديدة.

وهناك اعتبار آخر، يدل على أن هذا العذاب ذو طابع علاجي، وهو أنه وفقاً لتعاليم القرآن وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم)، فإن كل أهل النار سوف يخرجون منها في النهاية عندما يصبحون مؤهلين لحياة جديدة. وهذه نقطة هناك سوء فهم شائع بشأنها حتى بين رجال الدين المسلمين. حيث إنهم يفرقون بين أصحاب الذنوب من المسلمين وأصحاب الذنوب من غير المسلمين، فيرون أن كل أصحاب الذنوب من المسلمين سوف يخرجون في النهاية من النار، ولكن لن يخرج منها أصحاب الذنوب من غير المسلمين. إلا أن القرآن والسنة لا يؤيدان هذا الرأي. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن هناك كلمتين مستخدمتين في القرآن للدلالة على الخلود في النار أو الجنة، وهما الخلود والأبد، ورغم أن الكلمتين تدلان بلا شك على فكرة دوام البقاء، فإنهما تحملان أيضاً معنى البقاء مدة طويلة. ولم يُجمع كل مؤلفي معاجم اللغة العربية فحسب على هذا، وإنما أيضاً استخدام الكلمتين في القرآن يوضحه تماماً. فقد استخدمت كلمة خلود بلا قيود لوصف عذاب أصحاب الذنوب من المسلمين وغير المسلمين في النار. ومن أمثلة استخدام الكلمة لوصف عذاب أصحاب الذنوب من المسلمين قوله تعالى بعد ذكر أحكام الميراث: **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ... وَمَنْ يُعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ.** (سورة النساء (٤)): الأيتان رقماً (١٣) و(١٤)). من الواضح أن أصحاب الذنوب من المسلمين هم موضوع حديث الآية ورغم ذلك يعبر عن بقائهم في النار بكلمة *خَالِدًا*.

ولنتناول الآن الكلمة الأخرى، وهي كلمة *أبد*. فقد وردت هذه الكلمة ثلاث مرات في القرآن لوصف خلود أصحاب الذنوب في النار. وعادة ما تفسر الكلمة على أنها تعني *إلى آخر الدهر* أو *دوماً*، إلا أنها تستخدم أحياناً بمعنى مدة طويلة، ويتضح ذلك من استخدامها في صيغتي المثني والجمع. ويقول راغب إن هذا يرجع إلى أن الكلمة، في تلك الحالة، تستخدم للتعبير عن بعض الزمن. ويقول راغب في شرح معنى الفعل *تأبد* إنه يعني أن الشيء بقي أبداً ويعبر به عما يبقى مدة طويلة. وبذلك، فقد تم إقرار معنى مدة طويلة لكلمة *أبد* في معاجم اللغة العربية. ويتضح لنا

^{٤٦} سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩١)؛ سورة العنكبوت (٢٩): الأيتان رقماً (٢) و(١٠).

^{٤٧} سورة الصافات (٣٧): الآية رقم (٦٣).

أن معنى الكلمة، في حالة أهل النار، هو مدة طويلة وليس إلى الأبد من أنه قد ورد في موضع آخر أن خلود الكفار في النار سوف يستمر أحياناً، وهي جمع حقبة، ومعناها سنة أو سنوات (لسان العرب) أو ثمانون عاماً (المفردات في غريب القرآن). وفي جميع الأحوال، تدل الكلمة على فترة زمنية محددة ومن ثم تعتبر دليلاً قاطعاً على أنه حتى كلمة أبد، في حالة الخلود في النار، تعني مدة طويلة.

وبعد أن انتهينا من توضيح المعنى الصحيح لكلمتي خلود وأبد، اللتين تفسران بوجه عام على أنهما تقودان إلى البقاء أبد الدهر في النار، يمكننا الآن النظر في الآيات التي أوردت بوجه عام لتعزيز الفكرة القائلة بأن أهل النار سوف تنزل بهم إلى الأبد ضروب العذاب المقيم أي الدائم: "كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٦٧)). "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ." (سورة المائدة (٥): الآيتان رقم (٣٦) و(٣٧)). "كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا" (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٢٢)). "وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ" (سورة السجدة (٣٢): الآية رقم (٢٠)).

وهذه الآيات غنية عن البيان. ومعناها أن أهل النار يريدون أن يخرجوا منها ولكنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك؛ وحتى لو قدموا الأرض كلها فدية، فلن يستطيعوا الخروج منها. كما أنه لا يمكن تقادي العواقب السيئة للذنب مهما أراد الفرد وكذلك أيضاً نار جهنم. فما من أحد بقادر على الخروج منها. ولكن لم ترد كلمة واحدة في أي من هذه الآيات تدل على أن الله تعالى لن يخرجهم من النار أو أن عذاب جهنم أبدي. وإنما تدل على أن كل صاحب ذنب يجب أن يتحمل عواقب أعماله وما هو بفارٍ منها؛ إلا أن الآيات لم تنفٍ أنه ربما يخرج من النار عندما ينزل به العذاب اللازم لتطهير نفسه أو أن الله، برحمته التي لا حدود لها، ربما ينجي أصحاب الذنوب من العذاب عندما يشاء.

وحتى لو أخذت كلمة أبد على أنها تعني إلى أبد الدهر، فإن الخلود في جهنم، كما ورد في القرآن، سوف يتوقف حتماً في وقت معين لأنه قد وضع حد له بإضافة عبارة "إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ" التي تدل بوضوح على نجاة أهل النار من عذابها في النهاية. ويجدر بنا أن نذكر الآيتين الكريميتين التاليتين في هذا الصدد: "قَالَ النَّارُ مُتَوَكِّمٌ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٢٨)). "قَالَمَا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَّهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا

مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ" (سورة هود (١١): الآيتان رقما (١٠٦) و(١٠٧)).

وتدل هاتان الآيتان على أن الخلود في جهنم سوف ينتهي حتماً. ولتوضيح هذه الإشارة، استخدم القرآن عبارة مماثلة لوصف أهل الجنة ولكن بنهاية مختلفة تماماً: "وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ" (سورة هود (١١): الآية رقم (١٠٨)). والعبارتان المستخدمتان في الحالتين متشابهتان؛ فأهل النار وأهل الجنة خالدون، كل في مكانه، ما دامت السماوات والأرض، مع إضافة استثناء في كل حالة - إلا ما شاء ربك - مما يدل على أنهما قد يخرجان من تلك الحالة. ولكن العبارتين اللتين تختتم بهما الآيتان مختلفتان. ففي حالة الجنة، فإن فكرة خروج أهل الجنة منها، إذا شاء الله، تليها مباشرة عبارة أن هذا عطاء من الله غير مقطوع، مما يدل على أنهم لن يخرجوا من الجنة؛ في حين أنه في حالة النار، فإن فكرة خروج أهل النار منها تؤكد العبارة الختامية بأن الله يفعل ما يريد.

وقد ورد في السنة ما يعزز صحة هذا الاستنتاج. فيروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "يَقْفُؤُاُ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ" (مسلم ١: ٧٢). وقد وردت في هذا الحديث ثلاثة أنواع من الشفاعة - شفاعة المؤمنين، وشفاعة النبيين، وشفاعة الملائكة - وشفاعة كل فئة منهم بلا شك مخصصة لأفراد تربطهم علاقة وثيقة بتلك الفئة. فالمؤمنون سوف يشفعون لأفراد تربطهم بهم صلوات شخصية؛ والنبيون سوف يشفعون لمن اتبعوهم؛ والملائكة، الذين يدعون العباد لعمل الخير، سوف يشفعون للعباد الذين لم يتبعوا أيًا من الأنبياء وإنما عملوا خيراً ما. ويضيف الحديث أنه لم يبقَ إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيُخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط. ويستنتج ذلك أنه لا يمكن أن يبقى بعد ذلك أحد في النار، وفي الواقع، فإن قبضة الله تعالى لا يمكن أن تترك أي شيء.

وقد ورد في أحاديث أخرى على نحو صريح أن كل الناس سوف يخرجون من جهنم. "لِيَأْتِينَ عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ كَأَنَّهَا زَرْعٌ وَاحْمَرَّتْ تَخْفَقُ أَبْوَابُهَا." (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال). "سَيَأْتِي عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ لَا يَبْقَى فِيهَا أَحَدٌ" (فتح البيان في مقاصد القرآن، الجزء الرابع، ص. ٣٧٢). ويروى عن عمر، ثاني الخلفاء الراشدين، قوله: "لو لبث أهل النار في النار بقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون" (فتح البيان في مقاصد القرآن، الجزء الرابع، ص. ٣٧٢). ويروى عن ابن مسعود قول مشابه: "ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون

فيها أحقاباً".^{٤٨} وتروى أقوال مماثلة عن كثير من الصحابة الآخرين مثل ابن عمر، وجابر، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وغيرهم وكذلك عن العلماء من التابعين (فتح البيان في مقاصد القرآن). وقد تبنى الخلف من الأئمة، مثل ابن عربي، وابن تيمية، وابن القيم، وكثيرين آخرين، آراءً مماثلة (نفس المرجع السابق). وعلى ذلك، فإنه ما من أدنى شك في أن النار مكان مؤقت لصاحب الذنب، مسلماً كان أم غير مسلم، مما يعزز أيضاً وجهة النظر القائلة بأن الغرض من عذاب النار ليس العذاب في حد ذاته وإنما علاج الأمراض الروحية التي أنزلها الإنسان بنفسه بتقصيره في الأعمال ولتمكينه من البدء مجدداً في السير على الطريق نحو الحياة الأسمى. وقد تم بالفعل إثبات صحة ذلك من القرآن، ولكن يمكن أيضاً الاستشهاد في هذا الصدد بحديث ورد فيه صراحة أن أهل النار يوضعون على الطريق نحو الحياة الأسمى: "يَقُولُ اللَّهُ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرَجُوهُ (من النار) فَيَخْرُجُونَ قَدْ امْتَحَشُوا وَعَادُوا حُمَمًا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَبْتُشُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ" (البخاري ٢: ١٥). وهذا الحديث مقنع بشأن ما تتسم به النار من طابع علاجي ويثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن كل البشر سوف يوضعون في النهاية على الطريق نحو الحياة الأسمى.

^{٤٨} جامع البيان في تفسير القرآن، ص. ٦٦.

الفصل السابع

التقدير

هناك سوء فهم كبير شائع بشأن عقيدة التقدير، أي التقدير المطلق للخير والشر من عند الله. وبدائى ذي بدء، من الضروري أن نفهم المعنى الصحيح للكلمتين العريبتين قدر وتقدير - حيث إن الأفكار المرتبطة بمعناها لدى الكثيرين غريبة على القرآن ومعاجم اللغة العربية. فوفقاً لراغب، مؤلف معجم مفردات القرآن، فإن *القدر* و*التقدير* هو تبين كمية الشيء أو هو ببساطة *المقدار*^١. وبالعبارات التي وردت على لسان نفس مؤلف معجم مفردات القرآن، فإن تقدير الله للأشياء يأتي على وجهين: *بإعطاء القدرة* أو *بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة*. ومثال على ذلك تقديره في النواة أن ينبت منها النخل دون التفاح والزيتون، وتقدير مني الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات. وعلى ذلك، فإن *التقدير* هو القانون أو الحكم أو القدر الذي يسري في الخلق كله؛ وهذا هو بالضبط المعنى الذي استخدمت به الكلمة في القرآن. فعلى سبيل المثال، ورد في القرآن تقدير مقادير جميع الخلائق كما جاء في قوله تعالى: "سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى." (سورة الأعلى (٨٧): الآيات أرقام (٣-١)). "وَوَلَّخْنَا كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ تَدْوِيرًا" (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (٢)). "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" (سورة القمر (٥٤): الآية رقم (٤٩)). "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا مَنَازِلَ" (سورة يس (٣٦): الآيتان رقماً (٣٨) و(٣٩)).

^١ ترتبط كلمة قضاء لدى عموم الناس بكلمة قدر، وفي اللغة الدارجة يتم الجمع بين قضاء الله وقدره. ولكن كلمة قدر تعني تقدير الله للأشياء في حين أن كلمة قضاء تعني، وفقاً لراغب مؤلف معجم مفردات القرآن، فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً. ويضيف راغب قائلاً إن كل واحد منهما على وجهين: بشري وإلهي. فمن القول الإلهي ما ورد في سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٤) حيث تعني كلمة "قَضَيْنَا"، وفقاً لراغب، أعلمناهم وأوحينا إليهم وحياً جزياً: "وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ". كما ورد القضاء بالقول الإلهي في سورة الحجر (١٥): الآية رقم (٦٦) حيث قال تعالى: "وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ". وفي كلا الموضعين، فإن كلمة قضاء تعني الإعلام بحكم الله عن طريق النبوة. ومن أمثلة فصل الأمر بالفعل الإلهي ما ورد في سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٢٠) حيث يسمى حكم الله قضاءه: "وَاللَّهُ يَفْضِي بِالْحَقِّ" أو في سورة فصلت (٤١): الآية رقم (١٢)، وآيات أخرى، حيث يرد ذكر حول خلق السموات: "فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ". ويشير راغب إلى الفرق بين القضاء والقدر قائلاً إن القدر هو التقدير، في حين أن القضاء هو الفصل والقطع أو إنفاذ هذا التقدير. وعلى ذلك، فعندما أمر الخليفة عمر أبا عبيدة أن يترك مكاناً مصاباً بوباء الطاعون أبي عمر أن يذهب إليه، وأمره بأن يجلي قواته إلى منطقة غير مصابة بأي وباء، اعترض أبو عبيدة قائلاً: "أنقر من قضاء الله؟". فأجاب عمر: "أفر من قضاء الله إلى قدر الله". ومن الواضح أن ما كان يقصده عمر هو أنه إذا كان الله قد ابتلى بقضائه مكاناً ما بوباء الطاعون، فإن هناك مكاناً آخر لم يبتل بالوباء، وأن قدر الله أن يذهبوا إلى مكان مأمون (المفردات في غريب القرآن). وعلى ذلك، فإن القضاء إنما هو القضاء بحدوث شيء ما في حين أن القدر هو خلق الأشياء وفقاً لقوانين معينة.

كما يُطلق أيضاً على القانون الذي وفقاً له يعطي الله العباد في الأرض أقواتهم، وأرزاقهم، وأشياء أخرى اسم تقدير الله، ويطلق ذلك أيضاً على القانون الذي وفقاً له ينزل المطر على الأرض، والقانون الذي وفقاً له يتعاقب الليل والنهار: "وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا" (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (١٠)). "وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ" (سورة الحجر (١٥): الآية رقم (٢١)). "وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدْرِ" (سورة المؤمنون (٢٣): الآية رقم (١٨))؛ "وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدْرِ" (سورة الزخرف (٤٣): الآية رقم (١١)). "وَاللَّهُ يَخْتَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ" (سورة المزمل (٧٣): الآية رقم (٢٠)).

ورغم أن الإنسان يعتبر من بين الخلائق ومن ثم فإن تقدير مقاديره لا يختلف عن تقدير مقادير كل الخلائق، فإنه ورد ذكره على حدة بأن له تقديراً مماثلاً لقانون النشوء والتطور الذي يسري على الأشياء الأخرى: "مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ. مِنْ نُطْقَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ." (سورة عبس (٨٠): الأيتان رقماً (١٨) و(١٩)).

وتدل كل هذه الآيات على أنه وفقاً لمؤلفي المعاجم العربية، فإن التقدير، في لغة القرآن، هو القانون الكوني الإلهي الذي يسري على الإنسان بقدر ما يسري على باقي الطبيعة: وهو قانون يمتد أثره ليشمل الشمس، والقمر، والنجوم، والأرض، والسموات، وكل ما فيها. وقد تم توضيح هذا القانون على نحو وافٍ في آيتين قصيرتين سبق الاستشهاد بهما: "الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى". وفي هاتين الآيتين، ورد ذكر أربعة أشياء بشأن كل كائن مخلوق، بما في ذلك الإنسان؛ وهي تحديداً: خلقه، وتسويته، وتقديره، وهديته. وقانون الحياة، كما نراه متجسداً في الطبيعة، هو بالضبط القانون المذكور هنا. حيث يُخلق كل شيء حتى يبلغ في النهاية مرحلة التسوية، وتسويته هذه تتم وفقاً لقانون أو بقدر يسير كل شيء في نطاقه بهداية الله. وعلى ذلك، فإن تقدير الشيء هو القانون الذي تتم وفقاً له نشأته وتطوره وتقدير مقادير الإنسان لا يختلف في طبيعته عن تقدير مقادير سائر الأشياء الأخرى.

خلق الخير والشر

تعتبر عقيدة التقدير، بمعنى التقدير المطلق للخير والشر من عند الله، وهي فكرة أصبحت لها الآن علاقة وثيقة بالكلمة داخل عقول الأشخاص العاديين ولدى الكتاب المفكرين، غريبة على القرآن^٢ بل وعلى المعاجم العربية. فلم تنشأ عقيدة التقدير إلا مؤخراً ويبدو أنها نشأت نتيجة

^٢ ورد في حالة واحدة فقط في القرآن استخدام إحدى الصيغ المشتقة من كلمة تقدير للإشارة إلى قدر الشخص. فعن زوجة لوط، قال تعالى في كتابه العزيز: "إِلَّا أَمْرًا تُهْتَدُونَ" (سورة الحجر (١٥): الآية رقم (٦٠))؛

لاصطدام الإسلام بالفكر الديني الفارسي. حيث أصبحت العقيدة القائلة بوجود إلهين خالقين، إله خالق للخير وآخر خالق للشر، هي العقيدة الأساسية التي تركز عليها المجوسية، بالضبط كما أصبحت عقيدة التثليث هي العقيدة الأساسية للمسيحية. في حين أن الدين الإسلامي يدعو إلى عقيدة التوحيد في أنقى صورته، ومن المحتمل أنه أثناء الجدل حول العقيدة الثنوية للديانة المجوسية نشأ النقاش حول ما إذا كان الله هو خالق الشر أم لا كما نشأت أيضاً عدة قضايا فرعية. وكل هذا إنما يرجع إلى سوء فهم طبيعة الخير والشر. فالله خلق الإنسان ووهبه قدرات معينة يمكنه أن يستخدمها في ظل قيود معينة، واستخدام هذه القدرات بطريقة أو بأخرى هو الذي ينتج عنه الخير أو الشر. وعلى سبيل المثال، أعطى الله تعالى الإنسان القدرة على الكلام، التي يمكنه استخدامها إما لعمل الخير أو الشر إزاء البشرية، إما لقول الصدق والكلمة الطيبة أو لقول الكذب والافتراء. وبالمثل، وهب الله الإنسان العديد من القدرات الأخرى التي يمكنه استخدامها إما لعمل الخير أو الشر. ومن ثم، لم ينشأ الجدل حول ما إذا كان الله هو خالق الخير والشر إلا نتيجة لسوء فهم طبيعة الخير والشر. فقد يكون نفس العمل فضيلة في حالة، ورذيلة في حالة أخرى. وعلى سبيل المثال، فإن الضربة دفاعاً عن النفس أو دفاعاً عن إنسان أعزل تكون حقاً في حين أن الضربة التي تسدد بدون مبرر تكون ظلماً. ومن ثم، فإن الشر يسمى أيضاً ظلماً وهو يعني، عند علماء اللغة، وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إما بنقصان أو بزيادة؛ وإما ببدول عن وقته أو مكانه (المفردات في غريب القرآن). وعلى ذلك، فإن استخدام قدرة ما أعطاه الله للعبد بأسلوب أو في اللحظة أو في المكان المناسب يعتبر فضيلة، في حين أن استخدامها بأسلوب أو في لحظة أو في مكان غير مناسب يعتبر رذيلة. وعلى ذلك، لم يتناول القرآن موضوع خلق الخير والشر على الإطلاق. وإنما تناول خلق السماوات والأرض وكل ما فيهما؛ وتناول خلق الإنسان؛ وإعطائه ملكات وقدرات معينة؛ كما يخبرنا أنه في إمكان الإنسان استخدام هذه القدرات والملكات في نطاق قيود معينة، بالضبط كما تفرض على سائر المخلوقات الأخرى قيود معينة - وقيود كل نوع هي تقديره. ولكن، لم يرد في القرآن أن معنى التقدير هو خلق الأعمال الصالحة أو السيئة أو التقدير المطلق للخير والشر من عند الله.

وأحياناً يُستشهد بالآية الكريمة التالية كدليل على أن الله هو خالق أعمال العباد: "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ" (سورة الصافات (٣٧): الآية رقم (٩٦)). والكلمة العربية تَعْمَلُونَ مشتقة من كلمة عمل التي تعني الفعل والصنع معاً. ولذلك، فإن عبارة "مَا تَعْمَلُونَ" تفسر أحياناً على أنها تعني

"إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مَا مِنَ الْغَابِرِينَ" (سورة النمل (٢٧): الآية رقم (٥٧)). ولكن حتى في هذين الموضعين، فإن الكلمة لا تعني أن الله تعالى قدّر عليها أن تكون من المذنبين. وإنما هناك إشارة هنا إلى حكم يسري في حالة جميع المذنبين وهو أنهم يتحملون حتماً العواقب السيئة لأعمالهم؛ فلم تكن زوجة لوط من العباد المؤمنين، وإنما كانت من الكفار، لذلك فعندما نزل بالمذنبين عقاب الله، حكم عليها أن تكون بينهم.

"ما تفعلون" وليس "ما تصنعون"، مما يستنتج منه أن الله هو خالق أعمال العباد، وبما أن هذه الأعمال تكون صالحة وسيئة أيضاً، إذن الله - حسب ذلك التفسير - هو خالق أعمال العبد السيئة. ورغم ذلك، يوضح السياق الذي وردت فيه عبارة "مَا تَعْمَلُونَ" أن المقصود بها هنا هو "ما تصنعون" وليس "ما تفعلون"، كما أن الآية محل النقاش لا تتحدث عن أعمال العبد الصالحة والسيئة وإنما تتحدث عن الأصنام والأحجار التي كان الكفار يعبدونها. وتتحدث الآيات السابقة أرقام (٩١-٩٣) عن تحطيم إبراهيم (عليه السلام) الأصنام؛ والآية رقم (٩٤) ورد فيها أنه عندما رأى قومه أصنامهم محطمة تقدموا نحوه؛ وتتضمن الآيتان رقماً (٩٥) و(٩٦) حجة إبراهيم (عليه السلام) ضد عبادة الأصنام: "أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْنُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ". فمن الواضح أن العبارة الختامية "مَا تَعْمَلُونَ" تشير إلى الأصنام التي كانوا يصنعونها، كما أن الحجة القائلة إن ما ينحت بأيدي الإنسان لا يمكن أن يكون إلهاً، فالله هو خالق الإنسان والأحجار التي تصنع منها الأصنام، هذه الحجة مقنعة. وقد أقر هذا التفسير بعض المفسرين الثقات.^٣

ورغم ذلك، يمكننا أن نضيف أن القرآن أقر بأن الله هو العلة الأولى والأخيرة لكل الأشياء؛ ولكن هذا لا يعني أنه سبحانه خالق أعمال العباد. فالله تعالى، بالطبع، هو الذي خلق الإنسان؛ كما خلق أيضاً الظروف التي يعيش ويتصرف في ظلها؛ ولكنه عز وجل رغم ذلك أعطى الإنسان حرية اختيار طريقة التصرف، وهي حرية يمكنه ممارستها في ظل قيود معينة، بالضبط كما تستخدم سائر القدرات والملكات الأخرى التي وهبها الله له في ظل قيود ووفقاً لقوانين معينة. وعلى ذلك، جاء في القرآن قوله تعالى: "الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ" (سورة الكهف ١٨): (الآية رقم ٢٩)). وبما أن الإنسان يمكنه ممارسة حرية الاختيار أو إرادته الاختيارية في فعل شيء أو الامتناع عنه، إذن فهو مسؤول عن أعماله ويتحمل عواقبها.^٤

^٣ روح المعاني، الجزء السابع، ص. ٣٠٠. وفقاً لبعض المفسرين، فإن العبارة الختامية في الآية استقهامية: "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ؟"

^٤ أدى الجدل العقيم حول ما إذا كان الله هو خالق أعمال العباد أم لا إلى انقسام العالم الإسلامي في عصر ما إلى الفرق الثلاث التالية: الجبرية التي كانت ترى أن الله هو خالق أعمال العباد، خيراً كانت أم شراً وأن الأمر خارج تماماً عن إرادة العبد. فالعبد يتحرك كما تحركه يد الله، أي أنه ليس لديه اختيار أو قدرة أو إرادة في أن يحيد قيد شجرة عما قدره الله له. في حين تبنت فرقة أخرى وجهة نظر مناقضة لتلك ومفادها أن العبد، بما أنه هو خالق أعماله، فإن له السيطرة الكاملة عليها. هذه هي وجهة النظر التي تبنتها فيما بعد فرقة المعتزلة التي أسسها واصل بن عطاء. وكانت حجتهم في ذلك هو أنه من المستحيل أن يجبر الله العبد على فعل شيء ثم يعاقبه عليه. ولكن عموم المسلمين يرون أن هاتين وجهتا نظر متناقضتان. ولكن عند تحديد الطريق الوسط، تبنى عموم المسلمين وجهة نظر ليست واضحة تماماً. حيث يرون أن الإيمان هو الطريق الوسط بين الجبر والقدر، ولكن للتوفيق بين وجهتي النظر المتناقضتين، أدخلوا نظرية الكسب. وخلاصة هذه النظرية هي أن "الإنسان ليس مسيراً في كل الأمور وليس مخيراً في كل الأمور" (الدين الإسلامي لكليين، ص. ١٠٤). وقد ظلت وجهة النظر هذه منطقية، ولكن المزيد من المناقشات التي جرت أدت بمؤيدي وجهة النظر هذه إلى تبني موقف سخيّف مفاده أن الإنسان إنما هو مخير في الظاهر ولكنه مسير في الحقيقة. فمن الصحيح أن إرادة الإنسان تعمل في ظل قيود معينة، أي قدر أو تقدير الله، ولكن ليس من الصحيح

إرادة الله وإرادة العبد

هناك سوء فهم كبير شائع بشأن علاقة إرادة الله بإرادة العبد. فكل المَلَكات التي وهبها الله للعبد نابعة من صفات الله العلى. ورغم ذلك، فإن هناك نقصاً في جميع صفات البشر ولا يمكن استخدامها إلا في ظل قيود معينة وإلى حد معين. فعلى سبيل المثال، الله هو السميع البصير؛ والعبد أيضاً يسمع ويبصر، ولكن هاتين الصفتين فيه لا تقارنان بصفتي السمع والبصر عند الله تعالى حيث إنهما مجرد صورتين مصغرتين غير مكتملتين من صفات الكمال المطلقة لدى الذات الإلهية، بالضبط كما تكون المرأة التي تعكس الطبيعة البشرية في حد ذاتها ناقصة ومحدودة. ولنفس هذا السبب، فإن استخدام العبد لهذه الصفات يخضع أيضاً لقيود وقوانين معينة. وعلى هذا النحو يكون علم العبد بالأشياء، وممارسته للسيطرة على الأشياء، وممارسته لإرادته في اختيار الأشياء. كل هذه الصفات تخضع لقيود وقوانين معينة. وإرادة العبد بإرادة الله نفس علاقة صفات العبد الأخرى بصفات الذات الإلهية. حيث إنه يمكنه ممارسة إرادته في ظل قيود وقوانين معينة، كما أن هناك مجموعة كبيرة من الظروف ربما تحدد اختياره في كل حالة. ورغم ذلك، ليس من الصحيح أن العبد قد سُلِبَ حرية اختيار ممارسة هذه الإرادة؛ والحقيقة هي أنه رغم كل القيود، فإن للعبد حرية ممارسة إرادته الاختيارية، ومن ثم فرغم أنه قد لا يكون مسؤولاً بنفس القدر عن كل شيء وفي جميع الحالات - وتحدد مجموعة من الظروف حتماً نطاق مسؤوليته، الذي قد يكون محدوداً للغاية أو لا يكاد يعتد به في بعض الحالات، وواسعاً للغاية في البعض الآخر - فإنه رغم ذلك حر عمله مسؤول عنه.

ويمكننا النظر في الآيات القرآنية التي تدور حول هذا الموضوع. فقد وردت على لسان أعداء النبي (صلى الله عليه وسلم) عدة مرات الحجة القائلة بأن الإنسان يعمل السيئات لأن الله يشاء ذلك. وعلى سبيل المثال، قال تعالى: "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَاءِ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ. قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ." (سورة الأنعام ٦): الآيتان رقماً (١٤٨) و(١٤٩)). ويزعم المشركون هنا أن ما يفعلونه إنما هو بمشيئة الله وإرادته، ويُستتكر هذا بأنه مجرد ظن وكذب على الله. ولدحض هذا الزعم، تذكر حجتان. الحجة الأولى هي أن الله أذاق السابقين عذابه لأنهم تبادوا في سيرهم في طرق الشر؛ ولو كان ما يفعلونه لأن الله يشاء ذلك، لما أذاقهم سبحانه العذاب. والحجة الثانية هي أن الله تعالى لم يقل ذلك قط من

أن إرادة الله تجبر العبد على أن يسلك طريقاً معيناً. فقد يكون هناك مائة وواحد من الأسباب للفرار الذي يتخذه في حالة معينة وقد تتفاوت مسؤوليته حسب الظروف، ولكن الاختيار رغم ذلك هو اختياره والمسؤولية مسؤوليته.

خلال أي من أنبيائه المرسلين: "هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا". وفي الآية التالية، تستمر نفس الحجة في قوله تعالى: "فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ". والنتيجة واضحة. وهي أنه لو شاء الله أن يجبر الناس على السير في طريق لكان هذا الطريق هو طريق الهداية. ولكن العباد غير مجبرين حتى على اتباع طريق الحق؛ وهم أيضاً غير مجبرين بالتأكيد على اتباع طريق الباطل. وقد ورد هذا بوضوح في الآية الكريمة التالية: "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" (سورة الإنسان ٧٦): الآية رقم (٣)). كما جاء في موضع آخر قوله تعالى: "الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ" (سورة الكهف ١٨): الآية رقم (٢٩)). وعلى ذلك، فإن الله يمارس إرادته ومشيبته في إرسال الأنبياء وتوضيح طريق الخير من طريق الشر، في حين أن الإنسان يمارس إرادته في اختيار طريق ما أو آخر.

هذا هو نفس القانون الذي يذكر في نهاية سورة الإنسان (٧٦): "إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا. وَمَا تَشَاوُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" (سورة الإنسان ٧٦): الآيتان رقما (٢٩) و(٣٠)). كما ورد أيضاً ما يفيد ذلك في قوله تعالى: "إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَا تَشَاوُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ". (سورة التكوير ٨١): الآيات أرقام (٢٧-٢٩)). وفي كلا الموضعين، ورد أن القرآن قد أنزل لإصلاح حال العبد، ورغم ذلك، يضاف أنه لن ينتفع به إلا من يختار أن يستقيم أو أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، أي أن يمارس إرادته الاختيارية في الاتجاه الصحيح. وعلى ذلك، يترك الإنسان ليمارس حرية اختياره بعد أن أنزل الله تعالى الوحي من عنده وبذلك فإن إرادة العبد الاختيارية لا تمارس إلا بعد تحقق إرادة ومشيبته الله بتنزيل الوحي. ولو لم يشأ الله أن ينزل تذكرة من عنده، لما كان أمام الإنسان أي اختيار. وعلى ذلك، فإن عبارة "وَمَا تَشَاوُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" إنما تعني أنه لو لم يشأ الله أن ينزل الوحي من عنده، لما أصبح الإنسان قادراً على اختيار الخير أو الشر.^٥

^٥ تسرع النقاد الغربيون للإسلام في تكوين الرأي القائل بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان شخصية نفعية وأنه قد وردت في القرآن أقوال متضاربة، إذ يدعو إلى التخيير في آيات منه ويؤكد على التسيير (التقدير) في آيات أخرى. وعلى ذلك، كتب الناقد/ماكدونالد في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة قدر يقول: "تدل الأقوال المتضاربة في القرآن التي وردت حول التخيير والتسيير على أن محمداً كان داعية وسياسياً نفعياً وليس رجل دين منظماً". وقد أبدى الكاتب/سيل نفس الرأي: "تدل الآيات المقتبسة من القرآن في الصفحات القليلة السابقة على أنه رغم أنه يبدو أن بعض الآيات تنسب إلى الإنسان حرية الاختيار وتحدث عن مسؤوليته المترتبة على ذلك، فإن البعض الآخر يرسخ مذهب الجبرية بشكل واضح وقاطع" (الدين الإسلامي لسيل، ص. ٣٣٨). ولم يكلف هذان الكاتبان أنفسهما عناء دراسة القرآن بأنفسهما وبنيا الرأي سالف الذكر على أن الطوائف المسلمة المتنازعة استشهدت جميعاً بالقرآن لتعزيز رأيها كما لو كانت الطوائف المسيحية المتعددة لم تستشهد قط بالإنجيل لتعزيز مزاعمها المتعارضة بعضها مع بعض! ويرى الكاتب سيل أن الآية محل النقاش هنا هي "أبرز نص يعزز عقيدة التقدير". ورغم ذلك، فلو كان الكاتب قد أمعن النظر قليلاً في نص الآية، لأمكنه أن يتبين المعنى بسهولة. ولكن هناك اتجاهاً لإحجام استنتاج الجبرية حتى على الكلمات الصريحة.

وفي هذا الصدد، يمكنني أن أذكر بعض الآيات التي استشهد بها هيوز في قاموسه الإسلامي لتعزيز عقيدة التقدير: "إِنَّ اللَّهَ الْأَمْرُ جَمِيعًا" (سورة الرعد ١٣): الآية رقم (٣١)؛ "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى" (سورة الأنفال ٨): الآية رقم (١٧)). ومن الواضح أنه ليس لهاتين الآيتين أدنى صلة

علم الله السابق

وعلى ذلك، فإن عقيدة التقدير، أو تقدير طريق الخير لعبد وطريق الشر لعبد آخر، لم يرد ما يعزز في القرآن الذي يعطي للعبد حرية اختيار أن يسلك طريقاً ما أو آخر. ولكن يقال إن عقيدة تقدير الخير والشر تترتب بالضرورة على عقيدة علم الله السابق. وبعبارة أخرى، إذا كان الله تعالى يعلم ما سوف يحدث في المستقبل، وما إذا كان عبد بعينه سوف يتخذ طريق الخير أو الشر، فإنه يستتبع ذلك بالضرورة أن يسلك ذلك العبد حتماً ذلك الطريق المحدد لأن علم الله لا يمكن ألا يتحقق. وبإدنى ذي بدء، يجب أن نفهم بوضوح المقصود بعلم الله بالمستقبل. والحقيقة هي أن المستقبل يعتبر كتاباً مفتوحاً أمام الله عز وجل. وليس لقيود الزمان والمكان، التي تعتبر هامة بالنسبة للعبد، أي قيمة عند الله. فرغم أن علم العبد بالأشياء مقيد بالزمان والمكان، فإنه بالنسبة للذات الإلهية المطلقة، يعتبر المكان غير المحدود مجرد نقطة واحدة والماضي والمستقبل يستويان مع الحاضر. فالله تعالى يرى أو يعلم المستقبل كما يعلم العبد ما يمر أمام عينيه. ومن ثم، فإن علم الله بالمستقبل يشبه علم العبد بالحاضر رغم أن علمه سبحانه وتعالى أعظم وأسمى بكثير من علم العبد، كما أن مجرد العلم بالشيء لا يحول دون حرية اختيار العامل أو الفاعل. ومن ثم، ليس لعلم الله السابق أي علاقة بالتقدير.

ما يصيبنا من محن وشدائد مكتوب عند الله

وردت في القرآن مراراً آيات كريمة جاء فيها أن الله يكتب عنده هلاك أمة أو أجل عبد أو ما يبئليه به من محن وشدائد. وقد أخطأ البعض أيضاً في تفسير تلك الآيات على أنها تعزز عقيدة التقدير. ويرجع سوء الفهم إلى خطأ في تفسير كلمة كتاب، التي عادة ما تحمل معنى كتابة، ولكنها تستخدم على نطاق واسع في الأدب العربي وفي القرآن نفسه بعدة معانٍ^٦. وفيما يلي أمثلة لهذه الاستخدامات: "كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي" (سورة المجادلة (٥٨): الآية رقم (٢١)).

بعقيدة التقدير؛ الآية الأولى تتحدث عن سلطان الله تعالى والثانية ورد فيها أنه ما كان للنبي (صلى الله عليه وسلم) أن يغلب ويقتل قوات قريش الساحقة وإنما الله هو الذي غلبهم وقتلهم. وهناك آيتان أخريان استشهد بهما هيرز، ولكنهما رغم ذلك لا تعززان بأي حال فكرة تقدير الخير والشر: "إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" (سورة القمر (٥٤): الآية رقم (٤٩))؛ "الَّذِي خَلَقَ سُوسَى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى". (سورة الأعلى (٨٧): الآيتان رقماً (٢) و(٣)). وقد ناقشتُ على نحو وافي الآيات الأخرى التي استشهد بها مؤلف القاموس الإسلامي ووجدت أنها لا تتحدث عن عقيدة التقدير.

^٦ يقول راغب: إن كلمة كتابة تعبر عن "الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة". وفيما بعد، يذكر أن كلمة كتابة تعبر أيضاً عن القضاء، والحكم، والعلم.

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٥١)). "قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٥٤)). وفي كل هذه الأمثلة، لم ترد الإشارة إلى التقدير أو التحديد المسبق لطريق الشر بالنسبة لمرتكب الذنب. ففي المثال الأول، من الواضح أن معنى الآية هو أنه قد صدر أمر أو حكم الله بنصرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأوامر الله تعالى واجبة النفاذ. وعبارة "كَتَبَ اللَّهُ" إنما تعني أنه قد صدر أمر الله بحدوث ذلك الأمر. وليس من الضروري أن نبحث عن إشارة إلى أي كتاب أو أمر سابق، لأن الأمر أو الكتاب يكمنان في هذه العبارة في حد ذاتها، ولكن، إذا لزم الأمر، ربما تكون الإشارة إلى النبوءات العديدة التي وردت في القرآن بشأن نصرته النبي (صلى الله عليه وسلم) في النهاية والتي في الواقع كتبت بالمعنى الحرفي للكلمة.

وفي المثاليين الآخرين، هناك إشارة إلى البلاء بالمحن والشدائد أو الموت المقدر أو المكتوب للعباد عند الله. وبإدنى ذي بدء، يجب أن نضع نصب أعيننا أنه حتى لو كان المقصود بكتابة الموت أو البلاء بالمحن والشدائد على العباد تقدير ذلك لهم، فإن هذا لا يعزز بأي شكل من الأشكال عقيدة التقدير التي تعني أن الله قد قدر مسبقاً طريق الشر لمرتكب الذنب وأنه ليس أمامه اختيار أن يسلك إما طريق الخير أو طريق الشر. فالموت أو البلاء بالمحن والشدائد يرجعان إلى ظروف خارجة عن إرادة العبد في حين أن فعل الخير أو الشر هو مسألة متروكة بالكامل لاختيار العبد، كما ورد في القرآن. ولكن، في الواقع، لم ترد هنا إشارة إلى التقدير المسبق لأن كلمة كتابة تستخدم بمعنى حكم أو قضاء وليس بمعنى التقدير المسبق.^٧ ويمكن الآن أن نجري مقارنة بين الآيتين الكريميتين التاليتين: "مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نُنزِّلَهَا" (سورة الحديد (٥٧): الآية رقم (٢٢))؛ "مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" (سورة التغابن (٦٤): الآية رقم (١١)). ووفقاً لراغب، مؤلف معجم مفردات القرآن، فإن كلمة *إِذْنٌ* المستخدمة هنا تعني العلم بالشيء فيما فيه مشيئة. ويتبين لنا من مقارنة هاتين الآيتين أن ما يسمى كتابة في موضع يسمى *إِذْنًا* في موضع آخر. وعلى ذلك، فإن كتابة الله إنما تشير إلى علمه جل علاه أو إذنه أو حكمه.

ويلقي الكتاب الكريم مزيداً من الضوء على هذا الموضوع عندما يشير إلى إرادة الله جل علاه في بلوغ المؤمنين مرحلة الكمال من خلال الابتلاء بالمحن والشدائد. وعلى ذلك، فعن المؤمنين خاصة، قال تعالى في كتابه العزيز: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ

^٧ في الواقع، تعني الكلمة أحياناً *النية* في عمل شيء: "وجه ذلك أن الشيء يراد، ثم يقال، ثم يكتب، فالإرادة مبدأ، والكتابة منتهى. ثم يعبر عن المراد الذي هو المبدأ إذا أريد توكيده بالكتابة" (المفردات في غريب القرآن).

وَالْتَّمَرَاتِ وَبَسِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ." (سورة البقرة (٢): الآيات أرقام (١٥٥-١٥٧)). وفي هذه الآيات، يتم إرساء المبدأ القائل بأن الله يعين المؤمنين على بلوغ مرحلة الكمال من خلال صور عديدة من البلاء والاختبار لأنه ورد في كتابه العزيز أن الله يريد أن يختبر المؤمنين ويمتحنهم بشتى أشكال البلاء بالمحن والشدائد ومن خلال الصبر على البلاء، فإنهم بذلك يستحقون صلوات الله ورحمته. ومن ثم، فعندما يقول المؤمنون: "قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٥١))، فإن في هذه الآية إشارة إلى إرادة الله تعالى ومشيئته، كما ذكرنا أعلاه، وهم يتحملون البلاء بالمصائب من أجل بلوغهم مرحلة الكمال. وعلى ذلك، فكتابة البلاء بالمحن والشدائد على العباد إنما تعني أن القانون الإلهي هو أن العباد سوف يبلغون مرحلة الكمال من خلال ذلك البلاء. وهناك آية تحمل معنى مماثلاً وهي الآية رقم (١٥٤) الواردة في سورة آل عمران (٣)).

وتعلم الآيات التي سبق الاستشهاد بها بالإضافة إلى آيات أخرى مشابهة، ورد فيها كتابة البلاء بالمحن والشدائد على المؤمنين، أعظم درس من دروس الحياة، أي الصبر على البلاء. ويتعلم المسلمون ألا يجزعوا مطلقاً عندما ينزل بهم بلاء أو موت عند أداء واجباتهم. فإذا نزل بالمسلم بلاء بأي محنة أو حتى موت، يجب عليه أن يؤمن بأن هذا بأمر الله، ذلك هو المعنى الحقيقي لكلمة كتابة في تلك الحالات. فذلك الإيمان يثبت المسلم عندما يصيبه البلاء لأنه يعلم أنه من هذا البلاء الذي نزل به بأمر الله سوف يأتي بالتأكيد الخير. وتتضمن هذه الآيات رسالة مفادها أنه يجب على المسلمين تحمل جميع أشكال البلاء بالمصائب بشجاعة وألا يقنطوا أبداً من رحمة الله.

اللوح المحفوظ

يمكننا أن نضيف كلمات قليلة في هذا الصدد بشأن اللوح المحفوظ، الذي يعتقد لدى العموم أنه يحتوي على مقادير جميع الخلائق التي كتبها الله تبارك وتعالى. وكلمة لُوح معناها صفحة من صفائح الخشب^٨ كما تشير الكلمة أيضاً إلى ما يكتب فيه من خشب وكلمة مَحْفُوظٌ معناها كل ما يحفظ ويصان. ولم ترد عبارة "لُوح مَحْفُوظٌ" سوى مرة واحدة في القرآن ووردت للإشارة إلى حفظ القرآن نفسه: "بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لُوحٍ مَّحْفُوظٍ" (سورة البروج (٨٥): الآيتان رقماً (٢١) و(٢٢)). وتستخدم كلمة لُوح في صيغة الجمع اللُوح للإشارة إلى كتاب التوراة الذي أنزل على موسى (عليه السلام) في ألواح: "وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَالِحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ"

^٨ كما ورد في سورة القمر (٥٤): الآية رقم (١٣)

(سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٤٥)). ولا تختلف اللوح التوراة التي أنزلت على موسى عن لوح القرآن؛ ولكنه فقط في حالة القرآن، ورد أن اللوح محفوظ ويُشرح معنى ذلك بأن القرآن محفوظ من التبديل والتحريف (المفردات في غريب القرآن). ومن ثم، فإن المعنى الذي تعبر عنه عبارة "اللوحة محفوظة" هو بالضبط نفس المعنى الذي ورد في موضع آخر بشأن القرآن: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (سورة الحجر (١٥): الآية رقم (٩)). والمعنى في كلتا الحالتين أنه لن يجد أي تحريف طريقه إلى النص القرآني وأنه سوف يحافظ على سلامته دون تبديل. ولم ترد في القرآن إشارة إلى لوح محفوظ يكتب فيه الله تعالى مقادير جميع الخلائق. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن كتابة الله ليست من نفس نوع كتابة الإنسان؛ لأن الإنسان يحتاج لقلم، وحبير، ومواد كتابة. وقد تم شرح هذا في موضع آخر بشأن صفات الله، حيث ورد أنه رغم أن صفات الكلام، والبصر، والسمع، وغيرها من الأفعال تنسب إلى الله تعالى، فإن طبيعة هذه الأفعال المنسوبة إليه سبحانه تختلف تماماً عن طبيعة أفعال العبد، لأن الله لا يحتاج لوسيلة لعمل أي فعل في حين أن الإنسان يحتاج لذلك. وعلى ذلك، فإن كتابة الله لا تحتاج للوح أو حبر أو قلم وإذا كان اللوح المُحْفَظُ ورد ذكره في أحاديث نبوية معينة، فإنه إنما يشير إلى علم الله الواسع المحيط بكل شيء، الذي يكون كل شيء أمامه واضحاً وضوح الكلمات المكتوبة على لوح أمام الإنسان.

ليس الله بمضل للعباد

هناك سوء فهم كبير شائع بشأن تعاليم القرآن يتمثل في نسب صفة الإضلال (بمعنى الحمل على الضلال) إلى الله تعالى. ولكن ما من شيء أبعد عن الحقيقة من ذلك. فرغم أن اسم الهادي هو من أسماء الله الحسنى، التي أقرها عموم المسلمين، فإنه لم يتم إقرار اسم المضل كأحد أسمائه الحسنى. ولو كانت صفة الإضلال من صفات الله تعالى، شأنها شأن صفة الهداية التي هي بالتأكيد من صفاته عز وجل، لكان ينبغي أن يدرج اسم المضل ضمن أسماء الله الحسنى، كما أدرج اسم الهادي. ولكن القرآن، الذي ورد فيه مراراً أن أسماء الله هي جميعاً أسماء حسنى، لا يمكن أن ينسب إليه سبحانه ما ينسبه صراحة إلى الشيطان، أي صفة إضلال العباد. ورغم أنه لا جدال في هذا الفعل المنسوب إلى الشيطان فيما يتعلق بإضلال العباد، فإن هناك عدة اعتبارات أخرى تؤكد. ومن بين هذه الاعتبارات اعتراف مرتكبي الذنوب، كما ورد مراراً في القرآن، بأن سادتهم هم الذين أضلوهم أو أن الشيطان هو الذي أضلهم. ولم يقدموا قط العذر بأن الله تعالى هو الذي أضلهم: "حَتَّىٰ إِذَا اذْكُرُوا فِيهَا (أي النار) جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمُ لَأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ ضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٣٨)). "يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي" (سورة الفرقان (٢٥): الآيتان رقماً (٢٨) و(٢٩)).

"وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ" (سورة الشعراء (٢٦): الآية رقم (٩٩)). "وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُومُ لَعْنَا كَثِيرًا." (سورة الأحزاب (٣٣): الآيتان رقما (٦٧) و(٦٨)). "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْئَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ." (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (٢٩)).

ولو كان الله حقاً هو الذي أضل العباد، لكان أفضل عذر يقدمونه يوم الحساب هو أنهم لا يستحقون العذاب لأن الله هو الذي أضلهم. ولكن لم يقدم قط هذا العذر ودائماً يدين الأتباع سادتهم المجرمين، من الإنس والجن، بأنهم هم الذين أضلّوهم. هذه حجة دامغة أخرى تثبت أن الله ليس بمضل العباد.

ثالثاً، وردت في القرآن آيات كثيرة جاء فيها أن الله أرسل أنبياءه (عليهم السلام) وأنزل الوحي من عنده لهداية العباد. وعلى ذلك، توضح القاعدة العامة التي تم إرساؤها بشأن علاقة الله بالعباد في أول سورة قرآنية: "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٣٨)). وعلى ذلك، فمن المستحيل أن الله، الذي يرغب في هداية العبد، هو الذي يضلّه. كما أن الهداية والإضلال صفتان متناقضتان لا يمكن أن تجتمعا في كائن واحد. وقد استوقف القرآن الانتباه إلى هذه النقطة: "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (١١٥)). فالحجة الآن واضحة، ومفادها أن الله الذي أرسل الهدى للعباد لا يمكن أن يضلهم؛ كيف إذن يمكن أن ينسب إلى الله أنه سبحانه يوقع العباد في المعصية في الوقت الذي يرسل فيه رسله ليبينوا للناس أنه ينبغي عليهم أن يتقوا الله باجتئاب المعاصي؟

الإضلال كصفة منسوبة إلى الله

نشأت الفكرة المغلوطة القائلة بأن الله يضل العباد من سوء فهم معنى كلمة *إضلال* عندما تنسب إلى الله تعالى. فكلمة *إضلال* تحمل عدة معانٍ بالإضافة إلى معنى *الحمل على الضلال*. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أنه حيثما تنسب صفة *الإضلال* إلى الله، فإنها لا ترد إلا للإشارة إلى *إضلال* العباد الفاسقين،^٩ والظالمين،^{١٠} والمسرفين،^{١١} وليس إلى *إضلال* العباد عموماً. وكلمة *إضلال* هي صيغة سببية مشتقة من كلمة *ضلال* التي تعني "العدول عن الطريق المستقيم، ويقال *الضلال لكل عدول عن المنهج، عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً؛... ولذلك صح أن يستعمل*

^٩ سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٦).

^{١٠} سورة إبراهيم (١٤): الآية رقم (٢٧).

^{١١} سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٣٤).

لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما" (المفردات في غريب القرآن). ووفقاً لنفس عالم اللغة، فإن "الإضلال ضربان: أحدهما: أن يكون سببه الضلال، وذلك على وجهين: (١) إما بأن يضل عنك الشيء كقولك: أضللت البعير، أي: ضل عني، (وهذا لا ينطبق على هذه الحالة) (٢) وإما أن تحكم بضلاله، والضلال في هذين سبب الإضلال. والضرب الثاني: أن يكون الإضلال سبباً للضلال، وهو أن يزين للإنسان الباطل ليضل" (المفردات في غريب القرآن). وكلمة إضلال، كما استخدمت في القرآن للإشارة إلى الله، تعني حكم بضلاله أو وجده ضالاً. هذا أحد الاستخدامات المعترف بها للكلمة بين العرب. وعلى ذلك، فإنه في أحد الأبيات التي كتبها الشاعر طرفة، فإن عبارة "أضلني صديقي" تعني حكم صديقي بضاللي" (لسان العرب). وفي أحد الأحاديث الشريفة، يروى أن "النبي (صلى الله عليه وسلم) أتى قومه فأضلهم، أي وجدهم ضلالاً غير مهتدين إلى الحق" (النهاية في غريب الحديث والأثر). ويذكر ابن الأثير مزيداً من الأمثلة التي يوضح فيها أن أضله تعني وجده ضالاً كما تقول أحمده، أي وجدته محموداً وأبخلته، أي وجدته بخيلاً (النهاية في غريب الحديث والأثر). وفي الواقع، فإن جميع مؤلفي معاجم اللغة العربية أقرروا هذا المعنى للكلمة. وفي شرح كلمة أضله، يقول لين: "وجده ضالاً... كما تقول أحمده وأبخله" (المعجم العربي الإنجليزي للين) وقد اقتبس المؤلف هذا الشرح من معجم تاج العروس.

ومن ثم، بما أن كلمة إضلال لا يمكن أن تنسب إلى الله بمعنى الحمل على الضلال، وبما أنه دائماً ما يكون الفاسقون والمسرفون الذين يضلهم الله هم محور الحديث، إذن فالمعنى الوحيد الذي يمكن أن ينسب إلى تلك الكلمة، في هذه الحالة، هو أن الله حكم بضلالهم أو وجدهم ضالين، وفي بعض الحالات إهلاك الله لهم، وهو أيضاً أحد المعاني المعترف بها للكلمة.

ختم الله على القلوب

هناك سوء فهم آخر ينبغي إزالته في هذا الشأن وهو سوء الفهم المرتبط بفكرة ختم الله على القلوب. ويتمثل سوء الفهم في هذه الحالة في الاعتقاد بأن الله خلق بعض العباد وعلى قلوبهم ختم، في حين خلق البعض الآخر بقلوب مفتوحة غير مختوم عليها. ولم يرد أثر ذلك التمييز بين العباد في أي موضع سواء أكان في الكتاب أم في السنة. فوفقاً لتعاليم الإسلام الصريحة، فإن الله خلق العباد جميعاً بلا ذنب، خلقهم جميعاً على الفطرة السليمة. وفي هذا الشأن، قال تعالى في كتابه العزيز: **قَأْفَمٌ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** (سورة الروم (٣٠): الآية رقم (٣٠)). ووفقاً لما ورد في هذه الآية، فإن الله خلق العباد جميعاً على الفطرة السليمة، وفي حديث شريف - يُعد بالفعل تفسيراً لهذه الآية - يقول النبي (صلى الله عليه وسلم):

"ما مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ" (البخاري ٢٣: ٨٠). وعلى ذلك، تتعارض الفكرة القائلة بأن بعض العباد يولدون وعلى قلوبهم ختم بشكل مباشر مع هذه التعاليم. ورغم أن القرآن جاء فيه أن الله يختم على قلوب بعض العباد، فقد ورد فيه أيضاً صراحة أنه سبحانه يختم على القلوب المتحجرة للعصاة الفاسقين، الذين لا يلتفتون إطلاقاً إلى دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم). ففي واحدة من أوائل السور القرآنية، قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ" (سورة البقرة (٢): الآيتان رقم (٦) و(٧)). وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أنه رغم أن فكرة الختم على القلوب ورد ذكرها هنا، فإنها لم ترد إلا متصلةً بمن تحجرت قلوبهم حتى إنهم لا يبالون إطلاقاً بإنذار النبي (صلى الله عليه وسلم) لهم. فأبوا أن يفتحوا قلوبهم لتلقي الحق وأن يعيروا آذانهم ليصغوا إليه أو يستخدموا أبصارهم ليميزوا الحق من الباطل. كما ورد أيضاً في موضع آخر قوله تعالى: "لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا تَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٧٩)). كما يقول الكفار أيضاً: "قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيهِ آذَانِنَا وَقَدْ وُضِعَ لَنَا حِجَابٌ" (سورة فصلت (٤١): الآية رقم (٥)). ودائماً الفاسقون هم الذين يذكر أن قلوبهم مختوم عليها. "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" (سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٣٥)). كما يوضح أيضاً في موضع آخر أن السبب في الختم على القلوب هو لامبالاة مرتكب المعصية بإنذار النبي (صلى الله عليه وسلم) له: "وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ" (سورة محمد (٤٧): الآية رقم (١٦)).

كل هذه الآيات توضح أن الله تعالى يختم على قلوب بعض العباد نتيجة لأعمالهم. فهم لا يصغون إلى ما يدعو إليه النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولا يعيرون اهتماماً إلى ما ينذرهم (صلى الله عليه وسلم) به، ولا يحاولون أن يفقهوا ما يقوله، والنتيجة هي أن الله يختم على قلوبهم. فإذا أعلق شخص على نفسه أبواب منزله، فبالطبع سوف يحيق به الظلام من كل جانب. وبالمثل، فإن من يغلقون أبواب قلوبهم يتحملون عاقبة ذلك، أي الختم على قلوبهم. وعلى ذلك، فإن الختم على القلوب، الذي هو النتيجة الطبيعية لأعمال العبد، ليس له علاقة بعقيدة التقدير.

السنة والتقدير

يمكننا الآن أن نتناول بعض الأحاديث التي تستنتج منها عقيدة التقدير، ولكن يجب علينا أن نضع نصب أعيننا بالتأكيد أن الحديث يجب أن يقرأ ويفسر وفقاً للتعاليم الأساسية التي تم إرساؤها في القرآن بحيث لا يتعارض مع كتاب الله، وفي حالة تعارضه مع كتاب الله، فإن الحديث هو

الذي يرفض حتماً؛ لأن ألفاظه كثيراً ما تكون ألفاظاً وردت على لسان الرواة، كما أنه، في تلك الموضوعات الغيبية، كثيراً ما يكون هناك قدر كبير من التشوش في أفكار الرواة نتيجة لطول سلسلة السند. كما أن هناك فرقاً شاسعاً بين الأحاديث التي تتناول القواعد والأحكام التي تنظم الحياة اليومية، والتي يمكن لكل إنسان أن يفهمها ويحفظها عن ظهر قلب بسهولة وبين تلك الأحاديث المتعلقة بالموضوعات الغيبية حيث تؤثر أفكار الرواة، أحياناً عن غير عمد وأحياناً بسبب عدم فهمهم التام للمفهوم الحقيقي الذي تنقله الكلمات، على متن الحديث وربما يؤدي تغيير كلمة واحدة في بعض الأحيان إلى تغيير الفكرة الأساسية برمتها.

وإذ نضع هذا نصب أعيننا، يمكننا الآن أن نتناول الأحاديث المروية في كتاب القدر الوارد في صحيح البخاري، ولكننا سوف نتناول في البداية حديثاً رغم أن أفضل النقات لم يقبلوه، فإنه يشكل الحجة المعروفة التي يحتج بها الكتاب الغربيون لتعزيز عقيدة التقدير في الإسلام. وقد ورد هذا الحديث بعدة صيغ مختلفة في أبي داود، والترمذي، ومسنند أحمد، وفحوى الحديث أن الله عندما خلق آدم أخرج أيضاً من كتفه أرواح ذريته. وصيغة الحديث، التي تروق للكتاب الغربيين، هي تلك الصيغة التي وردت في إحدى الروايات بمسند أحمد: "قَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي وَقَالَ لِلَّذِي فِي كَفِّهِ الْيُسْرَى إِلَى النَّارِ وَلَا أَبَالِي" (مشكاة المصابيح ١: ٤-٣). ويكشف هذا الحديث عن صورة مشوهة لعلاقة الله بالعبد بحيث يجب ألا يكون هناك أدنى تردد في رفضها. فقد ورد في القرآن في عبارات صريحة أنه للرحمة خلق الله جميع العباد؛^{١٢} كما ورد فيه أن رحمة الله وسعت كل شيء، كعلمه المحيط بكل شيء؛^{١٣} كما يخبر القرآن أئمة مرتكب للمعاصي بألا يقنط من رحمة الله لأن "اللَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا"؛^{١٤} كما يصف القرآن الله مراراً بأنه أرحم الراحمين.^{١٥} وترسم الأحاديث النبوية صورة مشابهة لرحمة الله التي تعجز عن وصفها الكلمات. فتخبرنا أن الله لما قضى الخلق كتب عنده: "إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي"؛^{١٦} كما ورد فيها أيضاً أن الله تعالى جعل رحمته مائة جزء وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، وكل الحب الذي يظهر في قلوب جميع الخلائق، بما في ذلك حب الأم لأولادها، إنما هو إظهار لذلك الجزء من المائة جزء من رحمته سبحانه؛ وسوف يظهر التسعة والتسعون جزءاً يوم القيامة، لدرجة أنه لو علم الكافر بكل الذي عند الله من

^{١٢} سورة هود (١١): الآية رقم (١١٩).

^{١٣} سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٧).

^{١٤} سورة الزمر (٣٩): الآية رقم (٥٣).

^{١٥} سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٥١)؛ سورة يوسف (١٢): الآيتان رقماً (٦٤) و(٩٢)؛ سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٨٣)؛ سورة المؤمنون (٢٣): الآيتان رقماً (١٠٩) و(١١٨).

^{١٦} البخاري ٥٩: ١.

رحمة، لما يئس من دخول الجنة؛^{١٧} كما ترسم الأحاديث النبوية صورة لرحمة الله الواسعة عندما يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله للصحابة (رضي الله عنهم)، عندما رأى امرأة تضم ولدها إلى صدرها: "أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَوَلَدَهَا فِي النَّارِ؟" وعندما أجابه الصحابة بالنفي، أضاف (صلى الله عليه وسلم) قائلاً: "اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا".^{١٨} كيف إذن يمكن أن يذكر أن الله بكل رحمته الواسعة، التي تفوق تصور البشر، قال في نفس الوقت عن في كفه اليسرى: "إِلَى النَّارِ وَلَا أُنَابِلِي؟" وبالتأكيد، لا يمكن أن يكون هذا قول النبي (صلى الله عليه وسلم). وإنما هو خطأ ارتكبه أحد الرواة في سلسلة سند الحديث الطويلة.

وقد ورد نفس الحديث في صيغة أخرى كشرح لآية قرآنية وفيما يلي نصه: "إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره ببيده، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، ويعمل أهل النار يعملون" (مشكاة المصابيح ١: ٤-٢). لا يدل هذا على أنه عند خلق العباد، كتب الله على بعضهم دخول الجنة وعلى البعض الآخر دخول النار. وإنما يدل هذا فحسب على علم الله المحيط بكل شيء. ورغم ذلك، فإذا قرأنا الآية التي يقال إن هذا الحديث جاء في شرحها، سوف نجد أنه ليس هناك أي شيء مشترك بينهما سوى فكرة استخراج ذرية بني آدم. وفيما يلي نص الآية موضوع الحديث: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٧٢)). وبذلك، يتبين لنا أن الحديث لا يتضمن على الإطلاق أي شرح للآية التي تتناول موضوعاً مختلفاً تماماً.

وقد ورد الشرح الفعلي للآية في حديث آخر، وبلا شك كان هناك سوء فهم من جانب راوٍ ما ضلله إلى إعطاء شرح ليس هناك أي شيء مشترك بينه وبين الأصل ويتعارض بالفعل مع النص القرآني الذي يزعم أنه شرح له. وعند الاستشهاد بالآية، شرحها أبي بن كعب على النحو التالي: "جمعهم فجعلهم أزواجاً، ثم صورهم فاستنطقهم، فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم، قالوا: بلى، قال: فإني أشهد عليكم السماوات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئاً؛ إني سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتابي، قالوا: شهدنا بأنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك." (مشكاة المصابيح ١: ٤-٣).

^{١٧} البخاري ٨١: ١٩؛ ٧٨: ١٩؛ مسلم ٤٩: ٤.

^{١٨} البخاري ٧٨: ١٨.

وإذا نظرنا في الآية نفسها، وجدنا أنها واضحة جداً لدرجة أنها ليست غنية عن البيان فحسب، وإنما أيضاً تزيل غموض أي شروح مزعومة للآية؛ لأنها تتحدث صراحة عن استخراج الزرية، ليس من صلب آدم، وإنما من أصلاب "بني آدم". وعلى ذلك، تشير الآية بوضوح إلى كل إنسان عند خلقه والشهادة المشار إليها هي تلك الشهادة التي تشهدا الفطرة البشرية نفسها بأن الله خالقها. وقد ورد هذا أيضاً في موضع آخر في كتابه العزيز: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" (سورة الروم (٣٠): الآية رقم (٣٠)). وتبين كلتا الآيتين بكلمات واضحة أن كل طفل يولد في الدنيا على الفطرة السليمة؛ وما من أحد يولد مكتوباً عليه دخول النار. وقد فطر الله الطبيعة البشرية بحيث لا تجبر على اتباع طريق الشر. فهي طبيعة نقية. ويروى في أحد الأحاديث الشريفة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ" (البخاري ٢٣: ٨٠، ٩٣). وعلى ذلك، يستأصل القرآن والسنة عقيدة التقدير من جذورها.

ويتفق تماماً مع هذا المبدأ ما أقره الإسلام من أن جميع الأطفال، سواء كان أبواهما مؤمنين أم كفاراً، يدخلون الجنة عند موتهم على الفطرة. وحتى لو كان هذا لم يذكر صراحة، لكان النتيجة الحتمية للمبدأ الذي تم إرساؤه أعلاه استناداً إلى القرآن والسنة والقائل بأن كل طفل يولد على الفطرة السليمة مسلماً. ولكن هناك حديثاً شريفاً واضحاً في هذا الشأن يروى فيه أن النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) رأى في رؤيا شيخاً جالساً عند جذع شجرة كبيرة وحوله ولدان وفي الرؤيا أخبر أن الشيخ الكبير هو نبي الله إبراهيم (عليه السلام) وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة. "فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ". فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ" (البخاري ٩٢: ٤٨). وتدل صحبة نبي الله إبراهيم (عليه السلام) بالتأكيد على دخول الجنة. ووفقاً لحديث آخر، فإنه عندما سئل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن أولاد المشركين، يروى عنه (عليه الصلاة والسلام) قوله: "اللَّهُ إِذْ خَلَقَهُمْ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ" (البخاري ٢٣: ٩٣). ورغم أن هناك عدة تفاسير لهذه العبارة، فإنه من الخطأ أن ننسب إليها معنى يتعارض مع الكلمات الواضحة الواردة في الحديث الأول. وعلى أي حال، فإن العبارة لا تعني أن الله تعالى أعلم بما كانوا سيعملون عندما يبلغون سن التمييز لأنه من المقدر لهم الموت قبل بلوغه. وبالتالي، فإن العبارة تعني أن الله أعلم بأنهم سوف يموتون على الفطرة التي ولدوا عليها، أي فطرة الإسلام لأنه سبحانه علم أنهم لن يبلغوا سن التمييز التي سوف يتمكنون فيها من التمييز بين الحق والباطل واتخاذ طريق ما أو آخر.

وسوف يكون من الصعب أن نتناول هنا جميع الأحاديث المتعلقة بموضوع التقدير. ولن نتمكن من تناول سوى الأحاديث الواردة في صحيح البخاري، الذي يعتبر أصح كتب الحديث. بادئ ذي

بدء، لم يرو البخاري حديثاً واحداً يتناول مسألة الإيمان بالقدر، وبالتالي فإن مسألة اعتبار الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان في الإسلام منتهية، لأن الإيمان بالقدر غير معروف في القرآن وفي أصح كتب الحديث. وعندما نأتي للأحاديث التي رواها البخاري بالفعل في جامعه في الكتاب رقم (٨٢)، الذي يسمي كتاب القدر، نجد أنه لم يرد في هذا الكتاب حديث واحد يعزز بأي شكل من الأشكال النظرية القائلة بأن طريق الخير أو الشر مرسوم مقدماً للعبد ويُفرض عليه. وإنما تتناول الأحاديث التي وردت هنا، وفي كتب الحديث الأخرى، بوجه عام إما علم الله المحيط بالأشياء أو هيمنته سبحانه على جميع الخلائق. وأشهر الأحاديث التي تستنبط منها عقيدة التقدير هو ذلك الحديث الذي يتحدث عن الملك الموكل بالأرحام - "يُبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعٍ - بِرِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ" (البخاري ٨٢: ١). وقد ورد نفس الحديث في موضع آخر بالصيغة التالية: "ثُمَّ يُبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ أَكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ" (البخاري ٥٩: ٦). ويبدو أن هناك خطأ واضحاً في كتابة أعمال العبد عندما يكون في رحم أمه؛ لأنه قد ورد في القرآن صراحة أن الملائكة يكتبون أعمال العبد وقت عملها وفي هذا الصدد ورد أنه ليس ملكاً واحداً وإنما ملكان.^{١٩} ولكن حتى لو سلمنا بصحة هذه الكلمات، فإنه يمكن تفسيرها وفقاً لتعاليم القرآن بمعنى أن علم الله محيط بكل شيء بحيث إنه سبحانه يعلم كل شيء عن العبد حتى عندما يكون في رحم أمه. وكما سبق أن ذكرنا، فإن حفظ الملك للأعمال لا يدل على الكتابة بالفعل في كتاب؛ وإنما يعبر عن علم الله عز وجل. فكما أن جميع خواص البذرة تكون كامنة داخلها، فكذلك أيضاً يبين الجنين الحالة التي سوف يتطور إليها العبد. ورغم أنه ما من عين بشرية يمكنها أن ترى هذه القوى الخفية؛ فإنه ما من شيء بخفي على الله جل علاه.

هناك حديث آخر يتناول هذا الموضوع، وهو ذلك الحديث الذي وردت فيه مُحَاجَّةُ آدم لموسى. فيروى عن موسى قوله لآدم إنه أخرج الناس من الجنة بذنبه، فرد عليه آدم بقوله: "أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرِ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي أَوْ قَدَرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي" (البخاري ٦٠: ٣١). ويضاف في الحديث أن آدم حجَّ موسى. وبالرجوع إلى القرآن، يتبين لنا أنه ليس ذنب آدم هو السبب في عيش ذريته في حالة معينة؛ لأنه بعد أن غفر الله ذنب آدم أمر البشر أن يعيشوا في تلك الحالة بعينها، التي تسمى حالة الهبوط، وهي الحالة التي يجاهد فيها الإنسان الشيطان. ورغم أنه ليس هبوطاً بالفعل، مع أنه ينطوي على احتمال الهبوط، فإنه ينطوي بالإضافة إلى ذلك على فرصة قهر الشيطان وإخضاعه وبالتالي الارتقاء إلى مرتبة الكمال. وبذلك، يمكن أن يوضع الإنسان في واحدة من حالتين. فيمكن أن يعيش إما في حالة لن يجاهد فيها الشيطان، ولكنه عندئذ لن تتاح له أيضاً فرصة قهر الشيطان أو لن يكون له أمل في الارتقاء إلى آفاق روحية سامية؛ أو أنه يمكن

^{١٩} سورة ق (٥٠): الآية رقم (١٧)؛ سورة الانفطار (٨٢): الآيات أرقام (١٠-١٢). انظر أيضاً فصل الملائكة.

أن يوضع في حالة مجاهدة الشيطان التي تتطوي على احتمال الهبوط والفرصة في قهر الشيطان والارتقاء إلى السموي. ويطلق على هذه الحالة الثانية في القرآن اسم الهبوط.^{٢٠} فقد كان آدم بلا شك يسكن الجنة وبالتالي يمكن القول بأنه أخرج منها، ولكن ذريته لم تسكن قط تلك الجنة وبالتالي لا يمكن القول بأنها أخرجت منها. ولا يمكن القول بأن شخصا ما أخرج من حالة معينة أو مكان بعينه لم يسكنه قط. ومن ثم، فإن الهبوط يختلف تماماً عن الخروج من الجنة كما أن هبوط بني الإنسان نكر حتى بعد أن غفر الله لأدم ذنبه. وعلى ذلك، تتحدث الآية رقم (٣٦) من سورة البقرة (٢) عن ذنب آدم؛ والآية رقم (٣٧) بنفس السورة عن مغفرة الله لذنب آدم؛ وتتحدث الآية رقم (٣٨) بنفس السورة عن هبوط ذرية آدم، وفيما يلي نص الآيتين الأخيرتين: "فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ فَلَمَّا هَبَطُوا مِنْهَا جَمِيعاً قَامُوا يَأْتِيكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (سورة البقرة (٢): الآيتان رقم (٣٧) و(٣٨)). كما ورد أيضاً في موضع آخر قوله تعالى: "ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ. قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلَمَّا يَأْتِيكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ." (سورة طه (٢٠): الآيتان رقم (١٢٢) و(١٢٣)). وعلى ذلك، جاء رد آدم على موسى بأن البشر لم يعيشوا في حالة مجاهدة الشيطان بسبب الذنب الذي ارتكبه لأن ذلك هو تدبير الله حتى قبل أن يخلقه.

ولا تحتاج باقي الأحاديث التي رواها البخاري للخوض في تفاصيلها. فهناك خطأ في تفسير كثير من هذه الأحاديث. وعلى سبيل المثال، ورد في أحد الأحاديث الشريفة وفاة ابن ابنة النبي (صلى الله عليه وسلم) وروى فيه عن النبي (عليه الصلاة والسلام) عندما كان يطمئن ابنته قوله: "إِلَهُ مَا أَخَذَ وَلِلَّهِ مَا أُعْطِيَ كُلٌّ بِأَجَلٍ فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ" (البخاري ٨٢: ٣). لم ترد في هذا الحديث أي إشارة على الإطلاق إلى تقدير الأعمال الصالحة والسيئة. وإنما يتناول الحديث أجل العبد، لأن لكل عبد أجله الذي يعلمه الله. وهناك أحاديث أخرى كثيرة يعتقد بالخطأ أنها تعزز عقيدة التقدير. ففي أحد الأحاديث، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما كان جالساً مع الصحابة قوله إنه ما من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو مقعده من الجنة. فقال رجل: "أَلَا نَتَّكِلُ (ولا نعمل) يَا رَسُولَ اللَّهِ" فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): "لَا أَعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ" (البخاري ٨٢: ٣)؛ ثم قرأ الآية الكريمة التالية: "فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

^{٢٠} تحمل كلمة هبوط نفس معنى كلمة نزول (تاج العروس) التي تعني نزل في مكان معين أو حالة معينة والفرق هو أنه في النزول هناك فكرة شرف الدخول في حالة ما (المفردات في غريب القرآن). وفي القرآن، تستخدم كلمة هبوط دائماً للدلالة على عيش آدم وذريته في حالة معينة، باستثناء حالة واحدة حيث تستخدم الكلمة مع بني إسرائيل بمعناها البسيط، أي النزول في مدينة أو العيش في حالة مستقرة واللجوء إلى نشاط الزراعة. فعندما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يدعو لهم ربه أن يخرج لهم "مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقَتَائِهَا"، جاء الرد عليهم في قوله تعالى: "هَبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٦١)). وبذلك، يتبين لنا أن كلمة هبط أو هبوط تستخدم هنا فقط بمعنى الدخول أو النزول في مكان معين أو حالة معينة، دون أن تتطوي على فكرة الانحطاط أو الذلة.

وَاسْتَعْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنِيسِرُهُ لِّلْغُسْرَى." (سورة الليل (٩٢): الآيات أرقام (٥-١٠). وإذا كان من الممكن الخروج بأي استنتاج لعقيدة التقدير من نص الحديث، فإن الآيات التي استشهد بها النبي (صلى الله عليه وسلم)، لتعزيز قوله، تنفي ذلك الاستنتاج لأنها تتحدث عن غابتين مختلفتين لنوعين مختلفين من أصحاب الأعمال. وتقود كلمات النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه إلى نفس الاستنتاج لأنه يؤكد على الأعمال. ولا تقود العبارة التي ختم بها (صلى الله عليه وسلم) الحديث، وهي "فَكُلُّ مُيَسَّرٌ"، إلى أي استنتاج آخر لأن معناها أن غاية الخير ميسرة لعامل الخير وغاية الشر ميسرة لعامل الشر، كما جاء في الآيات القرآنية التي تم الاستشهاد بها لتعزيز قوله (صلى الله عليه وسلم).

الإيمان بالقدر لم يرد في القرآن أو في صحيح البخاري

يمكننا الآن أن نتناول الموضوع الأصلي الجدير بالدراسة. فقد ذكرنا أولاً أنه رغم أن كلمة القدر أو التقدير وردت في القرآن، فإن هاتين الكلمتين لا تشيران مطلقاً إلى التقدير بمعنى الجبر أو تقدير الخير والشر للعبد؛ ثانياً، إن القدر أو التقدير الذي يتحدث عنه الكتاب الكريم ذو طابع عام، فهو القانون السائد في الكون كله، هو القيد الذي تسير في ظله جميع الخلائق إلى الأمام، ومن ثم ليس للقدر أو التقدير علاقة بالأعمال الصالحة والسيئة الخاصة بالعبد؛ ثالثاً، لم ترد في القرآن أو في أصح الأحاديث أي إشارة على الإطلاق إلى وجوب الإيمان بالقدر أو التقدير؛ رابعاً، لم يُذكر الإيمان بالقدر قط على أنه أحد أركان الإيمان في الإسلام مثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والإيمان بالبعث. ولم يرد الحديث عن القدر أو التقدير إلا باعتباره القانون الإلهي السائد في الكون، شأنه شأن العديد من القوانين الأخرى، ولم تثر قضية الإيمان به. كما يجب أيضاً أن يُعرف أنه قد تم شرح أركان الإيمان شرحاً وافياً وفي القرآن نفسه؛ كما أنه لا يمكن إقرار شيء، لم يرد ذكره في الكتاب الكريم، على أنه أحد أركان الإيمان في الإسلام. كما أن السنة ليست إلا المصدر الثاني للتشريع في الإسلام وفي الواقع فإنها لا تتناول سوى أمور الدين الثانوية أو تفاصيله. في حين أن المبادئ الرفيعة والتعاليم الأساسية يجب أن تؤخذ جميعاً من القرآن الذي لم يشر إلى أن القدر يعتبر من بين أركان الإيمان في الإسلام ولم يرد فيه حتى الإيمان بالقدر. ولا نجد أي إشارة إلى القدر إلا في السنة، وحتى في السنة، فإن أصح كتب الحديث، أي صحيح البخاري، لا يتضمن أي حديث يشير إلى الإيمان بالقدر على أنه أحد أركان الإيمان في الإسلام. وعلى ذلك، فإن الإيمان بالقدر غير معروف في القرآن وفي صحيح البخاري، ومن ثم فإنه من الخطأ أن نشير إليه على أنه أحد أركان الإيمان في الإسلام.

الإيمان بالقدر عقيدة ظهرت مؤخراً

ورد بالفعل حديث يبين أن مسألة الإيمان بالقدر لم تنشأ إلا مؤخراً. ففي كتابه الثاني، أي كتاب الإيمان، يروي البخاري الحديث التالي عن أبي هريرة (رضي الله عنه): "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمِشِي فَقَالَ مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبُعْثِ" (البخاري ٢: ٣٧). ويعتبر الحديث من الأحاديث الطويلة ولم نستشهد منه إلا بالجزء الأول المتعلق بموضوع المناقشة. وقد روي نفس الحديث أيضاً في صحيح مسلم من خلال ثلاث سلاسل سند مختلفة. ففي سلسلة السند الأولى، لا يختلف الرواة الأربعة عن رواية الحديث في صحيح البخاري ولا يكاد متن الحديث يختلف أيضاً: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَبِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبُعْثِ الْآخِرِ" (مسلم ١: ١). وفي سلسلة السند الثانية، فإن أول ثلاثة رواة هم نفس رواية الحديث في البخاري كما يروي الحديث بنفس الكلمات سالفة الذكر. وفي السلسلة الثالثة، فإن أول راويين فقط هم نفس الراويين في البخاري، والباقي مختلفون، وتم إدخال تعديل في متن الحديث، وأصبح الجزء المتعلق برد النبي (صلى الله عليه وسلم) على الرجل يأخذ الآن الصيغة التالية: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَبِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبُعْثِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ كُلِّهِ" (مسلم ١: ١). ويلاحظ أنه عندما كان الرواة هم نفس رواية الحديث في البخاري (باستثناء الراوي الأخير الذي أخذ الإمام مسلم منه نص الحديث الذي رواه)، لم يكاد متن الحديث يختلف، ولم تُضف سوى عبارة "وَكِتَابِهِ". وهذه العبارة إما أضافها أحد الرواة في مسلم كنتيجة طبيعية للإيمان برسول الله أو حذفها أحد الرواة في البخاري، باعتبار الإيمان بالكتاب متضمناً في الإيمان برسول الله. وبخلاف ذلك، فإن أركان الإيمان متطابقة تماماً في الصحيحين وكذلك أيضاً متن الحديث في كلتا الروايتين. وحتى عندما لم يذكر في مسلم سوى أول ثلاثة رواة في البخاري، فإن متن الحديث رغم ذلك لم يختلف. ولكن في سلسلة الرواة الثالثة، حيث لم يبق الإمام مسلم إلا على أول راويين في البخاري، أي أبي هريرة وأبي زرعة، تغير متن الحديث كما تم إدخال عنصر جديد تماماً عليه بإضافة عبارة "تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ"، التي لا يتضمنها الحديث الأصلي الوارد في البخاري. ويدل ذلك بما لا يدع مجالاً للشك على أن عبارة "تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ" أضافها الراوي الثالث، وأن هذه العبارة لم ترد على لسان أبي هريرة أو حتى على لسان الراوي الذي تلاه، أي أبي زرعة، وعلى ذلك، ما من أدنى شك في أن اعتبار الإيمان بالقدر ضمن أركان الإيمان هو إضافة أدخلت تقريباً في نهاية القرن الأول الهجري. وما من شك في أن النقاش حول موضوع القدر قد أثير في وقت متأخر، وأنه خلال هذه المناقشات أورد أحد الرواة هذه العبارة عن أبي هريرة إما سهواً منه أو لسبب آخر.

وقد روى الإمام مسلم نفس الحديث أيضاً من خلال سلسلة سند مختلفة تماماً مع تعليق افتتاحي من الراوي الأخير، يحيى بن يعمر، على النحو التالي: "كَانَ أَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي الْقَدْرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدٌ

الْجُهَنِّي فَاِنطَلَقْتُ اَنَا وَحَمِيْدُ بِنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَمِيْرِيِّ حَاجِّبِيْنِ اَوْ مُعْتَمِرِيْنِ فُقُلْنَا لَوْ لَعِيْنَا اَحَدًا مِنْ اَصْحَابِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُوْلُ هُوَ لَا فِي الْقَدْرِ فُوَقَّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بِنُ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ" (مسلم ١: ١). ويمضي الراوي في التعليق قائلاً إنه سأل عبد الله عن "يَزْعُمُوْنَ اَنْ لَا قَدْرَ" وَأَنَّ الْأَمْرَ اُنْفُ". ثم يروى نفس الحديث بكلمات مختلفة وفيما يلي نص الجزء محل النقاش في الحديث: "اَنْ تُؤْمِنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ". ويلاحظ أن كلمة "لَقَائِهِ" محذوفة من هذا الحديث في حين أضيفت عبارة "خَيْرِهِ وَشَرِّهِ" إلى الإيمان بالقدر الذي ورد في رواية أبي هريرة. والتعليق الافتتاحي واضح أيضاً في هذا الشأن. فقد جرت مناقشات حول القدر وظهرت فرقة أنكرته تماماً. وقد عاش عبد الله بن عمر حتى العام الثالث والسبعين بعد الهجرة وعندما سئل عن القدر، قيل إنه لا يؤمن بالقدر فحسب وإنما روى أيضاً حديثاً ورد فيه أن الإيمان بالقدر يعتبر أحد أركان الإيمان في الإسلام. ولم يقبل البخاري هذا الحديث، في حين أوضح الإمام مسلم، بعد أن سلم بصحة الحديث الذي أورده البخاري والذي لم ترد فيه إشارة إلى القدر، أنه لا يمكن الاعتماد على الحديث الذي رواه ابن عمر وأنه ربما أدت الرغبة الشديدة في إسكات المعارضين إلى ارتكاب هذا الخطأ من جانب أحد المناظرين.

معنى الإيمان بالقدر

من الصعب أن نذكر المعنى الذي يحمله الإيمان بالقدر. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أنه قد وردت في إحدى الروايات عبارة أن "تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ كُلِّهِ" وفي رواية ثانية وردت عبارة أن "تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ". وهناك صيغة ثالثة وهي أن "تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَنَّهُ مِنَ اللهِ"، وهي عادة ما ترد في كتب العقائد، ولا يمكن إرجاعها إلى أي حديث نبوي. ومن المحتمل جداً أن تكون الإضافتان الأخيرتان قد جاءتا في وقت لاحق بعد الصيغة الأولى للإيمان بالقدر. وإذا أخذنا كلمة قدر بالمعنى الأصلي الذي تستخدم به في القرآن، فإن معنى الإيمان "بِالْقَدْرِ كُلِّهِ" يكون هو وجوب إيمان العبد بأن كل شيء في الكون يخضع لقانون ويسير وفقاً لقيد، الله وحده هو المهيم على. وإذا أخذنا الصيغة التالية، أي أن "تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"، فإننا نجد أن عبارة "الْخَيْرِ وَالشَّرِّ" لا

^{١١} ورد في هذا الحديث أن هؤلاء الناس ينكرون القدر، ولكن الاسم الذي أطلقه عليهم الخلف من رجال الدين هو القدرية الذي يعني "المؤمنين بالقدر". ومن ثم، رأى المعتزلة، الذين أصبحوا فيما بعد مؤيدي لهذه النظرية، أن اسم القدرية لا يمكن إطلاقه عليهم وإنما على المؤمنين بعقيدة القدر. ومن ناحية أخرى، فإن الحجة التقليدية كانت أن المعتزلة أو سلفهم، الذين شككوا في قدر الله، جعلوا للإنسان قدراً مماثلاً لأنهم كانوا يؤمنون بأن الإنسان هو خالق أفعاله. ولكن ربما استخدم هؤلاء المجادلون كلمة قدر بمعنى قدرة وغالي الطرفان المتنازعان في آرائهم، فكان هناك من يؤمنون بقدرة الله المطلقة رافضين أن تكون للإنسان حرية الاختيار وكان هناك من يؤمنون بالنظرية الفائلة بسيطرة الإنسان المطلقة على أفعاله. والحقيقة تكمن في التوفيق بين وجهتي النظر المتناقضتين.

تشير إلى أعمال العبد الصالحة أو السيئة وإنما إلى الظروف المواتية أو غير المواتية التي يوضع فيها الإنسان ليلقى قدره. وقد استخدمت الكلمتان الأصليتان، أي الخير والشر، على نطاق واسع في القرآن بهذا المعنى.^{٢٢} والخير هو أي شيء نافع، وضده الشر (المفردات في غريب القرآن)؛ ولا تعنى كلمة الخير أو الشر عمل الصالحات أو السيئات إلا عندما تضاف إليها كلمة عمل. وعلى ذلك، فإن خير القدر وشره معناهما حسن أو سوء الحظ الذي يصيب الإنسان. ومن ثم، فإن المعنى هو أنه مهما كان حسن أو سوء الحظ الذي يصيب الإنسان، فإنه يجب قبوله بأنه من عند الله؛ وبعبارة أخرى، يجب على العبد أن يسلم نفسه لإرادة الله في ظل جميع الظروف. هذا، كما سبق أن ذكرنا، هو أحد دروس الحياة المفيدة التي يتم تلقينها للمسلم.

وجهة نظر الأشعري

أول من صاغ الآراء القوية المقبولة لدى عموم المسلمين هو الإمام/ أبو الحسن الأشعري الذي سُمي أتباعه بالأشعرية، وقد ذكر صراحة أن المعنى المذكور سلفاً هو المعنى المقصود بالإيمان بالقدر؛ لأنه عندما تناول عقائد أهل السنة وأهل الحديث، قال: "وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره ويؤمنون بقضاء الله وقدره خيره وشره حلوه ومره ويؤمنون أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً" (مقالات الإسلاميين، ص. ٢٩٢). ومن الواضح أنه قد تم إضافة كلمتي حلوه ومره وكلمتي نفع وضر لتوضيح أن المقصود بالخير والشر هو حسن وسوء الحظ، والسراء والضراء، وليس الأعمال الصالحة والسيئة التي يعملها العبد. ويعتبر رضا العبد في ظل جميع الظروف، كما سبق أن ذكرنا، أحد دروس الحياة المفيدة التي يتم تلقينها للمسلم، ولكنه ليس عقيدة من عقائد الإيمان أو ركناً من أركانه.

وعلى ذلك، فإن من المؤكد أن الإيمان بالقدر لا يدل على الإيمان بالتقدير؛ لأن التقدير بمعنى الجبر لم يكن قط عقيدة الأمة الإسلامية. ومن ناحية أخرى، تم النظر إلى فرقة الجبرية أو المؤمنين بالتقدير بمعنى الجبر باعتبارهم فرقة مبتدعة. فالجبري المتشدد، الذي يؤمن بأنه ليس للعبد سيطرة على الإطلاق على أفعاله، ينكر المبدأ الأساسي الذي أرساه الدين، أي مسؤولية العبد عن أفعاله. والموقف القويم ظل هو الموقف الوسط. أي أنه للإنسان حرية الإرادة والاختيار،

^{٢٢} فعلى سبيل المثال، ورد في القرآن قوله تعالى: "إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا." (سورة المعارج (٧٠): الآيات أرقام (١٩-٢١)؛ "وَيَذُوعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا." (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (١)؛ "وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ" (سورة يونس (١٠): الآية رقم (١١)؛ "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً" (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٣٥)).

على أن يمارس تلك الحرية في ظل قيود معينة. فقط إرادة الله تعالى هي التي يمكن أن توصف بأنها إرادة حرة مطلقة، أي إرادة لا تخضع لأي قيود؛ ولكن كل مخلوق ومن ثم كل إنسان يخضع لقدر، يخضع للتقدير الإلهي للأشياء، يخضع لقيود تفرضها عليه القوة العليا المهيمنة على الكون. فالإنسان ليس لديه علم مطلق أو قدرة مطلقة أو حتى إرادة مطلقة. وإنما تنسب كل هذه الصفات على حق إلى الله تعالى. فعلم الإنسان، وقدرته، وإرادته تخضع جميعاً لقيود، وهذه القيود يفرضها عليه التقدير الإلهي الذي يسمى القدر. وبهذا المعنى فقط يمكن القول بأن المسلم يؤمن بالقدر.

الجزء الثالث
العبادات والأحكام في الإسلام

الفصل الأول

الصلاة

القسم الأول - فضل الصلاة

أهمية الصلاة في الإسلام

أقر الدين الإسلامي خمس فرائض دينية أساسية؛ هي تحديداً: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، ولكن رغم أن الجهاد يعتبر فرض كفاية ذا طابع قومي، فإن الفرائض الأربع الأولى تكاد تعتبر فروض عين ذات طابع فردي، رغم أن لها مغزى هاماً في الأمة الإسلامية. ومما لا شك فيه أن فريضة الصلاة تحتل أهم مكانة بين هذه الفرائض الأربع كما أن القرآن يولي إليها أهمية بالغة تليها فريضة الزكاة.

ويمكن تحديد الأهمية التي تحتلها فريضة الصلاة من الحقائق التالية: أن الصلاة هي أول فريضة أمر الله بها النبي (صلى الله عليه وسلم)؛ أنه رغم أن الصلاة تقتنن بالزكاة في مواضع كثيرة في القرآن، فإنه عادة ما تُقدم فريضة الصلاة على الزكاة؛ أن إقامة الصلاة هي الأمر الإلهي الذي ورد مراراً في القرآن. كما أنه من المعترف به لدى العموم أن الصلاة هي أول وأهم فريضة أوجبها الله على المسلم. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن هناك عدة أسباب وراء إيلاء هذه الأهمية إلى فريضة الصلاة؛ وتتلخص هذه الأسباب فيما يلي: الصلاة هي بالفعل أول خطوة على طريق تقدم العبد إلى الأمام ورغم ذلك فإنها تمثل أيضاً معراجة الروحي إلى الله تبارك وتعالى؛ الصلاة تنهى العبد عن الفحشاء والمنكر؛ وتساعده على إدراك وجود الله في قلبه وذلك الإدراك لا يدفعه فحسب إلى خدمة البشرية على نحو منزه عن أي غرض، وإنما يجعله أيضاً يبلغ أرقى درجات الكمال الأخلاقي والروحي. كما تعتبر الصلاة أيضاً وسيلة لإزالة جميع فوارق الطبقة، واللون، والجنسية كما أنها وسيلة لخلق الشعور بالترابط والوحدة بين البشر، وهو الأساس اللازم لبناء حضارة لا تتدنثر.

الصلاة تركيبة للنفس

ورد الهدف الحقيقي لفريضة الصلاة في بداية القرآن الكريم، حيث تخبرنا الآيات بأن على المسلم الذي يسلك طريق تركيبة النفس أن يسلم بمعتقدات معينة ويؤدي فرائض معينة: "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ."^١ (سورة البقرة (٢): الآيات أرقام (٢-٥)). وكلمة *الفلاح*، وهي صيغة المصدر من كلمة *مفلحون*، سواء أكان ذلك الفلاح في الحياة الدنيا أم في الآخرة، تنطوي على فكرة تنمية القدرات الكامنة داخل العبد وبلوغه السمو المادي والروحي معاً؛ أو ما يمكن أن يطلق عليه، بعبارة أخرى، التزكية الكاملة لنفس العبد. ووفقاً لما ورد في القرآن، فإنه يتم الوصول إلى تركيبة النفس بالتسليم بالمعتقدات الثلاثة التالية: وجود الله، وما أنزله سبحانه إلى عباده، والآخرة؛ وكذلك بأداء الفريضتين، أي إقامة الصلاة، أو التقرب إلى الله، والإنفاق من مال العبد على الآخرين، أو خدمة البشرية. وتولّى للدور الذي تقوم به الصلاة في تركيبة نفس العبد أهمية بالغة في الإسلام لدرجة أنه في الأذان ترد بعد عبارة "حي على الصلاة" مباشرة عبارة "حي على الفلاح"، مما يدل على أن تركيبة النفس تتحقق من خلال الصلاة. وفي موضع آخر، قال تعالى في كتابه العزيز: "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ."^٢ (سورة المؤمنون (٢٣): الآيتان رقماً (١) و(٢))؛ حيث تحمل كلمة *أَفْلَحَ* معنى تحقيق التزكية الكاملة للنفس.

الصلاة وسيلة لإدراك وجود الله في قلب العبد

يعتبر الإيمان بالله عماد كل دين من الأديان السماوية؛ ورغم ذلك فإن هدف الدين ليس نشر عقيدة الإيمان بوجود الله كمنظريه فحسب؛ وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك. فالدين يسعى لغرس الإيمان بأن وجود الله قوة مؤثرة في حياة العبد، والصلاة هي الوسيلة التي يرجى بها بلوغ هذه الغاية النبيلة. فالإيمان الحق بوجود الله لا يتأتى للعبد من خلال إيمانه بوجود الله في العالم الخارجي وإنما بإدراكه لوجود الله داخله، ويوضح ما ورد في واحدة من أوائل السور القرآنية، وهي التي استشدهنا ببعض آياتها أعلاه، أن هذا الإدراك يتحقق من خلال فريضة الصلاة. حيث تذكر في الآيات المشار إليها الفرائض الثلاث التي أوجبها الله على المسلم الحق حسب ترتيبها الطبيعي.

^١ كلمة *مفلحون* هي جمع *مفلح*، المشتقة من الجذر *فلح* وهو *الشق*. وكلمة *الفلاح*، وهي صيغة المصدر من كلمة *مفلح*، معناها *الظفر وإدراك بغية* (المفردات في غريب القرآن). ويقول نفس عالم اللغة إن *الفلاح* ضربان: دنيوي وأخروي. فالفلاح الدنيوي يشير إلى الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، وهو *البقاء والغنى والعز*. والفلاح الأخروي يشمل، وفقاً لما أورده راغب في معجمه، أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل.

الفريضة الأولى هي الإيمان بالغيب، الذي يعني الإيمان بالله، أي بالغيب العظيم الذي لا يمكن إدراكه بالعين المادية للبشر. والفريضة الثانية، التي تلي مباشرة الإيمان بالغيب، هي إقامة الصلاة، مما يدل على أن الإيمان بالغيب يتحول إلى يقين بوجود الله، أي إدراك وجود الله في قلب العبد، من خلال الصلاة؛ وعن هذا الإدراك، قال تعالى في كتابه العزيز بعد الآيات المشار إليها بقليل: "وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ." (سورة البقرة (٢): الآيتان رقماً (٤٥) و(٤٦)). والفريضة الثالثة، أي إنفاق العباد مما رزقهم الله، هي النتيجة الطبيعية للفريضة الثانية وتدل على أن إدراك وجود الله في قلب العبد يؤدي إلى خدمة البشرية. وقد ورد في واحدة من أوائل ما نزل من السور أنه لا جدوى للصلاة ما لم تؤدَّ إلى خدمة البشرية: "قَوْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ. وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ." (سورة الماعون (١٠٧): الآيات أرقام (٤-٧)).

تجربة البشرية

تثبت تجربة البشرية جمعاء صحة ما أورده القرآن. فرغم أن وجود الله، بالنسبة لمعظم الناس، في يومنا هذا لا يكاد يعتبر أكثر من نظرية، فإنه في كل عصر وفي كل أمة، كان هناك رجال أدركوا، من خلال الصلاة، وجود الله في قلوبهم وبدلوا حياتهم في سبيل البشرية. وفي حالتهم، كان الإيمان بوجود الله بمثابة قوة روحية لم تساعدهم فحسب في إحداث تحول جذري في حياتهم وإنما ساعدتهم أيضاً في إحداث تحول في حياة أمم كاملة على مدى قرون من الزمان وفي تغيير تاريخ الشعوب والبلدان. وقد كان نكرانهم لذاتهم وإخلاصهم في إيمانهم كاملاً بلا نقص كما أن شهادتهم، التي هي في الحقيقة شهادة جميع الأمم في جميع العصور، تثبت أن الإيمان بوجود الله يصير قوة روحية بالغة الأهمية عندما يدرك العبد وجود الله في قلبه من خلال الصلاة له جل علاه؛ إنه حقاً قوة روحية هائلة جداً لدرجة أنه حتى القوى المادية الجبارة تتراجع أمامها. أليست تجربة تلك الشخصيات العظيمة منارةً للآخرين يبين لهم أنه يمكنهم أن يجعلوا من وجود الله قوة روحية مؤثرة في حياتهم؟ فالقدرات والملكات التي وهبها الله لإنسان معين وهبها أيضاً لآخر ومن خلال حسن استخدامها، يمكن للإنسان أن يعمل ما تمكن الآخرون قبله من عمله.

الصلاة وسيلة لبلوغ السمو الأخلاقي

ومرة أخرى، فإننا إذا فكرنا في القضية تفكيراً منطقياً، بصرف النظر عن تجربة البشرية، فسندج أن الصلاة لله هي النتيجة الطبيعية للتسليم، من الناحية النظرية، بوجود الله. فالرغبة الشديدة في

بلوغ السمو الأخلاقي مغروسة في الطبيعة البشرية بعمق أكبر حتى من عمق الرغبة في بلوغ السمو المادي؛ ولكن السبيل الوحيد الذي يمكن من خلاله بلوغ السمو الأخلاقي هو الصلة بالله المحيط علمه بالأشياء، الصلة بمنبع النقاء، ومصدر مكارم الأخلاق. "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ" كما ورد في القرآن الكريم (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٨٠)). ولكن الإنسان تنقصه صفات الكمال لأنه غرست داخله الرغبة التي لا تنطفئ في بلوغ المزيد من درجات السمو. وكيف يمكنه بلوغ ذلك السمو إلا من خلال إقامة صلة بالله الذي له صفات الكمال، الله المنزه عن كل نقص؟ وما الصلاة إلا محاولة من العبد ليكون على صلة بربه. والسبيل الوحيد للتخلي بأخلاق الله هو أن يكون العبد على صلة بربه ويتحرر من جميع القيود الدنيوية بعض الوقت وينهل من ينبوع الصلاة. وفي العديد من الأحاديث الشريفة، توصف الصلاة بأنها مناجاة الله (البخاري ٨: ٣٨؛ ٩: ٨؛ ٢١: ١٢). وفي أحد الأحاديث، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله إنه ينبغي على العبد أن يصلي لله كأنه يراه (البخاري ٢: ٣٧). تبين تلك الأوصاف للصلاة أن الطبيعة الحقيقية لتلك الفريضة هي أنها عبارة عن إقامة صلة فعلية بالله تعالى والصلة لا تدل على أي شيء سوى التخلي بأخلاق الله.

الصلاة وسيلة لتطهير القلب

تتوقف التنمية المثلى للقدرات البشرية على تطهير النفس الداخلية للعبد وكبح نوازع الشر داخلها، كما جاء في كتابه العزيز: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا"، كإشارة إلى تركية النفس. وتوصف الصلاة بأنها وسيلة لتطهير القلب، كما جاء في قوله تعالى: "أَنْتَ لِمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ" (سورة العنكبوت (٢٩): الآية رقم (٤٥)). وفي موضع آخر، قال تعالى: "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ" (سورة هود (١١): الآية رقم (١١٤)). وفي أحد الأحاديث الشريفة، تشبه إقامة الصلاة بالاعتسالة في نهر: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَرْضِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ قَالُوا لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا (وسوف يكون كامل الطهارة) قَالَ فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا" (البخاري ٩: ٦). وهناك عدة أحاديث أخرى ورد فيها أن الصلاة كفارة للسيئات. والسبب في ذلك واضح. ففي سورة طه (٢٠): الآية رقم (١٤)، ورد أن الهدف من إقامة الصلاة هو "ذكر الله" في حين أنه، في سورة العنكبوت (٢٩): الآية رقم (٤٥)، ورد أن "ذكر الله" ينهى عن الفحشاء والمنكر. وبقليل من التفكير، يتبين لنا أن الشريعة تتطلب بوجه عام وجود وازع وراءها وأن الوازع الوحيد وراء جميع الشرائع الإلهية، المرتبطة بتطور الإنسان ورفقيه الأخلاقي، هو الإيمان بالخالق العظيم لهذه الشرائع. ولذلك، فكلما أكثر العبد من إقباله على الصلاة، أي على تلك الحالة، التي عندما يتحرر فيها من جميع المفاتن

الدنيوية، يشعر بأن وجود الله أصبح حقيقة واقعة، ازداد يقينه بوجود الله وازداد زاجر النزعة للإخلال بتلك الشريعة الإلهية. وعلى ذلك، فإن الصلاة، بكبحها لنوازح الشر في نفس العبد، تطهر قلبه من جميع الشرور وتضعه على الطريق الصحيح نحو تنمية القدرات الكامنة داخله.

الصلاة وسيلة لتوحيد الجنس البشري

تنقسم فريضة الصلاة إلى قسمين: صلاة يؤديها المصلي منفرداً وأخرى يؤديها جماعة ويفضل أداؤها في المسجد. ورغم أن الهدف من صلاة الفرد هو تزكية النفس الداخلية للعبد، فإن لصلاة الجماعة غايات أخرى، غايات تجعل حقاً من صلاة المسلمين قوة فعالة في توحيد الجنس البشري. أولاً، يساعد تجمع كل الناس الذين يعيشون في نفس الجوار خمس مرات يومياً في المسجد على إقامة علاقات اجتماعية سليمة. وفي الصلوات اليومية، تقتصر هذه العلاقات على دائرة ضيقة من الأفراد، أي على الأفراد الذين يعيشون في نفس الجوار فقط، ولكن الدائرة تصبح أكثر اتساعاً في صلاة الجمعة الأسبوعية التي تلم شمل جميع الأفراد المسلمين الذين يعيشون في منطقة معينة وتزداد اتساعاً رغم ذلك في تجمعات المصلين بأعداد كبيرة في صلاتي العيدين. ورغم ذلك، فإن الأهم من ذلك بكثير هو أثر صلاة الجماعة في إزالة الفوارق الاجتماعية بين الأفراد. فبمجرد الدخول من أبواب المسجد، يجد كل مسلم نفسه في جو تسوده المساواة ومشاعر الحب. حيث يقف المصلون جميعاً جنباً إلى جنب أمام خالقهم، الملك بجوار أفقر رعاياه، الغني الذي يرتدي أفخر الثياب بجوار الطفل الفقير الذي يرتدي ثياباً بالية، الأبيض بجوار الأسود. بل ويضع الملك أو الغني الذي يقف في الصف الخلفي جبهته عند قدمي العبد أو المسكين الذي يقف في الصف الأمامي عندما يخر ذلك الملك أو الغني ساجداً لربه. وبذلك، يتضح لنا أنه ما من شيء يمكن أن يكون له أثر في إزالة الفوارق في العالم أكثر من الصلاة. حيث تزول داخل المسجد فوارق الطبقة، والثروة، واللون ويسود داخل الحرم المبارك جو جديد تماماً، جو تسوده روح الأخوة، والمساواة، ومشاعر الحب، جو مختلف تماماً عما يسود العالم الخارجي. وإنها حقاً لنعمة أنعم الله بها علينا أن نتمكن من التنفس خمس مرات يومياً في جو يسوده السلام التام في عالم تسيطر عليه النزاعات والصراعات، جو تسوده المساواة حيث يكون عدم المساواة هو النظام السائد حالياً، جو تسوده مشاعر الحب وسط مشاعر الغيرة والكراهية الرخيصة التي تسيطر على الحياة اليومية. بل هي أكثر من نعمة؛ لأنها تجسد أعظم دروس الحياة. ذلك أن الإنسان يضطر للعمل وسط جو تسوده أوجه عدم المساواة، جو تسوده النزاعات والصراعات، وسط مشاهد الكراهية والعداوة؛ ورغم ذلك يخرج من هذا الجو خمس مرات يومياً ويدرك أن المساواة، وروح الأخوة، ومشاعر الحب هي المصدر الحقيقي للسعادة البشرية. ومن ثم، فإن الوقت الذي يقضيه العبد في الصلاة لا يضيع

حتى من منظور مبادئ الإنسانية؛ وإنما على العكس من ذلك، يستغل العبد هذا الوقت أحسن استغلال في تعلم تلك الدروس المفيدة التي تجعل حياته جديرة بأن يعيشها. وعند تطبيق دروس الأخوة، والمساواة، والحب في الحياة اليومية، نجد أنها تشكل الأسس التي يرتكز عليها توحيد الجنس البشري وحضارة الإنسانية التي لا تنتشر. وفي الواقع، فإن الهدف من إقامة الصلوات الخمس اليومية جماعة هو، من بين أشياء أخرى، تطبيق الدروس النظرية المتمثلة في المساواة والأخوة التي يدعو إليها الإسلام؛ ومهما دعا الإسلام إلى المساواة بين البشر والأخوة بين أفراد الأمة الإسلامية، فإن كل هذا سوف يظل بلا جدوى لو لم يترجم في الحياة اليومية للعبد من خلال إقامة الصلوات اليومية الخمس جماعة.

تنظيم أداء الصلاة

وعلى ذلك، فإن فريضة الصلاة في الإسلام لا تساعد العبد فحسب في إدراك وجود الله في قلبه، ولا تجعله ينهل من ينبوع أخلاق الله، ولا تطهر قلبه وتضعه على الطريق الصحيح نحو تنمية القدرات البشرية فحسب؛ وإنما تذهب إلى أبعد من ذلك وبإزالة جميع الفوارق بين البشر تشيع مشاعر الحب والوئام والتآلف الحقيقي بين البشر. ويمكننا أن نعرف بسهولة أن هذا الهدف الأخير لا يمكن تحقيقه دون تنظيم أداء فريضة الصلاة بحيث يجتمع الناس جميعاً في المساجد في مواقيت محددة ويقفون في إجلال وتعظيم أمام خالقهم العظيم ويركعون ويسجدون له. ولكن بصرف النظر عن هذا الاعتبار، فقد كان من الضروري إضفاء صفة المداومة على فريضة الصلاة من خلال الأمر بالمواظبة على أدائها في مواقيت محددة وبطريقة معينة. والحقيقة هي أن الفكرة العظيمة المتمثلة في التقرب إلى الله أو إدراك وجود الله في قلب العبد، وهو أمر ضروري لبلوغ العبد مرتبة السمو الأخلاقي، لم يكن من الممكن أن تظل باقية ما لم يكن هناك شكل خارجي يسعى جميع الناس للالتزام به. وبإدائه ذي بدء، فإنه ما من فكرة يمكن أن تظل باقية ما لم يكن هناك تنظيم معين يبقها في الوجود. ثانياً، لا يمكن أن يوقظ العوام في أي مجتمع، حتى لو كان أفراداه متقنين، على الإقرار بحقيقة ما إلا من خلال شكل خارجي يذكركم بالفكرة الكامنة وراءه. ثالثاً، لا يمكن أن يكون هناك تماسك دون وجود شكل ما وبدون ذلك التماسك لا يمكن للمجتمع أو الأمة، ككل، أن تحرز أي تقدم أياً كان، حيث إن الهدف المرجو هو بلوغ السمو الأخلاقي للمجتمع ككل وليس سمو أفراد بعينهم. ومن الصحيح أن المسلمين كأمة لديهم إيمان بالله أقوى من إيمان من يتبعون أي دين آخر. وهذا الإيمان بالله هو الذي يفتر نجاح الفتوحات الإسلامية في بداية الدولة الإسلامية، التي سحقت أمامها أقوى الإمبراطوريات كأنها لا شيء؛ ونفس هذا الإيمان بالله هو الذي ساعد المسلمين على الصمود أمام الحملات التي شنتها دول أوروبا المسيحية عليهم أثناء

الحروب الصليبية؛ ونفس هذا الإيمان بالله أيضاً هو الذي ساعد المسلمين في يومنا هذا على مواصلة نضالهم الروحي ضد المسيحية، رغم أن جميع القوى المادية في هذا النضال، مثل الثروة، والسلطة، والتنظيم، في صالح المسيحية. والأساس الذي يرتكز عليه هذا الإيمان القوي بالله هو فريضة الصلاة في الإسلام، التي تجعل روح المسلم على صلة بخالقها، أضف إلى ذلك أن فضل الصلاة في تكوين تلك السمة الرفيعة في الشخصية القومية المسلمة لا يقدر بثمن.

ورغم ذلك، يجدر بنا أن نضيف أن الصلاة في الإسلام ليست فريضة صارمة كما يُعتقد لدى العموم. فرغم أنه من الصحيح أنه يجب على جميع المسلمين أن يجتمعوا في مواقيت محددة في المساجد وأن يتبعوا الإمام، شأنهم شأن أفراد الجيش الذين يطيعون أوامر قائدهم - وذلك التماسك ضروري لتمكين الصلاة من تحقيق الغاية المزدوجة المنشودة منها والمتمثلة في تقرب العبد إلى ربه والتألف بين العبد وأخيه - فإن كل صلاة تنقسم إلى قسمين: صلاة يؤديها المصلي جماعةً وأخرى يؤديها منفرداً. وحتى في صلاة الجماعة، هناك مجال واسع أمام الفرد ليعبر عن أصدق رغبة في نفسه أمام خالقها وتدفق المشاعر الصادقة في قلبه. ولكن في صلاة الفرد، فإنه لا تترك للفرد فحسب حرية اختيار أجزاء القرآن التي يرغب في تلاوتها، وإنما يمكنه أيضاً التنفيس عن مشاعره بالتوجه إلى ربه بأي أدعية يشاء وبأي لغة يختار وفي أي من الأوضاع الأربعة التالية: القيام، والركوع، والسجود، والقعود.

مواقيت الصلاة

لا يوجد في الإسلام يوم السبت أو يوم الأحد الذي يتم فيه التفرغ للعبادة والراحة من العمل. وبعبارة أخرى، لا يخصص يوم محدد للعبادة، كما في اليهودية والمسيحية. فتخصيص يوم للتفرغ للصلاة بدون عمل وستة أيام للعمل بدون صلاة ليس هو قاعدة حياة المسلم. وإنما تصبح الصلاة ضمن الشؤون اليومية التي ينشغل بها العبد. فهناك صلاة يؤديها العبد في الصباح قبل شروق الشمس عندما يستيقظ من نومه؛ وصلاة أخرى قبل الظهر، وثالثة في وقت العصر؛ ورابعة عند غروب الشمس؛ وخامسة قبل أن يأوي إلى فراشه. وبذلك، تصبح الصلاة أول عمل يبدأ به المسلم يومه وآخر عمل يختمه به وفيما بين هاتين الصلاتين هناك صلوات أخرى يؤديها أثناء ساعات العمل أو الراحة. وبذلك، أوجب الإسلام أن تكون روح العبد على صلة بربه في ظل شتى الظروف المختلفة التي يمر بها. وحتى في أوقات انشغاله الشديد، ينبغي عليه رغم ذلك أن يتمكن من التحرر من جميع مشاغله الدنيوية بعض الوقت والإقبال على الصلاة. ومن الواضح أن الهدف المرجو من هذا الترتيب هو أن يشعر العبد بوجود الله في ظل جميع الظروف، بحيث إنه

أثناء عمله، ينبغي رغم ذلك أن يكون ربه أقرب إلى قلبه. وبذلك، يتبين لنا بسهولة مدى الإسهام الهائل لذلك الترتيب في زيادة فضل الصلاة باعتبارها قوة روحية مؤثرة في القيام بالشؤون اليومية.

طريقة العبادة

المراد من طريقة العبادة في الإسلام هو تركيز الانتباه على هدف واحد، هو إدراك وجود الله. فالوضوء الذي يسبق الصلاة، واتخاذ وضع التعظيم والإجلال لله عند القيام، والركوع، والسجود بوضع الجبهة على الأرض، ووضع القعود بما ينم عنه من تعظيم لله كل هذا يساعد القلب في أن يدرك وجود الله كحقيقة؛ كما لو كان المصلي يجد سعادة قلبه في تمجيد سيده العظيم والثناء عليه ليس بلسانه فحسب، وإنما بجسده كله الذي يتخذ وضع التعظيم والإجلال لله. وما من أدنى شك في أن روح الخشوع داخل العبد تظهر بصفة خاصة في أوضاع التعظيم والإجلال لله التي يجب اتخاذها في الصلاة. فالصلاة كلها عبارة عن طقس ديني جليل ومهيب لا يحول المصلي أثناء أدائه انتباهه إلى أي شيء آخر ولا يسترسل في أي حركة تشتت انتباهه أو تفسد وضعه كمصلي. وعلى ذلك، فإن الصلاة هي تأمل في وجود الله بلا انقطاع، ولهذا السبب فإن الصلاة في الإسلام لا تصحبها موسيقى وإنما تصحبها تلاوة آيات من القرآن تتحدث عن محبة الله لعباده، ورحمته، وقدرته، وعلمه. وفي الواقع، فإن ما يعتبر تمسكاً بالشعائر الدينية في فريضة الصلاة في الإسلام ليس سوى سبيل لإدراك وجود الله والتأمل في عظمته، وجلاله، ومحبته لعباده باتخاذ بعض أوضاع التعظيم والإجلال لله وسوف يتبين لنا أن طريقة العبادة في الإسلام تجمع جميع أوضاع تعظيم وإجلال الله التي يمكن اتخاذها: وضع القيام، والقعود، والركوع، والسجود.^٢

^٢ الحركة السائدة بين بعض المسلمين، رغم قلة عددهم، والقائلة بأنه ينبغي تعديل الأوضاع التي يتخذها المصلي في الصلاة بما يتناسب مع أساليب الحياة في مدن الغرب، تستند إلى خطأ في تقدير فضل الصلاة. فعلى سبيل المثال، يقترح أنه بدلاً من القيام أو القعود على الأرض، يكون أمام المصلين خيار القعود على كرسي وبدلاً من الركوع والسجود يكون أمامهم خيار الانحناء بالرأس انحناء خفيفة. وهذا الانحراف عن الأوضاع التي أمر بها النبي (صلى الله عليه وسلم) لن يؤدي فحسب إلى انحراف عن أوضاع الصلاة لا يعلم أحد نهايته وإنما سوف يقلل أيضاً من جدوى الصلاة بتقويض الشكل الموحد الذي تؤدي به. ولو كانت هناك مساجد يجلس فيها بعض الناس على الكراسي ويقف البعض الآخر على الأرض، يركع أو يسجد فيها البعض أمام ربه في حين يحنى البعض الآخر رؤوسهم فقط، لما حققت الصلاة قط الهدف النبيل المنشود منها، أي إزالة فوارق الطبقة وتوحيد بني البشر. ولو دعا البعض إلى بناء المساجد في الغرب على غرار الكنائس، لانهارت وحدة أخوة الإسلام في شتى أنحاء العالم. وعندما يأتي الغربيون إلى الشرق، لن يتمكنوا من الانضمام إلى إخوانهم من الشرق في صلاة الجماعة وسوف يخفق الإسلام في تحقيق الهدف النبيل المتمثل في إقامة نوع من التآلف بين الغرب والشرق وإقامة أخوة مشتركة بين جميع البشر. وبصرف النظر عن اعتبار وحدة الشكل الذي تؤدي به الصلاة، فهناك حقيقة تتمثل في أن الشكل الذي لُقن به الله لعبده ونبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) الصلاة يهدف إلى توليد روح الخشوع الحقيقي في قلب العبد، التي تعتبر ضرورية عند لقاء الله. وإذا كان الهدف من الصلاة هو إدراك وجود الله في قلب العبد ومساعدته في أن يكون على

ولا يمكن أن ننكر أن اتخاذ الجسد وضعاً معيناً يولد في نفس العبد مشاعر التكبر والعجرفة في حين أن اتخاذ وضع آخر يوحي بالخشوع والتذلل الحق لله تعالى، و فقط الحالة النفسية الثانية هي التي يمكن أن تقرب العبد إلى ربه. ومن ثم، فإذا كان الخشوع هو قوام الصلاة، فإن الأوضاع المحددة التي يتخذها العبد مثل القيام، والقعود، والركوع، والسجود تعتبر أيضاً ضرورية لخلق تلك الروح في نفس العبد وأي تغيير سوف يكون تغييراً للأسوأ، تغييراً قد يؤدي إلى عدم تحقيق الغاية المرجوة من الصلاة.^٢

لغة الصلاة

يرغب العبد بطبيعة الحال في أن يبوح بما في قلبه أمام خالقه بالتوجه إليه سبحانه بالدعاء باللغة التي يمكنه بها التعبير عن مشاعره بسهولة بالغة وهو أمر أقره الإسلام. فليس في صلاة الفرد فحسب، وإنما أيضاً أثناء صلاة الجماعة، تكون للمصلي الحرية في أن يتوجه إلى ربه بالدعاء باللغة التي يشاء، سواء كان بعد أو أثناء تلاوة شيء من القرآن في وضع القيام أو بعد التسبيح في وضع الركوع أو السجود. وفي صلاة الجماعة، تكون تلك الأدعية بالتأكيد محدودة لأن المصلي يجب عليه اتباع الإمام، ولكن في صلاة الفرد يجوز أن تأخذ هذه الأدعية أي طول.

ورغم ذلك، فإن المسألة تأخذ شكلاً مختلفاً عندما نأتي لصلاة الجماعة نفسها، لأنه، ما لم تؤد صلاة الجماعة بلغة مشتركة بين جميع المسلمين، فسوف يترتب على ذلك الفشل المؤكد في تحقيق الغاية النبيلة التي تقام من أجلها الصلاة. وكما سبق أن ذكرنا، فإن توحيد صفوف المسلمين من خلال الصلاة هو غاية وهدف الصلاة، شأنه في ذلك شأن غايتها المتمثلة في مساعدة العبد في القرب إلى ربه. فالصلاة هي التي تجمع كل يوم أشخاصاً ذوي مهن وطبقات ومراكز اجتماعية مختلفة تحت سقف واحد وعلى قدم المساواة التامة وهذه الوحدات المتجانسة يجمعها مرة أخرى تجمع المصلين الأوسع نطاقاً لأداء صلاة الجمعة أو التجمعات الأكبر عدداً في صلاتي العيدين، والتي تبلغ ذروتها بذلك التجمع الهائل الذي يضم جميع الأمم والأجناس على قدم المساواة في مكة المكرمة - حيث يرتدى الأوروبي والآسيوي والأفريقي، الغني والفقير، نفس الثياب - ذلك

صلة بالله المهيمن على الكون، فإن ذلك الهدف لا يمكن تحقيقه على أحسن وجه إلا باتباع طريقة الصلاة التي يتخذ فيها المصلي أوضاع التعظيم والإجلال لله والتي علمها النبي (صلى الله عليه وسلم) للمسلمين.

^٢ من الصحيح أنه في حالات المرض أو عندما يكون الرجل على سفر، فإنه يجوز للمصلي أن يؤدي صلاته في أي وضع يجده مناسباً، ولكن ذلك يتم وهو مجبر. وفي تلك الحالة، فإنه يكون على استعداد للخشوع لربه في أي وضع، ولكن لأن حالته الجسدية لا تسمح له باتخاذ الوضع المحدد ولأن الهدف من كل هذا هو خلق روح الخشوع الحقيقية، فإن الانحراف عن الطريقة المعتادة في تلك الحالة لا يؤثر على إخلاص المصلي في صلاته أو أثر الصلاة التي يؤديها.

التجمع السنوي لحجاج بيت الله القادمين من أقصى بقاع الأرض. وكل هذه التجمعات المتنوعة، بدءاً بالتجمع الهائل لجميع الأمم في مكة وانتهاءً بأصغر تجمع في مسجد القرية، مُعدة صراحةً لعبادة الله، ولو استخدم مزيج من اللغات في هذه التجمعات، لما تحقق البتة الهدف المتمثل في توحيد الجنس البشري من خلال الصلاة - وهي فكرة يختص بها الإسلام. وبذلك، يعتبر رباط اللغة المشتركة من العوامل الرئيسية التي تسهم في توحيد الجنس البشري وقد أقام الإسلام هذا الرباط باستخدام لغة مشتركة في الصلاة. ومن الواضح أنه لا يمكن أن تكون هذه اللغة سوى العربية، أي لغة القرآن الكريم. وأي فرد يدرك الهدف العظيم الذي وضعه الإسلام نصب عينيه والمتمثل في توحيد الجنس البشري من خلال الصلاة سوف يدرك على الفور ضرورة إقامة تلك الصلاة باللغة العربية.

و فقط عدم التبصر - الذي يزيد من حدته الجهل بالقضايا الأوسع نطاقاً المتمثلة في توحيد الجنس البشري - هو الذي يجعل بعض الأفراد يعتقدون أنه يجب أن تقام الصلاة باللغة التي تناسب كل أمة وأن الصلاة التي تقام بأي لغة أخرى لا تحقق الغاية المرجوة من العبادة. بادئ ذي بدء، لا تتكون الصلاة في الإسلام فحسب من كلمات التسبيح بجلال الله وعظمته أو من التعبير، بالكلمات، عن المشاعر الكامنة داخل القلب. فرغم أن ذلك يشكل بالتأكيد جزءاً هاماً من الصلاة، فإن الأهم من ذلك بكثير هو الحالة النفسية، الشعور الداخلي ذاته المراد من الكلمات التعبير عنه. وتلك الحالة النفسية تتولد، في المقام الأول، من الجو المحيط بالمصلي وأوضاع تعظيم وإجلال الله التي يتخذها. والحالة النفسية، أكثر من الكلمات، هي التي تولد روح الخشوع الحقيقية وأول حالة تهيمن على نفس المصلي هي الخشوع، كما جاء في كتابه العزيز: "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ." (سورة المؤمنون ٢٣): الآيتان رقماً (١) و(٢)). فلنفترض أن هناك رجلاً يشارك في صلاة الجماعة دون أن يفهم أي كلمة عربية. عندئذ، سوف يكون من الخطأ تماماً أن نقول إن صلاته لن تنفعه، لأن هناك حركات الجسد، ورفع اليدين بمحاذاة الأذنين، والقيام مع وضع اليد اليمنى على اليسرى، والركوع، ووضع الجبهة على الأرض، والقعود في وضع معين ينم عن الإجلال والتعظيم لله، كل هذا يسهم في توليد روح الخشوع في قلبه وإدراك وجود الله. ورغم أنه قد لا يفهم اللغة المستخدمة، فإنه رغم ذلك يعبر بنفسه عن مشاعره الداخلية بلغة حركاته الجسدية. وفي الواقع، فإن كيانه كله يعبر عما تنقله الكلمات. وإنه حقا لأكثر فائدة له بكثير لو كان يفهم اللغة المنطوقة أيضاً، ولكن من السخيف أن نقول إن لغة الحركات ليس لها معنى بالنسبة له.

ولنأتى الآن لدراسة لغة الكلمات. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن أكثر العبارات تردداً في الصلاة في الإسلام هي عبارة "الله أكبر"، و"سبحان ربي العظيم"، و"سبحان ربي الأعلى"، هذا بالإضافة إلى تلاوة أول سورة قرآنية التي تسمى سورة الفاتحة. وفيما يتعلق بالعبارة الأولى، فإنه

لا يكاد يوجد مسلم في العالم، مهما كانت اللغة التي يتحدثها، وسواء كان متعلماً أم لا، صغيراً أم كبيراً، رجلاً أم امرأة، لا يفهم معنى عبارة "الله أكبر". فهذه العبارة يدخل العبد في الصلاة وبهذه العبارة يتحول من أحد أوضاع الجسد إلى وضع آخر بحيث إنه مع الدخول في الصلاة يتلقى الذهن انطباعاً بجلال الله وعظمته ويتخذ الوضع المناسب للصلاة لله والخشوع له وهذا الانطباع يتجدد في الذهن مع تغيير كل حركة، وبذلك يصبح التأمل في جلال الله وعظمته هو الشغل الشاغل للذهن أثناء الصلاة. ولنتناول الآن العبارتين التاليتين، أي "سبحان ربي العظيم" التي يرددتها المصلي عند الركوع، و"سبحان ربي الأعلى" التي يرددتها في وضع السجود. وحتى لو كان الفرد لا يفهم معناهما، فإنه يدرك عند الركوع أنه يركع أمام الله العظيم ويدرك عندما يسجد أنه يضع جبهته على الأرض أمام ربه الأعلى. ورغم ذلك، فإن حفظ هذه العبارات وفهم معناها لن يأخذ حتى من الطفل أكثر من نصف ساعة. ونفس الشيء ينطبق على سورة الفاتحة التي يكثر المصلون ترديدها في الصلاة. حيث إنه يمكن حفظ الآيات السبع القصيرة التي تتكون منها هذه السورة بالإضافة إلى معرفة معانيها في فترة وجيزة وبمجهود لا يذكر. وحتى لو كان المرء سوف يؤدي الصلاة بلغته، فإنه رغم ذلك سوف يقضي بعض الوقت في حفظ السورة كما أن فهم معنى الكلمات العربية لن يتطلب منه سوف قليل من الوقت الإضافي. وإذا وضعنا نصب أعيننا الهدف العظيم المتمثل في توحيد الجنس البشري من خلال الصلاة، فإن الوقت الذي يقضيه المصلي في حفظ كلمات التسيب وآيات الفاتحة يعتبر أكثر فترة انتفع بها العبد في حياته.

مزايا أخرى للإبقاء على اللغة العربية في الصلاة

هناك اعتباران آخران يستوجبان الإبقاء على اللغة العربية في الصلاة؛ هما: أن القرآن، الذي تتلى أجزاء منه في الصلاة، نزل باللغة العربية هذا بالإضافة إلى أنه من المعترف به لدى العموم أن أي ترجمة لا يمكن أن تعبر مطلقاً عن كل ما يرد في النص الأصلي من أفكار. وعندما يكون النص الأصلي هو كلام الله وتكون الأفكار التي يتم التعبير عنها أفكاراً مرتبطة بعظمة الله وجلاله، يصبح من الأصعب نقل المعنى كله في الترجمة.^٤ بالإضافة إلى ذلك، توجد في النص الأصلي موسيقى تعجز الترجمة عن نقلها. فموسيقى القرآن لا تكمن في الإيقاع القرآني فحسب وإنما أيضاً في البيان القرآني. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن الموسيقى تلعب دوراً هاماً في إحداث

^٤ وعلى ذلك، كتب سيل في افتتاحية ترجمته للقرآن عن أسلوب الكتاب الكريم يقول: "إنه أسلوب جزيل ويديع في مواضع عديدة، خاصة في المواضع التي تذكر فيها عظمة الله وصفاته العلى؛ ومن المؤكد أن القارئ سوف يلاحظ عدة أمثلة على ذلك، رغم أنه يجب عليه ألا يتخيل أن الترجمة ترقى لمستوى الأصل، رغم المحاولات التي بذلتها لإيفائه حقه" (ص. ٤٨).

وقع في النفس وأن تلاوة القرآن بالتالي تخدم غرض توصيل الأفكار الرائعة البديعة التي تصحب الموسيقى. ومن ثم، لم تحتج الصلاة في الإسلام قط أن تصبحها الموسيقى المصطنعة التي تعزفها الآلة الموسيقية لأنها تحتوي على الموسيقى الحقيقية للروح البشرية. وحتى لو تمكنت الترجمة من نقل بعض الأفكار الرائعة الخصبة التي وردت في القرآن، فإنها سوف تعجز عن نقل الموسيقى التي، جنباً إلى جنب مع الفكرة، تترك وقعاً قوياً في نفس العبد. وقد علق أحد المستشرقين الغربيين في مقدمة ترجمته للقرآن بقوله: "استخدم العرب النثر المقفى الموزون الذي لا يصعب تخيل مصدره. فاللغة العربية، في أغلب الأحوال، تتكون من جذور ثلاثية، أي أن الكلمات الفردية التي تعبر عن أفكار فردية يتكون كل منها بوجه عام من ثلاثة حروف ساكنة وتتكون الصيغ المشتقة التي تعبر عن تعديل الفكرة الأصلية ليس بإضافة البادئات واللاحقات فحسب وإنما أيضاً بإضافة حروف إلى الجذر... ومن ثم، تتكون الجملة في العربية من مجموعة كلمات تحتاج كل منها للتعبير عنها في اللغات الأخرى بعبارات مكونة من عدة كلمات، ومن السهل أن نرى كيف أن الجملة التالية، التي تشرح الجملة الأولى أو تكملها، تكون أوضح وأقوى بكثير لو كانت مكونة من كلمات بنفس الشكل وتتم عن تعديلات مماثلة لأفكار أخرى. ويستتبع ذلك بالضرورة أن تكون الجملتان حتماً متناسقتين ولا يؤدي وجود الإيقاع إلى متعة الأذن فحسب وإنما يسهم أيضاً في فهم المعنى بشكل أفضل في حين أن القافية تدل على توقف المعنى وتؤكد التناسق".^٥

ويشيد مستشرق آخر بلغة القرآن في العبارات التالية: "تتميز اللغة القرآنية بوجود الجرس الموسيقي الذي يتسم به الشعر، رغم أنه لم يرد في شيء من القرآن ما يفرضه متطلبات وزن الشعر العربي. فالجمل القرآنية قصيرة وملبئة بقوة شبه متحكم فيها، إلا أنها تتميز بإيقاع موسيقي. وكثيراً ما لا يكتمل التعبير عن الفكرة؛ ويشعر المرء بأن المتحدث حاول أن ينقل شيئاً بلغة أخرى غير اللغة اللفظية وفجأة اكتشف أهمية اللغة اللفظية فتوقف دون أن يكمل الجملة. ويوجد في أوائل السور سحر الشعر الحقيقي؛ فكلما قرأناها، أدركنا حماس أتباع النبي رغم أننا نعجز عن أن ندرك بالكامل سر الجمال والقوة فيها".^٦

الفاتحة

يتبين لنا من هذين الاستشهادين أنه حتى الكتاب الغربيون الذين قرأوا القرآن باللغة الأصلية التي نزل بها، يدركون أن ترجمته تعجز عن نقل عناصر الموسيقى التي تنقل أثناء تلاوته أو حتى كل

^٥ بالمر، ص. ٥٤، ٥٥.

^٦ ستانلي لين - بول، مختارات من القرآن، ص. ١٠٤.

المعنى الذي ينقله النص الأصلي. ويمكن الاستشهاد بفاتحة الكتاب كمثل على ذلك. فهذه السورة، أي سورة الفاتحة، تعتبر أهم جزء في الصلاة في الإسلام. حيث يجب على المصلي أن يقرأ الآيات السبع التي تتكون منها هذه السورة في كل ركعة من كل صلاة، سواء كانت صلاة الفرد أم صلاة الجماعة. ولنتناول في البداية التلاوة. فبالرجوع إلى كتابة بعض الألفاظ العربية باللغة الإنجليزية وترجمة الآيات بالإنجليزية، يتبين لنا أنه ليس في الترجمة شيء من الإيقاع الموسيقي الذي ينقله النص الأصلي كما أن وقع تلاوة الكلمات على الأذن غير موجود مطلقاً في الترجمة. ولكن الأهم من ذلك هو عجز أي لغة عن أن تنقل بالضبط معنى الكلمات القصيرة التي وردت في النص الأصلي حتى ولو في جمل طويلة. فلنأخذ، على سبيل المثال، كلمة رب التي ترد هنا في المقام الأول كصفة من صفات الله تعالى وهي أكثر الصفات العلى تكراراً في القرآن كله. ففي الإنجليزية، تترجم الكلمة لدى العموم بكلمة *Lord*، ولكن تلك الكلمة الإنجليزية لا تنقل مطلقاً المعنى الحقيقي للكلمة العربية رب، التي، كما سبق أن ذكرنا، تطوي على فكرة التبرية، وهي إنشاء الشيء حالاً فحالا إلى حد التمام. ورغم أنها كلمة لا تتكون إلا من حرفين، الراء والباء، فإن المعنى الذي تحمله واسع جداً لدرجة أنها تحتاج في اللغات الأخرى لجملة كاملة لنقل معناها كله. وكلمة *Lord* أو *Father* لا تعبر عن تلك الفكرة مطلقاً. ونفس الشيء ينطبق على الصفتين التاليتين، أي الرحمن والرحيم، المشتقتين من نفس الجذر، أي رحمة، وهي رقة تقتضي الإحسان، والصفتان مرتبطتان إحداهما بالأخرى ارتباطاً وثيقاً من حيث المعنى؛ حيث تشير الصفة الأولى إلى صفة المحبة والرحمة بالعباد اللتين يظهرهما الله، حتى قبل خلق الإنسان، بتهيئة جميع الأشياء اللازمة لحياته؛ في حين تظهر الصفة الثانية عندما يستخدم الإنسان هذه الأشياء وبذلك يكون فعل شيئاً يستحق عليه الرحمة. ولكن ما من كلمات في أي لغة أخرى بإمكانها التعبير بالكامل عن هذه الأفكار الرفيعة وهذا الفرق الدقيق. ونفس الشيء ينطبق على كلمة عبادة، التي وردت في منتصف الآيات، والتي تترجم في الإنجليزية بكلمة *worshipping*، ولكنها تحمل بالفعل معنى الطاعة مع الخضوع (تاج العروس). وكلمة الهدى، التي وردت في الآية الرابعة، تترجم في الإنجليزية بكلمة *guide*، ولكن كلمة الهداية، وهي الجذر المشتقة منه الكلمة، معناها الرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب (تاج العروس). ولكن كيف يمكن التعبير في أي لغة أخرى عن هذه الأفكار بكلمات قصيرة وبسيطة تناسب الصلاة؟ بالفعل، سوف يفقد هذا الدعاء، الذي يعتبر قوام فريضة الصلاة في الإسلام، معناه الحقيقي بترجمته إلى أي لغة أخرى.

الصلاة تشكل الاتجاه الفكري للمسلم

وعلى ذلك، يمكن القول عن حق بأن سورة الفاتحة، وهي الجزء الأساسي الوحيد في القرآن الذي يجب ترديده في كل ركعة من الصلاة، تعتبر المبدأ الذي يرشد المسلم في حياته وتشكل بالفعل

اتجاهه الفكري. ويمكننا هنا أن نتناول بإيجاز المبادئ الأساسية التي تستند عليها سورة الفاتحة. وأول هذه المبادئ هو الرغبة في حمد الله والثناء عليه في ظل جميع الظروف، لأن السورة تفتتح بعبارة "الْحَمْدُ لِلَّهِ". ويجب على المسلم أن يؤدي الصلاة خمس مرات يومياً مهما كانت الظروف. فقد تكون هناك أوقات يكون فيها المسلم في ضيق أو تصيبه نكبة أو حالة من الإحباط، أو يكون صديقه أو أقرب أقاربه في ضيق، أو يموت عزيز له وتثقله الفجيعة، ورغم ذلك، ففي كل هذه الظروف، يجب عليه أن يحمده ربه الذي أوجد كل هذه الظروف بالضبط كما يحمد لو كان الله أنعم عليه بنعمة أو خير كبير. وعلى ذلك، فإن الاتجاه الفكري الذي تخلقه تلك العبارة لدى المسلم هو العيش في سلام تام مع البيئة المحيطة به، دون الانجراف من شدة الفرح، أو الاستسلام للحزن أو الاكتئاب. إنه اتجاه فكري يجعل العبد صامداً في المتعة والألم، في الفرح والحزن.

أما الفكرتان الرئيسيتان الثانية والثالثة اللتان تحددان الاتجاه الفكري الذي يأخذه المسلم تجاه الأشياء فقد وردتا في عبارة "رَبِّ الْعَالَمِينَ"، أي مربّي العالمين أو الأمم كافة حالاً فحالاً إلى حد الكمال. فهذه الصفة التي يتصف بها الله تعالى تبعث في نفس العبد الراحة النابعة من معرفة أنه مهما حدث له، سواء أنعم الله عليه بنعمة أو أصيب بمصيبة، يجب عليه أن يكون رغم ذلك وانتماً من أن الله يقوده إلى مرحلة الكمال مروراً بهذه المراحل المختلفة. وإضافة كلمة "الْعَالَمِينَ" تفتح أفقه وتوسع نطاق حبه وعطفه ليس تجاه كل البشر فحسب، أياً كانت الأمة التي ينتمون إليها أو الدين الذي يدينون به، وإنما أيضاً تجاه جميع خلائق الله. فالعبد الذي يدرك أن الله هو مربّي جميع العباد حتى يبلغوا الكمال من المستحيل أن يُكن في قلبه كراهية لهم. حيث إنه يدرك حتماً أن صلة الله بجميع العباد أكثر من صلة الأب بأبنائه.

والفكرة الرئيسية الرابعة تتقلها كلمتا "الرَّحْمَنُ" و"الرَّحِيمُ". فالله ودود رحيم بالعباد؛ ورغم أنه سبحانه أمد الإنسان بكل شيء ضروري لتطوره الجسدي والأخلاقي والروحي، فإن ذلك التطور يتوقف رغم ذلك على الاستخدام السليم للأشياء الخارجية بالإضافة إلى حسن استخدام القدرات الكامنة داخل العبد والمخصصة لخدمة هذا الغرض. إذن، فالاختيار متروك للإنسان إما أن يستفيد بتلك السبل ويحقق الغاية أو يرفضها أو يتجاهلها ويتحمل العواقب السيئة المترتبة على ذلك.

والفكرتان الرئيسيتان الخامسة والسادسة اللتان وردتا في سورة الفاتحة هما الفكرتان اللتان تتقلهما عبارة "مَالِكِ يَوْمِ التَّيْنِ". وفي هذه الآية، يوصف الله عز وجل بأنه المالك وليس المالك. ورغم أن الكلمتين تكادان تكونان متشابهتين، فإن هناك فرقاً شاسعاً بين المالك والمالك حيث إن المالك يعطي لكل عبد جزاءه حسب عمله، ولكن المالك في مقدرته، إن شاء، العفو عن صاحب الذنب كلية. ورغم ذلك، هناك بعض الأديان التي تؤكد بشدة على مبدأ العدالة الإلهية لدرجة أنها ترفض

الاعتراف بالفكرة القائلة بأن الله يصفح ويعفو عن المذنبين دون تكفيرهم عن ذنوبهم. وقد كان لتلك النظرة المحدودة للعدالة الإلهية أثر مماثل على أخلاق العبد. ولكن كلمة *مالك* تنفي هذه الفكرة وتبين أن الله هو السيد الذي في مقدرته المغفرة، إن شاء، مهما كُبر الذنب الذي ارتكبه. وقد جاءت إضافة عبارة "*يَوْمَ التَّيْنِ*" على سبيل التذكرة بأن العبد سوف يتحمل حتماً عاقبة أعماله. فما من عمل، صالحاً كان أم سيئاً، إلا وله عاقبة وإذا لم يشهد العبد عاقبة أعماله في الحياة الدنيا، فإن هناك رغم ذلك يوم الحساب، حتى بعد الموت.

أما الفكرة السابعة فقد وردت في عبارة "*إِيَّاكَ تَعْبُدُ*"، أي فكرة طاعة الله المقترنة بالخضوع التام. والهدف من هذه الآلية هو أن تخلق داخل الإنسان منهج الطاعة لأوامر الله حتى عندما تتعارض مع أوامر سلطة دنيوية ما أو مع رغباته الشخصية. وهذا المنهج يبعث في العبد أيضاً القوة اللازمة لتنفيذ أوامر الله عز وجل.

في حين ترد الفكرة الثامنة في عبارة "*إِيَّاكَ تَسْتَعِينُ*". والمنهج الفكري الذي تسعى هذه العبارة لخلقها داخل العبد هو منهج التوكل التام على الله وعدم القنوط من بلوغ الهدف، لأنه حتى لو نفذت السبل الخارجية، فإن هناك الله المهيم على جميع السبل الذي لن يخذل عونه العبد الذي يتوكل عليه سبحانه.

أما الفكرة التاسعة فقد وردت في كلمة "*اهْدِنَا*". وتعتبر هذه الكلمة عن رغبة النفس الداخلية - فما الدعاء سوى تعبير عن رغبة النفس الداخلية - التي تتمثل في الهداية إلى الهدف، وذلك هو المعنى المقصود بالهداية. كما تدل هذه الكلمة أيضاً على أن منهج الرضا بالعيش في سلام تام مع البيئة المحيطة بالفرد لا ينفي فكرة العمل. فموقف المسلم تجاه العالم ليس موقفاً يتسم بالسكون أو التواني عن العمل؛ وإنما على النقيض من ذلك فإن موقفه يشمل الرغبة في العيش في سلام مع البيئة المحيطة به والرغبة في التقدم لبلوغ الهدف النبيل المرجو. فرغم أنه يحمده ويثني عليه في كل خطوة، فإن حالته ليست حالة سكون؛ أي أنه ليس عبداً للبيئة المحيطة به، وإنما يسعى دائماً للسيطرة عليها؛ فهو لا يؤيد فكرة السلام بدون تقدم ولا يؤيد التقدم بدون السلام وإنما يؤيد السلام المقترن بالتقدم.

وتتمثل الفكرة العاشرة التي تتحكم في الاتجاه الفكري للمسلم، حسبما تبين سورة *الفاحة*، في الرغبة الشديدة في السير على خطى الذين أنعم الله عليهم بنعم من أي نوع، مادية كانت أم معنوية، بالإضافة إلى الرغبة في التمكن من تجنب أخطاء المغضوب عليهم من الله أو الضالين عن طريق

الحق. والضالون هم الذين سلكوا طريقَي الغلو، في حين أن الذين أنعم الله عليهم هم الذين التزموا بالطريق الوسط - أي الصراط المستقيم.

وبهذه الأفكار العشر التي تسيطر على عقل العبد (وهذا هو الهدف من تكرار سورة الفاتحة في الصلاة)، يتسلح العبد بأفضل الأسلحة اللازمة للفوز بالسعادة والفلاح.

ويزعم البعض أحياناً أن الدعاء في الصلاة يؤدي إلى التكاثر والبلادة لأنه يجعل العبد يتكل على تضرعاته لله لتحقيق مطلبه بدلاً من السعي لتحقيقه بنفسه. ويرجع هذا الاعتراض، بالطبع، إلى سوء فهم شديد لطبيعة الدعاء. فالتوجه بالدعاء إلى الله لا يعني أنه ليس على العبد سوى أن يدعو ربه بأن يمن عليه بهذه النعمة أو تلك ولا يسعى هو نفسه للحصول عليها. وإنما الدعاء، في الواقع، عبارة عن طلب الوسيلة اللازمة لتحقيق الغاية وبالتالي فهو حافز على العمل. ورغم أن الفاتحة تعتبر أهم دعاء يتوجه به المسلم إلي ربه، فإن الفكرة الرئيسية التي تتناولها، كما سبق أن ذكرنا، هي فكرة العمل أو طلب الهداية للعمل لأن المتضرع لا يسأل ربه أن يمن عليه بنعم معينة وإنما يسأله أن يهديه إلى الصراط المستقيم. ويرد الدعاء الفعلي في عبارة "هَدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"، أو كما هو موضح بشأن معنى الهداية، اهدنا إلى غايتنا بإيقاننا على الطريق المستقيم. وعلى ذلك، ليس الدعاء إلا وسيلة لدفع العبد إلى الأمام واكتشافه الطريق الذي ربما يبلغ الغاية المرجوة عندما يسلكه. فهو طلب الوسيلة اللازمة لتحقيق غاية معينة ورغبة في السير على طريق معين. وفي ضوء هذه التعاليم الواضحة، من الخطأ أن نعتقد أن التوجه بالدعاء إلى الله لبلوغ أي غاية ينفي فكرة الأخذ بالسبل البشرية المتاحة لتحقيقها. وفي موضع آخر، ورد في كتابه العزيز أن استجابة الدعاء هي جزاء للعبد على عمله بجد وكد: "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ وَأُوْنْتُى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٩٥)).

وقد أرسيت في القرآن في مواضع عديدة القاعدة القائلة بأنه لا يمكن بلوغ الغاية إلا بالسعي الجاد: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ" (سورة البلد (٩٠): الآية رقم (٤)). "وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى." (سورة النجم (٥٣): الآيات أرقام (٣٩-٤١)). "قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ" (سورة الزمر (٣٩): الآية رقم (٣٩)). ورغم ذلك، قد يطرح السؤال حول جدوى الدعاء إذا كان على العبد أن يسعى لبلوغ الغاية ويستخدم الوسائل المتاحة له لبلوغها. وفي هذا الشأن أيضاً هناك سوء فهم لطبيعة قدرات الإنسان. فكثيراً ما يحدث أن يعجز الإنسان، رغم سعيه الجاد، عن بلوغ غاية معينة ويجد نفسه عاجزاً تماماً. في تلك الحالة، يعتبر الدعاء بمثابة عون ومصدر قوة للعامل. فلا تنبسط همته ولا ييأس لأنه يؤمن بأنه رغم أن السبل المتاحة لديه استنفدت، ورغم أن كل ما يحيق به ليس سوى الصعاب والظلام، ورغم أن قوته

خارت، فإن هناك قوة عليا لا تعرف المستحيل، قوة في مقدرتها أن ترسل شعاع نور يبدد الظلام وتظل مصدراً دائماً للقوة بالنسبة له عندما يكون في عجز تام، وأنه بالتوجه بالدعاء إلى تلك القوة يمكنه رغم ذلك أن ينال ما يبدو، لولا هذا الدعاء، صعب المنال. تلك هي وظيفة الدعاء وبذلك فهو الوسيلة لبلوغ الغاية عندما تستنفد جميع الوسائل الأخرى، كما أنه مصدر قوة للإنسان في جميع الأوقات، وخاصة في لحظات الضعف واليأس الشديد.

ويبين لنا تاريخ الإسلام في بداية ظهوره أن تلك هي الوظيفة الحقيقية للصلاة وأنها مصدر تستمد منه المزيد من الطاقة والقوة اللازمين لتمكين الإنسان من مواجهة الصعاب وتحقيق الغايات. وقد كان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) والصحابة (رضي الله عنهم) بلا شك شديدي الإيمان بالصلاة - فقد ورد عنهم في القرآن أنهم كانوا يقضون ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه في الصلاة (سورة المزمل (٧٣): الآية رقم (٢٠)) - ورغم ذلك كانت هذه هي نفس زمرة الرجال الذين لم يكن لحبهم للعمل حدود، ولم تستنفد طاقتهم، وكانوا يواجهون الصعاب الشديدة بإرادة حديدية. وبالتأكيد، فإن الرجال الذين نجحوا في عشر سنوات في هزيمة اثنتين من أقوى إمبراطوريات العالم، والذين تمكنوا بأقل الموارد المتاحة لديهم من مواجهة جيوش كانت ضعف أو ثلاثة أضعاف جيشهم وأحياناً عشرة أضعافه، هؤلاء لا يمكن القول عنهم، رغم ما قد يوجه إليهم من تهم أخرى، إنهم كانوا أشخاصاً كسولين مقصرين في عملهم. وإنها حقيقة أثبتتها التاريخ أنه عندما كان القادة المسلمون العظام المكلفون بالفتوحات الإسلامية يواجههم موقفاً عصيباً، كانوا يخرون ساجدين لله طالبين القوة من مصدر القوة الحقيقية. وفي الواقع، فإن الصلاة حولت جنس العرب الذي لم يُلتفت إليه إلى أبرز أمة عرفها التاريخ، حولت قوماً كسولين مقصرين إلى أفراد يعملون لتقدم البشرية بتحمس وبلا كلل، في جميع مراحل تقدمها. والهدف من الصلاة حقاً هو تفجير الطاقات الكامنة في النفس البشرية وهو ما نجحت الصلاة في تحقيقه.

القسم الثاني - المسجد

لا يشترط تخصيص مكان معين للصلاة

في مناقشة حول الصلاة، من الضروري أن نتحدث عن المسجد. والكلمة العربية مسجد هي اسم لمكان السجود أو كل موضع يتعبد فيه. وبادئ ذي بدء، ينبغي أن نضع نصب أعيننا أن الصلاة يمكن أداؤها في أي مكان. وبعبارة أخرى، لا يشترط تخصيص مكان معين لإقامة الصلاة

فيه. وهناك حديث نبوي صريح يفيد ذلك، يروى فيه عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، عندما كان يتحدث عما اختصه به الله، قوله: "جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا" (البخاري ٨: ٥٦). ومن ثم، يجوز للمسلم أن يؤدي صلاته في أي مكان يشاء. ولا يفتقر أداءه للصلاة في أي مكان آخر غير المسجد بأي شكل من الأشكال من أثر الصلاة، كما أن المبنى الذي يتم بناؤه صراحة بغرض إقامة الصلاة فيه لا يحتاج لتخصيص. وإنما كل المطلوب هو أن يعلن من يبني المبنى نيته استخدام ذلك المبنى كمصلى.

المسجد كمركز ديني

ولكن، رغم ما سبق ذكره، فإن للمسجد في الإسلام دورًا ذا أهمية تفوق أهمية الدور الذي يلعبه أي بيت آخر للعبادة في أي دين آخر. وفي الآية القرآنية التي ورد فيها ذكر واجب المسلم في الدفاع عن بيوت الله جميعاً وحمائتها، أي كان الدين الذي تنتمي إليه، ورد ذكر المساجد في النهاية، ولكن القرآن يشير رغم ذلك إلى السمة المميزة للمساجد، وهي تحديداً أن اسم الله يذكر فيها كثيراً، كما جاء في قوله تعالى: "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُ صَوَامِعُ وَبِيَعٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا" (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٤٠)). والعبارة التي تختتم بها الآية - "مَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ" - لها دلالة خاصة. فجميع الأبنية الدينية يتم التردد عليها بوجه عام مرة واحدة أسبوعياً، ولكن المسجد يتردد عليه المصلون خمس مرات يومياً لذكر اسم الله فيه. وفي الواقع، فإنه إذا كان هناك بيت على الأرض يمكن أن يسمى بيت الله، بسبب ارتباط اسم الله به، فإن ذلك البيت هو المسجد الجدير بالأخص أن يطلق عليه هذا الاسم والذي تبدو سائر البيوت الدينية الأخرى مهملة بالمقارنة به. حيث يضيء نور الله المسجد كله؛ وهناك النداء للصلاة خمس مرات يومياً والذي يملأ الهواء بندايات تعبر عن عظمة الله ووحدانيته - "الله أكبر" و"الله أكبر" و"لا إله إلا الله" - وهناك صلاة الفرد التي رغم أنها صلاة سرية فإن اسم الله تردده شفتنا كل مصلٍ منفرد؛ وهناك صلاة الجماعة التي يجهر فيها الإمام بقراءة أجزاء من القرآن تصف عظمة الله وجلاله مع تكرار اللازمة "الله أكبر" عند تغيير كل وضع؛ وعندما تختتم الصلاة، تعلق مجموعة من الأصوات مرردة أذكارة تعبر فيها عن عظمة الله فيدوي المسجد مراراً بذكر اسم الله. ومن الصحيح أن الله تعالى لا يسكن المساجد، ولكن العبد بالتأكيد يشعر بوجوده هناك. وبذلك، يتبين لنا أن المسجد هو مركز الحياة الدينية للمسلم. فالمسجد ليس مكاناً قد يتردد عليه العبد مرة واحدة كل أسبوع ليلهمه بالأفكار الروحية التي من المرجح أنه سوف ينساها خلال الستة أيام التالية؛ وإنما هو مكان يضخ في عروق المسلم الدم الذي ينبض بالحياة الروحية ساعة وراء الأخرى، وبذلك يجعل ذهنه متشرباً بالأفكار الرفيعة وقلبه حياً بالمعنى الحقيقي للكلمة.

المسجد ساحة لتدريب المسلمين على المساواة

لمّا كان المسجد هو ملتقى المسلمين خمس مرات يومياً، فإنه يعتبر بمثابة ساحة تدريب يطبق فيه مبدأ المساواة والأخوة بين البشر. ورغم أنه من الصحيح بلا شك أن كل دين من الأديان يقوم على مبادئ أساسيين يتمثلان في أبوة الله تعالى للبشر والأخوة بين البشر، فإنه من الصحيح أيضاً أنه لم ينجح أي دين في إقامة روح من الأخوة الباقية بين البشر كما نجح الإسلام، ويكمن السر في هذا النجاح منقطع النظير في المسجد. فالمسجد يتيح للمسلمين الفرصة للقاء بعضهم البعض خمس مرات يومياً على قدم المساواة التامة و بروح الأخوة الحقيقية حيث يصطفون جميعاً صفّاً واحداً أمام خالقهم العظيم، لا يعرفون فوارق اللون أو الطبقة ويتبعون جميعاً نفس الرجل. وفي ذلك الوقت، تمحى شتى الفوارق وأشكال التمييز بين البشر. ولولا المسجد، لظلّ مبدأ الأخوة بين البشر لا أثر له، كما هو الوضع في كثير من الأديان الأخرى.

المسجد كمركز ثقافي

فضلاً عن كونه مركزاً دينياً، فإن المسجد يعتبر أيضاً مركزاً ثقافياً للأمة الإسلامية. ففي المسجد، يتم تثقيف أفراد الأمة الإسلامية في جميع الموضوعات المتعلقة بخير أمتهم. وتعتبر خطبة الجمعة محاضرة أسبوعية يتم إلقاؤها بانتظام حول كل هذه الموضوعات، ولكن، فضلاً عن ذلك، فإنه عندما كان يقتضي الأمر - في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين من بعده - تعريف الأمة الإسلامية بمسألة ذات أهمية، كانت تلقى خطبة أو محاضرة في المسجد. وحتى أثناء مرض الموت، أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) المسجد وألقى خطبة أمام الناس.

وبالإضافة إلى هذا التعليم الجماعي في المسجد النبوي، كانت هناك أيضاً ترتيبات لتعليم الراغبين في اكتساب المعرفة. حيث إن الرجال، الذين كان يتعين تدريبهم كرسد إلى البلاد لنشر النور والمعرفة في المناطق النائية بالبلاد، لم يتلقوا تعليمهم في المسجد فحسب وإنما كانوا أيضاً يسكنون في مكان يسمى الضفة، وهو مكان ملحق بالمسجد. وكانت الصفة تقع في الركن الشمالي من المسجد، وكانت تظل بسقف ولكن جوانبها كانت مفتوحة، وقد سمي أولئك الطلاب الذين كانوا يدرسون فيها أهل الضفة أو أصحاب الضفة على اسمها. ومن الخطأ أن نعتقد أن من لا مأوى لهم كانوا يعيشون فيها لأنه ذكر أنه من بين من كانوا يعيشون هناك رجال أمثال سعد بن أبي وقاص،^٧

^٧ كان من أبرز صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان ينتمي إلى أسرة غنية نوعاً ما.

في حين كان يوجد كثير من المهاجرين الفقراء الذين لم يعيشوا هناك مطلقاً. والحقيقة هي أن من كانوا يرغبون في تعلم القرآن وأحكام الدين الإسلامي كانوا يعيشون هناك ويُذكر أن عددهم بلغ أربعمائة رجل في بعض الأوقات. ومن أهل الصفة، كان يُبعث الرسل في وفود مكونة من عشرة رجال أو اثني عشر رجلاً، وذات مرة في وفد مكون من سبعين رجلاً، لتعليم الناس في البلاد القرآن وأمور دينهم. وتقريباً كل مسجد حتى يومنا هذا لديه، إلى حد ما، ترتيبات لتعليم الطلاب، حيث يعتبر المكتب (الكتاب) أو المدرسة من الملحقات الضرورية بالمسجد. كما توجد أيضاً في كثير من المساجد الهامة بعض الأوقاف الملحقة بها، التي يذهب ريعها في إعالة الطلاب ومعلميهم. وفي الآونة الأخيرة، أقيمت أيضاً مكتبات، بعضها كبير جداً، في أجزاء من المسجد.

المسجد كمركز لجميع الأنشطة الإسلامية

ولكن هذا ليس كل شيء عن المسجد. ففي عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين، كان المسجد مركزاً لجميع أنواع الأنشطة الإسلامية. ففي المسجد، كان يفصل في جميع المسائل القومية الهامة. وعندما كانت الأمة الإسلامية تضطر لحمل السلاح دفاعاً عن النفس، كانت تدابير الدفاع والحملات العسكرية يتم تنسيقها في المسجد. كما كان أيضاً يطلب من الناس الذهاب إلى المسجد عندما تكون هناك أنباء هامة يرغب أولو الأمر في إبلاغهم بها، كما كان المسجد أيضاً يعتبر قاعة اجتماعات للمسلمين. وفي عهد ثاني الخلفاء الراشدين عمر، عندما تم تشكيل مجلسين لتقديم المشورة إلى الخليفة، كان هذان المجلسان يجتمعان في المسجد. وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يستقبل وفود القبائل المسلمة والقبائل غير المسلمة في المسجد، كما كانت تتم أيضاً ضيافة بعض القبائل ذات المكانة البارزة في المسجد، كما في حالة وفد النصارى الشهير من نجران ووفد قبيلة ثقيف، وهي إحدى القبائل المشركة؛ ولهذا الغرض كانت تقام الخيام في ساحة المسجد.^٨ وبالفعل، فإنه بمناسبة العيد، سمح النبي (صلى الله عليه وسلم) لبعض الحبشة أن يلعبوا بالدرق والحراب في المسجد (البخاري ٨: ٦٩). وقد كان حسان بن ثابت يسرد في المسجد أبياته الشعرية دفاعاً عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ضد هجاء أعدائه له (البخاري ٨: ٦٨). كما كانت النزاعات القضائية يُفصل فيها في المسجد (البخاري ٨: ٤٤؛ ٩٣: ١٨) كما كان المسجد أيضاً

^٨ قال تعالى في كتابه العزيز: "مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ" (سورة التوبة ٩): الآية رقم (١٧)). ولا تعني هذه الآية الكريمة أنه لا يسمح لغير المسلم بزيارة المسجد. وإنما يقصد هنا، في الواقع، بعبارة "مَسَاجِدَ اللَّهِ" المسجد الحرام الذي يعتبر حقاً أشرف مساجد الأرض؛ وكما تبين كلمات الآية، فإن المشركين الذين طالما سيطروا على الكعبة يقول لهم الله تعالى إنه ليس لهم الآن أن يعمروا ذلك المسجد لأنه طهر من جميع آثار الشرك. بالإضافة إلى ذلك، فإن منح غير المسلمين الحق في زيارة المساجد يختلف تماماً عن إذن المسلمين لهم بدخول المساجد.

يستخدم استخدامات أخرى. فعلى سبيل المثال، نصبت خيمة لسعد بن معاذ في ساحة المسجد عندما أصيب بجراح خطيرة في غزوة الخندق (البخاري ٨: ٧٧) ومات في هذه الخيمة. كما نصبت أيضاً خيمة في المسجد لجارية أعنتت من الأسر وكانت تعيش فيها (البخاري ٨: ٥٧). وعلى ذلك، لم يكن المسجد فحسب مركزاً روحياً للمسلمين وإنما كان أيضاً مركزاً سياسياً وتعليمياً واجتماعياً. لقد كان بالفعل مركزاً لجميع المسلمين بالمعنى الحقيقي والشامل للكلمة.

احترام المساجد

ورغم ذلك، فإن استخدام المسجد لأغراض أخرى غير الصلاة لا ينتقص بأي شكل من الأشكال من طابعه المقدس. فهو في المقام الأول مكان لعبادة الله ويجب أن يُنظر إليه تلك النظرة. كما يحظر القيام بأي أنشطة في المسجد سوى ما يتعلق بخير الأمة الإسلامية أو تكون له أهمية قومية. وقد نهى صراحةً عن مزاوله أي تجارة أو شراء وبيع في المسجد (أبي داود ٢: ٢١٦). حيث يجب أن يولى لبيت الله الاحترام الواجب؛ وعلى ذلك فحتى رفع الأصوات في المسجد منهي عنه (البخاري ٨: ٨٣) والبزاق في المسجد حرم صراحةً (البخاري ٨: ٣٧). ويجوز الصلاة في النعلين (البخاري ٨: ٢٤) على أن يكون النعلان طاهرين غير نجسين. ورغم ذلك، نشأت عادة خلع النعلين عند باب المسجد كدليل على احترام المسجد ولضمان الطهارة. كما أن كنس المسجد وتطيفه يعتبر عملاً يجازي عليه العبد جزاءً كبيراً.

وجوب استقبال المساجد الكعبة

تعتبر الكعبة، أو المسجد الحرام، كما ورد في القرآن، هي أول بيت بني على الأرض لعبادة الله: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٩٦)). وتروى في القرآن في الآية رقم (١٢٧) من سورة البقرة (٢) قصة بناء إبراهيم وابنه إسماعيل للكعبة، ولكن الآية رقم (١٢٥) في نفس السورة تبين أنه كان مجرد إعادة بناء مبنى متهدم حيث ورد في الآية رقم (١٢٧) بنفس السورة ذكر تطهير البيت من الأصنام التي وضعت فيه قبل بنائه. وحتى موير يرجع بناء الكعبة إلى "قديم الزمان". وبما أن الكعبة هي أول مسجد بني على الأرض، فإن جميع المساجد تبنى بحيث تستقبلها. وتستند هذه الممارسة إلى أمر صريح بذلك ورد في القرآن. وقد ورد أول أمر باستقبال الكعبة عند الإشارة إلى نبي الله إبراهيم (عليه السلام):

^٩ بكة هي مكة.

"وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ (الكعبة) مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ (الكعبة) مُصَلًّى" ^{١٠} (البقرة ٢): الآية رقم (١٢٥)). وبعد ذلك بعدة آيات، ورد هذا الأمر على نحو أكثر صراحة: "وَمِن حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ" (سورة البقرة ٢): الآية رقم (١٥٠)). ويشار في القرآن فيما يتعلق بموضوع القبلة ١١ إلى الغرض الأساسي من نزول الأمر بوجوب استقبال جميع أماكن العبادة للكعبة. "وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا" (سورة البقرة ٢): الآية رقم (١٤٨)). ومن الواضح أن عبارة "يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا" تعني يجعلكم جميعاً أمة واحدة حيث إن وحدة الغاية الحقيقية تكمن في وحدة الجهة الظاهرية. فكما أن لهم جميعاً جهة واحدة يولون وجوههم شطرها، فكذلك يجب عليهم أن يضعوا نصب أعينهم غاية واحدة. وعلى ذلك، فإن وحدة القبلة بين المسلمين ترمز إلى وحدة غايتهم وتشكل الأساس الذي ترتكز عليه أخوة الإسلام. ومن ثم، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "لَا تُكْفِرُ أَهْلَ قِبَلَتِكَ" (النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة كفر).

بناء المسجد

الحكم الوحيد الذي ورد في الشريعة الإسلامية بشأن بناء المسجد هو وجوب استقباله الكعبة المشرفة. ورغم ذلك، ورد في السنة أنه يستحب أن يكون المبنى بسيطاً بقدر الإمكان. وينهى بوجه عام عن زخرفة المساجد بجميع أنواعها، وفقاً لما يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من قوله: "مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ الْمَسَاجِدِ" (أبي داود ٢: ١١). فقال ابن عباس (رضي الله عنه): "لَتَزُخْرَفُهَا كَمَا زُخْرِفَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى (أماكن عبادتهم)". ووفقاً لحديث آخر، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ ^{١٢} حَتَّى يَبْنَاهِيَ النَّاسُ فِي (بناء) الْمَسَاجِدِ" (أبي داود ٢: ١١). وقد كان المسجد الذي بناه النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفسه في المدينة المنورة، والذي يسمى المسجد النبوي، عبارة عن بناء بسيط في ساحة رحبة يمكن نصب الخيام فيها عند اللزوم. وقد

^{١٠} يروى عن الحسن قوله إن كلمة مصلى (ومعناها اللغوي مكان الصلاة) يقصد بها القبلة (التفسير الكبير للرازي)، أو الجهة التي يستقبلها المسلم حال وقوفه للصلاة. وقد نزلت هذه الآية بعد الهجرة بحوالي ستة عشر شهراً. وحتى وقت نزول الآية، كان المصلون يؤدون صلاتهم مستقبين قبلة بيت المقدس، أي قبلة أنبياء بني إسرائيل. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أنه عندما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يعيش في مكة، حيث لم يكن هناك يهود أو نصارى، كان يصلي مستقبلاً قبلة بيت المقدس، لأنه لم يكن نزل عليه أي وحي بخصوص ذلك واستقبال بطبيعة الحال قبلة أنبياء بني إسرائيل. ولكنه عندما هاجر إلى المدينة، حيث كان العنصر اليهودي في السكان مسيطراً، أمر بالآلة استقبال قبلة بيت المقدس بعد ذلك لأن الكعبة سوف تكون قبلة المسلمين في المستقبل.

^{١١} القبلة في اللغة هي الجهة أو النقطة التي يقابلها المرء (المعجم العربي - الإنجليزي للين). في حين أن القبلة في المصطلح الديني هي الجهة التي يقابلها المرء حال وقوفه للصلاة وبذلك تعتبر القبلة مركزاً روحياً للعباد.

^{١٢} كما ورد في موضع آخر، فإن المقصود بالساعة في هذه الحالة هو هلاك واحدة من الأمم أو وقت سقوطها.

كانت جدرانه مبنية من الطوب اللبن وسقفه، المقام على عمد من جزوع النخل، مغطى بسعف النخيل والطين. وقد أعاد أبو بكر الصديق وعمر (رضي الله عنهما)، أول وثاني الخلفاء الراشدين، بناءه بنفس المواد، رغم أن عمر توسع في البناء (أبي داود ٢: ١١). وقد كانت المساجد الكبرى في الإسلام التي شيدت في عهد الخليفة عمر (رضي الله عنه) في البصرة، والكوفة، والفسطاط، وهي المدن الجديدة التي بناها المسلمون، أو في المدن القديمة مثل المدائن، ودمشق، القدس، جميعاً أبنية بسيطة مثل المسجد النبوي في المدينة المنورة، وكانت مبنية إما من البوص أو الطوب اللبن، وكانت ذات ساحات رحبة ومساحاتها كبيرة بحيث تسع جموعاً من المصلين تصل أعدادهم إلى ٤٠,٠٠٠ مصلٍ وكانت الأرضيات بوجه عام مفروشة بالحصى. وقد قامت حكومة الدولة الإسلامية ببناء هذه المساجد وكان المقر الرسمي للحكام ملحقاً بها بحيث يؤم الحكام الصلاة بأنفسهم. وتماشياً مع بساطة البناء، لم تكن المساجد مفروشة إلا بسجاجيد الصلاة ومنبر الخطيب الذي تلقى خطبة الجمعة من فوقه. وأعاد عثمان، ثالث الخلفاء الراشدين، بناء المسجد النبوي في المدينة بالحجارة المنقوشة والقَصَّة (أبي داود ٢: ١١). ولم تنشأ عادة بناء المساجد المزودة بالقباب والتي تعلوها منئذنة أو أكثر إلا في الأونة الأخيرة، ولكن حتى هذه الأبنية، رغم فخامتها، كانت نماذج بارزة للبساطة حيث كانت الزخرفة الأساسية المنقوشة عليها عبارة عن كتابة آيات قرآنية بالفيسفساء على جدرانها.

مساجد القبائل والطوائف

لكل مسلم مطلق الحرية في بناء مسجد، وكذلك أيضاً لمن يعيشون في أنحاء مختلفة من المدينة الحرية في بناء مساجد يؤدون فيها الصلاة. فقد بنى أبو بكر (رضي الله عنه) مسجداً في فناء داره أثناء وجوده بمكة في أوائل ظهور الإسلام (البخاري ٤٦: ٢٢). كما دعا صحابي آخر من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وهو عتيان بن مالك، رسول الله ذات مرة ليصلي في ناحية معينة من بيته كان يتخذ منها مصلى لأنه لم يستطع أن يأتي مسجد قومه في موسم الأمطار (البخاري ٨: ٤٦). كما بني مسجد في قباء، في ضواحي المدينة المنورة، لأهل هذه المنطقة، أي قبيلة عمرو بن عوف، وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يتردد عليه مرة واحدة كل أسبوع (البخاري ٢٠: ٢). وهناك مسجد آخر في المدينة يسمى مسجد بني زريق (البخاري ٨: ٤١). وقد عنون البخاري أحد أبواب كتابه كما يلي: "هَلْ يُقَالُ مَسْجِدٌ بَنِي فُلَانٍ؟". وعلى ذلك، يمكن أن يُطلق على أي مسجد اسم مؤسسه أو من يرتادونه أو أي اسم آخر. وفيما بعد، أصبحت للمسلمين الذين ينتمون إلى الطوائف المختلفة مساجد خاصة بهم في حين تجمعهم الكعبة المشرفة، وهي المسجد الجامع، جميعاً وقت الحج. وما أن يُبنى المسجد حتى يصبح مفتوحاً للمسلمين من جميع المذاهب الدينية

ولا يحق لأي فرد أن يمنع المسلمين الذين ينتمون إلى مذهب أو طائفة دينية معينة من دخول المسجد. وهذه نقطة ورد بشأنها أمر صريح في القرآن: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُدْخَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١١٤)).

الإذن للنساء بالذهاب إلى المساجد

يثير اعتياد الحجاب في بعض دول العالم الإسلامي السؤال عما إذا كان يجوز للنساء الذهاب إلى المساجد. ولم يثر مثل هذا السؤال في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما كانت للمرأة حرية المشاركة في الصلاة. وقد ورد بالفعل حديث شريف يروى فيه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) تأخر ذات ليلة في مجيئه ليؤم صلاة العشاء في الوقت الذي تجمع فيه الناس في المسجد؛ ولم يخرج (صلى الله عليه وسلم) إلا عندما سمع عمر (رضي الله عنه) يقول: "تَامَ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ" (البخاري ٩: ٢٢). مما يدل على أن النساء كنّ في المسجد حتى في هذه الساعة المتأخرة من الليل. ووفقاً لحديث آخر روته السيدة عائشة (رضي الله عنها)، كانت النساء يشهدن صلاة الفجر في ساعة مبكرة جداً لدرجة أنهن كن ينقلبن إلى بيوتهن في الظلام (البخاري ٨: ١٣). ورغم ذلك، ورد حديث آخر يروى فيه أنه حتى النساء اللاتي كان لديهن أطفال رضع كنّ يأتين المسجد وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان، عندما يسمع بكاء صبي، يخف الصلاة خشية أن يشق على أمه (البخاري ١٠: ٦٥)؛ في حين يروى في أحد الأحاديث أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان، عندما يسلم، يمكث قليلاً ولا يقوم حتى تتصرف النساء من المسجد (البخاري ١٠: ١٥٢). كل هذه الأحاديث تقدم أدلة قاطعة على أن النساء، شأنهن شأن الرجال، كن يترددن على المساجد ولم يكن هناك أدنى حظر عليهن في هذا الشأن. وهناك أحاديث أخرى يروى فيها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أعطى أوامر بعدم منع النساء من الذهاب إلى المسجد. فعلى سبيل المثال، يروى في أحد الأحاديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ" (البخاري ١١: ١٢). ووفقاً لحديث آخر، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله إنه إذا استأذنت النساء أزواجهن بالليل إلى المسجد، فلا يمنعهن (البخاري ١٠: ١٦٢). وتعتبر الكلمات التي وردت في حديث ثالث في هذا الشأن أكثر تعميماً: "إِذَا اسْتَأْذَنْتِ امْرَأَةٌ أَحَدَكُمْ فَلَا يَمْنَعُهَا" (البخاري ١٠: ١٦٦). وهناك أمر صريح بخروج النساء في العيد للمصلين؛ وحتى الخيض يشهدن الخير ودعوة المسلمين، رغم أنهن يعتزلن مصلاهم (البخاري ١٣: ١٥، ٢٠). ويبدو أن عادة حضور المرأة الصلاة في المساجد استمرت فترة طويلة بعد عهد النبي (صلى الله عليه وسلم). وداخل المسجد، لم يتم عزلهن عن الرجال بحجاب أو ستار؛ وإنما كانت النساء تصطف خلف الرجال (البخاري ١٠: ١٦٤)؛ ورغم أنهن كن

يرتدين جلباباً محتشماً، فإنهن لم يكنن يرتدين النقاب. وأثناء تجمع الحج، حرم صراحة على المرأة أن ترتدي النقاب (البخاري ٢٥: ٢٣). وقد ورد في أحاديث أخرى كثيرة اصطفاة النساء خلف الرجال وعدم مغادرة الرجال أماكنهم إلى أن تنصرف النساء من المسجد (البخاري ١٠: ١٦٤). ويبدو أن هذه الممارسة دامت فترة طويلة. وعلى ذلك، نقرأ أن النساء كن يكبرن مع الرجال في المسجد أثناء الثلاثة أيام التالية لعيد الأضحى (أي أيام التشريق) وذلك في أواخر عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الذي حكم البلاد تقريباً حتى نهاية القرن الأول الهجري (البخاري ١٣: ١٢). وفي عام ٢٥٦ للهجرة، يروى أن حاكم مكة ربط أحابالا بين أعمدة المسجد لتخصيص مكان منفصل للنساء (دائرة المعارف الإسلامية، مادة مسجد). وفيما بعد، نشأت عادة إقامة حاجز خشبي لتكوين مكان منفصل للنساء، ولكن بمرور الوقت زاد التشدد في مفهوم الحجاب حتى منعت النساء من دخول المساجد.

هناك سؤال آخر ذو صلة بهذا الموضوع وهو يدور حول دخول النساء المساجد أثناء الحيض. وبادئ ذي بدء، يجب أن نضع نصب أعيننا أنه، في الإسلام، لا ينظر إلى الحيض أو النفاس على أنه حالة نجاسة، كما ينظر إليهما في الأديان الأخرى. وكل ما ورد في القرآن بشأن الحيض هو أنه لا جماع أثناءه: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ" (سورة البقرة ٢): الآية رقم (٢٢٢)).^{١٣} ووفقاً لأحد الأحاديث، لا يحل للمرأة الصلاة أو الصوم أثناء الحيض. وفيما يتعلق بالحج، يجوز للمرأة أن تؤدي المناسك كلها إلا الطواف (أي الطواف حول الكعبة)، ولكن لم تقترن بها فكرة النجاسة عندما تكون في هذه الحالة. وهناك عدد كبير من الأحاديث التي ورد فيها أن جميع أنواع العلاقات الاجتماعية مع المرأة وهي حائض مباحة، وأنه يمكن للزوج وزوجته النوم في نفس الفراش، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتلو القرآن متكئاً في حجر زوجته وهي حائض وأن الحائض يجوز لها قراءة القرآن (البخاري ٦: ٢، ٣، ٥، ٦، ٧). ورغم ذلك، ورد حديث يستنتج منه أنه يحرم على المرأة دخول المسجد في الحيض، ولكن من الواضح أن هناك سوء فهم هنا، لأنه إذا كان مباحاً لها قراءة القرآن كيف لا يباح لها دخول المسجد؟ وفيما يلي نص الحديث: "عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاوليني الخُمرة من المسجد فقلتُ إني حائضٌ فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ حَيْضَتَكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ" (أبي داود ١: ١٠٤). ومن الواضح أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يريد سجادة الصلاة الموجودة في المسجد وطلب من السيدة عائشة (رضي الله عنها) مناولته إياها. وقد كان رأي عموم الناس بشأن الحائض قبل الإسلام هو

^{١٣} يرتبط الاعتزال في هذه الحالة بالنكاح فقط، وليس بالعلاقات الاجتماعية، كما توضح العبارة التي تليها: "فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ" (سورة البقرة ٢): الآية رقم (٢٢٢). ويشير التطهر المشار إليه هنا إلى غسل المرأة عند انقطاع الحيض.

أنها غير طاهرة ويبدو أن السيدة عائشة ردت على النبي (صلى الله عليه وسلم) متأثرة بذلك الاعتقاد. ومن ناحية أخرى، فإن رد النبي (صلى الله عليه وسلم) عليها يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه الفكرة مغلوطة وأن المحيض لا يؤدي إلى نجاسة المرأة؛ ووجوب امتناع المرأة عن الصلاة عندما تكون حائضاً يعتبر شيئاً مختلفاً تماماً. ورغم ذلك، هناك حديث آخر يروى فيه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "فَإِنِّي لَا أَجِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلَا جُنُبٍ" (أبي داود ١: ٩٣). ولكن هذا الحديث يوصف بأنه ضعيف وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليه، أو أن المسجد هنا يرمز ببساطة إلى فريضة الصلاة التي لا تحل لأولئك الأشخاص. وكما تبين الأحاديث التي تم الاستشهاد بها أعلاه، فإنه لا تنسب إلى الحائض أدنى فكرة تتم عن عدم الطهارة. وبالمثل، وردت أحاديث شريفة يروى فيها أن ما تمسه الحائض بقمها لا ينجس (أبي داود ١: ١٠٣). وحتى الثياب الذي ترتديه الحائض لا يغسل إذا لم ينجس بالفعل (البخاري ٦: ١١). ومن ثم، لا يعتبر الحديث سالف الذكر بمثابة تحريم لدخول المرأة المسجد عندما تكون حائضاً، ولكن بما أنه يجب عليها الامتناع عن الصلاة، فلا حاجة لها في الذهاب إلى المسجد.

القائمون على المسجد

عادة ما يكون لكل مسجد متولٍ، يُعهد إليه بإدارة المسجد من قبل من قاموا ببنائه. وللمتولي الحق في تعيين الإمام، ولكن ليس له الحق في منع المسلمين من دخول المسجد بسبب أي اختلافات مذهبية. كما يكون أيضاً لكل مسجد بوجه عام مؤذن ينادي للصلاة. ويجوز للمؤذن أيضاً تولي شؤون المسجد. ولكن أهم رجل في المسجد هو الإمام، الذي يؤم الصلاة ويلقي خطبة الجمعة. وقد ظل شرف الإمامة، في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وبعد وفاته بفترة طويلة، يمنح لأفضل رجل في الأمة. وقد عنون البخاري أحد أبواب صحيحه كما يلي: "أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْفُضْلِ أَحَقُّ بِالإِمَامَةِ" (البخاري ١٠: ٤٦). وتحت هذا العنوان، استشهد البخاري بحديث يروى فيه أنه عندما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) على فراش الموت، استخلف أبا بكر في إمامة الصلاة وعندما طُلب منه استخلاف عمر بدلاً منه، لأن أبا بكر رجل رقيق، أبى النبي. ويروي أبو داود عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أقوالاً يطلب فيها أن يمنح شرف الإمامة إلى الأقرأ لكتاب الله وإذا استوى الرجلان، تطبّق اعتبارات أخرى. وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه هو الإمام في المسجد الجامع بالمدينة المنورة ومن بعده خلفاؤه بالترتيب: أبو بكر، وعمر، وعثمان. وعندما كان يعين حاكماً على الولاية، كان يعين أيضاً إماماً ليؤم الصلاة، وقد دامت هذه الممارسة فترة طويلة. وفي الواقع، فإن شرف الإمامة في الإسلام كان لا يقل عظمة عن شرف تنصيب الملك، وقد اجتمع المنصبان، أي منصب القائد الروحي والقائد الدنيوي، في نفس الشخص لفترة طويلة. وكما

كان الحاكم إمام المسلمين جميعاً، فكَذَلِكَ كان الحكام التابعون له أئمة في شتى أنحاء الولايات. ولم يكن لرجل الدين والملا في يومنا هذا مكان في فجر الإسلام. ولم يكن الإمام، شأنه شأن المسجد، يحتاج لتخصيص لأن كل فرد يصلح للإمامة بالدخول في حظيرة الإسلام. وأي فرد يمكنه أن يؤم الصلاة في غياب الإمام وأي فرد يمكنه القيام بدور الإمام عندما يتجمع عدة أفراد للصلاة. والممارسة الحالية المتمثلة في دفع أجر لأئمة المساجد، الذين تتمثل مهمتهم الوحيدة في إمامة الصلاة، هي المسؤولة، إلى حد كبير، عن تدهور أحوال المسلمين. فهؤلاء الأفراد ليس لديهم بوجه عام شعور بسمو الدين الإسلامي وفرائضه كما أنه ليس لديهم النور والمعرفة والخبرة العامة التي تعطيم الأحقية في إمامة المسلمين روحياً. وقد ورد أيضاً في أحد الأحاديث أن امرأة قامت بدور الإمام في حين تبعها الرجال رغم أن هذا كان في بيتها (أبي داود ٢: ٦٠).

القسم الثالث - الطهارة

طهارة الظاهر تهيؤاً للصلاة

تعتبر الصلاة، وفقاً لما جاء في القرآن والسنة، وسيلة لتطهير الروح والجسد والثوب الذي يرتديه العبد، وقد ذكر أن هذا التطهير واجب للتهيؤ للصلاة. وبإجماع الآراء، فإن سورة المدثر (٧٤) التي وردت في القرآن هي ثاني ما نزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد أول خمس آيات من سورة العلق (٩٦) ويمكننا هنا أن نستشهد بالخمس آيات الأولى من سورة المدثر لتوضيح أهمية طهارة الظاهر في الدين الإسلامي: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ." (سورة المدثر (٧٤): الآيات أرقام (١-٥)). وعلى ذلك، فإن إنذار العباد، وتكبير الله من خلال الصلاة، وتطهير الثياب والبدن كل هذه تذكر هنا كثلاثة واجبات أساسية على المسلم. وكثيراً ما تقترن فكرتا طهارة الجسد وطهارة الروح في القرآن. ولنستشهد بمثال آخر على ذلك: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٢٢)). كما تركز السنة أيضاً بصفة خاصة على طهارة الظاهر. فوفقاً لأحد الأحاديث، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "مُتَّحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ" (الترمذي ١: ٣)؛ ووفقاً لما ورد في حديث آخر، يروى عنه صلوات الله وسلامه عليه قوله "بني الدين على الطهارة"؛ وفي حديث ثالث، يروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "الْوُضُوءُ شَطْرُ الْإِيمَانِ" (ابن ماجه ١: ٥). ودلالة الأحاديث واضحة. وهي أن طهارة الباطن هي الهدف الحقيقي، ولكن طهارة الظاهر هي استعداد ضروري للصلاة. فشعار الإسلام هو النفس الطاهرة في البدن الطاهر.

والهدف من جعل طهارة الظاهر استعداداً ضرورياً لأداء الصلاة ليس فحسب استرعاء الانتباه إلى الهدف الحقيقي الذي يتمثل في طهارة الروح، وإنما أيضاً لضمان استمرار طهارة الجسد التي تشكل في حد ذاتها ضرورة ملحة من ضروريات الحياة، لأن الإنسان الذي يتطهر خمس مرات يومياً سوف يكون بلا شك في حالة طهارة بدنية مستمرة. ويستحب بوجه عام التزین بخير الثياب عند الذهاب إلى المساجد، كما قال تعالى في كتابه العزيز: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٣٢)). ويوصف الثياب هنا بأنه زينة للدلالة على أن خير الثياب يضيف إلى الجمال؛ وفي موضع آخر ورد أن الثياب يتخذ كستر للعورة وللإضافة إلى الجمال (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٢٦)). وفي حالة الصلاة، قال تعالى في كتابه العزيز: "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٣١)). ويدل ذلك على أنه عند التجمع في المساجد لأداء الصلاة، يجب أن يهتم المصلي بمظهره الخارجي وطهارة بدنه أيضاً. والسبب في هذا الأمر هو أن تجمع ناس، غير طاهري الثياب أو البدن، في الصلاة يثير بلا شك اشمئزاز الآخرين. ومن ثم، يؤكد بصفة خاصة على أنه في تجمعات المصلين الأكبر عدداً مثل أيام الجمعة، من المستحب أن يغتسل الفرد قبل الذهاب للصلاة ويتطيب، إن أمكن.

الوضوء

تتمثل أول حالة من حالات طهارة الجسد في الوضوء^{١٤} ومعناه، في الاصطلاح الشرعي، غسل أعضاء مخصوصة من الجسد قبل الصلاة وقد يوصف الوضوء بأنه غسل جزئي. وقد وردت فرائض الوضوء في القرآن في واحدة من أواخر ما نزل من السور،^{١٥} رغم أنه، في السنة، ترجع معرفة الوضوء إلى الوقت الذي فرضت فيه الصلاة. وقد تم إقرار هذه السنة، التي سنّها النبي (صلى الله عليه وسلم) بالتأكيد إما بالنور الرباني أو بالوحي الخفي، في النص القرآني التالي:

^{١٤} كلمة وضوء مشتقة من الوضوء وهي الحُسْن (النهاية في غريب الحديث والأثر).

^{١٥} من المستحب في السنة عمل بعض الاحتياطات في حالة قضاء الحاجة حتى لا يبقى أي من الغائط أو الخبث على الجسد أو ينجس الثياب. وتتمثل هذه الاحتياطات إما في استخدام الحجر - الذي يمكن أن تحل مناديل الحمام محله - والماء، بعد خروج البول أو الغائط من أحد السبيلين، أو استخدام الماء فقط. ورغم أن هذه تبدو تفاصيل حياتية بسيطة، فإنها تلعب دوراً هاماً في الحفاظ على النظافة والصحة. وبالمثل، يؤمر بإزالة الشعر الزائد، أي شعر الإبط أو شعر العانة، لنفس الغرض، أي للحفاظ على النظافة الشخصية والصحة. وترجع نشأة عادة الختان، أي قطع الجلد الزائدة، والتي، كما جاء في الإنجيل، ترجع إلى عهد نبي الله إبراهيم (عليه السلام)، إلى نفس الفكرة. ومن المعترف به الآن لدى العموم وبأراء الأطباء أن الختان يشكل أيضاً علاجاً لكثير من الأمراض.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ (وَاغْسِلُوا)^{١٦} أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٦)).

وتحتوي سنة النبي (صلى الله عليه وسلم)، كما دونت في الحديث الشريف، إلى حد كبير على نفس التفاصيل. ويمكن إيجاز هذه التفاصيل في النقاط التالية:

- ١- البدء بغسل اليدين إلى الرسغين.
- ٢- تنظيف الفم إما بالماء أو بالمسواك والمضمضة، إذا لزم الأمر.
- ٣- تنظيف الأنف بالاستنشاق والاستنثار، إذا لزم الأمر.^{١٧}
- ٤- غسل الوجه من أعلى تسطيح الجبهة إلى أسفل اللحيين ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن.
- ٥- البدء بغسل الذراع اليمنى ثم اليسرى من الرسغ إلى المرفق.
- ٦- مسح الرأس بيدين مبتلتين بحيث تضم الأصابع الثلاثة بين الخنصر والإبهام؛ ومسح باطن الأذنين بالسبابتين وظاهرهما بالإبهامين.
- ٧- غسل الرجلين إلى الكعبين مع البدء بغسل الرجل اليمنى.

وإذا كان المتوضىء يرتدي جوربين وسوف يرتديهما بعد الوضوء، ليس هناك ضرورة لخلعهما؛ وإنما يمكن تمرير الأصابع الثلاثة لليد المبتلة عليهما. ونفس الشيء ينطبق على الخفين. وفي حالة خلع الجوربين أو الخفين، لا ينقض الوضوء. ورغم ذلك، يجب غسل القدمين مرة كل أربع وعشرين ساعة.^{١٨}

^{١٦} يرى الشيعة أنه يجب فقط المسح على الأرجل مثل الرأس، ولكن في النص القرآني المذكور، فإن الكلمة المستخدمة هي "أَرْجُلَكُمْ" حيث توجد علامة نصب على كلمة "أَرْجُلُ" وبذلك تكون مفعولاً فعله "اغْسِلُوا"، أي أن المعنى هو "اغسلوا أرجلكم". ولو كانت كلمة "أَرْجُلُ" فعلها "امْسَحُوا"، لكتبت الكلمة "أَرْجُلِكُمْ" (بالكسر) وليس "أَرْجُلَكُمْ" (بالتفتح).
^{١٧} يتبين لنا أن القرآن، عند الحديث عن الوضوء، يبدأ بغسل الوجه دون ذكر المراحل الثلاث الأولى. والسبب في ذلك هو أن غسل الوجه يتضمن هذه المراحل الثلاث: غسل اليدين إلى الرسغين كتمهيد لغسل الوجه وغسل الفم والأنف كجزء من غسل الوجه. وتذكر السنة فقط المزيد من تفاصيل الوضوء.

^{١٨} الوضوء، كما ورد هنا، أخذت أركانه وسننه من أصح الأحاديث وهو عملية في غاية البساطة الهدف منها تطهير الأعضاء المعرضة للأتربة. وقد أضاف الخلف من رجال الدين كثيراً من التفاصيل التي لا لزوم لها. فكل فرد

يمكن الوضوء قبل كل صلاة، ولكن لا تتشأ موجبات الوضوء إلا عند قضاء الحاجة^{١٩} أو عند النوم المستغرق.

المسواك

يتبين لنا أنه بالإضافة إلى الهدف الديني للوضوء، الذي يتمثل في تذكير العبد بضرورة طهارة الباطن، فإن له هدفاً عظيماً آخر يتمثل في ترسيخ عادات النظافة. فتغسل أعضاء الجسد المكتشوفة من وقت لآخر لإزالة ما يعلق بها من أتربة أو أقذار من أي نوع ولتظل طاهرة في جميع الأوقات. ويدل التأكيد على تنظيف الفم باستخدام المسواك على أن الصحة والنظافة هدفان من الأهداف العظيمة التي يخدمها الوضوء بالإضافة إلى مغزاه الروحي.

ولا تؤدي طهارة الفم والأسنان إلى زيادة النظافة العامة للجسم فحسب، وإنما تؤدي أيضاً إلى منع الإصابة بكثير من الأمراض. وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقيم وزناً للمسواك لدرجة أنه لم يتركه قط في ظل أي ظرف من الظروف؛ وحتى عندما كان صلى الله عليه وسلم على فراش الموت، طلب مسواكاً ومات بعد استياكه به ببضع دقائق (البخاري ٦٤: ٨٥). وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) من عاداته القيام لأداء صلاة التهجد بعد منتصف الليل، وحتى في تلك الساعة كان صلوات الله وسلامه عليه ينظف فاه وأسنانه بالمسواك (البخاري ٤: ٧٣؛ مسلم ٢: ١٣). وقد كان صلى الله عليه وسلم يولي لنظافة الفم أهمية كبيرة لدرجة أنه كان يقول مراراً إن الشيء الوحيد الذي منعه من فرض استخدام المسواك عند كل صلاة (أي على الأقل خمس مرات يومياً) هو خوفه من أن يشق على أمته (البخاري ١١: ٨؛ ٣٠: ٢٧). وفي مناسبة أخرى، يروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله إن المسواك مطهرة للفم ومرضاة للرب (البخاري ٣٠: ٢٧). وبالمثل، تستحب المضمضة للحفاظ على نظافة الحلق وهو شيء مفيد للصحة.

^{١٩} يعلم جيداً كيف ينظف جزءاً معيناً من جسده، وما إذا كان سوف يغسله مرة أو مرتين أو ثلاث مرات. وفيما يتعلق بالأذكار التي يرددها المتوضئ عند غسل أعضاء معينة من جسده، فإن الرأي المقبول هو أن كل هذه الأذكار مختلفة، باستثناء البسملة في بداية الوضوء والكلمة (الشهادة) في نهايته مع إضافة عبارة "اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ واجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ" (زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ٥٠).

^{١٩} يشمل قضاء الحاجة كل ما خرج من السبيلين من بول، وغائط، وريح. وقد ورد في القرآن ذكر قضاء الحاجة في قوله تعالى: "أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ" (النساء (٤): الآية رقم (٤٣))، وكلمة غَائِطُ معناها المنخفض الواسع من الأرض الذي يذهب إليه الناس عموماً للتبرز. ويدل استخدام هذه الكلمة على أن أي شيء يؤدي الآخرين ينبغي عمله في الخلاء، وأن المسجد الذي يجتمع فيه الآخرون ليس ذلك المكان.

الغُسل

هناك حالات معينة توجب الغسل^{٢٠}، وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أنه من الخطأ أن نصِف الحالة التي يجب فيها على الإنسان أن يتوضأ أو يغتسل بأنها حالة نجاسة. وإنما هي خطوة أولى للتهيؤ للصلاة كما أنها ترسخ بالتأكيد عادات النظافة وتساعد على دوام الصحة. وقد ورد في القرآن أمر يفيد ذلك: "وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٦)). كما يؤمر أيضاً بالغُسل في السنة بمناسبة التجمعات الكبيرة مثل صلاة الجمعة وصلاة العيدين عندما يجب أيضاً التزين بالملابس النظيفة والتطيب، إن أمكن. وعلى ذلك، فإن هذه الأوامر لها أهمية من الناحيتين الدينية والصحية. فهي تعتبر نوعاً من التهيؤ للوقوف أمام الله وتساعد على تحول انتباه العبد عن الأشياء الدنيئة إلى الأشياء النبيلة، كما أنها تجعل أيضاً الجو الذي تجرى فيه تجمعات الناس أكثر نقاءً وصحةً.

التيمم

للوضوء والغُسل هدف ديني بالإضافة إلى الهدف الصحي المنشود، وهو ما يتضح لنا من أنه يجب على الرجل، عندما لا يجد ماء، أن يقوم بعمل يحول الانتباه عن طهارة الجسد إلى طهارة الروح، التي تعتبر الهدف من الصلاة. وقد ورد هذا الأمر في القرآن في قوله تعالى: "وَإِنْ كُنْتُمْ مَرُضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٦)). وعلى ذلك، فعندما لا يستطيع الإنسان أن يجد ماءً أو عندما يؤدي استعمال الماء أو الغُسل إلى ضرر، فإنه يؤمر بأن يتيمم بالتراب الطاهر وقد ذكر أن استخدام هذا التراب، بدلاً من الماء، يعتبر وسيلة التطهر. ورغم أن التراب قد يكون، في ظل حالات معينة، مَطَهَّرَةً، فإنه من الواضح أن مسح الوجه واليدين به لا يفي

^{٢٠} تتمثل الحالات الموجبة للغُسل فيما يلي: (١) الاحتلام، (٢) التقاء الختانين؛ وفي حالة المرأة بصفة خاصة، (٣) الحيض، و(٤) النفاس. وأثناء الحيض والنفاس، تحل المرأة من الصلاة. وعادة ما تتراوح مدة الحيض ما بين ثلاثة وعشرة أيام، وينبغي الاغتسال عند انقطاع الحيض بعد فترة حيض تبلغ ثلاثة أيام بحد أدنى، ويبلغ الحد الأقصى عشرة أيام يجب بعدها الاغتسال. وفي أول حالتين، يسمى الإنسان جُنُبًا والكلمة مشتقة من كلمة جُنُب وهو الناحية. وليس من الصحيح أن نطلق على الجنابة أنها حالة نجاسة أو عدم طهارة وهو رأي لا يؤيده أي من علماء اللغة. وذات مرة عندما وصف شخص جُنُب نفسه بأنه نجس في حضور النبي (صلى الله عليه وسلم)، صحح له النبي (صلى الله عليه وسلم) مفهومه الخاطئ بقوله إن المسلم لا ينجس (البخاري ٥: ٢٣). وكلمة جُنُب هي مصطلح معناه من يجب عليه الغُسل (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وعلاقة كلمة جُنُب بمعنى الكلمة الجذر المشتقة منها هو أن ذلك الشخص يتجنب الصلاة (المفردات في غريب القرآن).

بغرض طهارة الجسد؛ ورغم ذلك، فإنه يوصف في عبارات صريحة بأنه وسيلة للتطهر وبالتالي فإن المقصود هنا هو طهارة الروح. وبالأمر بالتييم،^{٢١} يُسترعى الانتباه إلى الغاية الخفية من وراء الوضوء والغسل. وكما ورد في القرآن وكما ذكر تفصيلاً في السنة، فإن التيمم عبارة عن ضرب اليدين على التراب الطاهر أو أي شيء يحتوي على تراب طاهر ونفضهما ثم المسح على الوجه والكفين بهما بحيث تمر اليد اليسرى على اليمنى من فوق الكف ثم تمر اليمنى على اليسرى^{٢٢} (البخاري ٧: ٤، ٥).

القسم الرابع - الأذان

نشأة الأذان

كلمة أذان مشتقة من كلمة إذن ومعناها الأصلي كل ما يُسمع ومن ثم يعبر بها عن العلم أو الإعلام بإجازة الشيء والرخصة فيه (المفردات في غريب القرآن)؛ والأذان أو التآذنين هو الإعلام أو الإعلام بالصلاة ودخول وقتها - النداء إلى الصلاة (المعجم العربي - الإنجليزي للين).^{٢٣} وعن نشأة الأذان، يخبرنا البخاري أنه عندما قدم المسلمون إلى المدينة المنورة، كانوا في البداية يتحنيون الصلاة التي كانوا يجتمعون فيها، ولكن عندما ثبت عدم وفاء هذا الترتيب بالغرض، أجريت مشاورات رفض فيها اقتراح اتخاذ ناقوس أو بوق للنداء للصلاة، واقتراح عمر (رضي الله عنه) تكليف رجل بأن ينادي بالصلاة فأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بلالاً بأن ينادي بالصلاة بصيغة الأذان المعروفة لدينا (البخاري ١٠: ١، ٢).^{٢٤} وقد شعر المسلمون بالحاجة للنداء للصلاة بعد هجرتهم إلى المدينة لأنه في مكة لم يسمح الكفار للمسلمين بأداء صلاتهم جهراً.

^{٢١} كلمة تيمم مشتقة من الفعل أم الذي يعني عمد إلى الشيء ومن ثم فإن التيمم يعني في الأصل قصد الشيء وبما أن الكلمة تستخدم هنا للإشارة إلى قصد الصعيد الطيب، فإن التيمم يعني اصطلاحاً هذه الممارسة بعينها.

^{٢٢} هناك بعض الأحاديث التي ورد فيها المسح باليدين على أعضاء الجسم التي تغسل عند الوضوء، ولكن البخاري لم يقر بصحة هذه الروايات وعنون الباب الخامس من كتاب التيمم في صحيحه بالعبارة الصريحة التالية: "التَّيْمُمُ لِلْوُجْهِ وَالْكَفَّيْنِ".

^{٢٣} استخدمت كلمة "أَذَانٌ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٣))، وكلمة "أَتْنٌ"، وهي صيغة الماضي من كلمة "تأذنين" وكلمة "مؤننٌ"، وهي الصيغة الاسمية (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (٤٤)؛ وسورة يوسف (١٢): الآية رقم (٧٠)) في القرآن بالمعنى العام للكلمة، أي الإعلام بالشيء، في حين أن الأذان يعبر عنه بكلمة "نداء" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٥٨)؛ سورة الجمعة (٦٢): الآية رقم (٩)) مضافاً إليها كلمة "للصلاة".

^{٢٤} هناك أحاديث أخرى ورد فيها الرؤيا التي رأى فيها عبد الله بن زيد وعمر (رضي الله عنهما) رجلاً ينادي للصلاة بكلمات الأذان التي أمر النبي بإلقائها، ولكن يتبين أيضاً من الأحاديث أن النبي أعطى أوامر بالنداء للصلاة قبل أن تروى له هذه الرؤى وأن وحي الله هو الذي وجهه إلى الأذان.

رفع الأذان

يرفع الأذان خمس مرات يومياً في كل مسجد أو حيثما يكون هناك تجمع لأداء صلاة الجماعة.^{٢٥} ويرفع الأذان من فوق مننذة أو منبر مرتفع عن الأرض، بأعلى صوت ممكن، حتى يصل إلى أسماع أكبر عدد ممكن من الناس. ويقف المؤذن مستقبلاً القبلة، أي مكة، رافعاً يديه بمحاذاة أذنيه، وهو ينطق الجمل التالية بالترتيب المذكور أدناه:

اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ

اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ (تربيع التكبير)

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ (ترجيع كل من الشهادتين)

حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ

حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ (يكررها المؤذن مرتين ملتفتاً بوجهه نحو اليمين)

حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ

حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ (يكررها المؤذن مرتين ملتفتاً بوجهه نحو اليسار)

اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ (تنثية التكبير)

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وتضاف الجملة التالية إلى أذان الفجر بعد عبارة "حي على الفلاح":

الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّوْمِ

الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّوْمِ (تكرر مرتين)

وعقب الأذان، يجوز للمؤذن ومن يسمونه قول الذكر المختصر التالي:

اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتِ مُحَمَّدًا التَّوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا
الَّذِي وَعَدْتَهُ

مغزى الأذان

ليس الأذان إعلاماً بدخول وقت الصلاة فحسب، وإنما هو أيضاً إعلام بالمبادئ العظيمة للدين الإسلامي ومغزاها. إنه إعلام، يطلق خمس مرات يومياً من مئات الآلاف من المآذن، بوحداية الله وإثبات الرسالة لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وهما المبدآن الأساسيان للإسلام. ولكن هذا الإعلام يذهب إلى أبعد من ذلك ويحمل أيضاً المعنى الحقيقي لوحداية الله، الذي ورد في عبارة "الله أكبر" بحيث إنه يجب على العبد ألا يركع إلا لله وحده لا شريك له. كما تُعلن أيضاً بنفس القدر من القوة الرسالة الحقيقية للدين، أي إدراك وجود الله في قلب العبد - وذلك في عبارة "حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ" التي تليها مباشرة عبارة "حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ" - فبإقامة الصلاة يبلغ الإنسان الفلاح في الدنيا لأنه لن يبلغ مرحلة التزكية الكاملة للنفس (أي الفلاح) إلا من خلال إدراك وجود الله في قلبه. يالها من فكرة نبيلة! أن يُستبدل بإطلاق الناقد أو نفخ البوق الذي لا مغزى له الإعلام بمبادئ الإسلام ودلالاتها، الإعلان خمس مرات يومياً أن أي فرد يمكنه تحقيق الفلاح في الدنيا من خلال باب المسجد. ولا يمكن تصور نشر لهذه المبادئ بطريقة أكثر فعالية من ذلك. فما من فرد يراوده شك في هوية الإسلام ورسالته. وما من فرد يحتاج لقراءة الكتب لمعرفة مبادئ الإسلام؛ وما من فرد يحتاج للاستماع إلى بحث فلسفي حول دلالة تلك المبادئ؛ وما من فرد يراوده شك في الغاية المرجوة من إقرار هذه المبادئ. حيث تنقل إلى باب كل فرد، بل إلى أذانه، في كل صباح وظهر وعصر ومساء ووقت الذهاب إلى الفراش، رسالة مفادها أن وحداية الله ورسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) هما المبدآن الأساسيان للذان يستند عليهما الدين الإسلامي، وأنه يجب على العبد ألا يركع إلا لله وحده لا شريك له، وأن أي فرد يمكنه بلوغ مرحلة التزكية الكاملة للنفس، وهي الفلاح في الدنيا، من خلال إدراك وجود الله في قلبه وهو ما يتم بالصلاة.

القسم الخامس - مواقيت الصلاة

تنظيم أداء الصلاة

تعتبر الصلاة في الإسلام فريضة في غاية التنظيم، وهي أول درس يتعلمه المسلم في تنظيم الأشياء. فدون حرمان الفرد من حريته في الصلاة في المكان والزمان وبالأسلوب الذي يشاء أيًا كان، وضع الإسلام تنظيمًا شاملاً لأداء فريضة الصلاة. وكما سبق أن ذكرنا، فإن الصلاة لا تؤدي إلى تطور الفرد فحسب، وإنما تؤدي أيضاً إلى تطور المجتمع كله حيث إنها وسيلة لتوحيد البشر. وهذا الهدف الثاني لا يمكن تحقيقه دون تنظيم أداء فريضة الصلاة كما يجب من خلال تحديد مكان ومواقيت للصلاة وطريقة موحدة لأدائها بحيث يتم من خلالها لمّ شمل أفراد المجتمع. ومن ثم، أوجب القرآن الصلاة في مواقيت محددة: "إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٠٣)).

مواقيت الصلاة

لم يرد في القرآن صراحةً ذكر الوقت المحدد الذي يجب فيه أداء كل صلاة من الصلوات، وإنما وردت فيه دلالات على مواقيت الصلاة. فعلى سبيل المثال، ورد في واحدة من أوائل ما نزل قوله تعالى: "اقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٧٨)). حيث توجد أربع صلوات متتالية؛ هي: الظهر والعصر والمغرب والعشاء؛ ويمتد وقت كل منها حتى وقت دخول الصلاة التالية، باستثناء فاصل زمني قصير، وقت غروب الشمس، بين صلاتي العصر والمغرب. ومن ثم، ذكرت هذه الصلوات الأربع معاً في عبارة "الذُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ" وذكرت صلاة الفجر على حدة. وفي آية أخرى، قال تعالى: "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى" (سورة طه (٢٠): الآية رقم (١٣٠)). ويتضح لنا من السياق أن التسييح المشار إليه هنا يُقصد به الصلاة لأنه ورد في الآية رقم (١٣٢) في سورة طه (٢٠) قوله تعالى: "وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا". وفي الآية رقم (١٣٠)، يشار إلى صلاتي الفجر والعصر في حين تذكر صلاتا المغرب والعشاء معاً. وهناك آية ثالثة من أواخر التنزيل المكي تلقي مزيداً من الضوء على

^{٢٦} يدل الاسم الذي أطلق على صلاة الفجر في الآية الكريمة على أنه عادة ما تُقرأ فيها أجزاء من القرآن أطول نسبياً مما يقرأ في الفروض الأخرى.

مواقيت الصلاة: "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ" (سورة هود (١١): الآية رقم (١١٤)). ويتبين لنا من إضافة عبارة "زُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ" هنا أنه بالإضافة إلى الصلاة التي تؤدى في غسق الليل والتي ذكرت في الآية رقم (٧٨) من سورة الإسراء (١٧)، هناك أيضاً صلاة تقام "زُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ"، أي بعد غروب الشمس مباشرة. وعلى ذلك، يشار إلى صلوات الفجر والظهر والعشاء في سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٧٨)، وإلى صلاة العصر في الآية رقم (١٣٠) من سورة طه (٢٠)، وإلى صلاة المغرب في الآية رقم (١١٤) من سورة هود (١١).

الفروض الخمسة

وعلى ذلك، فقد وردت مواقيت الصلوات الخمس في القرآن لا في موضع واحد فحسب، وإنما في عدة مواضع، كما لو كان ذلك على سبيل الإشارة إلى شيء موجود من قبل. وفي الواقع، فإن القرآن لم يأمر إلا بإقامة الصلاة وتفاصيل تلك الإقامة أوردتها النبي (صلى الله عليه وسلم) بتوجيه من روح القدس (البخاري ٩: ١) أو بالوحي الخفي. وفيما يلي مواقيت الفروض الخمسة وأسمائها وفقاً لما جاء في سنة النبي (صلى الله عليه وسلم):

١- صلاة الفجر، وتؤدى بعد طلوع الفجر وقبل شروق الشمس. وقد ورد ذكرها بهذا الاسم في الآية رقم (٧٨) من سورة الإسراء (١٧) وفي الآية رقم (٥٨) من سورة النور (٢٤). وتؤدى هذه الصلاة عندما يستيقظ الإنسان من نومه في الصباح. ومن ثم، يجب على المسلم أن يتعود على الاستيقاظ قبل الشروق، ولكنه إذا استيقظ متأخراً في بعض الأحيان، يجوز له رغم ذلك أن يؤديها حتى لو كانت الشمس قد شرقت (البخاري ٩: ٣٥).

٢- صلاة الظهر، وتؤدى عندما تبدأ الشمس في الزوال عن وسط السماء ويمتد وقتها حتى الصلاة التالية. وعندما يشتد الحر، يستحب تأخيرها حتى تخف شدة الحر قليلاً (البخاري ٩: ٩).

٣- صلاة العصر، وتؤدى عندما تكون الشمس في منتصف طريقها نحو الغروب ويمتد وقتها إلى أن تبدأ الشمس في الغروب. ولكن يستحب أدائها والشمس مرتفعة (البخاري ٩: ١١).

٤- صلاة المغرب، وتؤدى بعد غروب الشمس مباشرة ويمتد وقتها إلى مغيب الشفق الأحمر.

٥- صلاة العشاء، وتؤدى عند مغيب الشفق الأحمر ويمتد وقتها إلى منتصف الليل. وقد ورد ذكرها بهذا الاسم في القرآن في الآية رقم (٥٨) من سورة النور (٢٤). ويجب أن تؤدى

هذه الصلاة وقت الذهاب إلى الفراش بحيث تصبح آخر عمل يختتم به العبد يومه بالضبط كما تكون صلاة الفجر أول عمل يبدأ به العبد يومه.

الجمع بين الصلاتين

عندما يكون الرجل على سفر، يجوز له الجمع بين صلاتي الظهر والعصر وكذلك أيضاً بين المغرب والعشاء (البخاري ١٨: ١٣، ١٤، ١٥). كما يكون ذلك الجمع أيضاً جائزاً في الأحوال الجوية القاسية، ووفقاً لما ورد في أحد الأحاديث فإن هذا الجمع جائز حتى في غير سفر أو مطر. وعلى ذلك، يروي ابن عباس (رضي الله عنه) أن: "النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى بِالْمَدِينَةِ سَبْعًا وَتَمَانِيًا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ فَقَالَ أَيُّوبُ لَعَلَّهُ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ قَالَ عَسَى" (البخاري ٩: ١٢). وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذه الحالة في المدينة المنورة ومن ثم لم يكن على سفر وبالنسبة للمطر لم يكن الراوي متأكداً من نزوله. ونفس الحديث الذي ورد في صحيح مسلم أكثر وضوحاً في هذه النقطة. وفيما يلي نص رواية ابن عباس التي وردت في صحيح مسلم: "صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمِيعًا فِي غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا سَفَرٍ"، وعندما سئل ابن عباس عن السبب، أجاب بقوله: "كَيْ لَا يُحْرَجَ أُمَّتُهُ" (مسلم ٦: ٨). ووفقاً لرواية أخرى، كان نص الحديث أن النبي جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء في المدينة في غير خوف ولا مطر (مسلم ٦: ٥). ويسمى هذا الجمع/الجمع بين الصلاتين ويجوز أداء الصلاتين في وقت أولهما، وهو ما يسمى جمع تقديم، أو في وقت الثانية، وهو ما يسمى جمع تأخير.

النوافل

النافلة الوحيدة التي ورد ذكرها في القرآن هي صلاة التهجّد^{٢٧} (سورة الإسراء ١٧): الآية رقم (٧٩)). وقد ورد ذكر صلاة الليل في مواضع كثيرة في القرآن، ورغم أنها صلاة تطوع بالنسبة للمسلمين عامة، فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) أمر، في واحدة من أوائل التنزيل، بالمواظبة عليها: "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. ثُمَّ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا. نَضِّفْهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا." (سورة المزمل ٧٣): الآيات أرقام (١-٤)). وقد ورد في آيات تالية في نفس السورة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) بل والصحابة كانوا يواظبون على أداء هذه الصلاة في وقتها: "إِنَّ رَبَّكَ

^{٢٧} كلمة تهجد مشتقة من الفعل هَجَّدَ الذي يعني استيقظ ليلاً (المعجم العربي - الإنجليزي للين).

يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ نُتْثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَتُلْتَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ" (سورة المزمل (٧٣): الآية رقم (٢٠)). ورغم ذلك، توصف صلاة التهجد، كما يتبين من الآية رقم (٧٩) في سورة الإسراء (١٧)، بأنها نافلة. وتؤدي بعد منتصف الليل بعد أن يأخذ الفرد قسطاً من النوم.^{٢٨}

القسم السادس - شعائر الصلاة

شكل الصلاة

الكلمة العربية صلاة تعني في الأصل الدعاء وقد استخدمت بهذا المعنى قبل ظهور الإسلام. وفي القرآن، تستخدم الكلمة بمعناها الاصطلاحي وهو عبادة الله التي أرساها الإسلام، وكذلك بمعناها العام. وبمعناها العام، فإنها تشير إلى الدعاء.^{٢٩} وبمعناها الاصطلاحي، تكاد تستخدم الكلمة دائماً مع إحدى الصيغ المشتقة من كلمة إقامة. والفعل أقام معناه أوفى الشيء أو الأمر حقه (المعجم العربي - الإنجليزي للين). ومن ثم، فإن إقامة الصلاة هي إيفاء الصلاة حقها، الذي يتضمن الالتزام بالشكل الخارجي للصلاة كما ينبغي والحفاظ على روحها الحقيقية. فالطهارة قبل الصلاة، والذهاب إلى المسجد، وتحديد أوقات الصلاة، وأخيراً الاستقرار على شكل الصلاة كل هذه أجزاء مكونة للشكل الخارجي الذي بدونه لا يمكن أن تحيا الروح. ولتظل الروح حية، لا بد من وجود شكل خارجي لأن الروح لا يمكن أن تعيش بدون جسد. وهذا ينطبق على الفرائض بقدر ما ينطبق على الحياة. فعلى سبيل المثال، يعتبر الحفاظ على روح القانون والنظام هدف كل حكومة فعالة، ورغم ذلك لا يمكن الحفاظ على هذه الروح دون وجود شكل خارجي. ومن ثم، فإذا كان هدف الدين هو تمكين العبد من السعي لإقامة علاقة بربه والحفاظ عليها، فإن ذلك الهدف لا يمكن أن يتحقق دون وجود شكل لتلك العلاقة. وفي الواقع، فكما سبق أن ذكرنا، فإن الغاية العظيمة للإسلام، وهي وحدة الجنس البشري من خلال الصلاة، لا يمكن بلوغها دون انتظام شكل الصلاة ووحدة شعائرها في شتى أرجاء العالم الإسلامي. ومن ثم، تم تحديد شكل لأداء فريضة الصلاة في الإسلام، بالإضافة إلى منح الفرد حرية الصلاة حسبما تشاء روحه وفي الزمان والمكان الذي يشاء.

^{٢٨} ورد في بعض الأحاديث ذكر نافلة أخرى وهي صلاة الضحى. والضحى هو وقت ما قبل الظهر عندما تكون الشمس مرتفعة في الأفق والصلاة التي تؤدي في هذا الوقت تسمى صلاة الضحى.

^{٢٩} كما جاء في الآية الكريمة التالية: "خُدْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (١٠٣)).

وشأنه شأن مواقيت الصلاة، فإن شكل الصلاة أوحى به للنبي (صلى الله عليه وسلم) روح القدس أو جبريل (عليه السلام).

الحفاظ على روح الصلاة

ورغم ذلك، فإن الشكل الخارجي ليس هو الغاية؛ وإنما هو وسيلة تساعد على بلوغ الغاية المتمثلة في الحفاظ على العلاقة الحقيقية التي يقيمها العبد مع ربه وتطهير نفسه من جميع نوازع الشر. وعلى ذلك، ورد في القرآن أن الهدف من الحفاظ على شكل الصلاة هو تخليص العبد من السيئات: "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ" (سورة هود (١١): الآية رقم (١١٤)). وقطع المخلصون لروح الصلاة هم الذين ورد عنهم أنهم سوف يبلغون مرحلة تزكية النفس أو الفلاح: "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ." (سورة المؤمنون (٢٣): الآيتان رقما (١) و(٢)). ويستتكر في واحدة من أوائل التنزيل الالتزام بالشكل دون الحفاظ على الروح: "قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنِ (روح) صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ" (سورة الماعون (١٠٧): الآيتان رقما (٤) و(٥)). وعلى ذلك، فمن الخطأ أن نعتقد أن الإسلام أوجب فقط الالتزام بالشكل؛ حيث إنه أمر بلا شك بالالتزام بالشكل ولكنه شكل تكمن داخله روح.

أقسام الصلاة

تؤدي الصلاة، كما سبق أن ذكرنا، خمس مرات يومياً وكل صلاة تتكون من قسمين: صلاة الجماعة، التي تسمى فرضاً، وصلاة الفرد التي تسمى سنة. وتتكون كل منها من عدد من الركعات^{٢٠} ينفذ ما بين ركعتين وأربع ركعات. والركعة معناها في الاصطلاح عمل كامل من أعمال العبادة يتضمن القيام، والركوع، والسجود، والقعود بإجلال وتعظيم لله وبذلك فهي تشكل وحدة متضمنة في الصلاة. والترتيب الذي تتخذ به هذه الأوضاع المختلفة ترتيب طبيعي. ولمزيد من التفصيل، يبدأ المصلي بالقيام في إجلال وتعظيم لله ويقول بعض الأدعية؛ ثم يركع ويسبح ربه؛ ثم يعتدل قائماً ويحمد ربه؛ ثم يسجد ويضع جبهته على الأرض ويسبح ربه؛ ثم يجلس في إجلال وتعظيم لله ويقول أحد الأدعية؛ ثم يسجد مرة أخرى. ويتم الانتقال إلى كل وضع^{٢١} بقول عبارة "الله أكبر". وهذا يسمى تكبيراً، أي تعظيماً لله.

^{٢٠} كلمة ركعة مشتقة من الفعل رَكَعَ ومعناه انحنى والركعة في اللغة هي الركوع لله.

^{٢١} تستثنى من ذلك الحالتان المذكورتان أدناه.

ويتكون الفرض الذي يؤديه المصلي جماعةً خلف الإمام من العدد التالي من الركعات:

- | | |
|--------------------|------------|
| ١- صلاة الفجر ... | ركعتان |
| ٢- صلاة الظهر ... | أربع ركعات |
| ٣- صلوات العصر ... | أربع ركعات |
| ٤- صلاة المغرب ... | ثلاث ركعات |
| ٥- صلاة العشاء ... | أربع ركعات |

وتتكون صلوات الفرد التي تسمى سنناً من العدد التالي من الركعات:

- ١- صلاة الفجر، ركعتان قبل صلاة الجماعة.
- ٢- صلاة الظهر، أربع ركعات قبل صلاة الجماعة وركعتان بعدها.
- ٣- صلاة المغرب، ركعتان بعد صلاة الجماعة.

٤- صلاة العشاء، ركعتان بعد صلاة الجماعة تليهما ثلاث ركعات تسمى الوتر. ويعتبر الوتر بالفعل ضمن صلاة التطوع (التهجد) التي تتكون من ركعتين يصليهما الفرد أربع مرات متتالية تليهما ثلاث ركعات.

القيام

تتكون كل ركعة من أربعة أجزاء. أول هذه الأجزاء هو القيام الذي تستفتح به الصلاة. حيث يستقبل المصلي الكعبة المشرفة، وهي المسجد الجامع للمسلمين في العالم، ويرفع يديه بحيث تحاذي أطراف أصابعه أعلى أذنيه ويكبر.^{٣٦} وكدليل على الإجلال والتعظيم لله، الذي يقف المصلي بين يديه، توضع اليد اليمنى على اليسرى على الصدر بحيث يكون رسغ اليمنى فوق رسغ اليسرى. ذلك هو الوضع المفضل لليدين، ولكن يجوز أيضاً وضع اليدين تحت السرة بحيث تكون كف

^{٣٦} يسمى قول نفس الكلمات عند الدخول في الصلاة تكبير/التحريم أو تكبيرة الإحرام. وقد أطلق هذا الاسم بالذات على هذا التكبير لأنه عند قوله يحرم الانتباه إلى أي شيء سوى الصلاة.

اليمنى فوق كف اليسرى. أو يجوز ترك اليدين في وضعهما الطبيعي.^{٣٣} ولكن هذه أمور بسيطة قد يختلف فيها الأفراد حسب أذواقهم. والعامل الأساسي هو وجوب وقوف المصلي في إجلال وتعظيم لله حيث يمتلكه الشعور بأنه واقف أمام القدوس المتكبر. وفي هذا القيام، يحمّد المصلي ربه ويثني عليه ويتوجه إليه بالأدعية ويقرأ أجزاءً معينة من القرآن، كما سنوضح فيما بعد.

الركوع

يلي القيام وضع الركوع، وهو الانحناء. وفي هذا الوضع، ينحني المصلي، أثناء قيامه، ويضع يديه على ركبتيه ويسبح ربه.

السجود

يأتي بعد ذلك وضع السجود، ولكن قبل أن يسجد المصلي، يرفع رأسه من الركوع حتى يستوي قائماً مع إرسال اليدين، ومع اتخاذ هذا الوضع يقول المصلي الكلمات التالية وليس التكبير: "سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ". ويصحّب هذه الكلمات حمد المصلي ربه بالكلمات التالية: "رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ".^{٣٤} وبعد هذا القيام، يسجد المصلي قائلاً "اللهُ أَكْبَرُ". وفي هذا الوضع، يتم تمكين أطراف أصابع القدمين، والركبتين، واليدين، والجبهة من الأرض وبذلك يؤخذ وضع الخشوع والتذلل التام في الوقت الذي يسبح فيه المصلي ربه ويعظمه. ويأخذ المصلي وضع السجود مرتين، وبين السجودتين يرفع رأسه قائلاً كلمات التكبير ثم يأخذ وضع القعود لفترة قصيرة، كما سيذكر في الفقرة التالية.

القعود

يأخذ المصلي وضع القعود بعد كل ركعتين.^{٣٥} وإذا كانت الركعة الأولى في الصلاة، عندئذ يقوم المصلي بعد السجدة الثانية ويصلي الركعة الثانية بالضبط بنفس الأسلوب الذي صلى به الركعة

^{٣٣} وفقاً للإمام أبي حنيفة، توضع اليدين تحت السرة، ووفقاً للإمام الشافعي توضعان على الصدر في حين يروى أن الإمام مالكاً كان يرسل يديه (الهداية. كتاب الصلاة)، ويحذو الشيعة حذوه. ولكن هناك حديثاً يروى فيه عن الإمام مالك أن اليد اليمنى توضع على اليسرى (الموطأ ٨: ٣).

^{٣٤} هذه إحدى الحالات الاستثنائية التي لا يقول فيها المصلي التكبير عند تغيير وضع الجسم، والحالة الأخرى هي ختم الصلاة الذي يتم بالتسليم وليس بالتكبير.

^{٣٥} القعود الخفيف بين السجودتين يسمى جلسة.

الأولى، وبعد ذلك يأخذ وضع القعود. وفي هذا الوضع، تظل القدم اليمنى منتصبَةً، كما في السجود، بحيث تكون أطراف الأصابع ملامسة للأرض في حين تفرش القدم اليسرى بحيث يكون ظهرها ملامساً للأرض وتوضع اليدين مبسوطتين على الركبتين.^{٣٦} ويظل هذا الوضع مستمراً طوال الوقت الذي يقول فيه المصلي الأذكار الواجبة. وإذا كانت الصلاة تتكون من ركعتين، تنهى بهذا الوضع. وإذا كانت تتكون من ثلاث أو أربع ركعات، ينهض المصلي قائماً ويصلي عدد الركعات المطلوب بنفس الطريقة. وآخر وضع تنهى به الصلاة هو، في جميع الحالات، وضع القعود ثم تختم الصلاة بالتسليم، أي قول المصلي "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ".

هل يجوز عدم الالتزام بهذه الأوضاع؟

في هذا الصدد، يمكننا أن نضيف أن الأوضاع الأربعة، أي القيام، والركوع، والسجود، والقعود، هي جميعاً أوضاع ممكنة يستطيع الإنسان أن يأخذها لإبداء الإجلال والتعظيم لله، وفيما يتعلق بالوضع الجسدي للمصلي، فإن الوضع المأخوذ به هو أفضل وضع ممكن ولا يدع أي شيء مرغوب فيه. والأوضاع المختلفة، حتى إن لم تكن مصحوبة بأي أذكار أو حمد لله، وكانت مصحوبة بتأمل وجود الله في صمت، تكفي لإنزال خشية الله الصادقة في قلب المصلي واستحضار صورة عظمة الله وجلاله أمام عينيه أثناء قيامه، وركوعه، ووضع جبهته على الأرض. وتجزئ الشريعة الإسلامية تبديل هذه الأوضاع في حالات معينة؛ فعلى سبيل المثال، عندما يكون الشخص مريضاً، يجوز له أن يصلي قاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنبه وبذلك يعفى حتى من الركوع والسجود إذا لزم الأمر. وكذلك، عندما يكون الرجل على سفر، يجوز له أن يصلي راكباً فرسه أو ناقته (البخاري ١٨: ٧، ١٩)، ورغم أن هذا غير جائز صراحة إلا في حالة النوافل، فإن نفس القاعدة تتبع في حالة الفروض عندما يكون الرجل راكباً القاطرة أو السفينة أو الطائرة، وتتوقف الأوضاع المأخوذ بها في كل هذه الحالات على ما يقتضيه الموقف. بل ويجوز للمسافر عدم استقبال القبلة. ولكن عندما لا تكون هناك ضرورة ملحة، لا يجوز الإخلال بالوضع الذي أمر به النبي (صلى الله عليه وسلم).

وأحياناً يُطرح السؤال عما إذا كانت هذه الأوضاع واجبة وعمّا إذا كان أي تغيير فيها سوف يؤثر، بأي شكل من الأشكال، على أثر الصلاة. فلنفترض أن رجلاً ركع وحني رأسه انحناءً خفيفةً؛ ورجلاً آخر جالساً على كرسي ركع واضعاً جبهته على منضدة أمامه؛ ألن يفني ذلك بالغرض؟ وهناك

^{٣٦} إذا وجد الرجل مشقة في اتخاذ هذا الوضع، يجوز له أن يتخذ أي وضع قعود يتيسر له ويعبر فيه عن إجلاله وتعظيمه لله.

اقتراح آخر بأنه ينبغي عمل ترتيبات في المساجد مشابهة لتلك التي يتم اتخاذها في الكنائس. ولكن هذه بلا شك مقترحات أشخاص لا يرغبون في الاختلاط بإخوانهم الأكثر تواضعاً وتذلاً لله، والخطوة التالية سوف تكون تخصيص مقاعد منفصلة للشخصيات البارزة حتى تتمكن من التعالي على الآخرين حتى في بيت الله. وسوف يترتب على هذا القضاء على الهدف الذي يسعى الإسلام لتحقيقه من خلال فريضة الصلاة - أي خلق روح الخشوع والتذلل لله وإزالة الفوارق بين البشر. فالتجربة الروحية التي يخوضها العبد الذي يضع جبهته على الأرض، كدليل على غاية التذلل لله، تختلف تماماً عن تجربة العبد الذي يصلي جالساً على كرسي؛ لأننا لا يمكن أن ننكر أن كلاً من أوضاع الجسم المختلفة له تأثير مُناظر على النفس، كما أن الإسلام يسعى لإكمال التجربة الروحية للمسلم عن طريق اتخاذ أوضاعاً متتالية تتم عن التذلل لله إجلالاً وتعظيماً له، بحيث ينتقل المسلم من تجربة لأخرى. وما هي، بعد كل ذلك، الفكرة الكامنة وراء كل هذه المقترحات؟ لا شيء سوى أن ذلك الرجل يرى نفسه أعظم من أن يضع جبهته على الأرض أمام خالقه. إن ذلك الرجل لن يكتسب التجربة الروحية المتمثلة في التذلل والخضوع الصادق لله ولن يكون للصلاة أثر عليه.

الذكر

في مقابل أوضاع الخشوع والتذلل العديدة التي يأخذها المصلي عند صلاته، أمر أيضاً بأن يظهر حمده وتسبيحه لله، ويعبر عن صفاته العُلى المتمثلة في المحبة، والرحمة، والمغفرة، وغيرها من صفات الكمال، ويعترف بضعفه أمام خالقه، ويستعين به في ضعفه، ويطلب منه الهداية إلى الطريق المستقيم، والعون على تحقيق غاية وجوده. كل هذه التعبيرات تعرف في العربية باسم الذكر. كما توصف الصلاة في القرآن بأنها "تَكُذِّرُ اللَّهَ".^{٣٧} كما يشار إلى القرآن أيضاً في مواضع كثيرة بأنه "تُذَكِّرُ". ومن ثم، فسواء قرئ شيء من القرآن في الصلاة، أو قيلت كلمات تعبر عن تسبيح الله وعظمته، مما علمه النبي (صلى الله عليه وسلم) لصحابته، فكل هذا يطلق عليه اسم ذكر.

ذكر القيام

يبدأ القيام بالتكبير^{٣٨} أو قول المصلي "اللَّهُ أَكْبَرُ". وما من شيء آخر بالإضافة إلى التكبير يجب قوله لاستفتاح الصلاة. كما أن تلفظ المصلي بنيته أن يصلي عدداً معيناً من الركعات، فرضاً أو سنة،

^{٣٧} سورة العنكبوت (٢٩): الآية رقم (٤٥)؛ سورة الجمعة (٦٢): الآية رقم (٩)؛ سورة المنافقون (٦٣): الآية رقم (٩).

^{٣٨} يسمى تكبير الإحرام.

مستقبلاً القبلة، وما شابه ذلك، كل هذا لا معنى له لأنه لم يرد أثر له في سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) أو في أقوال صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو أتباع الأئمة الأربعة (زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ٥١).

وبين تكبيرة الإحرام وقراءة فاتحة الكتاب، التي تعتبر أهم ركن من أركان الصلاة، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله عدة صيغ لهذا الذكر.^{٣٩} وفيما يلي أكثر الأذكار المعروفة التي كان الخليفة عمر (رضي الله عنه) يقولها^{٤٠}:

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ (أبي داود ٢: ١٢٠)

ويقال هذا الذكر بصوت خفيض لا يسمعه الآخرون. ورغم ذلك، يروي البخاري حديثاً عن أبي هريرة ورد فيه أن النبي (صلى الله عليه وسلم)، كان يقول بعد تكبيرة الإحرام الدعاء التالي:

اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ حَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّى الثَّوْبَ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ اللَّهُمَّ اغْسِلْ حَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ (البخاري ١٠: ٨٠)

ورغم ذلك، وردت في أحاديث أخرى صيغة أخرى لدعاء الاستفتاح فيما يلي نصها:

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ (أبي داود ٢: ١١٩)

كما وردت في السنة أيضاً صيغ أخرى لدعاء الاستفتاح تبين أنه إذا قال المصلي أي دعاء آخر أو تلفظ بأي كلمات أخرى يسبح بها ربه، فإن هذا جائز تماماً.

وتلي الذكر السابق العبارة التالية:

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

^{٣٩} هذا الذكر يسمى نكر الاستفتاح.

^{٤٠} ورد هذا الذكر في أحد الأحاديث بالسنة (زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ٥٢).

والذكر المذكور آنفاً يخص أول ركعة في الصلاة. وتستفتح الصلاة بالفعل بفاتحة الكتاب لأن هذه السورة القصيرة هي التي تقرأ في كل ركعة. وفيما يلي نص سورة الفاتحة، التي سبق لنا استعراض النقاط البارزة التي تتناولها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ ٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧

وفي ختام الآيات سالفه الذكر، يقول المصلي "آمين".^{٤١}

وبعد قراءة الفاتحة، يُقرأ شيء من القرآن،^{٤٢} فد يكون سورة قصيرة أو طويلة أو آية أو أكثر يتم اختيارها من أي سورة أخرى. وتذكر أدناه واحدة من قصار السور، سورة الإخلاص^{٤٣}، التي تشتمل، بآياتها الأربع القصيرة، على عقيدة التوحيد في أكمل صورها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١ اللَّهُ الصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ٤

وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أنه بينما أن الفاتحة ركن من أركان الصلاة ويجب قراءتها في كل ركعة أثناء القيام، فإن المصلي يعفى من إضافة أي جزء آخر من القرآن إليها في حالات معينة، كما في الركعة الثالثة أو الرابعة في حالة صلاة الجماعة. كما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) أيضاً يسكت بوجه عام قليلاً بعد القراءة قبل أن يتخذ الوضع التالي (أي الركوع).

^{٤١} كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يسكت قليلاً بعد قراءة الفاتحة (البخاري ١٠: ٣٩؛ زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ٥٣)؛ وربما كان عليه الصلاة والسلام عند سكوته يتوجه إلى ربه بالدعاء لنفسه أو لأمته.

^{٤٢} تسمى القراءة.

^{٤٣} السورة رقم (١١٢) في القرآن.

^{٤٤} تعلن الآية الأولى وحدانية الله وبذلك تنفي أي شكل من أشكال تعدد الآلهة، كما في عقيدة التثليث المسيحية أو العقيدة الثنوية المجوسية أو عقيدة الشرك الهندوسية. وتعلن الآية الثانية أنه ما من شيء منفصل عن الله وبذلك تنفي عقيدة انفصال المادة عن الروح، وهي عقيدة تعتنقها طائفة هندوسية تم تأسيسها في الأونة الأخيرة، وتسمى طائفة أريا ساماج. والآية الثالثة واضحة جداً؛ ومعناها أن الله لا يمكن أن يوصف بأنه أب لأحد أو أن له ولداً كما يعتقد النصارى أو له بنات كما زعم بعض المشركين. في حين تعلن الآية الرابعة أن الله ليس كمثله شيء، مما ينكر عقائد مثل عقيدة التجسد المسيحية وعقيدة الحلول (ومفادها حلول الله في شخص ما حلولاً مادياً جسدياً)، وهي العقيدة الأساسية التي تستند عليها الديانة البهائية.

نكر الركوع والسجود

ليس هناك سوى اختلاف طفيف بين ذكر السجود وذكر الركوع. ومن الأذكار التالية، يعتبر الذكر الأول هو أكثر أذكار الركوع المعروفة، والثاني أكثر أذكار السجود شيوعاً، في حين أن الثالث يعتبر صيغة بديلة لأي منهما:

(١) سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ (أبي داود ٢: ١٤٩)

(٢) سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى (أبي داود ٢: ١٤٩)

(٣) سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي (أبي داود ٢: ١٤٩)

ويردّد هذا الذكر ثلاث مرات، كما يجوز للمصلي أن يضيف إليه أي دعاء آخر.

ويعتبر السجود، بصفة خاصة، هو أنسب وضع للتوجه بأي دعاء إلى العزيز بأي لغة. وهناك أحاديث ورد فيها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يدعو في السجود بالصيغتين: أي بصيغة التسبيح والتحميد لله وبصيغة الدعاء أو طلب الفضل من الله تعالى (زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ٦٠). وقد وردت في السنة عدة صيغ لهذه الأدعية وكلها تدل على تدفق النفس بالمشاعر عندما تكون في حالة خضوع وتذلل حقيقي لله وهو ما يحتاجه كل مصلي في الحقيقة، ومن ثم، فإنه حر في التعبير عن أي رغبة في نفسه أمام خالقه العظيم بأي طريقة يشاء.

نكر القعود

هناك قعودان في الصلاة، الأول هو الجلسة، وهي عبارة عن جلسة خفيفة بين السجدين. وفيما يلي الدعاء الذي يتوجه به المصلي إلى ربه في هذا الوضع:

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَهْدِنِي وَعَافِنِي وَأَرْزُقْنِي (أبي داود) وَأَجْبِرْنِي وَأَرْفَعْنِي (ابن ماجه)

والقعود الثاني، أي القعدة، يتخذها المصلي بعد ركعتين. ثم يتوجه المصلي إلى ربه بالدعاء التالي الذي يسمى دعاء التشهد:

التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى
عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ (الترمذي ٢: ١٠٠)

وإذا كان هذا قعود التشهد الأوسط في صلاة تتكون من ثلاث أو أربع ركعات، عندئذ ينهض المصلي قائماً بعد قول الذكر السابق، ولكنه إذا كان القعود الأخير، سواء كان في صلاة تتكون من ركعتين أو ثلاث أو أربع ركعات، عندئذ يضاف الذكر التالي الذي يسمى الصلاة على النبي:

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ
مَجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ
مَجِيدٌ (أبي داود ٢: ١٨١)

ثم يضاف الدعاء التالي:

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دَعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ
يُقُومُ الْحِسَابُ

ويجوز للمصلي أن يتوجه إلى ربه بعد هذا الدعاء بأي دعاء آخر يشاء. ويُذكر أدناه دعاء، شامل في مضمونه، ورد في السنة:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ
وَالْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ
عَمَّنْ سِوَاكَ

والذكر الذي يختم به وضع القعود هو التسليم أو قول الكلمات التالية:

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ

ويردد المصلي هذه الكلمات مرتين، ملتفتاً في الأولى بوجهه نحو اليمين وفي الأخرى نحو اليسار.

القنوت

كلمة قُنُوت مشتقة من الفعل قَنَت ومعناه الخشوع في طاعة الله، والقنوت بالفعل هو صلاة الخشوع، ولكنه يعني أيضاً طول القيام في الصلاة. وهناك نوعان من القنوت ورد ذكرهما في السنة. أحدهما دعاء القنوت الذي يتم التوجه به إلى الله عند نزول نازلة ما، كما حدث عندما غدرت قبائل رعل وذكوان وقبائل أخرى يرسل المسلمين الذين أرسلهم النبي (صلى الله عليه وسلم) إليهم وقتلوه (البخاري ١٤ : ٧ ؛ ٥٦ : ١٩). وقد كان دعاءً طلب فيه النبي من ربه أن ينزل عقابه بالظالمين الذين قتلوا الأبرياء وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول هذا الدعاء بعد الرفع من الركوع في صلاة الفجر وصلاتي المغرب والعشاء الجماعة. وبهذه المناسبة، نزل الوحي على النبي (صلى الله عليه وسلم) (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٢٨)) بألا يدعو على قوم، ولكن ظل صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعملون بسنته في القنوت وقت النوازل أو اقتراب نزول خطر بالمسلمين، كما دعا أبو بكر قبل خوض المعركة مع مسيلمة الكذاب (زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ٧٥). وقد كان القنوت في هذه الحالة هو دعاء لله بأن يدرأ عنهم نازلة ما.

ورغم ذلك، فإن أكثر أنواع القنوت المعروفة القنوت في الوتر في الركعة الثالثة. ويستند هذا القنوت إلى حديث روي في السنن ومسنند أحمد وفيما يلي صيغة دعاء القنوت، كما رواه الحسن ابن علي (رضي الله عنهما):

اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ وَبَارِكْ لِي فِيمَا أُعْطِيتَ وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ وَإِنَّهُ لَا يَذُرُّ مَنْ وَالَيْتَ تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ

(زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ٧٠)

وفيما يلي صيغة أخرى لدعاء القنوت:

اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثني عليك الخير ونشكرك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد ونرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك بالكفار ملحق.

الأذكار بعد السلام

لم ترد في أي حديث إشارة إلى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يرفع يديه للدعاء بعد التسليم، كما هو متعارف عليه بين الناس، ولكن هناك بعض الأذكار المستحبة بعد التسليم:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ رَبِّي مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ

اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ

بالإضافة إلى هذه الأدعية، من المستحب أيضاً قراءة الآية رقم (٢٥٥) في سورة البقرة (٢) (آية الكرسي) بالإضافة إلى التسييح والتحميد والتكبير عدة مرات.

الجماعة

كما سبق أن ذكرنا، فإن القسم الأساسي من الصلاة الواجبة والذي يسمى الفرض يؤدي جماعة. وتدل صيغة الأذكار المختلفة التي يقولها المصلون على أن الإسلام ركز بصفة خاصة على صلاة الجماعة. حيث يجب على جميع المسلمين الذين يمكنهم التجمع في نفس المكان، رجالاً ونساءً على حد سواء، أن يتجمعوا في وقت محدد، ويحمدوا الله ويسبحوه، ويتوجهوا إليه بالأدعية جماعةً. ويقف الناس جميعاً جنباً إلى جنب في صف واحد أو في عدة صفوف، حسبما يكون الوضع، وتكون أقدامهم في صف واحد، ويؤم الصلاة شخص يتم اختياره من بينهم ويسمى الإمام ويقف أمامهم جميعاً. ورغم ذلك، فإذا حضرت النساء صلاة الجماعة، يصطففن وحدهن خلف الرجال وبعد انتهاء صلاة الجماعة، لا يجوز للرجال ترك أماكنهم إلا بعد أن تغادر النساء المسجد. وتكون المسافة بين الإمام والصف الأول، أو بين الصفوف العديدة، بما يسمح للمصلين في كل صف بالسجود بحيث تكون رؤوسهم تقريبا عند أقدام الصف الذي أمامهم. وعادة ما تكون هذه المسافة أربعة أقدام. وأقل عدد تتعقد به الجماعة هو اثنان أحدهما يؤم الصلاة والآخر يقتدي به ويقف الاثنان معا على أن يتقدم الإمام قليلاً إلى الأمام، فلنقل ست بوصات، ويقف على اليسار في حين يقف المقتدي على اليمين. وإذا انضم إليهما شخص ثالث أثناء إمامة الصلاة، إما أن يتقدم الإمام

إلى الأمام أو يرجع المقتدي إلى الخلف، بحيث يكون المقتديان صفاً. ويسمى من يقفون خلف الإمام/المقتدين، وهو نظام محكم جداً لدرجة أنه يجب على المقتدين طاعة الإمام، حتى لو أخطأ، رغم أنه يجوز لهم تنبيهه إلى الخطأ بقولهم "سبحان الله". وهذه العبارة تعتبر بمثابة إشارة إلى أن الله وحده هو المنزه عن كل نقص وذلك هو معنى كلمة "سبحانه". ورغم ذلك، فإن رأي الإمام هو العامل الفاصل ويجب على المقتدين رغم ذلك، بعد إعطائه تلك الإشارة، طاعته.

الإقامة

للإعلان عن الاستعداد لأداء صلاة الجماعة، يرفع المؤذن الإقامة بصوت مرتفع، رغم أنه ليس بنفس درجة علو صوته في الأذان. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن الجُمْل التي يرفع بها المؤذن الأذان هي نفس جمل الإقامة، مع الفارق أنه يجوز إفرادها وعدم تثنيها وبعد عبارة "حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ"، يقول المؤذن الجملة التالية مرتين:

"قَدْ قَامَتْ الصَّلَاةُ"

كما أنه ليس أيضاً للعبارة التي تضاف في أذان الفجر مكان في الإقامة، التي يرفعها بوجه عام الشخص الذي يرفع الأذان، رغم أنه في غيابه يجوز لأي من المقتدين رفع الإقامة.

صلاة الجماعة

عند رفع الإقامة، لا يبدأ المقتدون الصلاة إلى أن يستفتحها الإمام بقوله: "اللهُ أَكْبَرُ" جهراً. ويقول الإمام هذه الكلمات، يرفع المصلون جميعاً، مثل الإمام، أيديهم بحيث تصبح أطراف أصابعهم بمحاذاة أذانهم في الوقت الذي يسرون فيه بالتكبير. ثم يقول الإمام والمقتدون، سراً، أحد أذكار الاستفتاح المذكورة آنفاً، وبعد ذلك يجهر الإمام بقراءة الفاتحة ويسكت قليلاً بعد كل آية بحيث يسمح للمقتدين بتريديد كل جملة بتأنٍ أثناء سكوتهم. ورغم ذلك، يرى الحنفية^{٥٠} أن قراءة الإمام تكفي ولا يجب على المقتدين قراءة آيات سورة الفاتحة.

وبعد قراءة الإمام الفاتحة، يقول المصلون "آمِينَ"، إما يجهر بها أو يسرون بها، ويكون صوت الإمام بلا شك هو الأعلى. وبعد ذلك، يجهر الإمام بقراءة شيء من القرآن في حين

^{٥٠} الذين يعتقدون مذهب الإمام أبي حنيفة.

يستمتع المقتدون وينصتون إليه ومن حين لآخر يسبحون ربهم أو يحمّدونه أو يتوجهون إليه بالدعاء حسب موضوع الآيات التي يقرأها. هذا الإجراء يتبع في صلاة الفجر، التي تتكون من ركعتين فرضاً وفي الركعتين الأوليين من صلاتي المغرب والعشاء. وفي الركعتين الأولىين من صلاتي الظهر والعصر، تأخذ الصلاة طابع التأمل أكثر من القراءة، شأنها شأن صلاة الفرد، ويسر الإمام والمقتدون كل على حدة بقراءة الفاتحة وشيء من القرآن. وفي الركعتين الأخيرتين من صلاتي الظهر والعصر وصلاة العشاء وفي آخر ركعة في صلاة المغرب، يسر الإمام والمقتدون كل على حدة بقراءة الفاتحة. ورغم ذلك، يجهر الإمام بجميع تكبيرات الانتقال والتسليم الأخير الذي تختتم به الصلاة في جميع صلوات الجماعة ويجهر أيضاً بالذكر "سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ" الذي يقوله عند الرفع من الركوع في حين يرد عليه المقتدون بقولهم "رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ" سرّاً. ويسر الإمام والمقتدون بأذكار الركوع والسجود والقعود.

سجود السهو

إذا حدث خطأ في الصلاة أو شكّ المصلي في عدد الركعات التي أتمها، يمكنه أن يضيف ما يسمى بسجود السهو عند ختم الصلاة قبل التسليم مباشرة. وسجود السهو عبارة عن سجدتين يسجدهما المصلي مثل السجدة العادية في الصلاة. وإذا أخطأ الإمام خطأ مماثلاً، يسجد هو والمصلون سجود السهو.

المصلون المتأخرون في حضور الجماعة

الشخص الذي يأتي متأخراً وينضم إلى صلاة الجماعة عندما تكون بدأت بالفعل، إذا فاتته ركعة أو أكثر، يجب عليه أن يتم ما عليه من ركعات بعد ختم الإمام الصلاة. وتحسب الركعة عندما يدرك الشخص الركوع رغم أن القيام قد يكون فاتته.

صلاة المسافر

إذا كان الرجل على سفر،^{٤٦} فإنه يقصر من الصلاة. وتسقط عنه السنن جميعاً باستثناء ركعتي سنة الفجر، وتقصر ركعات الفروض في الظهر والعصر والعشاء، التي يبلغ عددها أربعاً، لتصير ركعتين.

^{٤٦} هناك بعض الاختلاف في الرأي بشأن ما إذا كان من الواجب أن تكون هناك مسافة محددة أو وقت محدد للمسيرة. ولكن أفضل حكم على هذا الأمر هو الشخص المعني نفسه. ويستحب أن تكون أقل فترة زمنية يوماً وليلة.

بالإضافة إلى ذلك، يجوز للمسافر الجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء. ولا يسقط عنه أيضاً وتر العشاء. وفي حالة اختيار المسافر ليوم الصلاة، فإنه يقصر في حين أن من لم يكن من المعتدين على سفر يتم ما عليه من ركعات؛ ولكن إذا لم يكن الإمام على سفر، في حين كان بعض أو كل المعتدين على سفر، فإنهم لا يقصرون.

الصلاة في ساحة القتال

يولي القرآن أهمية بالغة إلى إقامة الصلاة لدرجة أنه، حتى عند لقاء العدو، تجب إقامتها. ولكن هذه الصلاة تقصر، وقد ورد في القرآن صراحة وجوب إقامتها: "وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِتَكُمْ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا. وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا سِلْحَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ زُرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ" (سورة النساء (٤): الأيتان رقما (١٠١) و(١٠٢)).

ويتبين لنا من ذلك أنه إذا كان هناك خوف من هجوم العدو، يتم تقسيم المصلين إلى طائفتين، تصلي كل طائفة ركعة مع الإمام في حين يصلي الإمام ركعتين فقط. هذه الصلاة تسمى صلاة الخوف (البخاري ١٢: ١). وإذا اشتد الخوف، يجوز للمصلين أداء الصلاة رجالاً قياماً على أقدامهم أو ركباناً (البخاري ١٢: ٢) كما جاء في قوله تعالى: "فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣٩)). ويشرح البخاري أن هذه صلاة بالإيماء أي بالإيماء بالرأس فقط (البخاري ١٢: ٥).

القسم السابع - صلاة الجمعة

الأمر بصلاة الجمعة على وجه الخصوص

لم يخصص في الإسلام يوم محدد للعبادة، كما أن عدد الصلوات في يوم الجمعة هو نفس عددها في أي يوم آخر، مع فارق أن صلاة الجمعة التي أمر القرآن بإقامتها على وجه الخصوص تحل محل صلاة الظهر. وصلاة الجمعة هي التجمع الأكبر للمسلمين الذي يتجمع فيه سكان منطقة ما، كما يدل عليه اسم اليوم^{٤٧}. ورغم أن جميع الصلوات واجبة بنفس القدر،

^{٤٧} المعنى اللغوي ليوم الجمعة هو اليوم الذي يجمع الناس.

فقد أمر القرآن بإقامة صلاة الجمعة على وجه الخصوص كما أمر المسلمين بأن يتجمعوا فيها سوياً، كما جاء في قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (سورة الجمعة ٦٢): الآية رقم (٩)). ويجوز للمصلي أن يؤدي أي صلاة أخرى منفرداً في ظل ظروف استثنائية، إلا صلاة الجمعة التي تعتبر في الأساس صلاة جماعة. وقد وضع أئمة الخلف شروطاً معينة لإقامة صلاة الجمعة لم ترد في القرآن أو السنة. فيجوز النداء للصلاة، الذي ورد ذكره في القرآن، من أي مسجد سواء كان في قرية أو مدينة أو في حي معين من أحياء المدينة، أو يجوز رفعه، إذا دعا الأمر، من مكان لا يوجد فيه مسجد. وقد خصص البخاري باباً لهذا الموضوع في صحيحه وبوبه كما يلي: "الْجُمُعَةُ فِي الْقَرْيَةِ وَالْمَدِينِ" واستشهد بحالة رزيق الذي كان عاملاً على الأرض والذي أمره ابن شهاب بإقامة صلاة الجمعة على أرضه (البخاري ١١: ١١). ورغم ذلك، من الصحيح أنه قد جرت العادة بالنسبة لجميع المسلمين، في حدود المستطاع، أن يتجمعوا في مسجد جامع لأن الفكرة الأساسية من وراء ذلك هي بالتأكيد تمكين أكبر عدد ممكن من المسلمين من التجمع معاً مرة واحدة في الأسبوع.

التهيؤ لصلاة الجمعة

تستوجب أهمية الحدث وكبير عدد الجمع إعطاء المزيد من الوصايا بشأن النظافة تهيؤاً لأداء صلاة الجمعة. فعلى سبيل المثال، يستحب الاغتسال قبل حضور الصلاة (البخاري ١١: ٢)، والتطيب (البخاري ١١: ٣)، ولبس أحسن الثياب (البخاري ١١: ٧)؛ هذا بالإضافة إلى التسوك (البخاري ١١: ٨). هذه الوصايا تهدف لترسيخ عادات النظافة وعدم تأذي أفراد الجمع الكبير يوم الجمعة بعضهم من بعض بقدر الإمكان.

الخطبة

من السمات الخاصة المميزة لصلاة الجمعة الخطبة^{٤٨} التي يلقيها الإمام قبل إقامة شعائر الصلاة. فبعد أن يتجمع الناس في المسجد، يرفع المؤذن الأذان عند جلوس الإمام على المنبر. وعند انتهاء الأذان، يقف الإمام مستقبلاً المصلين ويلقي الخطبة. ويفتح الإمام الخطبة بكلمة الشهادة^{٤٩}

^{٤٨} معناها اللغوي كلمة.

^{٤٩} أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. وبين كلمة الشهادة وقراءة النص القرآني، يقول الخطيب "أما بعد".

أو بحمد الله وتسبيحه ثم يقرأ نصاً قرآنياً^{٥٠} يفسره للمصلين، الذين يؤمرون بصفة خاصة بالجلوس والإنصات أثناء الخطبة (البخاري ١١: ٢٩). وتلقى الخطبة على جزئين يستريح بينهما الإمام قليلاً بالجلوس في منتصف الخطبة ثم يستأنف الخطبة. ويجوز للإمام أن يتناول في الخطبة أي موضوع متعلق بخير الأمة الإسلامية. فيروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ذات مرة دعا دعاء الاستسقاء أثناء الخطبة بعدما نبهه شخص إلى أن الماشية والناس قد هلكوا بسبب قحوط المطر (البخاري ١١: ٣٥). ووفقاً لحديث آخر، أتى شخص ما النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يخطب وسأله عن دينه فشرح (صلى الله عليه وسلم) له أمور دينه ثم استأنف الخطبة (مسلم ٧: ١٣). وبالنسبة لخطبتي العيدين، ورد صراحة في السنة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يأمر بإرسال الجيش في جهة ما، إذا لزم الأمر، في الخطبة، وكان يعطي أي أوامر أخرى يراها ضرورية بالإضافة إلى المواعظ ذات الطابع العام (زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ١٢٥). كل هذه الحقائق تدل على أن الهدف من الخطبة هو تعليم الناس لإيقاظ الشعور العام بالواجب داخلهم، وتوجيههم إلى ما فيه خير وصلاح الأمة، وتحذيرهم مما فيه خسارتهم أو هلاكهم. ومن ثم، يجب إلقاء الخطبة بلغة يفهمها الناس ولا معنى لإلقائها بالعربية أمام قوم ليسوا ملمين بتلك اللغة. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن الصلاة شيء مختلف تماماً عن الخطبة. فالخطبة تهدف إلى وعظ الناس ونصحهم، وتعريفهم بما يجب عليهم عمله وما يجب عليهم الامتناع عنه في ظل ظروف معينة؛ فالهدف منها، في الواقع، هو إلقاء الضوء على جميع أمور الحياة؛ كما أن فهم خطبة تُلقى بلغة أجنبية يتطلب معرفة واسعة، تكاد تكون وافية، بجميع جوانب تلك اللغة. ليس الأمر كذلك في الصلاة، التي تتكون من عدد من الجمل المحددة والتي يمكن حتى للطفل فهم معناها بالكامل خلال فترة قصيرة. بالإضافة إلى ذلك، فإنه في الصلاة، تعبر الأوضاع المختلفة للجسد في حد ذاتها عن حمد الله وتسبيحه حتى لو كان المصلي لا يفهم معنى الكلمات. ومن ثم، فإنه من المهم للغاية أن يعرف عامة الناس ما يقوله الخطيب في خطبة الجمعة التي تعتبر أفضل وسيلة لتعليم العامة والحفاظ على قوة الأمة الإسلامية ككل.

شعائر صلاة الجمعة

بعد انتهاء الخطبة، ترفع الإقامة وتؤدى صلاة الجماعة من ركعتين يجهر فيهما الإمام بقراءة الفاتحة وشيء من القرآن، كما في صلاة الفجر والمغرب والعشاء. هذه هي الصلاة الواجبة الوحيدة، ولكن ركعتي السنة يصليهما الرجل حين يدخل المسجد؛ وحتى لو أتى متأخراً وكان الإمام قد بدأ بالفعل الخطبة، فإن من يتأخر يجب عليه رغم ذلك أن يصلي هاتين الركعتين (البخاري ١١: ٣٣).

^{٥٠} ورد في صحيح مسلم حديث يروى فيه أن امرأة حفظت عن ظهر قلب سورة ق من قراءة النبي (صلى الله عليه وسلم) لها على المنبر (مسلم ٧: ١٣).

كما تُصلى ركعتا السنة أيضاً بعد انتهاء الصلاة (البخاري ١١ : ٣٩). وليست هناك أي حجة تعزز أداء صلاة الظهر^{٥١} بعد صلاة الجمعة التي، في الواقع، تحل محل صلاة الظهر.

وكما سبق أن ذكرنا، فإنه لا يوجد في الإسلام يوم مخصص للعبادة أو يوم سابع يخصص للتعرف للعبادة. ومن ثم، يتحدث القرآن بوضوح عن البيع والشراء قبل صلاة الجمعة وتركهما فقط لأداء الصلاة، كما يتحدث أيضاً عن البيع والشراء بعد أداء الصلاة: "فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ" (سورة الجمعة (٦٢): الآية رقم (١٠)). ولكن بما أنه يجب تخصيص يوم سابع للراحة من عناء العمل، فإنه يمكن اختيار يوم الجمعة إذا كان الاختيار متروكاً للمسلمين. وعلى أي حال، فإن للمسلمين الحق الديني في حضور صلاة الجمعة حتى في ظل الحكم غير الإسلامي.

القسم الثامن - صلاة العيدين

الأعياد الإسلامية

يوجد في الإسلام عيدان لهما أهمية كبرى حيث أقرهما الدين الإسلامي وتقام بشأنهما صلاة جماعة من ركعتين تليهما خطبة. ومعنى العيد^{٥٢} هو السرور الذي يعود كل سنة. وأول هذين العيدين يسمى عيد الفطر^{٥٣} ويأتي مباشرة بعد شهر الصوم. والعيد الآخر يسمى عيد الأضحى^{٥٤}. وكلا العيدين يرتبط بأداء فريضة معينة: في الحالة الأولى فريضة الصيام وفي الثانية فريضة الأضحية. والهدف من تخصيص يوم للسرور بعد أداء الفريضة هو الدلالة على أن السرور الحقيقي يكمن في أداء الفريضة. ومن ثم، فإنه من السمات المميزة للأعياد الإسلامية أنها تتطوي

^{٥١} ترجع هذه الممارسة إلى الاعتقاد الخاطئ بأن صلاة الجمعة لا يمكن أن تقام إلا في مدينة أو في ظل الحكم الإسلامي. وفي الواقع، فإنه كما سبق أن ذكرنا، يجوز أن تقام صلاة الجمعة في مدينة أو في قرية أو في أي مكان آخر. وكذلك فإن شرط عدم إقامتها إلا في ظل حكم إسلامي لا معنى له. وذلك يرجع إلى أن القرآن والسنة لم يفرضا ذلك القيد على صلاة الجمعة أو على أي صلاة أخرى.

^{٥٢} كلمة عيد مشتقة من كلمة عَوَد ومعناها رجوع.

^{٥٣} كلمة فطر معناها بدء، ومشتقة منها أيضاً كلمة فطرة بمعنى طبيعة. والإفطار هو ترك الصيام كما لو كان الصائم استأنف المجرى الطبيعي للأمر أو لبي نداء الطبيعة، ومن هذا المعنى يبدو أن اسم عيد الفطر قد أخذ لأنه يلي شهر الصيام ويأتي في أول شوال.

^{٥٤} كلمة أضحي هي جمع أضحية وهي الأضحية.

على مغزى روعي عميق. ولكنها تتسم بسمة أخرى أيضاً. ففي الوقت الذي ينعم فيه المسلمون بالفرحة الشديدة، فإنهم يجتمعون في أكبر جمع ممكن ويسجدون أمام خالقهم العظيم شاكرين له على أنه قدّره على أداء الفريضة الواجبة عليهم أو على التضحية. وبذلك، يبرز المغزى الروحي للعبيد في الصلاة التي تعتبر السمة الرئيسية المميزة ليوم العيد.

تجمع المسلمين لأداء صلاة العيد

لا يختلف التهيؤ لصلاة العيد عنه لصلاة الجمعة. حيث يجب على الفرد الاغتسال، ولبس أحسن الثياب، والتطيب، وعمل كل ما في وسعه للظهور في أحسن مظهر. ومن المستحب أن يتجمع المسلمون في العيد في مكان فضاء، ولكن، إذا لزم الأمر، يجوز أداء الصلاة في المسجد. ويستحب إقامتها في مكان فضاء بسبب كبر حجم المصلين الذين قد لا يسعهم المسجد. ولا يرفع الأذان لصلاة العيد وليست هناك إقامة لتسوية الصفوف (البخاري ١٣: ٧).^{٥٥} ورغم أن النساء يشاركن في جميع الصلوات وفي صلاة الجمعة، فإنهن أمرن بصفة خاصة بحضور تجمعات المصلين لأداء صلاة العيد لأنه يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله "يُخْرَجُ الْعَوَاتِقُ وَذَوَاتُ الْخُدُورِ أَوْ الْعَوَاتِقُ ذَوَاتُ الْخُدُورِ وَالْحَيْضُ وَيُشْهَدُنَ الْخَيْرَ وَدَعْوَةُ الْمُؤْمِنِينَ" (البخاري ١٣: ١٥؛ ٦: ٢٣). ووقت صلاة العيد هو أي وقت بعد شروق الشمس وقبل الظهر.

شعائر صلاة العيد

صلاة العيد ركعتان فقط تؤدّيان جماعة. وفي صلاة العيد، يجهر الإمام بقراءة الفاتحة وشيء من القرآن، كما في صلاة الجمعة. وكما سبق أن ذكرنا، فإنه لا أذان ولا إقامة لصلاة العيد، وإنما هناك عدد من التكبيرات بالإضافة إلى التكبيرات التي يكون الهدف منها الدلالة على تغيير وضع الجسم. واستناداً إلى أفضل الثقات، فإن عدد هذه التكبيرات الإضافية سبع في الركعة الأولى وخمس في الثانية قبل قراءة الفاتحة في الركعتين (الترمذي ٥: ٥).^{٥٦} ويجهر الإمام بالتكبيرات

^{٥٥} يعتقد البعض أنه ينبغي الجهر بعبارة "الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ"، ولكن هذه الممارسة لا يوجد ما يدل على أنها تعزى إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) (زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ١٢٤).

^{٥٦} كما ذكرنا آنفاً، فإن عدد التكبيرات الإضافية المذكورة هنا يستند إلى أفضل الثقات. ورغم ذلك، هناك اختلاف في الرأي حول هذه النقطة. ولكن لا ينبغي أن تولى أهمية كبرى إلى هذه الأمور. حيث يقول البعض إن عددها أربع تكبيرات إضافية في الركعة الأولى وثلاث في الركعة الثانية، وفي الحالة الثانية تكون التكبيرات قبل الركوع. ورغم ذلك، فإن الحديث الذي يستند عليه هذا القول غير صحيح (زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ١٢٤).

واحدة وراء الأخرى مع رفع اليدين بحيث تصبح أطراف الأصابع في محاذاة الأذنين ثم إسدال اليدين في وضعهما الطبيعي. ويرفع المقتدون وينزلون أيديهم مثله.

خطبة العيد

تلقي خطبة العيد بعد انتهاء الصلاة. وفيما يتعلق بطريقة إلقائها وموضوعاتها، فإنها مشابهة لخطبة الجمعة، فيما عدا أنه ليس من الواجب تقسيمها إلى جزئين بالجلوس في منتصفها. وقد كانت سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يلقي خطبة على النساء على حدة اللاتي كان يجب عليهن الحضور سواء شاركن في الصلاة أم لا.

صدقة العيد

أثناء الاحتفال بالعيدين، لا يذكر المسلم ربه (بحضور صلاة العيد) فحسب، وإنما أمر أيضاً بأن يذكر إخوانه الفقراء. وقد اقترن بالعيدين فرض صدقة ما. فبمناسبة عيد الفطر، يجب على كل مسلم أن يخرج صدقة الفطر التي يكون قدرها صاعاً من قمح أو شعير أو أرز أو أي طعام أساسي آخر من أطعمة البلد، أو يخرج قيمته عن كل فرد في الأسرة، بما في ذلك الكبار والصغار والذكور والإناث (البخاري ٢٤: ٧٠). ويجب إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد وهي فرض. وشأنها شأن الزكاة، كانت صدقة الفطر فريضة منظمة، كما ورد صراحة في أحد الأحاديث أن هذه الصدقة كانت تجمع من المسلمين ولم يعطوها بأنفسهم إلى السائلين. ووفقاً لحديث آخر، قال أبو هريرة (رضي الله عنه): "وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ" (البخاري ٤٠: ١٠). ولا يعمل المسلمون في يومنا هذا مبدأ جمع صدقة الفطر الذي تم إرساؤه بوضوح في هذه الأحاديث الشريفة، وكانت النتيجة هي إهمال فريضة نافعة من فرائض الإسلام تهدف لإصلاح حال الفقراء والمحتاجين وإهدار مبالغ كبيرة من المال يمكنها زيادة الأموال القومية.

كما يشكل عيد الأضحى أيضاً مناسبة للتصدق. فالتضحية بحيوان في ذلك اليوم (انظر الفقرة القادمة بشأن الأضحية) لا تؤدي فحسب إلى استمتاع أفقر أفراد الأمة بمأدبة طيبة من اللحم، ولكن يمكن زيادة الأموال القومية اللازمة لتحسين أوضاع الفقراء أو لخير الأمة إذا ما خصصت جلود الأضاحي لهذا الغرض. بالإضافة إلى ذلك، فإنه في الأماكن التي يزيد فيها عدد الأضاحي عن حاجة الناس، يجوز حفظ اللحوم الفائضة عن الحاجة وبيعها والانتفاع من عوائد ذلك في

غرض خيري.^{٥٧} وبذلك يتبين لنا أن الإسلام لم يُجزز تبديد الموارد الطبيعية ونظم جميع الصدقات بأسلوب يكفل حسن الانتفاع بها.

بالإضافة إلى هذه الصدقات الواجبة في العيدين، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) ينصح الناس في خطبة العيدين بأن يتصدقوا، كل حسب استطاعته، صدقة تطوع لصالح الأمة؛ وقد ورد أن النساء كن يتبرعن بجليهن في تلك الأوقات (البخاري ١٣ : ٨). وبذلك، يمكن أن يصبح العيدين الإسلاميان مناسبتين لزيادة الأموال القومية والتخفيف من معاناة الفقراء إذا ما اتبع المسلمون وصايا النبي (صلى الله عليه وسلم).

الأضحية

في عيد الأضحى، يضحي كل مسلم حسب استطاعته بحيوان. وفي حالة الماعز أو الشاة، تكفي واحدة لآل البيت الواحد (الترمذي ١٨ : ٨). وفي حالة البقرة أو البدنة، يجوز أن يشترك سبعة رجال فيها (الترمذي ١٨ : ٧). ويذبح الحيوان بعد صلاة العيد. ويجوز ذبحه يوم العيد أو خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التالية، التي تسمى أيام التشريق، وهو الوقت الذي يتوقف فيه الحجاج في منى (مشكاة المصابيح ٤ : ٩٤-٣). ويفضل فترة اليومين^{٥٨} لأنه يجوز للحجاج الرحيل بعد يومين. ويجب أن تكون الأضحية خالية من أي عيب جسدي ظاهر وأن تكون مسنة. فعلى سبيل المثال، يشترط أن تكون سن الماعز أو الشاة على الأقل سنة والبقرة سنتين، والإبل خمس سنوات (الهداية، باب الأضحية). وعن لحم الأضاحي، قال تعالى في كتابه العزيز: "فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ" (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٣٦)). ولا بأس من تجفيف اللحم وبيعه والانتفاع بعائد ذلك في إطعام المساكين. وقد تم نفي الفكرة القائلة بأنه لا يجوز تخزين أو أكل لحم الأضاحي لفترة تزيد عن ثلاثة أيام بقول النبي (صلى الله عليه وسلم)، الذي يرويه عنه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "كُنَّا لَا نَأْكُلُ مِنْ لُحُومِ بُدْنِنَا فَوْقَ ثَلَاثِ مِئَةِ فَرَخَصَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ كُلُوا وَتَرَوْنَا فَأَكَلْنَا وَتَرَوْنَا" (البخاري ٢٥ : ١٢٤). وإعطاء الثلث أو أكثر أو أقل للفقراء مسألة اختيارية بحتة. فلم توضع قواعد صارمة وثابتة تنظم ذلك. ورغم ذلك، يجب التصديق بجلد الحيوان (البخاري ٢٥ : ١٢١).

^{٥٧} من المؤسف أن اللحم الزائد عن حاجة المضحي في مكة يدفن في الأرض بدلاً من استخدامه في أي غرض مفيد.

^{٥٨} "فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٠٣)).

هل يجوز أن تحل الصدقة محل الأضحية؟

بالنسبة لعقل الشخص العادي، يبدو أن الفكرة الكامنة وراء الأضحية ليست أكثر من أنها صدقة، وكثيراً ما يطرح السؤال التالي: ألا يجوز للمسلم أن يتصدق بثمن الحيوان بدلاً من التضحية به؟ ويأتي الرد على هذا السؤال، في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية، بالنفي. فالهدف من الأضحية التي يذبحها المسلمون في شتى أرجاء الأرض يوم العيد هو التأليف بين قلوب المسلمين، في شتى ربوع الأرض، وقلوب الجمع الذي لا نظير له في مكة المكرمة، مركز الإسلام. حيث يتجمع هناك ملايين الأشخاص من شتى ربوع الأرض، أشخاص ضحوا بجميع متع الحياة لا لأي غرض سوى دعم فكرة التضحية، وهي تضحية خالية من أي مآرب بشكل يفوق الوصف، لأنه ليس هناك غرض شخصي أو حتى قومي من ورائها، وإنما هي تضحية في سبيل الله وحده دون غيره. ومهما كانت تلك الفكرة رائعة، فإنها تكتسب المزيد من الروعة من أن الأشخاص الذين لم يتمكنوا من تقديم تلك التضحية بالفعل يشتركون في نفس الرغبة ويبدون استعدادهم لتقديم نفس التضحية بالقيام بعمل ظاهري يتمثل في التضحية بحيوان، وهي آخر عمل يؤدي في فريضة الحج. حيث تحرك قلوب العالم الإسلامي كله في شتى ربوع الأرض نفس الرغبة في نفس اللحظة وهذا ما تتيحه فقط فريضة الأضحية التي يمكن للأمي والمتعلم على حد سواء قراءة حروفها الحمراء. أما أن هذه الفريضة تخدم أيضاً غاية الصدقة فذلك أمر مختلف تماماً. فرغم أن الإسلام لم يجز للأثرياء نسيان إخوانهم الفقراء في ساعة فرحتهم في العيد، فإن الصدقة ليست هي مغزى التضحية بحيوان بمناسبة العيد أو الحج ومن ثم لا يمكن أن تحل مجرد الصدقة محل الأضحية.

مغزى التضحية بحيوان يوم العيد

أوضح القرآن أن التضحية ليست مجرد ذبح حيوان أو أكل لحمه: **لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٣٧)). ورغم ذلك، يذكر مغزى التضحية بحيوان يوم العيد بمزيد من الإيضاح في آية أخرى: **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ**. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ" (سورة الحج (٢٢): الآيتان رقم (٣٤) و(٣٥)). وعلى ذلك، ترتبط التضحية بحيوان، إلى حد ما، بالتقوى، والاستسلام لله الواحد، وخشوع القلب، والصبر على المصائب؛ كما يُنظر إلى التضحية بحيوان بوضوح على أنها تؤثر في القلب وتجعله يوجل عند ذكر اسم الله. وتجربنا الآيتان الكريمتان أن ذكرهم لاسم الله ليس بلا مغزى، وإنما المغزى الكامن وراءه هو أن قلوبهم تهتز عند ذكر ذلك الاسم. فالتضحية بحيوان وإراقة دمه لا تخلق داخلهم مشاعر القسوة

وإنما تخلق في قلوبهم الخشوع لأنهم يدركون أنهم إن كانوا قد ضحوا بحيوان يسيطرون عليه، فإن من واجبهم التضحية بأنفسهم في سبيل الله الذي ليس سيدهم فحسب وإنما هو أيضاً خالقهم ورازقهم ومن ثم فهو يسيطر عليهم أكثر من سيطرتهم على الحيوانات. ومن ثم، وردت بين الآيات التي تتحدث عن التضحية آية كريمة تأمر المؤمنين بالصبر على المحن والشدائد في سبيل الله. وعلى ذلك، يلقي القرآن، من خلال تضحية بحيوان، من يتبعونه درس التضحية بأنفسهم في سبيل الحق؛ ورغم ذلك، يصبح الدرس أكثر وضوحاً عندما يأتي مباشرة بعد القسم الذي يدور حول الأضحية، والذي استشهدنا بآياته أعلاه، قَسَمَ يُؤْمَرُ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ بِالتَّضْحِيَةِ بِأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ، وَفِيمَا يَلِي نَصَ أَوَّلِ آيَةِ فِي ذَلِكَ الْقَسَمِ: «أَنْ لِلَّذِينَ يُفَاتِلُونَ بِأَنْفُسِهِمْ ظُلْمًا» (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٣٩)).

وبذلك، يتضح لنا أن الإسلام أكسب مبدأ التضحية معنىً جديداً. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن جميع أمم العالم أقرت مبدأ التضحية بشكل أو بآخر. وشأنه شأن جميع المبادئ الدينية الأخرى المعترف بها بوجه عام، اكتسب مبدأ التضحية معنىً أعمق في الإسلام. فرغم أن العمل الظاهري لم يتغير منذ قديم الزمان، فإنه لم يعد ينقل المعنى الذي ارتبط به في بعض الأديان القديمة، أي إرضاء إله غاضب أو التكفير عن خطيئة. وفي الإسلام، يدل مبدأ التضحية على تضحية المضحي بنفسه وبذلك تصبح رمزاً ظاهراً لاستعداده للتضحية بنفسه وبجميع مصالحه ورغباته في سبيل الحق. والحيوان الذي يضحي به يرمز في الحقيقة إلى الحيوان الموجود داخله. ويتم اختيار نفس اليوم ولحظة معينة في ذلك اليوم حتى تنبض قلوب جميع المسلمين في شتى ربوع الأرض بنفس الفكرة في لحظة معينة مما يؤدي بدوره إلى دعم فكرة التضحية بالنفس في الأمة الإسلامية بأسرها.

القسم التاسع - صلاة الجنائز

التهيؤ للصلاة

تقام صلاة على جثمان الميت المسلم، صغيراً كان أم كبيراً، بل وحتى الرضع الذين لم يعيشوا سوى بضع دقائق أو ثوان. تسمى هذه الصلاة صلاة الجنائز.^{٥٩} وعندما يموت الشخص، يُغسل بدنه بالماء والصابون أو أي مطهر آخر وتُزال عن بدنه جميع النجاسات التي قد يكون سببها المرض.

^{٥٩} كلمة جَنَائِز هي جمع جَنَازَة أو جَنَازَة وهي الميت الذي يوضع على النعش أو هي النعش، والكلمة مشتقة من الفعل جَنَزَ ومعناه ستر أو أخفى (الشيء). ووفقاً لبعض علماء اللغة، الجَنَازَة هي النعش والجَنَازَة هي الميت أو العكس (المعجم العربي - الإنجليزي للين).

وعند غسل بدن الميت، يبدأ بمواضع الوضوء ثم يغسل البدن كله (البخاري ٢٣: ٨، ٩، ١١). ثم يلف في لفافة بيضاء أو أكثر (البخاري ٢٣: ١٩، ٢٠، ٢٧) ويطيّب أيضاً (البخاري ٢٣: ٢١). وفي حالة الشهداء أو القتلى في المعارك، لا يغسل البدن ولا يكفن في ثوب أبيض (البخاري ٢٣: ٧٣). ثم يوضع بدن الميت على نعش أو، إذا لزم الأمر، في تابوت ويحمل على الأكتاف، كعلامة على الاحترام، إلى مثواه الأخير، رغم أن حمل الميت بأي وسيلة أخرى غير منهي عنه.^{٦٠} وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قام عندما رأى جنازة يهودي تمر. وقد قام (صلى الله عليه وسلم) لإبداء احترامه للموتى وأمر أتباعه بالقيام كعلامة على احترام الموتى عندما تمر بهم جنازة أي شخص، مسلماً كان أم غير مسلم (البخاري ٢٣: ٥٠).

شعائر صلاة الجنائز

يعتبر اتباع الجنازة إلى القبر والمشاركة في الصلاة على الميت حقاً للمسلم على أخيه المسلم وكذلك أيضاً زيارة المريض (البخاري ٢٣: ٢). والمشاركة في الصلاة على الميت يطلق عليها اصطلاحاً لفظ فرض كفاية، أي أنه عندما يشارك فيها بعض المسلمين تسقط عن البعض الآخر. ولم يُنه عن اتباع النساء الجنازة، رغم أن وجودهن غير مرغوب فيه، إذ قد يَتهرن لكونهن أكثر تأثراً ورقّة من الرجال. وتجاوز إقامة صلاة الجنازة في أي مكان، في المسجد أو في مكان فضاء أو حتى في المدفن إذا كانت فيه مساحة كافية. وكل من يشارك في الصلاة يجب عليهم الوضوء. ويوضع النعش في الأمام؛ ويقوم الإمام وسط النعش سواء كان الميت رجلاً أم امرأة (البخاري ٢٣: ٦٤)^{٦١} ويصطف الناس في صفوف، حسب عدد المصلين، مستقبليين القبلة. والممارسة الشائعة لدى عموم الناس هي الاصطفاف في ثلاثة صفوف على الأقل، ولكن الإمام البخاري له رأي صريح مفاده أنه يجوز أن يكون هناك صفان أو ثلاثة أو أكثر (البخاري ٢٣: ٥٤). وإذا كان عدد الناس صغيراً جداً، لا بأس من اصطفاهم في صف واحد فقط. وتستفتح الصلاة بالتكبير الذي ترفع اليدين عند قوله، وتوضعان في نفس وضعهما في الصلاة. ويكبر الإمام أربع تكبيرات جهراً (البخاري ٢٣: ٦٥). وبعد تكبيرة الإحرام، يقول الإمام والمقتدون سراً نفس ذكر التثاء على الله وتسيحه، كما في أول ركعة في الصلاة اليومية، ثم يسرون بقراءة فاتحة الكتاب، ولكن دون إضافة أي شيء من القرآن (البخاري ٢٣: ٦٦). ثم يقول الإمام والمقتدون التكبيرة الثانية دون رفع اليدين إلى الأذنين، ثم يقال الذكر الذي يسمى الصلاة على النبي سراً، كما في

^{٦٠} هناك اختلاف في الرأي حول مشروعية قيادة العربية أو الركوب عند اتباع الجنازة (أبي داود ٢٠: ٤٥، ٤٦). ولكن إذا حمل الميت نفسه على عربية، فلا بأس من قيادة عربية عند اتباعه أو عندما يكون هناك مبرر قوي لذلك.

^{٦١} وفقاً لأحد الأحاديث، قام أنس بن مالك، عندما كان يؤم صلاة الجنازة، وسط النعش في حالة المرأة وقام عند رأس الرجل وعندما سئل عن ذلك قال إن تلك هي سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) (أبي داود ٢٠: ٥٤).

وضع القعود. وبعد التكبيرة الثالثة، يتم الاستغفار للميت. وتروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) عدة صيغ لهذا الدعاء ويبدو أن الدعاء بأي صيغة جائز. وفيما يلي أكثر صيغ الدعاء للميت شيوعاً:

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَبِيبِنَا وَمَيِّتِنَا وَشَاهِدِنَا وَعَائِنَا وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا وَذَكَرِنَا وَأُنثَانَا

اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ

اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ وَلَا تَقْتَبِنَا بَعْدَهُ (مشكاة المصابيح ٥ : ٥-٢)

وفيما يلي صيغة أخرى للدعاء للميت:

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مَدْخَلَهُ وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالتَّلْحِجِ وَالتَّبَرِدِ وَنَقِّهِ مِنْ خَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ (مسلم ١١ : ٢٧)

وبعد التكبيرة الرابعة، يجهر الإمام بالتسليم، كما عند ختم الصلاة. وتجوز إقامة صلاة مماثلة على الميت الغائب. فقد أقام النبي (صلى الله عليه وسلم) صلاة الجنازة في المدينة المنورة عندما بلغه نبأ موت النجاشي، ملك الحبشة (البخاري ٢٣ : ٤). وعندما تختم الصلاة، يحمل نعش إلى القبر ويدفن الميت. ويحفر القبر بحيث يتم توجيه الميت جهة مكة. ويتراوح عمق القبر بوجه عام ما بين أربعة إلى ستة أقدام ويحفر في جانب القبر شق طولي يوضع فيه الميت. ويسمى هذا الشق للحد. ويوضع بدن الميت في الحد جهة القبلة. ويروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) عند دفن الميت في القبر قوله:

بِاسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ (الترمذي ١٠ : ٥٣)

ثم يُردم القبر بالتراب ويتم الدعاء مرة أخرى للميت ثم ينصرف الناس (أبي داود ٢٠ : ٧٠). وتكون صلاة الجنازة على الطفل^{٦٦} شبيهة بالصلاة على من وصل سن البلوغ، إلا أن الدعاء بعد التكبيرة الثالثة يكون مختلفاً:

اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ لَنَا قَرِطًا وَسَلَفًا وَدُخْرًا^{٦٧} وَأَجْرًا (البخاري ٢٣ : ٦٦)

^{٦٦} تقام صلاة الجنازة على الطفل الذي يولد حياً ثم يموت؛ ورغم ذلك، وفقاً لأحد الأحاديث، يجوز إقامة صلاة الجنازة أيضاً على السقط، أي الطفل الذي ينزل من بطن أمه قبل اكتمال مدة الحمل، ولكنه يكون قد تكوّن.

^{٦٧} لم ترد في صحيح البخاري عبارة "دُخْرًا".

وبذلك، يتضح لنا أن صلاة الجنائز على الأطفال ليست دعاء استغفار لهم وإنما دعاء بأن يكون الأطفال السابقون وسيلة للثواب والجزاء بالنسبة لأبويهم. فقد وردت أحاديث أخرى يروى فيها دخول من يبئلى بموت صغاره الجنة: "مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَالِدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْتَ كَانَ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ" (البخاري ٢٣: ٩٢). وفي عنوان هذا الباب في صحيحه، يقصر البخاري هذا على أولاد المسلمين (رغم أنه لم يرد في الحديث نفسه ما يفيد ذلك) ثم يضيف حديثاً طويلاً يروى فيه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) رأى في رؤيا "أولاد الناس"، أي المسلمين وغير المسلمين، ملتقين حول نبي الله إبراهيم (عليه السلام) (البخاري ٢٣: ٩٣). ويشرح نص الحديث الأخير في صيغة أخرى منه: "وَأَمَّا الْوَالِدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ (أي إبراهيم عليه السلام) فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ (أي على الحالة التي ولد عليها، وهذه توصف صراحة بأنها فطرة الإسلام) (أو قبل وصولهم لسن البلوغ) قَالَ فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ" (البخاري ٩٢: ٤٨). وعلى ذلك، يدخل جميع الولدان الجنة؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن موت الصغار مصيبة تصير وسيلة لإدخال العبد الجنة ربما لأنها تحدث تحولاً في قلوب الوالدين.

القرآن أمر بالصبر على المصائب

وفي هذا الصدد، يمكننا أيضاً أن نضيف أن الإسلام نهى عن الاستسلام للحزن المبالغ فيه على الموتى. وأمر بالصبر على المصائب، كما قال تعالى في كتابه العزيز: "وَلْتَبْلُوْكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ." (سورة البقرة ٢): الأيتان رقما (١٥٥) و(١٥٦)). فعند سماع نبأ موت قريب أو صديق أو أي مصيبة أخرى، يؤمر المسلم بأن يقول "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ". حيث إن هذه الكلمات تبعث على سلوى وراحة لا حدود لها عندما ينزل بالمسلم مصاب. إن لله ما أخذ؛ وإنا لله وإنا إليه راجعون. ومن ثم، ينهى في الإسلام عن الاستسلام للحداد المستمر أو الحزن المبالغ فيه. وعند زيارة القبور، من المستحب قول الدعاء التالي:

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَاقِبَةَ (مسلم ١٢: ٣٦)

وقد ورد هذا الدعاء كثيراً في عدة أحاديث مع تعديلات طفيفة فيه.

وقد ظهر كثير من البدع حول الأعمال التي تنفع الميت. فلم يرد في أي من الأحاديث الشريفة أنه ينفع الميت توزيع الصدقات عند القبر أو قراءة القرآن عند القبر أو في أي مكان آخر. وإنما وردت أحاديث يروى فيها قراءة القرآن على الميت (أبي داود ٢٠: ٢١)؛ ولكن لم يرد قط قراءة القرآن على جثمان الميت أو عند القبر. كما أنه لم ترد أيضاً أي إشارة إلى قراءة الفاتحة أو قول دعاء للميت عندما يذهب الناس إلى أقارب الميت لتعزيتهم. ورغم ذلك، يروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يدعو للموتى عند زيارة قبورهم كما أن الاستغفار للموتى غير منهي عنه. بالإضافة إلى ذلك، فإن إعداد الطعام في اليوم الثالث أو العاشر أو الأربعين بعد الوفاة يعتبر بدعة. حيث إنه لم يرد ذكر ذلك في أي من الأحاديث النبوية. وإنما، بدلاً من قيام أهل الميت بإعداد الطعام للأخريين، يستحب قيام الآخرين بإعداد الطعام وإرساله إلى أهل الميت (البخاري ٧٠: ٢٤؛ أبي داود ٢٠: ٢٧). ورغم ذلك، يجوز التصدق عن الميت، وعمل أعمال الخير هو الشيء الوحيد المباح بالنيابة عنه. ويروى في أحد الأحاديث "أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ أُمَّيْ افْتَلَتَتْ نَفْسَهَا وَأَطْنُهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ تَصَدَّقْتُ فَهَلْ لَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟". ويروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) رد عليه بالإيجاب (البخاري ٢٣: ٩٥). وفي حديث آخر، يروى أن سعد بن عبادة (رضي الله عنه) سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عما إذا كان ينفع أمه التي توفيت وهو غائب أن يتصدق عنها فرد عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذه الحالة أيضاً بالإيجاب (البخاري ٥٥: ١٥).

القسم العاشر - صلاة التهجد وصلاة التراويح

صلاة التهجد نافلة

كلمة تهجد مشتقة من الهجود وهو النوم والمعنى اللغوي لكلمة تهجد هو التيقظ (المفردات في غريب القرآن). وقد أطلق هذا الاسم على صلاة التهجد لأنها تؤدى بعد أن ينام المرء بعض الوقت ثم يستيقظ بعد ذلك لأداء الصلاة. وقد خصها القرآن بالذكر، بل وأمر بأدائها في أوائل ما نزل من السور، إلا أنه قد ورد صراحة أنها نافلة. وفي هذا الصدد، يجدر بنا أن نذكر الآيات التالية:

"يَا أَيُّهَا الْمُرْمِلُ. فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا. إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا." (سورة المزمل (٧٣): الآيات أرقام (١-٦)).

"إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ" (سورة المزمل (٧٣): الآية رقم (٢٠)).

"وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٧٩)).

تهجد النبي (ص)

كما يوضح الاقتباس سالف الذكر المأخوذ من سورة المزمل (٧٣)، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقوم نصف الليل أو حتى ثلثيه. وكانت سنته عليه الصلاة والسلام أن يذهب للنوم بعد صلاة العشاء على الفور ثم يستيقظ بوجه عام بعد منتصف الليل ويقضي تقريباً كل النصف الأخير من الليل في صلاة التهجد وكان أحياناً يغفو لفترة قصيرة مما يسمح له بأن يأخذ قسطاً من الراحة قبل صلاة الفجر. وقد ظل النبي (صلى الله عليه وسلم) يداوم على هذه السنة حتى آخر حياته. ورغم أنه في صلاة الجماعة تكون قراءة القرآن بوجه عام قصيرة لأنه يكون من بين المصلين الأطفال، والنساء، والشيوخ، فإن القراءة في صلاة التهجد بوجه عام طويلة ويروى في الأحاديث الشريفة أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يقوم ويقرأ القرآن فترة طويلة لدرجة أن قدميه كانتا تتورمان^{٦٤} (البخاري ١٩: ٦).

شعائر صلاة التهجد

صلاة التهجد ثماني ركعات تصلى ركعتين ركعتين تليها ثلاث ركعات الوتر. وللتيسير على عامة الناس، جعلت صلاة الوتر، التي تعتبر بالفعل جزءاً من صلاة التهجد، ضمن صلاة التطوع في العشاء، ومن ثم إذا أديت صلاة الوتر مع العشاء، يكون عدد ركعات صلاة التهجد ثماني ركعات فقط. ولكن إذا لم يكن هناك متسع من الوقت، يجوز للشخص أن يتوقف بعد أي ركعتين (البخاري ١٩: ١٠). وقد أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) بصفة خاصة على صلاة التهجد في شهر رمضان، وصلاة التهجد هي التي أخذت في نهاية الأمر شكل صلاة التراويح في ذلك الشهر.

^{٦٤} إنه حقاً لتشويه الحقائق أن يوصف ذلك الرجل بأنه شهواني فقط لأنه أوى أرامل في بيته وأعطاهن شرف مشاركته الحياة الزوجية. فالرجل الذي كان يقوم نصف بل ثلثي الليل وكان يعمل بجد وكد طوال النهار لخير الأمة الإسلامية بأسرها لا يمكن أن يكون لديه وقت لإشباع رغباته. كما أنه من الجدير بالذكر أيضاً أن الشيء الوحيد الذي كان يوقظه هو قراءة القرآن أو تسبيح الله تعالى، ولا يمكننا أن نجد من الكلمات ما يعبر عن عمق حبه لله وحبه لكلمة الله عندما نضع في الاعتبار أن المغريات وحدها هي التي يمكن أن توقظ أي رجل طوال الليل وتمكنه من التغلب على النوم.

ويروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله إن من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غفرت له ذنوبه (البخاري ٢: ٢٧)؛ ووردت أحاديث أخرى يروى فيها أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يوقظ زوجته لأداء الصلاة (البخاري ١٤: ٣). كما يروى أيضاً أنه (صلى الله عليه وسلم) ذهب إلى بيت ابنته فاطمة ذات ليلة ليوقظها هي وزوجها علياً (رضي الله عنهما) لأداء صلاة التهجد (البخاري ١٩: ٥). ونظراً لتشديد النبي (صلى الله عليه وسلم) على هذه الصلاة وأوامر القرآن التي تم الاستشهاد بها أعلاه، كان صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متشددين في صلاة التهجد، رغم أنهم كانوا يعلمون أنها ليست فرضاً وكان بعضهم يأتي المسجد في الجزء الأخير من الليل لأداء صلاة التهجد. ويروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كانت له غرفة صغيرة في المسجد مجهزة بسجادة ومخصصة كخلوة يؤدي فيها صلاة التهجد في شهر رمضان، وذات ليلة عندما استيقظ ليؤدي صلاة التهجد، رآه بعض الذين كانوا في المسجد واتبعوه في الصلاة وبذلك كونوا جماعة. وفي الليلة التالية، ازداد عدد المصلين وأخذت أعدادهم في التزايد في الليلة الثالثة. وفي الليلة الرابعة، لم يخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) خشية أن تفرض عليهم، ومن المستحب أداء صلاة التهجد في البيت (البخاري ١٠: ٨٠، ٨١). وعلى ذلك، ظلت صلاة التهجد، باستثناء هذه الأيام الثلاثة، صلاة فردية طوال حياة النبي (صلى الله عليه وسلم)، وفي خلافة أبي بكر، وفي أوائل خلافة عمر (البخاري ٣١: ١). ولكن فيما بعد، أدخل عمر تغييراً أصبحت بموجبه هذه الصلاة صلاة جماعة تؤدي في الجزء الأول من الليل بعد صلاة العشاء. ويروى عن عمر نفسه قوله إنها بدعة، رغم أن الجزء الأخير من الليل الذي ينام فيه الناس مفضل عن الجزء الأول الذي يؤدي فيه هذه الصلاة (البخاري ٣١: ١). ومما لا يدع مجالاً للشك، فإنه استمد هذا الاقتراح تأسيماً بالنبي (صلى الله عليه وسلم) الذي أدى صلاة التهجد ثلاث ليالٍ جماعة وأجاز أن تؤدي صلاة الوتر، التي تعتبر أيضاً ضمن التهجد، بعد صلاة العشاء. ورغم أنه بالنسبة للشخص العادي يُعد التغيير الذي أدخله عمر مستحباً، فإنه في شهر الصوم (رمضان) يفضل أداء صلاة التهجد في الجزء الأخير من الليل كصلاة فردية.

صلاة التراويح

كلمة تراويح هي جمع ترويحة المشتقة من كلمة راحة. ويبدو أن اسم التراويح أطلق على هذه الصلاة لأن المصلين يأخذون فيها استراحة قصيرة بعد كل ركعتين. والممارسة المتبعة حالياً هي ختم القرآن كله في صلاة التراويح في شهر رمضان. ولكن ختمه في ليلة واحدة يتعارض مع أوامر النبي (صلى الله عليه وسلم) الصريحة (البخاري ٣٠: ٥٨). ويبدو أن عدد ركعات صلاة التراويح كان في البداية إحدى عشرة ركعة، وهو بالضبط نفس عدد ركعات صلاة التهجد (بما في

ذلك، بالطبع، ثلاث ركعات وتر). وقد روي أن عمر أمر في البداية بإحدى عشرة ركعة، ولكن بعد ذلك يبدو أن عدد الركعات ازداد ليصل إلى عشرين ركعة في صلاة التراويح وثلاث ركعات وتر وبذلك أصبح الآن إجمالي الركعات ثلاثاً وعشرين ركعة.^{٦٥} وقد تم الإبقاء على هذه الممارسة بوجه عام في شتى أرجاء العالم الإسلامي، ويستثنى من ذلك أهل الحديث والأحمدية. ومن المعتاد بالنسبة للإمام أن يختم القرآن في صلاة التراويح طوال شهر الصوم، سواء أكان عدد الركعات ثمانين أم عشرين.

القسم الحادي عشر - صلوات أخرى

صلاة الاستسقاء

يروى أنه ذات مرة، عندما طالبت مدة القحط الذي حل بالبلاذ، طلب شخص من النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يلقي خطبة الجمعة في المسجد أن يدعو الله أن يسقيهم لأن الرجال والماشية قد هلكت، واستجابةً له رفع النبي (صلى الله عليه وسلم) يديه ودعا الله أن يسقيهم (البخاري ١١ : ٣٥). وبالمثل، يروى عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه دعا ربه وقت كثرة المطر (البخاري ١١ : ٣٥). وفي مرة أخرى، رغم ذلك، يروى أنه (صلى الله عليه وسلم) خرج في الخلاء مع الجماعة ودعا الله أن يسقيهم ثم صلى ركعتين جماعةً جاهرًا فيهما بقراءة الفاتحة، كما في صلاة الجمعة (البخاري ١٥ : ١، ١٦).^{٦٦}

صلاة الكسوف

أقام النبي صلاة من ركعتين أثناء كسوف الشمس. وقد حدث هذا الكسوف يوم موت إبراهيم، وُدد النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي كان يبلغ من العمر ثمانية عشر شهرًا. وتختلف هذه الصلاة عن الصلاة العادية في أنه يوجد فيها قيامان وركوعان في كل ركعة.^{٦٧} كما ورد أيضاً أنه قد

^{٦٥} موطأ مالك - الترغيب في الصلاة في رمضان.

^{٦٦} يروى في أحد الأحاديث أن النبي (صلى الله عليه وسلم)، قبل الصلاة، حوّل رداءه (رداء فضفاض يوضع على الكتفين). ورغم ذلك، يبدو أن هذا غير مقصود أو ربما كان مجرد إجراء احتياطي خشية أن يسقط الرداء عن كتفيه عند رفع يديه (فتح الباري، الجزء الثاني، ص. ١٤٤، ١٥٠).

^{٦٧} بعد القيام الأول، هناك ركوع كما في الصلاة العادية رغم أنه ركوع أطول يليه قيام ثانٍ يقرأ فيه شيء من القرآن؛ يليه ركوع ثانٍ بعد الرفع منه يسجد المصلي كما في الصلاة العادية؛ ويجهر فيها بالقراءة، كما في صلاة الجمعة والعديد (البخاري ١٨ : ٢، ١٩).

أُقيمت خطبة بعد الصلاة (البخاري ١٦ : ٤). وفي هذه الخطبة، أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) بصفة خاصة إلى موت إبراهيم وذلك في الوقت الذي أمر فيه بالتصدق واستغفر ربه. فعندما رأى الناس الشمس تكسف، بدأوا يقولون في أنفسهم إن هذا بسبب موت إبراهيم. إلا أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) دحض هذه الفكرة في خطبته قائلاً "إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ" (البخاري ١٦ : ١٣). هذه هي المرة الوحيدة التي أدى فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) صلاة الكسوف (زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ١٢٩).

الفصل الثاني

الزكاة

الزكاة أحد الواجبين الأساسيين للمسلم

شرعت الزكاة، بالمعنى الواسع للكلمة، في القرآن كثاني ركن أساسي من أركان الإسلام. وقد ورد هذا صراحة في أوائل ما جاء من السور في الكتاب الكريم: "الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ." (سورة البقرة (٢): الآيات أرقام (٣-٥)). وكما ورد في الآيات سألفة الذكر، فإن أركان الإسلام خمسة: ثلاثة أركان نظرية وركنان عمليان. وتتمثل الأركان الثلاثة النظرية في الإيمان بالله، والإيمان بالكتب المنزلة من عنده، والإيمان بالآخرة؛ في حين أن الركنتين العمليتين هما إقام الصلاة وإنفاق العبد مما يرزقه الله. وأول هذين الركنتين، الذي تناولناه بالفعل في الفصل السابق، أي الصلاة، هو الوسيلة لإدراك وجود الله في قلب العبد في حين أن الركن الثاني، أي إنفاق العبد مما يرزقه الله، يرمز إلى الزكاة بمعناها الواسع، أي جميع أعمال البر والإحسان للناس بوجه عام، لأن الله لم يرزق العبد بالمال الذي يمتلكه فحسب وإنما أيضاً بجميع الملكات والقدرات التي حباها الله بها.

ومن الموضوعات التي كثيراً ما يتناولها القرآن اعتبار البر أو الإحسان إحدى الدعامتين الأساسيتين اللتين يقوم عليهما الدين، وفي هذا الصدد يمكننا الاستشهاد بآية أخرى. فعن ادعاءات اليهود والنصارى بنجاتهم من عذاب النار، استناداً إلى بعض المعتقدات المسلّم بها لديهم، قال تعالى في كتابه العزيز: "وَقَالُوا لَنْ نَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ." (سورة البقرة (٢): الآيتان رقماً (١١١) و(١١٢)). وفي هذه الآية، يحل إسلام العبد وجهه لله محل إقامة الصلاة ويحل الإحسان محل إنفاق العبد مما يرزقه الله. وعلى ذلك، فإن الإسلام معناه، من الناحية النظرية، الإيمان بالله، وبما أنزل من عنده، وبالآخرة ومن الناحية العملية معناه إدراك وجود الله في قلب العبد عن طريق الصلاة، أو أن يسلم العبد وجهه لله تعالى، وخدمة الإنسانية. وما الأحكام العديدة التي وردت بشأن شتى نواحي الحياة، سواء وردت في الكتاب أو في السنة القولية أو الفعلية، إلا فروع من هذين الركنتين العمليتين من أركان الدين.

الصلاة لا تنفع صاحبها بدون الزكاة

تتضح علاقة الصلاة بالزكاة من الترتيب الذي يرد به هذان الركنان. فعندما تقرر الصلاة بالزكاة وكثيراً ما يجمع بينهما في القرآن، فإنه عادة ما يتم تقديم فريضة الصلاة على الزكاة لأن الصلاة هي التي تُعد العبد لخدمة الإنسانية. ففي الآية التي تتحدث عن أركان الإسلام الخمسة، يلي ركن الإيمان بالغيب مباشرة الأمر بإقامة الصلاة الذي يليه أمر آخر بالبر. مما يوضح الترتيب الطبيعي لأركان الإسلام. ولمزيد من التوضيح، فإن الإيمان بالغيب هو نقطة بداية التقدم الروحي للعبد. ولكن هذا لا ينفع العبد ما لم تتبعه الخطوة التالية، أي سعي العبد لإقامة صلة بالغيب من خلال الصلاة. والصلاة لا تنفع أيضاً ما لم تؤدَّ إلى البر. ومن ثم، فإن الصلاة هي الخطوة الأولى لأنها تؤدي إلى الخطوة الثانية، أي الزكاة. وقد ورد هذا صراحة في موضع آخر في القرآن: "قَوْلٌ لِّلْمُضَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ" (سورة الماعون (١٠٧): الآيات أرقام (٤-٧)).

مفهوم الصدقة في الإسلام

تتمثل أكثر الكلمات استخداماً للإشارة إلى الصدقة في الإنفاق^١، والإحسان، والزكاة (والمعنى اللغوي للكلمة النماء أو الطهارة)، والصدقة وهي مشتقة من الجذر صَدَقَ تشير إلى عمل الخير. ونفس الكلمات المستخدمة للإشارة إلى أعمال الخير تدل على اتساع مفهوم الصدقة. فالقرآن لم يؤكد فحسب على أعمال الخير العظيمة مثل فك الرقاب^٢، وإطعام المساكين^٣، ورعاية الأيتام^٤، والإحسان إلى الناس بوجه عام؛ وإنما أكد أيضاً على المعروف. ولهذا السبب، ورد في كتابه العزيز أن منع المَاعُونَ^٥، الذي يشير بصفة خاصة إلى المعروف والصدقة، يتعارض مع روح الصلاة. وعلى نحو مماثل، يشار إلى قول المعروف للوالدين على أنه إحسان^٦ وبوجه عام فإنه قد ورد في مواضع عديدة استحباب قول المعروف باعتباره صدقة^٧.

^١ تضاف أحياناً عبارة "في سبيل الله" إلى الصيغ المشتقة من كلمة إنفاق في القرآن، ولكن المعنى لا يختلف حتى عندما تستخدم الكلمة بدون هذه الإضافة.

^٢ سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٧٧)؛ سورة البلد (٩٠): الآية رقم (١٣).

^٣ سورة الحاقة (٦٩): الآية رقم (٣٤)؛ سورة البلد (٩٠): الآية رقم (١٦)؛ سورة الماعون (١٠٧): الآية رقم (٣).

^٤ سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٣٤)؛ سورة الإنسان (٧٦): الآية رقم (٨)؛ سورة الفجر (٨٩): الآية رقم (١٧)؛ سورة البلد (٩٠): الآية رقم (١٥)؛ سورة الضحى (٩٣): الآية رقم (٩)؛ سورة الماعون (١٠٧): الآية رقم (٢).

^٥ سورة الماعون (١٠٧): الآية رقم (٧).

^٦ سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٢٣).

^٧ سورة البقرة (٢): الآية رقم (٨٣)؛ سورة النساء (٤): الآية رقم (٨)؛ وآيات أخرى.

ورغم ذلك، فإن السنة أكثر وضوحاً بكثير في هذا الشأن. فإماطة الأذى عن الطريق تسمى صدقة (البخاري ٤٦ : ٢٤). وفي حديث آخر: "كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ صَدَقَةٌ" (البخاري ٥٣ : ١١). وهناك رواية أخرى ترد فيها المزيد من التفاصيل: "كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ... يُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا؛ أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ؛ وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ؛ وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ؛ وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ".^٨ وإن من أمثلة الصدقات الأخرى "سَلَامَكَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ"، و"أَمْرَكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيَكَ عَنِ الْمُنْكَرِ"،^٩ و"أَنْ تُمْسِكَ عَنِ الشَّرِّ"،^{١٠} وما إلى ذلك. وبالمثل، فإن دائرة الأشخاص الذين يجوز التصدق عليهم واسعة. فإطعام المرء زوجته أو أطفاله يسمى صدقة في حين أن إعالة المرء نفسه لا تستتبع من فئة الصدقات: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَطْعَمْتُ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ وَمَا أَطْعَمْتُ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ وَمَا أَطْعَمْتُ زَوْجَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ وَمَا أَطْعَمْتُ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ".^{١١} كما أن الإحسان للمخلوقات العجماء يسمى أيضاً صدقة: "مَنْ زَرَعَ زَرْعًا فَكَلَّ مِنْهُ الطَّيْرُ أَوْ الْعَافِيَةُ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ".^{١٢} كما ورد في القرآن التصدق ليس فحسب على الناس كافة، المؤمنين منهم والكفار (سورة البقرة ٢): الآية رقم (٢٧٢) وإنما أيضاً على المخلوقات العجماء (سورة الذاريات ٥١): الآية رقم (١٩).

صدقة التطوع

تنقسم الصدقة، بمعنى إنفاق العبد مما رزقه الله به من مال، إلى نوعين: صدقة التطوع والصدقة الواجبة. وبوجه عام، يشار إلى صدقة التطوع في القرآن إما بلفظ *الإنفاق* أو *الإحسان* أو *الصدقة*، ورغم أن الكتاب الكريم يحتوي على كثير من الأوامر المتعلقة بهذا الموضوع، ورغم أنه قلما نقلب صفحة من صفحات الكتاب دون أن تستحضر أمام أعيننا الهدف العظيم المتمثل في خدمة الإنسانية بوصفها غاية الحياة البشرية، فإن الكتاب تناول هذا الموضوع خاصة في القسمين السادس والثلاثين والسابع والثلاثين من سورة البقرة (٢). حيث يذكر في البداية جزاء الصدقة في قوله تعالى:

^٨ البخاري ٥٦ : ٧٢، ١٢٨.

^٩ مسند أحمد، الجزء الثاني، ص. ٣٢٩.

^{١٠} مسند أحمد، الجزء الرابع، ص. ٣٩٥.

^{١١} مسند أحمد، الجزء الرابع، ص. ١٣١.

^{١٢} مسند أحمد، الجزء الرابع، ص. ٥٥.

"مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٦١)).

ويجب إعطاء الصدقة كحق على الإنسان تجاه أخيه الإنسان بحيث لا تنقل فكرة أفضلية المتصدق أو دونية المتصدق عليه:

"الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ... قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَىٰ" (سورة البقرة (٢): الآيات أرقام (٢٦٢-٢٦٤)).

وينبغي أن تكون مرضاة الله هي الدافع وراء جميع الصدقات بحيث يؤدي إعطاؤها إلى تنمية الشعور بأن البشر جميعاً أسرة واحدة:

"وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا" (سورة الإنسان (٧٦): الآية رقم (٨)).

"وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٧٧)).

"مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ حَبَّةٍ بَرِيَّةٍ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٦٥)).

ولا يجوز التصدق إلا من الطيبات والمال الحلال:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٦٧)).

ويجوز إبداء الصدقات أو إخفاؤها:

"إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٧١)).

والمتعففون عن السؤال هم أولى الناس بالصدقة:

"لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ النَّعْفِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٧٣)).

معنى الزكاة

يشار إلى الصدقة الواجبة بوجه عام باسم الزكاة، ولكنها أحياناً تسمى صدقة، وخاصة في الأحاديث الشريفة. وكلمة زكاة مشتقة من الفعل زكا، ومعناه اللغوي نما (الزرع) وزاد. والصيغ الأخرى المشتقة من هذه الكلمة، كما استخدمت في القرآن، تحمل معنى التطهير من المعاصي والذنوب. وقد ورد مراراً عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه "يَزَكِّيْكُمْ أَوْ يُزَكِّيهِمْ"^{١٣}، أي أتباعه، كما ورد مراراً أن تزكية النفس هي الفلاح الحقيقي في الحياة.^{١٤} كما تستخدم كلمة الزكاة أيضاً بمعنى التطهير من الذنب والمعصية. فعن يحيى، قال تعالى في كتابه العزيز: "وَأَتَيْنَاهُ الْهُكْمَ صَبِيحًا. وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً" (سورة مريم (١٩): الآيتان رقم (١٢) و(١٣)). وفي موضع آخر، يوصف غلام بكونه "خَيْرًا مِّنْهُ" (أي من غلام آخر) زكاةً (سورة الكهف (١٨): الآية رقم (٨١)). وعلى ذلك، يتم الربط بين فكرة التطهير من الذنوب وفكرة تنمية الملكات البشرية والفلاح في الحياة. ووفقاً لراغب، فإن الزكاة إشارة للمال الذي يؤخذ من الأغنياء ويرد إلى الفقراء، وتسميتها بذلك لما يكون فيها من زيادة للمال، أو لما في إنفاق المال من تزكية للنفس. وفي الواقع، فإن كلا السببين صحيح. وبعبارة أخرى، فرغم أن الإنفاق من المال على أفراد المجتمع الفقراء يشكل بالتأكيد مصدر بركة للفرد، فإنه أيضاً ينمي ويزيد أموال المجتمع ككل كما أنه في الوقت نفسه يظهر قلب المُرْكِي من الحب الجم للمال الذي تأتي في أعقابه آثام وذنوب كثيرة. وقد وصف النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه الزكاة بأنها أموال تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ" (البخاري ٢٤: ١).

منزلة الزكاة في الإسلام

كثيراً ما يأتي الأمر بإقامة الصلاة مقترباً بالأمر بإيتاء الزكاة، وقد تم الجمع بين الأمرين في أوائل ما نزل من السور وكذلك فيما نزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) قبيل نهاية حياته.

^{١٣} سورة البقرة (٢): الآيتان رقم (١٢٩) و(١٥١)؛ سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٦٤)؛ سورة التوبة (٩): الآية رقم (١٠٣)؛ سورة الجمعة (٦٢): الآية رقم (٢).

^{١٤} سورة الشمس (٩١): الآية رقم (٩)؛ سورة الليل (٩٢): الآية رقم (١٨).

وعلى ذلك، ففي سورة المزمل رقم (٧٣)، وهي بالتأكيد من أوائل التنزيل، قال تعالى: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا" (سورة المزمل (٧٣): الآية رقم (٢٠)). وفي سورة التوبة (٩)، وهي من أواخر التنزيل، قال تعالى: "إِنَّمَا يَعْزَّمُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْضُرْ إِلَّا اللَّهَ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (١٨)). ولم تقرن الصلاة بالزكاة في كثير من الآيات فحسب^{١٥}، وإنما أيضاً ينظر إليهما على أنهما أمران أساسيان فرضهما الدين الإسلامي وكثيراً ما يرد في كتابه العزيز أن تنفيذهما دليل كافٍ على إيمان العبد بالدين الإسلامي. وتشير الآيتان المستشهد بهما آنفاً إلى نفس النتيجة. وفيما يلي بعض الآيات الأخرى التي جاء فيها الأمر بإيتاء الزكاة مقروناً بإقامة الصلاة:

"وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ" (سورة البينة (٩٨): الآية رقم (٥)). "بَلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ." (سورة لقمان (٣١): الآيات أرقام (٢-٤)). "فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوْا نَكْمَ فِي الدِّينِ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (١١)).

الزكاة ركن أساسي في كل الأديان السماوية

كما ورد عن الصلاة والزكاة معاً أنهما من الأوامر الأساسية التي تضمنتها الأديان التي نزلت على كل الأنبياء. فعن إبراهيم وذريته، قال تعالى في كتابه العزيز: "وَجَعَلْنَا هُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ" (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٧٣)). كما يقال أيضاً إن شريعة بني إسرائيل تتضمن أمراً مماثلاً: "وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (١٢)). كما ورد أيضاً عن إسماعيل (عليه السلام) أنه أعطى نفس الأمر لمن اتبعوه: "وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا" (سورة مريم (١٩): الآية رقم (٥٥)). وحتى عيسى بن مريم يرد أنه تلقى من ربه أمراً مماثلاً: "وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا" (سورة مريم (١٩): الآية رقم (٣١)).^{١٦}

^{١٥} ذكر كلين في كتابه الدين الإسلامي ما يلي: "قرنت الزكاة بالصلاة في اثنتين وثمانين آية في القرآن" (الدين الإسلامي، ص. ١٥٦، الحاشية). ولكنني لم أتمكن من تتبع اقتران الصلاة بالزكاة في أكثر من ٢٧ آية. ولكن هناك بعض الآيات الأخرى التي تقرر فيها فريضة الصلاة بفكرة الصدقة بوجه عام.

^{١٦} تثبت عبارة "ما دُمْتُ حَيًّا" بشكل قاطع موت المسيح عيسى بن مريم لأن الزكاة لا يمكن أن يخرجها سوى من يمتلك مالا في الدنيا ولا يمكن القول إن عيسى يمتلك مالا في السماء وحتى لو افترضنا ذلك فلن يكون في السماء من يأخذ الزكاة.

وتوضح هذه النظرة إلى الدين أنه حسبما ورد في القرآن، فإن خدمة الإنسانية وتحسين وضع الفقراء يظلان دائماً من بين الأهداف الرئيسية للدين. ورغم ذلك، فمن الصحيح أنه لم يتم التأكيد بنفس القدر على هذا المبدأ في الأديان السابقة، هذا بالإضافة إلى أن فريضة الزكاة في الإسلام، شأنها شأن كل ركن آخر من أركان الدين، اكتملت باكتمال الدين.

مشكلة توزيع الثروة

من أكبر المشكلات التي تواجه البشرية بلا شك مشكلة توزيع الثروة التي ترتبط بها أيضاً قضية السلطة السياسية. فقد أدى النظام الرأسمالي، الذي يشكل حجر الأساس، إذا صح القول، الذي تركز عليه الحضارة المادية لدول أوروبا الحديثة، إلى تركيز الثروة في أيدي قلة قليلة. وجاء في أعقاب تركيز الثروة تركيز السلطة السياسية أيضاً. كما أدى التعطش الذي لا يرتوي للثروة من جانب الرأسماليين، وهم المتحكمون الحقيقيون في السلطة السياسية، إلى استعباد أمم كثيرة وأبيح النهب المنظم تحت العديد من الشعارات الطنانة مثل الاستعمار، والاحتلال، والولاية، ونطاق النفوذ، وعبارات أخرى.

وقد بدأ رد الفعل إزاء الرأسمالية قبيل منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. وظهر تحت اسم الاشتراكية ثم تطور بالتدرج لما يعرف الآن باسم البلشفية. وتحكم البلشفية قبضتها على روسيا بنفس القوة التي ما زالت الرأسمالية تحكم بها قبضتها على الدول الأوروبية الأخرى. ومن الأسئلة التي سوف يحسمها المستقبل السؤال عما إذا كانت البلشفية ستظل قائمة في روسيا. ولكن هناك أمراً آخر تستوقف غرابته الانتباه؛ وهو أن الحركة البلشفية، التي ظهرت لتحرير الشعوب، أصبحت تستعبدهم شأنها شأن الرأسمالية. وأفسح الحكم الاستبدادي لقيصر روسيا المكان للحكم الاستبدادي لمجلس الأمة.

ورغم ذلك، فإن السؤال المطروح أمامنا هو: هل تمكنت البلشفية، من خلال ملكية الدولة لجميع وسائل الإنتاج، من التوصل إلى حل نهائي للمشكلة الكبيرة المتمثلة في توزيع الثروة؟ إن سنوات قليلة ليست سوى لحظة أو حتى أقل من لحظة في تاريخ العالم. وإنه لتسرع أكثر من اللازم في التوصل إلى النتائج أن نقول إن الخطة الخمسية أدت إلى الإسراع بمعدلات الإنتاج إلى حد لا يمكن تصوره تقريباً، ومن ثم فإن ملكية الدولة لوسائل الإنتاج هي حل المشكلة. فمن يعلم فربما يتحول الأفراد المعهود إليهم بمهمة تنفيذ الخطة، أي ممثلو الحكومة، غداً إلى حكم أقلية مشابه لحكم الأقلية المعمول به في النظام الرأسمالي؟ فالطبيعة البشرية عرضة لهذه النوازع ولا تكاد

البلشفية تقدم أي علاج لكبح هذه النوازع. ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك. فالبلشفية التي ظهرت كصديق لطبقة العمال تحبط غايتها المنشودة بحرمان العمال من ثمارها. حيث إن النظام الصارم القائم على توزيع ضروريات الحياة بالتساوي بين الجميع، بين الكسولين والمجتهدين، والأغنياء والأذكياء، سوف ينشئ بالتأكيد أوضاعاً سرعان ما ستصبح غير محتملة بالنسبة للبشرية؛ لأنها تتعارض بشكل مباشر مع الطبيعة وقوانين الطبيعة المعترف بها. ولكن لا يمكن معرفة مساوئ هذا النظام بين عشية وضحاها.

حل الإسلام لمشكلة توزيع الثروة

لا يرجع إلى الإسلام الفضل في حل مشكلة توزيع الثروة فحسب، وإنما أيضاً في تنمية المشاعر السامية وتكوين شخصية يمكن أن ترتكز عليها أسس حضارة بشرية لا تندثر. فالقوانين الصارمة للبلشفية، التي تعطي للفرد ما يكفي للعيش، تقتل المشاعر النبيلة مثل العطف والحب بين البشر - وهي صفات لا تجعل الحياة جديرة بأن يعيشها الإنسان فحسب، وإنما بدونها تتدهور البشرية حتماً إلى حالة من الوحشية الفظيعة. ولكن الإسلام نجح في تحقيق كلا الهدفين بتشريع الصدقة التي تشرف على أدائها الدولة والتي يطلق عليها اسم الزكاة. ووفقاً لفريضة الزكاة، فإن كل من يمتلك مالا في الدولة الإسلامية يجب عليه أن يساهم سنوياً بربع عشر المال الذي يمتلكه في مال مشترك تتولى إدارته الدولة الإسلامية أو المجتمع الإسلامي في حالة عدم وجود دولة إسلامية، وهذا المال تستخدمه الدولة أو المجتمع الإسلامي لتحسين وضع الفقراء. ومن ثم، فإن الزكاة ليس لها فحسب تأثير في إزالة الفوارق بين البشر، وإنما هي أيضاً وسيلة لتنمية المشاعر النبيلة داخل الإنسان، مشاعر الحب والعطف تجاه أخيه الإنسان؛ في حين أن النظام الصارم المتمثل في ملكية الدولة لوسائل الإنتاج والمساواة في توزيع الثروة يقتل داخل الإنسان النزعات السامية. وبهذه الوسيلة أيضاً، يتم توزيع الثروة على الجسد السياسي الإسلامي، بالضبط كما يدور الدم في جسد الكائن الحي، فيُسحب جزء معين من مال الأفراد الأغنياء في الأمة إلى المركز حيث يُضخ إلى أعضاء الجسد السياسي التي تكون في أمس الحاجة إليه. وبذلك، لا يصبح لفريضة الزكاة فحسب تأثير في إزالة الفوارق بين البشر، وإنما أيضاً تعتبر وسيلة للنهوض بالأمة الإسلامية ككل.

الزكاة فريضة تشرف على أدائها الدولة

ينبغي أن نضع نصب أعيننا أن الزكاة ليست فحسب صدقة واجبة، وإنما هي فريضة تشرف الدولة على أدائها، أو في حالة عدم وجود دولة إسلامية، يشرف المجتمع الإسلامي على أدائها.

مما يعني أن الفرد ليس له مطلق الحرية في حساب الزكاة الواجبة عليه و صرفها كما يشاء . وإنما يجب على الدولة جمعها على أساس قومي كما يجب أيضاً على الدولة أو المجتمع الإسلامي صرفها في مصارفها الشرعية . وفي المواضع التي يذكر فيها القرآن مصارف الزكاة ، يذكر أن أحد مصارف الزكاة يتمثل في العاملين عليها ، أي الموظفين الذين تعيّنهم الدولة لجمعها وتوزيعها ، مما يبين بوضوح أنه بتشريع الزكاة ، كان القرآن يضع تصوراً إما لوزارة تابعة للدولة أو على الأقل أموال عامة تديرها بأمرها جهة حكومية . وبذلك ، يجب على المُرَكَّبِ ألا يُخرج جزءاً من الزكاة الواجبة عليه إلى المستحقين للزكاة ، وإنما يجب عليه أن يساهم بكل مبلغ الزكاة الواجبة في مال يستخدم بالتأكيد للنهوض بأحوال الأمة . بهذا المعنى فهم النبي (صلى الله عليه وسلم) فريضة الزكاة وعندما تولى الحكم ، جعل الزكاة تشرف على أدائها الدولة حيث عيّن موظفين لجمعها وأمر الولاة بعمل ذلك في الولايات النائية.^{١٧} وقد تأسى أبو بكر ، أول الخلفاء الراشدين ، بالنبي (صلى الله عليه وسلم) عندما أعلن الحرب على بعض القبائل التي لم ترسل الزكاة المفروضة عليها إلى بيت المال ، وأضاف قائلاً: "الرَّكَاةُ حَقٌّ (الدولة أو المجتمع في) الْمَالِ (الذي يكسبه الفرد) وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا" (البخاري ١٤ : ١) .

الأموال التي تجب فيها الزكاة

رغم أن الأوامر المتعلقة بالزكاة وردت في أوائل التنزيل ، فإن التفاصيل لم ترد إلا بعد انتشار الإسلام في المدينة . وقد كان الذهب والفضة هما السلعتين اللتين يميل الإنسان دائماً لكتنزهما بالإضافة إلى أنهما المعدنان النفيسان اللذان يشكلان أساس عملات العالم . ومن ثم ، خص القرآن هذين المعدنين بالذكر باعتبارهما سلعتين تجب فيهما الزكاة . وتعامل معاملة الفضة أو الذهب الحلي المصنوعة من الفضة أو الذهب . و ينطبق نفس الشيء على النقد ، سواء كان في شكل عملات نقدية أم أوراق بنكنوت أم ودائع مصرفية . ولا زكاة في الأحجار الكريمة لأنه عند أخذ جزء منها فإنه ، في هذه الحالة ، يجب تجزئة الكل أو تكسيه . كما تجب الزكاة أيضاً في عروض التجارة مهما كان صنفها.^{١٨} وتجب الزكاة في الحيوانات التي تقتنى بغرض المتاجرة بشرط أن تكون سائمة ،

^{١٧} كما في حالة معاذ بن جبل الذي عين حاكماً لليمن (البخاري ٢٤ : ١) .

^{١٨} يكاد يكون هناك إجماع في الرأي حول هذا الأمر . فرغم أن البخاري لم يورد أي حديث بشأن هذه الجزئية ، فإنه بوب أحد أبواب صحيحه ، الباب التاسع والعشرين ، في كتاب الزكاة كما يلي: "صَدَقَةُ الْكُتُبِ وَالتَّجَارَةِ" (البخاري ٢٤ : ٢٩) . ورغم ذلك ، لم يتمكن البخاري من أن يجد في الأحاديث ما يعزز ذلك واكتفى باقتباس الآية القرآنية التالية: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِرَبِّكُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ" (سورة البقرة ٢) : الآية رقم (٢٦٧) . ورغم ذلك ، من الجدير بالذكر أن هذه الآية تشير إلى صدقات التطوع . وعن زكاة التجارة ، أورد أبو داود حديثاً عن سمر بن جندب يروى فيه قوله إن: "رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَأْمُرُنَا أَنْ نُخْرِجَ الصَّدَقَةَ مِنَ الَّذِي نَعُدُّ لِلْبَيْعِ" (أبي داود ٩ : ٣١) .

أي ترعى الكلاً في مراعى تابعة للدولة. ولم تذكر من بين الأشياء التي تجب فيها الزكاة الأموال غير المنقولة، مثل الأراضي الزراعية والمنازل، ولكن ما تخرجه الأرض، سواءً كان حبوباً أم ثماراً، تجب فيه ضريبة تسمى العُشْر. ورغم أن ضريبة العشر ينظر إليها على أنها زكاة، فإنها تندرج بالفعل ضمن ريع الأرض. ولا تجب الزكاة في الخضراوات (الترمذي ٧: ١٣). وبما أن الزكاة ضريبة على المال، فإنه يجب تحصيلها رغم أن المال قد يكون مملوكاً لصبي. فوفقاً لأحد الأحاديث الشريفة، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "أَلَا مَنْ وَلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ فَلْيَتَجَرَّ فِيهِ وَلَا يَتْرُكْهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ" (الترمذي ٧: ١٥).

النَّصَاب

الزكاة عبارة عن مبلغ سنوي يفرض على المال الذي حال عليه الحول وهو في حوزة صاحبه عندما تبلغ قيمته حداً معيناً يسمى النصاب. ويختلف النصاب باختلاف أنواع الأموال، وأهم الأنصبة ٢٠٠ درهم (أي ٢١ أوقية تقريباً) في حالة الفضة وعشرون مثقالاً (٣ أوقيات تقريباً) في حالة الذهب. ونصاب النقود هو نفس نصاب الفضة أو الذهب وهذا يتوقف على ما إذا كانت النقود يحتفظ بها في شكل فضة أم ذهب. وفي حالة عروض التجارة، تحسب قيمتها ويقدر نصابها بمعيار الفضة. وفي حالة الحلي، يكون النصاب نفس نصاب الفضة إذا كانت مصنوعة من الفضة ويكون نفس نصاب الذهب إذا كانت مصنوعة من الذهب. وتستثنى من ذلك المجوهرات وما شابه ذلك، ولكن يُحسب فقط وزن الفضة أو الذهب عند تحديد النصاب. وفي حالة الأنعام، يكون النصاب خمساً في حالة الإبل، وثلاثين في حالة الجاموس أو الأبقار، وأربعين في حالة الأغنام. وفي حالة الخيل، لم يذكر نصاب معين، ولكن بما أن الزكاة في هذه الحالة يتم تقديرها حسب السعر، فإنه يجب أيضاً تحديد النصاب على نفس الأساس. وفي حالة الحبوب، يكون النصاب خمسة أوسق، حسب تقديرين مختلفين؛ وهو نصاب يبلغ تقريباً طناً في الحالة الأولى وحوالي ثلثي الطن في الحالة الثانية.^{١٩}

وقد شكك البعض في صحة هذا الحديث، ولكن هناك حديثاً آخر يعززه. فعلى سبيل المثال، هناك حديث رواه الدارقطني والحكم يروى فيه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ذكر أن البز (نوع من الثياب الذي يعرض للبيع) من بين الأشياء التي تجب فيها الزكاة. ووفقاً لحديث آخر، رواه أيضاً الدارقطني، فإن الخليفة عمر (رضي الله عنه) أمر رجلاً كان يتاجر في الجلود بأن يدفع الزكاة الواجبة فيها بتقدير ثمنها. وهناك أيضاً حديث في البيهقي يروى فيه عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قوله إنه لا زكاة في العروض إلا إذا كانت متخذة للتجارة (عون المعبود في شرح سنن أبي داود، الجزء الثاني، ص. ٤). كما روى أبو ذر أيضاً الحديث المذكور آنفاً (مسند أحمد، الجزء الرابع، ص. ١٩٩).

^{١٩} ينجم الاختلاف في التقدير عن وزن الصاع الذي يساوي عند أهل العراق ثمانية أرتال وعند أهل الحجاز خمسة أرتال وثلاث الرطل.

المقدار الواجب

باستثناء الأنعام، تُخَرَج الزكاة تقريباً بمقدار موحد هو اثنان ونصف في المائة (أي ربع العشر) من المال المكتنز. وفي حالة الأنعام، والإبل، والأغنام، تم وضع قواعد مفصلة وتؤخذ حيوانات من سن معينة كزكاة عندما يبلغ القطيع النصاب المحدد.^{٢٠} ويتبين لنا من استعراض المقادير الواجب إخراجها، المذكورة في الحاشية المدرجة أدناه، أنه رغم وجود اختلافات طفيفة، فإنه، في المجمل، يبدو أن مقدار الاثنان والنصف في المائة يوضع نصب الأعين عند إخراج الزكاة. ويتبين لنا هذا من أنه من كل أربعين بقرة تؤخذ بقرة مسنة، ومن كل أربعين ناقة تؤخذ ناقة عمرها سنتان (ابنة لبون)، ومن كل أربعين شاة تؤخذ شاة واحدة.

وحالة الركاز (الكنز)، الذي يؤخذ خمسة، مختلفة تماماً ولا يكاد يندرج ضمن الزكاة لأنه لا يمكن القول بأنه شيء حال عليه الحول وهو في حوزة صاحبه. وفي هذه الحالة، فبينما تأخذ الحكومات الأخرى الركاز كله، تأخذ الدولة الإسلامية الخمس فقط. وفي حالة العُشُر، فإنها، كما سبق أن ذكرنا، ليست زكاة من الناحية الاصطلاحية؛ وإنما هي بالفعل ربع أرض. ولا تأخذ الدولة سوى العشر مما تخرجه الأرض الزراعية عندما تسقيه السماء أو العيون ونصف العشر فيما يسقى من الآبار أو بأي آلة يستخدم صاحب الأرض عمالاً لتشغيلها (ابن ماجه ٨: ١٧).

الزكاة في ظل الأوضاع المعاصرة

مما سبق، يتبين لنا أن الزكاة الواجبة هي مبلغ يفرض على المال المكتنز وتهدف للقضاء على جميع أشكال الإجحاف الناجم عن الرأسمالية. وعادة ما يميل الأفراد لكنز المال، والزكاة تهدف

^{٢٠} في حالة الإبل، فيما يلي حكم زكاة الإبل: إذا بلغت خمسا فيها شاة وهكذا كلما زادت خمسا زادت شاة حتى تبلغ أربعاً وعشرين. فإذا بلغت خمسا وعشرين إلى أربع وثلاثين، ففيها بنت مخاض (وهي التي لها سنة). فإذا بلغت خمسا وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها ابنة لبون (وهي التي لها سنتان)؛ فإذا بلغت ستاً وأربعين إلى ستين ففيها حقة (وهي التي لها ثلاث سنين)؛ فإذا بلغت إحدى وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة (وهي التي لها أربع سنين). وإذا بلغت ستاً وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون؛ فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى مائة وأربع وعشرين ففيها حقتان؛ فإذا زادت ففي كل أربعين ابنة لبون، وفي كل خمسين حقة. وفي حالة الغنم، فإذا بلغت أربعين إلى مائة وعشرين ففيها شاة، وإذا بلغت مائة وإحدى وعشرين إلى مائتين ففيها شاتان، وإذا بلغت مائتين وواحدة إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه، فإذا زادت عن ثلاثمائة ففي كل مائة شاة (البخاري ٢٤: ٣٨). وفي حالة البقر، فإن الحكم الذي ورد في أحد الأحاديث الشريفة (الترمذي ٧: ٥) هو أنها إذا بلغت ثلاثين ففيها تبيع (وهو ما له سنة)، وإذا بلغت أربعين ففيها مسنة (وهي ما لها سنتان). ووفقاً للبخاري (البخاري ٢٤: ٤٥)، فإنه لا زكاة في الخيل. ويبدو أن السبب وراء ذلك هو الحاجة لها في وقت الحرب. ورغم ذلك يرى الخلف من الفقهاء أن الخيل تجب فيه زكاة مقدارها اثنان ونصف في المائة تحسب بناءً على قيمة الخيل (الهداية، ص. ١٧٣).

لإعادة توزيع بعض هذا المال بطريقة تكفل استعادة المجتمع ككل منه. حيث يتم إخراج جزء من المال المكتنز لدى كل فرد سنوياً وتوزيعه على الفقراء والمساكين. ومن ثم، تجب الزكاة في كل ما يكثر من نقود أو كل ما يكثر في شكل ذهب أو فضة وعلى أي شكل من أشكال رأس المال، سواء كان نقدياً أم عينياً. ولا زكاة، كما سبق أن ذكرنا، في الأحجار الكريمة لأن إخراج الزكاة عليها سوف يتطلب بيعها. وتسري نفس القاعدة على الآلات التي تستخدم في الصناعة. وفي الواقع، فإنه ينبغي أن ينظر إليها على أنها آلات حرفة وتفرض الضريبة على عائداتها عند الوفاء بالشروط الواجبة بشأن تقدير الزكاة. ويعامل المخزون التجاري نفس المعاملة؛ أي تفرض ضريبة على الربح السنوي فقط وليس على المخزون نفسه. وفي حالة جميع الأشياء التي تجب فيها الزكاة، سواء كانت حبوباً أم أنواعاً أم غيرها من عروض التجارة، ينبغي تحديد قيمتها وتخرج الزكاة بمقدار موحد هو اثنان ونصف في المائة (ربع العشر). وإذا كان المسلمون يعيشون في ظل حكومات غير إسلامية ولا يمكن أن تقوم هذه الحكومات بجمع الزكاة وصرفها في مصارفها الشرعية، تنتقل تلك المهمة إلى المجتمع الإسلامي ككل، ويجب أن تأخذ فريضة الزكاة شكل فريضة واجبة على الأمة الإسلامية في كل بلد يعيش فيه سكان مسلمون.

مصارف الزكاة

وردت مصارف الزكاة في القرآن صراحة في قوله تعالى: "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٦٠)). وكما سبق أن ذكرنا، فإن الزكاة يشار إليها أحياناً باسم الصدقة. ويتبين لنا أن المقصود بالصدقة هنا هو الزكاة من الكلمات التي تختتم بها الآية والتي توصف فيها الصدقة بأنها فريضة، وهي كلمة لا تطلق إلا على الزكاة. ويمكن تصنيف مصارف الزكاة الثمانية المذكورة هنا إلى ثلاث فئات. أولاً، هناك فئة المحتاجين، بما في ذلك الفقراء، والمساكين، والمؤلفة قلوبهم، والأسرى، والغارمون، وأبناء السبيل. ثانياً، هناك فئة العاملين على الزكاة، أي الموظفين الذين يعيّنون لجمع أموال الزكاة وصرفها في مصارفها الشرعية. ثالثاً، يصرف جزء من مال الزكاة في سبيل الله. ويمكننا أن نضيف بعض الشرح لكل فئة من الفئات سالفة الذكر.

مما سبق، يتبين لنا أنه يندرج ضمن الفئة الأولى ستة أنواع من الأشخاص. أولهم *الْفُقَرَاء* (جمع فقير)، وهي مشتقة من كلمة فقر وهو كسر فقرار الظهر ومن ثم فإن كلمة فقير معناها اللغوي من كسرت فقرار ظهره أو من أصابته داهية تكسر ظهره (المعجم العربي - الإنجليزي للين). ومن

الواضح أن الكلمة تشير إلى الأشخاص العاجزين الذين، بسبب عيب ما، لا يستطيعون كسب رزقهم. وثانيهم *المسكين* (جمع *مُسكين*)، والكلمة مشتقة من الفعل *سَكَنَ* ومعناه اللغوي أصبح ساكناً أو توقف عن الحركة. ومن ثم، فإن كلمة *مُسكين* تشير إلى من أعجزه الفقر تقريباً عن الحركة (المعجم العربي - الإنجليزي للين). ورغم وجود فرق شاسع بين كلمتي *فَقِير* و*مُسكين*، فإننا عندما نضع نصب أعيننا المعنى اللغوي للكلمتين، يبدو لنا أن الفرق الحقيقي بينهما هو أن *الفَقِير* هو الشخص العاجز عن كسب رزقه بسبب عجز جسدي في حين أن *المُسكين* هو الشخص الذي رغم أنه مؤهل جسدياً لكسب ما يكفيه، فإنه عاجز عن كسب قوته بسبب الفقر أو نقص الموارد. إذن، *المُسكين* هو المحتاج الذي إذا قدم له قليل من المساعدة، فسوف يتمكن من كسب عيشه بنفسه. ويندرج ضمن هذه الفئة العاطلون.

هاتان هما المجموعتان الرئيسيتان اللتان تصرف عليهما الزكاة، ومن ثم يتم فصل هاتين المجموعتين عن سائر المجموعات بذكر المؤسسة العاملة على الزكاة. وتتكون المجموعات الأخرى التي تندرج ضمن هذه الفئة من الأشخاص الذين يحتاجون المساعدة لسبب وجيه. فهناك *المُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ*، أي الذين تستمال قلوبهم للحق، أي الأشخاص الذين يبحثون عن الحق ولكنهم لا يستطيعون إيجاد السبيل للوصول إليه بسبب فقرهم. ويندرج في هذه الفئة أيضاً حديثو الدخول في الإسلام الذين يحرمون من سبل كسب عيشهم بسبب دخولهم في الإسلام. ثم يوجد الأسرى، أي الذين يحرمون من حريتهم وليس بوسعهم استردادها بمجهودهم. ويندرج في هذه الفئة فك الرقاب. ثم يوجد الغارمون الذين يتعذر عليهم أداء ديونهم، وأخيراً يوجد المسافرون الذين يتركون بلا مال أو صديق في بلد غريب أو في مكان ناءٍ ولا يستطيعون العودة إلى أوطانهم.

كما يوجد مصرفان آخران للزكاة، أولهما الإنفاق على المؤسسة والموظفين القائمين بجمع الزكاة. ويبين ذلك أنه كان يُقصد جمع الزكاة في مكان رئيسي معين ثم توزيعها، والإنفاق على العاملين عليها يندرج ضمن هذا المصرف من مصارف الزكاة. ومن ثم، لم يبيح القرآن إخراج الزكاة أو صرفها حسبما يشاء الفرد.^{٢١} ورغم الأجر الذي يدفع نظير جمع الزكاة، فإنه يعتبر عملاً له أجره عند الله، ووفقاً لما جاء بأحد الأحاديث فإن أجر من يجمع الزكاة لا يقل عن أجر المجاهد أو المحارب دفاعاً عن الدين.^{٢٢}

^{٢١} هناك حديث يروى فيه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أجاز للفرد أن يخرج ثلث الزكاة لمن يرى أنهم أولى بها. حيث يروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "إِذَا خَرَصْتُمْ فُجِدُوا وَدَعُوا التَّلْثَ فَإِنْ لَمْ تَدَعُوا أَوْ تَجِدُوا التَّلْثَ فَدَعُوا الرُّبْعَ" (أبي داود ٩: ١٤). وفي شرح هذا الحديث، قال الإمام الشافعي يترك ثلث أو ربع الزكاة ليصرفه المركزي على أقاربه أو جيرانه حسبما يشاء (عون المعبود في شرح سنن أبي داود ٩: ١٥).

^{٢٢} أبي داود ١٩: ٦؛ الترمذي ٧: ١٨.

جواز صرف الزكاة في الدفاع عن الإسلام ونشره

بما أن الأجر الذي يُدفع إلى المؤسسة العاملة على الزكاة هو النتيجة الطبيعية لإشراف الأمة الإسلامية على فريضة الزكاة، فإن مصرف الزكاة الوحيد الذي ورد ذكره بالإضافة إلى مساعدة المحتاجين، لسبب أو لآخر، هو ما يسمى في سبيل الله، والمسلم به لدى العموم أنه يشير إلى المحاربين دفاعاً عن الدين.^{٢٣} ورغم أن هؤلاء المحاربين هم بالتأكيد من أهم احتياجات الأمة الإسلامية، فإنه من الصحيح أيضاً أنهم استثناء وليسوا القاعدة ومن ثم لا يمكن قصر معنى عبارة في سبيل الله عليهم. ولكن هناك حاجة أخرى أهم بالنسبة للأمة الإسلامية تسمى في القرآن الجهاد الكبير: "وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا. فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا." (سورة الفرقان (٢٥): الآياتان رقما (٥١) و(٥٢)). وكما يبين السياق بوضوح، فإن الضمير الشخصي (الهاء) في كلمة "به" يشير إلى القرآن، ومن ثم فإن الجهاد بالقرآن، أو حمل رسالة القرآن إلى أقصى ربوع الأرض، هو الجهاد الكبير في الإسلام. ومن ثم، يشير صرف الزكاة في سبيل الله إلى هاتين الحاجتين الهامتين لبقاء الأمة الإسلامية، وهما الحروب دفاعاً عن الدين ونشر الإسلام، وتعتبر الحاجة الثانية هي أسس حاجة للأمة الإسلامية في عصرنا هذا. ومن ثم، يتبين لنا أنه رغم أن فريضة الزكاة تهدف في الأساس لتحسين وضع الفقراء، فإنها لم تغفل اعتبار الدفاع عن الأمة الإسلامية ككل والنهوض بأحوالها.

الصدقات الأخرى الواجبة على الأمة الإسلامية

رغم أن الزكاة تعتبر أهم الصدقات، فإنها ليست الصدقة الوحيدة الواجبة التي أوجبها الإسلام على الأمة الإسلامية. وإنما هناك نوعان آخران من الصدقات ذوا طابع مشابه يرتبطان بالعيدين، حيث تغرس من خلالهما في قلب المسلم فكرة أنه عندما يكون في سعادة غامرة يجب عليه ألا ينسى حزن إخوانه الفقراء. وأولى هاتين الصدقتين الواجبتين هي صدقة الفطر أو زكاة الفطر، أي الصدقة المرتبطة بعيد الفطر. حيث يجب على كل مسلم في تلك المناسبة أن يتصدق بقدر معين من الطعام أو بما يساوي قيمته من مال. وهذا المبلغ يجب أن تجمعه كل أمة إسلامية ثم توزعه على المستحقين للزكاة.^{٢٤} أما الصدقة الواجبة الثانية فترتبط بعيد الأضحى، وهي مناسبة لا يتم فيها إطعام الفقراء فحسب من لحم الأضاحي، وإنما أيضاً تباع جلود هذه الأضاحي (كما تباع أيضاً

^{٢٣} جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء العاشر، ص. ١٠٠.

^{٢٤} سبق أن ذكرنا في قسم صلاة العيد أن صدقة الفطر تجمع ثم توزع؛ وهنا لا يكون اختيار الأشخاص المتصدق عليهم متروكاً للفرد وإنما للأمة.

اللحوم التي تجفف أو تحفظ إذا كان المعروض منها أكبر من المطلوب) ويصرف المبلغ الذي يتم الحصول عليه على أحد الأغراض الخيرية ذات الأهمية للأمة الإسلامية، مثل نشر الإسلام.

الفصل الثالث

الصوم

الصوم

المعنى اللغوي الأساسي لكلمة صوم هو الإمساك بالمعنى المطلق للكلمة^١. وفي الاصطلاح الشرعي، يقصد بالصوم أو الصيام الإمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

تشريع الصوم في الإسلام

شرعت فريضة الصوم في الإسلام بعد تشريع الصلاة. وقد فرض الصوم في المدينة في العام الثاني الهجري وخصص شهر رمضان لهذا الغرض. وقيل ذلك، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يصوم، كعبادة تطوعية، يوم عاشوراء كما أمر أيضاً أتباعه بصيامه فقد كان يوماً تصومه قريش في الجاهلية وفقاً لما روته السيدة عائشة (رضي الله عنها) (البخاري ٣٠: ١). وعليه، يمكن إرجاع نشأة الصوم في الإسلام إلى الوقت الذي كان فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) مازال موجوداً في مكة؛ ولكن وفقاً لما رواه ابن عباس (رضي الله عنه)، فإنه بعد هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء؛ وعندما أخبر أن موسى كان يصوم ذلك اليوم إحياءً لذكرى نجاته بني إسرائيل من فرعون، قال (صلى الله عليه وسلم) إنهم (أي المسلمين) أقرب إلى موسى من اليهود وأمرهم بصيام ذلك اليوم (البخاري ٣٠: ٦٩).

^١ الصوم في الأصل هو الإمساك عن الفعل مطعماً كان، أو كان كلاماً، أو مشياً، ولذلك قيل للفريسة الممسك عن السير، أو العلف: صائم وقيل للريح الراكدة: صوم، ولاستواء النهار: صوم (المفردات في غريب القرآن). وتستخدم الكلمة بمعنى الإمساك عن الكلام في القرآن في واحدة من أوائل التنزيل المكي: "إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا" (سورة مريم (١٩): الآية رقم (٢٦)).

الصوم فرض على الأمم كافة

لم يتناول القرآن موضوع الصوم إلا في موضع واحد، أي في القسم الثالث والعشرين من سورة البقرة (٢)؛ رغم أنه ورد في مواضع أخرى صوم الفدية في حالات معينة. ويبدأ هذا القسم بقوله تعالى إن الصوم فرض على الأمم كافة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٣)). وبالرجوع إلى تاريخ الأديان، تثبت لنا صحة القول المذكور هنا - أن الصيام "كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ". والصوم معترف به تقريباً لدى جميع الأمم في جميع الأديان السماوية المنزلة، رغم أنه لم يتم التأكيد عليه بنفس القدر ورغم اختلاف كيفية وعلة الصوم. "تختلف كيفية وعلة الصوم اختلافاً كبيراً حسب المناخ، والجنس، والحضارة، بالإضافة إلى أوضاع أخرى؛ ولكن من الصعب أن ننكر أي عقيدة دينية أياً كان وصفها لم يحظَ فيها الصوم باعتراف كامل" (دائرة المعارف البريطانية، مادة: الصوم). وتستنق من ذلك، وفقاً لما أورده كاتب المقال في دائرة المعارف البريطانية، الديانة الكونفوشيوسية. وقد ورد أن الزرادشتية، التي يذكر أحياناً أنها استثناء آخر، تأمر بأنه: "يجب على الكهنوت صيام عدة أيام في السنة لا تقل عن خمسة أيام". ورغم أن المسيحية المعاصرة لا تولي أهمية بالغة إلى العبادات الدينية من هذا النوع، فإن مؤسس المسيحية نفسه لم يصم فحسب أربعين يوماً بالإضافة إلى صومه يوم كفارة الخطايا كاليهودي الحق، وإنما أيضاً أوصى الحواريين بالصوم: "ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين... وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك" (متى ٦: ١٦، ١٧). ويبدو أن تلاميذه كانوا يصومون، ولكنهم لم يُكثروا من الصوم مثل تلاميذ يوحنا المعمدان وعندما سئل عن ذلك رد بأنه سوف تأتي أيام يكثرون فيها من الصوم عندما يرفع (لوقا ٥: ٣٣-٣٥). كما ورد أيضاً في الإنجيل أن المسيحيين الأوائل كانوا يصومون.^٢ وحتى القديس بولس الرسول كان يصوم.^٣

الإسلام أكسب الصوم معنى جديداً

تثبت الحقائق التاريخية صحة تعليق الكاتب/ كرودن في مؤلفه فهرس الإنجيل بأن الأمم كافة كانت تكثر من الصوم "في أوقات الحداد، والحزن، والمصائب". وبوجه عام، كان الصوم لدى اليهود دلالة على الحزن أو الحداد. وعلى ذلك، ورد في الكتاب المقدس أن نبي الله داود (عليه السلام) صام سبعة أيام أثناء مرض ابنه الرضيع (صموئيل الثاني ١٢: ١٦-١٨)؛ وورد ذكر الصوم كعلامة حداد في صموئيل الأول ٣١: ١٣ وفي مواضع أخرى. وبالإضافة إلى صوم يوم

^٢ أعمال الرسل ١٣: ٢، ٣؛ ١٤: ٢٣.

^٣ الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس ٦: ٥؛ ١١: ٢٧.

كفارة الخطايا، الذي فرضت الشريعة الموسوية صومه (اللاويين ١٦ : ٢٩) - حيث يُطلب من الناس تذليل أنفسهم في الوقت الذي يؤدي فيه الكاهن كفارة خطاياهم لتطهيرهم منها - فقد ظهرت العديد من أيام الصوم الأخرى بعد ترحيل اليهود وذلك "إحياءً لتكرى الأحداث المحزنة العديدة التي نجمت عن سقوط مملكة يهودا" (دائرة المعارف البريطانية). وقد أصبحت أربعة من هذه الأيام أيام صيام منتظمة يصومها اليهود "إحياءً لتكرى بدء حصار القدس، والاستيلاء على المدينة، وهدم الهيكل، واغتيال الحاكم جيداليا" (المرجع السابق). وعلى ذلك، كان يتم إحياء تكرى وقوع كارثة أو حدث محزن بالصوم. ويبدو أن الاستثناء الوحيد من ذلك كان صوم نبي الله موسى (عليه السلام) أربعين يوماً - الذي تأسى به المسيح عيسى بن مريم - وقد كان الصوم، في هذه الحالة، استعداداً لنزول الوحي عليه. ثم جاءت المسيحية ولم تُكسب أي معنى جديد للصوم؛ وما كلمات المسيح التي يقول فيها إن تلاميذه سوف يكثر من الصوم عندما يرفع سوى تعزيز لفكرة اليهود القائلة بأن الصوم مرتبط بحزن أو حداد أمة ما.

ويبدو أن الفكرة الكامنة وراء هذه المعاناة التطوعية في شكل الصوم في أوقات الحزن والمصائب هي استرضاء إله غاضب وإثارة رأفته ورحمته. ويبدو أن الفكرة القائلة بأن الصوم أحد أعمال التوبة قد نشأت بالتدرج من هذا المفهوم لأنه كان يعتقد أن ارتكاب الخطيئة هو السبب وراء وقوع مصيبة أو كارثة ما، وبذلك أصبح الصوم تعبيراً ظاهرياً عن التغيير في القلب الذي تحدثه التوبة. وفي الإسلام، اكتسب الصوم معنى مكتملاً. حيث جاء الإسلام ورفض كلياته فكرة تهدئة غضب الإله أو إثارة رحمته من خلال المعاناة التطوعية، وأحل محلها الصوم المنتظم المتواصل، بصرف النظر عن حالة الفرد أو الأمة، وذلك كوسيلة، شأنه شأن الصلاة، لتنمية القدرات الكامنة داخل الإنسان. ورغم أن القرآن يتحدث عن صوم الكفارة أو صوم الفدية في بعض الحالات التي يخالف فيها العبد الشريعة الإلهية، فإن هذه الأنواع من الصوم تختلف تماماً عن صوم الفرض في شهر رمضان وتذكر فقط كبديل لأحد أعمال البر، مثل إطعام المسكين أو فك رقبة. وبذلك أصبح الصوم، كفريضة، نظاماً لتهديب النفس والأخلاق والجسد على مستوى رفيع، وهذا ما يتبين من تغير نوع الصيام وعلته. ويجعل فريضة الصوم دائمة، انفصل عنها كل ما ارتبط بها من أفكار البلاء، والمصائب، والخطايا في حين ذكر صراحة الهدف الحقيقي للصوم في عبارة "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ". وكلمة اتقى، المشتق منها الفعل تتقون، يقصد بها حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره أو جعل النفس في وقاية مما يخاف هذا تحقيقه (المفردات في غريب القرآن). ولكن، بالإضافة إلى ذلك، استخدمت الكلمة على نطاق واسع في القرآن بمعنى أداء الواجبات، كما جاء في سورة النساء (٤): الآية رقم (١)، حيث تقع كلمة الأرحام كمفعول به للفعل اتَّقُوا أو كما في عبارة اتَّقُوا اللَّهَ حيث تقع كلمة الله مفعولاً به للفعل اتَّقُوا ومن ثم فإن معنى كلمة اتقى في كل هذه الحالات هو أداء الواجبات المكلف بها العبد.

وفي الواقع، فإن كلمة مُنَّقٍ يقصد بها بلوغ العبد أعلى درجات الرقي الروحي. "وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ" (سورة الجاثية (٤٥): الآية رقم (١٩))؛ "فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٧٦)؛ سورة التوبة (٩): الآيتان رقما (٤) و(٧))؛ "أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٤)؛ سورة التوبة (٩): الآيتان رقما (٣٦) و(١٢٣))؛ "وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٢٨)؛ سورة القصص (٢٨): الآية رقم (٨٣))، "إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ" (سورة هود (١١): الآية رقم (٤٩))؛ "وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ" (سورة ص (٣٨): الآية رقم (٤٩)) - وتبين هذه الآيات بالإضافة إلى كثير من الآيات المماثلة بوضوح أن المُتَّقِي، وفقاً لما جاء بالقرآن، هو العبد الذي يبلغ أعلى درجات الرقي الروحي. وبما أن هدف الصوم هو التقوى، فإن النتيجة واضحة وهي أن القرآن يأمر بالصوم بهدف بلوغ العبد المعراج الروحي إلى الله تعالى.

الصوم تهذيب للنفس

وفقاً لتعاليم الإسلام، يعتبر الصوم في المقام الأول تهذيباً للنفس: ففي موضعين في القرآن،^٤ يسمى الصائمون سائحين (وكلمة سائح مشتقة من الفعل ساح ومعناه تنقل)؛ ووفقاً لأحد علماء اللغة، فإنه عندما يترك الشخص لا المطعم والمشرب فحسب وإنما كل أنواع المعاصي فإنه يسمى سائحاً (المفردات في غريب القرآن). وعند الحديث عن شهر رمضان، وهو الشهر الذي فرض فيه الصيام، يشير القرآن بصفة خاصة إلى التقرب إلى الله كما لو كان بلوغه هو الهدف من الصيام ثم يضيف قوله تعالى: "فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي (بالصوم) وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٦)). وفي السنة أيضاً، يتم التأكيد بصفة خاصة على أن مرضاة الله تعالى ينبغي أن تكون الهدف الأساسي للصوم: "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا" (البخاري ٢: ٢٨). كما يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "الصَّيَامُ جُنَّةٌ فَلَا يَرْفُتُ... لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ يَبْرُكُ طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَشَهْوَتُهُ مِنْ أَجْلِ الصَّيَامِ لِي" (البخاري ٣٠: ٢). فما من إغراء أعظم من إغراء إطفاء العطش وإشباع الجوع عندما يكون المشرب والمأكل في متناول الفرد، ورغم ذلك يتغلب على هذا الإغراء ليس مرة واحدة أو مرتين، كما لو كان عن غير قصد، وإنما يتغلب عليه يوماً وراء يوم بانتظام طيلة شهر كامل واضعاً نصب عينيه هدفاً محدداً هو التقرب إلى الله تعالى. ورغم أنه يمكن للعبد أن يتناول ما لذ وطاب له من الطعام، فإنه رغم ذلك يؤثر الجوع؛ ورغم أنه لديه المشرب، يحترق من شدة العطش؛ ولا يقرب المأكل أو المشرب فقط لأنه يعتقد أن الله أمره بالإسماك عنهما. وفي غرفته، ليس هناك من يراه لو أطفأ عطشه بكوب من

^٤ سورة التوبة (٩): الآية رقم (١١٢)؛ سورة التحريم (٦٦): الآية رقم (٥).

الشراب اللذيذ، ورغم ذلك فقد أصبح الشعور بالقرب إلى الله تعالى داخله قوياً لدرجة أنه لا يطيق أن يضع قطرة من هذا الشراب على لسانه. وكلما ظهر أمامه إغراء جديد، تغلب عليه لأنه في هذه اللحظة الحرجة، هناك صوت داخلي يقول: "الله معي" "الله يراني". ولا يمكن للورع، بحد ذاته، مهما بلغ عمقه أن يقوي الشعور بالقرب إلى الله تعالى ووجوده في كل مكان، وهو الشعور الذي يقويه الصوم يوماً وراء يوم طيلة شهر كامل. ويصبح وجود الله، الذي قد يكون مسألة إيمان بالنسبة للآخرين، حقيقة بالنسبة له، وهو ما يساعد على تحقيقه مبدأ تهذيب النفس الذي يبنى عليه الصوم. ويستيقظ داخل العبد وعي جديد بحياة أسمى، حياة أسمى من تلك التي يتم الحفاظ عليها بالمأكل والمشرب، وهذه هي الحياة الروحية.

الصوم تهذيب للأخلاق

كما يبنى الصوم أيضاً على تهذيب الأخلاق لأنه الساحة التي يلقن فيها العبد أسمى الدروس الأخلاقية في حياته - درس مفاده أنه ينبغي عليه الاستعداد لتحمل أشد حرمان والتعرض لأشد المحن بدلاً من الانغماس فيما حرم عليه. ويتكرر هذا الدرس يوماً وراء يوم طيلة شهر كامل، وكما أن التمرين البدني يقوي جسد الإنسان، فكذلك أيضاً التمرين الأخلاقي من خلال الصوم، أي التمرين على الإمساك عن كل ما هو محرم، يقوي الجانب الأخلاقي من حياته. وبذلك تكتمل فكرة اجتناب المحرمات ومقت المعاصي من خلال الصوم. ومن الجوانب الأخرى لتهذيب أخلاق الإنسان بهذه الوسيلة تربيته من خلال الصوم على التغلب على رغباته الجسدية. فرغم أن الإنسان يتناول طعامه في مواعيد منتظمة ورغم أن ذلك بالتأكيد نظام حياة مرغوب فيه، فإن الصوم طيلة شهر كامل في العام يلقنه أسمى دروس الحياة وهو أنه بدلاً من أن يصبح عبداً لشهواته ورغباته، ينبغي عليه أن يسيطر عليها ويتمكن من تغيير مجرى حياته إن شاء. والإنسان القادر على التحكم في رغباته وتذليلها لخدمة أغراضه، والذي نمت داخله قوة الإرادة إلى حد يجعله قادراً على ضبط نفسه، هو الإنسان الذي بلغ السمو الأخلاقي الحقيقي.

الفوائد الاجتماعية للصوم

بالإضافة إلى فوائده الروحية والأخلاقية، فإن للصوم أيضاً، كما فرض في القرآن، فائدة اجتماعية أكثر فعالية من تلك التي تحققها فريضة الصلاة. ففي الصلاة، يتجمع الأغنياء والفقراء، الصغار والكبار، سكان نفس المنطقة خمس مرات يومياً في المسجد على قدم المساواة، وبذلك تسهم الصلاة في إقامة علاقات اجتماعية سليمة. ولكن قدوم شهر رمضان يؤذن بحركة جماعية

نحو تحقيق المساواة، لا تقتصر على منطقة أو حتى بلد بعينه وإنما تؤثر في العالم الإسلامي أجمع. فرغم أن الأغنياء قد يقفون جنباً إلى جنب مع الفقراء في نفس الصف في المسجد، فإنهم في بيوتهم يعيشون في أوضاع مختلفة. حيث يجلس الأغنياء على موائد يوضع عليها ما لذ وطاب من الطعام ويملأون به بطونهم أربع أو حتى ست مرات يومياً؛ في حين أن الفقراء لا يجدون من الطعام ما يكفي لسد جوعهم ولو حتى مرتين يومياً. وكثيراً ما يشعر الفقراء بالآلام الجوع التي لا يعرفها الأغنياء بالمرّة؛ كيف إذن يمكن أن يشعر الفرد بالآخرين ويتعاطف معهم؟ إذن، هناك حاجز اجتماعي كبير بين الطبقتين في بيوتهم ولا يُزال هذا الحاجز إلا عندما يشعر الأغنياء بالآلام الجوع التي يشعر بها إخوانهم الفقراء ولا يأكلون طوال اليوم، ويمرون بهذه التجربة ليس يوماً أو يومين فحسب وإنما طيلة شهر كامل. وبذلك، يستوي الأغنياء والفقراء في شتى أنحاء العالم الإسلامي من حيث إنه لا يجوز لهم أن يتناولوا سوى وجبتين في اليوم ورغم أن هاتين الوجبتين قد تختلفان، فإنه يجب على الأغنياء بالضرورة التقليل من أنواع الأطعمة التي يتناولونها، وتناول أطعمة أبسط، وبذلك يصبحون أقرب إلى إخوانهم الفقراء. ومما لا شك فيه، فإن هذا المنهج يوقظ في قلوب الأغنياء الشعور بالعطف على الفقراء، ولهذا السبب يؤمر الناس بمساعدة الفقراء خاصة في شهر رمضان.

الفوائد الجسدية للصوم

لا يؤدي الإمساك عن الطعام أثناء أوقات معينة إلى إلحاق الضرر بجسد الشخص السليم. وإنما على العكس، فإن له فوائد عديدة. ولكن للصوم رغم ذلك فائدة جسدية أخرى أكثر أهمية. فالإنسان غير القادر على مواجهة مصاعب الحياة، الذي لا يستطيع العيش في بعض الأوقات دون وسائل الراحة التي اعتاد عليها، لا يمكن القول بأنه قادر على العيش على هذه الأرض. وبمجرد تعرض هذا الإنسان للمشاق أو نزول الشدائد به، وهو ما يمر به حتماً من حين لآخر، فسرعان ما تخور قواه. ولكن الصوم يعوده على مواجهة مصاعب الحياة حيث يعتبر في حد ذاته درساً عملياً لبلوغ هذه الغاية كما يقوي قدرته على المقاومة.

شهر رمضان

مع بعض الاستثناءات، التي سوف نتذكر فيما بعد، يجب على المسلمين صيام شهر رمضان، سواءً كان تسعة وعشرين أم ثلاثين يوماً. ويتوقف عدد أيام الشهر بالضبط على رؤية الهلال الذي

ربما يطلع بعد تسعة وعشرين أو ثلاثين يوماً. ويبدأ الصيام بروية هلال رمضان وينتهي بروية هلال شوال. حيث يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا (مشيراً بأصابعه) يَغْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ» (البخاري ٣٠: ١٣). ويروى في حديث آخر: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ رَمَضَانَ فَقَالَ لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْا الْهَيْلَالَ وَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ فَإِنَّ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَقْدُرُوا لَهُ» (البخاري ٣٠: ١١؛ مسلم ١٣: ٢). ويروى في حديث آخر أنه إذا غم الهلال، يتم إكمال عدة شعبان ثلاثين يوماً (البخاري ٣٠: ١١). وأسهل طريقة بالنسبة لأمة قال عنها النبي «نَحْنُ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ» هو بدء الصيام وإنهاؤه بروية هلال الشهر^٥ وما زالت هذه هي أسهل طريقة بالنسبة للعوام الذين يعيشون في القرى والأماكن النائية، ولكن الحديث المستشهد به أعلاه يجيز أيضاً الحكم على طلوع هلال الشهر بالحساب. ورغم ذلك، هناك نهي صريح عن صوم يوم الشك (أبي داود ١٤: ١٠).

اختيار شهر رمضان للصوم

فيما يلي نص الأمر الذي ورد في القرآن بشأن صيام شهر رمضان: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٥)). ويتبين من نص الأمر القرآني أن هناك مبرراً وراء اختيار هذا الشهر بعينه شهراً للصوم. فقد اختير شهر رمضان لأنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن. ومن المعروف أن القرآن نزل مرفقاً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً؛ ومن ثم يقصد بنزوله في شهر رمضان أن نزوله بدأ في ذلك الشهر. وهذه حقيقة تثبت التاريخ. فقد نزل أول وحى على النبي (صلى الله عليه وسلم) في الليلة الرابعة والعشرين من شهر رمضان عندما كان صلى الله عليه وسلم معتكفاً بغار حراء (جامع البيان في تفسير القرآن، سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٥)). ومن ثم، ففي شهر رمضان بزغ أول شعاع للنور الإلهي على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) وظهر الملك جبريل حاملاً الرسالة السماوية العظيمة. ولذلك، يعتبر الشهر الذي شهد أعظم تجربة روحية مر بها النبي (صلى الله عليه وسلم) أنسب شهر لتهديب نفوس أفراد الأمة الإسلامية من خلال الصوم.

وهناك أسباب واضحة وراء اختيار شهر قمري ليكون شهر الصوم. حيث يقتسم العالم أجمع مزايا ومسائير الفصل الذي يأتي فيه الشهر القمري. في حين أن الشهر الشمسي كان سيعود على

^٥ قد يثبت هلال رمضان بشهادة رجل واحد على أن يكون عدلاً. ويروى أنه ذات مرة غم على أهل المدينة هلال شهر رمضان فأرادوا ألا يصوموا، فجاء أعرابي وشهد أنه رأى الهلال. فقبل النبي (صلى الله عليه وسلم) شهادته وأمر الناس بأن يصوموا (أبي داود ١٤: ١٤).

جزء من العالم بالمزايا المتمثلة في قصر النهار وبرودة الجو ويتقل الجزء الآخر بالمساوي المتمثلة في طول النهار والجو الحار. وبذلك، يتفق الشهر القمري مع عالمية تعاليم الإسلام كما يقتسم جميع البشر المزايا والمساوي بالتساوي. ومن ناحية أخرى، فلو لم يكن قد تم تحديد وقت معين للصوم، لفقد النظام فعاليته. وبسبب اختيار شهر معين للصوم، فإنه بقدم هذا الشهر، يحرك العالم الإسلامي أجمع تيار واحد. والحركة التي يحدثها حلول شهر رمضان في العالم الإسلامي هي أكبر حركة جماعية على وجه الأرض. فالغني والفقير، عالية القوم وأسافلهم، السيد والخادم، الحاكم والمحكوم، الأبيض والأسود، الشرقي والغربي في شتى أرجاء العالم، كل هؤلاء يغيرون فجأة مجرى حياتهم عندما يشهدون هلال رمضان في الأفق الغربي. وليس هناك مثل لحركة جماعية على هذا النطاق على وجه الأرض، وهو ما يعزى إلى تحديد شهر معين للصوم.

من يرخص لهم في الفطر

نزل الأمر بالصوم فقط لمن يشهد الشهر، كما قال تعالى في كتابه العزيز: "فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ". والفعل شَهِدَ مشتق من المصدر شهادة؛ وعلى ذلك، فرض الأمر بالصيام فقط على من يشهد الشهر. ومن الواضح أن نطاق الأمر بالصيام لا يشمل جميع الأشخاص الذين يعيشون في أماكن لا تنقسم فيها السنة إلى اثني عشر شهراً. ولا يكون الصيام واجباً في حالتهم.

وقد خص الأشخاص المرخص لهم الفطر بالذكر سواء في الكتاب أو السنة. حيث يرد في القرآن أنه يرخص الفطر للمريض والمسافر وذلك في قوله تعالى: "فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٤)). ولكن هذا ليس إعفاءً تاماً للمريض والمسافر من الصوم؛ حيث يجب عليهم القضاء عندما يبرأ المريض أو ينتهي السفر، ولكن ربما توجد حالات مرض طويل أو سفر مستمر وعندئذ يرخص لأصحاب هذه الحالات الفدية بإطعام مسكين عن كل يوم. ولكن السنة تتناول الموضوع بمزيد من التفصيل وتخفف عن فئات معينة من الأشخاص غير القادرين على الصوم بسبب عجز جسدي.

^٦ تفسر كلمة "يُطِيقُونَهُ" بوجه عام على أنها تعني القادرين عليه. وإذا أخذنا بهذا التفسير، فسوف يكون المعنى أن المرضى والمسافرين يجوز لهم إما قضاء الصيام، عندما يزول عنهم ما منعه من الصيام، أو الفدية بإطعام مسكين عن كل يوم يفطرونه. ولكنني أفضل التفسير الآخر الذي قبله بعض المفسرين، أي أن كلمة يُطِيقُونَهُ يقصد بها الذين يشق عليهم حتى قضاء الصوم؛ فقط هؤلاء الأشخاص يجوز لهم الفدية بإطعام مسكين عن كل يوم يفطرونه. وهذا التفسير تعززه قراءة أخرى للكلمة "يُطِيقُونَهُ" أي الذين يفرض عليهم ما يشق عليهم. وقراءة ابن عباس للكلمة يُطِيقُونَهُ (البخاري ٦٥: سورة البقرة (٢)، الباب رقم (٢٥)) تحمل معنىً مشابهاً، ويفسر ابن عباس هذه الكلمة على أنها تشير إلى كبار السن غير القادرين على الصيام.

فيروى عن أنس (رضي الله عنه) أنه كان يطعم عن كل يوم مسكيناً عندما بلغ منه الكبر ما أضعفه عن الصوم (البخاري ٦٥، سورة البقرة (٢)، الباب رقم (٢٥)) كما يروى عن ابن عباس (رضي الله عنه) أنه كان يرى أن عبارة "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ" تشير إلى الشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة، والحامل، والمرضع وأنهم جميعاً مرخص لهم الفطر وإطعام مسكين عن كل يوم - ولا يجوز للحامل والمرضع الفطر إلا إذا خافتا على ولدهما (أبي داود ١٤: ٣). وقد كان يؤمن بهذا الرأي أيضاً الحسن وإبراهيم (البخاري ٦٥، سورة البقرة (٢)، الباب رقم (٢٥)). ومما سبق، يتبين لنا أن الفكرة الأساسية هي ألا يحمل المرء ما لا يطيق. وحالة كبار السن الذين أوهنهم الكبر واضحة تماماً، في حين أنه في حالة الحامل والمرضع، ترجع رخصة الفدية إلى أن الصوم قد يلحق ضرراً بالجنين أو بالرضيع وكذلك بالمرأة نفسها؛ وبما أنها قد تظل في هذا الوضع فترة طويلة، فإنها أعطيت ميزة التخفيف. ويعامل العليل والضعيف الذين لا يطيقه كمريض. كما يتناول ابن تيمية أيضاً بمزيد من التفصيل مبدأ جواز قضاء الصوم في حالات المشقة ويرى أن المقاتلين يرخص لهم الفطر، رغم أنهم قد لا يكونون على سفر، لأن مشقة الحرب أكبر من مشقة السفر (زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ١٦٥، ١٦٦). ومن هذا، يحتج بأنه في حالات الأعمال الشاقة التي لا يمكن تجنبها، يرخص للعمال الذين يضطعون بتلك الأعمال قضاء الصوم.

ومن الصعوبة بمكان تحديد حد المرض أو السفر المبيح للفطر. حيث يرى عطاء أنه مهما كان المرض الذي يصيب الإنسان، سواءً كان شديداً أم خفيفاً، فإنه يخوله حق الأخذ بالرخصة (البخاري ٦٥، سورة البقرة (٢)، الباب رقم (٢٥)). ولكن بوجه عام يُعتقد أن المرض المبيح للفطر هو ذلك المرض الذي قد يلحق بصاحبه الضرر إذا صام. وبالنسبة للسفر، فلم يُروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أي قول بشأن حد السفر المبيح للفطر (زاد المعاد، الجزء الأول، ص. ١٦٦). فيروى أن صحابياً يدعى دحية الكلبي سافر إلى قرية تبعد عن موطنه مسافة ثلاثة أميال تقريباً وأفطر وأفطر معه ناس، وكره آخرون أن يفطروا (أبي داود ١٤: ٤٦). ولكن يعتقد أن السفر المبيح للفطر يجب أن تزيد مدته عن يوم، أي أربع وعشرين ساعة؛ ووفقاً لآخرين، يجب أن تزيد مدته عن يومين؛ ورغم ذلك يرى البعض الآخر وجوب زيادة مدة السفر عن ثلاثة أيام على الأقل. ولكن عندما تكون الرحلة بدأت بالفعل، يجوز للمسافر أن يفطر، مهما كان طول المسافة التي قطعها. وعلى ذلك، يروى عن أبي بصرة الغفاري، وهو أحد صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أنه ركب سفينة من الفسطاط إلى الإسكندرية وأفطر عندما لم تكن بيوت الفسطاط اختفت عن مرآه بعد (أبي داود ١٤: ٤٥). وإنني أفسر الرخصة في حالة المرض أو السفر على أنها تشير إلى المرض أو السفر الذي يسبب مشقة لصاحبه لأن الرخصة تليها عبارة: "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٥)).

وكما تبين العبارة المستشهد بها أعلاه، فإن الهدف من رخصة الفطر في حالة المرض أو السفر هو التيسير على الشخص الذي يجب عليه الصيام. ورغم ذلك، هناك رأي قوي يقول بأنه يجب الأخذ برخصة الله تعالى، بالضبط كما في حالة الصلاة حيث يجب على المسافر أن يقصر صلاته. ورغم ذلك، لا تستوي حالة الصلاة والصوم لأنه في حالة الفطر يجب على الصائم قضاء الأيام التي أفطرها، في حين أنه في حالة الصلاة، ليس هناك التزام على المسافر عند انتهاء السفر. ومن ثم، فإن المريض والمسافر أمامهما خيار الصوم إذا لم يشق عليهم أو الأخذ بالرخصة والفطر. وتتعكس الرخصة التي ينقلها النص القرآني في العديد من الأحاديث الصحيحة. فهناك أحاديث يروى فيها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) صام عندما كان على سفر (البخاري ٣٠: ٣٣). وفي أحد الأحاديث الشريفة، يروى أنه في سفر معين في يوم شديد الحرارة، لم يصم من المسافرين سوى النبي (صلى الله عليه وسلم) وابن رواحة (البخاري ٣٠: ٣٥). وهناك أحاديث أخرى يروى فيها أنه عندما سأل شخص ما النبي (صلى الله عليه وسلم) عما إذا كان يجب عليه الصوم أم الفطر عندما يكون على سفر، وكان كثير الصيام، فأجابته النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله: "إِنْ شِئْتَ فَصُمْ وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ" (البخاري ٣٠: ٣٣). ويروي أنس (رضي الله عنه) أنهم كانوا يسافرون مع النبي (صلى الله عليه وسلم) فلم يعيب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم (البخاري ٣٠: ٣٧). وما من أدنى شك في أنه يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله إنه "لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ"، ولكنه صلى الله عليه وسلم قال هذه الكلمات لرجل شق عليه الصوم والتف الناس حوله ليظلموه (البخاري ٣٠: ٣٦). والعنوان الذي أعطاه البخاري لهذا الباب ذو مغزى: "قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ ظَلَّلَ عَلَيْهِ وَأَشْتَدَّ الْحَرُّ لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ"، حيث إنه من الواضح أن معنى العبارة أنه يجب على الرجل عدم الصوم عندما يشق عليه. وهناك كثير من الأحاديث الشريفة التي تتناول هذا الموضوع ويبدو أن بعضها يتعارض مع البعض الآخر، ولكن البينة ترجح إعطاء الفرد خيار الصوم أو الفطر.

على من يجب الصيام

توجه الأوامر الواردة في القرآن للبالغين، وكذلك أيضاً الأمر بالصيام. ووفقاً للإمام مالك، فإن الصيام غير واجب على الصبي، ولكن يروى عن الخليفة عمر (رضي الله عنه) قوله: "وَصَوْمُ صَبِيَّانَنَا" (البخاري ٣٠: ٤٧). ولكنهم ربما كانوا يصومون صبيانهم الصغار عندما لا يشتد الحر وربما كان الهدف من ذلك تعويدهم على الصيام من الصغر. ومما سبق ذكره، يتبين لنا أيضاً أن الصيام لا يجب إلا على القادرين. وقد وضع الفقهاء ثلاثة شروط يجب توافرها في الصائم، وهي: أن يكون بالغاً، قادراً، عاقلاً. كما يجب الصيام على المرأة إذا لم تكن حائضاً (البخاري ٣٠: ٤١).

ولكن رغم أن الحائض تعفى من فريضة الصلاة تماماً، فإنه يجب عليها قضاء الصيام بعد شهر رمضان حيث تعامل في هذا الشأن معاملة المريض. ويعتبر دم النفاس بمثابة حيض مع فارق أنه إذا كانت الأم مرضعاً يجوز لها الفدية بإطعام مسكين عن كل يوم تقطره. وفي جميع الحالات التي يجب فيها قضاء الصيام، سواءً في حالة المريض أم المسافر أم الحائض، يكون للشخص مطلق الحرية في قضاء الصيام وقتما يشاء قبل حلول شهر رمضان القادم (البخاري ٣٠: ٤٠).

صوم التطوع

في كل عبادات الإسلام الأربع - الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج - هناك فرض ونفل. ولكن هناك بعض القيود المفروضة على صوم التطوع لأنه لو أكثر الصائم منه لأدى إلى إضعاف بنيته الجسدية. ويشرح الحديث التالي إلى أي مدى يمكن للرجل أن يصوم صوم التطوع، فقد روي **أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ أُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنِّي أَقُولُ وَاللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَاقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عَشْتُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَاقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عَشْتُ فَلْتُ قَدْ قُلْتُهُ قَالَ إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَفَمُ وَنَمْ وَصُمْ (تطوعاً) مِنْ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بَعَشْرَ أَمْثَالِهَا وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ فَقُلْتُ إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ قَالَ قُلْتُ إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا وَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ وَهُوَ أَغْدَلُ الصِّيَامِ قُلْتُ إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ" (البخاري ٣٠: ٥٦).** ويبين هذا الحديث أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يُرَغَّبُ بالفعل في صيام ثلاثة أيام من كل شهر تطوعاً، ولكنه عليه الصلاة والسلام نهى عن وصال صوم التطوع لأي سبب أياً كان. وهناك أحاديث يروى فيها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) رَغَّبَ في صوم التطوع خاصة في أواخر شعبان^٧ أو الأيام البيض، أي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر من الشهر القمري^٨، أو صوم يومي الاثنين والخميس^٩ أو صوم يوم عرفة، أي اليوم الذي يسبق عيد الأضحى،^{١٠} أو صوم الستة

^٧ البخاري ٣٠: ٦٢؛ أبي داود ١٤: ٥٦.

^٨ البخاري ٣٠: ٦٠؛ مسند أحمد، الجزء الرابع، ص. ١٦٥.

^٩ أبي داود ١٤: ٥٩.

^{١٠} (الترمذي ٨: ٤٥). هناك حديث يروى فيه أن أم الفضل أرسلت قحداً من اللبن إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم عرفة لحسم المسألة فشربه النبي (صلى الله عليه وسلم) (البخاري ٣٠: ٦٥).

الأولى من شوال^{١١}، أو صوم شهر محرم^{١٢} أو صوم أيام التشريق، أي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة^{١٣} أو صوم عاشوراء أي العاشر من محرم^{١٤}؛ ولكن سنته صلى الله على وسلم أنه لم يكن يختص يوماً أو أياماً معينة لصوم التطوع، كما يبين الحديث التالي: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْتَصُّ مِنَ الْأَيَّامِ شَيْئاً (للصيام) قَالَتْ لَا" (البخاري ٣٠: ٦٤).

القيود المفروضة على صوم التطوع

يُنهى عن صوم التطوع خاصة في يومي العيدين (البخاري ٣٠: ٦٦). كما ينهى أيضاً عن أن يخص يوم الجمعة من بين الأيام بصوم التطوع (البخاري ٣٠: ٦٣). كما ينهى عن صوم يوم أو يومين قبل رمضان (البخاري ٣٠: ١٤). ومن القيود الأخرى المفروضة على صوم التطوع عدم الإكثار منه إذا كان من المحتمل أن يحول دون أداء الواجبات الأخرى المكلف بها العبد. فالإسلام لا يدعو إلى الزهد وينهى عن أن يذهب المرء إلى حد إهمال واجباته الدنيوية من أجل واجباته الدينية. وإنما يهدف الدين لمساعدة الإنسان على أن يحيا حياة أفضل، وينهى عن صوم التطوع إذا لم يكن الهدف منه تمكين الإنسان من تحقيق هذه الغاية. وهذا ما توضحه قصة أبي الدرداء وسلمان اللذين أخى النبي (صلى الله عليه وسلم) بينهما. ويروى فيها أن سلمان زار أبا الدرداء فرأى زوجته متبذلة. وعندما سأله عن السبب أجابت بأن أبا الدرداء أصبح زاهداً في الدنيا. وعندما عاد أبو الدرداء إلى بيته وقدم الطعام، لم يأكل لأنه كان صائماً. فقال سلمان إنه لن يأكل حتى يأكل أبو الدرداء فأكل أبو الدرداء (وأفطر). فلما كان الليل، استيقظ أبو الدرداء بعد أن أخذ قسطاً من الراحة، فطلب منه سلمان أن ينام وعندما كان الثلث الأخير من الليل، أديا صلاة التهجد معاً. ثم قال سلمان لأبي الدرداء: "إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا". وعندما ذكر ذلك للنبي (صلى الله عليه وسلم) صدَّق على ما قاله وفعله سلمان (البخاري ٣٠: ٥١). ومن ثم، ينهى من أجل الزوجة عن صيام زوجها. وبالمثل، ينهى عن أن تصوم المرأة تطوعاً بدون إذن زوجها (البخاري ٦٧: ٨٥). وكما أفطر المضيف في المثال المستشهد به أعلاه بسبب ضيفه، هناك حديث يروى فيه أنه ينهى عن أن يصوم الضيف تطوعاً بدون إذن مضيفه (الترمذي ٨: ٦٩).

^{١١} أبي داود ١٤: ٥٧.

^{١٢} أبي داود ١٤: ٥٥.

^{١٣} البخاري ٣٠: ٦٨.

^{١٤} البخاري ٣٠: ٦٩. خص يوم عاشوراء بالصوم قبل فرض صوم رمضان، ولكن صومه أصبح بعد ذلك تطوعاً.

صوم الكفارة

يستحب الصوم أيضاً ككفارة لمخالفة بعض الأوامر الإلهية. وتتمثل أنواع صوم الكفارة التي وردت في القرآن فيما يلي: (١) صيام شهرين متتابعين إذا قتل المسلم أخاه المسلم بالخطأ وعجز القاتل عن تحرير رقبة (سورة النساء (٤): الآية رقم (٩٢))؛ (٢) صيام شهرين متتابعين إذا ظاهر الرجل زوجته (هجر الرجل زوجته قائلاً لها: "أنت علي كظهر أمي") وعجز عن تحرير رقبة (سورة المجادلة (٥٨): الآيتان رقم (٣) و(٤))؛ صيام ثلاثة أيام كفارة اليمين، الذي يحلفه يحرم الفرد نفسه من شيء حلال، إذا عجز عن تحرير رقبة أو إطعام عشرة مساكين (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٨٩))؛ (٤) صيام يحكم به عدلان كفارة قتل الصيد في حال الإحرام كبديل لإطعام المساكين (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٩٥)).

وقد ورد في السنة أن كفارة الإفطار عمداً في نهار رمضان هي صيام شهرين متتابعين (البخاري ٣٠: ٣٠). وهذه حالة رجل جامع زوجته وهو صائم في نهار رمضان وأخبره النبي (صلى الله عليه وسلم) بأن يحرق رقبة. فعندما أخبر صلى الله عليه وسلم أن الرجل فقير لدرجة أنه يعجز عن ذلك، سأله عليه الصلاة والسلام عما إذا كان يستطيع أن يصوم شهرين متتابعين فأجاب الرجل بالنفي. ثم سأله النبي (صلى الله عليه وسلم) عما إذا كان يستطيع أن يطعم ستين مسكيناً فأجاب أيضاً بالنفي. وعليه، انتظر النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى أتى له بكيس من التمر للتصدق به فأعطاه النبي (عليه الصلاة والسلام) إلى الرجل الذي أفطر قائلاً له أن يتصدق به. فقال الرجل إنه لا يوجد في المدينة من هو أفقر منه، فضحك النبي (صلى الله عليه وسلم) من قلبه وسمح له بأن يأخذ كيس التمر ليطعم به أهله. مما يبين أن الهدف من صيام الكفارة شهرين متتابعين هو جعل المخالف لأمر الله يشعر بالندم على الذنب الذي ارتكبه. ورغم ذلك، كان أبو هريرة (رضي الله عنه) يرى أنه لا كفارة لإفطار يوم في رمضان حتى لو صام الرجل العمر كله؛ في حين يرى آخرون (الشعبي، وابن جبير، وقتادة، وآخرون) أن كفارة إفطار يوم في رمضان هي قضاء ذلك اليوم (البخاري ٣٠: ٢٩).

صوم الفدية

كما ورد أيضاً في القرآن ذكر الصوم على سبيل الفدية (أي كتعويض عن التقصير في عمل ما). وعلى ذلك، ففي حالة الحجاج الذين، لسبب ما، تعذر عليهم أداء جميع واجبات الإحرام، يجب عليهم صيام الفدية (لمدة ثلاثة أيام) كبديل للتصدق بشيء وذبح شاة (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٦))؛

وفي حالة الحجاج الذين، عند الجمع بين العمرة والحج في أشهر الحج ("التمتع")، قد يتحللون من الإحرام في الفترة الفاصلة بينهما، تكون الفدية صيام ثلاثة أيام أثناء الحج وسبعة أيام بعد الرجوع (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٦)).

صوم النذر

ذكر في القرآن مثال لنذر الصوم حيث تقول السيدة مريم أم عيسى (عليه السلام): "إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا" (سورة مريم (١٩): الآية رقم (٢٦)). ورغم ذلك، يبدو أن هذا مجرد صوم عن الكلام وعدم تكليم أي شخص؛ وقد ذكر صوم الصمت في حالة نبي الله زكريا (عليه السلام): "أَتَيْتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْزَرًا وَادُّكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٤١)). وتبين حالة نبي الله زكريا أن هدف صوم الصمت هو ذكر الله، ويتبين لنا من بعض الأحاديث النبوية أنه إذا نذر الفرد الصوم، فإنه يجب عليه أن يفي بنذره (البخاري ٣٠: ٤٢) في حين أنه يروى في حديث آخر أن امرأة جاءت إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وقالت له إن أمها ماتت، وإنها كانت قد نذرت صوم عدة أيام فأخبرها النبي (صلى الله عليه وسلم) أن تقي بالنذر (المرجع السابق). ولكنه لم يرد أي حديث يُرغَب في نذر الصوم.

وقت الصوم

تم تحديد وقت الصوم بوضوح في القرآن في قوله تعالى: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٧)). ويبدأ الليل عند غروب الشمس ومن ثم يبدأ الصيام في الاصطلاح الإسلامي من طلوع الفجر، الذي يكون بوجه عام قبل الشروق بساعة ونصف تقريباً، حتى غروب الشمس. ولكنه ينهي قطعاً عن وصال الصوم، أي وصال الصوم طوال الليل وطوال اليوم التالي دون إفطار (البخاري ٣٠: ٤٨، ٤٩). ولكن هناك حديثاً شريفاً يجيز وصال الصوم حتى السحر (البخاري ٣٠: ٥٠). مما يعني أنه يجوز للمسلم، إن شاء، ألا يفطر عند غروب الشمس على أن يتسحر لصيام اليوم التالي؛ وبعبارة أخرى، يجب أن يتناول وجبة واحدة كل أربع وعشرين ساعة على الأقل. وقد نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الوصال خشية أن يُضعف الناس عند وصال الصوم صحتهم أو يصحبوا غير قادرين على العمل الدنيوي لأنه يبدو أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه كان يواصل أحياناً (بالبخاري ٣٠: ٤٨، ٤٩)؛ ولكنه غير معروف بالتحديد عدد الأيام التي كان يواصل فيها الصوم. و فقط ذات مرة، عندما واصل بعض الصحابة الصوم مع النبي (صلى الله عليه وسلم)، واصل بهم ثلاثة أيام متتابعة ولأنه كان آخر

الشهر طلع هلال الشهر الجديد مساء اليوم الثالث فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لهم أنه لو لم يطلع الهلال لواصل بهم الصوم. وعندما سأله رجل لماذا نهى الآخرين عن الوصال بينما هو نفسه يواصل، أجابه صلى الله عليه وسلم بقوله: "إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي" (البخاري ٤٩: ٣٠). وقد كان صلى الله عليه وسلم يشير بالطبع إلى الغذاء الروحي الذي يجعل الرجل أحياناً يتحمل الجوع والعطش بشكل غير عادي، وبذلك يحل، إلى حد ما، محل الطعام والشراب. ولكن نفس الغذاء الروحي ليس متوافراً لجميع الناس بالإضافة إلى أنه لو كان رخص بوصول الصوم لعموم الناس، لترتب عليه ظهور ممارسات الزهد التي لا يدعو لها الإسلام. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن الصوم، وفقاً لما جاء بالقرآن، يقصد به الإمساك عن الطعام والشراب، وإن تحمل الجوع والعطش ثلاثة أيام متوالية في بلد شديد الحرارة مثل الجزيرة العربية يدل على قوة التحمل غير العادية التي اكتسبها صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رغم أن قوة تحمله صلى الله عليه وسلم كانت أكبر بكثير. وهذا التحمل يرجع بلا شك إلى القوى الروحية غير العادية.

وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أيضاً أنه رغم أن السحور غير واجب، فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) رغم ذلك أكد عليه بصفة خاصة وقال أن فيه بركة لأنه يساعد الإنسان على تحمل مشقة الصوم. حيث يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً" (البخاري ٢٠: ٣٠). ويتسحر الصائم قرب طلوع الفجر. فيروي أحد صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه، بعد السحور، كان يسرع إلى المسجد حتى يتمكن من أداء صلاة الفجر. ويروي صحابي آخر أن الفترة ما بين الفراغ من السحور وبدء صلاة الجماعة هي الفترة التي لا يكاد يستطيع المرء يقرأ فيها خمسين آية (البخاري ٩: ٢٧). ومن المستحب تأخير السحور قرب طلوع الفجر بقدر الإمكان (مسند أحمد، الجزء الخامس، ص. ١٤٧). وفي أحد الأحاديث الشريفة، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله إن أذان^{١٥} بلال يجب ألا يمنع الناس من سحورهم لأن بلالاً يؤذن بالليل حتى يختم من يؤدي صلاة التهجد صلاته ويستيقظ النائم من نومه (البخاري ١٠: ١٣). ووفقاً لحديث آخر، يواصل الناس سحورهم حتى يؤذن ابن أم مكتوم لأنه كان رجلاً أعمى ولا يؤذن حتى "يُقَالُ لَهُ أُصْبَحْتَ أُصْبَحْتَ" (البخاري ١٠: ١١) (أي حتى يبيغ الفجر ويستيقظ الناس من طلوعه). وحتى إذا نودي للصلاة عند طلوع الفجر وكان في يد الرجل إناء ليشرّب منه فلا يتركه حتى يشرب (أبي داود ١٤: ١٨).

وكما أنه من المستحب تأخير السحور، فإنه من المستحب تعجيل الفطر. حيث يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله إنه إذا غربت الشمس يفطر الصائم (البخاري ٣٠: ٤٥). ووفقاً لحديث

^{١٥} أذان الفجر يدل على طلوع الفجر.

آخر، يروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ" (البخاري ٣٠: ٤٥).
والبعض لا يفطر حتى تظهر النجوم في السماء اعتقاداً منهم أن الليل لا يأتي حتى ينتشر الظلام،
ولكن ليست هناك حجة تعزز هذا الرأي.

النية

هناك سوء فهم شديد شائع بشأن النية في الصيام. والنية يقصد بها في الحقيقة القصد أو العزم على فعل شيء؛ ولكن يُعتقد بالخطأ أن النية عبارة عن ترديد كلمات معينة تبين أن الفرد ينوي عمل شيء ما. وقد وضح البخاري المعنى الحقيقي للنية عندما بوب البخاري في صحيحه: "باب: مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا وَنِيَّةً" (البخاري ٣٠: ٦). ويضيف البخاري جزءاً من حديث روت فيه السيدة عائشة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله إن الناس "يُعْتُونَ (يوم القيامة) عَلَى نِيَّاتِهِمْ". ويعتبر أول حديث استهل به البخاري كتابه مثلاً للمعنى المقصود بالنية: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ (الصالحة) بِالنِّيَّاتِ"^{١٦}. ومن ثم، فمن عمل عملاً صالحاً بنية سيئة، لن ينفعه عمله. وبالضبط نفس الهدف يوضع في الاعتبار عند القول باشتراط النية في الصيام كما قال البخاري؛ أي أن الصائم يجب أن يكون أمامه غاية أو هدف. وقد سبق أن ذكرنا أن الغاية أو الهدف من الصوم، وفقاً لما جاء بالقرآن، هو تقوى الله، وتهذيب النفس بالصوم، والتقرب إلى الله ومرضاته في كل أعمال العبد وتهذيب الأخلاق من خلال الصوم، واجتناب جميع المعاصي. وبهذا المعنى فقط تعتبر النية ركناً من أركان الصيام بالضبط كما تشكل بالفعل ركناً في جميع الأعمال الصالحة.

ولم يرد في القرآن أو في السنة وجوب "التلفظ بالنية"، أي التعبير عن النية بكلمات معينة، كما أنه في الحقيقة لا معنى للتلفظ بالنية لأن الإنسان لن يصوم إلا إذا كانت لديه النية على ذلك. و فقط في صوم التطوع، كما يروى في أحد الأحاديث الشريفة، بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) رجلاً ينادي في الناس يوم عاشوراء أن من لم يأكل فليصم. وعن أبي الدرداء، يروى أنه كان يسأل زوجته عما إذا كان عندهم طعام فإن لم يجد كان يصوم (البخاري ٣٠: ٢١). ووفقاً لما روته السيدة عائشة (رضي الله عنها)، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يسأل عما إذا كان عندهم أي طعام في البيت فإن لم يجد كان يصوم (أبي داود ١٤: ٧٠). وفي صيام التطوع، يمكننا أن نفهم

^{١٦} الأعمال يقصد بها الأعمال الصالحة. وهو ما يتبين لنا بالرجوع إلى الكلمات التي تليها لأن مثال الأعمال المذكورة في الحديث هو الهجرة، أي هجرة الرجل من أجل مبادئه وهي عمل جليل، ولكن، كما ورد في الحديث، فإن من هاجر بنية سيئة، أي لكسب مال دنيوي أو من أجل امرأة ينكحها، فلا تصح هجرته. ومن البديهي أنه لا محل لحسن النية في الأعمال السيئة ومن ثم يقصد بالأعمال في هذا الحديث الأعمال الصالحة.

مغزى النية في النهار، ولكن النية غير واردة في نهار رمضان، في الوقت الذي يعلم فيه كل فرد أنه يجب عليه الصيام.

المُفْطِرَات

كلمة **إِفْطَار** مشتقة من **الفَطْر** وهو **الشق طَوَّلاً** (المفردات في غريب القرآن) والأشياء التي تفتقر تسمى **مُفْطِرَات** (جمع **مُفْطِر**). وبما أن الأشياء الثلاثة التي يجب على الصائم الإمساك عنها أثناء الصوم هي الأكل، والشرب، والجماع، فإنه لو فعلها باختياره^{١٧} وعمداً فيما بين طلوع الفجر وغروب الشمس فإنها تفتقره، ولكنه إذا فعلها ناسياً أو غير متعمد، لا يبطل صومه ويجب عليه أن يتمه (البخاري ٣٠: ٢٦). وغسل الفم بالماء أو بالسواك أو المضمضة أو الاستنشاق، حتى لو سبق قليل من الماء إلى حلقه من غير قصد، كل هذا غير مفطر (البخاري ٣٠: ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨). ولا يفطر أيضاً الاغتسال أو وضع فوطه مبللة على الرأس أو صب الماء على الرأس، حتى لو كان عن عمد لتخفيف شدة العطش (البخاري ٣٠: ٢٥؛ مشكاة المصابيح ٧: ٤-٢). كما أن الحجامة والقيء لا يفطران أيضاً لأنه لا يفطر، كما قال ابن عباس وعكرمة، إلا ما يدخل الجسم وليس ما يخرج منه^{١٨} (البخاري ٣٠: ٣٢). ويروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يقبل أزواجه وهو صائم (البخاري ٣٠: ٢٣). وهناك اختلاف في الرأي حول كفارة الإفطار عمداً قبل الوقت المحدد له، كما هو موضح تحت عنوان "صوم الكفارة". ورغم أن القرآن لم يرد فيه أي شيء حول هذه النقطة، فإن السنة ورد فيها أنه يكفي أن يكون المفطر صادقاً في توبته. وإذا أفطر الصائم يوم غيم معتقداً غروب الشمس ثم طلعت الشمس، عندئذ يجب عليه القضاء (البخاري ٣٠: ٤٦). وإذا كان الرجل صائماً ثم سافر، يجوز له أن يفطر (البخاري ٣٠: ٣٤). ويجوز اتباع نفس القاعدة في حالة المرض. وفي حالة صوم التطوع، تكون للرجل الحرية في أن يفطر بسبب الضيف أو إلحاح الصديق (البخاري ٣٠: ٥١).

الجانب الأخلاقي للصوم

كل ما ذكر حتى الآن يرتبط فقط بشكل الصوم، ولكن، كما ذكرنا في البداية، فإن جوهر الصوم يكمن في فائدته الأخلاقية والروحية وقد أكد القرآن والسنة بصفة خاصة على هذا. فقد ورد في أحد

^{١٧} ومن ثم، أي شيء يفعله الصائم بالإكراه أو بدون اختياره لا يفطر.

^{١٨} هناك اختلاف في الرأي حول بعض هذه النقاط الثانوية، ولكن ما ذكر هنا يستند إلى ما ورد عن ثقافتهم.

الأحاديث الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشِرَابَهُ" (البخاري ٣٠: ٨). وينطبق هذا على جميع أحكام الدين الإسلامي. حيث يدين القرآن في كلمات واضحة الإنسان الذي يصلي دون أن يضع نصب عينيه مغزى الصلاة والهدف منها: "قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ (هدف) صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ" (سورة الماعون (١٠٧): الآيتان رقما (٤) و(٥)). وفي حديث آخر، يبين الجانب الأخلاقي للصوم في قوله صلى الله عليه وسلم: "الصِّيَامُ جُنَّةٌ وَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يَوْمًا صَائِمًا فَلَا يَزُفْتُ وَلَا يَجْهَلُ وَإِنْ أَمْرٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ نُكُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ" (البخاري ٣٠: ٢). وليس الإمساك عن الطعام هو الذي يجعل رائحة فم الصائم طيبة؛ وإنما الإمساك عن الرفث، والسب، والقول والعمل الفاحش بكل أنواعه إلى حد أنه لا يقول كلمة فاحشة ولو كان على سبيل الرد بالمثل. وبذلك، لا يخضع الصائم فحسب لتهديب جسدي بكبح شهواته الحسية، والرغبة في الطعام والشراب، بالإضافة إلى كبح الشهوة الجنسية، وإنما يخضع بالفعل لتهديب أخلاقي مباشر بالامتناع عن جميع أنواع القول والعمل الفاحش. إذن، الصوم ليس فحسب تهذيباً من الناحية الجسدية مما يترتب عليه تحقيق فائدة أخلاقية؛ وإنما هو أيضاً تهذيب مباشر من الناحية الروحية. وعند الله تعالى، كما ورد صراحة في هذه الأحاديث، فإن الصوم لا يبطل فحسب بالأكل والشراب، وإنما أيضاً بقول الزور أو الرفث، أو الخيانة، أو العمل الفاحش.

وتزداد الفائدة الأخلاقية لنظام الصوم بالتأكيد على الإحسان للغير في شهر رمضان. ويستشهد بالنبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الصدد في أحد الأحاديث: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ" (البخاري ٣٠: ٧). وفي حديث آخر، يوصف شهر رمضان بأنه الشهر الذي يجب فيه على المسلمين الشعور بالآلام إخوانهم الفقراء والجائعين (مشكاة المصابيح ٧: ١-٣).

كل هذه الأوامر توضح معنى الحديث الذي يروى فيه أنه إذا دخل شهر رمضان "فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ" (البخاري ٣٠: ٥). وهذا ينطبق على من يصوم صوما جسدياً وأخلاقياً. ففي حالة هذا الصائم، تسلسل الشياطين لأنه يكبح جماح شهواته الدنيئة ويتغلب عليها والتي بإثارتها يوقع الشيطان الإنسان في الخطيئة. وتغلق أبواب جهنم لأنه يجتنب جميع المعاصي التي تؤدي بالإنسان إلى جهنم. وتفتح له أبواب الجنة لأنه يسمو بنفسه على الشهوات الحسية ويكرس نفسه لخدمة الإنسانية. وفي أحد الأحاديث الشريفة، يوصف الصوم بأنه يؤدي إلى مغفرة ذنوب "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا وَنِيَّةً" (البخاري ٢: ٢٨؛ ٣٠: ٦). وما من أدنى شك في أن الصوم كما يوصف هنا، أي عندما يصوم الشخص إيماناً بربه وابتغاء مرضاته، فإنه يصبح بمثابة توبة عملية تنفع صاحبها؛ وعندما يتوب العبد توبة نصوحاً عن ذنوبه، يغفر له ما تقدم من ذنبه لأن مجرى حياته قد تغير.

ورغم ذلك، هناك معنى آخر تُفتح به أبواب الجنة للصائم في رمضان. وهذا المعنى يناسب الرقي الروحي والتقرب لله. فعن شهر رمضان، قال تعالى في كتابه العزيز: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٦)). ويذكر في الآية أن سبل التقرب لله تعالى تفتح خاصة في شهر رمضان وأن هذا التقرب يكون بالصلاة. ولهذا السبب، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يؤدي صلاة التهجد خاصة في شهر رمضان. كما أوصى صلى الله عليه وسلم أيضاً أتباعه بقيام الليل في هذا الشهر (البخاري ٢: ٢٧).

الاعتكاف

الاعتكاف^{١٩} في اللغة هو لزوم المكان؛ و في الاصطلاح الشرعي هو لزوم المسجد والإقامة فيه عدة أيام، وخاصة في العشر الأواخر من رمضان. وقد خصص الإمام البخاري كتاباً كاملاً لموضوع الاعتكاف (الكتاب رقم (٣٣)) موضحاً فيه سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الشأن. وفي هذه الأيام، يتخلى المعتكف عن جميع أمور الدنيا ولا يخرج من المسجد إلا حاجة مثل قضاء الحاجة أو الغسل، ولحاجات أخرى (البخاري ٣٣: ٣، ٤). وعادة ما كانت تنصب للنبي (صلى الله عليه وسلم) في ساحة المسجد خيمة ليعتكف فيها (البخاري ٣٣: ٧). كما يجوز للنساء أيضاً الاعتكاف (البخاري ٣٣: ٦). ويجوز أن يقوم بزيارة المعتكف أشخاص آخرون أو زوجته (البخاري ١٤: ٧٨). ووفقاً لأحد الأحاديث، يجوز للمعتكف زيارة المريض^{٢٠} (أبي داود ١٤: ٧٨). ويجوز الاعتكاف في أيام أخرى (أبي داود ١٥: ٧٥)، ولكن السنة خصت بالذكر العشر الأواخر من رمضان كما أنه في القرآن يرتبط الاعتكاف بشهر رمضان.

ليلة القدر

هناك ليلة في العشر الأواخر من رمضان تسمى ليلة القدر. وقد ورد ذكرها في القرآن في موضعين. ففي سورة القدر (٩٧)، ورد ذكرها ثلاث مرات باسم ليلة القدر: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ. تَنزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ. سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ". وتوصف هذه الليلة في الآيات سالفة الذكر بأنها

^{١٩} كلمة اعتكاف مشتقة من عكف عليه، أي أقبل عليه مواظباً لا يصرف عنه وجهه (المعجم العربي - الإنجليزي للين).

^{٢٠} هناك أحاديث أخرى يروى فيها أنه يجب على المعتكف عدم زيارة المريض أو المساعدة في دفن الميت، ولكن من الواضح أن كل هذه الأعمال تندرج ضمن الحاجة.

الليلة التي نزل فيها القرآن كما يذكر أيضاً أنها الليلة التي تنزل الملائكة والروح فيها. كما ورد ذكرها أيضاً في سورة الدخان (٤٤) حيث توصف بأنها **لَيْلَةٌ مُّبَارَكَةٌ** : "وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا" (سورة الدخان (٤٤): الآيات أرقام (٢-٥)). ويتبين لنا أنه، في كلا الموضعين، ورد أن القرآن نزل في هذه الليلة كما ورد في مواضع أخرى أن القرآن أنزل في شهر رمضان مما يدل على أن هذه الليلة في شهر رمضان. ويقصد بنزول القرآن في هذه الليلة أن نزوله بدأ في تلك الليلة؛ وبعبارة أخرى، نزل أول وحي على النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذه الليلة. وتسمى هذه الليلة بالليلة المباركة أو ليلة القدر لأنه في هذه الليلة وُضع أساس وحي جديد للعالم يحتوي على كل أمر حكيم. ومن ثم، تعتبر ليلة القدر بمثابة الذكرى السنوية لنزول القرآن، إذا جاز التعبير.

وكما ذكرنا آنفاً، فقد تم اختيار العشر الأواخر من رمضان بصفة خاصة كأيام عبادة لدرجة أنه رغم أن الإسلام لا يدعو إلى الزهد، فإنه في هذه الأيام يجوز للمسلم أن يحيا حياة الزهد بالاعتكاف في المسجد وترك كل أمور الدنيا. وهناك العديد من الأحاديث الشريفة التي يروى فيها أنه يجب على المسلمين تحري هذه الليلة في الوتر من العشر الأواخر من رمضان (البخاري ٣٢: ٣) أو في السبع الأواخر من رمضان (البخاري ٣٢: ٢). ووفقاً لبعض الأحاديث، فهي ليلة الخامس والعشرين أو السابع والعشرين أو التاسع والعشرين من رمضان. ويروى في أحد الأحاديث أن بعض صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ظهرت لهم ليلة القدر في أحلامهم في السبع الأواخر من رمضان (مشكاة المصابيح ٧: ٩-١). وفي هذا الصدد، ينبغي أن نضع نصب أعيننا أن ليلة القدر تجربة روحية لأنها كانت التجربة الروحية، وليست المادية، للنبي (صلى الله عليه وسلم)، وكما يبين الحديث المستشهد به آنفاً فإنها أيضاً التجربة الروحية للصحابة (رضي الله عنهم)، ومن ثم فمن الخطأ أن نعتقد أنه يمكن رؤيتها كتجربة مادية أو أنه يمكن أن يشهد أي تغير مادي في تلك الليلة. فهي التجربة الروحية للعبد الذي يجتهد في رمضان للتقرب إلى الله تعالى.

الفصل الرابع

الحج

آراء النقاد الأوروبيين بشأن إقرار الإسلام للحج

يوجد الحج^١، كفريضة، منذ قديم الزمان قبل ظهور الإسلام. ويتبنى النقاد الأوروبيون المعاصرون الرأي القائل بأن إقرار الإسلام للحج، مع إدخال بعض الإصلاحات عليه، يرجع، بطبيعة الحال، إلى عدة أسباب نشأت بعد هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة. ويأتي على رأس هذه الأسباب الانتصار الذي حققه الإسلام في غزوة بدر والذي يعتقد أنه دفع النبي (صلى الله عليه وسلم) للتطلع إلى فتح مكة، هذا بالإضافة إلى الخلاف مع اليهود، الذين كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يأمل في البداية أن يستميلهم لدعوته. وقد عرض اللغوي هبوز هذه النظرية في قاموسه الإسلامي تحت مادة "كعبة":

"عندما استقر محمد في المدينة وكان يحده أمل كبير في الاستيلاء على مكة بكل دالاتها التاريخية، يبدو أنه صرف نظره عن بيت المقدس وقبة الصخرة المقدسة وركز على البيت الذي بيكته باعتباره البيت الذي بني للناس... ولما كان اليهود متصلبي الرأي ولم يكن لديه سوى أمل ضعيف في النجاح في إثبات ما يدعوهم إليه من أنه نبيهم الذي بشر به موسى، حوّل محمد القبلة، أي جهة الصلاة، من بيت المقدس إلى مكة. وأصبح البيت الذي بمكة "مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا".

وقد طرح كتاب أوروبيون آخرون نفس النظرية، وقد أوردها الكاتب/ إيه. جيه. وينسينك مؤخرًا في دائرة المعارف الإسلامية. حيث كتب تحت مادة "حج" يقول:

^١ الحج في اللغة هو القصد للزيارة (المفردات في غريب القرآن) وفي الاصطلاح الشرعي هو قصد بيت الله تعالى إقامة للنسك (المفردات في غريب القرآن). وبيت الله أحد الأسماء التي تطلق على الكعبة؛ والنسك هي العبادة أو الطاعة؛ وهي جمع نسيكة وهي الذبيحة (النهاية في غريب الحديث والأثر). وكلمة نسيك مشتقة من نفس الجذر وتحمل معنى العبادة وجمعها نسيك وهي تستخدم خاصة للدلالة على مناسك الحج. وبوجه عام، ترد الأحكام المتعلقة بالحج في كتب الحديث تحت عنوان مناسك الحج.

"أثير اهتمام محمد بالحج لأول مرة في المدينة. ويعزى هذا الاهتمام إلى عدة أسباب، كما أوضح الكاتب/ سنوك هيرجروني في مؤلفه الذي يحمل عنوان "مهرجان الحج في مكة" *Mekkaansche Feest*. فقد حرك النصر الساحق الذي حققه المسلمون في غزوة بدر داخله فكرة فتح مكة. ومن الطبيعي أن تصبح الترتيبات لاتخاذ تلك الخطوة أكثر نجاحاً إذا أثيرت الاهتمامات الدنيوية والدينية للصحابة. وقد خاب ظن محمد في يهود المدينة، وجعلت الخلافات التي نشبت مع اليهود مخالفتهم في المسائل الدينية أمراً حتمياً. وإلى هذه الفترة، ترجع نشأة عقيدة ملة إبراهيم التي يزعم أنها النموذج الأصلي الذي استمدت منه اليهودية والإسلام. وقد أصبحت الكعبة الآن بالتدريج مركزاً للعبادة الدينية وقد بناها أبو التوحيد إبراهيم مع ابنه إسماعيل وأصبحت "مَثَابَةً لِلنَّاسِ" ... وفي هذه الفترة أيضاً، تم تحويل القبلة نحو الكعبة - كان هذا هو الوضع في العام الثاني الهجري."

ورغم أن هذه النظرية تبدو في ظاهرها منطقية جداً، فإنها في الحقيقة تتنافى تماماً مع الحقائق التاريخية. فقد خاض المسلمون غزوة بدر في العام الثاني الهجري ونشب الخلاف مع اليهود في العام الثالث الهجري بعد غزوة أحد؛ في حين تم تحويل القبلة نحو الكعبة بعد الهجرة بستة عشر شهراً (البخاري ٨: ٣١)، أي قبل غزوة بدر بثلاثة شهور تقريباً. فقد وجد البناء، الذي وفقاً للكاتب/ هيوز، ووينسينك، وهيرجروني، أقيم على أساس من النصر الذي تم تحقيقه في غزوة بدر والخلاف مع اليهود، وفكرة اتخاذ عقيدة ملة إبراهيم، أبي التوحيد، كنموذج أصلي مستمد منه الإسلام، واليهودية، والمسيحية؛ وفكرة حرمة الكعبة وارتباط اسم نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) بها؛ وفكرة تحويل القبلة إلى الكعبة؛ وفكرة تشريع الحج على أمل فتح مكة؛ كل هذه الأفكار كانت توجد ليس قبل غزوة بدر بفترة طويلة فحسب، وإنما أيضاً قبل هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة. وليس أدل على ذلك من أن دين نبي الله إبراهيم (عليه السلام)، وهو التوحيد، وردت الإشارة إليه في واحدة من السور التي نزلت في منتصف الفترة المكية حيث يوصف أبو الأنبياء إبراهيم بأنه حنيف: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا... ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ". (سورة النحل (١٦): الآيات أرقام (١٢٠-١٢٣)).

كما ورد ذلك أيضاً في واحدة من السور التي نزلت في أواخر الفترة المكية: "إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (سورة الأنعام (٦): الآية رقم (١٦١)). ومن المذهل أن نجد مستشرقين متبحرين في العلم يتجاهلون هذه الحقائق التاريخية الواضحة من أجل نظرية يتحيزون لها.

إقرار حرمة مكة والكعبة في أوائل التنزيل

وبالمثل، تذكر بوضوح في أوائل التنزيل المكي حرمة مكة وارتباط اسم نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) بها. وفي واحدة من أوائل ما نزل من السور، توصف مكة بـ "هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ" (سورة التين (٩٥): الآية رقم (٣)). وفي سورة أخرى من أوائل ما نزل، يشار إليها بلفظ البلد: "لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ." (سورة البلد (٩٠): الآيات أرقام (٣-١))؛ حيث يشار في الكلمات التي تختم بها الآيات إلى أبي التوحيد إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام). ويُطلق على الكعبة اسم "الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ" في واحدة مما نزل في نفس الفترة (سورة الطور (٥٢): الآية رقم (٤)) في حين أنه يشار إلى "الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" في سورة أخرى نزلت في أوائل الفترة المكية (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (١)). ويشار إلى حرمة مكة بكلمات أوضح في السور التي نزلت في منتصف الفترة المكية: "إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ" (سورة النمل (٢٧): الآية رقم (٩١)). كما يذكر أيضاً في السور التي نزلت في منتصف الفترة المكية اسم نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) عند الإشارة إلى مكة، وحرمتها، وجعلها مثابة للناس: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ.... رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ" (سورة إبراهيم (١٤): الآيات أرقام (٣٥-٣٧)).

أسباب عدم تحويل القبلة نحو الكعبة في وقت سابق

وعلى ذلك، ليس للنظرية التي يؤيدها المفكرون الأوروبيون أساس من الصحة. فمن الموضوعات التي تناولتها أوائل وأواخر التنزيل حرمة مكة، ومسجدها العظيم، وارتباط اسم نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) بها، وجعل مكة مثابة للناس. ورغم أنه من الصحيح أن الأوامر والنواهي العديدة نزلت بشكل تدريجي وأن الأمر بتحويل القبلة نحو الكعبة نزل في المدينة، فإن هذا حدث قبل غزوة بدر. وبصرف النظر عما ورد في القرآن بشأن حرمة مكة والكعبة، وبصرف النظر عن

فرض الحج على المسلمين قبيل نهاية إقامة النبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة، كما سيذكر فيما بعد، وبصرف النظر عن أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يرغب في أن تكون قبلته نحو الكعبة (البخاري ٢: ٣٠؛ ٨: ٣١؛ ٦٥: سورة البقرة (٢)، الباب رقم (١٨))، فإنه صلى الله عليه وسلم ظل يتبع قبلة النبي الذي جاء قبله، أي بيت المقدس، وانتظر أمر ربه بتحويلها نحو الكعبة. وقد أقر القرآن صدق جميع الأنبياء، بما في ذلك أنبياء بني إسرائيل، وبما أن عيسى (عليه السلام) كان آخر هؤلاء الأنبياء وبما أن قبلته هي نفس قبلة أنبياء بني إسرائيل،^٢ أي الهيكل الذي بني في بيت المقدس، وهو مكان باركه القرآن (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (١)) في قوله تعالى "الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى"، فقد ظل صلى الله عليه وسلم يتبع قبلة النبي الذي بعث قبله حتى نزل عليه وحي صريح بأن يستقبل المسجد الحرام. بالإضافة إلى ذلك، لم يتلقَّ صلى الله عليه وسلم ذلك الأمر عندما كان بمكة بين المشركين في الوقت الذي كان من الممكن أن يقال فيه إنه صلى الله عليه وسلم يخطط لاستمالة العرب إلى جانبه؛ ولكن النبي (صلى الله عليه وسلم) نزل عليه الوحي باتخاذ الكعبة قبلة للعالم الإسلامي بعد هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة في وقت كانت فيه علاقته باليهود ما زالت ودية، وفي وقت كان فيه الأمل في استمالة العرب إلى جانبه بعيداً كما كان من قبل، وفي وقت أصبحت فيه الحرب مع قريش حتمية. وقد ظل صلى الله عليه وسلم طيلة ستة عشر شهراً في المدينة يصلي مولياً ظهره إلى مكة، وهي الأرض المقدسة كما هو معترف به، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يتبع هواه. وعندما أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة، بدأ يشعر بمشكلة هي أنه لم يعد بإمكانه استقبال كلا المكانين كما كان في مكة، أي الهيكل المقدس في بيت المقدس والمسجد الحرام في مكة؛ وفطن صلى الله عليه وسلم إلى أنه عندما يولي وجهه إلى أحد المكانين يجب أن يولي ظهره إلى الآخر؛ ورغم رغبته صلى الله عليه وسلم الشديدة في أن يتخذ من المسجد الحرام في مكة قبلة له، فإنه رغم ذلك لم يولِّ ظهره إلى قبلة النبي الذي جاء قبله حتى تلقى أمراً من ربه بذلك.

متى بدأ تشريع الحج؟

كان الحج فريضة معترفاً بها في العامين الأول والثاني الهجري قبل بدء القتال مع قريش. وتتضمن سورة البقرة (٢)، التي نزل معظمها في العامين الأول والثاني الهجري، كثيراً من الأوامر المتعلقة بالحج، التي يبين السياق الذي وردت فيه أن قتال الكفار لم يَدُر بالفعل، رغم أن توقعات نشوب القتال معهم كانت تلوح في الأفق. وعلى ذلك، يشار إلى أشهر الحج في قوله تعالى:

^٢ من الجدير بالذكر أن النصارى أنفسهم لم يعودوا يتبعون قبلة المسيح عيسى ابن مريم.

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٩)). كما وردت أيضاً في قوله تعالى: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٧)). وترد بين هاتين الآيتين، اللتين تتحدثان عن أشهر الحج، الآيات التي أذن فيها للمسلمين بحمل السيف دفاعاً عن أنفسهم: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُبَاغِتُونَكُمْ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٠))، والتي يتبين منها أن تفاصيل الحج نزلت في الوقت الذي أذن فيه فقط للمسلمين بالقتال وأنه بعد ذلك دار القتال بالفعل. ومن ثم، نزلت تفاصيل الحج قبل غزوة بدر. كما تنكر أيضاً في نفس السياق الأداب الواجب مراعاتها عند أداء فريضة الحج: "فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٧)). كما يذكر أيضاً في أوائل ما نزل من الآيات السعي بين الصفا والمروة: "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ النَّبِيَّتِ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٥٨)). وقد أعطي هذا الإذن بصفة خاصة لأنه كان يوجد آنذاك صنمان على جبلي الصفا والمروة. كما يذكر أيضاً التوجه إلى عرفات ومزدلفة في قوله تعالى: "فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٨))؛ كما ورد أمر صريح بإتمام الحج: "وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٦)).

ويدل ذكر تفاصيل الحج في الآيات سالفة الذكر على أن فريضة الحج كان معترفاً بها من قبل ضمن أحكام الإسلام. وفي الواقع، فإننا نجد مسلماً، هنا وهناك، يؤدي الحج في أوائل الإسلام عندما كان يرى نفسه في أمان بسبب حلف ما تم تكوينه مع قريش، وهو ما كان بالطبع مستحيلاً بالنسبة لعموم المسلمين. وعلى ذلك، يروى عن سعد بن معاذ أنه، بسبب صداقته مع أمية بن خلف، زعيم قبيلة قريش، ذهب إلى مكة ليعتمر بعد الهجرة وقبل غزوة بدر - أي في العام الأول الهجري - وتشاجر مع أبي جهل وهدده بوقف تجارة قريش مع الشام (البخاري ٦٤: ٢). ولم يكن سعد ليفعل ذلك لو لم يكن الإسلام أقر فريضة الحج. ومن ثم، يتبين لنا أن الحج كان فريضة معترفاً بها من فرائض الإسلام في العام الأول الهجري. وفي الواقع، فقد شرع الحج قبل الهجرة وأثناء وجود النبي (صلى الله عليه وسلم) بمكة المكرمة. وقد نزلت سورة "الحج" قبيل أواخر الجزء الأول من حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي قضاه في مكة؛ وفي هذه السورة شرع الحج كأحد

^٣ هناك فروق طفيفة بين الحج والعمرة. فالعمرة يمكن أدائها في أي وقت في حين أن الحج لا يمكن أدائه إلا في وقت معلوم. وبالنسبة لشعائر الحج، فإن الوقوف بعرفة لا يؤدي في حالة العمرة.

^٤ أخطأ رودويل بالتأكيد عندما وضع هذه السورة ضمن أواخر التنزيل المدني. فقد أجمع الثقات على أن السورة نزلت في مكة، رغم أن البعض يرى أن بعض آياتها نزل في الأيام الأولى للنبي (صلى الله عليه وسلم) في المدينة، ولكن حتى هذا الرأي ليس هناك ما يعززه. ورغم ذلك، فإن الآيات التي وردت بشأن الحج لا تندرج ضمن هذه الفئة من التنزيل المدني. فقد وضع المستشرق موير هذه السورة في آخر السور المكية التي نزلت في الفترة الخامسة وهناك

فرائض الإسلام: "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ . ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ." (سورة الحج (٢٢): الآيات أرقام (٢٧-٢٩)). هذه الآيات لا تدع مجالاً للشك في أن الحج شرع كأحد فرائض الإسلام قبل الهجرة.

وصف الكعبة

بما أن شعائر الحج تؤدي حول الكعبة، فإنه يجب أن نقول شيئاً عن هذا البناء واسمه. وكلمة الجذر كعب معناها نتأ أو برز (المعجم العربي - الإنجليزي للين) أو علا وارتفع (النهاية في غريب الحديث والأثر)، ومنه سميت الكعبة البيت الحرام لشرفها وعلوها (النهاية في غريب الحديث والأثر). والكعبة عبارة عن بناء مستطيل الشكل يقع تقريباً وسط المسجد الحرام ويبلغ طول كل من حائطيه الأمامي والخلفي (الشمالي - الشرقي والجنوبي - الغربي) ٤٠ قدماً وحائطيه الجانبيين ٣٥ قدماً، وارتفاع الكعبة يبلغ حوالي ٥٠ قدماً، والحوائط الأربعة تتجه نحو الشمال - الغربي، والشمال - الشرقي، والجنوب - الغربي، والجنوب - الشرقي.

وتعرف الأركان الأربعة للمبنى بالأسماء الأربعة المختلفة التالية: الركن الشمالي يسمى الركن العراقي (على اسم العراق)، والركن الجنوبي يسمى الركن اليمني (على اسم اليمن)، والركن الغربي يسمى الركن الشامي (على اسم الشام)، والركن الشرقي يسمى الركن الأسود (على اسم الحجر الأسود). وتغطي الحوائط الأربعة للكعبة بستارة سوداء اللون تسمى الكسوة. ويوجد باب الكعبة عند الحائط الشمالي - الشرقي على ارتفاع سبعة أقدام عن الأرض ليس في وسط الحائط وإنما بالقرب

أدلة من القرآن ومن خارجه تثبت صحة ذلك. كما اختتم أحد الكتاب المعاصرين مناقشته بشأن تاريخ نزول هذه السورة بالكلمات التالية: "وختاماً، تعتبر سورة الحج (٢٢) متجانسة تماماً حيث إنها لا تحتوي على أجزاء من الفترة المدنية. وإلى جانب ذلك (وكما ذكرنا منذ قليل) فإنه يجب تقديم أدلة أقوى بكثير من الأدلة التي قدمت حتى الآن قبل التأكيد أن بعض السور المكية نزلت بعد الهجرة". (الأسس اليهودية للدين الإسلامي للكاتب/ سي. سي. تورا، ص. ١٠٠).

° هذه الآية تسبقها آية ورد فيها عن نبي الله إبراهيم قوله تعالى: "وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ". وعلى ذلك، تفهم عبارة "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ" بوجه عام على أنها موجهة إلى نبي الله إبراهيم (عليه السلام). وحتى إن سلمنا بصحة هذا الرأي، فإننا نجد أنها موجهة أيضاً إلى النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) لأنه كما يبين السياق، فإن ذكر نبي الله إبراهيم إنما يأتي في معرض الكلام؛ وبما أن الحج أحد الأوامر المشتركة بين ملة إبراهيم والدين الإسلامي، فإنه يستتبع ذلك أن يكون الخطاب موجهاً إلى كلا النبيين على حد سواء.

من الحجر الأسود. وعندما تفتح الكعبة، يوضع سلم أمامها لتمكين الزوار من الوصول إلى الداخل. وخارج البناء توجد ساحة رحبة تسمى الحَجْر (الحَجْر في اللغة هو الممنوع) عليها حائط على شكل نصف دائرة ارتفاعه ثلاثة أقدام، وهو محاذٍ للحائط الشمالي - الغربي للكعبة، ويبعد طرفاً هذا الحائط عن الركنين الشمالي والغربي للكعبة بحوالي ستة أقدام، ووسط الكعبة يبعد عن الحائط بحوالي ٣٧ قدماً. ويسمى هذا الجزء أيضاً الحَطِيم (من حَطَمَ)، رغم أنه يروى عن ابن عباس (رضي الله عنه) قوله إنه لا يستحب أن يطلق عليه هذا الاسم لأنه أطلق عليه في أيام الجاهلية ويحمل معه خرافة إلقاء السوط أو النعل وقت حلف اليمين (البخاري ٦٣: ٢٧). وبغرض الطواف، أدخل الحجر ضمن البناء. وهناك أحاديث شريفة يروى فيها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يعتبر الحجر ضمن مبنى الكعبة (البخاري ٢٥: ٤٢؛ مسلم ١٥: ٦٦). ولهذا السبب أدخله عبد الله بن الزبير في المبنى، ولكنه ترك كمكان فضاء عندما أعاد الحجاج بناء الكعبة المشرفة.

ويوجد في الركن الشرقي من الكعبة على ارتفاع خمسة أقدام تقريباً الحجر الأسود الذي وضع في الحائط. وهو عبارة عن حجر لونه أسود مائل إلى الحمرة قطره حوالي ثمانى بوصات وقد تحطم إلى قطع تم لحامها معاً بإطار من الفضة. ويجب أن يذكر مقام إبراهيم عند الحديث عن الكعبة. ويطلق هذا الاسم على مبنى صغير جداً داخل المسجد الحرام، مساحته حوالي خمسة أقدام مربعة ويرتكز على ستة أعمدة ارتفاع كل منها ثمانية أقدام. وهذا الاسم، الذي تنتقله الأجيال منذ قديم الزمان، دليل قاطع على صلة نبي الله إبراهيم بالكعبة، ويُسترعى الانتباه إلى هذا في القرآن في سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٩٧). ولكن في سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٢٥)، تستخدم عبارة مقام إبراهيم للإشارة إلى البيت الحرام نفسه.

تاريخ الكعبة المشرفة

ورد في القرآن ذكر الكعبة بوصفها "أَوَّلُ بُنِيَّتٍ (لعبادة الله) وَضِعَ لِلنَّاسِ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٩٦)). وفي أحد المواضع، يُطلق على الكعبة اسم أُنْبِيَّتِ الْعَتِيقِ (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٢٩). كما تسمى أيضاً أُنْبِيَّتِ الْحَرَامِ (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٩٧)) أو الْمُحَرَّمِ (سورة إبراهيم (١٤): الآية رقم (٣٧)) الذي يحمل نفس معنى لفظ الْحَرَامِ، وكلاهما يعني في الأصل الممنوع منه؛ وبعبارة أخرى، المكان الذي يحظر انتهاك حرمة. ولم يرد في القرآن أو السنة ما يبين متى بُنيت الكعبة لأول مرة ومن الذي بناها؛ إلا أنه ورد أن نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) أعادا بناءها: "وَأِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبُنْيَتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٢٧)). وقد ورد في واحدة من أوائل التنزيل ما يبين أن الكعبة كانت موجودة

بالفعل عندما ترك نبي الله إبراهيم (عليه السلام) ابنه إسماعيل في البرية في الجزيرة العربية: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ" (سورة إبراهيم (١٤): الآية رقم (٣٧)). ويتبين لنا من هذا أن نبي الله إبراهيم (عليه السلام) تعمد ترك ابنه إسماعيل بالقرب من البيت الحرام؛ وقد اتخذ إبراهيم هذه الخطوة بأمر من ربه (البخاري ٦٠: ٩). ويبدو أن الكعبة كانت آنذاك متهمة وبعد ذلك، عندما بلغ إسماعيل أشده، أعاد بناءها إبراهيم وابنه إسماعيل، كما ورد في سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٢٧)). وفي حديث طويل يتحدث فيه ابن عباس عن كيف ترك أبو الأنبياء إبراهيم إسماعيل وأمه بالقرب من الكعبة، يروى عنه رضي الله عنه قوله: "وَكَانَ النَّبِيُّ مُرْتَعًا مِنْ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ" (البخاري ٦٠: ٩). ويروى في الحديث بعد ذلك كيف زار إبراهيم ابنه إسماعيل بعدما شب وتزوج وأخبره أن الله العزيز أمره بأن يبني بيتاً في مكان الرابية وكيف بنى الأب وابنه الكعبة المشرفة. وبالإضافة إلى تهمد الكعبة، يبدو أنه كانت توجد فيها أصنام وقد أمر نبي الله إبراهيم (عليه السلام) بتطهير الكعبة منها: "وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٢٥)). وقد وردت تقريباً نفس الكلمات في واحدة من أوائل التنزيل (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٢٦)).

كما أعادت قبيلة قريش^٦ بناء الكعبة مرة أخرى عندما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) في شبابه، وقد شارك عليه الصلاة والسلام بنفسه في بنائها حيث كان يحمل الحجارة على كتفيه. وأثناء بناء الكعبة، نشب خلاف بين القبائل حول من يرفع الحجر الأسود إلى موضعه. وكانت كل قبيلة ترغب في أن ينال نقيبها هذا الشرف العظيم. وأخيراً، تم التوصل إلى تسوية، وهي أن يقبل الجميع حكم أول شخص يدخل الكعبة. ولحسن الحظ، كان أول من دخل الكعبة هو محمد، عليه الصلاة والسلام، وعند دخوله صاح الجميع قائلين جاء الأمين. وقد فصل النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الخلاف بحكمته المعتادة حيث وضع بيديه الحجر في ثوب ثم طلب من نقيب كل قبيلة أن يمسك بناحية من الثوب ويرفع الحجر إلى موضعه، وقد وضعه النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفسه في موضعه. وقد ظلت الكعبة على النحو الذي بنتها عليه قريش حتى عهد عبد الله بن الزبير الذي قرر، عندما قام جيش الأمويين الذي حاصر مكة بهدم الكعبة، أن يعيد بناءها، بدلاً من ترميمها، حيث أدخل ساحة الحجر ضمن المبنى نفسه. ولكن بعد سقوط عبد الله قتيلاً، قام الحجاج بإعادة بنائها مجدداً على قواعد البناء الذي أقامته قريش. وما زال البناء قائماً على نفس القواعد حتى يومنا هذا.

^٦ من كبرى قبائل مكة.

المسجد الحرام

تتوسط الكعبة مبنى على شكل متوازي أضلاع أبعاده، كما وردت في دائرة المعارف الإسلامية، هي كالتالي: الجانب الشمالي - الغربي ٥٤٥ قدماً، الجانب الجنوبي - الشرقي ٥٥٣ قدماً، الجانب الشمالي - الشرقي ٣٦٠ قدماً، الجانب الجنوبي - الغربي ٣٦٤ قدماً. وتعرف هذه المنطقة باسم المسجد الحرام، وهو أشهر مسجد في مكة. وقد ورد هذا الاسم في الأدب الجاهلي (دائرة المعارف الإسلامية). وفي القرآن، ورد هذا الاسم فيما نزل في أوائل الفترة المكية، كما في سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (١). وتحتوي منطقة المسجد الحرام، بالإضافة إلى الكعبة، على مقام إبراهيم والبناء الموجود فوق بئر زمزم. وقد كان المسجد الحرام مركزاً لجميع الأنشطة الإدارية قبل الإسلام لأنه كانت توجد فيه دار الندوة التي كان يُفصل فيها في كل المسائل الهامة المتعلقة بسراء وضراء الناس. ومنذ ظهور الإسلام، ظل المسجد الحرام محور الأنشطة الفكرية في مكة، والعالم الإسلامي أجمع يعتبره مسجده الجامع.

الأدلة التاريخية على وجود الكعبة منذ قديم الزمان

ورد في القرآن أن الكعبة هي أول بيت بني على الأرض لعبادة الله وهناك أدلة تاريخية تعزز ذلك. وفي هذا الصدد، يكفي أن نستشهد بوجهة نظر المستشرق موير.^٧ "توجد شعائر دين مكة منذ قديم الزمان... وقد كتب ديودورس سيكولوس قبل عصرنا بحوالي نصف قرن عن الجزيرة العربية التي تغمرها مياه البحر الأحمر يقول: "يوجد في هذا البلد معبد يحظى بتوقير واحترام شديد لدى العرب". هذه الكلمات تشير حتماً إلى البيت الحرام في مكة لأننا لا نعرف مكاناً آخر حظي حتى الآن بمثل هذا التوقير والاحترام من العالم أجمع... وتصور السنة الكعبة بأنها منذ قديم الزمان محجة للناس الوافدين من شتى أرجاء الجزيرة العربية: حيث كان يفد إلى مكة الناس من اليمن وحضرموت، ومن سواحل خليج فارس، وصحراء الشام، والمناطق البعيدة بمملكة الحيرا وبلاد ما بين النهرين. وقد بدأ ذلك التوقير والاحترام واسع النطاق للكعبة منذ قديم الزمان."

تاريخ شعائر الحج يرجع إلى عهد نبي الله إبراهيم

لم يقر المستشرق موير فحسب بوجود الكعبة "منذ قديم الزمان"، وإنما أقر ذلك أيضاً "لشعائر دين مكة"، أي شعائر الحج. وفي الواقع، فإنه كما يقول موير، فإن حرمة الأرض المحيطة بمكة

^٧ حياة محمد، ص. ٩٠.

واتخاذها محجة للناس كل هذا يرجع إلى قديم الزمان لأنه لم يرد في أي حديث أو سجل ما يدل على أن ذلك قد ظهر في وقت معين في ذاكرة التاريخ. وبعض هذه الشعائر يعزى بالتأكيد إلى نبي الله إبراهيم مثل السعي بين الصفا والمروة الذي يؤدي إحياءً لذكرى سعي السيدة هاجر في طلب الماء لابنها إسماعيل أو الأضحية التي تذبح إحياءً لذكرى طاعة إبراهيم (عليه السلام) لأمر ربه الذي اعتقد أنه يقصد منه التضحية بابنه إسماعيل. ورغم ذلك، فإن الطواف بالكعبة كان موجوداً حتماً قبل عهد نبي الله إبراهيم. ولكن جميع شعائر الحج، التي وجدت عند بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم)، تستند بالتأكيد إلى ما ورد عن أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام). وعلى أي حال، فإن هذا ما ورد في السنة وفي القرآن لأن الأمر بأداء الحج قد أعطي لإبراهيم وابنه إسماعيل: "وَأُذِّنْ بِنُوحٍ إِذْ أَوْفَىٰ أَيْمَانًا مَّا كَانَ الْبَيْتُ أَن لَّا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ" (سورة الحج (٢٢): الأيتان رقما (٢٦) و(٢٧)). وعلى ذلك، فإن نبي الله إبراهيم (عليه السلام) لم يُعد بناء الكعبة المشرفة ويطهرها من آثار عبادة الأصنام فحسب، وإنما أمر أيضاً بأداء الحج بشعائره التي تستند، بالتالي، إلى ما أُوجي إليه من ربه. وفي موضع آخر، جاء في كتابه العزيز أن إبراهيم وابنه إسماعيل توجهوا إلى ربهما بالدعاء التالي: "وَأَرْبَا مَنَاسِكًا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٢٨)). وكلمة مَنَاسِك هي الكلمة التي تستخدم في كتب الحديث للإشارة إلى مناسك الحج. وقد اتبع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه المناسك بالوحي الإلهي.

ويبدو أن التغيير الوحيد الذي أدخل على شعائر الحج بعد إبراهيم هو وضع الأصنام في الكعبة وغيرها من أماكن الحج الهامة. وعلى ذلك، وضع صنمان اسمهما أساف ونائلة على جبلي الصفا والمروة (جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء الثاني، ص. ٢٦، ٢٧). كما كان يوجد داخل الكعبة نفسها ٣٦٠ صنماً ألقاها كلها النبي (صلى الله عليه وسلم) خارجها عند فتح مكة. كما أدخلت بعض التغييرات الطفيفة. فعلى سبيل المثال، كانت قبيلتا قريش وكنانة، اللتان أطلقنا على أنفسهما لقب الحمس، كرمز لما كانتا تتمتعان به من قوة وحماسة، تمكثان في مزدلفة اعتقاداً منهما أن انضمامهما إلى الحجاج الآخرين في التوجه إلى عرفات يحط من شأنهما. ولكن من الواضح أن هذا التفريق بدعة ابتدعتها القبائل الأقوى؛ وبما أن الإسلام لا يسمح بأي فوارق بين الناس، فقد أمرت القبيلتان بالتوجه إلى عرفات مع القبائل الأخرى. وهناك تغيير آخر وهو تحريم طواف الحجاج بالكعبة عراة (البخاري ٢٥: ٦٦). وقد ورد حديث آخر يروى فيه أنه، قبل الإسلام، كان الناس لا يغادرون مزدلفة التي يبيتون فيها حتى تطلع الشمس. ولكن النبي (صلى الله عليه وسلم) ألغى هذه الممارسة وأمر بالسير من مزدلفة قبل طلوع الشمس. وربما كان مشركو الجزيرة العربية يربطون ذلك إلى حد ما بعبادة الشمس، وربما أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بالتغيير للقضاء على "طقوس عبادة الشمس"، ولكن يبدو أن الهدف من ذلك كان التيسير على الحجاج لتمكينهم

من السير فور أداء صلاة الفجر، فذلك هو أنسب وقت للانتقال من مكان لآخر لتفادي حرارة الشمس. ويبدو أن هذا أيضاً هو السبب في تأخير الإفاضة من عرفة إلى ما بعد غروب الشمس.

الإسلام دعا إلى الزهد المقترن بالاهتمام بشؤون الدنيا

لم يدعُ الإسلام إلى الزهد بكل جوانبه. وقد استنكر الرهبانية بشدة، وعن تلك الممارسة المسيحية، جاء في كتابه العزيز قوله تعالى: "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ" (سورة الحديد ٥٧): (الآية رقم ٢٧)). ورغم ذلك، أكد الإسلام بشدة على الرقي الروحي للعبد، وفي فروضه الأربعة - الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، قدم وصفاً للزهد يمكن اتباعها في الحياة اليومية للإنسان - زهد يتفق تماماً مع الجانب الدنيوي في حياته. فالصلوات الخمس اليومية تتطلب من العبد التضحية ببعض وقته، ودون أن تحول بأي شكل من الأشكال دون ممارسته حياته اليومية تمكنه من إدراك وجود الله في قلبه. كما تتطلب فريضة الزكاة من العبد إنفاق جزء صغير من ماله دون أن يحول ذلك دون ممارسته الحق في ملكية المال. والصوم يستوجب الإمساك عن الطعام والشراب، ولكن ليس بشكل يجعل الإنسان غير قادر على مباشرة أعماله المعتادة. و فقط في فريضة الحج يأخذ الزهد شكلاً ملحوظاً لأنه لا يجب على الحاج فحسب أن يتخلى عن عمله المعتاد عدة أيام من أجل قطع رحلة مكة، وإنما يجب عليه أيضاً أن يتخلى عن كثير من مناعم العيش الأخرى وأن يحيا تقريباً حياة الزاهد. ورغم ذلك، فإن الحج عمل يؤديه الإنسان بوجه عام مرة واحدة في حياته، ومن ثم فرغم أنه يقود الإنسان إلى أسمى تجربة روحية، فإنه لا يعوق بشكل ملموس مجرى حياته المعتاد. وعلى ذلك، فإن الإسلام يجعل الإنسان يمر بحياة الزهد دون إهمال أعماله الدنيوية.

الحج يزيل الفوارق بين البشر

ما من فريضة في العالم لها أثر فريضة الحج العجيب في إزالة جميع فوارق الجنس، واللون، والطبقة. ففي الحج، لا يجتمع فحسب الناس من جميع الأجناس والبلدان أمام بيت الله الحرام بصفتهم عباده، بصفتهم أفراد أسرة واحدة، وإنما يرتدون أيضاً نفس الثياب - ثوبي الإحرام ذوي اللون الأبيض - ولا يبقى ما يميز عليّة القوم من بسطائهم. ويكون هناك حشد كبير من الناس يرتدون جميعاً نفس الثياب، ويسيروا جميعاً في نفس الطريق، ولا ينطق الجميع إلا بعبارة واحدة: "اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ". فقط فريضة الحج هي التي تحقق ما كان لولاها يبدو مستحيلًا، أي أن يتحدث جميع الناس، أيا كانت الطبقة أو البلد الذي ينتمون إليه، نفس اللغة ويرتدوا نفس الثياب. وبذلك يمر كل

مسلم مرة واحدة في حياته من بوابة المساواة الضيقة التي تؤدي إلى الأخوة الواسعة. فجميع الناس سواء في مولدهم ومماتهم؛ يأتون الحياة ويخرجون منها بنفس الطريقة، ولكن الحج هو الحدث الوحيد الذي يتعلمون فيه كيف يعيشون نفس الحياة، ويقومون بنفس الأعمال، ويشعرون بنفس المشاعر.

الحج تجربة روحية أسمى

لم يلتفت الكتاب الأوروبيون في وصفهم للحج إلا لشعائره، ولم يحاولوا قط اكتشاف المغزى الحقيقي والفائدة الروحية لهذه الشعائر. ورغم أن تفاصيل الحج سوف يتم مناقشتها فيما بعد، فإنه، عند إلقاء نظرة عامة على المشهد في مكة خلال أيام الحج، يستوقف انتباه الفرد في المرتبة الأولى ذلك التآلف بين العناصر المتنافرة من البشر. ورغم ذلك، توجد فائدة أخرى غير ظاهرة لفريضة الحج، ألا وهي التجربة الروحية السامية التي يحققها هذا التجمع الفريد من نوعه من البشر، تجربة التقرب إلى الله حتى يشعر العبد بأن الحجاب الذي كان يبعده عن ربه رفع تماماً وأنه يقف أمام ربه. فمن الصحيح أن الله سبحانه وتعالى لا يسكن مكة وأن الكعبة ليست بيت الله بالمعنى المادي للكلمة؛ ومن الصحيح أيضاً أن المسلم تعود على التقرب إلى ربه في ركن بعيد عن الناس، وفي عزلة عنهم، في جوف الليل وبالتالي يمر وحده بتجربة التقرب إلى ربه؛ ولكن توجد رغم ذلك تجربة روحية أسمى يمكنه أن يمر بها في ذلك الحشد الكبير من الناس الذي احتشد في عرفات. وكل فرد في هذا الحشد الكبير خرج من بيته واضعاً تلك الغاية نصب عينيه. فيتخلى عن جميع مناعم العيش التي تشكل حجاباً على بصيرته الداخلية. ويجب عليه أن يرتدي أبسط الثياب، ويكف عن الرفث والجدال بكل أنواعه، ويتعرض لكل صور الحرمان التي تقرضها عليه الرحلة إلى أرض جدياء مثل الجزيرة العربية حتى يصبح قادراً على تركيز كل تفكيره في الله تعالى. ومن المؤكد أن مناعم العيش تشكل حجاباً يحجب العالم الآخر عن الرؤية البشرية كما أنه من المؤكد أيضاً أن الآلام و الحرمان يشتي صورته يجعلان العبد يتجه إلى ربه. وبالتالي، فإن هدف الحج هو أن يركز العبد كل تفكيره في ربه ليس في عزلة عن الآخرين، وإنما في رفقتهم. فقد يكون الرجل برفقة زوجته ورغم ذلك يحظر عليه الرفث؛ وقد يجتمع الحج بأحد خصومه ورغم ذلك يحظر عليه الشجار معه؛ وكل هذا حتى يمر بتجربة روحية أسمى، ليست التجربة الروحية التي يمر بها الزاهد المنعزل عن الدنيا، وليست تجربة العابد الذي يتقرب إلى ربه في عزلة عن الآخرين، وإنما تجربة الإنسان الذي يعيش في العالم برفقة زوجته، وأصدقائه، وخصومه.

ويتبين المغزى الأسمى للتجربة الروحية التي يمر بها العبد في هذا الحشد من وجهة نظر أخرى. فمن المسلم به أن هناك صلة خفية بين قلوب البشر؛ وهي حقيقة معترف بها حتى من

قبل أصحاب الفكر المادي. ومن ثم، فإن رفقة إنسان تحركه مشاعر مماثلة، إنسان يمر بتجربة مماثلة سوف يكسب بالتأكيد التجربة الروحية التي يمر بها كل من هؤلاء الرفاق المزيد من القوة. فلنأخذ حالة مئات الآلاف من الأشخاص الذين تحركهم جميعاً نفس فكرة الشعور بوجود الله، والذين يركزون جميعاً تفكيرهم في الله تعالى الذي يصبح غايتهم الوحيدة في ذلك الوقت؛ أضف إلى ذلك التأثير القوي لوحدة الظاهر، فهم جميعاً يرتدون نفس ثوبي الإحرام ويرددون بصوت مرتفع وبلغة مفهومة للجميع "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ". ويدل مظهرهم، بالإضافة إلى الكلمات التي يرددونها، على أنهم يقفون أمام الله وأصبحوا مستغرقين في تأمل وجود الله لدرجة أنهم تجردوا من كل تفكير في ذاتهم. وقد تعجب الأوروبيون، الذين شهدوا هذا المشهد الجليل - ولكنهم لم يتعمقوا بعد بما فيه الكفاية في مغزاه الروحي - من أنه، في هذا الحشد الكبير من الناس، توجد تنهدات في كل ناحية، ودموع تسيل من كل عين، ولكنهم ربما لم يفكروا قط في التغيير الداخلي الذي يبدو تأثيره على ظاهريهم. وقد أصبح وجود الله الذي يشعرون به يستحوذ على كيانهم لدرجة أنهم ينسون تماماً أنهم وسط حشد من الناس، بل وينسون حتى أنفسهم، ويصبح وجود الله كل شيء بالنسبة لهم. فالله ليس موجوداً بالتأكيد في مكة دون غيرها من الأماكن، ورغم ذلك فإن هذا الحشد الكبير في مكة يراه ويشعر بوجوده كما لو كان موجوداً بالفعل بينهم. تلك هي التجربة الروحية الأسمى التي يمر بها الحجاج إلى مكة، ليست تجربة الزاهد المنعزل في صومعته عن العالم، وإنما تجربة حشد كبير احتشد في نفس المكان.

على من يجب الحج؟

يجب الحج على كل بالغ مرة واحدة فقط في العمر وما زاد فهو تطوع (أبي داود ١١: ١). كما يشترط أيضاً لوجوب الحج استطاعة الفرد القيام بالرحلة إلى مكة، كما جاء في قوله تعالى: "وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٩٧)). وتتوقف القدرة على القيام بالرحلة على عدة أوضاع. فقد تكون هناك عدم استطاعة جسدية تجعل العبد غير قادر على تحمل مشاق الرحلة الطويلة. فعلى سبيل المثال، يعفى الشيخ الكبير من وجوب الحج عليه (البخاري ٢٥: ١). أو ربما ترجع عدم الاستطاعة إلى أسباب مالية، مثل عدم امتلاك الرجل ما يكفي من الزاد للقيام برحلته وما يكفي من يعولهم. وقد ورد في القرآن شرط التزود بما يكفي للقيام بالرحلة: "وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٧)). كما يروى في أحد الأحاديث الشريفة أن أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون قائلين إنهم المتوكلون فإذا قدموا مكة كانوا يسألون الناس (البخاري ٢٥: ٦).

كما أن هناك أيضاً نهياً صريحاً عن أن ينذر الرجل الحج ماشياً. فعندما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) رجلاً شقت عليه الرحلة وأخبر أن الرجل نذر أن يحج ماشياً، قال صلى الله عليه وسلم إن الله عن تعذيب هذا الرجل لغني وأمره أن يركب (البخاري ٢٨: ٢٧). وبالمثل، نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن أن ينذر الرجل المشي حافياً إلى مكة (أبي داود ٢١: ١٩). مما يدل على أنه يجب أن يمتلك الرجل من الزاد ما يكفي للوصول إلى مكة دون مشقة. وقد يكون الخطر على الحياة أيضاً عذراً لإعفاء الرجل من وجوب الحج. فالنبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه وكثير من الصحابة لم يستطيعوا أداء الحج بعد الهجرة إلى المدينة لأن حياتهم كانت معرضة للخطر في مكة. وفي النهاية، عندما ذهب النبي (صلى الله عليه وسلم) ليعتمر مع حوالي ١,٤٠٠ صحابي في العام السادس الهجري، لم يؤذن له بالمضي بعد الحديبية التي كانت خارج حدود الحرم المكي واضطر إلى العودة دون أن يعتمر.

العمرة

كلمة عُمْرَة مشتقة من الفعل عَمَرَ أي سكن المكان أو زاره وفي الاصطلاح الشرعي يقصد بها زيارة الكعبة. وتختلف العمرة عن الحج في أمرين. أولاً، لا يمكن أداء الحج إلا في وقت محدد في حين أن العمرة يمكن أدائها في أي وقت؛ وقد ورد في الكتاب والسنة أن أشهر الحج هي شوال، وذو القعدة،^٨ وعشر من ذي الحجة^٩ (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٧)؛ البخاري ٢٥: ٣٣) حيث إنه لا يستطيع الرجل الإحرام^{١٠} بالحج إلا في هذه الأشهر في حين أن أداء مناسك الحج يقتصر على الفترة من الثامن حتى الثالث عشر من ذي الحجة. ثانياً، لا يتم التوجه إلى عرفات والتجمع هناك في حالة العمرة رغم أنه أحد أركان الحج. ووجه الاختلاف الآخر هو أنه، في الحج، يلزم النحر باعتباره أحد المناسك التي يختم بها الحج، ولكنه ليس كذلك في حالة العمرة. ويجوز أداء العمرة وحدها كما يجوز إقرانها بالحج عندما تؤدي كمنسك في أشهر الحج. ورغم أنه ترد في القرآن الإشارة إلى الحج أكثر منها إلى العمرة، فإنه يوجد أمر صريح بإتمام الحج والعمرة: "وَأْتُمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٦)). وقد ورد أيضاً في السنة وجوب العمرة، ويروى عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قوله: "لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَعَلَيْهِ حَجَّةٌ وَعُمْرَةٌ" في حين قال ابن عباس (رضي الله عنه) إن العمرة قرينة الحج في كتاب الله (البخاري ٢٦: ١). ويروى في أحد

^٨ الشهران القمريان اللذان يأتيان مباشرة قبل الشهر الذي تؤدي فيه مناسك الحج.

^٩ الشهر القمري الذي تؤدي فيه مناسك الحج.

^{١٠} للحصول على شرح وافٍ لحالة الإحرام، أنظر عنوان "الإحرام".

الأحاديث أن عمره في رمضان تعدل حجة (البخاري ٢٦: ٤). ووفقاً لما روي في حديث آخر، فإن العمرة ليست فرضاً (الترمذي ٩: ٨٦). ولكن أي فرد يؤدي الحج يمكنه بسهولة أن يعتمر.

وهناك طريقتان يجوز بهما الجمع بين الحج والعمرة؛ هما: التمتع والقران. والتمتع (ومعناه اللغوي الانتفاع) هو الجمع بين الحج والعمرة بحيث يُحرم الحاج بالعمرة في أشهر الحج ويتحلل من الإحرام بعد أداء مناسك العمرة، ثم يحرم بالحج في أيام الحج. وبين العمرة والحج، ينتفع الحاج بأن يمارس حياته بشكل طبيعي ولا يتقيد بقواعد الإحرام الصارمة ولهذا يجب عليه أن يذبح هدياً أو أن يصوم ثلاثة أيام أثناء الحج وسبعة أيام بعد الرجوع منه (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٦)).^{١١} في حين أن القران هو الإحرام في أشهر الحج بالحج والعمرة معاً وعدم تحلل المحرم من الإحرام إلى أن يفرغ من أعمال العمرة والحج معاً أو هو الإحرام في أشهر الحج بالعمرة والبقاء على صفة الإحرام إلى أن يفرغ المحرم من مناسك الحج أيضاً. وبالتالي، فإن الفرق بين التمتع والقران هو أنه، في التمتع، هناك انقطاع في صفة الإحرام في حين أنها، في القران، تكون متواصلة. وعندما يؤدي المحرم الحج فقط، فإنه يسمى إفراد. وفيما عدا الاختلافين المذكورين أعلاه بين الحج والعمرة، فإن ما يقال عن الحج ينطبق على العمرة أيضاً.

الإحرام

الحال الذي يجب على الحاج أن يتلبس به أثناء الحج أو العمرة يسمى الإحرام (والكلمة مشتقة من حَرَم أي منع أو نهى عن) أو هو الدخول في حال يرتدي فيه المحرم ثياباً معيناً وتحرم عليه أفعال معينة كانت من قبل مباحة له. وعندما سئل النبي (صلى الله عليه وسلم) عما يلبس المحرم، أجاب صلى الله عليه وسلم بقوله: "لَا يَلْبَسُ الْقَمِيصَ وَلَا الْعِمَامَةَ وَلَا السَّرَاوِيلَ وَلَا الْبُرْنُسَ وَلَا تُؤْبَا مَسَّهُ الْوَرُسُ (اللون الأحمر) أَوْ الرَّعْفَرَانُ (اللون الأصفر) فَإِنَّ لَمْ يَجِدِ النَّعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسِ الْخُفَّيْنِ" (البخاري ٣: ٥٣). وهناك حديث آخر يصف ما يلبس المحرم من الثياب في

^{١١} أورد الكاتب/ إيه.جيه.وينسينك في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة "إحرام" نظرية الكاتب/ سنوك هيرجروني بشأن التمتع: "وفقاً لرأي/ الكاتب سنوك هيرجروني... أصبحت القيود التي فرضتها صفة الإحرام شديدة جداً على محمد لدرجة أنه، أثناء إقامته بمكة قبل الحج، عاش حياته الدنيوية بشكل طبيعي. وعندما نظر إليه أتباعه بعين الريبة، يقال إن الآية رقم (١٩٢) من سورة البقرة (٢) نزلت". ولم يذكر في دائرة المعارف الإسلامية الشخص الذي أخذ عنه الكلام المشار إليه في العبارة الختامية، ولكن، في الواقع، لم يكن يوجد الشخص الذي يمكن أن يؤخذ عنه هذا الكلام في تلك الفترة المبكرة. فهو حتماً ناقد آخر على شاكلة سنوك. وليس أدل على عدم صحة رأي الكاتب من أن النبي لم يحج، بعد الهجرة إلى المدينة، سوى حجة واحدة وكانت هذه أيضاً هي حجة الوداع وبعد ثمانين يوماً من هذه الحجة توفي النبي. إذن، ليس هناك أي أساس للاعتقاد بأن آية التمتع نزلت في تلك المناسبة. ومن ناحية أخرى، هناك أدلة قاطعة على نزول هذه الآية قبل غزوة بدر، أي قبل حجة الوداع بأكثر من ثماني سنوات.

الكلمات التالية: "وَلَيْسَ إِزَارُهُ وَرِدَاءُهُ" (البخاري ٢٥: ٢٣). وبالتالي، يتكون لبس الإحرام من ثوبين غير مخيطين عبارة عن إزار يلف به النصف السفلي ابتداءً من منطقة السرة حتى تحت الركبتين ورياء يغطي النصف العلوي من البدن. ولكن يفضل أن يكون كلا الثوبين أبيض. والنسبة للنساء، يجوز لهن ارتداء ملابسهن العادية ولم تَرَ السيدة عائشة (رضي الله عنها) بأساً بالثوب الأسود أو المورد أو الخف للمرأة. كما رأت رضي الله عنها أيضاً أن المرأة يجب عليها ألا تتلثم أو تتبرقع وهي محرمة (البخاري ٢٥: ٢٣). ولم ينه عن تغيير الملابس أثناء الإحرام وفقاً لما ورد عن أحد الثقات (المرجع السابق). ولكن حتى النساء يجب عليهن ارتداء ملابس بسيطة. والهدف من ذلك هو إزالة كل فوارق الطبقة، وهذا يحدث في حالة الرجال بأمرهم بارتداء ثوبين غير مخيطين وفي حالة النساء بأمرهن بعدم ارتداء النقاب الذي كان رمزاً للطبقة التي تنتمي إليها المرأة. وربما يرجع لبس الإحرام المكون من ثوبين غير مخيطين إلى عهد نبي الله إبراهيم (عليه السلام) وقد تم الإبقاء على الثوب البسيط الذي كان يرتديه أبو الأنبياء في الحج لتلقي الناس درساً عملياً في الحياة البسيطة.

وقبل ارتداء لبس الإحرام، يجب على الحاج أن يغتسل ويجهر بالتلبية مستقبلاً القبلة. والسنة هي صلاة ركعتين، ولكن كل ما يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) هو أنه أحرم بعد أن صلى ركعتي الظهر. وأثناء الإحرام وحتى قبله منذ بدء الرحلة إلى مكة، يحظر على الحاج الرفث وبالتالي ينهى أيضاً عن الجماع: "فَمَنْ فَرَصَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَقَّتْ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ" (سورة البقرة ٢): الآية رقم (١٩٧)؛ كما يحظر أيضاً أثناء الإحرام التطيب أو إزالة الشعر أو تقليم الأظافر. وبذلك، يضحى المحرم بكل صور العناية بالجسد عدة أيام لإيلاء المزيد من الانتباه إلى العناية بالروح وهذا درس عملي يخدم غرضاً مفيداً في أوقات كثيرة في حياة الفرد.

كما توجد أدلة أيضاً على أن النبي الكريم لم يتحلل من الإحرام في ذلك الوقت. وعلى ذلك، فقد ورد في الحديث الطويل، الذي يتحدث عن إحرام النبي بالعمرة والحج معاً، بعد ذكره أداءه لمناسك العمرة: "ثُمَّ لَمْ يَحْلُلْ مِنْ شَيْءٍ حَرَّمَ مِنْهُ حَتَّى قَضَى حَجَّهُ وَتَحَرَ هُدْيُهُ (أي الحيوان الذي يذبح) يَوْمَ النَّحْرِ وَأَفَاضَ فُطَافَ بِالْبَيْتِ ثُمَّ حَلَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَرَّمَ مِنْهُ وَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْدَى وَسَاقِ الْهَدْيِ مِنَ النَّاسِ" (البخاري ٢٥: ١٤). وعليه، فإن ما قاله الكاتب عن قيود الإحرام التي أصبحت شديدة جداً على النبي، ونظر الصحابة إليه بعين الريبة، ونزول الآية رقم (١٩٢) من سورة البقرة (٢) (الآية رقم (١٩٦): سورة البقرة (٢) بحسانها) بهذه المناسبة كل ذلك بدع ابتدعها عقل بارع في الاختلاق، وبدلاً من أن يكشفها الكاتب/ وينسينك، فقد أوردها في عمل ذي قيمة باقية معترف بها مثل دائرة المعارف الإسلامية ورغم ذلك اعترف نفس الكاتب المتبحر في الفهرس الذي وضعه للحديث، والذي يحمل عنوان كتيب الأحاديث، تحت مادة إحرام أن النبي لم يتحلل من الإحرام عند التمتع: "لقد انتفع محمد من التمتع ولكنه لم يتحلل من الإحرام في مكة".

الميقات أو المهبل

يجوز الإحرام، على النحو المذكور أعلاه، في أي وقت أثناء أشهر الحج بعد بدء الرحلة؛ ولكن لأنه يشق على المحرم أن يبقى على صفة الإحرام لفترة طويلة، حددت الشريعة أماكن معينة على الطرق المختلفة المؤدية إلى مكة عند الوصول إليها يحرم الحجاج. وهذا المكان يسمى ميقاتاً (مشتقة من كلمة وقت) وهو الوقت المحدد لفعل الشيء أو المكان الذي يتم تحديده لأداء فعل ما. كما يسمى الميقات أيضاً *المهبل* (والكلمة مشتقة من الفعل *أَهَلَ* أي رفع صوته) وهو يشير إلى المكان الذي ترفع فيه الأصوات بالتلبية. والتلبية هي عبارة عن الجهر بالصيغة التالية: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ" ^{١٢} وما إن يتم الإحرام بنية إيلاء أقل انتباه ممكن إلى العناية بالجسد حتى يستحضر أمام أعين جميع الحجاج الجانب الروحي لفريضة الحج عندما يجهرون بالتلبية. ومن ثم، فإن مكان الإحرام هو أيضاً المكان الذي ترفع فيه الأصوات بذكر الله ولهذا السبب يسمى الميقات أيضاً *مهلاً*. وتتمثل المواقيت المكانية العديدة المحددة للإحرام فيما يلي: *نو الحليفة* ميقات الحجاج الوافدين من المدينة، و*الجُحفة* ميقات القادمين من الشام ومصر، و*قَرْن المنازل* ميقات القادمين من نجد، و*يَلْمَم* للقادمين من اليمن (وهو يشمل أيضاً جميع الحجاج القادمين من الهند، وباكستان، وإندونيسيا، ودول أخرى، الذين يأتون بالمركب عبر ميناء عدن)، و*ذات عَرَق* ميقات القادمين من العراق (البخاري ٢٥: ٧-١٣). وبالنسبة لجميع الأماكن الواقعة داخل هذه الحدود، يكون الميقات هو المكان الذي يحرم منه الحاج وبالنسبة لأهل مكة، يكون الميقات هو مكة نفسها (البخاري ٢٥: ٧).

الطواف

كلمة *طواف* مشتقة من الفعل *طَافَ*، ويقصد به في الشرع *الدوران حول الكعبة*. وقد ورد الأمر بالطواف بالبيت في القرآن في واحدة من التنزيل المكي: "وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ" (سورة الحج ٢٢): الآية رقم (٢٩)). وفي مناسك الحج، يحتل ركن الطواف أهم مكانة، فهو أول عمل يقوم به الحاج عند قدومه إلى مكة وآخر عمل يختم به مناسك الحج عند مغادرته الحرم. وقد بوب له البخاري في صحيحه فقال: "باب مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ إِذَا قَدِمَ مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ ثُمَّ صَلَّى رُكْعَتَيْنِ ثُمَّ حَرَجَ إِلَى الصَّفَا" (البخاري ٢٥: ٦٢). وتحت هذا العنوان، يروي البخاري حديثاً لابن عمر (رضي الله عنهما) ورد فيه: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا طَافَ فِي الْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ أَوَّلَ مَا يَقْدُمُ سَعَى ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ، وَمَشَى أَرْبَعَةَ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ". والأرض التي يتم الطواف عليها

^{١٢} فيما يلي الصيغة الكاملة للتلبية: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لا شريك لك لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ لا شريك لك" (البخاري ٢٥: ٢٦).

تسمى المَطَاف. ويؤدَّى الطواف حول الكعبة بالقرب من حوائط البناء المقدس بقدر الإمكان، ولكن عند الجانب الشمالي - الغربي، يقترب الطائف من الحائط الصغير الذي يأخذ شكل نصف دائرة لأن الحجر يدخل ضمن المطاف. وقبل الطواف، يجب على الطائف أن يتوضأ (البخاري ٢٥: ٧٧)، وإن أمكن، يغتسل. ويطوف الرجال والنساء معاً على ألا تتخالط النساء الرجال، ولكن ليس للنساء دخول الكعبة حتى يخرج منها الرجال (البخاري ٢٥: ٦٣). وقبل الإسلام، كان بعض الناس يطوفون عراة، ولكن الإسلام نهى عن ذلك (البخاري ٢٥: ٦٦). والطواف الذي يؤديه الحاج عند قدومه إلى مكة يسمى طواف القدوم، والطواف الذي يؤديه عند رحيله يسمى طواف الوداع، والطواف الذي يؤديه يوم النحر (أي في العاشر من ذي الحجة) يسمى طواف الزيارة، وهذا النوع الأخير من الطواف يعتبر أحد مناسك الحج الواجبة (البخاري ٢٥: ١٢٩) في حين أن أول نوعين من الطواف ليسا واجبيين، رغم أن الحاج يكثر منهما بوجه عام.

ويبدأ الطواف من الحجر الأسود الذي يُقَبَّل (البخاري ٢٥: ٥٥)، ولكن يمكن أن يكتفى حتى بالإشارة إليه (البخاري ٢٥: ٥٩، ٦٠). وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يُقَبِّل الركن اليماني والحجر الأسود، ولكن يروى أن كثيراً من الصحابة (رضي الله عنهم) كانوا يُقَبِّلون الأركان الأربعة للكعبة (البخاري ٢٥: ٥٨). وعند الطواف، يجعل الطائف الكعبة عن يساره ويطوف بها سبعة أشواط كاملة. ويرمل (أي يسرع في المشي) في الأشواط الثلاثة الأولى ويمشي مشياً عادياً في الأشواط الأربعة الباقية (البخاري ٢٥: ٦٢). ولكن، إذا دعت الحاجة، يجوز للطائف الطواف راكباً. فقد طاف النبي (صلى الله عليه وسلم) في حجة الوداع على ظهر بعير وسمح لأُم سلمة بذلك أيضاً بسبب مرضها (البخاري ٢٥: ٧٣). ولم ينة في الطواف عن عمل شيء أو عن الكلام إذا دعت حاجة له (البخاري ٢٥: ٦٤، ٦٥). ويجوز للطائف أن يتوجه إلى ربه بالأنكار أو الأدعية أثناء الطواف. فيروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يقول الدعاء التالي: "رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" (أبي داود ١١: ٤٩). ويجب على الحائض تأجيل الطواف والسعي بين الصفا والمروة طوال الحيض. وبالنسبة للحاج القارن، يكفي أن يطوف الطواف الأول (أي طواف القدوم) (البخاري ٦٤: ٧٩؛ أبي داود ١١: ٥١). ولكن في حالة التمتع، يجب أداء الطواف الثاني عند الإحرام بالحج.

الحجر الأسود

سبقت الإشارة إلى الحجر الأسود تحت عنوان "تاريخ الكعبة المشرفة"، حيث ورد وصفه وتحت عنوان "الطواف" حيث ذكر أن الحجاج يُقَبِّلونه عندما يستلمونه أثناء طوافهم. وليس هناك دليل

يبين المكان الذي أخذ منه هذا الحجر والزمان الذي وضع فيه في الكعبة، ولكن بما أنه يوجد في الكعبة قبل ظهور الإسلام بل وكان يُقْبَل، إذن فهو موجود بالتأكيد هناك على الأقل منذ عهد نبي الله إبراهيم (عليه السلام) لأن تاريخ شعائر الحج يرجع إلى عهد أبي الأنبياء. ورغم ذلك، من الجدير بالذكر أنه رغم أن الكعبة كانت تضم داخل جدرانها ٣٦٠ وثناً قبل ظهور الإسلام، لم ينظر العرب في أيام الجاهلية قط إلى الحجر الأسود على أنه أحد الأوثان ولم يعبدوه مثل الأوثان التي كانت توجد داخل الكعبة. وقد حول النقاد الغربيون للإسلام مسألة الإبقاء على عادة تقبيل الحجر الأسود أثناء الطواف إلى حجة لإثبات أن الإسلام أبقى على بقايا الوثنية في أيام الجاهلية. بل إن هناك نقاداً يرون أن الطواف بالكعبة إحدى العادات الوثنية. ولكن يكفي أن نلقي نظرة سريعة على الحقائق ليثبت لنا عدم معقولية هذا الرأي. فبين الأشياء التي لا تحصى، التي كان العرب في الجاهلية يتخذونها آلهة، لم ترد الكعبة والحجر الأسود، رغم توقير العرب لهما قبل الإسلام. وكان يطلق على الكعبة اسم بيت الله وكان هناك اعتقاد سائد بينهم بأنه ما من عدو في قدرته أن يهدم الكعبة. وبسبب هذا الاعتقاد، عندما هاجم أبرهة الأشرم^{١٣} مكة، لاذ أهلها بالجبال المحيطة بالبلد دون إبداء مقاومة وعندما سأل أبرهة عبد المطلب^{١٤} عن السبب في أنه لم يطلب منه عدم هدم الكعبة، أجابه عبد المطلب بقوله إن الكعبة بيت الله والله سوف يحميها. ورغم كل هذا التوقير، لم تعبد الكعبة قط. فقد كانت تضم بالتأكيد داخل جدرانها أوثاناً، ورغم ذلك فإن الأوثان، وليست الكعبة، هي التي كانت تعبد؛ ونفس الشيء ينطبق على الحجر الأسود. فقد كان يُقْبَل، ولكنه لم يتخذ قط إلهاً، رغم أن العرب كانوا يعبدون حتى الحجارة غير المنحوتة، والأشجار، وكومات الرمل. وقد كان المسلمون، فضلاً عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، يكرهون الوثنية لدرجة أنهم عندما رأوا الصنمين أساف وناثلة على جبلي الصفا والمروة، رفضوا السعي بين الجبلين حتى نزلت الآية الكريمة التالية: "إِنَّ الصَّغَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ النَّبِيَّتِ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٥٨)). وتبين الكلمات المستخدمة هنا، "فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ"، بوضوح أن المسلمين كانوا يعتقدون أن الطواف بأماكن توجد بها أوثان معصية. ومن الواضح أنه لم يكن لديهم نفس التحرج من الطواف بالكعبة لأن الأوثان في الكعبة كان مغلقاً عليها في المبنى في حين أن الصنمين الموضوعين فوق جبلي الصفا والمروة لم يكونا ظاهرين للعيان فحسب، وإنما كان الحجاج أيضاً يمسحون عليهما بأيديهم. وقد كان المسلمون يكرهون الوثنية لدرجة أنهم لم يتحملوا فكرة ارتباط الأوثان بأي شكل من الأشكال بشعائرهم الدينية. فكيف إذن يمكن أن يفكروا في عبادة الكعبة والحجر الأسود اللذين حتى عبدة الأوثان لم يعبدوهما؟ فلو كانت فكرة الوثنية مرتبطة بالطواف بالكعبة وتقبيل الحجر الأسود، لما أقدم المسلمون على أداء تلك الشعائر.

^{١٣} حاكم اليمن.

^{١٤} جد النبي (صلى الله عليه وسلم).

فلم يتردد المسلمون في أن يولوا ظهرهم إلى الكعبة عندما طلب منهم، عند قدومهم إلى المدينة، أن يتخذوا من بيت المقدس قبلة لهم. وقد ذكرنا للتو أن النبي (صلى الله عليه وسلم) طاف ذات مرة بالكعبة راكباً على ظهر بعير؛ وأنه صلى الله عليه وسلم استلم الحجر الأسود بمخجن (عود معقود الرأس يكون مع الراكب يحرك به راحلته) في يده؛ وكل هذا يدل على أن المسلمين لم يكنوا فكرة عبادة هذه الأشياء ولم يكن موقفهم إزاءها في أي وقت من الأوقات موقف العابد تجاه المعبود. ولم يكن الحجر الأسود وحده هو الذي يقبل؛ وإنما قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) الحجر الأسود، الذي يوجد في الركن الشرقي، والركن اليماني في حين قبل بعض الصحابة (رضي الله عنهم) الأركان الأربعة للكعبة.

مغزى الطواف بالكعبة

إن القول بأن الطواف بالكعبة من بقايا الوثنية إنما يقم على الوثنية معنى لم تحمله قط. فرغم أنه ورد في تاريخ بني إسرائيل الطواف بالشيء المقدس: "حيث كان يتم الطواف بالذبح في الأيام الستة الأولى وأحياناً في اليوم السابع" (دائرة المعارف الإسلامية، مادة: طواف)، لم يزعم أي ناقد من قبل أن بني إسرائيل كانوا يعبدون المذبح. ومن بين الناس كافة، يكون المسلم بعيداً كل البعد عن فكرة عبادة الأوثان في طوافه بالكعبة عندما يشعر بوجود الله الواحد الأحد ويجهر بالتلبية قائلاً: "كَبِّيكَ اللَّهُمَّ كَبِّيكَ كَبِّيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ كَبِّيكَ". فمنذ وجوده على بعد عدة أميال من مكة حتى يغادر المدينة المقدسة، لا يردد لسانه سوى عبارة واحدة ولا تدور في ذهنه سوى فكرة واحدة ألا وهي فكرة وحدانية الله. فكيف إذن في نفس الوقت يمكن أن يضمم فكرة عبادة الأوثان؟ وما هو الطواف في حد ذاته؟ إنه الطواف بالبيت، رمز التوحيد، المكان الذي نشأت منه فكرة التوحيد، المكان الذي سوف يظل دائماً وأبداً مركزاً لجميع المؤمنين بعقيدة التوحيد. وفي ذلك الوقت، يتركز كل تفكير الحاج في موضوع واحد، ألا وهو وحدانية الله. وينسى الحاج كل شيء ولا يتذكر سوى الله الواحد الأحد. بل وينسى حتى وجوده ويصبح وجود الله كل شيء بالنسبة له. ذلك هو الطواف.

مغزى تقبيل الحجر الأسود

تعتبر إعادة بناء نبي الله إبراهيم (عليه السلام) للكعبة حقيقة تاريخية. وقد ظل الحجر الأسود موجوداً هناك منذ أن عُرف بوجود الكعبة، وهو ما لا يوجد أي مبرر للشك فيه. وليس هناك حديث صحيح يثبت أنه حجر نزل من الجنة أو أنه كان في الأصل أبيض اللون ثم اسود من خطايا البشر. والحجر الأسود، في الحقيقة، هو حجر الزاوية في الكعبة وقد وضع هناك كرمز، رمز إلى

أن ذلك الجزء من ذرية إبراهيم المنبوذ من بني إسرائيل سوف يصبح حجر الزاوية في ملكوت الله. وقد وردت في المزمير إشارة واضحة إليه: "الحجر الذي رفضه البنائون قد صار رأس الزاوية" (المزمير ١١٨: ٢٢). فقد كان ينظر إلى إسماعيل على أنه منبوذ من ربه وأن عهد الله أبرم مع ذرية إسحاق فقط. تلك هي وجهة نظر اليهود وهي ترجع إلى أن نبي الله إبراهيم (عليه السلام) ترك ابنه إسماعيل بالقرب من الكعبة. كما أنه بينما ظهر نبي وراء الآخر في بني إسرائيل، لم يظهر نبي من ذرية إسماعيل وبالتالي ازدادت قوة اعتقاد اليهود بأن إسماعيل منبوذ. ورغم ذلك فمن ذرية إسماعيل بعث خاتم الأنبياء "رأس الزاوية" بكلمات سيدنا داود، وقد وُضع الحجر الأسود، مهما كان المكان الذي تم إحضاره منه، كحجر الزاوية في الكعبة كرمز إلى أن ذرية إسماعيل المنبوذة هم الورثة الحقيقيون لملكوت الله. وفي الوقت الذي أشار فيه نبي الله داود إلى الحجر بأنه "الحجر الذي رفضه البنائون"، يتحدث عنه المسيح عيسى بن مريم بمزيد من الوضوح في مثل الكرام حيث يخبر بني إسرائيل أن الكرم الذي يرمز في المثل لملكوت الله، سوف ينزع منهم ويعطى إلى "كرامين آخرين"، أي إلى قوم ليسوا من بني إسرائيل: "أما قرأتم قط في الكتب. الحجر الذي رفضه البنائون هو قد صار رأس الزاوية" (متى ٢١: ٤٢)؛ "إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره" (متى ٢١: ٤٣). ويوضح المسيح عيسى بن مريم أن المقصود بالحجر الذي رفضه البنائون في النبوة هم الأمة المنبوذة. ويثبت التاريخ أن تلك الأمة المنبوذة ليست سوى ذرية إسماعيل. وفي العالم كله، ليس هناك سوى هذا الحجر الذي لم يقطع، الحجر الذي "قطع... من جبل لا بيدين" (دانيال ٢: ٤٥)، أي حجر زاوية في مبنى له مكانة غير مسبوقه في العالم.

السعي

السعي لغةً هو المشي السريع واصطلاحاً هو سعي الحجاج بين جبلين صغيرين بالقرب من مكة اسمهما الصفا والمروة. وفي مناسك الحج، يأتي السعي بعد ركن الطواف. وفي الواقع، فإنه عند أداء العمرة، أي الحج الأصغر كما تسمى، يكون الطواف والسعي أهم منسكين ومن ثم تختم مناسك العمرة بالسعي ما لم يكن هناك بالطبع هدي سوف يذبح عند أداء العمرة بمفردها. وقد ورد ذكر السعي في القرآن: "إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٥٨)). والكلمة المستخدمة في القرآن ليست السعي وإنما صيغة مشتقة من كلمة طواف (يَطَّوَّفُ). وقد شهد هذان الجبلان سعي السيدة هاجر طلباً للماء لابنها إسماعيل عندما تركها نبي الله إبراهيم (عليه السلام) هناك (البخاري ٦٠: ٩). وبالتالي، أصبح هذان الجبلان رموزاً للصبر على الابتلاء، وقد ذكر الطواف بالصفا والمروة في القرآن عند

الإشارة إلى مبدأ الصبر، كما يبين السياق الذي وردت فيه الآية رقم (١٥٨) في سورة البقرة (٢). ويوجد حالياً بين هذين الجبلين طريق على جانبيه منازل ومحلات تجارية.

الحج - التوجه إلى منى

يعتبر الطواف والسعي منسكين يؤديهما كل حاج عند قدومه إلى مكة، سواء أحرم بالعمرة أو بالحج أو بالحج والعمرة معاً (القرآن) أو بالعمرة ثم الحج (التمتع). وفي حالة أداء العمرة وحدها أو في حالة التمتع، يتحلل الحاج من الإحرام بعد أداء العمرة، وتبدأ مناسك الحج في الثامن من ذي الحجة عندما يسير الحجاج معاً. ويسمى هذا اليوم يوم التروية^{١٥}. وصباح يوم الثامن من ذي الحجة، يحرم الحجاج الذين تحلوا من الإحرام بسبب التمتع وكذلك أيضاً أهل مكة الذين يرغبون في الحج (البخاري ٢٥: ٨١). ثم يتوجه الحجاج إلى منى، وهو وادٍ في منتصف الطريق بين عرفات ومكة على بعد حوالي أربعة أميال من المدينة المقدسة. ويمر الطريق المؤدي إلى هذا الوادي، وطوله حوالي ميل، فوق جبل يسمى العقبة، وهو جبل معروف في التاريخ بسبب البيعتين اللتين بايعهما مسلمو المدينة للنبي (صلى الله عليه وسلم) هناك. ويوجد شمال منى جبل ثبير. وأثناء الحج، تكون أطول إقامة للحجاج، بل في الواقع إقامتهم الوحيدة، بوادي منى. ويجب الوصول إلى منى قبل الظهر حتى يصلي الحجاج صلاة الظهر هناك. كما يبني الحجاج بمنى وفي منتصف اليوم القادم، أي التاسع من ذي الحجة، يتوجهون إلى عرفات.

التوجه إلى عرفات والوقوف به

عرفة أو عرفات هو اسم السهل الذي يقع شرق مكة على بعد تسعة أميال تقريباً. والكلمة مشتقة من كلمة عرف أو معرفة وهي العلم بالشيء ويقصد بالمعرفة هنا خصيصاً معرفة الله تعالى. ويبدو أن الاسم الذي أطلق على هذا السهل يستند إلى أن الناس الذين يتجمعون فيه، كأنداد في كل شيء، يصبحون أقدر على معرفة ربهم. وتقع شرق هذا السهل جبال الطائف الشاهقة في حين أنه يرتفع شماله جبل صغير يحمل نفس الاسم، عرفات، على ارتفاع ٢٠٠ قدم تقريباً عن مستوى سطح السهل. ويقع شرق السهل جبل الرحمة الذي يوضع عليه المنبر الذي يلقي الخطيب من فوقه الخطبة حيث تؤدي إلى قمة الجبل ستون درجة من الحجر. وبعد الخروج من منى ظهر التاسع

^{١٥} يسمى يوم التروية لأن الحجاج كانوا يرتون فيه من الماء لما بعده (النهاية في غريب الحديث والأثر) أو لأن بدء مناسك الحج يعبر عن ارتواء العطش الروحي.

من ذي الحجة، يصل الحجاج إلى عرفات في وقت يجمعون فيه بين صلاتي الظهر والعصر، وبعد ذلك يلقي الإمام الخطبة من فوق المنبر على جبل الرحمة. ويمكث الحجاج بعرفات منذ زوال الشمس حتى الغروب ويعرف ذلك بالوقوف، ولكن للوقوف بعرفات مكانة هامة في مناسك الحج لدرجة أن الحج يعتبر أتم إذا وصل الحاج إلى عرفات في الوقت المحدد يوم التاسع من ذي الحجة، ولكنه إذا لم يتمكن من إدراك الوقوف، يعتبر حجه غير تام. ويقضي الحجاج كل وقتهم، منذ زوال الشمس حتى الغروب، في ذكر الله والجهر بالتلبية بالصيغة التالية: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ". وقبل ظهور الإسلام، كانت قريش وبعض القبائل الأخرى، التي ترى أن لها منزلة أعلى من سائر القبائل العربية، لا تتوجه إلى عرفات، ومن ثم نزل الأمر القرآني بإزالة هذا الفارق: "تُمْ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٩)).

المزدلفة

بعد غروب الشمس، يُفيض الحجاج من عرفات ويقفون بالمزدلفة (الكلمة مشتقة من زَلَفَ أي قرب) وسميت بذلك الاسم لأنه يتقرب إلى الله فيها (النهاية في غريب الحديث والأثر). وفي القرآن، تسمى المزدلفة المشعر الحرام وقد أمر القرآن بصفة خاصة بذكر الله في ذلك المكان: "فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٨)). وتسمى أيضا الجمع. فعند الوصول إلى المزدلفة، يجمع الحجاج بين صلاتي المغرب والعشاء (البخاري ٢٥: ٩٦). وهناك بيت الحجاج ثم يفيضون من مزدلفة إلى منى بعد صلاة الفجر في ساعة مبكرة. ويجوز للزمنى الإفاضة من مزدلفة حتى قبل صلاة الفجر (البخاري ٢٥: ٩٨). وقبل الإسلام، كان الحجاج لا يفيضون حتى تطلع الشمس على ثبير (البخاري ٢٥: ٩٨). وربما كانت لفكرة عبادة الشمس، إلى حد ما، علاقة بهذه العادة.

يوم النحر في منى

وعلى ذلك، يصل الحجاج مرة ثانية إلى منى صباح يوم العاشر من ذي الحجة الذي يسمى يوم النحر، وهو يوم عيد الأضحى الذي يُحتفل به في العالم الإسلامي أجمع. وبعد أداء صلاة العيد في منى، يبذح الهدى^{١٦} ثم يعود الحجاج ويطوفون بالكعبة. وهذا يسمى طواف الإفاضة

^{١٦} تم تناول موضوع الأضاحي على نحو وافٍ في فصل الصلاة في القسم الثامن.

وبه يتحلل الحاج من الإحرام بالطلق أو التقصير. ولكن قبل النحر، هناك نسك آخر يسمى رمي الجمار، سوف نتناوله حالياً. ورغم أن الحاج يتحلل من الإحرام بعد طواف الإفاضة، فإنه يجب عليه العودة إلى منى لأنه في منى ينهى الحج.

أيام التشريق

يجب على الحجاج المبيت بمنى ثلاثة أيام أو على الأقل يومين بعد يوم النحر، أي أيام الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة. وهذا المبيت بمنى واجب بموجب أحد الأوامر القرآنية الصريحة التي يشار فيها إلى إنهاء مناسك الحج: "وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٠٣)).

والأيام المعدادات المشار إليها هنا يقصد بها اليومان أو الثلاثة أيام التي يقضيها الحجاج بمنى بعد يوم النحر، وتعرف هذه الأيام باسم أيام التشريق. وكلمة تشريق مشتقة من الشَّرق، ولكن وفقاً لبعض علماء اللغة، أطلق على أيام الحج الثلاثة المذكورة اسم أيام التشريق لأنه من معاني التشريق تقديد اللحم وبسطه في الشمس ليحفظ ولأن لحوم الأضاحي كانت تشرق في هذه الأيام لتصبح جزءاً من الزاد اللازم للرحلة (النهاية في غريب الحديث والأثر). وهناك تفسير آخر وهو أنها سميت بذلك الاسم لأن الهدي والضحايا كانت تنحر بعد شروق الشمس وهو أيضاً أحد معاني التشريق (النهاية في غريب الحديث والأثر). ولكن يقصد بالتشريق أيضاً الاتجاه نحو الشرق (المعجم العربي - الإنجليزي للين) ومنى تقع شرق مكة؛ أو قد يكون لها مغزى روعي أعمق من حيث إنه يقصد بالتشريق أيضاً تَأَلُّوُ الوجوه حسناً وإشراقاً (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وفي أيام الجاهلية، كان الناس بعد أداء الحج يتفاخرون بعظمة آبائهم عندما يتجمعون في سوق عكاظ وغيرها من الأسواق. ولكن الإسلام جاء وأوقف هذه الممارسة وخصص هذه الأيام لذكر الله.

رمي الجمار

في آخر يوم من أيام الحج، أي اليوم العاشر من ذي الحجة، وفي أيام التشريق الثلاثة، يجب على الحجاج رمي الحصى في أماكن محددة. ويعرف هذا باسم رمي الجمار (والرمي هو قذف الشيء والجمار جمع جَمْرَة وهي الحصاة الصغيرة). وكل من الأماكن الثلاثة بمنى التي ترمى فيها الجمار تسمى أيضاً جمرة بسبب رمي أو جمع الجمرات هناك. ومن الجمرات الثلاث، فإن أقرب

جمرة إلى مكة تسمى جمرة العقبة لأنها تقع عند العقبة؛ والجمرة الثانية تسمى الجمرة الوسطى وهي تقع بالقرب من مسجد منى؛ والجمرة الثالثة تقع بعد الجمرة الوسطى بقليل وتسمى الجمرة الصغرى. وفيما يلي سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) في رمي الجمار: في يوم النحر، كان صلى الله عليه وسلم يرمي الجمار وقت الضحى وفي أيام التشريق كان يرميها بعد الزوال (البخاري ٢٥: ١٣٤). ورغم أنه صلى الله عليه وسلم كان يبدأ الرمي بجمرة العقبة في يوم النحر، كان يعكس الترتيب أيام التشريق. وكان يرمى بسبع حصيات عند كل جمرة ويكبر مع كل حصاة (البخاري ٢٥: ١٣٨). كما يروى أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم كان، بعد رمي الحصى عند الجمرة الأولى، يمضي قليلاً إلى الأمام ثم يقف ويطيل الوقوف رافعاً يديه للدعاء ومستقبلاً القبلة، ثم يرمي الجمرة الثانية وبعد رمي الحصى يمضي قليلاً إلى الأمام ثم يقف ويطيل الوقوف رافعاً يديه للدعاء ومستقبلاً القبلة وأخيراً يأتي الجمرة الأخيرة فيرميها بالحصى وينصرف ولا يقف (البخاري ٢٥: ١٤٢). ومن الصحيح أنه تم الإبقاء على كثير من شعائر الحج التي كانت سائدة في الجاهلية، ولكن كما سبق أن ذكرنا، فإن تاريخ هذه الشعائر يرجع إلى عهد نبي الله إبراهيم (عليه السلام) وكل شعيرة منها لها مغزى روحي. ويدل الجو السائد في الحج على عظمة الله والمساواة بين البشر. وبذلك، يعتبر الحج المرحلة الأخيرة في الرقي الروحي للعبد. ورغم ذلك، يجب ألا يغفل العبد في رقيه الروحي عن إجراءات الحياة الفعلية ورمي الجمرات ينبهه إلى إغواءات الشيطان له. ورغم أن رسالة الإسلام هي العيش في سلام، فإنه لن ينعم الإنسان الذي يغويه الشيطان براحة البال. ورمي الجمرات يلقي الإنسان درساً مفاده أنه يجب عليه أن يتعود على مقت الشر وأنه يجب عليه إبعاد الشيطان برمي الجمرة. فكلما اقترب الإنسان من الإغواءات، كان متوقفاً أن يستسلم، وأفضل وسيلة لتجنبها هو إبعادها. بالإضافة إلى ذلك، فإن رمي الجمرات تذكر بالروحانية التي يجب على الإنسان خوضها ضد الشر.

الأنشطة الأخرى المسموح بها في الحج

رغم أن هدف الحج هو تحقيق تجربة الزهد في الحياة العملية للعبد، فإنه توجد في الإسلام علاقة وثيقة بين تجربة الزهد والتجربة الدنيوية حتى إنه لم تستبعد الاستفادة من الحج إلى مكة في خدمة الأغراض الدنيوية. وقد أضاف القرآن عندما أمر بالتزود بما يكفي للقيام برحلة الحج ما يلي: "لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٨)). وقد أجمع المفسرون على أن ابتغاء فضل الله يقصد به هنا السعي لزيادة مال الفرد عن طريق التجارة في موسم الحج. وفي تفسير هذه الآية، قال ابن عباس (رضي الله عنه) إن ذا المجاز وعكاظ كانتا سوقين للتجارة في أيام الجاهلية. ورغم ذلك، لم ترق للمسلمين فكرة مزج الدروس

الروحية للحج بالمكاسب الدنيوية حتى نزلت هذه الآية التي أجازت لهم مزاوله التجارة في موسم الحج (البخاري ٢٥ : ١٥٠). وكانت هاتان السوقان تقامان في عرفات أو بالقرب منه منذ بداية شهر ذي القعدة حتى الثامن من ذي الحجة عندما يبدأ الحج. وعلى ذلك، لم يجز القرآن مزاوله التجارة في موسم الحج فحسب، وإنما أوصى بها، إلى حد ما، حين سمّاها "فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ". ومن السهل أن نعرف أنه حتى إذا كانت التجارة في موسم الحج مسموحاً بها، فإن هذا الجمع الكبير من المسلمين القادمين من شتى ربوع الأرض يمكن أن يصبح أيضاً مناسبة لتحقيق منافع مادية أو ثقافية أخرى، وينبغي أن يخدم الغاية التي تتمثل في توحيد العالم الإسلامي وإزالة سوء الفهم بين الشعوب. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أنه تقام مؤتمرات عالمية في مناسبات عديدة وينبغي أن تكون هذه، في ظل الأوضاع الجديدة السائدة في العالم، إحدى سمات الحج وينبغي على المفكرين بين الأمم المختلفة أن يبحثوا في هذه المناسبة جميع المشكلات التي تؤثر على العالم الإسلامي، والتي ليس أقلها أهمية نشر الإسلام نفسه.

الفصل الخامس

الجهاد

معنى كلمة "الجهاد"

هناك سوء فهم شديد شائع لمعنى فريضة الجهاد في الإسلام يرجع إلى افتراض أن كلمة الجهاد مرادفة لكلمة الحرب؛ فحتى كبار الباحثين في أوروبا لم يبذلوا جهداً يذكر في الرجوع إلى أي من معاجم اللغة العربية أو القرآن الكريم من أجل معرفة المعنى الحقيقي للكلمة. وقد أصبح سوء الفهم ذلك شائعاً لدرجة أن مفكراً بشهرة إيه. جيه. وينسينك، عند إعداد فهرس الحديث الذي يحمل عنوان دليل الأحاديث النبوية الأولى، لم يذكر أي مرجع تحت كلمة الجهاد وإنما أحال القارئ إلى كلمة الحرب كما لو كانت الكلمتان مترادفتين. وحتى دائرة المعارف الإسلامية تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك حيث تبدأ المقال الذي يدور حول موضوع الجهاد بالنص التالي: "يعتبر نشر الإسلام بالسيف فريضة دينية على المسلمين كافة؛" كما لو كان الجهاد لا يعني الحرب فحسب وإنما الحرب التي يشنها المسلمون من أجل نشر الإسلام. ويدلي الكاتب/ كلاين في كتابه الدين الإسلامي بتعليق مشابه: "الجهاد هو قتال الكفار بغرض إما إدخالهم في الإسلام أو إخضاعهم والقضاء عليهم إذا رفضوا الدخول في الإسلام، ويعتبر نشر الإسلام ونصرته على جميع الأديان واجباً مقدساً مفروضاً على الأمة الإسلامية". ولو كان أي من هؤلاء المفكرين المتبحرين بذل عناء الرجوع إلى أي معجم عادي من معاجم اللغة العربية للبحث عن معنى الكلمة لما كان يمكن له مطلقاً أن يحرف معناها هذا التحريف الواضح للجميع. وكلمة الجهاد مشتقة من جهد أو جهد التي تعني الوسع أو الجهد أو الطاقة، والجهاد والمجاهدة يعينان استتفراغ الوسع في مدافعة العدو (المفردات في غريب القرآن). ثم يمضي نفس المرجع قائلاً: "الجهاد ثلاثة أضراب: مجاهدة: (١) العدو الظاهر، (٢) الشيطان، (٣) النفس." ووفقاً لمرجع آخر، فإن الجهاد يعني محاربة الكفار وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل (النهاية في غريب الحديث والأثر). ويذكر مرجع ثالث المعنى التالي للكلمة: المعنى الصحيح لكلمة الجهاد، وهي اسم مصدر مشتق من الفعل جاهَدَ، هو استفراغ المرء أو بذله أقصى ما في طاقته أو جهده أو وسعه في التغلب على شيء موضع استنكار؛ والجهاد ثلاثة أضراب؛ هي تحديداً: الجهاد ضد (١) عدو ظاهر، (٢) الشيطان، (٣) النفس؛ وكل هذه الأضراب تشملها الكلمة المستخدمة في القرآن (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٧٨)) " (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وبالتالي، تعتبر كلمة الجهاد بعيدة كل البعد عن أن تكون مرادفة لكلمة الحرب، بينما أن معنى

"الحرب التي يشنها المسلمون من أجل نشر الإسلام"، الذي يتصور الكتاب الأوروبيون أنه معنى الجهاد، ليس معروفاً في اللغة العربية وتعاليم القرآن الكريم على حد سواء.

استخدام كلمة "الجهاد" في السور المكية

لا تقل دراسة المعنى الذي تستخدم به كلمة الجهاد في القرآن أهمية عما سبق بل هي أكثر أهمية منه. فمن المعترف به أنه قد أذن للمسلمين بالقتال عندما هاجروا إلى المدينة المنورة أو عندما كانوا على وشك الخروج من مكة وليس قبل ذلك. ولكن الأمر بالجهاد ورد في أوائل ما نزل وكذلك في أواخر ما نزل من السور المكية. وتعتبر سورة العنكبوت (٢٩) في القرآن الكريم واحدة من مجموعة السور التي نزلت بلا شك في العامين الخامس والسادس لدعوة النبي (صلى الله عليه وسلم)؛ ومع ذلك تستخدم كلمة الجهاد هناك استخداماً غير مقيد بمعنى بذل المرء أقصى ما في طاقته ووسعه، دون أي إشارة ضمنية إلى أي حرب. وفي أحد المواضع، قال تعالى: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" (سورة العنكبوت (٢٩): الآية رقم (٦٩)). والكلمة العربية جَاهَدُوا مشتقة من كلمة جهاد أو مُجَاهَدَة وإضافة كلمة فينا توضح، إن كان هذا يحتاج للمزيد من التوضيح، أن الجهاد، في هذه الحالة، هو جهاد روحاني للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ويذكر في الآية الكريمة أن نتيجة هذا الجهاد هو هداية الله عز وجل لمن يجاهدون في سبيله. وتستخدم الكلمة بالضبط بنفس المعنى مرتين في آية سابقة في نفس السورة الكريمة: "وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ"، أي لمصلحته، "إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" (سورة العنكبوت (٢٩): الآية رقم (٦)). وفي نفس السورة، تستخدم الكلمة بمعنى الجهاد بالقول: "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا" (سورة العنكبوت (٢٩): الآية رقم (٨)).

ومن بين أواخر ما نزل من السور يمكن ذكر سورة النحل، السورة السادسة عشرة، حيث قال تعالى، قبيل نهاية السورة: "ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (١١٠)). وهناك مفهوم خاطئ آخر شائع بأنه في مكة أمر القرآن المسلمين بالصبر وفي المدينة أمرهم بالجهاد كما لو كان الصبر والجهاد شيئين متعارضين أحدهما مع الآخر. ويتضح خطأ هذا المفهوم من الآية التي تم الاستشهاد بها لأنها تأمر المسلمين بالجهاد والصبر في نفس الوقت.

ويمكن الاستشهاد بمثالين آخرين لاستخدام كلمة الجهاد في السور المكية. ففي أحد المواضع، قال تعالى: "وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ" (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٧٨)). وفي موضع آخر،

قال تعالى: "فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا" (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (٥٢))، حيث يشير الضمير الشخصي الهاء بلا شك إلى القرآن كما يوضح السياق. وفي كلتا الحالتين، من الواضح أن المسلمين يؤمرون بمباشرة الجهاد، إلا أنه في الحالة الأولى جهاد للتقرب إلى الله عز وجل وفي الحالة الثانية جهاد ضد الكفار ولكنه ليس جهاداً بالسيف وإنما بالقرآن. وبالتالي، يعتبر الجهاد للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى وتغلب المرء على رغباته الحسية والجهاد لإدخال الكفار في الإسلام لا بالسيف وإنما بالقرآن، كل هذا يعتبر جهاداً في المصطلح القرآني وقد نزلت الأوامر بمباشرة هذين النوعين من الجهاد قبل الأمر بحمل السيف دفاعاً عن النفس بفترة طويلة.

استخدام كلمة "الجهاد" في السور المدنية

لم يكن بد أمام المسلمين، أمام تربص أعدائهم بهم، من القتال للحفاظ على بقاء الأمة عندما وصلوا إلى المدينة المنورة، واضطروا إلى حمل السيف دفاعاً عن النفس. وقد عُرف هذا القتال باسم الجهاد وهي تسمية صحيحة؛ إلا أنه حتى في السور المدنية تستخدم الكلمة بمعناها الأوسع، أي الجهاد بالقول أو الفعل من أي نوع. وكمثال واضح لهذا الاستخدام، يمكن الاستشهاد بالآية التالية التي وردت مرتين في القرآن: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنُصِّبُ الْمَصِيرُ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٧٣)؛ سورة التحريم (٦٦): الآية رقم (٩)). وفي هذه الآية، يؤمر النبي بمباشرة الجهاد ضد الكفار والمنافقين. والمنافقون هم من كانوا يتظاهرون بالإسلام ويعيشون بين المسلمين ويعاملون نفس معاملتهم في جميع الأمور. وكانوا يأتون إلى المسجد ويصلون مع المسلمين. بل إنهم كانوا يدفعون الزكاة. ولذلك، لم تكن الحرب ضدهم واردة ولم يشن المسلمون أي حرب عليهم. ومن ناحية أخرى، كانوا يقاتلون أحياناً في صفوف المسلمين ضد الكفار. ومن ثم، لا يمكن أن يكون المقصود من الأمر بمباشرة الجهاد ضد الكفار والمنافقين هو شن الحرب عليهم. وإنما هو جهاد بالقرآن كما هو مذكور صراحة في سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (٥٢)، أي أنه جهاد لإدخالهم في الإسلام. وفي الواقع، ففي حالات أخرى يكون من الخطأ أن نتصور أن كلمة الجهاد تعني القتال فقط؛ فالكلمة تكاد تستخدم دائماً بالمعنى العام للجهاد، بما في ذلك القتال إذا كان السياق يقتضي ذلك. "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢١٨)؛ وسورة الأنفال (٨): الآية رقم (٧٤)) هذه الآية تحتوي على وصف ينطبق على المقاتلين بقدر ما ينطبق على من يبشرون الجهاد ضد الكفر والشر بطرق أخرى. ومرة أخرى ورد ذكر لفظي الصابرين والمجاهدين معاً في إحدى السور المدنية كما ورد ذكرهما معاً في إحدى السور المكية: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلْمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ" (سورة آل عمران: الآية رقم (١٤١)).

استخدام كلمة "الجهاد" في الحديث

وحتى في الأحاديث النبوية لم تستخدم كلمة الجهاد فقط بمعنى القتال. فعلى سبيل المثال، يطلق على الحج لفظ جهاد: قال النبي الكريم "أَفْضَلُ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ" (البخاري ٢٥: ٤). ومن بين كل كتب الحديث، يعتبر صحيح البخاري أكثر الكتب وضوحاً في هذه النقطة. ففي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، كان عنوان الباب الرابع كما يلي: "بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ" ثم تضاف عبارة "وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ" (البخاري ٩٧: ١٠).^١ وهكذا، يرى البخاري أن الطائفة المنتصرة من أمة النبي لا تتكون من المقاتلين وإنما من أهل العلم الذين ينشرون الحق ويشاركون في نشر الإسلام. ومرة أخرى، توجد في كتاب الجهاد في صحيح البخاري عدة أبواب تتحدث عن الدعوة الصريحة للإسلام. فعلى سبيل المثال، كان عنوان الباب (٩٩): كتاب الجهاد (٥٦) كما يلي: "هَلْ يُرْشِدُ الْمُسْلِمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَوْ يُعَلِّمُهُمُ الْكُتَّابُ؟" والباب (١٠٠): كتاب الجهاد (٥٦): "الدُّعَاءُ لِلْمُشْرِكِينَ بِالْهُدَى لَيْتَأْتَفَهُمْ؟" والباب (١٠٢): كتاب الجهاد (٥٦): "دُعَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ (الْكَفَّارَ) إِلَى الْإِسْلَامِ وَالنُّبُوَّةِ وَأَنْ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟" والباب (١٤٣): كتاب الجهاد (٥٦): "فَضْلٌ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ؟" والباب (١٤٥): كتاب الجهاد (٥٦): "فَضْلٌ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكُتَابِ؟" والباب (١٧٨): كتاب الجهاد (٥٦): "كَيْفَ يُعْرِضُ الْإِسْلَامُ عَلَى الصِّبِيِّ؟".

وتدل هذه العناوين على أنه، حتى عصر البخاري، كانت كلمة الجهاد تستخدم بالمعنى الأوسع الذي تستخدم به في القرآن، إذ كان يُنظر إلى الدعوة للإسلام على أنها جهاد. وتحتوي كتب الحديث الأخرى على إشارات مشابهة. وهكذا، يستشهد أبو داود (سنن أبي داود ١٥: ٤) تحت عنوان "دوام الجهاد" بحديث يفيد أنه "لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يَقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ" وقد شرحت كلماته في كتاب عون المعبود في شرح سنن أبي داود استناداً إلى قول الإمام النووي: "هذه الطائفة متفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم محدثون (من يقوموا بجمع الأحاديث الشريفة) ومنهم زهاد (من يزهدون في المتع الدنيوية ويفرغون أنفسهم لعبادة الله) وأمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير". مما يوضح أن الجهاد كما ورد في الحديث يشمل خدمة قضية الإسلام بأي شكل من الأشكال.

^١ يشتمل قول النبي صلى الله عليه وسلم، كما ورد في أحاديث أخرى، على كلمة إضافية هي "يَقَاتِلُونَ"، كما ورد في سنن أبي داود ١٥: ٤.

استخدام الفقهاء لكلمة "الجهاد"

لم تقف كلمة الجهاد معناها الأصلي الأوسع نطاقاً وبدأ استخدامها بمعناها الأضيق أي القتال إلا بين جمهور الفقهاء. والسبب في ذلك ليس من الصعب معرفته. فقد تم جمع وتصنيف أحكام الشريعة الإسلامية في كتب الفقه، وعند تصنيف الموضوعات المختلفة التي تتناولها الشريعة الإسلامية تم تخصيص مكان أساسي لموضوع القتال في حين أن الدعوة للإسلام، على الرغم من أنها تشير إلى أحد المعاني الأصلية لكلمة الجهاد، لم تشكل جزءاً من الشريعة نظراً لأنها مسألة تترك حرية الاختيار الفردي. ومن ثم، استخدم الفقهاء الذين كان يجب عليهم تناول موضوع القتال كلمة الجهاد كمرادفة لكلمة القتال وفيما بعد اختفى المعنى الأوسع لكلمة الجهاد رغم قبول مفسري القرآن لهذا المعنى عند تفسير آيات مثل الآية رقم (٥٢) من سورة الفرقان (٢٥). إلا أن هذا لم يكن هو سوء الاستعمال الوحيد للكلمة. فضلاً عن توضيح معنى كلمة الجهاد، ظهرت فكرة أخرى مفادها أنه يجب على المسلمين، سواء اعتدي أم لم يُعتد عليهم، شن الحرب على الأمم والبلدان الكافرة، وهي فكرة غريبة تماماً عن القرآن.

نشر الإسلام بالقوة

يعتبر نشر الإسلام بلا شك واجباً دينياً على كل مسلم حق يقنني بالنبوي (صلى الله عليه وسلم)، ولكن "نشر الإسلام بالقوة" هو شيء لا يوجد له أثر في القرآن. ومن ناحية أخرى، يرسي الكتاب الكريم مبدأً مناقضاً لذلك في كلمات واضحة: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" ويضاف السبب في ذلك في قوله تعالى: "قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٥٦)). وقد نزلت هذه الآية بعد أن أذن للمسلمين بالقتال وبالتالي فمن المؤكد أنه ليس للإذن للمسلمين بالقتال علاقة بنشر الدين. وقد بدأت العقلية الغربية تدرك بالتدريج حقيقة أن القرآن لم يُرس قط هذا المبدأ كما أن النبي (عليه الصلاة والسلام) لم يفكر فيه مطلقاً. فبعد أن بدأ الكاتب/ دي.بي. ماكدونالد مقاله حول موضوع الجهاد، الذي نشر في دائرة المعارف الإسلامية، بقوله "نشر الإسلام بالسيف يعتبر فريضة دينية على المسلمين كافة"، عاد الكاتب وشكك إلى حد ما في صحة ادعائه عندما أضاف قائلاً إنه ما من شيء في القرآن يؤدي صحة ذلك كما أن الفكرة لم تكن حاضرة في ذهن النبي:

"في السور المكية في القرآن، يؤمر المسلمون بالصبر على الأذى؛ لأنه لم يكن من الممكن اتخاذ أي موقف آخر. إلا أنه في المدينة، ظهر الحق في رد العدوان،

وبالتدريج أصبح قتال القبائل المعتدية في مكة وإخضاعها واجباً مفروضاً على المسلمين. وقد يرد الشك فيما إذا كان محمد نفسه أدرك أن موقفه كان يدل ضمناً على شن حرب مستمرة غير قائمة على رد العدوان على مجتمع الكفار حتى يتم إخضاعه للإسلام. والأحاديث النبوية صريحة في هذه النقطة^٢؛ إلا أن الآيات القرآنية تصف دائماً الكفار الذين يجب إخضاعهم بالعدو أو عدم الوفاء بالعهد.

وتحتوي هذه الفقرة على اعتراف صريح بأن القرآن لم يأمر بمحاربة جميع الكفار حتى يتم إخضاعهم للإسلام كما أن الفكرة لم تكن حاضرة في ذهن النبي (صلى الله عليه وسلم). والنتيجة المنطقية لهذا الاعتراف هي أن الأحاديث الصحيحة لا يمكن أن تغرس مثل هذا المبدأ لأن الحديث ينقل قول النبي (صلى الله عليه وسلم). وإذا كان القرآن والنبي لم يرسيا قط هذا المبدأ فكيف يمكن القول بأن محاربة الكفار واجب ديني مفروض على المسلمين؟ إن من الواضح أن هناك صراعاً في ذهن الكاتب بين الأفكار المسبقة والمعرفة الفعلية للحقائق.

الظروف التي أن فيها للمسلمين بالقتال

من المنافي للحقيقة القول بأن المسلمين أمروا بالصبر على الأذى في مكة لأنه لم يكن هناك بديل آخر أمامهم وأن الحق في رد العدوان ظهر في المدينة. فمما لا شك فيه أن الموقف تغير، ولكن هذا التغير يرجع إلى تغير الظروف. ففي مكة، تعرض المسلمون للظلم الفردي وأمروا بالصبر على الأذى. ولو كانت الظروف لم تتغير في المدينة لما تغير موقف المسلمين. إلا أن قبيلة قريش في مكة لم تعد قادرة على اللجوء إلى الظلم الفردي لأن المسلمين أصبحوا يعيشون بعيداً عن متناول أيديها. وقد أشعلت هذه الظروف في حد ذاتها نيران غضب أفرادها وغدوا يخططون للقضاء على المسلمين كأمة. فحملوا السيف للقضاء على الأمة الإسلامية جمعاء أو لإجبار المسلمين على العودة إلى الكفر. وكان ذلك هو التحدي الذي واجه المسلمين وكان على النبي (صلى الله عليه وسلم) التصدي له. وثبت القرآن صحة ذلك بوضوح شديد. فقد تم التعبير عن أول إذن للمسلمين برد العدوان في كلمات توضح أن العدو قد حمل بالفعل السيف أو قرر

^٢ سوف نوضح فيما بعد أن الحديث الشريف لم يدع لنشر الإسلام بالقوة.

ذلك: "أَنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ" (سورة الحج (٢٢): الأيتان رقما (٣٩) و(٤٠)). وتوضح نفس كلمات الآية أنها أول آية نزلت في موضوع القتال لأنها تتحدث عن إعطاء إذن بالقتال الآن، وهو إذن من الواضح أنه لم يعط للمسلمين حتى وقت نزولها. وقد أعطي هذا الإذن بالقتال لقوم يُقَاتِلُونَ؛ ولم يكن إذنًا بقتال الناس عامة وإنما بقتال من قاتلوهم والسبب في ذلك مذكور بوضوح: "بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا" و"أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ". ومن الواضح أنه كان عدواناً شنه أعداء الإسلام الذين كانوا يسعون إما للقضاء على المسلمين أو ردهم عن دينهم: "وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَزِدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢١٧)). لقد كانت حرباً مقدسة بالمعنى الحقيقي للكلمة لأنه، كما ذكر فيما بعد في الآية، لو لم يؤذن للمسلمين بالقتال في ظل هذه الظروف لما كان هناك سلام على الأرض ولما كانت هناك حرية دينية ولهدمت البيوت التي يعبد فيها الله. وفي الواقع، فلا يمكن أن توجد حرب أقدس من الحرب التي كانت هناك حاجة لها من أجل إرساء مبدأ الحرية الدينية للمسلمين بنفس قدر الحاجة لها من أجل إرساء مبدأ الحرية الدينية في حد ذاته، والتي كانت هناك حاجة لها من أجل حماية المساجد بنفس قدر الحاجة لها من أجل حماية صوامع الرهبان، ومعابد اليهود، وكنائس النصارى. وإذا كان قد وُجد في التاريخ سبب مشروع للقتال في هذا العالم فهو للقتال الذي أذن به للمسلمين. وبلا شك، فقد كان القتال بهذه الدوافع الخالصة جهاداً، جهاداً لا لشيء إلا لإعلاء كلمة الحق ولاحترام مبدأ حرية المعتقد.

أما الآية الثانية التي تأذن للمسلمين بالقتال فجاء نصها كما يلي: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٠)). وفي هذه الآية مرة أخرى، يتكرر في كلمات صريحة شرط ألا يبدأ المسلمون بالعدوان وأنه يجب عليهم القتال - الذي أصبح الآن واجباً - ولكنه قتال من قاتلوهم فقط؛ وحرمت الآية في كلمات صريحة على المسلمين العدوان على الغير. ويعرف القتال دفاعاً عن النفس بالقتال في سبيل الله لأن القتال دفاعاً عن النفس هو أنبل وأكثر أسباب القتال مشروعية. لقد كان سبباً سماوياً لأنه لو لم يقاتل المسلمون لسُحِقُوا من الوجود ولما كان هناك شخص ليقوم وحدانية الله على الأرض. وكانت هذه هي نفس الكلمات التي دعا بها النبي (صلى الله عليه وسلم) ربه في غزوة بدر: "اللَّهُمَّ إِنِّي أُنشِدُكَ عَهْدَكَ وَعَوْدَكَ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ (غير ذلك) لَمْ تُعَبِّدْ بَعْدَ الْيَوْمِ" (البخاري ٥٦: ١٨٩). وقد أخطأ معظم الكتاب الأوروبيين في تفسير عبارة "فِي سَبِيلِ اللَّهِ" على أنه يقصد بها "في سبيل نشر الإسلام". إلا أنه ما من شيء أبعد عن الحقيقة أكثر من هذا التفسير. فالمسلمون لم يقاتلوا لفرض الإسلام على الآخرين؛ وإنما قاتلهم المشركون لردهم عن الإسلام كما يتضح من الآية رقم (٢١٧) من

سورة البقرة (٢) التي تم الاستشهاد بها أعلاه. فياله من تشويه للحقائق أن يقال إن المسلمين قاتلوا من أجل نشر الإسلام!

ويزعم البعض أحياناً أن هذه الأوامر، بالقتال دفاعاً عن النفس، نسخت بأية نزلت بعد ذلك في سورة التوبة (٩). ومع ذلك، فلن يعجز أي شخص يقرأ هذه السورة عن أن يلاحظ أنها لا تجري أي تغيير في المبادئ التي تم إرساؤها في الآية الأولى. ففي سورة التوبة (٩)، يؤمر النبي بقتال المشركين وليس بقتالهم جميعاً. وفي الآية الأولى من السورة، لا توجه براءة الله ورسوله إلا لتكون من "الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" وليس من جميع المشركين، وحتى في هذه الحالة هناك استثناء: "إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِنَفْسِهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَبَّرَاتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٤)). وهذا يوضح أنه كانت هناك قبائل مشركة متحالفة مع المسلمين وأنه لم يؤذن للمسلمين بقتالهم؛ قلم يؤذن للمسلمين إلا بقتال القبائل المعادية التي كانت تنقض عهدها وتعتدي على المسلمين. ورغم ذلك، يمكن للأفراد المشركين، حتى وإن كانوا ينتمون إلى قبائل معادية، أن يكونوا في مأمن إذا كانوا يرغبون في معرفة شيء من أمر الدين الإسلامي ويظلوا في مأمن حتى يرجعوا إلى بلادهم وديارهم حتى وإن لم يدخلوا في الإسلام: "وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٦)). وتوضح الآية الكريمة أن المشرك الذي يستجير بالنبي كان ينتمي إلى إحدى القبائل المعادية للمسلمين لأن القبائل الصديقة لا تحتاج للاستجارة بحكومة المسلمين لأنها تكون متحالفة معهم. وهكذا، وحتى المشرك العدو يرجع آمناً إلى قبيلته ولا يتعرض أحد بسوء له بأي شكل من الأشكال، كما توضح كلمات الآية. والمشركون الذين أمر النبي بقتالهم هم المشركون الذين كانوا ينقضون عهدهم ويبدأون بالاعتداء على المسلمين كما توضح الكلمات التالية: "كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وِلَا ذِمَّةٍ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٨)). "أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوْلَٰ مَرَّةٍ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (١٣)). وهكذا، تتحدث سورة التوبة (٩)، التي يعتقد أنها نسخت الآيات التي نزلت من قبل، عن قتال المشركين الذين "بَدَوُكُمْ أَوْلَٰ مَرَّةٍ" فقط وهذا هو نفس الشرط الذي ذكر في الآيات التي نزلت من قبل، مثل الآية رقم (١٩٠) من سورة البقرة (٢)).

ما يعرف "بآية السيف"

على الرغم من أن سورة التوبة (٩)، كما سبق وذكرنا، لا تتجاوز ما ورد في أول ما نزل من آيات حول موضوع القتال، فإن البعض أطلق على الآية الخامسة من هذه السورة اسم آية السيف،

كما لو كانت تغرس مبدأ قتال جميع المشركين أو الكفار بلا تمييز. ويرجع هذا المفهوم الخاطئ إلى نزع الكلمات من سياقها وفرض معنى عليها لا يحتمله السياق. وقد وردت الكلمات التالية في الآية الخامسة: "فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٥)). ولكن وردت كلمات مشابهة في أول ما نزل من آيات حول هذا الموضوع: "وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩١)). وفي كلا الموضعين، فإن السياق هو الذي يوضح هوية الأشخاص الذين نزل بشأنهم الأمر بالقتال. وفي كلتا الحالتين، كان الأشخاص الذين نزل بشأنهم الأمر هم الأشخاص الذي حملوا السيف وبدأوا بالاعتداء على المسلمين. وقد سبق أن ذكرنا أن الأمر بقتال المشركين، كما ورد في الآيات الافتتاحية في سورة التوبة (٩)، لم ينزل إلا بشأن القبائل المشركة التي أبرمت عهوداً مع المسلمين ثم نقضتها واعتدت عليهم وليس بشأن جميع المشركين أينما وجدوا في الأرض. وإذا قرأنا فقط الآية السابقة للآية الخامسة، لما تبقى لدينا أدنى شك في أنها لا تتحدث عن جميع المشركين. لأن الآية الرابعة، كما سبق أن استشهدنا بها، توضح أن الأمر بالقتال لا يشمل المشركين الذين أوفوا بعهودهم. ومن ثم، كان الأمر موجهاً ضد قبائل مشركة معينة، وتحديدأً ضد القبائل التي أبرمت عهوداً مع المسلمين ثم نقضتها مراراً كما هو مذكور صراحة في سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٥٦). ومن الخطأ أن ننظر إلى الأمر على أنه يشمل جميع المشركين الذين يعيشون في أي مكان في الأرض أو حتى في شبه الجزيرة العربية. وإذا كانت الآية السابقة للآية التي يطلق عليها اسم "آية السيف" ورد فيها استثناء واضح من الأمر في حالة جميع القبائل المشركة الصديقة، فإن الآية التي تلي آية السيف مباشرة ورد فيها استثناء واضح من الأمر لصالح أفراد القبائل المشركة المعادية الذين يستجيبون بالمسلمين (انظر الآية رقم (٦) التي تم الاستشهاد به في الفقرة السابقة). ومتابعة للموضوع، ذكر في السورة أيضاً أن الأمر بالقتال لم ينزل إلا بشأن القوم الذين: "تَكْتُمُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِجْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (١٣)). وبهذا التفسير الواضح لمعنى الآية الخامسة الذي ورد في الآية السابقة والآية التالية لها، ما من شخص عاقل يفسر الآية على أنه يُقصد بها قتال جميع المشركين أو شن حرب، غير قائمة على رد العدوان، ضد جميع القبائل المشركة.

شروط وقف القتال

وهكذا يتضح لنا أنه لم يُؤذن للمسلمين بالقتال إلا دفاعاً عن النفس للحفاظ على بقاء أمتهم وحرمة عليهم أن يكونوا معتدين. ولم يرد في أي آية من القرآن إذن للمسلمين بالدخول في حرب غير قائمة على رد العدوان ضد العالم أجمع. كما ذكرت أيضاً في القرآن شروط وقف القتال: "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونََ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ ائْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ" (سورة البقرة (٢):

الآية رقم (١٩٣)). وأحياناً يخطئ البعض في تفسير عبارة "وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ" على أنه يقصد بها أنه ينبغي على جميع الناس الدخول في الإسلام، وهو معنى يتعارض تماماً مع ما ورد في العبارة التالية: "فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ". ومن الواضح أن لفظ "انتهوا" يشير إلى الكف عن الفتنة في الدين. وقد وردت عبارة مماثلة في آية أخرى نزلت في وقت مبكر في المدينة: "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٣٩)). وتحمل كلتا العبارتين، أي "وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ" و"وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ" نفس المعنى، أي أن الدين يعتبر أمراً بين العبد وربّه، فهو مسألة معتقد ليس لأحد حق التدخل فيها. وفي هذا الصدد، يمكننا أن نضيف أنه لو كان للعبارة المذكورة سلفاً المعنى الذي يسعى البعض لفرضه عليها لكان النبي أول من ترجم هذه التعاليم إلى أفعال، إلا أنه في الحقيقة كان يتصالح مع العدو في حالات عديدة ويوقف القتال مع القبائل المشركة عندما كانت تجنح للسلم. وحتى عندما كان يخضع قوماً، كان يعطيهم مطلق الحرية في دينهم كما حدث في فتح مكة.

الإسلام يدعو للسلم

ورغم ما سبق ذكره، فإن المسلمين أمروا بقبول السلم أثناء الحرب إذا جنح العدو للسلم كما ورد في قوله تعالى: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخُدُّوكُمْ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ" (سورة الأنفال (٨): الآيتان رقم (٦١) و(٦٢)). ومن الجدير بالذكر أن المسلمين يؤمرون في هذه الآية بقبول السلم حتى وإن راودهم الشك في صدق نوايا العدو. وقد كانت هناك أسباب للشك في حسن نوايا العدو لأن القبائل العربية لم تكن تقيم وزناً لعهودها: "الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ" (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٥٦)). وليس بأقدر من النبي على ترجمة هذه التعاليم إلى أفعال فقد كان يجنح للسلم عندما كان العدو يبدي أقل رغبة في ذلك لدرجة أنه أثناء صلح الحديبية لم يتردد في قبول موقف الطرف المهزوم، رغم أنه لم يهزم قط على أرض المعركة ورغم أن الصحابة أقسموا على التضحية بحياتهم جميعاً إذا اقتضى الأمر. ورغم ذلك، تصالح النبي (صلى الله عليه وسلم) مع العدو وقبل شروطاً كان أتباعه يرون أن فيها مهانة للإسلام. فقد قبل الشرط الذي فرض عليه أن يعود دون أداء فريضة الحج وأنه إذا اعتنق أي من أهل مكة الإسلام واستجار به فلا يجيره. وهكذا، يثبت الأمر الوارد في القرآن بالدخول في سلم مع المشركين إذا جنحوا للسلم، والمقترن بسنة النبي الفعلية المتمثلة في عقد صلح معهم بأي شروط، كل هذا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن نظرية نشر الإسلام بالسيف ليس لها أساس من الصحة فيما يتعلق بالقرآن.

وخلاصة القول أنه لم ترد في أوائل أو أواخر ما نزل من آيات أدنى إشارة إلى أي أمر بنشر الإسلام بالسيف.

ومن ناحية أخرى، أذن للمسلمين في كلمات واضحة في القرآن بالقتال كإجراء دفاعي حتى النهاية. ولم يؤذن لهم بمواصلة القتال إلا إذا استمرت الفتنة في الدين، وعندما تتوقف وجب عليهم وقف القتال نتيجة لذلك. كما ورد في القرآن شرط آخر ينص على أنه إذا اعتنقت الإسلام قبيلة، كان المسلمون يقاوتونها بسبب بدئها بالعدوان عليهم ونقضها العهد في كل مرة، عندئذ تصبح هذه القبيلة فور إسلامها جزءاً من الأمة الإسلامية وبالتالي يكف المسلمون عن إخضاعها بالسيف وتنتهي الحرب معها. وقد ظلت هذه هي سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) الفعلية طيلة حياته. ولم يسجل التاريخ حالة واحدة عرض فيها النبي على أي قبيلة أو فرد الاختيار بين السيف والدخول في الإسلام، أو بدأ فيها بهجوم عدواني على أي من جيرانه. وقد كانت آخر غزواته هي غزوة تبوك، التي قاد فيها جيشاً قوامه ثلاثون ألف جندي لقتال الإمبراطورية الرومانية، إلا أنه عندما وجد، لدى وصوله إلى الحدود وبعد أن قطع رحلة طويلة وشاقة، أن الرومان لم يعترضوا شن أي هجوم على المسلمين، عاد دون مهاجمتهم. ويلقي تصرفه في هذه المناسبة أيضاً بالضوء على أن الإذن بقتال النصارى الذي ورد في سورة التوبة (٩): الآية رقم (٢٩) كان موقوفاً أيضاً بالشرط الذي ورد في سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٠) بألا يبدأ المسلمون بالاعتداء في الحرب.

والرأي المأخوذ به الآن في أوساط نقاد الإسلام الأوروبيين الأكثر استنارة هو أنه رغم عدم استخدام النبي (عليه الصلاة والسلام) للقوة في نشر الإسلام ورغم أنه لم يبدأ أي هجوم عدواني على أي عدو طيلة حياته، فإن خلفاءه تبنا هذا الموقف مما يعتبر بالتالي تطوراً طبيعياً لتعاليمه. ويرجع هذا الرأي أيضاً إلى سوء فهم الحقائق التاريخية التي أدت إلى نشوب الحروب التي خاضها المسلمون في عهود الخلافة الأولى مع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية. فبعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم)، عندما أعلنت شبه الجزيرة العربية العيصان وانخرط أبو بكر الصديق، أول الخلفاء الراشدين، في قمع هذا العيصان، قدمت الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية علناً المساعدة بالرجال والمال للمتطرفين. ورغم أنه من الصعب الخوض في تفاصيل تاريخية في كتاب لا يتناول الجانب التاريخي للموضوع^٢، فإن الاستشهاد برأي كاتب معاصر ليس متعاطفاً بأى شكل من الأشكال للإسلام يعتبر ذا صلة بالموضوع:

"تنتمي بلاد الكلدان ومنطقة جنوب سوريا فعلياً إلى شبه الجزيرة العربية. وقد كانت القبائل التي تعيش في هذه

^٢ تناولت هذا الموضوع باستفاضة في كتابي الذي يحمل عنوان فجر الخلافة الإسلامية.

المنطقة - والتي كان بعضها وثنياً ولكن أغلبيتها كانت (على الأقل اسماً وليس في الحقيقة) نصارى - تشكل جزءاً لا يتجزأ من الجنس العربي وبذلك كانت تقع مباشرة في نطاق الشريعة الجديدة. ورغم ذلك، عندما اصطدمت هذه القبائل بصفوف المسلمين على الحدود، كان يدعمها حكام كل منها^٤ - المنطقة الغربية كان يدعمها قيصر الروم والمنطقة الشرقية كان يدعمها كسرى. وهكذا اتسع نطاق الصراع.^٥

وقد وردت في التاريخ أدلة فعلية تثبت أن إمبراطورية فارس أنزلت قواتها في البحرين لمساعدة متمردي هذا الإقليم الواقع في شبه الجزيرة العربية وأن امرأة نصرانية، تدعى سجاح، سارت في مقدمة القبائل النصرانية متجهة من دارها على حدود بلاد فارس نحو المدينة المنورة، عاصمة الإسلام، واجتازت البلاد حتى وصلت إلى وسطها. وهكذا كانت الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية هما المعتديتان ولم يدخل المسلمون في قتال مع هاتين الإمبراطوريتين العظيمين إلا دفاعاً عن النفس. وقد كانت فكرة نشر الإسلام بالسيف بعيدة عن أذهانهم بنفس قدر بعدها عن ذهن سيدهم العظيم الذي اتبعوه. وهكذا فحتى موير أقر بأنه، في أواخر فتح بلاد ما بين النهرين على يد عمر بن الخطاب، كانت فكرة إدخال الناس في الإسلام بالسيف غريبة على المسلمين: "كانت فكرة إرسال حملة لنشر الإسلام في شتى أنحاء البلاد مازالت في طور التكوين؛ ولم يكن واجب فرض الإسلام بإرسال حملة إلى عموم البلاد قد تبدى بعد لأذهان المسلمين."^٦ ويخص هذا التعليق العام السادس عشر الهجري عندما كان المسلمون قد خاضوا بالفعل أكثر من نصف المعارك التي وقعت في عهود الخلافة الأولى. وكما ورد على لسان موير، فحتى فتح بلاد فارس بأكملها كان إجراء دفاع عن النفس وليس عدواناً من جانب المسلمين: "لقد بدأت الحقيقة تظهر لعمر أنه قد فرضت عليه ضرورة رفع حظر تقدم قوات المسلمين نحو بلاد فارس. ففي الدفاع عن النفس، لم يتبق شيء سوى سحق كسرى والاستيلاء على إمبراطوريته بالكامل."^٧ وإذا كانت الحروب التي خاضها المسلمون مع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية قد بدأت واستمرت طيلة خمس سنوات من الزمان دون أي فكرة لنشر الإسلام بالسيف، فمن المؤكد أنه لم تكن هناك فرصة لتسلل الفكرة إلى أذهان المسلمين في مرحلة لاحقة.

^٤ الحروف المائلة من استخدامي.

^٥ سير دبلو موير، كتاب الخلافة، ص. ٤٦.

^٦ نفس المرجع السابق، ص. ١٢٠.

^٧ المرجع سالف الذكر، ص. ١٧٢.

الأحاديث الواردة بشأن القتال

كما سبق أن ذكرنا، لا يمكن أن يتعارض الحديث مع القرآن. ولما كان الحديث مجرد تفسير للكتاب الكريم، فإنه يجب أن يُرفض أي حديث إذا كان يحتوي على أي شيء يتعارض مع تعاليم القرآن الواضحة. ومع ذلك، يطرح الكاتب/ ماكدونالد، في مقاله الذي يحمل عنوان "الجهاد" والذي نشر في دائرة المعارف الإسلامية^٨، وجهة نظر في غاية الغرابة. فهو يسلم بأن القرآن لم يأذن للمسلمين بشن حرب غير قائمة على رد العدوان ضد غير المسلمين. وهو يرى أنه حتى النبي لم تكن لديه فكرة عن أن تعاليمه سوف تتطور لتصل إلى هذا الوضع. ومع ذلك، فإن الكاتب يقول إن الحديث كان صريحاً في هذه النقطة: "قد يرد الشك فيما إذا كان محمد نفسه أدرك أن موقفه كان يدل ضمناً على شن حرب مستمرة غير قائمة على رد العدوان على مجتمع الكفار حتى يتم إخضاعه للإسلام. والأحاديث النبوية صريحة في هذه النقطة... ومع ذلك، تدل قصة كتابة النبي للقوى المحيطة به على أن موقف نشر الإسلام بالقوة في عموم البلاد كان كامناً في ذهنه." وبما أن الحديث ليس سوى جمع لأقوال النبي أو أفعاله، فكيف يمكن إذن أن نجد في الحديث شيئاً لم تكن لدى النبي فكرة عنه كما أقر الكاتب في الاستشهاد سالف الذكر؟ فالنبي (صلى الله عليه وسلم) لا يمكن أن يقول أو يفعل ما ليس لديه فكرة عنه. وكيف يمكن أن ينكر الحديث الشريف، الذي هو تفسير للقرآن وسجل لأقوال النبي (عليه الصلاة والسلام) وأفعاله، صراحةً أنه يجب فرض الإسلام بحد السيف حتى يدخل العالم كله في الإسلام، رغم أن فكرة نشر الإسلام بالقوة لم ترد في القرآن ولم يفكر النبي فيها؟! إن من الواضح أن هذا التعليق يرجع إلى عدم بذل الكاتب العناية اللازمة في دراسة الأحاديث.

والحديث الوحيد المشار إليه في المقال هو "قصة كتابة النبي (صلى الله عليه وسلم) للقوى المحيطة به". ولكن هذه الرسالة لم ترد فيها كلمة واحدة عن فرض الإسلام بحد السيف. وفيما يلي نص إحدى الرسائل الموجهة إلى ملك الأقباط - وقد كان نص جميع الرسائل التي وجهت إلى تلك القوى متشابهاً -: "إني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم الأريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون". وعلى الرغم من أن مجرد كتابة هذه الرسائل إلى جميع الملوك تعتبر دليلاً قاطعاً على عالمية رسالة الإسلام، فإننا مهما أطلقنا العنان للخيال فلا يمكن أن يقودنا للاستنتاج القائل بأنه يجب على المسلمين

^٨ مقال حول موضوع الجهاد.

نشر الإسلام بحد السيف. إن الرسالة ليست سوى دعوة مصحوبة بمناشدة من اتبعوا جميع الأديان السماوية التي نزلت لقبول المبدأ المشترك بين الأديان المتمثل في عبادة إله واحد.

ومع ذلك، هناك حديث يخطئ البعض أحياناً في تفسيره على أنه يقصد به أن النبي كان يقاتل الناس حتى يؤمنوا بوحداية الله. وفيما يلي نص الحديث: "عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ" (البخاري ٢: ١٧). وقد سبق أن ذكرنا أن مبادئ الإسلام مستمدة بالكامل من القرآن وليس من الحديث وأن القرآن ذكر في كلمات صريحة أنه لا إكراه في الدين. وقد بدأ الحديث بعبارة "أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ" وبالتأكيد كل الأوامر التي نزلت على النبي كانت تنزل عليه من خلال الوحي الإلهي، وبالتالي جميعها واردة في القرآن. ومن ثم، فما لا شك فيه أن الحديث يشير إلى آية قرآنية معينة نزلت في هذا الموضوع. وفي الواقع، نجد هذه الآية في القسم الثاني من السورة التي تحمل اسم "براءة": "فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (١١)). وموضوع الحديث هو بالضبط نفس موضوع الآية، ومن الواضح أن الأمر المشار إليه في الحديث هو نفس الأمر الذي ورد في هذه الآية. ولن يحتاج المرء سوى قراءة السياق حتى يعرف فحوى هذه العبارة. وقد سبق الاستشهاد ببعض الآيات التي نزلت في هذا الموضوع، إلا أنه نظراً لأهمية الموضوع، نستشهد مرة أخرى بأربع من هذه الآيات:

الآية رقم (١٠): "لَا يَرْفُقُونَ فِي مَوْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ".

الآية رقم (١١): "فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ".

الآية رقم (١٢): "وَإِنْ نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ".

الآية رقم (١٣): "أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَتُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ".

ولا تحتاج هذه الآيات لتعليق. فالسياق يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أنه كانت هناك قبائلاً معينة لا تقيم وزناً لروابط القرابة أو للعهود التي تدخل فيها وكانت تبدأ بالهجوم على المسلمين وتخطط لإخراج النبي (صلى الله عليه وسلم). هؤلاء هم القوم الذين كان يجب أن يقاتلوا. وقد

نزلت سورة التوبة (٩) في العام التاسع الهجري وهذا هو الوقت الذي كانت فيه قبيلة وراء الأخرى تدخل في الإسلام، ولذلك ورد في القرآن شرط أنه إذا دخلت في الإسلام أي من القبائل، التي كانت معادية للإسلام وكانت تنقض عهودها وتقاتل المسلمين، عندئذ يجب أن يوقف العدوان عليها فوراً لأن هؤلاء القوم أصبحوا إخواناً في الدين للمسلمين. ويجب التغاضي عن جميع أعمال الأذى والظلم التي ارتكبتها هؤلاء القوم في الماضي ولا يتعرض المسلمون بالأذى لأي من أفرادهم مهما كان الذنب الذي ارتكبه، إلا إذا كان حق الإسلام يستوجب عقابه كما ورد في كلمات الحديث. ولا يعني هذا أن النبي أمر بأن يقاتل الناس حتى يدخلوا في الإسلام؛ وإنما يعني ببساطة، كما يتضح لنا بالرجوع إلى القرآن، أن النبي أمر بوقف القتال مع المشركين إذا اعتنقوا الإسلام من تلقاء أنفسهم. وحتى الناس الذين كانوا مذنبين بقتل مسلم لا يقتلون إذا دخلوا في الإسلام بعد ذلك، وقد وردت أمثلة على ذلك في الحديث الشريف (البخاري ٥٦: ٢٨).

وفي هذا الصدد، يمكن الاستشهاد بأحد هذه الأمثلة. "قَالَ الْمُدَدَاةُ بْنُ عَمْرٍو الْكِنْدِيُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَقَيْتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ فَأَقْتَتَلْنَا فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا ثُمَّ لَأَذَ مِنِّي بِشَجْرَةٍ فَقَالَ أَسَلَّمْتُ لِلَّهِ أَفْتَلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقْتُلُهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ قَطَعَ إِحْدَى يَدَيَّ ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقْتُلُهُ فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ" (البخاري ٦٤: ١٢). إن هذا يوضح أن النبي أعطى أوامر محددة كانت معروفة للصحابة بوجود وقف القتال على الفور عندما يعلن الشخص أو القبيلة التي تقاومهم إسلامها. وفي هذا الضوء ينبغي تفسير الحديث موضوع المناقشة، أي أن النبي أمر بوقف القتال عندما يعلن العدو الذي يقاومه إسلامه. وتوجد أمثلة عديدة على هذا في تاريخ غزوات النبي، ولكن لا توجد حالة واحدة أعلن فيها النبي الحرب على أي من جيرانه المسلمين لأنه لم يكن يؤمن بالإسلام.

ويدل دخول النبي في موثيق وعهود مع المشركين واليهود والنصارى على أن كلمة الناس المستخدمة في الحديث تشير إلى قبائل معينة كانت، كما يوضح القرآن، تنقض موثيقها كل مرة. ولو كان هناك أي أمر مثل الأمر الذي يسعى بعض نقاد الإسلام لاستنباطه من الحديث لكان النبي (صلى الله عليه وسلم) أول من يعمل به. ولكنه كان دائماً يدخل في سلام وعهود مع أعدائه؛ ولم يطلب ولو مرة طويلة حياته من أي قوم انهزموا في معركة الدخول في الإسلام. والأمر بالدخول في سلم مع القوم الذين يجنحون للسلم (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (١٦))، بالإضافة إلى إبرام النبي موثيق مع الكفار في كل مرة، هذا كله ينفي بما لا يدع مجالاً للشك التفسير المُحال الذي يسعى البعض لفرضه على كلمات الحديث، وهو أن النبي أمر بأن يقاتل الناس حتى يعتنقوا الإسلام.

وهناك أحاديث أخرى ذات طابع مشابه يخطئ البعض أحياناً في تفسيرها. فعلى سبيل المثال، روي في أحد الأحاديث أنه عندما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يخرج لقتال قومٍ كان لا يغير عليهم حتى يصبح فإن سمع الأذان يرفع أمسك عن الهجوم عليهم (البخاري ١٠: ٦). ومن الواضح أن هذا الحديث يشير إلى القوم الذين ورد ذكرهم في سورة التوبة (٩) بأنهم كانوا ينقضون عهودهم كل مرة ويبداون بالاعتداء على المسلمين. وفي ذلك الوقت، أي في العامين التاسع والعاشر من الهجرة، وهو الوقت الذي ترتبط به سورة التوبة (٩)، كانت القبائل تدخل في الإسلام واحدة بعد الأخرى، وكانت الوفود من القبائل المختلفة تأتي إلى المدينة ثم تعود لأقوامها لإدخالهم في الدين الجديد. ولذلك، عندما كانت تدعو الحاجة لإرسال حملة عسكرية لعقاب إحدى القبائل التي ثبتت عدم وفائها بعهودها، كان يجب التأكد من أنها لم تدخل في الإسلام في ذلك الوقت، وبالتالي يكون النبي قد اتخذ الاحتياطات الذي ورد ذكره في الحديث الشريف.

وفي حديث آخر، وردت العبارة التالية: "مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا"، وهي تفسر أحياناً عند نزحها من السياق على أنه يقصد بها القتال لنشر الإسلام، إلا أنه عند قراءتها في السياق الذي وردت فيه يتضح المعنى المقصود منها. وفيما يلي نص الحديث الذي وردت فيه: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَائِهِ فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (البخاري ٥٦: ١٥). فمن الواضح أن هذه العبارة يُقصد بها فقط أن الرجل الذي يقاتل في سبيل الله (ويُقصد به فقط القتال دفاعاً عن الدين كما يتضح لنا من القرآن الكريم) ينبغي أن تكون دوافعه خالية من تحقيق أي مكاسب شخصية أو صيت. إن الكافرين كانوا يسعون للقضاء على الدين الإسلامي، ومن هنا يعتبر الدفاع عن الدين مساوياً لإعلاء كلمة الله. وفي القرآن، استخدمت هذه العبارة بمناسبة رحلة النبي (عليه الصلاة والسلام) إلى المدينة المنورة. وقد ورد ذكر رحلة النبي المأمونة بأنها جعلت كلمة الكافرين هي السفلى وكلمة الله هي العليا: "وَجَعَلَ (اللَّهُ) كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٤٠)).

وهناك أحاديث كثيرة تتحدث عن فضيلة الجهاد أو فضيلة القتال وأحياناً تفسر هذه الأحاديث بالخطأ على أنها تدل على أنه يجب على المسلم دائماً قتال الآخرين. وفي أحد الأحاديث، ورد تعريف المسلم بأنه "مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ - وفي رواية أخرى النَّاسُ - مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ" (البخاري ٢: ٤؛ فتح الباري - الجزء الأول، ص. ٥١)؛ وكلمة المسلم تعني حرفياً "من دخل في سلم". ووفقاً لحديث آخر، المؤمن هو "مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ" (مشكاة المصابيح ١-٢). ولكن الحرب تعتبر بلا شك ضرورة للحفاظ على الحياة وهناك أوقات يصبح فيها القتال أسمى الواجبات. فالقتال في سبيل العدالة، والقتال لنصرة المظلومين، والقتال دفاعاً عن النفس، والقتال للحفاظ على الأمة، كل ذلك يعتبر حقاً أسمى وأنبى الأعمال لأنه في كل هذه الحالات يضحى الإنسان بحياته

في سبيل إعلاء كلمة الحق والعدل وهي بلا شك أسمى تضحية يمكن أن يقدمها الإنسان. والقتال في حد ذاته ليس بالعمل الحسن أو السيئ وإنما المناسبة هي التي تجعله أفضل الأعمال أو أسوأها.

والسؤال ببساطة هو: ما الهدف الذي قاتل من أجله النبي (عليه الصلاة والسلام)؟ ما من أدنى شك في هذا الهدف لأن القرآن الكريم واضح في هذه النقطة: "أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا" (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٣٩))؛ "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا" (سورة الحج (٢٢): الآية رقم (٤٠))؛ "وَمَا لَكُمْ لَأَ تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلَاهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٧٥))؛ "أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (١٣))؛ وغيرها من الآيات. ومن ثم، فإنه إذا كانت هناك أحاديث تتحدث عن فضل احتباس الفرس (البخاري ٥٦: ٤٥)؛ أو رباط الخيل على حدود العدو (البخاري ٥٦: ٧٣)، أو أحاديث تتحدث عن فضل تعلم الرمي (البخاري ٥٦: ٧٨)، أو اللهو بالحرب ونحوها (البخاري ٥٦: ٧٩)، أو أحاديث تتحدث عن السيوف والدروع بجميع أنواعها ونحو ذلك، فإنها لا تدل على أن المسلمين كانوا ينشرون الإسلام بحد السيف أو حتى على أن المسلمين كانوا يشنون حرباً عدائيةً على الجيران المسالمين، وإنما تدل على أنهم كانوا يضطرون للقتال ومن ثم تمتدح جميع الأعمال التي تؤدي للانتصار في الحرب. وبالفعل، ورد في أحد الأحاديث أن "لَجَنَةٌ تَحْتَ بَارِقَةِ السُّيُوفِ" (البخاري ٥٦: ٢٢). وكل هذا صحيح طالما أن السيف يستخدم في الحق.

المفهوم الخاطئ للجهاد عند الفقهاء

يرجع المفهوم الخاطئ الذي طرحه الفقهاء للجهاد، إلى سوء فهم آيات معينة في القرآن، وهو ما يرجع بدوره إلى ما يلي: أولاً، عدم إيلاء اهتمام للسياق الذي وردت فيه هذه الآيات؛ ثانياً، عدم إيلاء اهتمام إلى الظروف التي قاتل في ظلها النبي (صلى الله عليه وسلم). وقد سبق أن ذكرنا أن الآية الخامسة في سورة التوبة (٩) لا تتضمن شيئاً لم يرد في الآيات التي نزلت قبلها وأنها مجرد إعادة تأكيد للأمر الأصلي بقتال القبائل التي كانت تبدأ بالهجوم على المسلمين وتقتض عهودها؛ ولكن عند قراءة الآية بعيداً عن السياق الذي وردت فيه نجد أنه ينسب لها معنى غير المقصود مطلقاً وقد أطلق عليها اسم آية السيف، وهي بالتأكيد تسمية خاطئة. وهناك آية أخرى، يستشهد بها مؤلف كتاب الهداية تعريضاً لهذا المفهوم الخاطئ عن الجهاد، وهي الآية السادسة والثلاثون في سورة التوبة (٩) والتي جاء نصها كما يلي: "وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً" (سورة

التوبة (٩): الآية رقم (٣٦)). وفي الواقع، ليس هذا إلا مجرد أمر للمسلمين بتوحيد صفوفهم أثناء الحرب على المشركين كما كانت صفوف المشركين متحدة أثناء حربهم على المسلمين. ولا يعني هذا أنه لم تكن هناك قبائل مشركة لا تقاتل المسلمين لأن هذا ليس منافياً للحقائق التاريخية فحسب وإنما ينفي القرآن نفسه صحته: "إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٤)). ويتضح لنا بالرجوع إلى التاريخ أنه كانت هناك قبائل مشركة لم تقاتل المسلمين قط وإنما، من ناحية أخرى، كانت متحالفة معهم وكان المسلمون يقاتلون في صفوفها. ولم توجد هذه الأحلاف في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) فحسب وإنما وجدت أيضاً في الحروب التي دارت في عهود الخلافة الأولى.^٩ ولا تعني الآية أنه لا ينبغي لأي مسلم على وجه الأرض ألا يكون منخرطاً في قتال المشركين. وحتى أنصار الحرب غير القائمة على رد العدوان لا يكادون يصلون إلى ذلك الحد. وبعد الاستشهاد بهذه الآية التي تؤيد مبدأ الحرب ضد جميع المشركين، يضيف مؤلف كتاب الهداية أن الجهاد فرض كفاية، أي أنه فرض إذا قام به فريق من المسلمين سقط عن الباقيين. وقد وردت كلمة كفاية (التي تعني جميعاً) في هذه الآية مرتين، إحداهما للإشارة إلى المسلمين والأخرى للإشارة إلى المشركين، بحيث إنه لو كان يجب قتال المشركين كافة بلا استثناء، لوجب عندئذ على المسلمين كافة بلا استثناء قتالهم. وبما أن هذا محال، فإنه يستتبع ذلك بالضرورة أن الآية تأمر فقط بوحدة صفوف المسلمين على نفس نمط الوحدة في صفوف المشركين ولم يرد في الآية شيء بشأن الشروط التي يُؤذَن عند تحققها بالقتال. وقد ذكرت هذه الشروط صراحة في آيات أخرى ولا يمكن التنازل عنها مهما كان السبب: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفَاتِنُوكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٠)).

وقد شكك الفقهاء أنفسهم في صحة المبدأ الذي يستند عليه مفهومهم الخاطيء عن الجهاد. فعلى سبيل المثال، يذكر مؤلف كتاب الهداية السبب التالي لكون الجهاد فرض كفاية: "لأنه ما فُرض لعينه إذ هو إفساد في نفسه، وإنما فرض لإعزاز دين الله ودفع الشر عن عباده" (كتاب الهداية، المجلد الأول، ص. ٥٣٧). ويدل استخدام عبارة دفع الشر في هذا الاستشهاد على أنه، حتى وفقاً للفقهاء، يعتبر الهدف من الجهاد في الأصل هو دفع الشر فقط وبالتالي يعتبر الجهاد إجراءً دفاعياً وليس هجوماً. ومرة أخرى، فعند مناقشة أسباب تحريم قتل المرأة، والصبي، والشيخ الفاني، والمُقعَد، والأعمى، يقول مؤلف الهداية: "لأن المبيح للقتل عندنا هو الحراَب ولا يتحقق منهم، ولهذا لا يُقتل يابِسُ الشقي والمقطوعُ اليمنى والمقطوعُ يده ورجله من خلاف" (كتاب الهداية، المجلد الأول،

^٩ كانت قبيلة خزاعة إحدى القبائل المشركة التي تحالفت مع المسلمين بعد صلح الحديبية وعندما هاجمها حلفاء قريش بمساعدة قريش، شن النبي هجوماً على مكة لعقاب قريش بسبب نقضها للعهد. وقد كانت قبائل أخرى كثيرة متحالفة مع المسلمين. وفي عهود الخلافة الأولى، حارب الجنود النصرانيون جنباً إلى جنب مع المسلمين كما حاربت في صفوفهم أيضاً بعض القبائل المجوسية.

ص. ٥٤٠). وفي هذا الاستشهاد، يقر المؤلف بأن ما يبيح قتل الرجل ليس الكفر وإنما الحراب، لأنه لو كان الناس يقتلون بسبب الكفر لما رحمت حتى المرأة، والصبي، والشيوخ، والمقعدي. وهذا بالفعل أساس سليم. ولكن إذا كان السبب المذكور في هذه الحالة صحيحاً، وإذا كان غير مباح قتل أي شخص بسبب الكفر فقط فإنه غير مباح أيضاً شن حرب على قوم لأنهم كفار أو مشركون لأنه في مثل هذه الحرب سوف يقتل الناس بسبب الكفر فقط.

وفي عبارات أكثر وضوحاً، يقر مؤلف الهداية، في نقاشه لموضوع موادة الكفار، أن الهدف الحقيقي للجهاد هو دفع شر العدو: "وإذا رأى الإمام أن يصلح أهل الحرب أو فريقاً منهم، وكان في ذلك مصلحةً للمسلمين: فلا بأس؛ لقوله تعالى: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" وودع رسول الله (عليه الصلاة والسلام) أهل مكة عام الحديبية، على أن يَصْغ الحرب بينه وبينهم عشر سنين، ولأن الموادة جهادٌ معنيٌ إذا كان خيراً للمسلمين، لأن المقصود - وهو دفع الشر - حاصلٌ به" (كتاب الهداية، المجلد الأول، ص. ٥٤١). وفي هذا الاقتباس، يتم التسليم مرة أخرى بأن الهدف الحقيقي للجهاد هو دفع شر العدو وعلى هذا الأساس فقط يمكن مصالحة الكفار. وقد أوضح من شرح الهداية أن هذا يتعارض تعارضاً صريحاً مع ما ورد في مواضع أخرى^{١٠} بشأن هدف الجهاد. ولكن السؤال الآن هو: كيف يمكن أن يكون للسلم مع الكفار والمشركين ما يبرره؟ فلو كان الهدف من الجهاد هو فرض الإسلام بحد السيف لتعارض السلم مع الكفار تماماً مع هذا الهدف. ولكن السلم مع الكفار ليس مسألة اختيارية فحسب، وإنما هو أمر يجب تنفيذه عندما يجنح العدو للسلم: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا" (سورة الأنفال (٨): الآية رقم (٦١)).

وتوضح الاقتباسات المذكورة أعلاه من كتاب الهداية أنه حتى الفقهاء أدركوا أن عرضهم لموضوع الجهاد يتعارض مع المبادئ الأساسية للجهاد التي تم إرساؤها في القرآن. وربما أخذ المبدأ الجديد يظهر بالتدريج. ومن الواضح أن السلف من الفقهاء لم يذهب إلى ما ذهب إليه الخلف ممن شرحوا كتبهم. ورغم المفهوم الخاطئ الذي أدخل على معنى الجهاد والنتائج عن عدم إيلاء الاهتمام الواجب إلى سياق القرآن والظروف التي قاتل النبي الكفار في ظلها، فإنهم مازالوا يقرون بأن المبدأ الأساسي للجهاد هو دفع شر العدو ومن ثم يعتبر السلم مع الكفار بمثابة جهاد معني. ولكن الخلف لم يجيزوا حتى هذا. فقد ذهب بعضهم إلى حد الاعتقاد بأنه لا يمكن عقد صلح دائم مع الكفار وإنما يعقد صلح لفترة محدودة، وهو رأي يتعارض تماماً مع الأمر القرآني الوارد في الآية رقم (٦١) من سورة الأنفال (٨). ورغم ذلك، ينبغي علينا أن نكرر - ولا حرج في أن نكرر مئات

^{١٠} فيما يلي تعليق من شرح كتاب الهداية على اعتبار دفع الشر هو هدف الجهاد: "في مواضع كثيرة، ذكر أن هدف الجهاد هو إعلاء كلمة الله وهو ما يتعارض مع ما يذكر هنا".

المرات - أن القرآن يعارض إزهاق روح إنسان بسبب الكفر. فالقرآن يعطي حرية المعتقد المطلقة عندما ذكر أنه لا إكراه في الدين (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٥٦))؛ ويرسي مبدأ الحرية الدينية عندما يأمر بوقف القتال عندما لا تكون هناك فتنة في الدين ويصيح الدين أمراً بين العبد وربّه (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٩٣))؛ كما يذكر في كلمات صريحة أنه حرم قتل الإنسان لأي سبب إلا إذا قتل نفساً أو سعى في الأرض فساداً (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٣٢)).

دار الحرب ودار الإسلام

بإدخال المفهوم الجديد إلى كلمة الجهاد، قام الفقهاء بتقسيم العالم أجمع تقسيماً غير صحيح إلى دار الحرب ودار الإسلام. ولم تستخدم الكلمتان في القرآن ولا يمكن العثور عليهما في أي من الأحاديث الشريفة. ورغم أن البخاري يستخدم كلمة دار الحرب في عنوان أحد أبواب صحيح البخاري: "إِذَا أَسْلَمَ قَوْمٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ" (البخاري ٥٦: ١٨٠)، فإنه لم ترد في الحديثين المذكورين تحت هذا العنوان كلمة دار الحرب. ويتحدث الحديث الأول عن مكة وموضوعه هو أنه عندما دخلت قبيلة قريش الكافرة في الإسلام بعد فتح مكة، تم الاعتراف بأفرادها كأصحاب للأراضي التي أصبحوا أسياداً عليها رغم أنها كانت تنتمي في الأصل للمسلمين الذين هاجروا إلى المدينة. أما الحديث الثاني فيتحدث عن الربذة وهي مكان تستغرق الرحلة من المدينة إليه حوالي ثلاثة أيام سفر، وقد قام عمر رضي الله عنه بتحويل الأراضي القريبة منها إلى مرعى ثم عندما اعترض أصحاب الأراضي على ذلك سلمها إليهم. وقد كانت كل من مكة والربذة في وقت ما في حالة حرب مع المسلمين ولهذا السبب يصفهما البخاري بدار الحرب. في حين أنه من الواضح أن دار الإسلام هي مكان تطبق فيه أحكام الشريعة الإسلامية ويحكمه حاكم مسلم. وليس هناك اعتراض على استخدام كلمة دار الحرب بمعنى المكان الذي يكون بالفعل في حالة حرب مع المسلمين. إلا أن الفقهاء أطلقوا الكلمة على جميع الدول والبلدان التي لا تعتبر داراً للإسلام أو لا تخضع للحكم الإسلامي، رغم أنها قد لا تكون في حالة حرب مع المسلمين وبذلك ينظرون إلى الدولة الإسلامية على أنها دائماً في حالة حرب مع العالم غير الإسلامي أجمع. ولا يتعارض هذا الرأي مع المبادئ الأساسية للدين الإسلامي فحسب، وإنما هو رأي مرفوض البتة من جانب أي دولة إسلامية وجدت في أي زمان أياً كان في العالم. وقد واجه بعض الفقهاء هذه المشكلة بإدخال فئة ثالثة أطلق عليها اسم دار الصلح أو دار العهد أو البلد الذي يدخل في عهد مع المسلمين. ولكن حتى هذا التقسيم لا يغطي العالم كله. وقد بنيت العديد من الأحكام الفقهية المتعلقة بالحرب على هذا التقسيم المنافي للحقيقة، الذي لا توجد أدنى حجة تؤيده سواً كان في القرآن أم في الحديث الشريف.

الجزية

تفسر كلمة الجزية على أنها تعني الضريبة التي تؤخذ من الرعايا الأحرار غير المسلمين في الحكومة الإسلامية والتي بموجبها يصدقون على عهد يضمن لهم حماية أرواحهم وأموالهم، أو الضريبة التي يدفعها صاحب الأرض، والكلمة مشتقة من الفعل جزى. وفي القرآن لم يرد ذكر كلمة الجزية إلا في موضع واحد وذلك بشأن قتال أهل الكتاب: "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ." (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٢٩)).

وقد أبرم النبي (صلى الله عليه وسلم) عهداً مشروطاً بدفع الجزية مع مجوس البحرين (البخاري ٥٨: ١)، وأكيدر، حاكم دومة النصراني (سنن أبي داود ١٩: ٢٩؛ سيرة ابن هشام)، وحاكم أيلة النصراني (تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث، ص. ١٤٦)، ويهود جرباء وأذرح^{١١} (نفس المرجع السابق)، ونصارى نجران (كتاب الطبقات الكبرى، ١-٢، ص. ٣٥). إلا أنه في كل هذه الحالات، كانت الجزية عبارة عن ضريبة تدفعها الدولة وليست ضريبة رأس. ويفتح البخاري كتاب الجزية بباب يحمل العنوان التالي: "الْجِزْيَةُ وَالْمُؤَادَعَةُ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ" (البخاري ٥٨: ١). ويواصل حديثه فيكون أكثر وضوحاً عندما يعلق تحت نفس العنوان التعليق التالي: "وَمَا جَاءَ فِي أَخَذِ الْجِزْيَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَالْعَجَمِ." وهكذا، كان شرط أداء الجزية يطبق على جميع الأعداء، ويدل تصرف النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه على أنه كان يتم إبرام عهد مشروط بأداء الجزية ليس مع اليهود والنصارى فحسب وإنما أيضاً مع المجوس. ويتبين من هذا أن عبارة أهل الكتاب المستخدمة في سورة التوبة (٩): الآية (٢٩) التي تم الاستشهاد بها أعلاه يجب أن تؤخذ بمعناها الأوسع، أي من يتبع أي دين آخر غير الإسلام. إلا أن الجزية، التي كانت في الأصل ضريبة تدفعها الدولة الخاضعة لحكم المسلمين، أخذت شكل ضريبة الرأس فيما بعد في عهد عمر بن الخطاب؛ كما أطلقت الكلمة أيضاً على ضريبة الأرض التي كانت تجبى من أصحاب الأراضي الزراعية المسلمين. ومع ذلك، فرق الفقهاء بين ضريبة الرأس وضريبة الأرض بإطلاق لفظ الخراج على ضريبة الأرض. وقد كانت الضريبتان معا تشكلان مصدراً من مصدري الإيراد الأساسيين للدولة الإسلامية في حين كانت الزكاة التي يدفعها المسلمون تشكل المصدر الآخر.

^{١١} دومة، وأيلة، وجرباء، وأذرح هي جميعاً أماكن تقع على الحدود السورية، وقد أبرمت هذه العهود أثناء غزوة تبوك في العام التاسع الهجري.

الجزية ليست ضريبة دينية

وبوجه عام، يعتقد الكتاب الأوروبيون الذي كتبوا عن الإسلام أنه رغم أن القرآن لم يعرض على غير المسلمين إلا أحد خيارين، إما الإسلام أو القتل، فإنه منح لليهود والنصارى مكانة أفضل نوعاً ما لأنه سمح لهم بإنقاذ حياتهم عن طريق دفع الجزية. إن هذا المفهوم عن الجزية - بأنها نوع من الضريبة الدينية التي يُمنح بأدائها غير المسلمين الحق في الأمان على أرواحهم في ظل الحكم الإسلامي - يتعارض تماماً مع التعاليم الأساسية للإسلام، بالضبط كما يتعارض معها الاعتقاد غير الصحيح بأنه وجب على المسلمين خوض حرب عدوانية ضد غير المسلمين كافة حتى يدخلوا في الإسلام. وقد كانت الجزايا والضرائب تجبى قبل ظهور الإسلام ومازالت تحببها حتى وقتنا هذا الدول الإسلامية وغير الإسلامية، إلا أنها ليست لها أي علاقة بالدين الذي يعتنقه من يدفعونها. وقد كانت الدولة الإسلامية في حاجة ماسة للموارد المالية من أجل الإنفاق على شؤونها شأنها في ذلك شأن أي دولة أخرى على وجه الأرض ولجأت بالضبط لنفس الطرق التي استخدمتها الدول الأخرى. وكل ما حدث في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه عندما كان يتم إخضاع بعض الدويلات غير الإسلامية كانت تعطى الحق في إدارة شؤونها الخاصة ولكن فقط بشرط دفع مبلغ صغير من المال على سبيل الجزية من أجل الإنفاق على الحكومة المركزية في المدينة المنورة. وقد كان كرمًا شديدًا من النبي (عليه الصلاة والسلام) أن يمنح الحكم الذاتي التام لقوم بعد هزيمتهم ولم يكن هذا المبلغ الزهيد الذي كان يدفع على سبيل الجزية في هذه الظروف يمثل مشقة عليهم وإنما كان نعمة لهم. ولم يكن هناك احتلال عسكري لأراضي هذه الدويلات ولم يتم التدخل مطلقاً في إدارة شؤونها أو في قوانينها أو عاداتها وأعرافها أو الدين الذي يعتنقه أهلها؛ وفي مقابل الجزية التي كانت تدفعها هذه الدويلات، كانت الدولة الإسلامية تأخذ على عاتقها مسؤولية حماية هذه الدويلات من جميع الأعداء. وفي أواخر الفتوحات الإسلامية، رغم أنه أصبح لزاماً على المسلمين إقامة حكومتهم في أراضي البلاد التي كان يتم فتحها، فإنه كان هناك رغم ذلك أقل تدخل ممكن في الأعراف والدين الذي يعتنقه أهالي هذه البلاد المهزومون، وفي مقابل الحماية الكاملة لأرواحهم وأموالهم والتمتع بمزايا الحكم المستقر كان على هذه البلاد دفع ضريبة زهيدة جداً هي الجزية.

ويمكن رغم ذلك القول بأن الدولة الإسلامية كانت تفرق بين المسلم وغير المسلم وأن هذه السمة التي اتسمت بها الجزية هي التي أضفت عليها طابعاً دينياً. فقد كان هناك بالفعل تمييز، ولكنه لم يكن لصالح المسلم وإنما كان لصالح غير المسلم. وبعبارة أخرى، كان على المسلم أداء الجندية والقتال في المعارك التي تخوضها الدولة ليس داخل البلاد فحسب وإنما أيضاً خارجها، كما كان يجب عليه بالإضافة إلى ذلك دفع ضريبة باهظة أكثر من الضريبة التي طلب من غير المسلم

دفعها كما سنوضح الآن. فقد كان غير المسلم يعفى تماماً من الجندية بسبب الجزية التي كان يدفعها وبالتأكيد كان مبلغ نصف جنيهه أو دينار سنوياً مبلغاً زهيداً في مقابل الإعفاء من الجندية. وهكذا كان على المسلم أن يدفع الزكاة، وهي ضريبة أكبر بكثير من الجزية، كما كان عليه أيضاً أن يؤدي الجندية في حين أنه لم يجب على غير المسلم سوى دفع ضريبة بمبلغ صغير في مقابل امتياز التمتع بجميع مزايا الحكم المستقر.

ويدل الاسم الذي أطلق على الرعايا غير المسلمين في الدولة الإسلامية أو الدولة غير الإسلامية التي كانت تتم حمايتها تحت الحكم الإسلامي، أي أهل النمة (الذي يعني حرفياً الناس الذين تتم حمايتهم)، هذا الاسم يدل على أن الجزية كانت تدفع في مقابل الحماية التي يقدمها لهم المسلمون؛ وبعبارة أخرى، كانت الجزية بمثابة مساهمة يقدمها غير المسلمين من أجل الإنفاق على المؤسسة العسكرية في الدولة الإسلامية. وقد سجل التاريخ حالات أعادت فيها الدولة الإسلامية الجزية عندما عجزت عن حماية الرعايا الذين كانوا تحت رعايتها. وبالتالي، فعندما خاضت قوات المسلمين تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح قتالاً مع الإمبراطورية الرومانية، اضطرت القوات إلى التقهقر إلى مدينة حمص التي سبق لهم فتحها. وعندما اتخذ قرار الجلاء عن مدينة حمص، أرسل أبو عبيدة لحكام المنطقة وأعاد إليهم كل المبلغ الذي حصل عليه على سبيل الجزية قائلاً إنه لم يعد في إمكان المسلمين حمايتهم وبالتالي لا يحق لهم الحصول على الجزية.

علاوة على ذلك، يبدو أن الإعفاء من الجندية لم يكن يمنح إلا لغير المسلمين الذين يرغبون فيه لأنه في البلاد التي كان فيها غير المسلمين يعرضون القتال في معارك الدولة الإسلامية كان يتم إعفاؤهم من الجزية. فقبيلة بني تغلب وأهل نجران، وكلتاهما نصارى، لم تدفعا الجزية (دائرة المعارف الإسلامية). وقد حاربت بنو تغلب بالفعل جنباً إلى جنب مع المسلمين في موقعة بويب عام ١٣ للهجرة. وفيما بعد في عام ١٧ للهجرة، كتبت بنو تغلب إلى الخليفة عمر (رضي الله عنه) تعرض عليه دفع الزكاة، التي كانت عبئاً أثقل، بدلاً من الجزية. وفي هذا الشأن، ذكر الكاتب/ موير في كتابه الخلافة^{١٢} أن "تسامح عمر جعله يمنحهم هذا الامتياز وبذلك تمتعت بنو تغلب بامتياز فريد من نوعه تمثل في فرض ضريبة عليهم كنصارى تعادل "ضعف العُشر"، بدلاً من دفع رمز الخضوع البغيض". كما تم أيضاً قبول تأدية الجندية، بدلاً من دفع الجزية، في عهد عمر بن الخطاب، من أهل جرجان. كما عقد شاه بَرّاز، حاكم أرمينيا، صلحاً مع المسلمين بنفس الشروط.

^{١٢} سير دبلو. موير، كتاب الخلافة، ص. ١٤٢.

على من تجب الجزية؟

كما تدل الطريقة التي كانت تجبى بها الجزية أيضاً على أنها كانت ضريبة تدفع في مقابل الإعفاء من الجندية. وقد كانت الفئات التالية معفاة من الجزية: المرأة، والصبي (من لم يبلغ)، والشيخ الكبير، ومن أقعده المرض عن الحركة (الزمن)، والمفلوج، والأعمى، والفقير غير المعتمل (غير القادر على العمل لكسب رزقه)، والعبد، والعبد المدبر (الذي يعمل للحصول على حريته)، والرهبان الذين لا يخالطون الناس (كتاب الهداية، المجلد الأول، ص. ٥٧١، ٥٧٢). بالإضافة إلى ذلك، "أعفي كثير من الناس تماماً من الضرائب في القرن الأول رغم أننا لا نعلم السبب في ذلك" (دائرة المعارف الإسلامية). وقد سبق أن ذكرنا أنه قد أعفيت من الجزية أيضاً بعض القبائل غير المسلمة التي وافقت على تأدية الجندية، وإذا نظرنا إلى هاتين الحقيقتين معا - إعفاء غير المسلمين الذين لا تؤهلهم حالتهم الصحية لتأدية الجندية وإعفاء أقوياء البنية الذين وافقوا على تأدية الجندية - فسنخلص إلى استنتاج واحد فقط وهو أن الجزية كانت ضريبة يدفعها الذميون القادرون على القتال في مقابل إعفائهم من الجندية.

وتقودنا دراسة أوجه إنفاق الجزية إلى نفس الاستنتاج لأنه كان يتم إنفاق الجزية على تحسين الحدود أو سد الثغور، وبناء الجسور، ودفع رواتب القضاة والحكام، والإنفاق على المقاتلين وأطفالهم (كتاب الهداية، المجلد الأول، ص. ٥٧٦).

ورغم الإعفاءات من الجزية على نطاق واسع جداً، فإن مقدار الجزية كان منخفضاً جداً حيث كانت تقدر في الأساس بدينار^{١٣} لكل فرد سنوياً. وفيما بعد، تم رفع مقدار الجزية في حالة الأغنياء الذين وجب عليهم دفع أربعة دنانير أو ثمانية وأربعين درهماً سنوياً أو أربعة دراهم شهرياً؛ ثم يأتي بعدهم من يدفعون دينارين سنوياً أو درهمن شهرياً؛ ثم يأتي أقل مقدار للجزية وهو دينار سنوياً، وقد كان يفرض في الأساس على الجميع. هذا وفقاً لتقدير الفقه الحنفي لمقدار الجزية في حين أنه الفقه الشافعي أبقى على المقدار الأصلي للجزية وهو دينار لكل فرد في جميع الحالات (كتاب الهداية). ويمكن تحديد الفئات الثلاث التي وجبت عليها الجزية فيما يلي: (١) الظاهر الغني (أو من كان ثراؤه ظاهراً عليه) الذي يمتلك أملاكاً كثيرة بحيث لا يضطر للعمل من أجل كسب رزقه؛ و(٢) متوسط الحال الذي يمتلك أملاكاً ولكنه يضطر بالإضافة إلى ذلك لكسب المال من أجل العيش؛ و(٣) الفقير الذي لا يمتلك أي أملاك ولكنه يكسب أكثر مما هو ضروري لإعالتة. وبذلك يتضح لنا أن المسلم كانت تفرض عليه ضريبة أكبر من ذلك لأنه كان يجب عليه دفع نسبة ٢,٥ في المائة من مدخراته

^{١٣} الدينار هو عملة ذهبية يساوي وزنها الأصلي ٦٥,٤ أوقية بالوزن الترويسي.

بالإضافة إلى تأدية الجندية. وقد كانت الجزية تجبى بروح تتسم بالتعاطف الشديد كما توضح القصة التالية. رأى الخليفة عمر ذمياً أعمى يتسول، وعندما سأله عن السبب عرف أنه كان يجب عليه دفع الجزية، فلم يقتصر ما فعله على إعفائه منها، وإنما أيضاً أمر بدفع راتب له من بيت المال وأصدر أوامر أخرى في نفس الوقت بدفع رواتب إلى كل الذميين الذين يعانون من ظروف مماثلة.

الإسلام أو الجزية أو السيف

يمكن تصحيح اعتقاد آخر خاطئ شائع بشأن الحروب التي خاضها المسلمون في عهود الخلافة الأولى وله صلة بمناقشة موضوع الجزية. فيعتقد بوجه عام أن المسلمين خرجوا لفرض دينهم بحد السيف وأن جيوش المسلمين كانت تغزو جميع الأراضي حاملة رسالة الإسلام أو الجزية أو السيف. إلا أن هذه بالطبع صورة مشوهة تماماً لما حدث في الحقيقة. فلو كان المسلمون قد خرجوا بالفعل حاملين هذه الرسالة وبهذه النية فكيف كان من الممكن أن يقاتل غير المسلمين في صفوفهم؟ إن حقيقة أنه كان هناك أفراد لم يدخلوا في الإسلام مطلقاً ولم يدفعوا الجزية قط ومع ذلك كانوا يعيشون وسط المسلمين بل كانوا يحاربون في معاركهم، هذه الحقيقة تتحضر النظرية القائلة بأن المسلمين كانوا يعرضون على البلاد التي يفتحنها إما الإسلام أو الجزية أو السيف. وحقيقة الأمر هي أنه عندما وجد المسلمون الإمبراطورية الرومانية وبلاد فارس عاقدتين العزم على إخضاع شبه الجزيرة العربية والقضاء على الإسلام، رفضوا قبول شروط الصلح دون ما يضمن لهم عدم معاودة الاعتداء عليهم؛ وقد طلب المسلمون هذا الضمان في صورة جزية أو ضريبة تعتبر اعترافاً من جانبهم بالهزيمة. ولم يبدأ المسلمون قط أي حرب بإرسال هذه الرسالة إلى أي من جيرانهم المسالمين؛ فقد أثبت التاريخ خطأ هذا الزعم. ولكن عندما كان المسلمون يخوضون أي حرب بسبب اعتداء العدو عليهم - زحفه على أراضي المسلمين أو تقديم المساعدة لأعداء الدولة الإسلامية - كان من الطبيعي تماماً ألا ينهي المسلمون الحرب قبل الانتصار فيها. وقد كان المسلمون على استعداد لحقن الدماء بعد إلحاق الهزيمة بالعدو بمجرد اعتراف العدو بالهزيمة وموافقه على دفع الجزية التي كانت مجرد مبلغ رمزي بالمقارنة بتعويضات الحرب الهائلة التي نجدها في يومنا هذا. وهكذا كان عرض إنهاء الحرب بشرط دفع الجزية عملاً ينم عن الرحمة بالعدو المهزوم. ولكن إذا رفضت القوى المنهزمة دفع الجزية الرمزية، عندئذ لن يكون أمام المسلمين خيار سوى اللجوء إلى السيف حتى يخضع العدو تماماً.

والسؤال الوحيد الذي لم نتطرق له بالمناقشة بعد هو ما إذا كان الجنود المسلمون دعوا أعداءهم للدخول في الإسلام؛ وعماً إذا كان في ذلك إساءة لهم؟ ورداً على هذا السؤال، نقول إن الإسلام

منذ بدايته دين يدعو من يتبعونه للدعوة إليه وأن كل مسلم يرى أن من حقه الطبيعي دعوة الآخرين للإسلام. فقد كان المبعوثون لنشر رسالة الإسلام، أينما ذهبوا، يرون أن واجبهم الأول هو نقل رسالة الإسلام لأنهم كانوا يرون أن الإسلام قد بعث في البشرية حياة وروحاً جديدة وقدم حلاً حقيقياً للمشكلات التي تواجه كل أمة. وقد كان العدو الذي يقاتل المسلمين يدعى بلا شك للإسلام، ولكن من المنافي للحقيقة أن نقول إنه كان يُعرض عليه بحد السيف في الوقت الذي لم يسجل فيه التاريخ حالة واحدة فرض فيها الإسلام على أي من أسرى الحرب؛ أو أرسل فيها المسلمون رسالة إلى أي من البلدان المسالمة المجاورة لهم تفيد بأن جيوشهم سوف تغزو هذا البلد إذا لم يعتنق الإسلام. وإنما كل ما سجله التاريخ هو أنه، أثناء الحرب وبعد إلحاق الهزيمة بالعدو في معارك عديدة، كان المسلمون - عندما تجرى مفاوضات السلام - من منطلق تمسحهم للدين يروون تجربتهم أمام قادة العدو. وكانوا يذكرون كيف أنهم هم أنفسهم كانوا أعداءً لدودين للإسلام وكيف أنهم رأوا في النهاية الحق ووجدوا أن الإسلام نعمة وقوة رفعت البشرية من الانحطاط الأخلاقي إلى آفاق السمو الأخلاقي والروحاني ولمت شمل الأطراف المتحاربة في أمة واحدة مترابطة. وبهذه العبارات كان المبعوثون المسلمون يدعون أهل فارس والروم للإسلام وذلك ليس قبل إعلان الحرب وإنما أثناء إجراء مفاوضات السلام. فإذا دخل العدو في الإسلام، لن تكون هناك شروط للسلام وسوف يعيش الشعبان أنداداً وإخوة في الدين. ولم تكن هذه دعوة للإسلام بحد السيف وإنما دعوة للإسلام كدين يبشر بالسلام، والمساواة، والأخوة. ولم يحدث قط في الحروب التي خاضها المسلمون في عهد الخلافة الأولى أن أرسلوا رسالة إلى أي دولة مسالمة مجاورة لهم بأنها إذا لم تدخل في الإسلام فسوف تغزو قواتهم أراضيها. لقد اضطر المسلمون لخوض الحروب ولكن هذه الحروب كانت ترجع لأسباب غير التمسح لنشر الإسلام. ولم يقدم المسلمون على عمل أي شيء لم يفعله سيدهم، ولم يعلمهم لهم مرشدهم الوحيد في طريقهم في الحياة، أي القرآن الكريم.

الوصايا الخاصة بالقتال

تدل أيضاً الوصايا التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يعطيها لجنوده على أن الحروب التي خاضها لم تكن ترجع لأي رغبة في فرض الدين. "عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ وَجِدْتِ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَعَازِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ (في الحروب)" (البخاري ٥٦: ١٤٧، ١٤٨). وقد تكررت الأحاديث النبوية التي وردت بشأن النهي عن قتل النساء والصبيان كثيراً في جميع كتب الحديث (سنن أبي داود ١٥: ١١٢؛ الترمذي ٢٠: ١٨؛ أحمد ١؛ ص. ٢٥٦؛ ٢، ص. ٢٤٧، ٢٣؛ ٣، ص. ٤٨٨؛ مسلم ٣٢: ٧). ولو كان النبي (عليه الصلاة والسلام) خاض حروب الإسلام بهدف فرض الإسلام على الناس فلماذا

إذن استثنى النساء والصبيان من القتل؟ ولو كان هذا هو الهدف، لكان من الأسهل عليه إدخالهم في الإسلام بتهديدهم بالقتل لأنه ليست لدى النساء والصبيان بحكم طبيعتهم نفس قدرة المقاتلين على المقاومة. ويوضح وجود أمر صريح بعدم قتل ثلاثة أرباع السكان، وهي النسبة التي تشكلها النساء والصبيان في كل أمة، أن نشر الإسلام لم يكن مطلقاً هو هدف هذه الحروب. وفي بعض الأحاديث، أضيفت كلمة "عسيف" إلى النساء والصبيان مما يدل على أنه كان هناك نهي عن قتل من يؤخذون مع الجيش "كأجزاء" (أحمد ٣، ص. ٤٨٨؛ ٤، ص. ١٧٨؛ سنن أبي داود ١٥: ١١٢). وهناك حديث آخر ينهى عن قتل الشيخ الفاني غير القادر على القتال (صحيح مسلم ١٨: ٢-٥). كما نهى النبي أيضاً عن التعرض بسوء لأصحاب الصوامع (أحمد ١، ص. ٣٠٠). ولم يجز النبي قتل المرأة أو الصبي عن غير عمد إلا في الليل حيث قال: "هُم مَنُهمُ" (البخاري ٥٦: ١٤٦)؛ وما كان يقصده النبي هو أنه شيء لا يمكن تجنبه لأنه في الليل يصعب تمييز الصبيان والنساء من الجنود.

ويمكن إضافة أمثلة أخرى مأخوذة من كتاب روح الإسلام لسيد عامر علي إلى الأمثلة سالفه الذكر. فقد أعطى النبي (صلى الله عليه وسلم) الوصايا التالية إلى القوات التي أرسلها لقتال البيزنطيين: "عندما تتأرون للأنبي الذي أنزله بكم العدو، دعوا سكان الديار الأبرياء وشأنهم؛ وارجموا ضعف النساء؛ ولا تقتلوا وليداً على صدر أمه أو قعيداً. ولا تهدموا ديار الأبرياء؛ ولا تدمروا سبل عيشتهم ولا تقطعوا أشجاراً مثمرة ولا تعقروا نخلاً" (ص. ٨١). كما أعطى أبو بكر الصديق الوصايا التالية لقائد الجيش في إحدى المعارك التي دارت في سوريا: "إذا لقيتم عدوكم، فلا تخونوا، ولا تغدروا، وإن كان النصر حليفكم فلا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة. ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه. ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيراً، إلا لمأكله. وأوفوا بالعهد. وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له." (ص. ٨١).

أسرى الحرب

تدل أيضاً معاملة أسرى الحرب، حسبما ورد في القرآن والحديث، على أن فكرة فرض الإسلام بالسيف كانت فكرة غريبة تماماً على مفهوم القتال في الإسلام. فلو كان الهدف من الحروب التي خاضها المسلمون، في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) أو في عهود الخلافة الأولى، هو الرغبة في نشر الإسلام بالقوة، لكان من الممكن تحقيق هذا الهدف بسهولة عن طريق فرض الإسلام على أسرى الحرب الذين كانوا يسقطون في أيدي المسلمين. ومع ذلك، لم يبيح القرآن هذا حيث ذكر صراحة أنه يجب إطلاق سراحهم: "فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْنَتُوا عَنْهُمْ فَشَدُّوا الوُتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا" (سورة محمد (٤٧): الآية رقم (٤)).

ويتضح لنا من ذلك أن أخذ الأسرى لم يكن مباحاً إلا إذا توافرت ظروف الحرب؛ وحتى عندما كان أسرى الحرب يؤسرون لم يكن من المباح الإبقاء عليهم للأبد وإنما يجب إطلاق سراحهم إما بالمن عليهم أو بفدائهم على أقصى تقدير. وقد نفذ النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا الأمر طيلة حياته.^{١٤} ففي غزوة حنين، أسر ستة آلاف أسير من قبيلة هوازن وأطلق سراحهم جميعاً فقط بالمن عليهم (البخاري ٤٠: ٧؛ تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث، ص. ١٣٢). وفي غزوة المريسيع، أسر المسلمون مائة عشيرة من بني المصطلق وأطلق أيضاً سراحهم دون فداء (تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث، ص. ٦٦). وفي غزوة بدر، أسر المسلمون سبعين أسيراً فقط في هذه الحالة أخذت الفدية ولكن الأسرى أعطيت لهم حريتهم عندما كانت الحرب مع قريش مازالت دائرة (سنن أبي داود ١٥: ١٢٢؛ أحمد ١، ص. ٣٠). وكان أسلوب الفداء المتبع في حالة بعض هؤلاء الأسرى هو تكليفهم بعمل مرتبط بالتعليم (أحمد ١، ص. ٢٤٧؛ الشرح على المواهب اللدنية، المجلد الأول، ص. ٥٣٤). وعندما كان يتوقف القتال ويحل السلام، كان يجب إطلاق سراح جميع أسرى الحرب وفقاً لما ورد في الآية التي تم الاستشهاد بها أعلاه.

إلغاء الرق

تدعو أيضاً الآية التي تم الاستشهاد بها أعلاه لإلغاء الرق للأبد. وقد كان الرق بوجه عام ينتج عن الغارات التي تشنها القبائل القوية على القبائل الضعيفة. وقد حرم الإسلام الغارات أو أخذ الأسرى عن طريق هذه الغارات. ولم يبح الإسلام أخذ الأسرى إلا بعد أن تدور معركة كاملة بين الطرفين المتحاربين، وحتى في ذلك الوقت لم يكن من المباح الإبقاء عليهم للأبد. وقد أوجب الإسلام إعتاقهم إما بالمن عليهم أو بعد فدائهم. ولم يكن من المباح أن يدوم هذا الوضع إلا إذا كانت ظروف الحرب قائمة. وعندما تنتهي الحرب، لم يكن من المباح أخذ الأسرى.

والاسم الذي أطلق على أسرى الحرب هو ما ملكت أيما نكح. ويقصد بما تملك اليمين ما يحصل عليه المرء بالغلبة وقد أطلق هذا الاسم على أسرى الحرب لأنه كان يتم إخضاعهم بالغلبة في الحرب. كما أطلق علي الواحد منهم أيضاً اسم عبد لأنهم فقدوا حريتهم. والمعاملة التي يعامل بها أسرى الحرب أو العبيد في الإسلام لا نظير لها في أي دين آخر. وما من أمة أو مجتمع يمكنه

^{١٤} رغم الأمر الواضح الوارد في القرآن بإطلاق سراح جميع الأسرى والسنة الفعلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) الذي لم يقتل قط أي أسير حرب وكان بوجه عام يطلق سراحهم بالمن عليهم، فإن القس كلين كتب في كتابه الدين الإسلامي ما يلي: 'بالإضافة إلى المشركين في الجزيرة العربية والمرتبدين الذين وجب قتلهم، فقد كان مباحاً قتل الكفار الذين كانوا يؤسرون في الحرب ولم يعتنقوا الإسلام، أو أسرهم... أو إعطاؤهم حريتهم بشرط أن يصبحوا نسيين' (ص. ١٧٩). وهذا ادعاء لا أساس له من الصحة.

إبداء معاملة مماثلة حتى لأفراده عندما تربطهم علاقة العبد بالسيد. وقد كان يُطلب من العبد أو أسير الحرب، بلا شك، أداء قدر معين من العمل، ولكن الوضع الذي أمر الإسلام بإبقائه عليه قد أزال عن نفسه كل مشاعر الذلة والإهانة. وقد وضع النبي (صلى الله عليه وسلم) القاعدة الذهبية لمعاملة العبد كأخ في كلمات واضحة: "عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُؤَيْدٍ قَالَ لَقِيْتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّيْذَةِ وَعَلَيْهِ خُلَّةٌ وَعَلَى غَلَامِهِ خُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ إِنِّي سَأَبَيْتُ رَجُلًا (عبدًا له) فَعَيَّرْتُهُ بِأَمِّهِ (ناداه بابن السوداء) فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأَمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ إِخْوَانُكُمْ حَوْلَكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيَطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تَكْلِفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ" (البخاري ٢: ٢٢). وقد كان يتم توزيع الأسرى بين العشائر المسلمة المختلفة لأنه لم يكن هناك آنذاك ترتيبات للإنفاق عليهم من جانب الدولة ولكنهم كانوا يعاملون معاملة كريمة. وقد روى أحد أسرى الحرب أنه أبقى في عشيرة كان أهلها يطعمونه الخبز في حين أنهم كانوا يقتاتون بالبلح (تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثاني، ص. ٢٨٧). ولذلك، لم يكن أسرى الحرب يطلق سراحهم بحسب وإنما كانوا يعاملون معاملة كريمة طوال فترة بقائهم كأسرى.

النهى عن الغدر والخيانة في الحرب كقتال

يتبين لنا مما سبق ذكره، فيما يتعلق بالأوامر التي نزلت بشأن الحرب والسلام، أن الإسلام أقر الحرب كقتال بين أمتين - رغم أنه قتال مرير - تقتضيه أحياناً ظروف حياة البشر؛ وعندما يقع القتال، تلتزم الأمة بأداء مسؤوليتها في هذا الأمر بأسلوب كريم وتقاتل قتالاً مريراً حتى النهاية مهما كانت. ولم يبيح الإسلام لمن اتبعوه البدء بالحرب ولم يبيح لهم أيضاً بأن يكونوا معتدين وإنما أمرهم باستفراغ كل قوتهم في القتال عندما تفرض الحرب عليهم. وإذا جنح العدو للسلم بعد بدء القتال، ينبغي على المسلمين ألا يرفضوا ذلك حتى وإن كان هناك شك في صدق نواياه. ولكن كان يجب مواصلة القتال حتى النهاية طالما أنه كان مستمراً. وفي هذا القتال، أمر القرآن بالتعامل دون خيانة حتى مع العدو في مواضع كثيرة: "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٢))؛ "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٨)). وقد ورد هذا الأمر في سورة نزلت قبيل نهاية حياة النبي (صلى الله عليه وسلم). كما يأمر الحديث الشريف أيضاً بالتعامل دون غدر في الحرب: "اغْرُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَعْدُوا وَلَا تَمْتَلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيْدًا" (مسلم ٣٢: ٢). هذه هي بعض الوصايا التي كان يعطيها النبي لقواده والتي نزعَت من الحرب عناصر الهمجية والغدر التي كانت الأمم المتحاربة تتخبط فيها بوجه عام. ولم يبيح الإسلام الممارسات غير الإنسانية أو غير الأخلاقية.

وأحياناً يستشهد بحديث شريف على أنه يبيح الخداع في الحرب. وهذا يرجع إلى خطأ في تفسير نص الحديث. فالإسلام لم يبيح الخداع والكذب في ظل أي ظروف أبداً كانت. وفيما يلي نص الحديث: "عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ هَلَكَ كَيْسَرِي ثُمَّ لَا يَكُونُ كَيْسَرِي بَعْدَهُ وَقَيْصَرٌ لَيْهْلِكُنَّ ثُمَّ لَا يَكُونُ قَيْصَرٌ بَعْدَهُ وَلْتَقَسَمَنَّ كُنُوزُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَسَمَى الْخَرْبَ خُدْعَةً" (البخاري ٥٦: ١٥٧). وقد نطق النبي (صلى الله عليه وسلم) بهذه الكلمات عندما تلقى أنباء بأن كسرى مزق الكتاب الذي أرسله إليه وأمر بأسره؛ ويحتوي نص الحديث على تنبؤ واضح بأن قوة كسرى وقيصر سوف تتلاشى في حربهم مع المسلمين بحيث تهلك إمبراطورية فارس تحت حكم كسرى وإمبراطورية الروم تحت حكم قيصر. ومن الواضح أن العبارة الختامية في الحديث "وَسَمَى الْخَرْبَ خُدْعَةً" توضح كيف سيهلك كسرى وقيصر.

الحرب خدعة بمعنى أنه أحياناً تشن قوى عظمى الحرب على قوى أضعف منها معتقدة أنها سوف تسحقها عن قريب إلا أن الحرب خدعة وتؤدي إلى هلاك القوى العظمى المعتدية نفسها. هذا هو ما حدث في حالة الحروب التي خاضتها الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية ضد المسلمين. فقد دخلت كلتاها في حرب عدوانية على العرب معتقدة أنها سوف تسحق هذه القوة الناشئة في الجزيرة العربية في وقت قصير. وقد بدأت الإمبراطوريتان بمساعدة القبائل المرابطة على حدود الجزيرة العربية للإطاحة بقوة المسلمين ثم استدرجتا بعد ذلك للحرب مع المسلمين التي أدت في نهاية المطاف إلى سحق قوتها. وفيما يلي الشرح الذي ورد في الشرح المعروف لصحيح البخاري حيث قال العيني "وقالوا الخدعة المرة الواحدة من الخداع فمعناه أن من خدع فيها مرة واحدة عطب وهلك ولا عودة له" (عمدة القاري، الجزء السابع، ص. ٦٦). وقد ذكر ابن الأثير ثلاثة شروح حسب قراءة الكلمة خُدْعَة، أو خُدْعَة أو خُدْعَة وفي كل الحالات الثلاث لا يختلف المعنى تقريباً عما ورد في كتاب العيني. وعندما نستعرض القراءة الأولى، التي اعتبرها أصح وأفصح الروايات، يشرح المعنى في العبارة التالية: "فالأول معناه أن الخَرْبَ يُقْضِي أَمْرَهَا بِخُدْعَةٍ وَاحِدَةٍ، من الخداع أي أن الْمُقَاتِلَ إِذَا خُدِعَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَمْ تَكُنْ لَهَا إِقَالَةٌ" (النهاية في غريب الحديث والأثر). وفي حالة القراءة الثالثة "فالمعنى هو أن الحرب تُخَدَعُ الرِّجَالُ وَتُؤْمِنُهُمْ وَلَا تَقِي لَهُمْ" (النهاية في غريب الحديث والأثر). وإنما كان عدم إتقان اللغة العربية هو الذي قاد البعض إلى الاعتقاد بأن هذا الحديث يقصد منه أن الخداع في الحرب مباح. وقد كانت الحروب الإسلامية في الواقع خالية من كل ما هو دنيء عندما أخبر النبي المسلمين صراحة بأن من قاتل من أجل مغنم (بما في ذلك الحصول على ثروة أو أرض) فقتاله ليس في سبيل الله (البخاري ٥٦: ١٥). كما يعبر القرآن عن هذا بمزيد من الوضوح: "فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ" (سورة النساء (٤): (٧٤)).

الردة

تأتي كلمة ارتداد على وزن افتعال وهي مشتقة من الفعل رَدَّ. والارتداد والردة يعينان الرجوع في الطريق الذي جاء منه، لكن الردة تختص بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره (الغريب في مفردات القرآن)، والشخص الذي يرتد للكفر من بعد إسلامه يطلق عليه اسم مرتد. وهناك سوء فهم شائع شديد بشأن موضوع الردة شأنه في ذلك شأن موضوع الجهاد، فالانطباع العام الشائع بين المسلمين وغير المسلمين هو أن الإسلام يعاقب على الردة بالقتل. فإذا كان الإسلام لم يبيح إزهاق روح الإنسان بسبب الدين - وقد سبق أن ذكرنا أن هذا من المبادئ الأساسية للإسلام - فإنه لا يهيم ما إذا كان الكفر قد سبقه الدخول في الإسلام أم لم يسبقه، وعليه فبيما يتعلق بجرمة الحياة، يستوي الكافر والمرتد في ذلك.

الردة في القرآن

القرآن هو المصدر الرئيسي الذي تستمد منه أحكام الشريعة الإسلامية، ولذلك فسوف نبدأ به. وبإحدى ذي بدء، لم يرد ذكر كلمة مرتد ضمناً في أي آية في القرآن. وتحمل كلمة الارتداد معنى إعلان الكفر أو الإنكار الصريح للإسلام، ويجب عدم الحكم على الشخص الذي يعلن إسلامه بالارتداد لأنه أبدى رأياً أو أقدم على عمل، يعتبر في رأي عالم أو فقيه، منافياً لتعاليم الإسلام. وكثيراً ما يتخذ من سب النبي (صلى الله عليه وسلم) أو عدم احترام القرآن مبررات لا أساس لها من الصحة لاعتبار الشخص مرتداً/ رغم أنه قد يقر بأقوى العبارات أنه مؤمن بالقرآن والنبي. ثانياً، ليس للانطباع الشائع بأن الإسلام يحكم على المرتد بالقتل أي سند من القرآن. وقد افتتح الكاتب/ هيفمينج مقاله حول موضوع المرتد، الذي نشر في دائرة المعارف الإسلامية بالعبارة التالية: "ورد في القرآن الوعيد بعقاب المرتد في الآخرة فقط." وقد ورد ذكر كلمة الارتداد في واحدة من أواخر ما نزل من آيات مكة: "مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صُدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (١٠٦)). فمن الواضح أن هذه الآية تتوعد المرتد بالعقاب في الآخرة، ولم يحدث أدنى تغيير في هذا الموقف في الآيات التي نزلت بعد ذلك عندما تأسست الحكومة الإسلامية فور وصول النبي إلى المدينة المنورة. وفي أوائل ما نزل من آيات بالمدينة، ارتبط ذكر الردة بالحرب التي شنها الكفار لإجبار المسلمين على الردة: "وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزِدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"^{١٥} (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢١٧)). وهكذا فإذا ارتد الشخص عن الإسلام فسوف يعاقب - لا في الحياة الدنيا وإنما في الآخرة - بسبب الأعمال السيئة التي رجع إليها وسوف تبطل أعماله الصالحة التي قام بها أثناء إسلامه بسبب الطريق السيئ الذي سلكه في الحياة.

أما السورة الثالثة، التي نزلت في العام الثالث الهجري، فتتحدث مراراً وتكراراً عن ارتدوا للكفر من بعد إسلامهم، ولكنها تتحدث دائماً عن عقابهم في الآخرة: "كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٨٦))؛ "أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٨٧))؛ "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٨٩))؛ "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٩٠)).

إن أقوى الحجج إقناعاً على أن القتل لم يكن هو العقاب على الردة تشهد بها الخطط اليهودية التي كان اليهود يدبرونها أثناء حياتهم في ظل الحكم الإسلامي في المدينة المنورة: "وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٧٢)). فكيف يمكن أن يفكر قوم يعيشون في ظل حكم إسلامي في مثل هذه الخطة التي تشكك في الإسلام إذا كان عقاب الردة هو القتل؟ أما السورة الخامسة، أي سورة المائدة، فهي من السور التي نزلت على النبي (صلى الله عليه وسلم) قبيل نهاية حياته، وحتى في هذه السورة لم يرد ذكر أي عقاب دنيوي للمرتدين: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٥٤)). وهكذا، ففيما يتعلق بالقرآن، فإن الأمر لا يقتصر على عدم وجود أي إشارة فيه إلى عقوبة المرتدين بالقتل، بل إن هذه العقوبة تنفيها

^{١٥} حرصاً منهم على إيجاد إشارة في القرآن إلى الحكم بالموت على المرتدين، لم يتردد بعض الكتاب المسيحيين في ذكر تفسير خاطئ تماماً لمعنى كلمة قيمت على أن المقصود بها يحكم عليه بالموت. وتأتي كلمة قيمت في صيغة المبني للمعلوم وتعني كلمة يموت توافيه المنية. ويوضح استخدام هذه الكلمة في صيغة المبني للمعلوم أن المرتدين لم يقتلوا. وقد خلص بعض المفسرين إلى استنتاج خاطئ من عبارة "فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ". فهذه العبارة لا تعني أن المرتد يجب أن يعامل معاملة مهذّر الدم. وإنما يقصد بكلمة أعمالهم الأعمال الصالحة التي عملها المرتد عندما كان مسلماً، وهذه الأعمال تبطل بالفعل حتى في هذه الحياة الدنيا عندما يسلك المرء بعد إسلامه طريق الكفر والشر. ولا تكون للأعمال الصالحة جدوى إلا إذا كانت تقود المرء إلى أعمال أفضل وتسمى داخله الوعي بوجود حياة أسمى. وفي آية أخرى، ورد ذكر أعمال الناس على أنها تذهب سدى عندما يعملون من أجل حياتهم الدنيا فقط ويهملون الحياة الآخرة: "الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِنُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا" (سورة الكهف (١٨): الآيتان رقم (١٠٤) و(١٠٥)). وفي هذه الحالة، فإن المقصود بحبط أعمال الحياة الدنيا أنها أصبحت لا جدوى لها في الحياة الأسمى.

الآيات التي تتحدث عن الردة وكذلك الآية التي تعدُّ بمثابة الوثيقة العظمى التي تضمن الحرية الدينية أي الآية رقم (٢٥٦) من سورة البقرة (٢): "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ".

الأحاديث الواردة بشأن الردة

فلنتحول الآن إلى الحديث الشريف، ذلك أن كتب الفقه إنما بنت حكمها بالقتل على المرتدين على أساس هذه الحجة. ومما لا شك فيه أن النص الوارد في بعض الأحاديث يعكس عصراً متأخراً، ولكن الدراسة المتأنية له تقودنا إلى استنتاج أنه لم يكن هناك عقاب على الردة إلا إذا اقترنت بظروف أخرى تستوجب عقاب الأثمين. وقد كان البخاري، الذي يعتبر بلا شك أدق المحدثين، واضحاً في هذه النقطة. فيوجد في صحيح البخاري كتابان يتناولان موضوع المرتدين أحدهما عنوانه كتاب المحاريبين من أهل الكفر والردة والآخر عنوانه كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم. وكلا العنوانين غني عن البيان. ويوضح عنوان الكتاب الأول بما لا يدع مجالاً للشك أن الكتاب لا يتناول إلا المرتدين الذين يحاربون المسلمين في حين يقرن الكتاب الثاني المرتدين بأعداء الإسلام. هذا هو بالفعل لب الموضوع كله، ونظراً لسوء فهم هذه النقطة تم تكوين مبدأ يتنافى تماماً مع تعاليم القرآن الواضحة. فكثيراً ما كان يحدث عندما كانت تدور الحرب بين المسلمين والكفار أن ينحاز المرتد إلى العدو وينضم إليه في قتال المسلمين. ويعامل هذا الشخص معاملة العدو لا لأنه بدّل دينه وإنما لأنه انحاز إلى الجانب الآخر. وحتى في ذلك الوقت، كانت هناك قبائل ليست في حالة حرب مع المسلمين وعندما كان المرتد يذهب إليها، لم يمسه المسلمون بالأذى. وقد ورد ذكر هؤلاء الأشخاص صراحة في القرآن: "إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٩٠)).

والحالة الوحيدة التي ورد فيها عقاب المرتدين في الأحاديث الصحيحة، كانت حالة رهط من قبيلة عُكل التي دخلت في الإسلام وقدمت إلى المدينة المنورة. فقد وجد هذا الرهط أن مناخ المدينة لا يلائمه ولذا أرسلهم النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى مكان خارج المدينة حيث ترعى الإبل الحلوب الخاصة بالدولة الإسلامية حتى يعيشوا في الهواء الطلق ويشربوا من أبنائها. فصحوا وسمنوا وقتلوا الراعي وساقوا الإبل. فلما علم النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك أرسل رهطاً في

آثارهم وقتلوا^{١٦} (البخاري ٥٦: ١٥٢). والحديث واضح في نقطة أنهم لم يُقتلوا بسبب ردتهم وإنما لأنهم قتلوا راعي الإبل.

وقد تم التركيز على حديث كان نصه كما يلي: "مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَأَقْتَلُوهُ" (البخاري ٨٩: ٢). ولكن نظراً لما أوضحه البخاري عندما وصف المرتدين بأنهم محاربون أو عندما قرنهم بأعداء الإسلام، يتضح لنا أن الحديث يشير فقط إلى المرتدين الذين انضموا إلى أعداء الإسلام وقاتلوا المسلمين. و فقط بتقييد معنى الحديث يمكن التوفيق بينه وبين الأحاديث الأخرى أو المبادئ التي تم إرساؤها في القرآن. وفي الواقع، تعتبر كلمات الحديث شاملة بحيث تشمل كل تبديل للدين من دين لأي دين آخر أياً كان؛ وهكذا فحتى غير المسلم الذي يسلم أو اليهودي الذي يتنصر وجب قتله. ومن الواضح أن هذا القول لا يمكن أن ينسب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم). وبالتالي، لا يمكن قبول الحديث دون تقييد معناه.

وهناك حديث آخر يدور حول نفس الموضوع يلقي بالمزيد من الضوء على معنى الحديث الذي تم الاستشهاد به أعلاه. وفي هذا الحديث، روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله إنه لا يحل دم المسلم إلا في ثلاث حالات ومن هذه الحالات "الْمَارِقِ مِنَ الدِّينِ التَّارِكِ لِلْجَمَاعَةِ" (البخاري ٨٨: ٦). وفي رواية أخرى، وردت عبارة "المفارق للجماعة". فمن الواضح أنه يقصد بترك الجماعة أو مفارقتها - التي تضاف هنا كشرط ضروري لإهدار دم المسلم - أن يترك الإنسان المسلمين وينضم إلى معسكر العدو. وهكذا توضح كلمات الحديث أنه قد ارتبط ذكره بوقت الحرب؛ وأن المرتد يهدر دمه ليس لتبديل دينه وإنما لترك الجماعة.

كما ورد أيضاً في صحيح البخاري مثال على التبديل الصريح للدين. "جَاءَ أَعْرَابِيٌّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَجَاءَ مِنَ الْغَدِّ مَحْمُومًا، فَقَالَ أَقْلِنِي فَأَبَى ثَلَاثَ مِرَارٍ فَخَرَجَ" (البخاري ٩٤: ٤٧). ويوضح هذا الحديث أن الرجل دخل في الإسلام أولاً وفي اليوم التالي عندما

^{١٦} روي في بعض الأحاديث أنهم قد عذبوا حتى الموت. وإن كان هذا قد حدث فلم يحدث إلا على سبيل القصاص منهم لأنه قبل نزول تشريعات إقامة الحد في الإسلام كان القصاص هو الحكم المعمول به. وفي بعض الروايات، ورد أن هذا الرهط من قبيلة عكل سملوا (أي فأوا) عيني راعي الإبل وألقوه في جمرات ساخنة لي موتاً بطيئاً من شدة العذاب، وأنه حكم عليهم بالموت بنفس الطريقة (عمدة القاري، الجزء السابع، ص. ٥٨). ولكن نفتت روايات أخرى أن حكم القصاص قد طُبِقَ في هذه الحالة. ووفقاً لهذه الروايات، فقد كان النبي ينوي الحكم عليهم بالموت بنفس الطريقة التي قتلوا بها راعي الإبل ولكن قبل قتلهم نزلت عليه السورة التي تتناول أمر عقاب مثل هؤلاء الأثمين: "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُنَضَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَنْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٣٣)) (جامع البيان في تفسير القرآن، المجلد السادس، ص. ١٢١). وهكذا تتحدث الآية عن المرتدين على أنهم يحاربون الله ورسوله. ويختلف عقابهم حسب طبيعة الجريمة: فقد يكون الموت أو حتى الصلب إذا أفسد الأثم في الأرض أو قد يكون مجرد السجن.

أصابته حُمى اعتقد أنها بسبب إسلامه ولذلك أتى إلى النبي ورجع في العهد. وقد كانت هذه حالة ردة واضحة إلا أنه لم يُرو في أي حديث قتل هذا الأعرابي. ومن ناحية أخرى، روي في الحديث أنه ذهب دون أن يتعرض أحد له بسوء.

ومن الأمثلة الأخرى على التبديل الصريح للدين حالة النصراني الذي أسلم ثم ارتد وعاد للنصرانية ومع ذلك لم يحكم عليه بالقتل: "عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَيْرَةَ وَالْأَمْرَانَ (السورتين الثانية والثالثة في القرآن) فَكَانَ يَكْتُبُ (القرآن) لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَادَ نَصْرَانِيًّا فَكَانَ يَقُولُ مَا يَذَرِي مُحَمَّدًا إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ" (البخاري ٦١: ٢٥). ويمضي الحديث قائلاً كيف لفظت الأرض جثمانه عندما دفن. ومن الواضح أن هذا حدث في المدينة المنورة بعد نزول السورتين الثانية والثالثة من القرآن عندما كانت الدولة الإسلامية مستقرة، ومع ذلك لم يتعرض المسلمون بسوء للرجل الذي ارتد رغم أنه كان يتحدث عن النبي بألفاظ سب وأعلن أنه دجال لا يعلم إلا ما كان (المرتد) يكتبه له.

وقد سبق أن ذكرنا أن القرآن تحدث عن انضمام المرتدين إلى قبيلة متحالفة مع المسلمين وكذلك تحدث عن انسحاب مرتدين آخرين من القتال تماماً فلم ينضموا إلى المسلمين ولا إلى أعدائهم، وذكر أنهم تركوا وشأنهم (سورة النساء (٤): الآية رقم (٩٠)). و كل هذه الحالات تدل على أن الحديث الذي ورد بشأن قتل من بدلوا دينهم ينطبق فقط على من قاتلوا المسلمين.

الردة والفقهاء

وعندما نتحول إلى الفقه، نجد أن الفقهاء وضعوا في البداية مبدأ يتنافى تماماً مع ما ورد في القرآن، وهو أنه من المباح إهدار دم الرجل بسبب الردة. وهكذا ذكر في كتاب الهداية النص التالي: "المرتد يعرض عليه الإسلام حرراً كان أو عبداً، فإن أبى قتل" (كتاب الهداية، الجزء الأول، ص. ٥٧٦). ولكن مؤلف الهداية ينفي صحة هذا المبدأ بعد ذلك فوراً عندما يطلق على المرتد أنه "كافر حربي بلغته الدعوة" (كتاب الهداية، الجزء الأول، ص. ٥٧٧)، مما يوضح أنه حتى في الفقه، يباح إهدار دم المرتد لأنه يعتبر عدوًّا في حالة حرب مع المسلمين. وفي حالة المرتدة، كان الحكم بالأبى تقتل وقدم المؤلف الحجة التالية على ذلك: "ولنا: أن النبي (عليه الصلاة والسلام) نهى عن قتل النساء، ولأن الأصل تأخير الأجزية (على الإيمان أو الكفر) إلى دار الآخرة؛ إذ تعجيلها يخل بمعنى الابتلاء، وإنما عدل عنه دفعاً لشر ناجز، وهو الحراب، ولا يتوجه ذلك من النساء، لعدم صلاحية البنية بخلاف الرجال" (الهداية، المجلد الأول، ص. ٥٧٧). ويضيف من شرح كتاب

الهداية قائلاً: "وجب القتل بسبب الردة دفعاً لشر الحراب وليس عقاباً على الكفر" (المرجع السابق). ويوضح السبب في ذلك قائلاً: "لأن مجرد الكفر لا يبيح قتل الرجل" (المرجع السابق). ويتضح لنا من ذلك أنه، كما هو الوضع في الحرب ضد الكفار، يعمل الفقهاء وفقاً لمفهوم خاطئ ونشهد تضارباً بين المبادئ التي تم إرساؤها في القرآن والمفاهيم الخاطئة التي وجدت طريقها بشكل أو بآخر إلى أذهان الفقهاء. فقد ذُكر بوضوح أن المرتد يُقتل لا بسبب كفره وإنما بسبب الحراب أي كونه في حالة حرب مع المسلمين، وقدمت الحجة على ذلك في كلمات واضحة وهي أن القتل بسبب الكفر يتنافى مع المبادئ المستقرة للدين الإسلامي. ولكن المفهوم الخاطئ لدى الفقهاء يكمن في أن مجرد القدرة على القتال تكفي لاعتبار الشخص حربياً، وهو أمر غير منطقي إطلاقاً. فإذا كان المقصود هو أن المرتد يُحتمل أن يقاتل، فعندئذ يمكن أن يطلق لفظ حربي حتى على الطفل لأنه سوف يكبر ويصبح رجلاً وتتوافر لديه القدرة على القتال؛ وحتى المرتدة لا يمكن استثناؤها من ذلك لأنها من المحتمل أن تقاتل أيضاً. ولكن قانون العقوبات لا يبني على الاحتمالات وإنما على الوقائع. وهكذا، يتبين لنا أنه حتى الفقه يقر بمبدأ عدم إباحة إهدار دم الرجل لمجرد تبديل الدين وأنه إذا لم يكن المرتد في حالة حرب فليس من المباح قتله. أما أن الفقهاء قد أخطأوا في تعريف الحراب (حالة الحرب) فذلك أمر مختلف تماماً.

الفصل السادس

الزواج

القسم الأول - مغزى الزواج

العبادات والمعاملات

تناولنا في الفصول الخمسة السابقة الأحكام المتعلقة بتزكية نفوس أفراد الأمة الإسلامية جمعاء، أو كما يطلق عليها لدى العموم، الأحكام التي تنظم علاقة العبد بربه - أو بمعنى أدق الفروض الدينية الواجب على العبد أداؤها. وفي اصطلاح الفقه، يتم تصنيف هذه الأحكام كعبادات¹. وهذه الأحكام ترتبط بالتأكيد ليس فحسب بالرقى الروحي للعبد، وإنما أيضاً برقى الأمة أو بالأحرى الإنسانية جمعاء. ولكن، كما سبق أن ذكرنا، فإن نطاق الدين الإسلامي واسع جداً بحيث يشمل مجال علاقة الإنسان بأخيه الإنسان بالإضافة إلى علاقة العبد بربه. والهدف من الأحكام المتعلقة بهذا الجانب من الحياة الإنسانية هو تعريف الإنسان بواجباته والتزاماته إزاء الآخرين وتوضيح السبيل الذي يسلكه لينعم بحياة هنيئة في علاقاته بالآخرين في الدنيا. واصطلاحاً، فإن هذه الأحكام يطلق عليها اسم المعاملات² وتشمل الأحكام المتعلقة بالحياة الأسرية، والحياة المدنية، والحياة السياسية للإنسان. وفي اصطلاح الفقه، يقصد بالمعاملات إما العقود والاتفاقات التي تتطلب رضا الطرفين المتعاقدين أو الأمور التي تتوقف على إرادة شخص واحد أو الأحكام العامة.

الحدود

وفي كل هذه الأمور، تفرض الشريعة الإسلامية قيوداً معينة، لمصلحة المجتمع، على حرية تصرف الأشخاص بوصفهم أفراداً في ذلك المجتمع. والكلمة التي تستخدم للإشارة إلى هذه القيود

¹ جمع عبادة أي عبادة الله.

² جمع مُعَامَلَةٌ، وهي مشتقة من كلمة عَمِلَ.

هي كلمة حدود^٣. وفي القرآن، تستخدم عبارة حدود الله للإشارة إلى أحكام الله المتعلقة بموضوعات شتى، مثل المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق، وحسن معاشرته المرأة^٤، والصيام^٥، والمواريث^٦، كما تستخدم أيضاً بمعنى عام للإشارة إلى جميع أنواع الأحكام التقييدية^٧، ولكنها لا تستخدم أبداً للإشارة إلى العقوبات التي يتم إزالتها بالشخص بسبب مخالفة أحكام معينة، وذلك هو المعنى الذي استخدمت به هذه الكلمة في الحديث والفقهاء.

لا تحريم إلا بنص

تتمثل القاعدة الأساسية في مسألة أحكام الحدود في تحليل ما لم يحرم، كما تبين القاعدة الفقهية المعروفة: "الإباحة أصل في الأشياء"^٨. وبعبارة أخرى، لا تحريم للأشياء (التي تندرج ضمنها حرية تصرف الفرد) إلا بنص صريح. وفي الواقع، فإن هذه القاعدة الفقهية تستند إلى كلمات صريحة وردت في القرآن: "هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٩)). ومن الفقهاء من يتبنون رأياً مخالفاً لذلك حيث يرون أنه لا تحليل إلا بنص، ولكن هذا الرأي يبدو غير معقول ولا يمكن قبوله؛ أضف إلى ذلك أنه يتعارض مع التعاليم الواضحة التي أرسيت في القرآن بأن كل شيء خلق لمنفعة الإنسان، مما يقود إلى الاستنتاج المعقول الوحيد أنه يمكن للإنسان الانتفاع بكل الأشياء ما لم تقيد الشريعة ذلك الاستخدام.

أهمية مؤسسة الزواج

أهم الأحكام التقييدية في الإسلام تلك الأحكام المتعلقة بالزواج، وهو في الواقع مؤسسة تشكل القاعدة الأساسية التي تركز عليها الحضارة الإنسانية. ومن الكلمات التي تشير إلى الزواج كلمة نِكَاح ومعناها اللغوي عقد^٩. إذ إن الزواج في الإسلام يعتبر عقداً مقدساً يجب على كل مسلم

^٣ جمع حد، وهو المنع أو الحظر أو التحريم وما شابه ذلك ومن ثم فهو حد أو شريعة الله المتعلقة بالحلال والحرام (المعجم العربي - الإنجليزي للدين).

^٤ سورة البقرة (٢): الآيتان رقم (٢٢٩) و(٢٣٠)؛ سورة المجادلة (٥٨): الآية رقم (٤)؛ سورة الطلاق (٦٥): الآية رقم (١).

^٥ سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٧).

^٦ سورة النساء (٤): الآيتان رقم (١٣) و(١٤).

^٧ سورة التوبة (٩): الآيتان رقم (٩٧) و(١١٢).

^٨ نور الأنوار، ص. ١٩٧.

^٩ تستخدم كلمة نكاح بمعنى العقد وكذلك الجماع، كما سيرد فيما بعد في قسم "الأكحة المحرمة في الإسلام" (ملاحظة خاصة من المترجم).

الدخول فيه ما لم تكن هناك أسباب خاصة وراء امتناعه عنه. وبالتالي، جاء في القرآن قوله تعالى: "وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَلَيْسَتَغْفَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ" (سورة النور (٢٤): الآيتان رقما (٣٢) و(٣٣)). وفي آية أخرى، تولى لصلة المصاهرة نفس الأهمية التي تحظى بها صلة النسب: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا" (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (٥٤)). كما تؤكد السنة أيضاً على أهمية الحياة الزوجية. فيروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله لبعض الأشخاص الذين تحدثوا عن صيامهم النهار، وقيامهم الليل، واعتزالهم النساء: "أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" (البخاري ٦٧: ١). وفيما يلي نص حديث آخر يؤكد على أهمية الزواج ويروى فيه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ (أي الزواج) أَغْضُ لِلْبَصْرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ" (البخاري ٦٧: ٢). كما نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) صراحة عن التَّبَتُّلِ (البخاري ٦٧: ٨). ووفقاً لما روي عنه صلى الله عليه وسلم في حديث آخر، فإنه "إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين" (مشكاة المصابيح ١٣: ١-٣). وقد روي في نفس المرجع، أي مشكاة المصابيح، عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "لَمْ نَرِ لِلْمُتَخَابِّينِ مِثْلَ النِّكَاحِ".

الزواج رباط بين نفسين هما في الأصل نفس واحدة

يتحدث القرآن في مواضع كثيرة عن خلق الزوجين، أي الرجل والمرأة، كل منهما من الآخر: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١))؛ "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٨٩)). وتفهم كلتا الآيتين لدى العموم على أنهما تشيران إلى خلق آدم وحواء^{١١}، ولكن يتبين لنا من آيات أخرى أنهما تشيران إلى علاقة الرجل بالمرأة بوجه عام: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (٧٢))؛ "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا" (سورة الروم (٣٠): الآية رقم (٢١)). كما جاء أيضاً في واحدة مما نزل في منتصف الفترة

^{١١} ليس الفقر عنراً كافياً لعدم الزواج لأن الله تعالى يقول للفقراء أنهم إذا تزوجوا فسوف يغنيهم من فضله. فيروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) زوج رجلاً لم يكن يمتلك حتى ما يشتري به خاتماً من حديد (البخاري ٦٧: ١٦).

^{١٢} لم ترد في القرآن أو في أي حديث صحيح أي إشارة إلى خلق المرأة من ضلع الرجل أو إلى خلق حواء من ضلع آدم. وإنما ذكر أن الله خلق الناس جميعاً من نفس واحدة وخلق منها زوجها. وكلمة واحدة بالإضافة إلى ضمير الغائب "ها"، المستخدم مرتين، ورد كلاهما في صيغة المؤنث، وهناك ثلاثة تفسيرات محتملة لها؛ وهي تحديداً: خلق الذكر من الأنثى أو خلق الأنثى من الذكر أو خلقهما معاً من نفس المادة.

المكية قوله تعالى: "فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ" (سورة الشورى ٤٢): الآية رقم (١١)). وعليه، فإن الزواج، وفقاً لما جاء بالقرآن، رباط بين نفسين هما في الأصل نفس واحدة.

الزواج وسيلة لتكاثر الجنس البشري

يُلاحظ أنه في الآيات سالفة الذكر، يشار إلى تكاثر الجنس البشري بوصفه إحدى غايات الزواج. ولكن يمكن القول إن التكاثر يمكن أن يتم بدون رباط الزواج، كما في حالة الحيوانات الدنيا؛ أي دون ارتباط الرجل بالمرأة طوال حياتهم. ولكن هذا كان سيحدث فقط لو عاش الإنسان على الأرض كسائر الحيوانات، ولم يكن يوجد ما يميزه عن عالم الحيوانات، ولم يكن يوجد شيء مثل الحضارة أو المجتمع أو شعور الفرد باحترام التزاماته وحقوق الآخرين، أو الشعور بالملكية. فبدون الحضارة، لم يكن الجنس البشري ليوجد بالمرّة، وإنما كان سيوجد جنس من الحيوانات المتوحشة في شكل بشر. كما أن الأسرة، التي تعتبر الوحدة الحقيقية التي يتكون منها الجنس البشري والقوة المتماسكة الأولى المسؤولة عن بناء الحضارة، إنما تدين بوجودها إلى الزواج. ولو لم يوجد الزواج، لكان من المستحيل أن توجد الأسرة، وروابط النسب، والقوة التي تؤلف بين العناصر المختلفة من البشر مما يترتب عليه انعدام الحضارة. إذن، فالأسرة هي التي تؤلف بين الناس وتبني الحضارة.

الزواج يقوي مشاعر الحب والرغبة في مساعدة الآخرين

يعتبر الزواج أيضاً مسؤولاً، إلى حد كبير، عن تقوية مشاعر الحب والرغبة في مساعدة الآخرين، وهو ما تفخر به الإنسانية في يومنا هذا. فالحب المتبادل بين الزوج والزوجة - وهو حب غير قائم على عاطفة عابرة وإنما على علاقة تدوم مدى الحياة - وما يترتب عليه من حب الوالدين للأبناء يؤدي إلى تنمية شعور الإنسان بحب أخيه الإنسان وبالتالي إلى مساعدة الإنسانية المنزهة عن أي غرض. وفي القرآن، يوصف هذا الحب بأنه من آيات الله تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً" (سورة الروم ٣٠): الآية رقم (٢١)). كما أن الميل الطبيعي للرجل تجاه المرأة وميل المرأة للرجل يزداد من خلال رباط الزواج ويتحول في البداية إلى حب للأبناء ثم إلى حب للأصحاب والأقارب وأخيراً إلى الحب المنزه عن أي غرض للإنسانية جمعاء. وفي الواقع، فإن البيت أو الأسرة هي

الساحة الأولى التي يتعلم فيها الإنسان الحب والمساعدة للغير. فهنا يجد الإنسان متعة حقيقية في مساعدة الناس وبالتالي تنمو وتزداد بالتدرج الرغبة في مساعدة الآخرين. وفي الواقع، فإن البيت ساحة يتعلم فيها الإنسان كل أنواع الأخلاقيات لأنه في البيت يتعلم الشعور بالالتزامات والمسؤوليات الملقاة على عاتقه، واحترام حقوق الآخرين، والأهم من ذلك كله الشعور بمتعة حقيقية في المعاناة من أجل الآخرين. حيث يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ" (ابن ماجه ٩ : ٥٠).

الزواج و"العلاقات غير الشرعية"

من المؤكد أن العالم الغربي يميل بشكل متزايد إلى "العلاقات غير الشرعية" بدلاً من الزواج، ولكن سوف يثبت بالتأكيد أن "العلاقات غير الشرعية" سوف تؤدي إلى انهيار الحضارة الغربية. حيث يرفضون الزواج ليس بسبب عيب متأصل فيه، وإنما لأنه يفرض على طرفي عقد الزواج مسؤوليات معينة، وهذه المسؤوليات بالفعل هي التي يتم التوصل منها عند تجنب الزواج. فمن المؤكد أن الزواج يقوي أوأصر الحب الطبيعي بين الزوجين، ولكنه في الوقت نفسه يتطلب من كل من الزوجين أن يشارك الآخر في همومه وأحزانه؛ لأن الحياة الإنسانية حافلة بالهموم والأحزان من ناحية وبالمتع من الناحية الأخرى. في حين أن "العلاقات غير الشرعية" تجعل كلاً من الرجل والمرأة أنانياً إلى أقصى درجة لأنه رغم أن الرجل والمرأة يصبحان شريكين في السعادة، فإن لكل منهما الحرية في أن يترك الآخر دون الاهتمام به في حزنه. كما أن الزواج أيضاً يحمل الزوجين المسؤولية المشتركة عن رعاية الأبناء، ولكن في "العلاقات غير الشرعية" إما أن يتقادم الرجل والمرأة إنجاب الأولاد كلية وبذلك لا تتحقق غاية الطبيعة من الارتباط بين الرجل والمرأة، أو عندما ينال أي من الوالدين رغبته من الآخر، ربما يترك الأبناء بلا مأوى. أضف إلى ذلك أن مؤسسة الزواج توجد في جميع الدول والأمم، كما تعقد في كل عصر منذ آلاف السنين، وتسهم في تقدم ورفاهية البشرية جمعاء. في حين أن العلاقات غير الشرعية، لو أقيمت على نطاق واسع طويلة نصف قرن من الزمان، لأدت إما إلى القضاء على الجنس البشري كلية أو إحداث فوضى في المجتمع تقوض الأسس التي بني عليها. هذا النوع من العلاقات ربما يناسب بعض الأشخاص الأنايين المستهترين الذين تسيطر عليهم شهواتهم، إلا أنه لا يمكن أن تكون هناك ذرة حب حقيقي في رباط قد يفك فجأة حسب هوى أي من الطرفين بالإضافة إلى أنه لا يخدم أي غرض مفيد للبشرية بوجه عام.

القسم الثاني - الأنكحة المحرمة في الإسلام

تحريم المتعة

كان الزواج المحدد بأجل معين معترفاً به في الجاهلية. وكان يعرف باسم المتعة، أي الانتقال بالشيء أو التمتع به. وبالإضافة إلى زواج المتعة، كانت هناك أربعة أنواع من الأنكحة معترف بها لدى العرب في الجاهلية (البخاري ٦٧: ٣٧). وأول هذه الأنكحة هو النكاح الدائم المعترف به في الإسلام بصورته المعدلة. وثاني الأنكحة كان يعرف باسم نكاح الاستبضاع.^{١٢} وقد ورد الشرح التالي لهذه الكلمة في صحيح البخاري وغيره من المراجع: "كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهَّرَتْ مِنْ طَمَئِثِهَا أُرْسِلِي إِلَيَّ فَلَا تَنْتَبِضِي مِنِّي وَتَعْتَزِلِي رَوْحُهَا وَلَا يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ" (البخاري ٦٧: ٣٧؛ النهاية في غريب الحديث والأثر). هذا بالضبط هو النكاح الذي يعرف باسم نيوجا niyoga لدى الطائفة الهندية المصلحة التي تعرف باسم أريا سماج. وثالث نوع من الأنكحة هو الذي يجتمع فيه الرهط، ما دون العشرة، على المرأة فيدخلون كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت أرسلت إليهم جميعاً وقالت إن الطفل ينتسب إلى أحدهم ويلزم الشخص بكلمتها بقبول المسؤولية المترتبة على ذلك. ورابع نوع من الأنكحة هو الذي يجتمع فيه رجال كثيرون على البغايا فيدخلون عليهن فإذا وضعت إحداهن، دعت رجالاً يسمى القائف (وهو الذي يعرف الآثار والأشباه ويحكم بالنسب) ويكون حكمه، القائم على تشابه الملامح، نهائياً فيما يتعلق بأبي الولد. وبذلك، فإن آخر ثلاثة أنواع من الأنكحة كانت تبيح الزنا بشكل أو بآخر ولم يعترف الإسلام بأي منها ولم يلجأ أي مسلم إلى تلك الممارسة في أي زمان.

أما زواج المتعة فقد كان يقوم على أساس مختلف وقد أدخلت عليه بعض الإصلاحات بشكل تدريجي. وفي الأونة الأخيرة، بدأت الفكرة تروق للعقل الغربي الذي يجد في زواج المتعة، على سبيل التجربة، حلاً لصرامة قوانين الزواج المسيحية. ورغم ذلك، رفض الإسلام فكرة التأقيت في الزواج لأنها تقسح الطريق أمام العلاقات غير المترابطة بين الجنسين ولا تفرض على الأب مسؤولية من أي نوع عن رعاية وتربية الأبناء الذين قد يتركون مع أمهم في حالة من الحرمان الشديد. وقد تنشأ أسباب تدعو لحل عقدة الزواج الدائم وسوف تظل هذه الأسباب تنشأ طالما أن الطبيعة البشرية على ما هي عليه، ولكن الحل هو الطلاق وليس زواج المتعة. وحالما تتسلل فكرة التأقيت إلى الزواج، يفقد هذا الرباط قدسيته ويتم التنصل من جميع المسؤوليات المترتبة عليه. ووفقاً لما جاء في القرآن، فإن الرباط بين الجنسين يصبح شرعياً فقط بسبب قبول المسؤوليات

^{١٢} مشتقة من كلمة بضع وتعني قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة (المفردات في غريب القرآن).

المرتبة عليه وهو ما تتعارض معه فكرة زواج المتعة. والرباط المقترن بقبول المسؤوليات المترتبة عليه يسمى إحصاناً، ودون قبول هذه المسؤوليات يسمى سَفَاحاً^{١٢}، وقد أجاز القرآن النوع الأول في حين نهى عن الثاني (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٤)).

ويوجد في كتب الحديث بعض اللبس بشأن المتعة. فقد بوب الإمام البخاري لباب المتعة في صحيحه فقال: "تَهَيَّ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نِكَاحِ الْمُتَعَةِ آخِرًا". وتحت هذا العنوان، يستشهد البخاري في البداية بحديث يروى فيه عن علي (الراوي) رضي الله عنه قوله لابن عباس أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نهى عن متعة النساء وأكل لحوم الحمر الأهلية يوم (غزوة) خيبر (البخاري ٦٧: ٣٢). ثم يروى أنه عندما سئل ابن عباس (رضي الله عنه) عما إذا كان الإذن بمتعة النساء ارتبط بوقت الشدة وقلة عدد النساء، كان رده بالإيجاب (المرجع السابق). والحديث الثالث يروى فيه عن سلمة بن الأكوع قوله إنهم كانوا في غزوة عندما أتاهم رسول بعثه النبي (صلى الله عليه وسلم) وقال لهم إنه قد أذن لهم بمتعة النساء، وفي نهاية الحديث يضيف الإمام البخاري قائلاً: "وَبَيَّنَهُ عَلِيُّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مُتَسَوِّحٌ" (المرجع السابق). وقد أورد أبو داود في سننه حديثين عن سُبْرَةَ يروى في أولهما أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نهى عن متعة النساء في عام حجة الوداع (أي في العام العاشر الهجري) ولا يرد في ثانيهما سوى أنه صلى الله عليه وسلم حرم متعة النساء (أبي داود ١٢: ١٣). ولكن لم ترد أي إشارة إلى الإذن بمتعة النساء. وفي هذا الشأن، يحتوي صحيح مسلم على العديد من الأحاديث المتضاربة. ولكن حتى هناك، فمن المسلم به أنه رغم أن متعة النساء أُذِنَ بها في أوقات معينة، فإنها حُرِّمَتْ في النهاية (مسلم ١٦: ٣).

ويتبين لنا من دراسة الأحاديث العديدة التي وردت في هذا الشأن أن أوامر النهي عن المتعة نزلت في عدة أوقات: أولاً وقت غزوة خيبر وفقاً لما روي عن علي (رضي الله عنه)؛ ثانياً وقت العمرة التي سميت بعمرة القضاء؛ ثالثاً عند فتح مكة؛ رابعاً في غزوة أوطاس (حنين)؛ خامساً في غزوة تبوك؛ سادساً في حجة الوداع. وعليه، فإن أول مرة نزل فيها الأمر بالنهي عن المتعة كانت في غزوة خيبر التي دارت في بداية العام السابع الهجري. كما ترتبط عمرة القضاء أيضاً بالعام السابع الهجري في حين ترتبط الأحداث الأخرى بالعام الثامن والتاسع والعاشر الهجري. فإذا كانت المتعة حُرِّمَتْ في العام السابع الهجري، كما أورد الإمام البخاري استناداً إلى علي (رضي الله عنه)

^{١٢} كلمة إحصان مشتقة من الفعل حَصَنَ أي تعذر الوصول إليه أو أصبح محصناً أو محمياً من الهجوم وكلمة سفاح مشتقة من سَفَحَ وهو صب الماء أو سفك الدم (المعجم العربي - الإنجليزي للين). والكلمة الأولى تحمل معنى التحصن الدائم عن طريق الزواج في حين أن الكلمة الثانية تحمل معنى إرضاء الشهوة. ومن الواضح أن المتعة تتدرج ضمن هذه الفئة. وفي هذا الشأن، يروى عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أنه وصف المتعة بأنها سفاح (عون المعبود في شرح سنن أبي داود، الجزء الثاني، ص. ١٨٦).

وقد تكرر هذا الحديث أربع مرات^{١٤} وقبله أيضاً الإمام مسلم وغيره من المحدثين، فلا يُتصوّر أن تكون المتعة قد أُذِن بها بعد ذلك العام. ولكن بما أن الأحداث الوحيدة التي يروى أنه أُذِن فيها بالمتعة ترتبط بالعام الثامن الهجري، إذن يبدو أنه يوجد بالتأكيد سوء فهم. كما أن التفسير الذي أورده بعض الثقات من أنه ربما حرمت المتعة في أول مرة فقط كإجراء مؤقت ثم نزل بعد ذلك التحريم النهائي والقطعي هذا التفسير لا يتنافى مع العقل فحسب، وإنما أيضاً يتعارض مع مجرى تاريخ الإصلاح الذي أجراه الدين الإسلامي. فالمعاصي التي كانت سائدة في الجزيرة العربية ظلت كما هي حتى تلقى النبي (صلى الله عليه وسلم) وحيّاً من ربه، ولكن عندما أُجري الإصلاح بعد نزول الوحي الإلهي كان من المستحيل أن يرخص النبي (صلى الله عليه وسلم) بالمعصية مجدداً. ولكن من المرجح أن يكون الرواي الأول أو أحد الرواة التاليين له قد روى الأحاديث وفي ذهنه سوء فهم؛ ولو سلمنا بصحة الأحاديث التي رويت عن المتعة، فإنه يبدو أن التفسير السليم هو أن ممارسة المتعة كانت متصلة مما اضطر النبي (صلى الله عليه وسلم) لإعطاء أوامر متكررة بالنهاي عنها أو أنه لم يُعلم كل الناس في آن واحد بأمر النهي عن المتعة.

وعلى أية حال، فإنه يبدو واضحاً أن الرواية التي جاء فيها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أرسل رسالة يبلغ فيها الناس بإباحة المتعة في غزوة أوطاس ترجع إلى سوء فهم. فربما شخص ما لم يكن يعلم، حتى وقت رواية الحديث، بتحريم المتعة أبلغ أصحابه بأنها مباحة، ولكن لا يُتصوّر أن يكون النبي (صلى الله عليه وسلم) قال ذلك بعد أن أعلن تحريمها في خيبر. ورغم النهي الصريح عن المتعة في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقد ورد أن سوء الفهم ظل يسيطر على بعض الناس حتى عهد عمر (رضي الله عنه) الذي اضطر مجدداً أن يعلن على الناس تحريم المتعة في الإسلام (مسلم ١٦: ٣). وفي هذا الصدد، يمكننا أن نضيف أنه حتى من أباحوا المتعة كان يرون أن إباحتها تتوقف على الاضطرار وينفس قدر إباحة أكل ما حرم عند الاضطرار (البخاري ٦٧: ٣٢؛ مسلم ١٦: ٣).^{١٥} ولكن حتى هذا الرأي غير مقبول لأنه يتعارض تماماً مع تعاليم القرآن والتعاليم الواضحة للنبي (صلى الله عليه وسلم) التي نهى فيها عن المتعة. وقد أجمعت كل الفرق المسلمة على تحريم زواج المتعة، فيما عدا فرقة الشيعة الإبائية، ولكن حتى وفقاً لهذه الفرقة، فإن زواج المتعة ليس معاملة مباركة.^{١٦}

^{١٤} البخاري ٤٦: ٤٠؛ ٦٧: ٣٢؛ ٧٢: ٢٧؛ ٩٠: ٤.

^{١٥} فيما يلي متن الحديث الذي ورد في مسلم: "كَانَتْ رُخْصَةً فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ لِمَنْ اضْطُرَّ إِلَيْهَا كَالْمَيْتَةِ وَالذَّمِّ وَالْحَمِّ الْخَنْزِيرِ" وفي البخاري: "إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الْحَالِ الشَّدِيدِ".

^{١٦} وهكذا، كتب سيد عامر علي في كتابه الشريعة المحمدية يقول إنه أعلن أنه من المكروه، إن لم يكن من المحرم بالفعل، عقد زواج المتعة ل بكر يتيمة... وسبب ذلك يكمن في أنه لأن هذا الزواج ليس في مصلحتها ولأنه ليس لها والد يقدم لها النصح أو التوجيه في هذا الشأن، فإنها ينبغي ألا تتعرض للحظة الناجمة عن زواج المتعة.

المحرمات من النساء

حرم القرآن النكاح داخل هذه الدائرة من الأقارب: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْتَكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ نَسَأْتِكُمُ اللَّاتِي نَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٣)).

ويتبين لنا من آية التحريم أن هناك محرمات بسبب النسب، كما في حالة الأمهات، والبنات، والأخوات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، والعمات، والخالات؛ ومحرمات بسبب الرضاع كما في حالة المرأة المرضعة والأخت من الرضاعة؛ ومحرمات بسبب المصاهرة كما في حالة أم الزوجة، وابنة الزوجة، وزوجة الابن. وقد وسع الفقهاء مفهوم علاقات معينة، ومن ثم فقد وسع مؤلف كتاب الهداية نطاق هذه المحرمات، على النحو التالي:

١- الأم تشمل جميع الجدات من قبل الرجال، أي الأب، والنساء، أي الأم.

٢- الابنة تشمل ابنة الولد أو الابنة، أي الحفيدات، وإن سفلت.

٣- العمات والخالات لا يشملن بنات العمات والخالات، وإنما تشمل أخوات الجد والجدة، ونحو ذلك.

وترتبط الفئة الثانية من المحرمات بالرضاع، ولكن رغم أن القرآن لم يذكر سوى المرأة المرضعة والأخت من الرضاعة، فإن السنة كانت واضحة في هذه النقطة حيث ورد فيها أنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب^{١٧} (البخاري ٦٧: ٢١). وعليه، ذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن عم حفصة من الرضاعة يندرج ضمن المحرمات الواردة في القرآن وأنه تحرم عليه صلى الله عليه وسلم ابنة حمزة الذي رغم أنه عم النبي (صلى الله عليه وسلم) فإنه أيضاً أخوه من الرضاعة (البخاري ٦٧: ٢١). ورغم ذلك، قد تكون بعض المحرمات من الرضاعة غريباً تماماً رغم أنهن لسن كذلك في حالة المحرمات من النسب. فعلى سبيل المثال، أم الأخ قد تكون أم الرجل أو زوجة

^{١٧} ذكر سيد عامر علي الاستثناءات التالية لهذه القاعدة والتي أقرها أهل السنة: (١) زواج أبي الرضيع من أم المرضعة؛ (٢) من ابنتها؛ (٣) زواج المرضعة من أخي الرضيع؛ (٤) الزواج من مرضعة العم أو العمة. ويضيف الكاتب قائلاً إنه وفقاً لما ورد في كتاب الدر المختار، يوجد واحد وعشرون استثناء لهذه القاعدة. على سبيل المثال، لا تحرم مرضعة الطفل وأمها على جد الطفل الرضيع. وبالمثل، يجوز للرجل الزواج من مرضعة أخيه أو أخته؛ وأخت ابنه من الرضاعة؛ ومرضعة عمه أو خاله؛ وعمه ابنه من الرضاعة، وآخرين. كما يجوز لزواج المرضعة أن يتزوج من الأم الطبيعية للطفل الذي أرضعته زوجته أو من أخته. ولكن الشيعة لا يعترفون بهذه الاستثناءات.

أبيه وفي كلتا الحالتين فهي من بين المحرمات، ولكن أم الأخ من الرضاعة قد تكون غريبة تماماً وفي تلك الحالة ليست محرمة.

وبالنسبة للرضاع الذي يثبت به التحريم، فإن هناك اختلافاً طفيفاً في الرأي. وفي هذا الصدد، يقرر القرآن (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣٣)) أن سن الرضاع هي حولان، ولا اختلاف في الرأي حول هذه النقطة. وقد أكدت السنة على أن الرضاع لا يثبت به التحريم إلا إذا رضع الطفل ما يسد به جوعه (البخاري ٦٧: ٢٢). ورغم ذلك، يرى الإمام أبو حنيفة أن التحريم يثبت برضعة واحدة فقط؛ ويرى الإمام الشافعي أن التحريم يثبت بأربع رضعات، في حين يرى الشيعة أن التحريم يثبت بالرضاعة لمدة أربعة وعشرين ساعة على الأقل.

والفئة الثالثة من المحرمات هي المحرمات بسبب المصاهرة، وهنا أيضاً وسع الفقهاء مفهوم المصاهرة، كما في حالة النسب. وبالتالي، فإن أم الزوجة تشمل أم أمها ونحو ذلك؛ وابنة الزوجة تشمل ابنة ابنتها؛^{١٨} وزوجة الابن^{١٩} تشمل زوجة ابن الابن. وقد حرّم القرآن صراحةً نكاح زوجات الأب: "وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٢)). كما أكد الفقهاء أيضاً على أن الزنا بامرأة يدخلها في فئة الزوجة فيما يتعلق بالمحرمات من ناحية الزوجة.

وأخر تحريم يتعلق بالجمع بين الأختين نكاحاً. وقد وسعت السنة هذا المفهوم ليشمل تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها (البخاري ٦٧: ٢٧، ٢٨). وقد وسع الفقهاء هذا المفهوم أيضاً ليشمل ابنة أخي الزوجة وابنة أختها ضمن نفس فئة المحرمات. وفي الواقع، فقد أرسيت في كتاب الهداية قاعدة تحريم الجمع بين امرأتين تربط بينهما قرابة حميمة بحيث إنه لو كانت إحداهما رجلاً لم يجز له أن يتزوج بالأخرى.

زواج المسلمين بغير المسلمات

يعتبر الشرك سبباً آخر من أسباب تحريم الزواج التي وردت في القرآن: "وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَأُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ

^{١٨} تحرم أم الزوجة تحريماً مطلقاً في حين أن ابنة الزوجة لا تحرم إلا إذا دخل الرجل بزوجته، انظر سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٣) المستشهد بها أعلاه.

^{١٩} ورد صراحة في القرآن أن الابن الذي تحرم زوجته هو الابن من الصلب. ويستثنى من ذلك الابن الذي يتم تبنيه ولا يكون ابناً في الحقيقة.

خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٢١)). وجنباً إلى جنب مع هذه الآية، من الضروري أن نقرأ آية أخرى تبيح الزواج بالكتابات: "الْيَوْمَ أُجِّلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٥)). وعليه، يتبين لنا أنه رغم أن هناك تحريماً صريحاً للزواج بالمشركين أو المشركات، فإن هناك تحليلاً صريحاً للزواج بنساء أهل الكتاب. وبما أنه ورد في القرآن أن الوحي نزل على أمم العالم كافة^{٢٠} وأن المشركين العرب فقط هم الذين لم يأتهم نذير^{٢١}، فإنه يستنتج من ذلك بوضوح أنه لم يحرم الزواج إلا بالمشركين العرب وأنه يحل للمسلم أن يتزوج بإحدى النساء في أي أمة أخرى في العالم لها دين سماوي منزل. ويندرج ضمن هذه الفئة النصرانيون، واليهود، والبارسيون^{٢٢}، والبوذيين، والهندوس؛ كما يتبين أيضاً أنه رغم استنكار العقيدة المسيحية القائلة بأن المسيح عيسى ابن مريم إله أو أنه ابن الله على أنها شرك، فإنه رغم ذلك ينظر إلى النصارى على أن لهم ديناً سماوياً منزلاً وليسوا مشركين وبالتالي يجوز نكاح نساءهم. وينظر من نفس المنظور إلى حالة كل أولئك الأشخاص الذين كان لهم في الأصل دين سماوي منزل، رغم إدانتهم حالياً بالشرك، ويجوز نكاح البارسيات والهندوسيات، بالضبط كما يجوز نكاح النساء اللاتي يتبعن الكونفوشيوسية أو البوذية أو الطاوية. ورغم ذلك، لم يقر الفقه إلا بإباحة الزواج باليهوديات والنصرانيات وهذا يرجع إلى المفهوم الضيق الذي تبناه الفقهاء لعبارة "أهل الكتاب". ورغم ذلك، فمن المستغرب أنه رغم عدم الاعتراف بالمجوس أو البارسيين كأهل كتاب، فإنه ورد صراحة في كتاب الهداية أن الصابئين يعتبرون أهل كتاب. "ويجوز تزويج الصابئين إن كانوا يؤمنون بدين نبي ويقرون بكتاب، لأنهم من أهل الكتاب". وإذا كان الصابئون يعتبرون أهل كتاب فقط لأنهم يؤمنون بدين نبي وبكتاب سماوي منزل، فليس هناك مبرر لعدم اعتبار المجوس، والهندوس، وغيرهم ممن يؤمنون بدين نبي وبكتاب سماوي من بين أهل الكتاب.

وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أنه رغم أنه ورد صراحة جواز زواج المسلم بغير المسلمة التي تؤمن بدين نبي، فإنه لم ترد إباحة أو تحريم زواج المسلمة بغير المسلم^{٢٣}. ورغم ذلك، فإن

^{٢٠} سورة فاطر (٣٥): الآية رقم (٢٤)؛ سورة الشورى (٤٢): الآية رقم (٣).

^{٢١} سورة السجدة (٣٢): الآية رقم (٣)؛ سورة ياسين (٣٦): الآية رقم (٦).

^{٢٢} جمع بارسي وهو زرادشتي منحدر من أصل اللاتجيين الفرس المقيمين في بومباي وغيرها (ملاحظة خاصة من المترجم).

^{٢٣} لم تجز الشريعة اليهودية الزواج بغير اليهود في أي حالة أيا كانت: 'ولا تصاهرهم. بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك' (التثنية ٧: ٣). وقد اتبع القديس بولس شريعة اليهود: 'لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين. لانه اية خلطة للبر والائتم. واية شركة للنور مع الظلمة' (الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس ٦: ١٤). وتعتبر الشريعة الهندوسية أكثر صرامة ولا تجيز زواج أحد أفراد طائفة الهندوس إلا من داخل تلك الطائفة.

مجرد حديث القرآن عن حالة دون الأخرى يكفي لتوضيح أن الزواج بين المسلمة وغير المسلم غير جائز.

وجدير بالذكر أن عدم توفر أحد أحكام الشريعة قد يبطل الزواج الذي يكون مباحاً لولا ذلك. فعلى سبيل المثال، يجب على كل من المطلقة والمتوفى عنها زوجها قضاء العدة ولا يحل الزواج أثناء العدة. كما أنه لا يحل للمطلقة ثلاث طلاقات العودة إلى زوجها الأول. وبما أنه يجب على الحامل أن تقضي العدة حتى تضع حملها (سورة الطلاق (٦٥): الآية رقم (٤))، فإنه لا يجوز زواجها أثناء الحمل. ولكن إذا كانت المرأة حاملاً من السفاح، فإن زواجها سواء كان من الزاني أو أي شخص آخر مباح وفقاً لما قال به الإمام أبو حنيفة والإمام محمد، ولكن في حالة زواجها بشخص آخر يحرم الجماع حتى تضع حملها (الهداية، الجزء الأول، ص. ٢٩٢). ووفقاً للأئمة الآخرين، بمن فيهم الإمام أبو يوسف، فإن هذا الزواج باطل. ويتبع الشيعة في مذهبهم الإمام أبا حنيفة.

القسم الثالث - شكل وصحة الزواج

مقدمات الزواج

يدل اعتبار الزواج عقدًا في الإسلام على أنه قبل الزواج، يجب على كلا الطرفين أن يتأكد من أنه سوف يجد في الطرف الآخر شريك الحياة المرغوب فيه. فقد ورد في القرآن بكلمات صريحة قوله تعالى: "فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٣)). ويروي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أمر بذلك في قوله: "إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ" (أبي داود ١٢: ١٨)، وعنوان هذا الباب في سنن أبي داود: "الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى الْمَرْأَةِ وَهُوَ يُرِيدُ تَزْوِجَهَا". كما يوجد أيضاً في صحيح البخاري باب عنوانه: "النَّظَرُ إِلَى الْمَرْأَةِ قَبْلَ التَّزْوِجِ" (البخاري ٦٧: ٣٦). ويحتوي صحيح مسلم على باب مماثل: "تَدْبُّ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الْمَرْأَةِ وَكَيْفِيَّتِهَا لِمَنْ يُرِيدُ تَزْوِجَهَا" (مسلم ١٦: ١٢). وفي هذا الباب، يستشهد الإمام مسلم بحالة رجل أتى إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): "أنظرت إليها؟ فعندما أجابه الرجل بالنفي، أخبره النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يذهب وينظر إليها لأن في أعين (بعض) الأنصار عيباً. وفي حديث آخر، يروي أنه عندما خطب المغيرة بن شعبه امرأة سألته النبي (صلى الله عليه وسلم) عما إذا كان نظر إليها فأجابه المغيرة بالنفي وعندئذ أمره النبي (صلى الله عليه وسلم) أن ينظر إليها "فَإِنَّهُ أُخْرَى أَنْ يُؤَدَّمَ بَيْنَكُمَا" (مشكاة المصابيح ١٣: ٢-٢). وقد أجمع كل

الفقهاء تقريباً على استحباب النظر إلى المرأة التي يريد الرجل أن يتزوجها. وبما أن عقد الزواج يتم برضا الطرفين، أي الرجل والمرأة، وبما أن الرجل أخبر صراحة بأن يتأكد بنفسه من اقتناعه بالمرأة عن طريق النظر إليها، فإنه يتضح أن للمرأة أيضاً نفس الحق في التأكد بنفسها من مدى اقتناعها بالرجل قبل الموافقة. ويعتبر رضا الرجل والمرأة ركناً من أركان الزواج، وقد أكد القرآن صراحة على وجوب التراضي بين الطرفين: "فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣٢)). وفي هذا الصدد، فإن الأمر رغم ذلك يتوقف، إلى حد كبير، على العادات السائدة بين الناس. وقد كتب أحمد شكري، مستشهداً برأي أحد الكتاب السابقين الثقات (عبد القادر في كتابه النهر، ص. ٢١٨) يقول أن النظر إلى المرأة يجب أن يسبق الخطبة. ويستحب أن تنتظر المرأة إلى الرجل إذا كانت ترغب في الزواج منه؛ لأنه سوف يعجبها منه ما يعجبه منها (الشريعة المحمدية في الزواج والطلاق، ص. ٤٣).

الخطبة

كلمة حُطِّبَ التي تعنى وجه (إلى شخص آخر) الكلام تعبر أيضاً عن طلب المرأة للزواج. وصيغة المصدر حُطِّبَ معناها كلمة في حين أن الخطبة هي طلب المرأة للزواج. فعندما يقتنع الرجل، الذي يرغب في الزواج، بامرأة بعينها، يطلب الزواج إما من المرأة المذكورة أو والديها أو أوليائها. وعندما يطلب الرجل المرأة للزواج، يحرم على الآخرين طلب نفس المرأة حتى يصرف الخاطب الأول نظره عن الموضوع أو يرفض (البخاري ٦٧: ٤٦). كما يجوز للمرأة أيضاً أن تعرض نفسها على الرجل (البخاري ٦٧: ٣٣) ويجوز للرجل أن يعرض ابنته أو أخته على رجل (البخاري ٦٧: ٣٤)؛ وبوجه عام، فإن الرجل هو الذي يطلب المرأة للزواج. وعند الموافقة على طلب الزواج، تصبح خطبة وعادة ما يمنح الخطيبان بعض الوقت قبل إتمام النكاح. وهذه الفترة تتيح للطرفين الفرصة لدراسة كل منهما للآخر بحيث إنه إذا كان هناك أي شيء غير مرغوب فيه في النكاح، يجوز لأي من الطرفين فسخ الخطبة؛ و فقط بعد انعقاد النكاح يصبح الطرفان مرتبطين ببعضهما ببعض.

سن الزواج

لم تحدد في الشريعة الإسلامية سن معينة للزواج؛ وفي الواقع، فإنه نتيجة لاختلاف الظروف المناخية، يكون هناك اختلاف في سن الزواج في البلدان المختلفة. ولكن ورد في القرآن أن سن الزواج هي نفس سن البلوغ: "وَإِنْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٦)). وبذلك يتبين

لنا أن سن الزواج وسن الرشد هما نفس سن البلوغ. وبما أن الزواج عقد تتوقف الموافقة عليه على الرغبة الشخصية، كما سبق أن ذكرنا استناداً إلى الكتاب والسنة، وبما أن هذه المهمة لا يمكن أن يؤديها أي شخص سوى الطرف المتعاقد، إذن يصبح واضحاً أن سن الزواج هي سن البلوغ التي يصبح فيها الشخص قادراً على الاختيار في المسائل المتعلقة بالميل أو النفور الجنسي. فالرجل أو المرأة اللذان لم يصلا إلى سن البلوغ يكونان غير قادرين على الاختيار في المسائل الجنسية وبالتالي يكون الرجل غير قادر على تحديد ما إذا كانت امرأة معينة تعجبه كزوجة أم ينفر منها وكذلك المرأة لا تستطيع أن تحدد ما إذا كان رجل معين يعجبها كزوج أم تنفر منه.

ومن الصحيح أنه مراعاةً للأحكام العامة للعقود، فإن الفقه يقر، في حالة عقد الزواج، بصحة موافقة الولي بالنيابة عن له الولاية عليه، ولكن لم ترد في السنة حالة تثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أجاز زواج القاصر من خلال وليه أو وليها بعد نزول تفاصيل أحكام الشريعة عليه في المدينة. وأحياناً ينظر إلى نكاح النبي (صلى الله عليه وسلم) للسيدة عائشة (رضي الله عنها) وهي في التاسعة من عمرها على أن فيه إجازة لتزويج القاصر من خلال وليها، ولكن هناك نقطتين جديرتين بالدراسة في هذا الشأن. أولاً، كان نكاح السيدة عائشة (رضي الله عنها) في سن التاسعة مجرد خطبة لأنه تم تأجيل الدخول بها لمدة خمس سنوات لتبلغ^{٢٤} ثانياً، تم نكاح السيدة عائشة في مكة قبل نزول تفاصيل أحكام الشريعة على النبي (صلى الله عليه وسلم) بفترة طويلة، ومن ثم لا يمكن أن يتخذ من نكاحها في سن التاسعة حجة تعزز نكاح القاصر. ولم يرد أي حديث صحيح يثبت عقد نكاح القصر من خلال أوليائهم في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد نزول سورة النساء (٤) التي ورد فيها أن سن الزواج هو نفس سن البلوغ. وفي الباب الذي يحمل عنوان: "إنكاح الرجل ولده الصغار" (البخاري ٦٧: ٣٩)، يطرح الإمام البخاري حجتين: أولاً، الحديث الذي روي عن نكاح السيدة عائشة (رضي الله عنها) الذي تناولناه للتو؛ ثانياً، آية قرآنية (سورة الطلاق (٦٥): الآية رقم (٤))، سوف نقلى الضوء عليها في الفقرة التالية. ولم تذكر الأبواب المماثلة في الكتب الأخرى^{٢٥} سوى حالة السيدة عائشة (رضي الله عنها).

ويسعى البعض أحياناً ليجد في الآية التي نتحدث عن طلاق النساء اللاتي لم يحضن ما يعزز زواج القصر: "وَاللَّائِي يَيْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ" (سورة الطلاق (٦٥): الآية رقم (٤)). ولكن من الخطأ أن نسوي بين النساء اللاتي لم يحضن والقصر، لأنه ربما تكون هناك حالات تبلغ فيها المرأة رغم أنها لم تحض، وتلك الحالة

^{٢٤} تناولت بالتفصيل في كتابي فجر الخلافة الإسلامية مسألة سن السيدة عائشة (رضي الله عنها).

^{٢٥} مسلم ١٦: ١٠؛ أبي داود ١٢: ٣٣.

الاستثنائية هي التي تتناولها الآية الكريمة. وعلى أية حال، لم يرد زواج القصر أو طلاقهم في الكتاب أو السنة. ورغم ذلك، يعترف في الفقه بصحة تزويج الولي الشرعي للقاصر. وسوف نتناول هذا الموضوع بمزيد من التفصيل تحت عنوان "الولاية في الزواج".

أركان عقد الزواج

يطلق على الزواج في القرآن لفظ "ميثاق"، أي أنه ميثاق بين الزوج والزوجة: "وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ (أي المهر) وَقَدْ أَقْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا" (سورة النساء ٤): الآية رقم (٢١)). وينعقد الزواج برضا الطرفين، أي الزوج والزوجة، في حضور الشهود وذلك هو الركن الوحيد للزواج. ويسمى رضا الطرفين في اصطلاح الفقهاء إيجاباً وقبولاً. وينعقد الزواج برضا الطرفين في حضور الشهود^{٢٦}، ولكن كان من سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يلقي خطبة قبل إعلان الزواج لإكسابه طابع العقد المبارك، ورغم ما جاء في القرآن من اشتراط أداء المهر للمرأة، فإنه يصح الزواج حتى لو لم يسمَّ المهر أو لم يتم الاتفاق على قدره. ووفقاً لما ورد في كتاب الهداية، تستخدم العبارات الدالة على الموافقة في صيغة الماضي؛ مثل أن يقول الطرفان: قَبِلْتُ أو زَوَّجْتُ، ولكن لا يشترط استخدام صيغة أو ألفاظ معينة؛ ويكتفى باستخدام أي تعبير ينقل نية الطرفين في كلمات واضحة. ولا يشترط أن يأتي الإيجاب من جانب والقبول من الجانب الآخر أو أن يسبق أحدهما الآخر. ويجوز للطرفين أن يوجه كل منهما إلى الآخر الألفاظ الدالة على الرضا، ولكن بوجه عام فإن الخاطب هو الذي يعرض الزواج قبل الطرف الثاني والثاني هو الذي يقبل العرض.

المهر

يعتبر المهر ثاني أهم شيء في الزواج. والكلمة المستخدمة بوجه عام في القرآن للإشارة إلى المهر هي كلمة أُجْر (مفرد أُجُور) أي مكافأة وعطية وهبة للعروس (المعجم العربي - الإنجليزي للين).^{٢٧} كما استخدمت أيضاً كلمة صَدَقَات (جمع صَدَقَة)^{٢٨} مرة واحدة في القرآن للإشارة إلى

^{٢٦} كتب سيد عامر علي في كتابه الشريعة المحمدية يقول إن الشيعة قالوا بأن الزواج يكون صحيحاً بدون حضور الشهود، ولكن هذا المذهب لا يمكن قبوله في وجود السنة النبوية. بالإضافة إلى ذلك، فعندما يكون هناك أمر صريح في القرآن بوجوب حضور الشهود عند الطلاق، فمن البديهي أن يشترط حضور الشهود عند الزواج.

^{٢٧} في الواقع، الأجر لا يقال إلا في النفع دون الضر (المفردات في غريب القرآن).

^{٢٨} من الكلمات الأخرى المشتقة من نفس الجذر والتي تستخدم للإشارة إلى المهر كلمتا صَدَاق وصدَاق. والكلمة الجذر صدَّق معناها أنبأ بالصدق وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها الصدق في فعله (المفردات في غريب القرآن).

المهر (سورة النساء (٤): الآية رقم (٤)). ومن الكلمات الأخرى التي تستخدم أحياناً في القرآن للإشارة إلى المهر كلمة فريضة، ومعناها اللغوي ما أوجبه الله على عباده أو الحصة المفروضة بقدر معلوم. وتستخدم كلمة مهر في السنة للإشارة إلى الصداق. ووفقاً لما جاء بالقرآن، فإن المهر يقدم كهبة وعطية عن طيب نفس من الزوج إلى الزوجة وقت انعقاد الزواج: "وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٤)). ويعتبر دفع المهر من قبل الزوج بمثابة اعتراف منه بالاستقلال المالي للزوجة، لأنها تصبح صاحبة مال فور زواجها، رغم أنها قبل الزواج ربما لم تكن تمتلك أي شيء. ويعتبر أداء المهر للمرأة وقت انعقاد الزواج واجباً؛ "وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ (بالنكاح) مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٤)). كما يشترط أيضاً أداء المهر في حالة نكاح الأمة: "فَإِنْ كُفِرْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا وَأَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٥))؛ كما يشترط أيضاً أداءه في حالة نكاح المسلم لغير المسلمة: "وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٥)).

ويتبين لنا من ذلك أن القرآن أوجب أداء المهر وقت انعقاد الزواج. وتقودنا السنة إلى نفس الاستنتاج. فقد ورد في الأحاديث الشريفة أن أداء المهر واجب حتى لو كان مبلغاً زهيداً من المال (البخاري ٦٧: ٥١، ٥٢؛ أبي داود ١٢: ٢٩، ٣٠، ٣١). وفي حالات استثنائية، يصح الزواج حتى لو لم يسمَّ المهر، ولكنه واجب ويجب أدائه آجلاً. وعلى ذلك، قال تعالى في كتابه العزيز عن الطلاق: "لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣٦)). مما يدل على أن الزواج يكون صحيحاً بدون تسمية المهر. كما تحدثت السنة أيضاً عن صحة الزواج حتى لو لم يسمَّ المهر (أبي داود ١٢: ٣١). ولكن المهر يجب أدائه للزوجة إما عند الدخول بها أو آجلاً. وفي هذه الحالة، يتم تحديد قدر المهر حسب ظروف الزوج ومكانة الزوجة. وقد وضع القرآن هذا عند اشتراط أن يتم تحديد نفقة الزوجة حسب الظروف المالية للزوج: "وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسَعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣٦)). وفي أحد الأحاديث يروى أن قضية امرأة مات زوجها قبل تسمية الصداق لها والدخول بها أحييت إلى عبد الله بن مسعود الذي حكم فيها بأن يُدفع للمرأة مهر مثلها من النساء من حيث المكانة، وقد تبين بعد ذلك أن حكمه يتفق مع ما حكم به النبي (صلى الله عليه وسلم) في قضية مشابهة (أبي داود ١٢: ٣١). وفي الفقه، يسمى هذا المهر مهر المثل (أي مهر مثيلاتها). ومهر مثلها يعتبر بأخواتها، وعماتها، وبنات أعمامها (الهداية، الجزء الأول، ص. ٣٠٤)؛ أي بالرجوع إلى المكانة الاجتماعية لأقارب أبيها. ومن ثم، فإنه حتى لو لم يسمَّ المهر عند انعقاد الزواج، يتم تحديده ودفعه آجلاً وإذا لم يؤده الزوج في حياته، يعتبر ديناً على ماله بعد مماته. وتستوجب

الكلمات الواضحة التي وردت في القرآن أداء المهر عند انعقاد الزواج، فيما عدا بعض الحالات الاستثنائية التي يجوز فيها تحديد المهر أو تأجيله. وقد اتبع الإمام مالك هذه القاعدة وأوجب أداء المهر عند انعقاد الزواج في حين أن المذهب الحنفي يعتبره تقريباً بمثابة دين.

ولم يوضع حد لقدر المهر. حيث تبين الكلمات الواردة في القرآن أنه يجوز أداء أي قدر من المهر للزوجة: "وَأَتَيْتُمُ إِخْذَاهُنَّ قِنطَارًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٠)). وعلى ذلك، لم يحدد حد لكثرة المهر أو قلته. فقد أمهر النبي (صلى الله عليه وسلم) زوجاته بمبالغ متفاوتة من المال؛ ففي إحدى الحالات أمهر النجاشي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أم حبيبة (ابنة أبي سفيان)، التي كانت في الحبشة آنذاك، حيث عقد الزواج، بأربعة آلاف درهم في حين أنه في حالة زوجات النبي الأخريات كان مهرهن بوجه عام خمسمائة درهم (أبي داود ١٢: ٢٨). وقد كان مهر فاطمة، ابنة النبي (صلى الله عليه وسلم)، أربعمائة درهم. وأقل مهر ذكر في السنة كان خاتماً من حديد (البخاري ٦٧: ٥٢) والرجل الذي لم يستطع حتى شراء الخاتم أخبره النبي (صلى الله عليه وسلم) بأن يعلم زوجته القرآن (البخاري ٦٧: ٥١). وفي بعض الأحاديث، ورد أيضاً أنه يجوز للرجل أن يعطي في صداق المرأة ملاء كفيه من طعام أو تمر (أبي داود ١٢: ٢٩). ورغم ذلك، يجوز الزيادة في قدر المهر أو إنقاظه بالتراضي بين الزوج والزوجة في أي وقت بعد الزواج؛ وقد ورد هذا صراحة في القرآن: "فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٤)).

ورغم ذلك، فبوجه عام ينظر إلى المهر على أنه بمثابة تقييد لسلطة الرجل في الطلاق وبالتالي يتم أحياناً تحديد مهور مرتفعة ومبالغ فيها. ولكن هذه الممارسة غريبة على روح مؤسسة الزواج التي أرساها الإسلام؛ لأن المهر هو مبلغ من المال ينبغي تسليمه إلى الزوجة عند انعقاد الزواج أو في أقرب وقت ممكن بعد ذلك؛ وإذا وضعت هذه القاعدة نصب الأعين، فستختفي ظاهرة المغالاة في المهوور. وقد قسم فقهاء الخلف المهر إلى شطرين: شطر يسمونه المعجل والآخر يسمونه المؤجل. ويجب أداء الشطر الأول من المهر فور طلب الزوجة في حين يصبح الشطر الآخر مستحق الأداء بموت أي من الطرفين أو عند حل عقدة الزواج.

نكاح الشغار

كان نكاح الشغار إحدى صور الزواج المعترف بها بين العرب في الجاهلية، وهو نكاح بالبدل يُكِّح فيه الرجل ابنته أو أخته أو وليته رجلاً مقابل إنكاحه لابنة الآخر أو أخته أو وليته دون دفع مهر.

وقد نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) صراحة عن هذا النكاح لأنه يحرم المرأة من حقها في الانتفاع بالمهر (البخاري ٦٧: ٢٩) مما يدل على أن حق المرأة في المهر هو حق لا يجوز حرمانها منه في ظل أي ظروف وأنه مالها وليس مال أوليائها.

إشهار الزواج

عندما تحدث القرآن عن الزواج، استبعد في نفس الوقت نكاح السر: "مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتٍ أُخْدَانٍ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٥))؛ "مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أُخْدَانٍ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٥)). إذن، الحقيقة التي تميز الزواج عن السفاح ونكاح السر هي الإشهار. ولا ينعقد الزواج برضا الطرفين بالعيش معاً كزوج وزوجة إلا إذا أبديا رضاهما علانية أمام الناس وفي حضور الشهود. ومن ثم، فمن بين أركان الزواج الإسلامي إعلان خبر الزواج باجتماع الناس في مكان، يفضل أن يكون مكاناً عاماً. وهناك أحاديث تدل على وجوب إعلان الزواج ولو بضرب الدفوف (الترمذي ١١: ٥؛ النسائي ٢٦: ٧٢؛ ابن ماجه ٩: ٢٠؛ أحمد، الجزء الرابع، ص. ٥، ٧٧). ومع وضع نفس الهدف نصب الأعين، يجوز عزف الموسيقى في العرس. فيروى أنه في أحد الأعراس، كانت البنات يعنين مع ضرب الدف^{٢٩} في وجود النبي (صلى الله عليه وسلم) (البخاري ٦٧: ٤٩). ويمكننا أن نستشهد بالحديث التالي حول هذا الموضوع: "أَغْلُوا هَذَا النِّكَاحَ وَاجْعَلُوهُ فِي الْمَسَاجِدِ وَاضْرِبُوا عَلَيْهِ بِالْذُّفُوفِ". "فُضِّلَ مَا بَيْنَ الْخَلَالِ وَالْخَرَامِ (أي الزواج والسفاح) الصَّوْتُ وَضَرْبُ الدُّفِّ". "أَنْكَحَتْ عَائِشَةُ ذَاتَ قَرَابَةٍ لَهَا مِنَ الْأَنْصَارِ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَهْدَيْتُمُ الْفَتَاةَ قَالُوا نَعَمْ قَالَ أُرْسَلْتُمْ مَعَهَا مَنْ يُعْنِي قَالَتْ لَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْأَنْصَارَ قَوْمٌ فِيهِمْ غَزَلٌ فَلَوْ بَعَثْتُمْ مَعَهَا مَنْ يَقُولُ أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيَّانَا وَحَيَّاكُمْ" (مشكاة المصابيح ١٣: ٤-٢). وعندما يتم التأكيد بشدة على إعلان الزواج، فإن وجود الشهود يصبح نتيجة محتومة.

خُطْبَةُ الزَّوْجِ

يعتبر إلقاء الخُطْبَةِ قبل إعلان الزواج عاملاً آخر يساعد على إشهار الزواج كما يخدم في الوقت نفسه غرضاً مزدوجاً يتمثل في مباركة الزواج وجعله مناسبة لتعليم المجتمع. فعندما يتجمع

^{٢٩} اللُفُّ أو اللُفُّ، الكلمة الأولى أكثر استحباباً والثانية أكثر شيوعاً الآن، والدف هو شيء ينقر عليه المرء أو يعزف به (المعجم العربي - الإنجليزي للين).

أصدقاء وأقارب الطرفين، يلقي شخص من الجمع أو الإمام خطبة قبل إعلان الزواج نفسه. ويتكون نص هذه الخطبة، كما رواه ابن مسعود (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، من التشهد الذي تفتتح به كل خطبة بوجه عام وثلاث آيات من القرآن. والتشهد يقصد به في اللغة أداء الشهادة وفي الاصطلاح الشرعي يقصد به الشهادة بوحداية الله ونبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ويتكون التشهد في خطبة الزواج من الكلمات التالية:

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَعْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُرُورِ
أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ
يُضِلِّهِ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنْ
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

وبعد التشهد، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يتخذ من الآيات الثلاث التالية نصاً لخطبته: سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٠٢)؛ سورة النساء (٤): الآية رقم (١)؛ سورة الأحزاب (٣٣): الآيتان رقماً (٧٠) و(٧١) (مشكاة المصابيح ١٣: ٤-٢). فكل هذه الآيات الثلاث تذكر الإنسان بمسؤولياته بوجه عام والآية الوسطى تركز بصفة خاصة على الواجبات تجاه الزوجة. وأستشهد بالآيات الثلاث لأنها تشكل أحد أركان خطبة الزواج:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٠٢))

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ
مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (سورة النساء
(٤): الآية رقم (١))

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُضْلِحْ لَكُمْ
أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ
فَوْزًا عَظِيمًا. (سورة الأحزاب (٣٣): الآيتان رقماً (٧٠) و(٧١))

ويجب أن تشرح الخطبة بطبيعة الحال هذه الآيات وتبين للحضور حقوق وواجبات الزوج والزوجة. وعند ختام الخطبة، يعلن أن فلاناً وفلانة قبل كل منهما بالآخر كزوج وزوجة كما يعلن أيضاً المهر في ذلك الوقت. ثم يسأل الرجل والمرأة عما إذا كانا يقبلان هذه العلاقة الجديدة وعند الرد بالإيجاب ينعقد الزواج. وبوجه عام، يتم الحصول على موافقة المرأة من خلال والدها أو أي ولي أو قريب آخر. وبعد رضا الطرفين، يرفع الحاضرون أيديهم ويدعون الله أن يبارك الزوجين. وبوجه عام، يتم توزيع بعض التمر أو الحلوى على الحاضرين قبل انصرافهم. وصيغة الدعاء التي وردت في أحد الأحاديث هي: *بَارَكَ اللهُ لَكَ (البخاري ٦٧: ٥٧)*. وفي حديث آخر، صيغة الدعاء هي: *بَارَكَ اللهُ لَكَ وَبَارَكَ عَلَيْكَ وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا فِي الْخَيْرِ (الترمذي ١١: ٦)*.

الإشهاد على الزواج

يتبين لنا مما سبق وجوب وجود شهود على الزواج. وقد اشترط القرآن وجود شهود حتى على العقود العادية والمعاملات التجارية (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٨٢))، والزواج عقد عظيم الأهمية، عقد يؤثر في حياة شخصين بدرجة لا يعادلها تأثير أي عقد آخر. كما اشترط أيضاً وجود شهود حتى في حالة فسخ الزواج بالطلاق (سورة الطلاق (٦٥): الآية رقم (٢)). وقد شدد المذهب الحنفي عن حق على هذه النقطة بحيث إن الزواج لا يكون صحيحاً إلا بحضور شاهدين على الأقل (الهداية، الجزء الأول، ص. ٢٨٦). وللحصول على أفضل شهادة خالية من الشك بجميع أنواعه، فإن وجوب تسجيل جميع الزيجات هو أمر يتفق تماماً مع أحكام الشريعة الإسلامية.

الوليمة

بعد انتهاء عقد النكاح، يُوصِل الأهل العروس إلى بيت الزوج ويلي هذا إقامة مأدبة العرس التي تسمى الوليمة. وتعتبر هذه الوليمة بمثابة خطوة أخرى نحو إشهار الزواج ومن ثم أكد عليها النبي (صلى الله عليه وسلم). فيروى عن عبد الرحمن بن عوف أنه عندما أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) بنبا زواجه دعا له وقال له أن يولم ولو بشاة لإطعام ضيوفه (البخاري ٣٤: ١؛ ٦٧: ٧، ٥٧). وبمناسبة زواج النبي (صلى الله عليه وسلم) بصفية، عندما كان عائداً من خيبر، أقام صلى الله عليه وسلم وليمة طلب فيها من كل فرد دعي لها أن يحضر زاده معه (البخاري ٨: ١٢). وقد حدث هذا بالطبع عندما كان النبي في سفر، ولكنه في الوقت نفسه يبين الأهمية الكبرى التي أوليت إلى وليمة العرس. كما دعا صلى الله عليه وسلم أيضاً أصحابه إلى وليمة بمناسبة زواجه بزَيْنَب، ويقال إنها كانت أفخر الولائم التي أقامها صلى الله عليه وسلم لزوجاته، ورغم ذلك ذبح شاة واحدة (مسلم ١٦: ١٥). وقد خصص

الإمام البخاري في صحيحه عدة أبواب للوليمة بصفة خاصة هذا بالإضافة إلى العديد من الإشارات التي وردت في مواضع متفرقة.^{٢٠}

الولاية في الزواج

لما كان جوهر الزواج، وفقاً لتعاليم الإسلام، هو رضا الطرفين - بعد اقتناع كل منهما بالآخر - بالعيش سوياً كزوج وزوجة للأبد وقبولهما المسؤوليات والواجبات الملقاة على عاتق كل منهما في الحياة الزوجية، فإنه يستتبع ذلك بالضرورة أن يشترط عقد الزواج في المتعاقدين البلوغ والتمييز. وقد سبق لنا الاستشهاد ببعض الآيات القرآنية في هذا الصدد كما أقر الفقه أيضاً هذا المبدأ. وعلى ذلك، وفقاً لما جاء بكتاب فتاوى المجيري فإنه من بين الشروط الواجب توافرها في المتعاقدين لصحة عقد الزواج العقل، والبلوغ، والحرية (فتاوى المجيري، الجزء الثاني، ص. ١). ورغم ذلك، يتم التفريق بين القاصر العاقل والقاصر المجنون، ورغم أنه من المعترف به أن عقد الزواج الذي يتولاه القاصر المجنون باطل، فإن عقد الزواج الذي يتولاه القاصر العاقل يزول بطلانه بموافقة وليه. وبالنسبة للبالغين، ليس هناك خلاف في الرأي حول جواز إبداء الرجل رضاه عن الزواج بدون موافقة الولي، ولكن نشأ بعض الخلاف حول ما إذا كان يجوز للمرأة إبداء رضاها عن الزواج بدون موافقة والدها أو وليها. ويجب الإمام أبو حنيفة في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية على هذا السؤال بالإيجاب: "وينعقد نكاح... العاقلة البالغة برضاها وإن لم يعقد عليها ولي، بكرًا كانت أو ثيباً" (الهداية، الجزء الأول، ص. ٢٩٣). وقد ذهب الشيعة إلى ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة بقولهم إنه في نكاح الرشيدة، لا يشترط رضا الولي (الشريعة المحمدية). وذهب مالك والشافعي إلى اشتراط رضا الولي عن الزواج. ويميل البخاري إلى ما ذهب إليه الإمامان مالك والشافعي، حيث بوب البخاري في صحيحه باباً في: "مَنْ قَالَ لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيِّ" (البخاري ٦٧: ٣٧)؛ رغم أنه يضيف باباً آخر في: "لَا يُنْكَحُ الْأَبُ وَغَيْرُهُ الْبِكْرَ وَالْتَّيْبَ إِلَّا بِرِضَاهَا" (البخاري ٦٧: ٤٢). وفي الوقت نفسه، وسع الإمام البخاري معنى كلمة ولي بقوله "السُّلْطَانُ وَوَلِيُّ" (البخاري ٦٧: ٤١) واستشهد تحت هذا العنوان بحالة امرأة أتت إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وعرضت عليه الزواج منها وأنه صلى الله عليه وسلم رَوَّجَهَا عَلَى الْفُورِ رَجُلًا لَمْ يَكُنْ فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُوْدِيَ لَهَا أَيَّ صَدَاقٍ بِسَبَبِ فَقْرِهِ. ولكنه ليس واضحاً ما إذا كان أو لم يكن لها ولي شرعي (الأب أو غيره من أقرب الأقارب). وفي هذا الصدد، يستشهد ببعض الآيات القرآنية التي رغم ذلك لا تشير إلى الولي في كلمات صريحة. وعلى ذلك، قال تعالى في كتابه العزيز: "وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا

^{٢٠} في هذا الصدد، أستشهد ببعض عناوين هذه الأبواب: "الْوَلِيمَةُ حَقٌّ" (البخاري ٦٧: ٦٨)؛ "الْوَلِيمَةُ وَلَوْ بِشَاةٍ" (البخاري ٦٧: ٦٩)؛ "مَنْ أَوْلَمَ بِأَقْلٍ مِنْ شَاةٍ" (البخاري ٦٧: ٧١)؛ "حَقٌّ إِجَابَةُ الْوَلِيمَةِ وَالِدْعُوقَةُ" (البخاري ٦٧: ٧٢).

تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاصُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣٢)). وربما يستنتج من هذا أن الأمر بعدم منع المرأة من الزواج بالزوج الذي طلقها فيه تسليم مسبق بحق الولي. ورغم ذلك، فإن هذه الحجة واهية لأن الأولياء هنا يُهَوَّنون عن ممارسة ذلك الحق على الأقل في حالة الثيب^{٢١}. والآية الأخرى التي يستشهد بها هي: "... وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٢١)). ويحتج البعض بأن الآية الكريمة تخاطب الولي الذي يكون له حق التزويج. ولكن هذا مشكوك فيه أيضاً لأن الآية قد تخاطب أيضاً الأمة الإسلامية جمعاء، كما في مواضع أخرى كثيرة.

ومن بين الأحاديث الشريفة التي استشهد بها الإمام البخاري، كان أول حديث هو الحديث الذي تتحدث فيه السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن أربعة أنواع من الأنكحة، وورد فيه أن أول هذه الأنكحة، وهو النكاح الوحيد الذي أجازته الإسلام، هو نكاح فيه "يَحْتَبُ الرِّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلَيْتَهُ أَوْ ابْنَتُهُ فَيُصَدِّقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا". ولكن ذلك يصف الممارسة العامة التي كانت سائدة آنذاك ولا يقود إلى استنتاج أن المرأة لا يجوز لها الزواج بدون رضا وليها. والحديث الثاني يروى أيضاً عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) وتتحدث فيه عن ولي اليتيمة التي يزوجهها نفسه. ولكن ذلك مجرد تفسير السيدة عائشة لآية قرآنية معينة ولم ترد فيه إشارة إلى واقعة بعينها. والحديث الثالث يروي فيه عرض عمر (رضي الله عنه) ابنته حفصة التي توفي عنها زوجها على أبي بكر (رضي الله عنه). ولكن هذا أيضاً لا يثبت بطلان الزواج بدون رضا الولي. وإنما يبين أن أبا المرأة التي توفي عنها زوجها يجوز له أن يبذل ما في وسعه ليجد لابنته زوجاً. وليس لأي من الأحاديث الثلاثة الأخرى التي وردت في هذا الباب صلة بالموضوع.

ومن ناحية أخرى، أقر القرآن والسنة حق المرأة في الزواج من الرجل الذي ترضاه. وعلى ذلك، ورد في الآية المستشهد بها أنفاً في كلمات صريحة قوله تعالى: "فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣٢)). هذه هي حالة المطلقة. أما من توفي عنها زوجها، فقال تعالى عنها في كتابه العزيز: "فَإِنْ خَرَجْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٤٠)). وفي هذه الآية اعتراف بحق من يتوفى عنها زوجها في تزويج نفسها. وفي هاتين الآيتين إقرار واضح بحق الثيب في تزويج نفسها ونهى للولي عن الاعتراض عندما تكون المرأة نفسها راضية. وهذا يتفق تماماً مع ما ورد في الحديث الشريف التالي: "الْأَيْمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا (في النكاح) مِنْ وَلِيِّهَا" (أبي داود ١٢: ٢٥). وفيما يلي نص حديث آخر ورد في هذا الشأن: "لَيْسَ لِلْوَلِيِّ مَعَ الثَّيِّبِ أَمْرٌ" (المرجع السابق).

^{٢١} الثيب هي من سبق لها الزواج، سواء كانت مطلقة أو توفي عنها زوجها (ملاحظة خاصة من المترجم).

وفي ضوء الآيات والأحاديث المستشهد بها آنفاً، يبدو واضحاً أن للثيب الحرية الكاملة في اختيار زوجها. ولكن هل يسري نفس الحكم على البكر؟ رد الإمام أبو حنيفة على هذا السؤال بالإيجاب. فبدأ الإمام أبي حنيفة أنه بما أن للمرأة البالغة حق التصرف في مالها دون الرجوع إلى الولي، فكذا لها أيضاً حق التصرف في نفسها. ولكن في الوقت نفسه لا يمكن إنكار أنه يوجد لدى البكر حياء فطري، أضف إلى هذا أنها ليست لديها نفس خبرة الثيب بالرجال والأمور، ومن ثم فإنه في مصلحتها أن يخضع اختيارها للزوج لرقابة الأب أو أي ولي آخر يحدد أيضاً شروط الزواج ويحميها من إغواء الأشخاص عديمي الضمير. ولكن بما أن العقد يعتمد في النهاية على رضاها، وليس على رضا الولي الذي في الواقع إنما تحتاجه لحمايتها، إذن يجب أن تسود إرادتها في النهاية، ويتفق رأي الإمام أبي حنيفة مع أركان الزواج كما أوردها القرآن. حيث يقول الإمام أبو حنيفة: "ولها اختيار الأزواج، وإنما يطالب الولي بالتزويج؛ كيلا تنسب (أي عقد النكاح) إلى الوقاحة" (الهداية، الجزء الأول، ص. ٢٩٤)؛ وأضاف الإمام أبو حنيفة قائلاً: "ولا يجوز للولي إجبار البكر البالغة على النكاح" (المرجع السابق). كما تعزز السنة أيضاً هذا الرأي لأنه يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "لَا تُنْكَحُ الْأَيْمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ" (البخاري ٦٧: ٤٢). وقد بوب البخاري في صحيحه باباً في "إِذَا زَوَّجَ ابْنَتَهُ وَهِيَ كَارِهَةٌ فَيُكَأَهُ مُرْدُودٌ" (البخاري ٦٧: ٤٣)، ويستشهد بحديث يروى فيه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) رد هذا الزواج.

كما تناول الفقهاء أيضاً حالات زواج الفُصْر. فوفقاً لتفسير الإمام أبي حنيفة للشريعة الإسلامية: "يجوز نكاح الصغيرة والصغير إذا زوجها الولي، بكرة كانت الصغيرة أو ثيباً، والولي هو العصبه (أي الأقارب من جهة الأب)" (الهداية، الجزء الأول، ص. ٢٩٥). وقد أقر الإمام مالك هذا الزواج فقط إذا كان الولي هو الأب وأقره الشافعي إذا كان الولي هو الأب أو الجد (المرجع السابق). كما جاء أيضاً في المذهب الحنفي أنه إذا زوج ولي غير الأب والجد الصغير أو الصغيرة، يكون لكل منهما الخيار، إذا بلغا، في فسخ الزواج. ولكن، كما يبين الحديث المستشهد به آنفاً، فإنه حتى لو أكره الأب ابنته على الزواج وكانت بالغة، يجب فسخ الزواج إذا شاءت الابنة وكذلك أيضاً في حالة الصغيرة إذا وجدت، عند البلوغ، الزوج غير مناسب لها. ورغم أن الإمام البخاري لم يتحدث إلا عن الثيب، فإن هناك حديثاً آخر يروى فيه عن ابن عباس (رضي الله عنه) قوله إن جارية بكرة أتت إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فنكرت له أن أباه زوجها وهي كارهة فأعطاها النبي (صلى الله عليه وسلم) الحق في رد الزواج (أبي داود ١٢: ٢٥). كما أورد أيضاً أبو داود في سننه حالة الثيب (أبي داود ١٢: ٢٧).

زواج الأكفاء

كلمة أكفاء هي جمع كفاء، ومعناها اللغوي النظير أو المثل. فعلى سبيل المثال، العرب بعضهم أكفاء لبعض وقريش بعضهم أكفاء لبعض. وعليه، يكون أهل قبيلة أو قوم ما أكفاء فيما بينهم والناس من نفس الجنس أكفاء فيما بينهم. ولكن لم يرد في القرآن أو السنة ما يثبت عدم إمكانية عقد الزواج إلا بين الأكفاء. وإنه لأمر مختلف تماماً أنه، بوجه عام، يجب أن يسعى الناس إلى عقد الزواج بين الأكفاء، إلا أن الإسلام جاء وأزال جميع الفوارق، اجتماعية كانت أو قبلية أو عرقية، ومن ثم لم يقصر الإسلام عقد الزواج على الأكفاء. وقد أرسى في القرآن بوضوح المبدأ القائل بعدم أفضلية القبائل والأقوام بعضهم على بعض عند الله: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" (سورة الحجرات (٤٩): الآية رقم (١٣)). وقد أفسح الطريق أمام إقامة جميع أنواع العلاقات بين المسلمين أياً كان البلد أو القبيلة التي ينتمون إليها بالإعلان، فيقول تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" (سورة الحجرات (٤٩): الآية رقم (١٠)) ويقول أيضاً: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" (سورة التوبة (٩): الآية رقم (٧١)). وقد فسر النبي (صلى الله عليه وسلم) هذه الآيات في قوله: "لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَىٰ أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ".

وعند الحديث عن عقد الزواج، يتحدث القرآن فقط عن المحرمات من النساء اللاتي ذكرهن بالتحديد، ثم يضيف قوله تعالى: "وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٤)). كما يذهب القرآن أيضاً إلى حد إباحة الزواج بغير المسلمات: "وَالْمُحْصَنَاتُ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٥)). فقد أوصى النبي (صلى الله عليه وسلم) بزواج سيدة من قبيلة قريش من أسرة ذات قدر رفيع، وهي ابنة عمه زينب، من زيد الذي كان عبداً وأعتق؛ كما تزوج بلال، الزنجي، أخت عبد الرحمن بن عوف. وتوجد نماذج أخرى من نفس النوع في أوائل التاريخ الإسلامي. ففي أحد الأحاديث الشريفة، يروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) زكى رجلاً كان يدعى أبا هند لقبيلة بني بياضة التي كان بالنسبة لها بمثابة مولى (أي عبد أعتق) وكان يعمل حجاماً، وذلك في قوله صلوات الله وسلامه عليه: "يَا بَنِي بِيَاضَةَ أَنْكِحُوا (بناتكم) أَبَا هِنْدٍ وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِ" (أبي داود ١٢: ٢٦). هذا الحديث يبطل قصر الزواج على الأكفاء؛ ورغم ذلك أصر الفقهاء على ذلك. وفي هذا الصدد، اختلف الإمام مالك عن الآخرين عندما قال إن الكفاءة تعتبر بالدين، أي أن المسلمين جميعاً أكفاء. ورغم ذلك، اشترط جمهور الفقهاء الكفاءة في أربعة أمور - الدين، والحرية، والنسب، والحرفة. ويقول الإمام الشافعي إنه لا يمكنه أن يعلن أن نكاح غير الأكفاء حرام؛ فهو خلل يرفع برضا المرأة وأوليائها.

الشروط التي تفرض وقت الزواج

يجوز وقت الزواج فرض وقبول شروط معينة ليست مخالفة لأحكام الشريعة ويلزم الطرفان بهذه الشروط. فيروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "إِنَّ أَحَقَّ الشُّرُوطِ أَنْ تُؤْفُوا بِهِ مَا اسْتَخَلَّكُمْ بِهِ الْفُرُوجُ" (البخاري ٦٧: ٥٣؛ أبي داود ١٢: ٣٩). كما يروى أيضاً أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ذكر صهراً له (مشرراً) فأثنى عليه في مصاهرته بقوله: "حَدَّثَنِي وَصَدَّقَنِي وَوَعَدَنِي فَوَفَّى لِي" (البخاري ٦٧: ٥٣). والشروط غير الشرعية هي تلك الشروط التي تتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية أو السلوكيات العامة، على سبيل المثال أن يشترط أن يكون للزوجة الحق في التردد على الأماكن المشبوهة أو ألا يكون لها الحق في المهر أو النفقة أو ألا يرث الزوج والزوجة أحدهما الآخر. فإذا فرض هذا الشرط، يكون الشرط باطلاً في حين يكون الزواج صحيحاً. ومن أمثلة الشروط الشرعية أن يشترط عدم إجبار الزوجة على ترك دارها، أو ألا يتزوج الزوج عليها؛ أو أن يعيش الزوج والزوجة أو أحدهما في مكان محدد؛ أو أن يُدفع جزء معين من المهر عاجلاً والباقي أجلاً عند الوفاة أو الطلاق؛ أو أن يدفع الزوج للزوجة مبلغاً معيناً على سبيل النفقة؛ أو ألا يمنعها من زيارة أقاربها لها أو أن يكون للزوجة الحق في الطلاق لسبب معين أو لأي سبب معقول، وشروط أخرى (الشريعة المحمدية).

تعدد الزوجات

بوجه عام، لم يقر الإسلام سوى زواج الرجل بامرأة واحدة بوصفه الشكل الصحيح للزواج. وفي ظل ظروف استثنائية، أباح للرجل الزواج بأكثر من واحدة، ولكنه لم يبيح للمرأة الزواج بأكثر من رجل. وعليه، فرغم أن المرأة المتزوجة لا يجوز لها أن تعقد زواجاً صحيحاً، فإن الرجل المتزوج يجوز له. ولا صعوبة في فهم سبب هذا التفريق إذا ما وضعنا نصب أعيننا الواجبات الطبيعية للرجل والمرأة إزاء الحفاظ على النوع البشري وتربية الأبناء. وبذلك، قسمت الطبيعة الواجبات بين الرجل والمرأة بحيث يجوز للرجل أن ينجب أبناء من أكثر من واحدة في حين أنه لا يجوز للمرأة أن تتجب أبناء إلا من زوج واحد. ومن ثم، فرغم أن تعدد الزوجات قد يساعد في بعض الأحيان على رفاهية المجتمع والحفاظ على الجنس البشري، فإن تعدد الأزواج ليس له فائدة يمكن تصورها بالنسبة للإنسان.

تعدد الزوجات استثناء

يجب أن نضع نصب أعيننا في البداية أن تعدد الزوجات مباح في الإسلام فقط كحالة استثنائية. وقد ورد هذا صراحة في القرآن: "وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ

مَتْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خَفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا (بينهن) فَوَاحِدَةً" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٣)). هذه هي الآية الوحيدة في القرآن التي تتناول موضوع تعدد الزوجات وسوف يتبين لنا أنها لا تأمر بتعدد الزوجات؛ وإنما تبيحه بشروط. وقبل تناول معنى الآية الكريمة، يجب علينا أن نفهم بوضوح أن تعدد الزوجات مباح هنا فقط في حالة اليتامى الذين يخشى عدم العدل معهم. وهذا الشرط يتصل برفاهية المجتمع أكثر منه باحتياجات الفرد.

والتفسير التقليدي الذي قيل في هذه الآية هو تفسير السيدة عائشة (رضي الله عنها) الذي ورد في صحيح البخاري. فيروى عن السيدة عائشة قولها: "هَذِهِ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرٍ وَلِيَّهَا تَشْرِكُهُ فِي مَالِهِ وَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بغيرِ أَنْ يُسِطَ فِي صَدَاقِهَا فَيُعْطِيهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ فَتُهْوَى عَنْ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُسِطُوا لَهُنَّ وَيَبْلُغُوا لَهُنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ فَأَمَرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ" (البخاري ٦٥، سورة النساء (٤)، الباب الأول). وسوف يتبين أن هذا التفسير يقم على الآية كلمات وعبارات لا أثر لها فيها ولا يمكن أن ينسب هذا المعنى إلى النبي (صلى الله عليه وسلم). كما أن التفسير غير مقبول لسبب آخر. حيث تفسر السيدة عائشة (رضي الله عنها) الآية رقم (١٢٧) من نفس السورة، والتي من المسلم به أنها شرح للآية موضوع النقاش، بقولها: "هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْيَتِيمَةُ هُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا فَأَشْرَكَتُهُ فِي مَالِهِ حَتَّى فِي الْعَدْقِ فَيُرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا وَيَكْرَهُ أَنْ يَزَوَّجَهَا رَجُلًا فَيَشْرِكُهُ فِي مَالِهِ بِمَا شَرِكْتُهُ فَيَعْضُلُهَا" (المرجع السابق). فرغم أنه من المسلم به أن الآية الثانية شرح للآية الأولى، فإن تفسير السيدة عائشة (رضي الله عنها) للآية الثانية يتعارض مع تفسيرها للأولى. ففي الحالة الأولى، ورد أن الولي يرغب في أن يتزوج من ولي أمرها، وقيل إن الآية الأولى تنهى عن ذلك في حين أنه في الآية الثانية يرغب عن الزواج منها أو تزويجها بآخر.

ومن ثم، اقترح المفسرون ثلاثة تفاسير أخرى للآية. أولاً، نزلت هذه الآية (سورة النساء (٤): الآية رقم (٣)) للنهي عن الجمع بين أكثر من أربع زوجات، بحيث إنه عند عدم الجمع بين زوجات كثيرات لا يغرى الولي بتبديد مال اليتامى عندما لا يكون ماله كافياً. ثانياً، إن خفتم ألا تقسطوا مع اليتامى، فيجب عليكم أيضاً أن تخافوا من ألا تعدلوا بين الزوجات الكثيرات. ثالثاً، إن خفتم ألا تقسطوا مع اليتامى، فيجب عليكم أيضاً أن تخافوا من الوقوع في إثم الزنا، ولتجنبه أبيع لكم الجمع بين أربع زوجات.

وسوف يتبين أن هذه التفاسير أقل إقناعاً من التفسير الذي ورد في البخاري. وفي الواقع، فإن الآية (١٢٧) من سورة النساء (٤) تشرح معنى الآية المشار إليها آنفاً: "وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُنْثَلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ

وَتَرَعَّبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ". فمن المسلم به أن عبارة "مَا يُنَلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ" تشير إلى الآية (٣) في سورة النساء (٤). وعبارة "الْأَلْيَاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ... وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ" تشير إلى إحدى العادات التي كانت سائدة آنذاك بين العرب والتي وفقاً لها لم تُورث النساء والصغار حيث كان العرف السائد أنه لا يورث سوى من يستطيع ركوب الخيل وقتال العدو. ومن ثم، كان الوضع السائد آنذاك هو أنه عندما تترك من يتوفى عنها زوجها ولديها أبناء يتامى تربيتهم، لم تكن تورث هي وأبنائها ولم يكن الرجال يرغبون في الزواج بمن يتوفى عنهن أزواجهن ولهن أبناء. ومن ثم، أمر القرآن في الآية (٣) في سورة النساء (٤) بأنه إن لم تستطيعوا أن تقسطوا مع اليتامي، تزوجوا أمهاتهم حتى يعينكم تحقيق مصالحهم، ولهذا الغرض أبيح لكم الزواج بأكثر من واحدة.

وتعزز هذا الاستنتاج دراسة الأوضاع التاريخية التي كانت سائدة وقت نزول السورة. فقد كان وقتاً اضطر فيه المسلمون لخوض حرب متواصلة ضد عدو عقد العزم على إبادةهم. واضطر جميع عائلي الأسر لخوض المعركة ضد العدو وفقد الكثيرون حياتهم في المعارك غير المتكافئة التي كانت تخوضها فرقة صغيرة من المسلمين ضد قوات العدو الساحقة. وفقدت النساء أزواجهن العطوفين عليهن وفقد الصغار آباءهم المحبين لهم وكان لا بد من إعالة من توفي عنهن أزواجهن وأبنائهن اليتامي. فلو تركوا تحت رحمة الظروف، لهلكوا وبلغ الضعف من الأمة حد استحالة مواصلة الصراع من أجل البقاء. في ظل هذه الظروف نزلت السورة الرابعة مبيحة الجمع بين أكثر من واحدة حتى تجد من يتوفى عنها زوجها وأبنائها اليتامي مأوى لهم. حيث ورد في الآية أنه إن خفتم ألا تقسطوا مع اليتامي، يجوز لكم الجمع بين النساء (أمهات اليتامي) حتى أربع، على أن تعدلوا بينهم جميعاً. وتبين الآية رقم (١٢٧)، كما ذكرنا آنفاً، أن النساء هنا يقصد بهن أمهات اليتامي.

وربما يقال إنه يمكن عمل ترتيبات أخرى لإعالة من يتوفى عنهن أزواجهن وأبنائهن اليتامي. ولكن لا يمكن توفير الحياة الأسرية لهم بأي طريقة أخرى كما أن الحياة الأسرية هي المنبع الحقيقي الذي تتبع منه تلك الصفات الطيبة المتمثلة في المحبة والمودة، والتي هي أفضل مزايا الحياة الاجتماعية والحضارة. كما أن الإسلام يبني حضارته على الحياة الأسرية؛ وفي ظل الظروف الاستثنائية التي لا يوفر فيها الزواج بوحدة المأوى لمن يتوفى عنهن أزواجهن وأبنائهن اليتامي، أباح تعدد الزوجات لتوفير تلك الميزة لهم. وحتى لو وجدت النساء وأبنائهن نصف بيت في الأسرة التي تتعدد فيها الزوجات، فإنه أفضل من عدم وجود بيت بالمرّة. بالإضافة إلى ذلك، تعتبر الأمة التي تتناقص صفوف مقاتليها كل يوم في حاجة ماسة لزيادة أعداد أفرادها بجميع الوسائل الممكنة، ومن ثم كان لا بد من توفير البيت لمن يتوفى عنهن أزواجهن حتى يتسنى لهن المساعدة في زيادة عدد أفراد الأمة. ولا يقل عن ذلك أهمية الجانب الأخلاقي للموضوع. فالحرب

نتج عنها موت السكان الذكور وبذلك زاد عدد النساء عن الرجال. وهذه الزيادة، لو لم يتم توفير البيت لها، لكان من الممكن أن ينتهي بها الأمر إلى الانحلال الأخلاقي الذي يشكل أكبر خطر على حضارة مثل الحضارة الإسلامية القائمة على الأخلاق.

كما أن مشكلة الحرب ليست مشكلة تخص عصرًا أو بلدًا معينًا. وإنما هي مشكلة تؤثر على البشرية جمعاء طوال العصور القادمة. إن الحرب تؤدي بالتأكيد إلى انخفاض عدد الذكور، مما يترتب عليه زيادة مقابلة في عدد الإناث ويستوجب ذلك من أصحاب النوايا الحسنة التوصل إلى حل لمشكلة زيادة عدد النساء عن الرجال. فرغم أن الزواج بواحدة بلا شك قاعدة سليمة للحياة في ظل الظروف العادية، فإنه عندما تنشأ ظروف غير عادية نتيجة لزيادة عدد الإناث عن الذكور، يعجز الزواج بواحدة عن حل المشكلة ولا يمكن حل هذه المشكلة إلا من خلال تعدد الزوجات المحدود. وتواجه أوروبا في يومنا هذا تلك المشكلة، بصرف النظر عن الحرب، والحرب تؤدي فقط إلى تفاقم هذه المشكلة. ولا مانع من أن تُفتح أمام النساء مجالات عديدة لتمكينهن من كسب قوتهن، فالإسلام لم يغلُق قطُّ باب أي مهنة في وجه النساء. ولكن لب المشكلة لا يكمن في توفير القوت، وإنما في توفير الحياة الأسرية وتلك المشكلة لا يمكن حلها بدون تعدد الزوجات.

وفي هذا الصدد، يمكننا أن نضيف أن تعدد الزوجات في الإسلام، من حيث النظرية والتطبيق، استثناء وليس قاعدة، وباعتباره استثناء فإنه حل لكثير من مساوئ الحضارة الحديثة. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن زيادة عدد الإناث عن الذكور ليست الاعتبار الوحيد الذي يستوجب الأخذ بتعدد الزوجات في حالات معينة، وإنما هناك عدة حالات أخرى تستوجب الأخذ بتعدد الزوجات في ظل ظروف استثنائية وذلك ليس لخير المجتمع على المستوى الأخلاقي فحسب، وإنما أيضاً على المستوى الجسدي. فعلى سبيل المثال، فإن ظاهرة البغاء، التي تتزايد مع تقدم "الحضارة"، والتي تنخر في الحضارة كالأفة، بما يصحبها من زيادة في عدد الأبناء غير الشرعيين، هذه الظاهرة لم تعرفها عملياً الدول التي أتيح فيها تعدد الزوجات كإجراء علاجي.

كما يمكننا أيضاً أن نذكر أن نظام تعدد الزوجات، الذي إنما أباحه الإسلام كحل، أساء استخدامه، إلى حد كبير، الأشخاص الشهوانيون، إلا أنه يوجد في كل مجتمع أفراد يسيئون استخدام أي نظام، مهما كان ضرورياً لتطور المجتمع بصورة سليمة. وفي الدول التي لم يبح فيها تعدد الزوجات، أدت شهوانية الرجل إلى ابتداء مئات الطرق الأخرى للتفيس عن شهواته، وهذه لعنة على المجتمع أكبر بكثير من سوء استخدام تعدد الزوجات. وفي الواقع، يمكن للدولة علاج سوء استخدام تعدد الزوجات بسهولة عن طريق وضع قيود قانونية على ممارسته في الوقت الذي تقف فيه الدولة عاجزة تماماً أمام المساوئ الناجمة عن الرفض المطلق لتعدد الزوجات.

القسم الرابع - الحقوق والواجبات الزوجية

مكانة المرأة بوجه عام

من وجهتي النظر المادية والروحية، أقر الإسلام بأن للمرأة مكانة مساوية لمكانة الرجل. وليس أدل على ذلك مما ورد في كتابه العزيز من أن الأعمال الصالحة لها نفس الأجر، سواء كان العامل ذكراً أو أنثى: "أَنْتِي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذَكَرِ أَوْ أَنْتِي تَبْغُضُكُمْ مِّنْ بَعْضِ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (١٩٥)). كما أعدت الجنة ونعمها لكليهما على حد سواء: "وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ" (سورة غافر (٤٠): الآية رقم (٤٠))؛ "وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٢٤)). وكلاهما سوف ينعم بالحياة الأسمى: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً" (سورة النحل (١٦): الآية رقم (٩٧)). أضف إلى ذلك أن الوحي، الذي يعتبر أعظم هبة روحية من الله تعالى في الحياة الدنيا، أوتي الرجال والنساء: "وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ" (سورة آل عمران (٣): الآية رقم (٤٢))؛ "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي" (سورة القصص (٢٨): الآية رقم (٧)). ومن وجهة النظر المادية، يعترف بالمساواة بين المرأة والرجل. فالمرأة لها الحق في كسب المال وامتلاك الممتلكات بالضبط مثل الرجل وبالتالي فمن حقها أن تزاول أي مهنة، إذا شعرت بحاجة لذلك. "لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِّلرِّجَالِ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٣٢)). أضف إلى ذلك أن للمرأة سيطرة كاملة على مالها ولها حق التصرف فيه حسبما تشاء: "إِن طِبَّنَ (أي النساء) لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ (أي من أموالهن) نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٤)). كما أن للمرأة أيضاً الحق في أن تراث مثلما أن للرجل هذا الحق: "لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٧)).

مكانة المرأة كزوجة

لا تفقد المرأة بزواجها أيًا من الحقوق التي تتمتع بها كفرد في المجتمع. فهي ما زالت لها حرية مزاوله أي عمل تشاء، وإبرام أي عقد ترغب فيه، والتصرف في مالها حسبما تشاء؛ أضف إلى ذلك عدم ذوبان شخصيتها في شخصية زوجها. ولكن من المعترف به في نفس الوقت أنها تضطلع بمسؤوليات جديدة في الحياة تطوي على حقوق جديدة. وقد أرسى القرآن هذا المبدأ في

قوله تعالى: "وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (سورة البقرة (٢): الآية (٢٢٨)). هذه هي الحقوق والمسؤوليات الملقاة على عاتقها تجاه بيتها. وتصف السنة منزلة المرأة في البيت بأنها أشبه بمنزلة الراعي (أي الحاكم): "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْأَمِيرُ رَاعٍ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" (البخاري ٦٧: ٩١). وبالتالي، فإنه فيما يتعلق بالبيت، تكون للزوجة فيه منزلة الحاكم والبيت هو أرضها. وبالزواج، ترفع المرأة على الفور إلى منزلة أعلى وتكتسب حقوقاً جديدة، رغم أنها في الوقت نفسه تتحمل مسؤوليات جديدة. وقد تم أيضاً التأكيد على الحقوق الواجبة للزوجة على زوجها في السنة عندما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) لعبد الله بن عمر (رضي الله عنهما): "قَاتِنُ لِحَسْبِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنِ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنِ لِرِزْوَجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا" (البخاري ٦٧: ٩٠).

العلاقة بين الزوجين

كما سبق أن ذكرنا، فإن العلاقة بين الزوجين توصف في القرآن بأنها علاقة النفس الواحدة في جسدين: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً" (سورة الروم (٣٠): الآية رقم (٢١))؛ "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا" (سورة الأعراف (٧): الآية رقم (١٨٩)). وفي موضع آخر، تطرح نفس الفكرة بشكل بديع وبكلمات مختلفة: "هُنَّ (أي زوجاتكم) لِيَأْسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَأْسَ لَهُنَّ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٧)). ليس هناك وصفاً للرباط الوثيق بين روحين أفضل من هذا الوصف؛ ورغم ذلك، فإن الإسلام دين واقعي لم يغفل عن الحقائق الراسخة في الحياة. حيث يصف الأسرة بأنها وحدة في منظومة أكبر متمثلة في الأمة ككل، وكما أنه في منظومة الأمة الأوسع نطاقاً يوجد شخص يمارس السلطة النهائية في حالات معينة، فكذاك أيضاً لا يمكن الحفاظ على المنظومة الأصغر المتمثلة في البيت دون ترتيب مماثل. ومن ثم، يوصف الزوج في البداية بأنه "رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ" ثم توصف الزوجة بعد ذلك بأنها "رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ". وعليه، يعتبر البيت بمثابة مملكة صغيرة يمارس السلطة فيها الزوج والزوجة معاً. ولكن ما لم تُسند سلطة أعلى إلى أحدهما، فإن الفوضى تسود في هذه المملكة. وقد ورد في القرآن السبب في إسناد السلطة الأعلى في هذه المملكة إلى الوالد: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٣٤)). والكلمة العربية قَوَّامُونَ، وهي جمع قَوَّامٍ، مشتقة من الفعل قام، أي وقف، ولكنها عندما تقتربن بالباء أو بحرف الجر على، تحمل كلمة قام معنى الإنفاق أو تولي الأمر. وعليه، فإن عبارة "قام باليتيم" يقصد بها كفل اليتيم و"قام عليها" يقصد بها أنفق على المرأة ودير أمرها (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وكلمة قَوَّامُونَ تحمل معنى مزدوجاً. فمعناها أن الزوج ينفق

على الزوجة وأنه أيضاً يتحمل المسؤولية النهائية عن شؤون البيت، وبالتالي تكون له السلطة على الزوجة عندما تدعو الحاجة. والسبب وراء إسناد سلطة أعلى إلى الرجل متضمن في كلمة *قَوَامُونَ* نفسها. فالرجل هو المكلف بالإفناق على الأسرة وبالتالي يتولى حتماً السلطة الأعلى.

تقسيم العمل

الوظيفة التي يكلف بها كل من الزوج والزوجة محددة تماماً، فكل منهما مكلف بوظائف تتناسب مع طبيعته. فقد ورد في القرآن أن الله تعالى جعل الرجل والمرأة يتفوقان بعضهما على بعض في جوانب معينة. فالرجل يفوق المرأة في البنية والتكوين الجسدي مما يمكنه من تحمل مشاق أكبر ومواجهة مخاطر أكبر مما تتحملة بنية المرأة. ومن ناحية أخرى، فإن المرأة تفوق الرجل في صفات الحب والحنان. فيغرض المساعدة على نمو الخلائق، وهبت الطبيعة الأنثى في البشر والحيوانات الأدنى صفة الحب بدرجة تفوق وجودها في الذكر. وبالتالي، هناك تقسيم طبيعي بين الرجل والمرأة للعمل الرئيسي الذي يتم القيام به من أجل تقدم البشرية. وبعبارة أخرى، فإن الرجل أقدر على تحمل مشاق الحياة بما له من بنية جسدية أقوى؛ في حين أن المرأة أقدر على تربية الأبناء بما تتمتع به من صفة الحب التي تغلب على طبيعتها. ومن ثم، عُهِدَ إلى الرجل بمهمة الإفناق على الأسرة وعُهِدَ إلى المرأة بمهمة تربية الأبناء. وكلاهما مخول سلطة تتناسب مع طبيعة المهمة التي عُهِدَ بها إليه. ومن ثم يوصف الرجال بأنهم قوامون على النساء وتوصف النساء بأنهن راعيات على بيت أزواجهن وأولادهم.

المرأة لم تستبعد من أي نشاط في مجالات الحياة

ليس تقسيم العمل المشار إليه آنفاً سوى القاعدة العامة؛ ولا يدل على استبعاد المرأة تماماً من أنواع النشاط الأخرى. فقد أوضحت دراسة الكتابات الخاصة بالحديث أنه رغم مكانة المرأة الشرعية في بيتها، كمربية للأبناء ومديرة لشؤون المنزل، فقد كانت المرأة تهتم بجميع أنشطة الأمة الإسلامية. فعلى سبيل المثال، لم تمنعها رعاية الأبناء من الذهاب إلى المسجد للانضمام إلى صفوف المصلين في صلاة الجماعة^{٢٢} ولم تقف رعايتها لأبنائها حائلاً أمام انضمامها إلى صفوف الجنود في أرض المعركة لأداء كثير من المهام مثل حمل القرب^{٢٣} أو العناية بالمرضى والجرحى^{٢٤}

^{٢٢} البخاري ١٠: ١٦٢، ١٦٤.

^{٢٣} البخاري ٥٦: ٦٦.

^{٢٤} البخاري ٥٦: ٦٧.

أو نقل الجرحى والقتلى من أرض المعركة^{٣٥} أو المشاركة في القتال عندما تدعو الحاجة.^{٣٦} وقد كانت إحدى زوجات النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهي زينب، تدبغ الجلود وتخصص بإيراد البيع لأعمال الخير.^{٣٧} كما كانت النساء أيضاً يساعدن أزواجهن في أعمال الحقل،^{٣٨} ويخدمن الضيوف في وليمة العرس^{٣٩}، ويزاولن التجارة،^{٤٠} كما كان في إمكانهن البيع للرجال والشراء منهم وكان في إمكان الرجال البيع إليهن والشراء منهن.^{٤١} وقد ولى الخليفة عمر (رضي الله عنه) امرأة قضاء الحسبة على سوق المدينة. ولكن هذه استثناءات. فالمجال الصحيح للمرأة هو البيت ورعاية الأبناء.

الحقوق الزوجية

يجب على الزوجين تسيير شؤون الأسرة بالتعاون فيما بينهما. وللمزيد من التوضيح، يُطالب الزوج في المرتبة الأولى بكسب الرزق للإنفاق على الأسرة وتكون الزوجة مسؤولة عن تدبير شؤون المنزل وتربية الأبناء. ومن ثم، تتركز حقوق كل منهما تجاه الآخر في هاتين النقطتين. فالزوج ملزم بالإنفاق على الزوجة حسب دخله، كما قال تعالى في كتابه العزيز: "لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا" (سورة الطلاق ٦٥): (الآية رقم (٧)).

كما يجب عليه أيضاً توفير المسكن لها: "أَسْكِنُوهُنَّ مِمَّا فِي بُيُوتِكُنَّ مِمَّا وَجَدْتُمْ مِّنْ بُيُوتِكُنَّ" (سورة الطلاق ٦٥): (الآية رقم (٦)). في حين أن الزوجة ملزمة بأن تظل في صحبة زوجها، وتحافظ على ماله من الضياع أو التبديد، وتمتنع عن عمل ما يعكر صفو الأسرة. كما يجب عليها عدم إدخال أحد يكرهه الزوج في بيته وعدم الإنفاق فيما يكره الزوج (البخاري ٦٧: ٨٧). ولكنها ليست ملزمة بالخدمة الشخصية مثل طهي الطعام، ولكن واجبات الزوج والزوجة تستلزم دائماً من كل منهما أن يكون على استعداد لمساعدة الآخر. فعلى سبيل المثال، يجب على الزوجة مساعدة زوجها حتى في مجال العمل إذا كان في استطاعتها، ويجب على الزوج مساعدة الزوجة في أعمال المنزل.

^{٣٥} البخاري ٥٦: ٦٨.

^{٣٦} البخاري ٥٦: ٦٢، ٦٣، ٦٥.

^{٣٧} الإصابة في تمييز الصحابة، الجزء الثامن، ص. ٩٣.

^{٣٨} البخاري ٦٧: ١٠٨.

^{٣٩} البخاري ٦٧: ٧٨.

^{٤٠} البخاري ١١: ٤٠.

^{٤١} البخاري ٣٤: ٦٧.

فيروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه أنه كان يساعد أزواجه في كثير من الأعمال المنزلية البسيطة، مثل حلب الماعز، وترقيق ثيابه، وإصلاح حذائه، وتطيف الأواني، وأعمال أخرى.

القرآن أكد على معاشرته الزوجة بالمعروف

يؤكد القرآن بشدة على معاملة الزوجة بالمعروف وحسن معاشرتها. فمن أكثر النصائح المتكررة التي وردت في القرآن النصائح المتضمنة في قوله تعالى: "فَامْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٢٩))؛ "فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣١))؛ "وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٩)؛ وآيات أخرى). وقد بلغ التأكيد على ذلك حد أنه ينصح بالرفق بالزوجة حتى لو كان الرجل يكرهها، لأنه كما قال تعالى: "فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٩)). وقد أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) أيضاً بشدة على حسن معاشرته الزوجة. فيروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِيهِ" (مشكاة المصابيح ١٣: ٢-٢). وفي حديث آخر، يروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا" (البخاري ٦٧: ٨١). وفي خطبته الشهيرة التي ألقاها في حجة الوداع، أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) أيضاً على حسن معاشرته النساء: "أَمَا بَعْدَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا... إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِإِمَانَةٍ اللَّهِ... أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ" (مسلم ١٦: ١٧).

وفي حديث يأمر بالرفق بالنساء، تُشَبِّهُ المرأة بالضلع: "الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ إِنْ أَقْمَنَتْهَا كَسَرْتَهَا"^{٤٢} (البخاري ٦٧: ٨٠). فالضلع أعوج في تكوينه وليس مستقيماً، وهو يخدم الغرض الذي خلق من أجله في الحالة التي خلق عليها وكذلك يقال عن المرأة إنها مثل الضلع تخدم الغاية التي خلقت من أجلها في الحالة التي خلقت عليها؛ فإذا حاولت أن تقيمها، أي تجعلها تتصرف كما يشاء الرجل أو أن تجعلها تتحلى بصفات الرجل الأكثر صرامة، فسوف تكسرها. فكما سبق أن ذكرنا، فإن مزاج الرجل يختلف عن مزاج المرأة في جانب معين. فالرجل بطبيعته حازم وصارم وبالتالي شديد الشكيمة؛ وهي صفات لا بد أن يتحلى بها حتى يتمكن من تحمل مشاق الحياة. في حين أن المرأة التي تربي الأبناء خلقت بحيث تغلب عليها صفة الحب وهي لا تتصف بصرامة الرجل؛

^{٤٢} في حديث آخر، تستخدم عبارة "خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ" بدلاً من كلمة "كالضلع". ولكن المعنى لم يتغير، أي أن طبيعة المرأة أو حالتها المزاجية يمكن تشبيهها بالضلع. والحديث هنا يدور حول المرأة بوجه عام، وليس حواء بوجه خاص، كما أنه لم يذكر أن المرأة خلقت من ضلع الرجل. وفي اللغة العربية، كثيراً ما نقول إن شيئاً معيناً خلق من كذا وكذا، بمعنى أن طبيعة ذلك الشيء كذا. وعلى ذلك، قال تعالى في كتابه العزيز: "خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ" (سورة الأنبياء (٢١): الآية رقم (٣٧))، بمعنى أن العجلة صفة بارزة في الإنسان.

وبالتالي فإنها تتحاز لجانب بعينه أسرع من الرجل وبسبب هذه الصفة تُشَبَّه بالضلع. ويستشهد بميلها كالضلع كحجة تعزز الرفق بها وتركها على الحالة التي خلقت عليها.

الإسلام أباح للزوج اتخاذ إجراءات أكثر صرامة ضد المرأة في حالة نشوزها

رغم أن القرآن أكد بشدة على معاشره المرأة بالمعروف، ورغم أنه يوصي بأن يؤذن لها بالمعلم بأي شكل تشاء، فإنه أُذِنَ للزوج باتخاذ إجراءات صارمة ضد زوجته إذا بدا منها نشوز. وقد أولى الإسلام أهمية كبرى لعفة المرأة وبالتالي فإذا حدث هبوط عن المستوى الأخلاقي الرفيع، لا يكون للمرأة الحق في ذلك الشرف وفيما تحظى به من معاملة بالمعروف. وقد أباح القرآن اتخاذ إجراءات صارمة ضد الزوجة في حالة نشوزها، والنشوز هو ارتقاع الزوجة عن زوجها أو عدم طاعتها له ويشمل مقاومة الزوج وبغضه وهجره (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وقد فسر بعض المفسرين كلمة نشوز بمعنى ترك الزوجة مسكن الزوجية واتخاذها مسكناً لا يرضاه الزوج (تفسير البحر المحيط). ولكن يبدو أن الكلمة تغطي عدة معانٍ وبالتالي هناك ثلاثة أنواع للعلاج المقترح في تلك الحالات: "واللأبي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٣٤)). فعندما يكون النشوز عادياً ولا خطورة فيه، مثلاً عندما يكون مجرد مقاومة لسلطة الزوج، يكون العلاج المقترح مجرد الوعظ. وإذا اقترن البغض بمقاومة سلطة الزوج، يقترح علاج أكثر فعالية ويباح للزوج، في تلك الحالة، أن يبدي استنكاره لتصرفها بهجره لها. ولكن إذا تمادت الزوجة وهجرت الزوج وأصبح سلوكها مريباً، عندئذ يباح الضرب كأخر حل يمكن اللجوء إليه. ولا يمكن أن ننكر أنه توجد حالات تستوجب اتخاذ هذه الخطوة الأخيرة، ولكن هذه حالات استثنائية ويقتصر وجودها بوجه عام على الطبقات الأكثر عنفاً في المجتمع حيث لا يكون العلاج المتمثل في الضرب غير المبرح مستكراً، بل إنه يكون ضرورياً.

وهناك أحاديث تبين أن الضرب غير المبرح مباح فقط عندما يصبح سلوك المرأة مستكراً وتبدو كما لو كانت في حالة عصيان علني للزوج. وعلى ذلك، ورد في صحيح مسلم حديث يروى فيه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "فَانْتَهُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَحَدْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ... وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكَرَّهُونَهُ فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ" (مسلم ١٥: ١٩). مما يدل على أن الضرب غير المبرح مباح فقط في الحالات القصوى. وقد ورد حديث آخر يبين أن هذا التصرف من جانب الزوجة أو تلك المعاملة من جانب الزوج غير متوقعين في أسرة طيبة. فعندما جاءت نساء كثيرات يشتكين أزواجهن للنبي (صلى الله عليه وسلم)، يروى عنه صلى الله عليه وسلم

أنه وعظ الرجال بقوله: "لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَرْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أَوْلَيْكَ بِخِيَارِكُمْ" (أبي داود ١٢: ٤٢). كما أشار الإمام البخاري أيضاً إلى الحديث المستشهد به آنفاً الذي ورد في صحيح مسلم وأورد حديثاً آخر في باب: "مَا يُكْرَهُ مِنْ ضَرْبِ النِّسَاءِ"، يروى فيه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "لَا يَجِدُ أَحَدَكُمْ أَمْرَاتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ ثُمَّ يُجَامِعُهَا فِي آخِرِ الْيَوْمِ" (البخاري ٦٧: ٩٤).

وفي حالة أخرى، يباح للزوج ممارسة سلطته ضد المرأة، وهذه أيضاً حالة تبدي الزوجة فيها انحرافاً أخلاقياً عنياً: "وَاللَّائِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَقَّأَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا" (سورة النساء ٤): الآية رقم (١٥)). ويقصد بقوله تعالى "أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا" أن يتبن توبة نصحاً. ومن الواضح أنه يقصد بالفاحشة المشار إليها هنا السلوك غير الأخلاقي والعقاب هو تقييد تحركات المرأة بحيث تحرم من حرية الحركة في المجتمع. وعند قراءة هذه الآية جنباً إلى جنب مع الآية رقم (٣٤) من سورة النساء (٤)، والتي ورد فيها ضرب الزوجة، يتبين لنا أن إمساك الزوجة في البيت هو الخطوة الأولى وأنه عندما تكرر المرأة الفاحشة في بيتها أو لا تستسلم لسلطان زوجها عليها وتهجره، عندئذ يؤذن للزوج بضرب زوجته، وهو آخر خيار يمكن اللجوء إليه. وإذا لم تؤدِّ حتى هذه الخطوة إلى تحسين المرأة من سلوكها، فإنه يجوز إنهاء العلاقة الزوجية.

عزلة المرأة

سبق أن ذكرنا أنه لم تُنه المرأة عن المشاركة في أي من أنشطة الحياة عندما تدعو الحاجة هذا بالإضافة إلى أنه لم يرد في القرآن أو السنة أمر بإمساكها في البيت. ومن ناحية أخرى، يتحدث الكتاب العزيز عن مجتمع إسلامي كثيراً ما يختلط فيه الرجل والمرأة معاً: "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَنْبَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَنْبَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا" (سورة النور ٢٤): الآيتان رقماً (٣٠) و(٣١)). وتعزز نفس الاستنتاج واحدة من أواخر ما نزل من القرآن: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ" (سورة الأحزاب ٣٣): الآية رقم (٥٩)). فلو لم تكن النساء يخرجن من بيوتهن، فلماذا إذن الحاجة لأن يطلب منهن ارتداء ثياب معينة وأين الداعي إذن لإيذائهن؟ ووفقاً لما ورد في أحد الأحاديث الشريفة، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله للنساء: "قَدْ أِذِنَ اللَّهُ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَوَائِجِكُنَّ" (البخاري ٤: ١٣؛ ٦٧: ١١٦). ولا يدل الأمر الموجه إلى زوجات النبي (صلى الله عليه وسلم) في الآية القرآنية على أنه يجب عليهن عدم الخروج لحوائجهن. وفيما يلي نص الآية موضوع النقاش: "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ

تَبَرُّجُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٣٣)). فمن الواضح أن هذا أمر للنساء بعدم إبداء زينتهن وإظهار مفاتهن خشية أن يثرن شهوات الشباب الجامحة. ولكن الآية لا يمكن أن تعني، كما أوضح النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه، أنه يحظر على النساء الخروج لقضاء حوائجن. فإظهار المفاتن شيء مختلف تماماً عن الخروج من أجل الحاجة. وبالتالي، ليس هناك في الإسلام عزلة للمرأة بمعنى إمساك المرأة في البيت لأن لها حرية الحركة لقضاء حوائجها أو لأداء أعمالها، شأنها شأن الرجل. فقط حوائج النساء خارج البيت أقل بوجه عام وأعمالهن، إلى حد كبير، مقصورة على المنزل.

النقاب

يدور السؤال التالي الذي يطرح نفسه في هذا الصدد عما إذا كانت النساء قد أمرن بارتداء النقاب عند اضطرارهن للخروج لحوائجن. وهذه الحوائج ربما تكون دينية أو دنيوية. ومن الأمثلة الهامة للحوائج الدينية المشاركة في صلاة الجماعة وأداء فريضة الحج. ولو كان ارتداء النقاب واجباً على المرأة، لنزل الأمر بأن ترتدي المرأة النقاب في هاتين المناسبتين المباركتين لأن هاتين المناسبتين تكون فيهما مشاعر الناس أظهر ما تكون، وبالتالي يجب فيهما تجنب كل ما يثير الشهوات. ورغم ذلك، فإن الأمر لم يقتصر على عدم وجود أمر لهن بارتداء النقاب فحسب، وإنما أيضاً كان من الممارسات المعترف بها أن تدخل النساء المساجد وسط جموع المصلين من الرجال غير منقبات (جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء الثامن عشر، ص. ٨٤).

ومن المعترف به حتى لدى الفقهاء أن النساء لا يجب عليهن أن يتنقبن أثناء أداء فريضتي الصلاة والحج. فقد ورد في شروط الصلاة أنه يجب ستر بدن المرأة كله إلا وجهها وكفيها (الهداية، الجزء الأول، ص. ٨٨، شروط الصلاة). ويضيف مؤلف كتاب الهداية قائلاً إن السبب في استثناء هذين العضوين يرجع إلى ضرورة إظهارهما. وبالنسبة لفريضة الحج، فقد ورد في السنة أمر صريح بعدم ارتداء المرأة النقاب أثناء الحج (البخاري ٢٥: ٢٣). كما أنه أيضاً من الحقائق المعترف بها أنه لم تكن توجد في المساجد في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) سائتر للفصل بين الجنسين. وكان الشيء الوحيد الذي يفصل بين الرجال والنساء هو وقوف النساء في صفوف منفصلة خلف الرجال. وخلاف ذلك، كانت النساء والرجال يجلسون في نفس الغرفة أو الفناء وكان الجنسان يضطران للاختلاط. وفي الحج، يوجد اختلاط أكبر بكثير بين الجنسين حيث تؤدي النساء جنباً إلى جنب مع الرجال الطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والتنقل من مكان لآخر، ورغم ذلك أمرن بعدم ارتداء النقاب.

وإذا لم تكن المرأة، كما هو معترف به لدى الجميع، ترتدي النقاب عندما كان هناك اختلاط بين الجنسين في المناسبات الدينية، في حين أن مجرد قدسية المناسبة كانت تدعو لارتداء النقاب، لو أن النقاب كان مفروضاً أصلاً، فإنه يستتبع ذلك بالضرورة ألا يُفرض عليها النقاب عند خروجها لقضاء حوائجها الدنيوية التي سوف يحول النقاب دون قضائها. أضف إلى ذلك أنه لم يرد في القرآن أو السنة أمر بارتداء النقاب. وفي الواقع، لم يكن من الممكن أن يعطى هذا الأمر في الوقت الذي يوجد فيه أمر للنساء بعدم ارتداء النقاب في الحج. ويدل الأمر بعدم ارتداء النقاب على أن النقاب كان يُرتدى فقط كعلامة تشير إلى المكانة أو العظمة ولذلك فرض عدم النقاب للمساواة بين الناس. ومهما كان السبب، فإن الأمر بعدم ارتداء النقاب في الحج هو دليل قاطع على أن ارتداء النقاب ليس أمراً أو سنة في الإسلام. وتبين بوضوح الآيات التي تطالب الرجال والنساء بغض البصر^{٣٣}؛ أنه عندما كان يضطر الجنسان للاختلاط لضرورة ما، لم تكن النساء منقيات وإلا لما كانت هناك حاجة لأن يغض الرجال أبصارهم. ولمزيد من التوضيح، يضاف أنه يجب على النساء أن "لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا". والجزء الذي يظهر حتماً هو الوجه والكفان، وهذا أيضاً رأي جمهور المفسرين (جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء الثامن عشر، ص. ٨٤؛ روح المعاني، الجزء السادس، ص. ٥٢).^{٤٤} كما يوجد أيضاً حديث يروى فيه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) استثنى الوجه والكفين من أعضاء الجسم التي يجب سترها: "عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رِقَاقٌ (يظهر منها الجسم) فَأَعْرَضَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ يَا أَسْمَاءُ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتْ الْمَحِيضَ لَمْ تَصْلُحْ أَنْ يَرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا وَهَذَا وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفَيْهِ" (أبي داود ٣١: ٣٠).

احتشام الملبس

كل ما أوجبه القرآن على النساء هو ارتدائهن ملابس محتشمة عند خروجهن من بيوتهن وعدم إظهارهن صدورهن. وهو ما توضحه الآية (٣١) في سورة النور (٢٤): "وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ". فقد كانت من بين الممارسات المرتبطة بإظهار المفاتن في الجزيرة العربية في الجاهلية

^{٣٣} انظر سورة النور (٢٤): الآيتين رقمي (٣٠) و(٣١) المستشهد بهما أعلاه.

^{٤٤} استشهد ابن جرير بثلاثة تفاسير مختلفة لعبارة "إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا"؛ ١. رأي ابن مسعود أن هذه العبارة يقصد بها زينة الثياب؛ ورأي ابن عباس، وسعيد، والضحاك، وعطاء، وقتادة، ومجاهد، وآخرين أنه يقصد بها الظاهر من الزينة الذي أبيض للمرأة أن تبديه، أي الكحل والخاتم والسوران والوجه؛ ورأي الحسن بأنه يقصد بما ظهر منها الوجه والثياب؛ ثم يضيف المفسر رأيه في الكلمات التالية:

ممارسة إظهار الصدر ومن ثم نزل الأمر بتغطيته. وعلى ذلك، وضع فرق بين ملابس النساء في بيوتهن وملبسهن عند ظهورهن أمام الناس؛ ففي الحالة الأولى سُمِحَ لهن بأن يكن على راحتهن في ملابسهن، ولكن أمام الناس يجب عليهن الاعتناء بمظهرهن حتى يدل مظهرهن على الاحتشام. وفي موضع آخر، يُطلب من النساء المسلمات ارتداء ملابس يميزهن عن النساء ذوات السمعة السيئة: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٥٩)). ويبدو أن الظروف الخاصة التي كانت سائدة آنذاك في المدينة المنورة هي التي اقتضت نزول هذا الأمر حيث كان المنافقون يتعرضون بالسوء للمرأة المسلمة الصالحة التي تخرج لأداء مصالحها ثم يبررون ذلك بأنهم كانوا يعتقدون أنها امرأة سيئة السمعة. وهو ما يشار إليه صراحةً في الآية التي تلي الآية السابقة: "لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٦٠)). والكلمة العربية جَلَبَابٌ معناها رداء ترتديه المرأة فوق ملابسها الأخرى أو غطاء رأس المرأة أو رداء تستر به المرأة رأسها وصدرها (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وربما يكون الجَلَبَابُ جزءاً من الملابس العادية أو ربما يكون رداء يرتدى فوق الثياب. وليس ارتداؤه مفروضاً في ظل جميع الظروف؛ وإنما هو نوع من الحماية عندما يكون هناك خوف من الأذى، وفي حالة كبيرات السن لا يرتدى الجلباب بالمرّة، كما ورد في موضع آخر: "وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ" (سورة النور (٢٤): الآية رقم (٦٠)).

الخصوصية

يولي الإسلام أهمية كبرى لخصوصية الحياة الأسرية. وبادئ ذي بدء، نهى القرآن بشدة عن دخول البيوت بدون استئذان: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا" (سورة النور (٢٤): الآية رقم (٢٧)). وفي موضع آخر، قال تعالى في كتابه العزيز: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْسُطُوا أَيْدِيَكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ إِذَا خَلْتُمْ بِبُيُوتِكُمْ بَيْنَكُمْ أَبْوَابُهَا مَكْتُوبَةً" (سورة النور (٢٤): الآية رقم (٢٧)). وفي موضع آخر، قال تعالى في كتابه العزيز: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْسُطُوا أَيْدِيَكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ إِذَا خَلْتُمْ بِبُيُوتِكُمْ بَيْنَكُمْ أَبْوَابُهَا مَكْتُوبَةً" (سورة النور (٢٤): الآية رقم (٢٧)).

"أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال عني بذلك الوجه والكفان يدخل في ذلك إذا كان كذلك الكحل والخاتم والسوار والخضاب. وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك بالتأويل لإجماع الجميع على أن على كل مصل أن يستر عورته في صلته وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في صلاتها وأن عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدننها إلا ما روي عن النبي أنه أباح لها أن تبديه من ذراعها إلى قدر النصف. فإذا كان ذلك التعليق من جميعهم إجماعاً كان معلوماً بذلك أن لها أن تبدي من بدننها ما لم يكن عورة... لأن ما لم يكن عورة فغير حرام إظهاره. وإذا كان لها إظهار ذلك كان معلوماً أنه مما استثناه الله تعالى ذكره بقوله إلا ما ظهر منها" (جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء الثامن عشر، ص. ٨٤).

قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ" (سورة النور (٢٤): الآية رقم (٥٨)). كما أمر القرآن أيضاً باحترام خصوصية النبي (صلى الله عليه وسلم): "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٥٣)). ولا تهدف الكلمات التي تختتم بها الآية فحسب لاحترام الخصوصية، وإنما تقدم أيضاً قاعدة ترشدنا لإقامة علاقة أفضل بين الزوج والزوجة. وفي الواقع، فإن جميع الأحكام سالفة الذكر المتعلقة بالخصوصية تهدف إلى خلق جو أفضل من السلوكيات بين الجنسين.

الاختلاط بين الجنسين

في معترك الحياة، لا يمكن تجنب الاختلاط بين الجنسين، وقد أباح الإسلام ذلك الاختلاط حتى في أداء الشعائر الدينية، كما في الصلاة والحج. وفي كل تلك المناسبات التي تستوجب الاختلاط بين الجنسين، أوجب القرآن على النساء الظهور في أبسط ثياب أو ارتداء جلباب يستر زينتهن كما أوجب على الجنسين في الوقت نفسه غض البصر. ويُنهى عن اختلاط الجنسين بدون داعٍ. وتتهى بعض الأحاديث الشريفة عن خلوة رجل ليس *نا* محرم (قريباً يحرم الزواج به) بالمرأة إلا في وجود ذي محرم (البخاري ٦٧: ١١٢)؛ ولكن في حضور الناس الآخرين أو عندما يكون الفرد أمام الناس، لا جناح على الرجل أن يخلو بالمرأة (البخاري ٦٧: ١١٣). ولا يمكن بوجه عام تتبع اختلاط الجنسين في المناسبات الاجتماعية في أوائل الإسلام رغم أن هناك حالات كانت فيها المرأة تخدم ضيوف زوجها الرجال (البخاري ٦٧: ٧٨). وقد كانت هذه هي حالة الوليمة التي تخدم فيها العروس الضيوف، إلا أنه لا يمكن القول ما إذا كان هذا حدث قبل أم بعد نزول سورة النور (٢٤). وفي الواقع، فإن هذا يتوقف، إلى حد كبير، على العادات الاجتماعية للناس، كما أنه لا يمكن وضع قواعد صارمة وصلبة لتحديد الحدود المسموح فيها بالاختلاط بين الجنسين. فالغاية النبيلة التي وضعها الإسلام نصب عينيه هي النهوض بالمكانة الأخلاقية للمجتمع والتقليل بقدر الإمكان من فرص إقامة علاقات غير شرعية بين الجنسين حتى يصبح البيت مكاناً يسوده الهدوء وراحة البال بالنسبة للزوج، والزوجة، والأبناء.

القسم الخامس - نكاح الرقيق

الإسلام ألغى البغاء وأدخل الزواج

كان الرق نظاماً معترفاً به لدى جميع الناس قبل ظهور الإسلام. ويرجع إلى الإسلام الفضل في وضع المبادئ، التي لو كان تم تطويرها بشكل صحيح، لأدت إلى القضاء على الرق نهائياً. ولكنه ليس عمل يوم، ومن ثم فطالما أن نظام الرق ما زال موجوداً، فقد كان يجب وضع أحكام للرقيق تجعل منهم مواطنين صالحين مثل الأحرار. فقبل الإسلام، كانت الإماء يفين إما بغرض إشباع شهوات المولى أو كسب المال له من خلال البغاء. وقد وضع الإسلام حداً لهاتين الممارستين السيئتين على الفور ونزل الأمر بزواج الأحرار من العبيد، الذكور والإناث على حد سواء: "وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ... وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" (سورة النور (٢٤): الآيتان رقمًا (٣٢) و(٣٣)). وقد اقترن الأمر بنكاح العبيد والإماء وضع حداً للممارستين السيئتين اللتين كانتا سائدتين في وبالتالي فإن الأمر الصريح بنكاح العبيد والإماء وضع حداً للممارستين السيئتين اللتين كانتا سائدتين في الجزيرة العربية قبل الإسلام بسبب عدم نكاح الإماء. ولم يرد استثناء من هذا الأمر سواء كان في الكتاب أو السنة. ويمكن تنفيذ الأمر بإحدى الطرق الثلاث التالية: بزواج (١) العبد من الأمة؛ (٢) الحر من الأمة؛ (٣) المولى من الأمة. ليس هناك خيار رابع. وفي يومنا هذا، حيث تم القضاء على نظام الرق في العالم المتحضر أجمع، ليس هناك ضرورة للخوض في تفاصيل زواج أول فئتين. ورغم ذلك، يمكن تناول الفئة الثالثة من الزواج بإيجاز لأنه يوجد سوء فهم شائع بأن الإسلام أباح التسري.

الإسلام نهى عن التسري

التسري هو إقامة علاقة جنسية منتظمة مع امرأة لا تحتل المكانة الشرعية للزوجة؛ وبعبارة أخرى، الاحتفاظ بامرأة في مكانة الزوجة دون الزواج بها. وهناك انطباق عام بأن الإسلام رخص

^{٥٠} الكلمة العربية /إن لها في اللغة العربية معنيان: /إذا وعندما. والسياق هنا لا يحتمل كلمة /إذا" لأن المعنى الذي سوف نتقله عندئذ هو أنه إذا كانت الإماء يردن تحصناً، فلا يجوز إكراههن على البغاء. وهو ما يقود إلى استنتاج واضح بأنه إذا لم يكن يردن تحصناً، فإنه يجوز إكراههن على البغاء، وهو استنتاج مناقض لذاته. ومن ثم، فإن المعنى هنا هو أنه بما أن طبيعة المرأة، سواء كانت حرة أم أمة، هي التحصن، فإنه يجب عدم إكراه الإماء اللاتي يكنن تحت تصرف مواليهن على البغاء بعدم السماح لهن بالزواج. ويرى أحد الكتاب المعاصرين أنه في الجزيرة العربية "كان البغاء متصلاً لدرجة أنه كان من الصعب اقتلعه من جذوره في الحال" (علم الاجتماع الإسلامي، للكاتب ليفي، المجلد الأول). ويرجع هذا الرأي إلى خطأ في تفسير ألفاظ القرآن. كما توضح الأحاديث أيضاً معنى هذه الآية لأنه توجد أحاديث كثيرة تبين أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نهى صراحة عن البغاء والأجور التي تأخذها البغايا (البخاري ٣٤: ١١٣؛ ٣٧: ٢٠؛ ٦٨: ٥١؛ أبي داود ٢٢: ٣٩، وأحاديث أخرى).

بلا قيود للفرد بأن يتخذ أي عدد يشاء من السراري طالما أن الشَّرِيَّة أمة أو أسيرة حرب وليست حرة. وقد كان العرب في الجاهلية يمارسون التسري في الجزيرة العربية وربما كان بعض المسلمين يمارسونه حتى نزول الآية المستشهد بها أعلاه. ورغم ذلك، فإن هذه الآية وضعت حداً للتسري. فقد نزل أمر صريح بوجوب نكاح جميع العبيد والإماء. وإذا اتخذ مولى الأمة منها سُرِّيَّة بعد ذلك، فإن ذلك يتعارض مع الأمر القرآني. ولم يستثن القرآن من ذلك المولى؛ ومن ناحية أخرى، فإنه يلقى بمسؤولية تزويج العبيد والإماء على عاتق مواليتهم. ولم يعد ممكناً لمولى الأمة أن يحتفظ بها كسُرِّيَّة في الوقت الذي أمره فيه القرآن بتزويجها وإن فعل ذلك، فإن فعله، سواء كان ناجماً عن جهل بالأمر القرآني أو إخلال متعمد به، يعتبر غير صحيح شرعاً.

وقد استدل البعض على إباحة التسري من عبارات معينة استخدمت في القرآن. وأهم هذه هي العبارة التالية: "وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ." (سورة المؤمنون ٢٣): الآيتان رقماً (٥) و(٦)؛ سورة المعارج (٧٠): الآيتان رقماً (٢٩) و(٣٠)). هذه الآيات هي جزء من وصف تفصيلي للمؤمنين الحقيقيين وتسبقها وتليها آيات أخرى تستعرض الصفات العديدة للمؤمنين الحق. وتطبق هذه الصفات على الرجال والنساء على حد سواء، حيث توصف النساء في كلمات واضحة بأنهن يتحلين بكل الصفات الطيبة والحميدة التي يتحلى بها الرجال (سورة الأحزاب ٣٣): الآية رقم (٣٥)). ومن ثم، فلو كان وصف المؤمنين المذكور أعلاه، الذي ورد مرتين في القرآن ليس أكثر، يبرر للرجل أن يجامع إماءه، فإنه يبرر أيضاً للمرأة أن تجامع عبيدها. ولكن ما من فرد استنتج من قبل ذلك الاستنتاج غير المعقول من تلك الكلمات. فالكلمة العربية المستخدمة هنا هي *فُرُوج* (جمع *فُرَج*)، وهو العورة التي يعاب على الشخص إظهارها (المعجم العربي - الإنجليزي للين). ومن ثم، فإن حفظ الفرج لا يدل على حفظه من الجماع فحسب وإنما يدل أيضاً على الامتناع عن إظهار العورات. ولكن مُنح للرجال والنساء قدر معين من الحرية بهذا المعنى الأخير في حضور إيمانهم وعبيدهم الذين يجب عليهم القيام بخدمتهم في جميع الأوقات. ولكن ربما تختلف الأفكار عن الاحتشام جداً لدرجة أن هناك أشخاصاً في جميع الدول المتحضرة لا يرون عيباً في التعري أمام الآخرين؛ ومن ناحية أخرى، فإنهم يتباهون بالتعري حتى أمام الناس ويحاولون أحياناً قيادة مسيرات العرة من الرجال والنساء. تلك الممارسات تتنافى مع الأفكار الإسلامية السائدة عن الاحتشام. ولكن حتى لو سلمنا جدلاً بصحة ما يستدل عليه من هذه الكلمات، أي أنه أبيض للمسلمين اتخاذ السراري، فإن ذلك الاستدلال يفقد وزنه عندما نضع نصب أعيننا أن السورتين اللتين وردت فيهما هذه العبارة تعتبران من أوائل التنزيل المكّي عندما لم يكن الإسلام أجرى بعد إصلاحاته، وأن الإنن، إن كان يوجد، باتخاذ السراري ألفتة الإصلاحات التي أجريت في المدينة عندما نزل أمر صريح بوجوب تزويج جميع الإماء. وإذا كان يجب تزويج الأمة، فإنه ليس للمولى بالتأكيد حق المتعة بها.

كما يجب أيضاً أن نضع نصب أعيننا أنه لم يرد في الكتاب أو السنة حق المولى في جماع أمته. وبعبارة أخرى، فإنه لم يعترف في أي من المواضع بأن الملكية تبيح الجماع. وإنما الشيء الوحيد الذي يبيح الجماع هو عقد مشهود عليه على نحو صحيح يبرم بين الطرفين بتحمل التبعات المترتبة على ذلك العقد مع أداء المهر للمرأة وبذلك يكون الزواج، سواء كان بالأحرار أم بالرقيق، هو الوسيلة الوحيدة التي تبيح الجماع.

ومن الواضح أنه عندئذ يمكن للمولى أن يجامع أمته وفقاً للأحكام الموضوعية في القرآن بشأن زواج الحر من الأمة: "وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَنِ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ... ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٥)). وشروط الزواج الموضوعية في هذه الحالة هي نفس شروط الزواج في حالة الحرة مع إضافة واحدة، هي وجوب رضا مولى الأمة بالإضافة إلى رضا الأمة نفسها. كما يجب أن يؤدى المهر إليها كما في حالة الحرة، رغم أن العيب سيكون أخف. وفي الآية رقم (٣) من سورة النساء (٤)، يباح أن يتخذ من الأمة زوجة، ولكن من خلال الزواج الصحيح فقط يمكن أن تصبح زوجة^{٤٦}، كما هو موضح فيما بعد في الآية رقم (٢٥) في سورة النساء (٤).

وهناك آية أخرى وردت في القرآن ذات صلة بالموضوع. وفيما يلي نص الآية الكريمة: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَمْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ... وَأَمْرًا مُمْتَنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٥٠)). يذكر هنا أنه قد أُجِّلَ للنبي (صلى الله عليه وسلم) بصفة خاصة كل زوجاته وما ملكت يمينه من أسيرات الحرب. ولكن يجب قراءة كلمات الآية جنباً إلى جنب مع الآية رقم (٣) في سورة النساء (٤) التي ورد فيها أن الإذن بتعدد الزوجات اقتصر على أربع زوجات فقط. وعلى ذلك، وَجَبَ على المؤمنين الذين كان في عصمتهم أكثر من أربع زوجات تطليق العدد الزائد، ولكن أِذِنَ للنبي (صلى الله عليه وسلم) بصفة خاصة أن يبقِي على جميع زوجاته وما ملكت يمينه من الأسيرات، رغم أن عددهن كان يزيد عن أربع. وعبارة "مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ" لا تختلف عن عبارة "مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" حيث تشير الأولى إلى شخص واحد في حين تشير الثانية إلى عدة أشخاص. والسؤال الآن هو: من

^{٤٦} تبين الآية في البداية أنه يجوز للرجل في حالات استثنائية أن تكون في عصمته أربع زوجات ثم تضيف أنه إن خاف ألا يعدل عندئذ يتزوج بواحدة أو (إن لم يجد امرأة حرة كزوجة عندئذ يجوز له أن يتزوج) مما ملكت يمينه. وبالرجوع إلى النص الأصلي يتبين لنا أن كلمة واحدة وعبارة مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ هما مفعولان للفعل انكِحُوا.

هن النساء اللاتي يندرجن في فئة "مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ"؟ هل هن نساء دخل بهن النبي (صلى الله عليه وسلم) فقط لأنهن وقعن في يديه أسيرات؟ وبعبارة أخرى، هل كن سراري أبيضت معاشرتهن بسبب حق الملكية؟ والإجابة على هذا السؤال تتلخص في أنه لم يكن يوجد مثل ذلك الشيء في بيت النبي (صلى الله عليه وسلم). فالنبي (صلى الله عليه وسلم) لم يتخذ من أسيرات الحرب سوى زوجتين، هما صفية من اليهود وجويرية من بني المصطلق. ولم تكونا سراري، وإنما كانتا زوجتين شرعيتين تزوجهما النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفس الطريقة الكريمة التي تزوج بها الأخريات. وإذا كان هناك أي فرق، فإنه يتمثل في أن حريتهما كانت مهرهما. وعندما تقرأ هذه الآية جنباً إلى جنب مع السيرة النبوية فإنها تبديد الشك حول معنى عبارة "مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ" التي وردت في القرآن. فقد كانت هاتان المرأتان من بين أسيرات الحرب، ولكنهما كانتا زوجتين شرعيتين. ومن ثم، فإن الفرق الوحيد بين الأزواج و"مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ" هو أن الأزواج كن حرائر وقت الزواج بهن في حين أن "مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ" كن أسيرات، ولكن كلاهما زوجات شرعيات.

وقد استخدمت عبارة "مَا مَلَكَتْ يَمِينُكُمْ" مرة ثانية في نفس الآية فيما يتصل بالحديث عن المؤمنين عامة: "قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ". مما يدل على أنه يوجد بالفعل حكم ما في القرآن بشأن الزوجات وحكم آخر بشأن "مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ". وقد ورد الحكم بشأن الزوجات في الآية رقم (٣) في سورة النساء (٤) وفي مواضع أخرى، ولكن الحكم الوحيد الذي ورد بشأن ما ملكت أيمانكم هو الذي ورد في الآية رقم (٢٥) في سورة النساء (٤) حيث توضع الشروط التي يتم وفقاً لها الزواج من أسيرات الحرب. ولم يرد أي حكم بشأنهن في موضع آخر في القرآن بخلاف ذلك الذي ورد في الآية رقم (٣٢) من سورة النور (٢٤) الذي يفرض على كل من يملك الإماء أو الأسيرات واجب تزويجهن. ومن ثم، يجوز فقط الزواج بالأسيرات أو الإماء وغير مباح إقامة أي نوع آخر من العلاقة الجنسية معهن.

وتختلف حالة مولى الأمة الذي يريد هو نفسه أن تكون له علاقة جنسية مع أمته في جانب واحد، هو أنه، بصفته مولاها، لا يحتاج لإن أي شخص آخر. ولكن يجب أن يعقد زواج شرعي بينهما. وتوضح أسوة النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه عندما ترفع أسيرة الحرب لمنزلة الزوجة، فإنها تعتق أيضاً. وبهذه الطريقة، اتخذ صلى الله عليه وسلم من أسيرتي حرب زوجتين له. وبذلك كان صلى الله عليه وسلم أسوة في ذلك الأمر وقد أمر المؤمنون بالتأسي (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٢١) والافتداء به. وتصرفه بهذه الطريقة قائم بلا شك على تفسيره للآية القرآنية ويجب على المسلمين كافة الأخذ بهذا التفسير الذي يوجد الدليل على صحته في تصرفه صلى الله عليه وسلم. فقد هداه الله عز وجل إلى التصرف بهذه الطريقة، والمسلم الذي لا يتأسى به صلى الله عليه وسلم إنما يتبع هواه ولا يتبع هدى ربه. ولكن الأكثر من ذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أكد

أنه يجب على مولى الأمة أن يعلمها ويعتقها ويتزوجها: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلِيهِ وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أُمَّةٌ^{٤٧} فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ" (البخاري ٣: ٣١؛ ٤٩: ١٤، ١٦؛ ٥٦: ١٤٥؛ ٦٠: ٤٨؛ ٦٧: ١٣؛ مسلم ١٦: ١٤؛ أبي داود ١٢: ٥، وأحاديث أخرى). وهذا الحديث الذي تكرر في صحيح البخاري ما لا يقل عن ست مرات وقبله المحدثون المؤلفون للصحاح الستة يعتبر حديثاً صحيحاً على درجة عالية جداً من الوثوقية. وإذا كانت كلماته جاءت على سبيل الاستحباب فقط، فإنها تبين رغم ذلك طبيعة الإصلاح الذي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يرغب في إجرائه، وعندما تقترن بسنته صلى الله عليه وسلم فإنها تقودنا إلى استنتاج معين وهو أن الهدف الأخير الذي كان صلى الله عليه وسلم يسعى لتحقيقه هو رفع الإمام لنفس الدرجة من المساواة مع الحرائر. ولكن الاستحباب بالفعل ذو طابع إلزامي. فالمقصود ليس أن من يؤمن بنبيه جاز له ألا يؤمن بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، أو أن العبد الذي يؤدي حق مولاه عليه يجوز له ألا يؤدي حق ربه عليه. وإنما الأجر المضاعف يرجع إلى حد كبير إلى أنه يتغلب على إغراء شديد. فمن يؤمن بنبي واحد يعتقد أن هذا يكفي، ولكن هذا ليس صحيحاً بالفعل؛ فالإيمان بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مطلوب أكثر من ذلك لأن من يؤمن به صلى الله عليه وسلم يؤمن بسائر الأنبياء أيضاً. وبالمثل، فإنه لا يكفي أن يؤدي العبد حق مولاه عليه؛ وإنما من الضروري أكثر من ذلك أن يضع نصب عينيه حق ربه وسيدته العظيم عليه. وبالتالي، فإنه حتى إذا أحسن المولى معاملة أمته وأحسن تعليمها، فإن هذا لا يكفي؛ وإنما يجب عليه أن يعتقها ويرفعها لمنزلة الزوجة إذا كان يرغب في أن يقيم علاقة جنسية معها.

وقد أجمع القرآن، والسنة النبوية، والحديث على وجوب تزويج الإمام؛ وليس هناك استثناء من هذه القاعدة سواء كان زوجها عبداً أم حراً أم المولى نفسه. و فقط في الفقه وضع الحكم بأنه يجوز للمولى أن يعاشر أمته بسبب حق ملكيته لها. ولكن حتى الفقهاء يؤكدون أنه لا تجوز معاشره الأمة إلا إذا تم استيفاء جميع الشروط الواجب استيفاؤها لو تم تزويجها. فعلى سبيل المثال، يجب أن تكون هذه الأمة إما مسلمة أو كتابية وليست متزوجة بالفعل. هذان أيضاً شرطان يجب توافرها لصحة الزواج. وكما أنه لا يجوز للرجل الجمع بين الأختين في نفس الوقت، فإنه لا

^{٤٧} في رواية واحدة فقط من روايات هذا الحديث (البخاري ٣: ٣١)، تضاف في بعض نسخ صحيح البخاري عبارة "كَانَ يَطْوُهَا" بعد كلمة أُمَّةً، ولكن النسخ الموثقة من البخاري لا تحتوي على هذه العبارة. ويتبين لنا أن هذه الإضافة مدسوسة على النص من أن الإمام البخاري روى هذا الحديث خمس مرات بأسانيد مختلفة ولم ترد هذه العبارة في أي رواية في كل هذه المواضع، كما أن هذه الإضافة لم ترد في صحيح مسلم وسنن أبي داود. ولكن حتى لو كان النبي (صلى الله عليه وسلم) نطق بها، فإنه يشير إلى الأوصاف التي كانت سائدة قبل إجراء هذا الإصلاح.

يجوز للمولى، وفقاً لما جاء في الفقه، أن يعاشر أمتين أختين أو تربطهما علاقة تحرم الجمع بينهما كزوجتين. مما يدل على أنه رغم أن الفقه يجيز المعاشرة بسبب الملكية فإنه يقر بأن تلك المعاشرة بمثابة زواج.

القسم السادس - الطلاق

الزواج والطلاق

رغم أن الزواج، وفقاً للدين الإسلامي، ليس سوى عقد مدني، فإن الحقوق والمسؤوليات المترتبة عليه تبلغ من الأهمية بالنسبة لخير البشرية ما يولي لهذا الرباط قدراً كبيراً من القدسية. ولكن، رغم قدسية رباط الزواج، فإن الإسلام يقر بضرورة إفساح الطريق، في حالات استثنائية، أمام حل هذا الرباط. وربما باستثناء المذهب الهندوسي، فإن الجميع قد أقروا بضرورة السماح بالطلاق. ووفقاً للشريعة اليهودية، فإن حق الطلاق يخص الزوج الذي يمكنه ممارسته حسيماً يشاء. ويقر المذهب الكاثوليكي حق الطلاق فقط في حالة الخيانة الزوجية من جانب أي من الطرفين، ولكن يمنع الطرفان اللذان تم تطليقهما من الزواج ثانية. ووفقاً للمذهب الهندوسي، فإنه لا يمكن حل عقدة الزواج طالما أنه انعقد. وقد أجرى الإسلام عدة إصلاحات في الطلاق. حيث قيد من حق الزوج في الطلاق في حين أقر حق الزوجة في الطلاق.

إباحة الطلاق في حالات استثنائية

الكلمة العربية الطلاق في اللغة هي التخلية من الوثاق (المفردات في غريب القرآن). وفي اصطلاح الفقهاء، يسمى الطلاق خُلْعاً (والخلع في اللغة هو خلع أو نزع الشيء) عندما تطلبه الزوجة. ويتبين لنا من القرآن والسنة أنه رغم إباحة الطلاق، فإنه لا يجوز ممارسة حق الطلاق إلا في حالات استثنائية. فيروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "مَا أَحَلَّ اللَّهُ شَيْئاً أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الطَّلَاقِ" (أبي داود ١٣: ٣). ويروي ابن عمر (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "أَبْغَضُ أَحْلَالَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقِ" (المرجع السابق). كما أقر القرآن أيضاً إصرار النبي (صلى الله عليه وسلم) على عدم تطليق زيد زوجته رغم الشقاق الذي دام بينهما فترة طويلة. ويشار إلى هذه الواقعة في الكلمات التالية: "وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ (أي لا تطلقها) وَأَتَقِ اللَّهَ" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية رقم (٣٧)). ويوصف الإمساك عن

الطلاق في الآية الكريمة بأنه تقوى. وفي موضع آخر، ينهى عن الطلاق في الكلمات التالية: "فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ (أي زوجاتكم) فَعَسَى أَنْ تَكَرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٩)). كما تقترح أيضاً الحلول لتفادي الطلاق أطول وقت ممكن. "وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا (أي الزوج والزوجة) فَاْبْعَثُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٣٥)). وبسبب هذه التعاليم القرآنية، ذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الطلاق هو أبغض الحلال. وبسبب هذا، فإنه رغم السهولة، التي يقع بها الطلاق، فإنه قلما يقع الطلاق بين المسلمين بالمقارنة بحالات الطلاق الكثيرة في الدول المسيحية. وقد تشكلت عقلية المسلم بحيث تواجه صعاب الحياة الزوجية جنباً إلى جنب مع متعتها وتفادي إنهاء العلاقات الأسرية أطول وقت ممكن وعدم التحول إلى الطلاق إلا كحل أخير.

مبدأ الطلاق

يتبين لنا مما سبق أنه لا يجب أن يكون هناك سبب وجيه للطلاق فحسب، وإنما يجب أيضاً أن تكون جميع وسائل الإصلاح بين الزوجين استنفدت قبل اللجوء إلى هذا الإجراء الأخير. وتشكل الفكرة الشائعة عن تطليق الزوج المسلم زوجته بمجرد نزوة تشويهاً شديداً لنظام الطلاق الإسلامي. ولكن رغم أن القرآن أشار إلى العديد من الأسباب التي ربما تستوجب الطلاق، فإنه لم يحصِ جميع الأسباب ولم يقصرها على حالات محددة. وهذه الأسباب تختلف تماماً حسب تغير أوضاع الناس والمجتمع.

ومبدأ الطلاق المشار إليه في القرآن والذي في الواقع يشمل، إلى حد كبير أو محدود، جميع الأسباب، هو قرار بعدم مواصلة الحياة الزوجية. وفي الواقع، فإن الزواج نفسه ليس سوى اتفاق على الحياة الزوجية، وعندما يجد أي من الطرفين نفسه غير قادر على مواصلة تلك الحياة، فإنه يترتب على ذلك حتماً الطلاق. ولكن هذا لا يعني بالطبع أن كل خلاف بين الزوجين سوف يؤدي إلى الطلاق؛ وإنما فقط الخلاف الذي يتعذر معه مواصلة الحياة الزوجية. ويسمى هذا الخلاف في القرآن *شِقَاقًا* (والكلمة مشتقة من الشق وهو تقسيم الشيء إلى نصفين). ولكن حتى الشقاق لا يعطي لأي من الطرفين الحق في الطلاق إلا إذا استنفدت جميع إمكانيات الإصلاح. ومن ثم، يوصف مبدأ الطلاق في القرآن في العبارات التالية: "وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَاْبْعَثُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٣٥)). وفيما بعد، يُضَافُ قوله تعالى: "وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٣٠)).

ولا تعرض هذه الآية أمامنا مبدأ الطلاق فحسب، وهو الشقاق أو الخلاف الذي يتعذر معه مواصلة الحياة الزوجية، وإنما تعرض أيضاً للإجراء الواجب اتباعه عندما يُخشى انقطاع العلاقة الزوجية. وهنا يُوضَع الجنسان على قدم المساواة التامة. حيث تدل عبارة "شِقَاقَ بَيْنِهِمَا" على أنه إما الزوج أو الزوجة ترغب في فسخ عقد الزواج ومن ثم يجوز لأي من الطرفين أن يطلب الطلاق عندما يتعذر على الطرفين مواصلة الحياة معاً في وفاق. وفي الإجراءات الواجب اتباعها، يجب تمثيل الزوج والزوجة على قدم المساواة؛ حيث يعين حكم من أهله وحكم من أهلها. ويُبلَغ الحكمَان بأن يحاولا إزالة الخلافات والإصلاح بين الطرفين. وإذا تعذر الإصلاح، يلي ذلك الطلاق.

وسوف يتبين لنا أن المبدأ المطروح هنا بشأن مسألة الطلاق هو مبدأ شامل. فجميع أسباب الطلاق تتوقف على شرط أن يتعذر على أحد الطرفين التوافق مع الآخر. وإذا كان كلا الطرفين يرغبان في العيش معاً في وفاق، فإنه ما من قوة على وجه الأرض يمكنها أن توقع الطلاق؛ ولكن إذا وجد أي من الطرفين نفسه غير قادر على العيش في وفاق مع الطرف الآخر، فإنها سوف تكون حالة شقاق.

وقد ينجم هذا الشقاق عن عدة أسباب أو عن سلوك أي من الطرفين؛ فعلى سبيل المثال، إذا أساء أي منهما التصرف أو إذا كان أي منهما قاسياً باستمرار مع الآخر، كما يحدث أحياناً، أو إذا بلغ عدم توافق الطباع حد أنه يتعذر عليهما الحياة معاً في وفاق. ولأول وهلة، ربما يبدو كما لو كان الطرفان يمنحان حرية أكثر من اللازم للسماح لهما بإنهاء عقد الزواج، حتى لو لم يكن هناك سبب للطلاق سوى عدم توافق الطباع، ولكن من المؤكد أنه إذا بلغ الخلاف بين الزوج والزوجة الحد الذي يحول دون مواصلة الحياة الزوجية، فإنه من الأفضل لهما، ولأبنائهما، وللمجتمع عامةً، أن ينفصلا وليس أن يُكرها على الحياة معاً. فما من بيت جدير بأن يطلق عليه هذا الاسم إذا كان يسوده الشجار وليس الهدوء؛ كما أن الزواج تتعدم منفعة إذا لم تكن هناك شرارة حب متبقية بين الزوج والزوجة. ومن الخطأ أن نعتقد أن تلك الحرية كثيراً ما تززع الاستقرار الأسري الناجم عن الزواج، لأن الزواج ينعقد كعلاقة دائمة ومقدسة قائمة على الحب بين الرجل والمرأة، وليس الطلاق سوى علاج عندما لا يحقق الزواج الغاية المرجوة منه.

حق الزوجة في الطلاق

سوف يتبين لنا أن القرآن وضع الطرفين على قدم المساواة في مسألة الطلاق. وهو ما تبينه السنة بمزيد من الوضوح. فيروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) تزوج امرأة تدعى أميمة أو ابنة الجون

وعندما دخل عليها، استعادت بالله منه، أي أرادت الطلاق منه، فطلقها صلى الله عليه وسلم وأرسلها إلى أهلها ومعها بعض الهدايا (البخاري ٦٨: ٣). وهناك حالة أخرى يروى فيها أن امرأة ثابت بن قيس جاءت إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت له: "يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَا أَعْتَبُ عَلَى ثَابِتٍ فِي دِينٍ وَلَا خُلُقٍ وَلَا كَيْفٍ لَا أُطِيقُهُ"^{٤٨}، فقال لها النبي (صلى الله عليه وسلم): "فَتَزِدِينَ عَلَيْهِ حِدِيقَتَهُ (التي أعطاها لها على سبيل المهر)؟" وعندما تلقى النبي (صلى الله عليه وسلم) رداً بالإيجاب، أرسل إلى ثابت وطلب منه أن يسترد حديقته ويطلق زوجته (البخاري ٦٨: ١١). وبكفي هذان المثالان لتوضيح أن للزوجة الحق في طلب الطلاق بناءً على نفس الأسباب التي يجوز للزوج تطليق زوجته استناداً إليها.

وليس حق الزوجة في طلب الطلاق معترفاً به في القرآن والسنة فحسب، وإنما أيضاً في الفقه. واصطلاحاً، يطلق على حق الزوجة في الطلاق برد المهر الذي أخذته لفظ *خُلع* ويستند هذا الحق إلى الحديث المستشهد به آنفاً وإلى الآية القرآنية التالية: "الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فِإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ" (سورة البقرة ٢: الآية رقم ٢٢٩). ويقصد بإقامة "حُدُودِ اللَّهِ" هنا تحقيق غاية الزواج أو أداء الواجبات التي تفرضها العلاقة الزوجية. وبالتالي، فإن الطرف الذي يريد الطلاق هو الذي يتحمل المهر؛ فإذا كان الزوج هو الذي يريد أن يطلق الزوجة، يكون المهر من حق الزوجة؛ وإذا كانت الزوجة هي التي تريد الطلاق، يكون المهر من حق الزوج. ولكن الحكمين المشار إليهما في الآية رقم (٣٥) في سورة النساء (٤) والمشار إليهما أيضاً في قوله تعالى "فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ" هما اللذان يحددان ما إذا كان الزوج أم الزوجة هي المسؤولة عن الشقاق وأي منهما من حقه المهر.

كما يكون للزوجة أيضاً حق الطلاق إذا كان الزوج مفقود الخبر، أي اختفى ولا يمكن الاتصال به؛ لأنه رغم عدم وجود شقاق في هذه الحالة، فإن الزوج غير قادر على أداء واجباته الزوجية. ولم يرد في القرآن أو السنة نص محدد يبين المدة التي يجب على الزوجة أن تنتظرها في هذه الحالة. وفي هذه النقطة، تجاوز المذهب الحنفي حدود المعقول عندما أوجب على الزوجة أن تنتظر لمدة تتراوح ما بين ١٢٠-١٠٠ سنة، وفقاً لما ذهب إليه الإمامان أبو حنيفة وأبو يوسف (الهداية، الجزء الأول، ص. ٥٩٨، ٥٩٩). وأوجب المذهب الشافعي على الزوجة أن تنتظر لمدة سبع سنوات، في حين أنه وفقاً للإمام مالك، يجب عليها الانتظار لمدة أربع سنوات (الهداية، الجزء الأول، ص. ٥٩٧). وقد اتفق الإمام أحمد بن حنبل والشيعية في الرأي مع الإمام مالك. وهذا رأي معقول أكثر من رأي الأحناف. وقد بوب الإمام البخاري باباً في المفقود (البخاري ٦٨: ٢٢) لم يرد فيه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أي

^{٤٨} وردت في إحدى الروايات الكلمات التالية: "وَلَكَيْتِي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ" وفي رواية أخرى: "لَا أُطِيقُهُ".

حديث حول هذا الموضوع بالذات، ولكنه يستشهد فيه برأي ابن المسيب الذي وفقاً له يجب على الزوجة الانتظار عامًا على الأقل إذا كان الشخص مفقوداً أثناء القتال؛ ويضاف حديث يروى فيه أن ابن مسعود ظل يبحث عن زوج جارية له لمدة عام ثم اعتبره مفقوداً وهذه لم تكن حالة مفقود في القتال. وفي ظل الأوضاع الحالية التي يسهل فيها الاتصال، يعتبر عام واحد مدة انتظار كافية للمفقود.

حق الزوج في التطلاق

رغم أن القرآن يشير إلى أن للزوج حق التطلاق، فإنه يفرض قيوداً على ممارسة هذا الحق. ويذكر الإجراء التالي الواجب اتخاذه قبل الطلاق في كلمات واضحة: "وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأُتِعْتُمَا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٣٥)). "وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مِّنْ سَعْتِهِ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (١٣٠)). ويتبين لنا من الآيات أنه في كل الخلافات التي تنشأ بين الزوج والزوجة والتي يُخشى أن تؤدي إلى شقاق، يجب أن يُعَيَّنَ حكمان من أهل الطرفين. ويطلب منهما في البداية أن يحاولا الإصلاح بين الطرفين، وإذا تعذر ذلك يقع الطلاق. ومن ثم، فرغم أن الزوج هو الذي يطلق، فإنه ملزم بحكم الحكمين مثل الزوجة. مما يدل على أنه ليس للزوج الحق في فسخ الزواج حسب رغبته. وإنما يجب في البداية أن يحال النزاع إلى حكيمين ويكون حكمهما ملزماً للطرفين. فيروى أن الخليفة علياً (رضي الله عنه) قال لزوج، كان يعتقد أنه له وحده حق الطلاق، إنه يجب عليه أن يرضى بحكم الحكيمين اللذين يعينان بموجب هذه الآية (التفسير الكبير للرازي، الجزء الثالث، ص. ٣٢٠). ويروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) تدخل ولم يجز طلاق زوج، وبذلك أعاد العلاقة الزوجية إلى ما كانت عليه (البخاري ٦٨: ١، ٢). ورغم أن هذه بلا شك مسألة إجرائية، فإنها تبين أن للسلطة التي ينصها القانون حق التدخل في مسائل الطلاق. والسؤال الوحيد الذي يطرح نفسه الآن يدور حول الإجراء الواجب اتخاذه عندما يعيش المسلمون في ظل حكم غير إسلامي. وفي تلك الحالة، فإنه إذا لم تعين السلطات حكماً، فإن تعيين الحكمين يصبح في يد الجالية المسلمة ويجوز لها أن تمارس ذلك الحق بأي شكل تشاء. ومن ثم، فإذا وضعت الحكومة الإسلامية أو الجالية المسلمة أي أحكام تبين إجراءات الطلاق وتفرض على الزوج قيوداً في مسائل الطلاق لا تتعارض مع التعاليم التي أرساها القرآن، فإن ذلك يتفق تماماً مع الشريعة الإسلامية.

الطلاق أثناء المحيض

ينظر إلى المحيض في العديد من الديانات على أنه نجاسة، وتُعزَل الحائض كما هو متبع لدى الهندوس واليهود. وفي القرآن، تم تناول موضوع المحيض كمقدمة لموضوع الطلاق، كما

يُنْهَى عن جماع النساء في الحيض لأنه "أذى" (سورة البقرة ٢): الآية رقم (٢٢٢). وبسبب هذا التوقف للمعاشرة بين الزوج والزوجة، يُنْهَى عن الطلاق أثناء الحيض. فقد أُبْلِغ النبي (صلى الله عليه وسلم) أن ابن عمر طلق زوجته وهي حائض. فأعلن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الطلاق مخالف للشرع وطلب من ابن عمر مراجعة زوجته (البخاري ٦٨: ١). وعلى ذلك، لا يجوز الطلاق إلا في طهر على ألا يكون الزوج مس زوجته في ذلك الطهر. ومن الواضح أن الهدف من ذلك تقييد حرية الزوج في الطلاق.

العِدَّة

يعاق الفصم النهائي لعرى العلاقة الزوجية بعدة طرق أخرى وتتاح للطرفين جميع الفرص للحفاظ على رباط الزوجية حتى بعد نشوء خلافات تؤدي إلى الطلاق. فكل طلاق يجب أن تليه مدة انتظار تسمى العِدَّة: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ" (سورة الطلاق ٦٥): الآية رقم (١)). وتكون العدة حوالي ثلاثة أشهر: "وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ" (سورة البقرة ٢): الآية رقم (٢٢٨)). وَالْقُرْءُ (الجمع قُرُوء) هو الدخول في الحيض عن طهر. وفي الأحوال العادية، يكون القرء حوالي أربعة أسابيع، ولكن هناك اختلافات في المدة حسب الاختلافات بين النساء. وفي حالة النساء اللاتي لا يحضن وكذلك اللاتي يؤسن من الحيض، تكون العدة ثلاثة أشهر (سورة الطلاق ٦٥): الآية رقم (٤)). وعدة الحامل حتى تضع حملها (المرجع السابق). ومن بين الأغراض الأخرى التي تخدمها العدة، فإنها تخدم غرض إتاحة الفرصة للطرفين للإصلاح. فرغم طلاقهما، فإنهما ما زالا يعيشان في نفس البيت حيث أُمِرَ الزوج صراحةً بألا يُخرج الزوجة من البيت الذي كانت تعيش فيه إلا إذا أتت بفاحشة، وأسدبت للزوجة نصيحة مماثلة بعدم ترك بيتها (سورة الطلاق ٦٥): الآية رقم (١)). ومن الواضح أن هذا الأمر يهدف لإعادة العلاقات الودية بين الطرفين. فإذا كان هناك أي قدر من الحب بين الزوجين، فإن مشاعر الحب سوف تثبت وجودها أثناء فترة العدة وتؤدي إلى الإصلاح بين الزوجين.

الطلاق الرجعي

في الواقع، يُنْصَح بالإصلاح بين الطرفين في كلمات صريحة عندما قال تعالى في كتابه العزيز أثناء الحديث عن العدة: "وَيُعَوِّظُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا" (سورة البقرة ٢): الآية رقم (٢٢٨)). وبالتالي، فإن كل طلاق عبارة عن انفصال مؤقت على سبيل التجربة في مرحلته الأولى، وبأمر الطرفين بالعيش معاً، تتاح لهما جميع الفرص لإقامة العلاقة الزوجية من جديد.

وحتى بعد انقضاء العدة، يجوز للطرفين، بل ويشجعان، على الزواج بعقد جديد: "وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاصُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣٢)). وبذلك، يحبذ وينصح بزواج الطرفين المطلقين لأنه أزكى وأطهر للطرفين. كما يوضع أيضاً الشرط بأن يكون الطلاق الرجعي، الذي يسمح بلم شمل الطرفين، مرتين: "الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَمِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٢٩)). وعلى ذلك، يكون الطلاق الرجعي، في اصطلاح الفقهاء، مرتين.

الطلاق البائن

بعد الطلقة الأولى، يكون للطرفين الحق في الرجوع بعضهما إلى بعض أثناء فترة العدة أو الزواج بعقد جديد بعد انقضاء العدة. ويمنح لهما حق مماثل بعد الطلقة الثانية، ولكن ليس بعد الثالثة. ورغم ذلك، ففي الجاهلية، رغم أنه لم يكن للزوجة الحق في الطلاق، كانت للزوج رخصة غير مقيدة بأن يطلق الزوجة ثم يراجعها أثناء العدة أكبر عدد يشاؤه من المرات (التفسير الكبير للرازي، الجزء الثاني، ص. ٣٧٢). وبذلك، كان ينظر إلى النساء على أنهم مجرد متاع يمكن أن يترك ويؤخذ كما يشاء الرجل. مما أدى إلى إفساد مؤسسة الزواج برمتها. في حين أن الإسلام لم يمنح المرأة الحق في الطلاق فحسب، وإنما أيضاً قيد الرخصة الممنوحة للزوج بالطلاق عدد المرات التي يشاء بإعلان أن الطلاق الرجعي يكون مرتين فقط: "الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَمِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٢٩)). وبذلك، أُرسي الحكم بأنه، بعد الرجعة الثانية أو الزواج الثاني بعقد جديد، يجب على الطرفين أن يختارا إما الحياة سوياً كزوج وزوجة للأبد أو الانفصال للأبد دون التفكير في الارتباط من جديد. ومن ثم، فإنه إذا فشلت التجربة الثانية وانفصل الطرفان بالطلاق للمرة الثالثة، فإن هذا يعتبر، في اصطلاح الفقهاء، طلاقاً بائناً.

الطلاق على ثلاثة أوجه

أقر الفقهاء الطلاق على ثلاثة أوجه. فأحياناً يطلق الرجل ثلاثاً في مجلس واحد ويفهم أن المقصود به الطلاق ثلاثاً. هذا الطلاق يسمى الطلاق البدعي (أي أنها بدعة في الطلاق بعد عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)). أو أن يطلق الرجل زوجته ثلاثاً في ثلاثة أطهار وبذلك يطلقها ثلاثاً في عدة واحدة. وهذه الطريقة في الطلاق تسمى، في اصطلاح الفقهاء، الطلاق الحسن. وقد أطلق اسم الطلاق الأحسن على الطلاق تطليقة واحدة في طهر واحد وتليه فترة العدة (الهداية، الجزء الأول،

ص. ٣٣٣). وهذه الطريقة الأخيرة هي الطريقة الوحيدة التي أقرها القرآن. فقد ورد صراحة في كتابه العزيز قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ" (سورة الطلاق (٦٥): الآية رقم (١)). وعلى ذلك، يكون الطلاق تطليقةً واحدةً فقط، وعندما يقع الطلاق تليه فترة العدة وأثناء العدة يكون للطرفين حق الرجوع في الطلاق. وغير ذلك من أوجه الطلاق يتعارض مع الكتاب والسنة النبوية.

التحايلات لإكساب الطلاق الرجعي صفة البينونة

وهكذا، لم يقر القرآن الطلاق إلا على وجه واحد، هو طلاق السنة أو الطلاق الأحسن وفقاً للأحناف. ولم ترد في القرآن أو السنة إشارة على الإطلاق إلى الوجهين الآخرين للطلاق. فهذان الوجهان للطلاق إنما هما في الحقيقة تحايلات لإكساب الطلاق الرجعي صفة البينونة. وقد لوحظ حتى في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) الميل للجوء إلى هذه التحايلات. ويبدو أن الطلاق ثلاث طلاقات دون فاصل زمني بينها من بقايا أيام الجاهلية. فيروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أبدى استياءً عندما بلغه أن شخصاً ما طلق امرأته ثلاث طلاقات دفعة واحدة (سنن النسائي ٢٧: ٦) وقد أبطل صلى الله عليه وسلم الطلاق الواقع على هذا النحو (مسند أحمد، الجزء الأول، ص. ٢٦٥). وهناك حديث آخر يبين أنه حتى عهد عمر (رضي الله عنه)، كان الناس يطلقون ثلاث طلاقات دفعة واحدة، ولكنها كانت تحسب طلاقة واحدة (مسند أحمد، الجزء الأول، ص. ٣١٤). ولكي يثني عمر الناس عن مثل ذلك الإجراء المخالف للشرع، أمر بأن تحسب الطلاقات الثلاث التي ترسل مرة واحدة كثلاث طلاقات متفرقات ترسل على فترات زمنية منفصلة، ولكن كان لهذا الأمر أثر عكس المرجو. فقد أصبحت ممارسة شائعة لدى العموم أن يطلقوا ثلاث طلاقات دفعة واحدة وكان يعتقد أن لهذا أثر الطلاقات الثلاث المتفرقات مما يضيف على الطلاق الرجعي صفة البينونة. وهو ما يتعارض بالفعل مع المبدأ الذي يبنى عليه نظام الطلاق في الإسلام. فمن الصحيح أن الطلاق مباح، ولكن لأنه يفسد العلاقات الأسرية الطبيعية، ينظر إليه بعين الاستنكار ولا يباح إلا في حالات الضرورة القصوى التي يستحيل فيها أداء الزوج أو الزوجة للواجبات الزوجية. ولكن حتى بعد اتخاذ هذه الخطوة الأخيرة، لا تكون للطرفين فحسب حرية الرجوع بعضهما إلى بعض أثناء فترة العدة أو الزواج بعقد جديد بعد انقضاء العدة، وإنما أيضاً يُحْتَرَف الطرفان بالفعل على ذلك. في حين أن وجهي الطلاق، اللذين يسميان الطلاق البدعي والطلاق الحسن، يسلبان الطرفين حرية الرجوع بعضهما إلى بعض التي منحها القرآن إياها، ومن ثم فإنهما يتعارضان مع تعاليم القرآن ويجب نيلهما. حيث إنه لا يمكن إكساب صفة البينونة للطلاق الرجعي المذكور في القرآن، لأنه بهذا التغيير، تسدد ضربة قاضية إلى روح المنفعة التي يبنى عليها نظام الطلاق في الإسلام. ومن

ثم، سواءً كان الطلاق طليقة واحدة أو ثلاثاً أو مائة طليقة أثناء العدة، فإنها تحسب طليقة واحدة فقط ويكون الطلاق رجعياً أثناء العدة.

أثر الطلاق البائن

يتبين لنا مما سبق ذكره أن الطلاق البائن قلما يحدث بين المسلمين، ولا يمكن أن يقع إلا إذا وقع الطلاق على الوجهين المتعارضين مع تعاليم القرآن لإكساب صفة البينونة للطلاق الرجعي. وعندما يكتشف الرجل والمرأة من خلال تجربتين تعذر استمرارهما في الحياة الزوجية، فليس من المعقول منهما أن يفكرا في الرجوع بعضهما إلى بعض. ومن ثم، ذكر القرآن أنه لا يجوز لهما الرجوع بعضهما إلى بعض بعد فشل زواجهما للمرة الثانية إلا في حالة واحدة: "فَإِنْ طَلَّقَهَا (طليقة ثالثة) فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَتَكَحَّ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا (الزوج الثاني) فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا (بالزواج) إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣٠)). وعلى ذلك، فإن الحالة الوحيدة التي يحل فيها الزواج بالزوج الأول، بعد الطلاق ثلاثاً، هي الحالة التي ينعقد فيها الزواج بزواج ثانٍ ويكون هذا الزواج أيضاً فشل. وحتى لو وجدت تلك الحالة النادرة، فإن الطرفين ربما يستفيدان درساً، من خلال الزواج الآخر، مفاده أنه ينبغي على كل منهما أن يحسن التصرف تجاه الآخر. وبما أن الطلاق البائن قلما يحدث في حد ذاته وفقاً لتعاليم القرآن، فإن حالة مثل الحالة المشار إليها في الآية المستشهد بها أعلاه قلما تحدث أيضاً، ولكنها إذا حدثت، يجوز للطرفين الزواج بعقد جديد حتى بعد الطلاق البائن.

زواج التحليل أو الحلالة

يعتبر التحليل أو الحلالة من الممارسات التي كانت سائدة في الجاهلية. فعندما كان الزوج يطلق الزوجة طلاقاً بائناً ثلاثاً تطليقات مستخدماً صيغة الطلاق وكان يرغب في مراجعتها، كان يجب عليها أولاً أن تتزوج شخصاً آخر على أن يطلقها بعد معاشرتها. ويسمى هذا حلاله. ومن الخطأ أن نخلط بين الحلالة والزواج المشار إليه في الآية المستشهد بها تحت العناوين السابقة، لأن الحلالة نوع من العقاب للمرأة التي يجب أن تتعرض للخزي الناجم عن جماع يعتبر عملياً زناً في حين أن الزواج المشار إليه في الفقرة السابقة يعتبر رباط زوجية أبدية، وفي تلك الحالة قد لا يليه الطلاق بالمرّة؛ وفي الواقع، فإنه في المجرى العادي للأمور، فإن الطلاق لا يلي ذلك بالمرّة. ولهذا السبب، لعن النبي (صلى الله عليه وسلم) من لجأوا إلى هذه الممارسة في قوله: "لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلَّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ" (الترمذي ٩: ٢٥). ويروى عن الخليفة عمر (رضي الله عنه) قوله إنه لو أتى بالمحلل والمحلل له لعاملهما معاملة الزانيين. ونادراً ما ترسل الطلقات الثلاث، على النحو المباح

في القرآن، التي تكون الطلقة الثالثة منها بائنة، لأن هذه الطلقات عادة ما ترسل على فترات زمنية طويلة. وقد وردت حالة ركانة في عدة أحاديث؛ حيث طلق زوجته طلقة أولى في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم ردها وطلقها طلقة ثانية في عهد عمر وطلقة بائنة في خلافة عثمان بن عفان (زاد المعاد، الجزء الثاني، ص. ٢٥٨).

إجراءات الطلاق

يجوز أن يقع الطلاق باللفظ أو بالكتابة، ولكنه يجب أن يقع في حضور شاهدين: "فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ" (سورة الطلاق (٦٥): الآية رقم (٢)). ومهما كانت الألفاظ الفعلية المستخدمة، فإنها يجب أن تعبر صراحة عن نية حل رباط الزوجية. وفيما يتعلق بما إذا كان الطلاق يقع في حالات معينة، توجد اختلافات بين المذاهب الفقهية المختلفة. ومن الواضح أن النية تعتبر ركناً في حل رباط الزوجية كما في الزواج نفسه؛ ولكن في الوقت الذي يقر فيه بعض الفقهاء بأن الطلاق لا يقع بالإكراه أو تحت تأثير أو في السكر أو الغضب أو الهزل أو بالخطأ أو السهو، يرى فقهاء آخرون أن الطلاق لا يقع في بعض هذه الحالات ويقع في البعض الآخر. وقد أقر المذهب الحنفي بأن الطلاق يقع سواء نطق الشخص ألفاظ الطلاق على سبيل المزاح أو الهزل أو في حالة سكر وسواء نطقها الشخص بإرادته أو مكرهاً، ولكن يأخذ الإمام الشافعي بالرأي المخالف (الهداية، الجزء الأول، ص. ٣٣٧). ومن الواضح أن آراء الأحناف تتعارض مع روح تعاليم القرآن التي تؤكد أن الطلاق أمر في غاية الخطورة والتي تضع إجراءات محددة لا بد من اتخاذها قبل اللجوء إلى الطلاق.

الإيلاء

يعتبر الإيلاء والظهار عادتين كانتا سائدتين في الجاهلية حيث كانت المرأة تترك معلقة أحياناً طوال حياتها. وكلمة إيلاء تعني في اللغة اليمين وتعني في الشرع حلف اليمين على الامتناع عن وطء الزوجة. وفي أيام الجاهلية، كان العرب يكثر من حلف تلك الأيمان، ولأن فترة التعلق كانت غير محددة بمدة، كانت الزوجة أحياناً تقضي باقي حياتها في عبودية، لا هي زوجة ولا هي مطلقة لها حرية الزواج بشخص آخر. وقد صحح الإسلام هذا الوضع بأن أمر بأنه إذا لم يمس الزوج زوجته في خلال أربعة أشهر من الإيلاء، تطلق الزوجة منه: "لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ." (سورة البقرة (٢): الآيتان رقمًا (٢٢٦) و(٢٢٧)).

الظَّهَار

كلمة ظَّهَار مشتقة من ظهر. فقد كان العربي في أيام الجاهلية يقول لزوجته: "أنت علي كظهر أمي". وهذا يسمى في اصطلاح الفقهاء الظهار. وما أن يتلفظ الزوج بهذه الكلمات حتى تنهي العلاقة بينه وبين زوجته كما يحدث بالطلاق إلا أن الزوجة لا تكون لها الحرية في ترك بيت الزوجية وتظل زوجة مهجورة. وقد عامل أحد المسلمين، وهو أوس بن الصامت، زوجته خولة بهذه الطريقة. فذهبت الزوجة المظلومة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) واشتكت من سوء معاملة زوجها لها. فقال لها النبي (صلى الله عليه وسلم) إنه لا يمكنه التدخل. فعادت إلى بيتها حزينة وعندئذ نزل عليه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَخَاوُرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نَسَأْتِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا" (سورة المجادلة ٥٨): الآيتان رقما (١) و(٢)). وقد أمر الرجل الذي يلجأ إلى تلك الممارسة بالكفارة بتحرير رقبة؛ فإن لم يجد، فصيام شهرين متتابعين؛ فإن لم يستطع، فإطعام ستين مسكينا (سورة المجادلة ٥٨): الآيتان رقما (٣) و(٤)).

اللَّعَان

كلمة اللَّعَان مشتقة من اللَّعْنَة. واللعان والملاعنة في اللغة هما تلاعن الزوجين. ورغم ذلك، تشير الكلمتان في اصطلاح الفقهاء إلى صيغة خاصة للتفريق بين الزوجين يرمي فيها الزوج زوجته بالزنا ولا يملك الدليل على صحة اتهامه بينما تكذبه الزوجة. وقد جعل القرآن الزنا جريمة يستحق فاعلها العقاب الشديد لأنها تدمر النسيج الاجتماعي كله. وفي الوقت نفسه، جعل الرمي بالزنا جريمة خطيرة أيضاً يحد فاعلها بنفس حد الزنا إذا لم يقدم أدلة قوية تثبت وقوع الزنا. هذا من أجل وقف لسان القاذف المشغول بوجهه عام ولا يرحم حتى أبرأ الناس. فليس للرجل أن يتدخل في الشؤون الخاصة للآخرين، ولكن إذا كان لدى رجل أسباب قوية للاعتقاد بأن زوجته تزني، فإن الوضع مختلف تماماً. وفي هذه الحالة، يقترح اللعان كوسيلة للتفريق بين الزوجين، لأنه سواءً أكان الرمي بالزنا صحيحاً أم كاذباً، فإن التفريق بينهما في مصلحتهما. وتعالج الآيات الكريمة التالية هذا الموضوع: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (سورة النور ٢٤): الآيات أرقام (٦-٩)). وبعد شهادة الطرفين بذلك، يتم التفريق بينهما للأبد.

ويلاحظ أنه ليس هناك ملاءمة بين الطرفين في هذه الحالة؛ وإنما كل من الطرفين عندما يشهد على صدقه بذلك، يدعو على نفسه بلعنة الله أو غضبه عليه إن كان كاذباً.

آراء متسامحة حول الطلاق

ينظر إلى الطلاق كضرورة في العلاقات الزوجية في ظل الظروف الإنسانية المختلفة، بصرف النظر عما إذا كان الانحطاط الأخلاقي من جانب الزوج أم الزوجة. والقرآن يتبنى أكثر الآراء تسامحاً بشأن ضرورة الطلاق ولذلك يوصي بالإحسان إلى المرأة عند الطلاق بنفس قدر الإحسان إليها عند الزواج. ويؤكد القرآن مراراً وتكراراً على هذه النقطة: "الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٢٩))؛ "وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٣١))؛ "فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ" (سورة الطلاق (٦٥): الآية رقم (٢)). وهكذا، تعامل المرأة بنفس القدر من الإحسان وكرم الأخلاق، سواء أكانت شريكة الرجل في السراء والضراء كزوجة أم شخصاً أُجْبِرَ الرجل على الانفصال عنه. وشأنها شأن سائر الخلافات، ربما تكون الخلافات الزوجية صادقة كما يمكن ألا تكون كذلك، ولكن القرآن يوصي بتبني آراء متسامحة عند علاجها.

الفصل السابع

اكتساب المال والتصرف فيه

اكتساب المال الخاص

يجوز الحصول على المال بثلاث طرق: إما بالاكتساب أو الوراثة أو الهبة. ومن هذه الطرق، يتم تناول الوراثة، نظراً لما تحظى به من أهمية، في فصل على حدة. وقد أقر الإسلام اكتساب الفرد، ذكرًا كان أم أنثى، للمال بوصفه أحد الأحكام الأساسية التي تنظم شؤون المجتمع الإنساني: "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْتُ لِلنِّسَاءِ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْتُ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٣٢)). كما أن كلا الجنسين يتساويان أيضاً في أن لكل منهما حَقًّا في ميراث الأموال: "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٧)). ولم يفرض قيد على ما يمكن للفرد أن يكتسبه أو يَمْنَحَه من أموال أو ثروات. بل يحدثنا القرآن عن قناطر من الذهب تكون في حوزة الرجل ويمكنه إعطاؤها للمرأة كمهر لها: "وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٠)). وبذلك، يعارض الإسلام البلشفية التي لا تعترف بحق الفرد في امتلاك المال، ولكنه في الوقت نفسه اشتراكي التوجه لأنه يسعى لتوزيع الثروة بالتساوي تقريباً.

وسائل كسب المال غير المشروعة

يُنْهَى عن جميع وسائل كسب المال غير المشروعة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٢٩))؛ "وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٨)). وتشير الآية الثانية إلى الرشوة. وفي موضع آخر، يشار إلى الحرابة والسرقة بأنهما جريمتان يعاقب فاعلهما (سورة المائدة (٥): الآيتان رقما (٣٣) و(٣٨)). وينتهي عن عدم أداء الأمانات إلى أهلها: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٥٨)). كما يُنْهَى أيضاً عن الميسر بوصفه وسيلة باطلة أو غير مشروعة للحصول على المال: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢١٩))؛ "إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٩٠)). وقد اقترن ذكر الخمر بالميسر في كلا الموضوعين السابقين، ويتمثل أحد أسباب تحريمهما في أنهما يساعدان على إشاعة الفساد والعداوة بين أفراد المجتمع الواحد: "إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ" (سورة المائدة (٥): الآية رقم (٩١)). وتندرج ضمن الميسر جميع أنواع اليانصيب، وألعاب الورق، وأي ألعاب أخرى تنطوي على رهان، مهما كان صغر المبلغ المرهان به، ومن ثم فقد حرّمها الإسلام. حيث إنها لا تنتمي عادات الكسل وتحول دون العمل الشريف فحسب، وإنما تؤدي أيضاً إلى فقر بعض أفراد المجتمع في الوقت الذي يغتني فيه البعض الآخر على حسابهم. كما يُحرّم أيضاً الربا، الذي سوف نتناوله فيما بعد، لنفس هذا السبب.

ما ورد في القرآن عن ممارسة حقوق التصرف في المال

أعطى القرآن حقوق التصرف في المال كاملة إلى صاحبه، سواءً أكان ذكراً أم أنثى، ولكنه في الوقت نفسه أوجب عليه عدم التبذير. ويحتوى القرآن على عدة أوامر بذلك ذات طابع عام. فعن عباد الرحمن، قال تعالى في كتابه العزيز: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا" (سورة الفرقان (٢٥): الآية رقم (٦٧)). وفي موضع آخر، قال تعالى: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٢٩)). ولكنه لم يكتفِ بهذه الأوامر العامة، وإنما أعطى للمجتمع أو الدولة حق التدخل عند قيام صاحب المال بتبديده: "وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٥)). ويوصف بعض أصحاب المال هنا بأنهم سفهاء ويؤمر المجتمع أو الدولة بمنع هؤلاء الأشخاص من التصرف في أموالهم، التي توصف هنا بأنها "أَمْوَالِكُمْ"، لأن الله جعلها "لَكُمْ قِيَامًا"، وترسى قاعدة بأن يتم الإنفاق على أصحاب هذا المال من عائد المال الذي تكون إدارته في يد الغير. وبالتالي، يُنظر إلى المال، رغم امتلاك الأفراد له، على أنه أصل قومي وتقييد حقوق الفرد في التصرف في المال إذا كان يبدد المال الموجود في حوزته. والسفهاء جمع سفية والسفية هو شخص يوصف بنقصان أو عدم سلامة العقل أو الفهم أو بقلّة الفهم أو انعدامه (تاج العروس؛ المعجم العربي - الإنجليزي للين) وقد أبدى المفسرون آراءً مختلفة حول المقصود هنا بهذه الكلمة فمنهم من قال إنها تستخدم للإشارة إلى النساء والأطفال، ولكن ابن جرير كان على حق عندما ذكر أن هذا الرأي خاطئ وأن الكلمة تحمل معنى عاما (جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء الرابع، ص. ١٥٣) وفي الواقع، فإنه لا يشار إلى الصغار في هذه الآية بالمرّة لأنه يشار إليهم على حدة في الآية التي تليها،

كما أن السفهاء المشار إليهم في هذه الآية هم الأشخاص الذين، بسبب نقصان العقل أو عدم سلامته، يعجزون عن إدارة أموالهم.

كما يعزز هذا الاستنتاج أيضاً استخدام كلمة سَفِيه عند الحديث عن كتابة الديون: "فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٨٢)). وقد ورد هنا ذكر السَفِيه والضَعِيف كل على حدة؛ حيث تشير كلمة السَفِيه إلى ضعيف الفهم، سواء كان رجلاً أم امرأة، في حين تشير كلمة الضَعِيف إلى الصغار. وبذلك، أوجب القرآن أن يُجْرَم الأشخاص، الذين بسبب ضعف العقل، يسيئون إدارة أموالهم ويبددون ثروتهم، من حق التصرف في أموالهم وينفق عليهم من عائدها ويُعْهَد بالتصرف فيها إلى شخص يسمى الولي، كما ورد في الآية (٢٨٢) في سورة البقرة (٢).

الحَجْر

تستخدم كلمة حَجْر في كتب الحديث للإشارة إلى تقييد حق أصحاب المال الأفراد في التصرف في مالهم (البخاري ٤٣: ١٩)، والحَجْر في اللغة هو المنع وفي اصطلاح الفقهاء هو منع الشخص من التصرف في ماله. وقد شددت السنة بصفة خاصة على الحفاظ على المال من الضياع. وقد بوب البخاري باباً في هذا الموضوع في صحيحه: "لَا صَدَقَةَ إِلَّا عَنِ ظَهْرٍ غَنَى وَمَنْ تَصَدَّقَ وَهُوَ مُحْتَاجٌ أَوْ أَهْلُهُ مُحْتَاجٌ أَوْ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَالَّذِينَ أَحَقُّ أَنْ يُفْضَى مِنْ الصَّدَقَةِ وَالْعَتَقِ وَالْهَبَةِ وَهُوَ رَدٌّ عَلَيْهِ لَيْسَ لَهُ أَنْ يُتْلَفَ أَمْوَالُ النَّاسِ"؛ وقال النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ إِنْثَاقَهَا أَثَلَفَهُ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعْرُوفًا بِالصَّبْرِ فَيُؤْتَرَ عَلَى نَفْسِهِ وَلَوْ كَانَ بِهِ حِصَاصَةٌ" (البخاري ٢٤: ١٨). ويوصف المال الخاص للفرد هنا بأنه أموال الناس ويُنْهَى الرجل حتى عن التصدق به إذا لم يكن لديه ما يكفي للإنفاق على من يعولهم. ووفقاً لأحد الأحاديث الشريفة، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا قِيلَ وَقَالَ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ" (البخاري ٢٤: ٥٣). وقد ورد هذا الحديث مراراً في صحيح البخاري وكتب أخرى للحديث، ويشكل أساس القيود التي يجوز فرضها عن حق على أصحاب المال لمصلحتهم. وبالتالي، من حق الدولة وضع قوانين لمصلحة أصحاب المال، تفرض فيها قيوداً على حريتهم في التصرف في ذلك المال.

^١ على سبيل المثال، تندرج ضمن الحجر القوانين التي تفرض قيوداً على حق التصرف في الأرض الزراعية. وفي هذه الحالة، يُمنع أصحاب الأرض الزراعية من بيع أراضيهم في حالات معينة إلا بإذن الدولة؛ ويكون هذا الإجراء لمصلحتهم لأنه لولا ذلك لضاعت كل الأرض الزراعية من أيديهم بالتدريج ولُفْرِكوا بدون مال ينفقون منه على أنفسهم.

ولي الصغير

كما تُوكَل إلى الولي أيضاً إدارة أموال الصغار . وفيما يلي نص الأمر القرآني الذي يفيد ذلك: "وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهُدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا" (سورة النساء (٤): الآية رقم (٦)). وبذلك، لا يجوز للصغير إدارة أمواله التي يجب تسليمها إلى الولي. فإذا كان الولي غنياً وجبت عليه الولاية بدون أجر وإذا كان فقيراً أخذ أجره من المال. وسن البلوغ، عند الإمام أبي حنيفة، هي الثامنة عشرة في حالة الذكور والسابعة عشرة في حالة الإناث (الهداية، الجزء الثاني، ص. ٣٤١)، ولكنها، عند الإمامين الشافعي وأحمد، الخامسة عشرة في كلتا الحالتين (الهداية، الجزء الثاني، ص. ٣٤٢). وقد ورد في السنة أن ابن عمر لم يؤخذ في الجيش عندما كان في الرابعة عشرة من عمره، ولكنه أُخِذَ عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره (البخاري ٥٢: ١٨)، ولكن هذا لا يدل مطلقاً على أن نضوج العقل يكون في الخامسة عشرة، لأنه في ذلك الوقت كان يوجد عدد قليل من المسلمين الذين يستطيعون خوض القتال ضد حشود الأعداء الكبيرة لدرجة أنهم اضطروا لإدخال الصبيان والشيوخ في الجيش.

الأمانة في البيع والشراء

مع مراعاة ما سبق ذكره وما سيذكر أدناه، يكون لصاحب المال المنقول، رجلاً كان أم امرأة، الحق في بيعه أو مبادلته. وقد أكد القرآن على الأمانة وعدم الغش في البيع والشراء في أوائل التنزيل: "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوا يُخْسِرُونَ" (سورة المطففين (٨٣): الآيات (١-٣))؛ "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (سورة الإسراء (١٧): الآية رقم (٣٥))؛ "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ. وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. وَلَا تَبَخَّسُوا النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُسِيئِينَ." (سورة الشعراء (٢٦): الآيات (١٨١-١٨٣)). كما أكدت السنة أيضاً على الأمانة في البيع والشراء لدرجة أنه إذا كان هناك عيب في السلعة، يجب على البائع أن يبينه للشخص الذي يعترزم شراءها (البخاري ٣٤: ١٩؛ مسند أحمد، الجزء الثالث، ص. ٤٩١). ويروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه كتب إلى عداء بن خالد يقول: "هَذَا مَا اشْتَرَى مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَدَاءِ بْنِ خَالِدٍ بَيْعَ الْمُسْلِمِ مِنَ الْمُسْلِمِ لَا دَاءَ وَلَا خِبْثَةَ وَلَا غَائِلَةَ" (البخاري ٣٤: ١٩). ووفقاً لما ورد في حديث آخر، يروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَّتْ

بَرَكَةٌ بَيْنَهُمَا". (البخاري ٣٤: ١٩). وقد تم التأكيد في أحاديث كثيرة على الأمانة وحسن النية في مسائل البيع.

وصايا عامة بشأن معاملات البيع

لا حاجة لنا للخوض هنا في التفاصيل الكثيرة الأخرى التي وردت في السنة حيث أنه ليس لها أهمية تذكر، وسوف نذكر بإيجاز بعض التفاصيل ذات الطابع العام. فقد ورد صراحةً في السنة أن الرجال والنساء كانوا يبيعون ويشتررون بعضهم من بعض بحيث إنه لم يكن هناك أي حرمان من الحقوق قائم على أساس الجنس (البخاري ٣٤: ٦٧). وأثناء البيع لشخص ما، لا ينبغي لشخص آخر أن يتدخل ويتعاضد على بيعه (البخاري ٣٤: ٥٨)، ولكن البيع بالمزاد مباح (البخاري ٣٤: ٥٩). ولا توجد قيود بشأن من يحب الرجل البيع إليه، ولكن يُنهي عن حبس السلع حتى يرتفع ثمنها (/الاحتكار) (البخاري ٣٤: ٥٤) وكذلك يُنهي بوجه عام عن تضخم الأسعار. ويُنهى تاجر الماشية عن عدم حلبها قبل البيع بعدة أيام حتى يبيعها بسعر أعلى (البخاري ٣٤: ٦٤). ويستنكر بيع الثمار والمحاصيل قبل أن يبدو صلاحها لأن ذلك يؤدي إلى وقوع المنازعات (البخاري ٣٤: ٨٥). وفي الحديث الذي رواه الإمام البخاري في هذا الباب، دُكر صراحةً أن هذا ليس أمراً، وإنما نصيحة. وإذا تم تقدير ثمن الثمار على الأشجار، عندئذ يجوز بيعها (البخاري ٣٤: ٧٥، ٨٢، ٨٣). كما يُنهي عن بيع الغرر، عندما لا توجد بضاعة للتسليم (البخاري ٣٤: ٦١)؛ كما لا يجوز للرجل بيع ما لا يوجد في حوزته (مسند أحمد، الجزء الثاني، ص. ١٨٩، ١٩٠). ولا يفضل بيع الأرض، ومن المستحب ألا يبيع الرجل أرضه أو بيته إلا إذا كان يعتزم شراء أرض أو بيت آخر بالمال (مسند أحمد، الجزء الأول، ص. ١٩٠؛ الجزء الثالث، ص. ٤٦٧). كما يُنهي صراحةً عن الحلف في معاملات البيع (مسند أحمد، الجزء الخامس، ص. ٢٩٧).

الرهن

إن رهن الممتلكات أو تقديمها كضمان لدين جائز في الإسلام. فقد أجاز القرآن صراحةً الرهان المقبوضة (أي تقديم أو أخذ ضمان يستحوذ عليه المرتهن) (سورة البقرة (٢): الآية رقم (٢٨٣))؛ ورغم أن هذه الحالة وردت عند الحديث عن السفر، فإن المفسرين أجمعوا على أنها تعبر عن إباحة عامة، وهناك أحاديث صحيحة تعزز هذا الاستنتاج. فيروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه رهن درعه عند يهودي عندما استلف منه بعض الشعر (البخاري ٤٨: ١، ٢). وإذا كان

المرهون حصاناً، جاز للمرتهن ركوبه مقابل إطعامه. وبالمثل، يجوز للمرتهن الانتفاع بلبين البهيمة الدارة، أي ذات الضرع، مقابل إطعامها (البخاري ٤٨ : ٤). وعليه، يتبين لنا أنه إذا كانت العين المرهونة أرضاً زراعية أو بيتاً، جاز للمرتهن أن ينتفع بها إذا كان يدفع عنها ربعاً أو ضريبة أو ينفق مالاً على الحفاظ عليها.

الوصية

كما يجوز لصاحب المال أيضاً أن يوصي بماله للأغراض الخيرية أو لأي شخص غير الوريث الشرعي. هذا يسمى وصية، وهناك ترغيب في كتابة الوصية بشكل خاص. فقد ورد في القرآن أن كتابة الوصية واجب على المسلم عندما يترك لورثته ما يكفيهم من المال: "كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ" (سورة البقرة (٢): الآية رقم (١٨٠)). كما يروي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيْتُ لِيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ" (البخاري ٥٥ : ١). ولكن هذا الواجب أو الحق يخضع لضوابط معينة. أولاً، لا تجوز الوصية بأكثر من الثلث (البخاري ٥٥ : ٢، ٣)؛ ثانياً، لا وصية لوارث (أبي داود ١٧ : ٦؛ مسند أحمد، الجزء الرابع، ص. ١٨٦). ولكن، كما ورد صراحةً في القرآن، فإن كتابة الوصية لا تجب إلا على الأغنياء. وقد ورد هذا أيضاً في كتب الحديث (سنن الدارمي ٢٢ : ٥). فقد ذُكِرَ بوضوح في أحد الأحاديث السبب وراء تحديد الوصية بالثلث: "إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ" (البخاري ٥٥ : ٢). والسبب في استبعاد الورثة من الوصية هو ألا يقع على بعض الورثة ظلم لحساب البعض الآخر. والوصية التي تتعارض مع هذه التعاليم تكون باطلة. وفي هذا الصدد، يمكننا أن نضيف أنه إذا كان المال الموصى به عليه دين، وجب قضاء الدين قبل تنفيذ الوصية.^٢

الهبة

لصاحب المال أيضاً حق التصرف في ماله بالهبة. وقد رَغِبَ النبي (صلى الله عليه وسلم) بشدة في تقديم الهدايا وقبولها، وحتى أصغر هدية يجب ألا ينظر إليها بعين الازدراء (البخاري ٥١ : ١). وتجوز الهبة لأحد الأولاد، ولكن تُسْتَحَبُّ الهبة للأولاد الآخرين أيضاً (البخاري ٥١ : ١٢). ويجوز للزوج أن يهب لزوجته وللزوجة أن تهب لزوجها أو لأشخاص آخرين غير زوجها (البخاري ٥١ : ١٤، ١٥).

^٢ لمناقشة موضوع الميراث على نحو وافٍ، يمكنك الرجوع إلى الفصل الثامن.

كما يجوز قبول الهدايا من غير المسلمين وتقديمها إليهم (البخاري ٥١ : ٢٨ ، ٢٩). كما يجوز أيضاً التعويض عن الهبة (البخاري ٥١ : ١١). فقد أجاز الفقهاء الهبة بال عوض، أي الهبة بشرط أن يعطي الموهوب له إلى الواهب شيئاً محدداً مقابل الهبة (الشريعة المحمدية لأمير علي). وتعتبر الهبة ناجزة عندما يقبلها الموهوب له وتدخل في حوزته. ولا يجوز للشخص الرجوع في الهبة إذا قبلها الموهوب له (البخاري ٥١ : ٣٠). ورغم أن الوصية تجوز بالثلث فقط، فإنه لا يوجد مثل هذا القيد على الهبة، لأن صاحب المال، في هذه الحالة، يحرم نفسه من جميع حقوقه في المال في الحال، في حين أنه في حالة الوصية، ليس صاحب المال وإنما الورثة هم الذين يحرمون.

الْوَقْف

وَقَفَ فِي اللُّغَةِ تَعْنِي سَكَنَ أَوْ أَصْبَحَ سَاكِنًا أَوْ ثَابِتًا أَوْ ظَلَّ وَاقِفًا (المعجم العربي - الإنجليزي للين)، والْوَقْفُ فِي الشَّرْعِ يَعْنِي "صَرْفَ مَنَافِعِ الْمَالِ عَلَى سَبِيلِ التَّابِيدِ لِلْأَفْرَادِ أَوْ لِعَرْضِ دِينِي أَوْ خَيْرِي" (الشريعة المحمدية لأمير علي). ومع مراعاة الشروط التي سبق ذكرها وتلك التي سوف تذكر، يكون لصاحب المال الحق في وقف ماله أو تسبيله لغرض معين. وفي صحيح البخاري، ترد الأحاديث المتعلقة بالوقف في كتاب الوصايا رغم اختلاف الوقف والوصية في جوانب عديدة. فالوقف، شأنه شأن الهبة، يسري في الحال في حين أن الوصية لا تسري إلا بعد وفاة الموصي، كما يختلف الوقف عن كل من الهبة والوصية في أن العين الموقوفة متى وقفت لا يجوز التصرف فيها ولا تكون ملكاً لشخص بعينه وربيعها فقط هو الذي يصرف على أغراض معينة تذكر في سند الوقف. وقد وردت في السنة الكثير من حالات الوقف. فقد وقف أبو طلحة وفقاً صُرفَ ريعه على أقاربه وكان ذلك بوصية من النبي (صلى الله عليه وسلم) (البخاري ٥٥ : ١٠). يتبين لنا من هذا جواز الوقف للأقارب. كما يتضح من حديث آخر أن ولد الرجل أو زوجته يدخلان ضمن أقاربه (البخاري ٥٥ : ١١). ويجوز للواقف الانتفاع بوقفه لأنه هو نفسه قد يكون المتولي أمر الوقف، كما قد يكون المتولي أي شخص آخر، حتى لو لم يُذكر ذلك في سند الوقف (البخاري ٥٥ : ١٢). وجاء في حديث آخر أن عمر (رضي الله عنه) وقف وقفاً للفقراء وأقاربه الأغنياء بناءً على أوامر النبي (صلى الله عليه وسلم) (البخاري ٥٥ : ٢٩). وهناك حالات أخرى مدونة في كتب السنة كان يوقف فيها الوقف لمنفعة الفقراء والأقربين (البخاري ٥٥ : ٢٩). ويجوز للواقف أن يجعل نفسه من بين المنتفعين بالوقف (البخاري ٥٥ : ٣٣).

الفصل الثامن

الميراث

الإصلاحات التي أدخلها الإسلام على الموارث

أدخل الإسلام على الموارث إصلاحاً مزدوجاً: فقد جعل الأنثى تشارك الذكر في الميراث وقسم تركة المتوفى بين الورثة على أساس مشاركة الجميع، بدلاً من تسليمها بالكامل إلى الابن الأكبر، كما يحدث بموجب قانون البكورة. فقد كان لدى العرب اعتقاد قوي بأن الأهل للإرث هو القادر على الرمي بالحربة ومن ثم لم يعطوا أي نصيب من الميراث إلى الورثة غير القادرين على لقاء العدو وخوض المعارك (جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء الرابع، ص. ١٧١). وبسبب هذا الاعتقاد الذي كان يستهوي بشدة الأفراد الذين كانت الحرب القبلية تدور بينهم ليل نهار، لم تُحجَب الإناث - أي البنات، والأرامل، والأمهات - فحسب، وإنما أيضاً لم يكن للصغار الذكور حق في الميراث. وقد كانت المرأة ينظر إليها، في الحقيقة، على أنها جزء من تركة المتوفى (سورة النساء (٤): الآية (١٩)) ومن ثم كان حقها في الميراث في التركة غير وارد. وحتى في الشريعة اليهودية، لم يكن وضع المرأة أفضل بحال: "في تلك الأيام، لم يكن ميراث الأرملة من زوجها وارداً لأنه كان ينظر إليها على أنها جزء من التركة التي تؤول إلى الورثة... كما أن ميراث البنات من أبيهن لم يكن وارداً لأن البنات كان يزوجهن إما أبوهن أو إخوتهن أو غيرهم من الأقارب بعد وفاة الأب، وبذلك يصبح ملكاً للأسرة التي تزوجن فيها." (دائرة المعارف اليهودية، ص. ٥٨٣).

وقد جاء الإسلام نصيراً للجنس الضعيف واليتامى، وكما خاضت قلة قليلة من المسلمين القتال دفاعاً عن النفس ضد الجزيرة العربية جمعاء، أعلن الإسلام ظلم قانون الموارث السائد آنذاك، الذي كان يعطي كل التركة إلى أفراد الأسرة الذين يحملون السلاح، وأحل محله تشريعاً جديداً جعل الأرامل واليتامى على قدم المساواة مع الذين يقاوتون دفاعاً عن القبيلة والبلاد. وعندما أُدخِل التغيير في البداية، شق على بعض الصحابة وشكوا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلين إن الإسلام أوجب عليهم تسليم نصف التركة إلى البنات التي لا تتركب الفرس أو تقاوت العدو (جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء الرابع، ص. ١٧١). وقد أُرسِي المبدأ العام للميراث في البداية في قوله تعالى: "لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ" (سورة النساء (٤): الآية (٧)).

تشريع الموارث كما ورد في القرآن

يُذَكَّرُ تشريع الموارث في قوله تعالى: "يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ... وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَرْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُلِّ الرُّبُعِ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ النُّصْبُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَاةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ" (سورة النساء (٤): الآيتان (١١) و(١٢)). "اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكِلَاةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ" (سورة النساء (٤): الآية (١٧٦)).

والأشخاص الذين ورد في هذه الآيات أنهم يرثون تركة المتوفى يمكن تقسيمهم إلى مجموعتين: المجموعة الأولى تضم الأبناء، والوالدين، والزوج أو الزوجة؛ والمجموعة الثانية تضم الإخوة والأخوات. وجميع الأشخاص المذكورين في المجموعة الأولى هم أصحاب فروض أقرب في النسب، وفي حالة وجود الثلاثة معاً يكون لهم جميعاً الحق في التركة، في حين أن أفراد المجموعة الثانية لا يرثون إلا في عدم وجود كل أو بعض أفراد المجموعة الأولى. وكلتا المجموعتين قابلتان للتشعب؛ على سبيل المثال، أبناء الأبناء أو الفروع وإن نزلوا يقومون مقام الأبناء؛ والأجداد أو الأصول وإن علوا يقومون مقام الوالدين؛ والأعمام، والعمات، وغيرهم من الأقارب من بعد يقومون مقام الإخوة والأخوات.

وبين أفراد المجموعة الأولى، يذكر الأبناء في البداية يليهم الوالدان ثم الزوج أو الزوجة وذلك هو الترتيب الطبيعي. وفي حالة الأبناء، أرسيت قاعدة عامة فقط تنص على أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين. وبالتالي، يعتبر جميع الأبناء والبنات من ذوي الفروض، رغم أن للذكر مثل حظ الأنثيين. ومثال آخر على ما يبدو ظاهرياً أنه عدم مساواة في معاملة الجنسين نجد عندما يترك الرجل بنات فقط. فإن كانت بنتاً منفردة، فلها نصف ما ترك؛ وإن كانت اثنتين^١ أو فوق اثنتين

^١ الكلمات الواردة في القرآن هي "فوق اثنتين"، ولكن بما أن الحالة الأخرى المذكورة هي حالة الابنة الواحدة، يستتبع ذلك أن تكون الاثنتان مشمولتين في عبارة "فوق اثنتين". وربما يلاحظ أنه في الآية (١٧٦) من سورة النساء (٤)، يشار إلى أختين فقط وأن ما فوق الاثنتين مشمول ضمنهما. وبالتالي، فإن الآيتين عندما تقرأان جنباً إلى جنب

فلهن ثلثا ما ترك، والباقي يذهب إلى أقرب الأقارب الذكور، وفقاً لما يروى في أحد الأحاديث الشريفة الذي سوف نستشهد به فيما بعد. وليس من الصعب معرفة السبب وراء ذلك. حيث إنه من المعترف به لدى العموم أن الرجل هو عائل الأسرة، وذلك هو الدور الذي أُسندَ إليه في القرآن. وإذا أخذنا بعين الاعتبار المسؤوليات الأكبر الملقاة على عاتقه، من السهل أن نعرف أنه أحق بنصيب أكبر، وبالتالي اختصه القرآن بمثل حظ الأنتيين. وفي الواقع، فإننا إذا وضعنا نصب أعيننا المسؤوليات الملقاة على عاتق الجنسين، فإننا نجد أن هناك عدالة ومساواة حقيقتين تكمنان وراء ما يبدو ظاهرياً أنه عدم مساواة.

وفي حالة عدم وجود أي من أفراد المجموعة الأولى سوى الأبناء، يتم تقسيم كل التركة بين الأبناء، ولكن في وجود أفراد آخرين، فمن الواضح أن الأبناء يأخذون باقي التركة لأن أنصبة الأفراد الآخرين محددة على النحو التالي: السدس لكل من الوالدين، والربع للزوج والثلث للزوجة.

ويدخل ضمن الأبناء، كما هو مألوف في لغة القرآن، أبناء الأبناء والفروع وإن نزلوا، ولكن أساس القسمة يكون الفروع الأقرب في النسب. وبالتالي، ففي حالة وجود أبناء الأبناء، يأخذون الأنصبة المحددة لأبائهم. ويجب أن تعامل نفس المعاملة حالة وجود الأبناء وأبناء الأبناء، ولكن الفقهاء يفرقون هنا حيث ينظرون إلى أبناء الأبناء على أنهم أقرب أبعد درجة وبالتالي يُحجَبون من الميراث في وجود الابن. كما يعامل الفقهاء بنات الابن، في عدم وجود الابن، ليس كمعاملة الابن الذي لو كان منفرداً لأخذ كل التركة، وإنما يعاملوهن نفس معاملة بنات الصلب اللاتي يأخذن نصف التركة إذا كانت واحدة منفردة والثلثين إذا كانتا اثنتين أو فوق اثنتين. ولكن مما يدعو للاستغراب أن ابنة الابن، عندما توجد مع البنت الصلبية للمتوفى، تعتبر شريكة لها في الميراث وتعامل الاثنتان كابنتين للمتوفى.

ورغم ذلك، يمكن تفسير كلمات القرآن على نحو تنقادي به كل هذه التناقضات. ولمزيد من التوضيح، فإن أبناء الابن المتوفى أو ابنة المتوفاة يقومون مقام أبيهم أو أمهم ويأخذون ما كان سيأخذه أبوهم أو أمهم لو كانوا أحياءً. فلنفترض أن شخصاً له ابنة واحدة فقط توفيت قبل والدها ولكن أنجبت أبناءً؛ عندئذ يأخذ أبناؤها النصيب الذي كانت ستأخذه أمهم، أي نصف التركة. وفي حالة وجود عدة أبناء توفي بعضهم تاركاً وراءه أبناء في حين ما زال الآخرون أحياءً، عندئذ من الإنصاف أن يقوم أبناء الأبناء المتوفين مقام والد كل منهم وذلك هو أيضاً التفسير الطبيعي

توضح كل منهما الأخرى - أي أن فوق الاثنتين في إحدى الحالات تشمل الاثنتين وأن الاثنتين في الحالة الأخرى تشمل فوق الاثنتين.

لكلمات القرآن. بالإضافة إلى ذلك، فلو أخذنا بهذا التفسير، لأصبح تشريع المواريث بسيطاً جداً وخالياً من جميع التعقيدات والتناقضات التي أدخلها عليه الاجتهاد الفقهي في بعض الحالات. وكل ما ينسب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذه الحالة قاعدة عامة فقط تتلخص في قوله صلى الله عليه وسلم: "الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ" (البخاري ٨٥: ٦). ولا يبين هذا الحديث على الإطلاق أنه ليس لابن ابن المتوفى حق في الميراث في وجود ابن له؛ رغم أن القاعدة الفقهية التي تنص على حجب أبناء الأبناء من الميراث إنما تستند إلى هذا الحديث. ويمكن شرح كيفية تطبيق الحديث بمثال. توفي رجل تاركاً والدين وابنة واحدة. سوف يأخذ الوالدان الثلث؛ وسوف يذهب نصف باقي التركة إلى البنت والنصف الباقي سوف يؤول إلى الأب الذي يعتبر أقرب رجل في النسب إلى الموروث. ويقوم اختيار أقرب رجل في النسب إلى الموروث على مبدأ العدالة لأنه هو الذي يُلزم بإعالة الأسرة.

وبعد الأبناء، تتناول الآيات الكريمة حالة الوالدين حيث يأخذ كل منهما السدس إذا كان للمتوفى أبناء. ويتبين لنا من هذه العبارة أنه بعد أن يأخذ الوالدان السدس المحدد لكل منهما، يذهب باقي التركة إلى الأبناء ويقسم بينهم حسب الأنصبة المذكورة أعلاه بحيث يكون للذكر مثل حظ الأنثيين. ورغم ذلك، إذا ترك المتوفى بنات فقط، عندئذ يذهب نصف الباقي إلى البنت إذا كانت منفردة وثلثا الباقي إلى الأثنين أو فوق الأثنين، ويذهب ما يتبقى بعد ذلك إلى أقرب رجل في النسب إلى المتوفى، وفقاً لما جاء بالحديث المستشهد به أعلاه. وفي عدم وجود الأب أو الأم، يقوم الجد أو الجدة مقامهما.

والحالة الثانية التي يرث فيها الوالدان الابن المتوفى هي حالة عدم وجود أبناء للمتوفى. وفي هذه الحالة، يقال إنه إذا كان الوالدان الوريثين الوحيدين للمتوفى، أي ليس لابن زوجة أو ليس لابنة زوج أو إخوة وأخوات، عندئذ تأخذ الأم الثلث ويذهب الثلثان الباقيان إلى الأب. ولكن إذا لم يكن للمتوفى أبناء وإنما كان له إخوة (أو أخوات)، تأخذ الأم السدس فقط. ولم يُذكر هنا ما سيأخذ الأب أو نصيب الإخوة والأخوات. والرأي الشائع هنا أن وجود الإخوة يحجب الأم حجب نقصان؛ إذ تذهب الخمسة أسداس الباقية للأب. ورغم أنه حتى في هذه الحالة سوف يستفيد الإخوة والأخوات، إذا كان الأب يعولهم، من زيادة نصيبه، فإنه يبدو من المعقول أنه عندما تُحجب الأم حجب نقصان بسبب وجود الإخوة والأخوات، يكون لهم حق في الحصول على نصيب في التركة بصفتهم الفردية.

ويعزز هذا الرأي ما جاء في الجزء الثاني من الآية (١٢) في سورة النساء (٤) حيث إنه، بعد تحديد نصيب الزوج والزوجة، يضاف قوله تعالى: "وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ

أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي التَّلْثِ". وقد ورد ذكر الكَلَالَةِ هنا وفي الآية (١٧٦) في سورة النساء (٤) حيث يأخذ الإخوة والأخوات كل التركة. والتفسير المأخوذ به لدى العموم هو أن الإخوة والأخوات المشار إليهم في الآية (١٢) من سورة النساء (٤) هم إخوة وأخوات لأم في حين أن المشار إليهم في الآية (١٧٦) إخوة وأخوات أشقاء أو لأب. ولكن هناك أسباباً قوية تعزز الرأي القائل بأن كلمة الكَلَالَةِ المذكورة في الموضعين تحمل معنى مختلفاً؛ لأنه رغم أن مؤلفي المعاجم يفسرون كلمة كَلَالَةِ بوجه عام على أنها تعني من لا ولد له ولا والد، وفقاً لما ورد عن الخليفة عمر وابن عباس (رضي الله عنهما)، تعني من لا ولد له (جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء الرابع، ص. ١٧٧؛ الجزء السادس، ص. ٢٥). ففي الآية (١١): سورة النساء (٤)، يتحدث القرآن عن رجل لا ولد له ولديه والدان وإخوة وأخوات، ولكنه لم يذكر أنصبة هؤلاء الإخوة والأخوات. والاستنتاج واضح وهو أن نصيب هؤلاء الإخوة والأخوات ورد نكره في موضع آخر. وفي الواقع، فإن ما ترك بدون شرح في الآية (١١) تم شرحه على نحو وافٍ في الآية (١٢)، وحالة الكَلَالَةِ المذكورة هنا هي حالة ميراث رجل ليس له ولد، وإنما له والدان وإخوة أو أخوات. فوفقاً لما جاء بالآية (١١)، تأخذ الأم الثلث إذا كان الشخص لا ولد له ولا إخوة أو أخوات وتأخذ السدس إذا كان من لا ولد له ولديه إخوة أو أخوات. ومن الواضح أن حجب الأم من الثلث إلى السدس يرجع إلى وجود الإخوة أو الأخوات، وهؤلاء الإخوة أو الأخوات هم الذين ورد نكرهم في الآية (١٢) بحيث تكون الكَلَالَةُ المشار إليها في تلك الآية هي حالة الشخص الذي لا ولد له وإنما له والدان. وعليه، فإذا توفي رجل لا ولد له، وإنما له والدان، عندئذ يأخذ الإخوة والأخوات، حسبما ورد في الآية (١٢): سورة النساء (٤)، سدس التركة إذا كان هناك أخ أو أخت واحدة، والثلث إذا كان هناك أخوان أو أختان فما فوق. وحسبما ورد في الآية (١٧٦): سورة النساء (٤)، تختص الأخت المنفردة (للمتوفى) أو الأخ المنفرد (للمتوفاة) بنصف التركة، والأختان فما فوق بثلثي التركة، والإخوة والأخوات بكل التركة بحيث يكون للذكر مثل حظ الأنثيين. من الواضح أن هذه حالة المتوفى الذي لا ولد له ولا والدان.

كما يتم أيضاً تناول حالة الزوج أو الزوجة في الآية (١٢). حيث يأخذ الزوج النصف إذا لم يكن للزوجة المتوفاة ولد والربع إذا كان لها ولد. وتأخذ الزوجة الربع إذا لم يكن للزوج المتوفى ولد والثلث إذا كان له ولد. ولأن نصيب الزوج أو الزوجة محدد مثل أنصبة الوالدين، يتم اقتطاعه في البداية ثم يؤول باقي التركة إلى الأبناء أو في حالة عدم وجود أبناء يذهب الباقي إلى الإخوة والأخوات.

وبإيجاز، يتلخص تشريع الموارث، كما تم إرساؤه في القرآن، فيما يلي: بعد قضاء الديون وتنفيذ الوصية، إن وجدت، تستقطع في البداية أنصبة الوالدين والزوج أو الزوجة؛ ثم يوزع باقي التركة على الأبناء بحيث يكون للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وإذا لم يكن للمتوفى ولد وكان له إخوة

وأخوات، يكون نصيبهم السدس إذا كان هناك أخ أو أخت منفردة، والثالث إذا كان هناك أكثر من أخ أو أخت؛ وإذا كان المتوفى لا ولد له ولا والدان، تتوّل كل التركة، بعد اقتطاع نصيب الزوج أو الزوجة، إلى الإخوة والأخوات؛ وإذا كان له بنت أو أخت منفردة، تأخذ نصف التركة ونفس الشيء ينطبق على الأخ المنفرد، وإذا كانت له ابنتان أو أختان، تأخذان ثلثي التركة، ويؤول باقي التركة إلى أقرب رجل في النسب إلى المتوفى وفقاً لما جاء في الحديث؛ وإذا كان هناك شخص متوفى أهل للإرث ولكنه ترك وراءه أبناء، يقوم هؤلاء الأبناء مقامه في الميراث، وفي حالة وفاة الأب أو الأم يقوم الجد أو الجدة مقامهما؛ ويعامل بالتساوي جميع الإخوة والأخوات، سواء كانوا إخوة لأم أو لأب أو أشقاء؛ وإذا لم يكن له إخوة أو أخوات، يقوم مقامهم أقرب الأقارب في الدرجة إلى المتوفى مثل الأعمام أو العمات.

وتشريع الموارث، الذي شرحناه آنفاً استناداً إلى ما جاء في القرآن، بسيط جداً ولا ينشأ عند تطبيقه أي تعقيد يُذكر. ولا ينشأ التعقيد إلا عند إغفال روح ذلك التشريع. فعلى سبيل المثال، من الواضح أنه عندما يكون للمتوفى والدان أو زوج أو زوجة بجانب الأبناء، يأخذ الوالدان والزوج أو الزوجة أنصبتهم أولاً ثم يذهب باقي التركة إلى الأبناء. فإذا لم يكن له إلا ابنتان أو أكثر وليس له ذكور، تأخذ البنات ثلثي الباقي ويذهب الثلث الآخر إلى أقرب رجل في النسب إلى المتوفى. ولكن الفقهاء في هذه الحالة يتبنون منهجاً غريباً. فيختصون البنات بثلثي التركة كلها، والوالدين بالثلث، والزوج بالربع، والزوجة بالثلث، حسب الأحوال. ولكن من الواضح أن هذه القسمة تؤدي إلى نوع من التعقيد لأن البنيتين تأخذان الثلثين، والوالدين الثلث، والزوج الربع والزوجة الثمن، وبذلك يكون إجمالي عدد الأنصبة $4/5$ أو $8/9$. وقد تم حل هذه المشكلة بتقسيم التركة إلى خمسة عشر جزءاً في الحالة الأولى وإعطاء $15/8$ إلى البنات، و $15/4$ إلى الوالدين، و $15/3$ إلى الزوج وتقسيمها في الحالة الثانية إلى ٢٧ جزءاً وإعطاء البنات $27/16$ ، والوالدين $27/8$ ، والزوجة $27/3$. ولكن هذه ليست الأنصبة المحددة في القرآن، وذلك يرجع إلى إغفال روح الأمر القرآني، الذي رغم أنه يوزع باقي التركة بكامله، بعد اقتطاع أنصبة الوالدين والزوج أو الزوجة، على الأبناء إذا كانوا جميعاً ذكوراً أو ذكوراً وإناثاً معاً، فإنه يعطي ثلثي باقي التركة فقط إذا كانت الذرية بنات فقط، والباقي يذهب إلى أقرب رجل في النسب إلى المتوفى وفقاً لما ورد في الحديث الشريف. ويطلق على مبدأ الفقهاء اسم *العول*. ورغم ذلك، يرجع استخدام مبدأ العول إلى الإخلال بالروح الحقيقية للأمر القرآني الخاص بإعطاء البنات الثلثين.

وبالمثل، يعامل الفقهاء ابن الابن، في عدم وجود الابن، على أنه ينتمي إلى المجموعة الثانية من الورثة في حين أنه ينتمي في الحقيقة إلى نفس المجموعة التي ينتمي إليها الابن لأنه يأخذ نصيب الابن المتوفى. فلنترض أن رجلاً عنده ثلاثة أبناء كان أحدهم متوفى وقت وفاة أبيه ولكنه

ترك أبناء. فحجب أبناء الأبناء من الميراث يتنافى مع جميع قواعد العدالة، ولكن الفقهاء يرون أن أبناء الأبناء يحجبهم الأبناء الأحياء ولا يكون لهم الحق في نصيب أبيهم. وفي الواقع، فإنه لو أخذ لدى العموم بالقاعدة التي تنص على أنه عند وفاة شخص يستحق نصيباً في الميراث يقوم أبناؤه مقامه، لاختمت عندئذ كثير من التعقيدات الناجمة عن الاجتهاد الفقهي. والنقطة الثالثة التي، في رأيي، خالف فيها الفقهاء روح القرآن، هي التفريق بين الإخوة لأم والإخوة لأب والإخوة الأشقاء والناجم عن سوء فهم معنى كلمة كلاله التي سبق شرحها على نحو وافٍ.

رأي الأحناف في تشريع الموارث

في تشريع الموارث عند الأحناف، ينقسم الورثة إلى مجموعتين.^٢ المجموعة الأولى يطلق عليها اسم أصحاب الفرائض أو نوي الفروض، أي الذين لهم فروض - أي أنصبة - محددة.^٣ وأصحاب الفروض اثنا عشر: أربعة من الذكور، وهم الأب، والجد، والإخوة لأم، والزوج؛ وثمان من الإناث، وهن الزوجة، والبنات، وبنات الابن، والأم، والجددة، والأخت الشقيقة، والأخت لأب، والأخت لأم. ويكون فرض الأب السدس إذا كان للمتوفى ابن أو ابن ابن، ولكنه أحياناً يرث باقي التركة، وأحياناً يرث كصاحب فريضة وكوارث لباقي التركة معاً، والحالة الأولى تحدث إذا كان يرث مع أحد أصحاب الفروض مثل الزوج أو الأم أو الجدة، والثانية إذا كانت معه الابنة أو ابنة الابن. ويأخذ الجد نفس نصيب الأب في عدم وجوده. والأخ لأم، إذا كان منفرداً، يأخذ السدس؛ وإذا كانوا أكثر من واحد، يشتركون في الثلث. ويأخذ الزوج النصف إذا لم يكن للزوجة ولد ويأخذ الربع إذا كان لها ولد.

وبين أصحاب الفرائض الإناث، تأخذ من توفي عنها زوجها الربع إذا لم يكن له ولد، وتأخذ الثمن إذا كان له ولد. وتأخذ الابنة، إذا كانت منفردة، النصف؛ وإذا كان له اثنتان فأكثر تشتركان في الثلثين. وابنة الابن تأخذ النصف إذا كانت منفردة ولا يوجد فرع مذكر مباشر؛ وإذا كانت اثنتين فما فوق تأخذان الثلثين؛ وإذا كانت مع ابنة صليبية واحدة للمتوفى تأخذ السدس. وتأخذ الأم السدس إذا كان للمتوفى ولد أو أخوان أو أختان فأكثر؛ وإذا يكن له أحد ممن تقدم ذكرهم تأخذ الثلث. وتأخذ الجدة نصيب الأم في عدم وجود الأم. والأخت الشقيقة أو الأخت لأب تأخذ النصف إذا كانت منفردة؛ والاثنتان فأكثر تأخذان الثلثين. ونصيب الأخت لأم هو نفس نصيب الأخ لأم.

^٢ أدين بالفضل في ملخص تشريع الموارث عند الأحناف إلى الكاتب سيد أمير علي في كتابه الشريعة المحمدية.

^٣ فرائض أو فُروض، جمع فريضة، (وهي في اللغة الشيء المفروض) وفي الشرع النصيب أو السهم المفروض للورثة. ولهذا السبب، يطلق على تشريع الموارث لدى العموم اسم علم الفرائض.

وثاني مجموعة من الورثة يطلق عليها اسم *أهل الميراث*، أي الورثة الذين يأخذون باقي الميراث. وأهم هؤلاء هم *العصبة*، أي الأقارب من جهة الأب، مثل الفروع الورثة الذكور والأصول الورثة الذكور، والفروع المشاركة للمتوفى في الأصل الأدنى مثل الإخوة الأشقاء أو الإخوة لأب أو أبنائهم، أو الفروع الأبعد في الأصل مثل الأعمام الأشقاء أو غير الأشقاء أو أبنائهم وآخرين؛ و*ذوو الأرحام* وهم الأقارب الذين تدخل في نسبهم إلى المتوفى أنثى مثل (أ) أبناء وبنات البنات (ب) وأبي الجدة لأب أو أم الجد لأب (ج) وأبناء الأخوات، وبنات الإخوة الأشقاء والإخوة لأب، وأبناء الإخوة لأم، (د) والعمات وأبنائهن، والأخوال وأبنائهن، والخالات وأبنائهن، والأعمام والعمات لأم وأبنائهم.

بالإضافة إلى ذلك، من المعترف به أنه يوجد أشخاص يرثون باقي الميراث لسبب معين وينتمي إلى هذه الفئة (أ) المولى المعتق، و(ب) ولى الميت، و(ج) المقر له بالنسب على الغير، و(و) الموصى له بجميع المال، وأخيراً بيت المال. ولكن الموضوع متخصص ومعقد جداً لدرجة أنه لا يمكن تناوله في كتاب معد للقارئ العادي؛ كما أن الخطوط العريضة لتشريع الموارث وفقاً لما ورد عن الفقهاء، على النحو السابق بيانه، تفي بغرض هذا الكتاب. ورغم ذلك، إذا تم تطبيق تشريع الموارث ببساطته، كما ورد في القرآن، فلن يجد حتى الشخص العادي صعوبة في تطبيقه على النحو المذكور آنفاً.

الديون

سوف يتبين لنا أن الديون هي أول عبء مالي على تركة المتوفى، كما تبين عبارة "أَوْ دَيْنٍ" التي وردت في الآيتين (١١) و(١٢). كما تعتبر أيضاً مصروفات الدفن بمثابة دين يجب قضاؤه من تركة المتوفى. وصدّاق الزوجة، إذا لم يدفع، يعتبر أيضاً بمثابة دين ويجب قضاؤه من التركة قبل تقسيمها. وفي حالة من لا ولد له، فإن عبارة "أَوْ دَيْنٍ غَيْرٍ مُضَارٍّ" تدل بوضوح على أن من لا ولد له قد يبرم عقد دين لحرمان ورثته من الميراث. وقد قسم الفقهاء الديون إلى ثلاثة أنواع: (أ) ديون يبرمها الشخص في حال صحته؛ (ب) وديون يبرمها الشخص أثناء مرض الموت؛ (ج) وديون يبرمها الشخص جزءاً منها في حال صحته وجزءاً في حال مرضه (*الشرعية المحمدية* لأمر علي). كما تدخل ضمن الديون أيضاً جميع الأجور المستحقة للعباد.

الوصية

تم إقرار مشروعية الوصية بوضوح في كلتا الآيتين اللتين تتناولان تشريع الموارث. حيث يتم تقسيم التركة "مِن بَعْدٍ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ"؛ "مِن بَعْدٍ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ" (سورة النساء (٤):

الآيتين (١١) و(١٢)). وقد ورد أمر آخر في أوائل التنزيل بشأن الوصايا: "كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ" (سورة البقرة (٢): الآية (١٨٠)). كما ورد أيضاً ذكر الوصية في آية نزلت قطعاً بعد الآيتين (١١) و(١٢) في سورة النساء (٤): "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ" (سورة المائدة (٥): الآية (١٠٦)). كل هذه الآيات تقدم دليلاً قاطعاً على أنه يمكن للشخص أن يوصي بشأن تركته.

ورغم ذلك، توجد أحاديث صحيحة تفرض قيوداً معيناً على الحق في الوصية، وفي الواقع فإنه لو لم توضع قيود لأصبحت الأوامر القرآنية الواردة في سورة النساء (٤): الآيتين (١١) و(١٢) لا أثر لها لأنه لن تكون هناك تركة تقسم بين الورثة الشرعيين. فيروى عن سعد بن أبي وقاص الحديث التالي: "مَرِضْتُ عَامَ الْفَتْحِ مَرَضًا أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي مَالًا كَثِيرًا وَلَيْسَ بَرِيثِي إِلَّا ابْنَتِي أَفَأُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ قَالَ لَا قُلْتُ فَقُلْتُ مَالِي قَالَ لَا قُلْتُ فَالْتُلْتُ قَالَ التُّلْتُ وَالْتُلْتُ كَثِيرٌ إِنَّكَ إِنْ تَدَعُ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعُهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ وَإِنَّكَ لَنْ تَنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِزْتَ عَلَيْهَا حَتَّى اللَّفْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ" (البخاري ٨٥: ٦؛ مسلم ٢٦: ٤٠؛ الترمذي ٢٩: ١). ويروى نفس الحديث برواية مختلفة نوعاً ما من خلال سند آخر، ووفقاً لهذه الرواية قال سعد بن أبي وقاص: "عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا مَرِيضٌ فَقَالَ أَوْصَيْتَ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ بِكُمْ قُلْتُ بِمَالِي كُلِّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ فَمَا تَرَكْتَ لَوْلَدِكَ قُلْتُ هُمْ أَغْنِيَاءَ بِخَيْرٍ قَالَ أَوْصِ بِالْعُسْرِ فَمَا زِلْتُ أَنْاقِصُهُ حَتَّى قَالَ أَوْصِ بِالتُّلْتِ وَالتُّلْتِ كَثِيرٌ" (الترمذي ١٢: ٢٠). وتبين هذه الروايات أن الوصية التي ورد ذكرها في عدة مواضع في القرآن هي وصية لأغراض خيرية، وليست وصية للورثة، وأن هذه الوصية تكون بالثلث حتى لا يحرم الورثة من نصيبهم في الميراث، ذلك أن مراعاة صالح الورثة تُعد لدى الشارع أمراً لا يقل نبلاً عن الصدقة. كما يمكننا أيضاً أن نضيف أنه، وفقاً لما ورد في حديث آخر، فإنه لا يُسمح بالوصية لوراث: "لَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ" (أبي داود ١٧: ٦؛ الترمذي ٢٩: ٤؛ ابن ماجه ٢٣: ٦). وتضاف إلى هذه الكلمات في بعض الروايات عبارة "إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الْوَرِثَةُ" (مشكاة المصابيح ١٢: ٢٠-٢). وبالتالي، فرغم أنه يجوز بوجه عام عمل الوصية لأغراض

^٤ بوجه عام، يُفترض أن عبارة "لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ" مرتبطة بالأمر بالوصية، وبذلك يكون معنى الآية أن الرجل الذي يترك مالا يجب عليه أن يوصي به للوالدين والأقربين، وبسبب هذا التفسير ينظر إلى الآية على أنها منسوخة بالآيتين (١١) و(١٢) في سورة النساء (٤). ولكن، كما سبق أن ذكرنا، فإن كلتا الآيتين تتحدثان صراحة عن الوصية وتوجبان عدم تقسيم التركة إلا بعد تنفيذ الوصية أو قضاء الدين. والتفسير الذي أخذت به يجعل الآية تتفق مع ما ورد في الآيتين القرآنتين الآخرين.

خيرية وليس للورثة، فإن الوصية تجوز للورثة إن شاء الورثة؛ بحيث إنه إذا لم يكن لديهم مانع، يمكن عمل أي ترتيب للتصرف في التركة عن طريق الوصية. ومن ثم، فإذا وافق الورثة، يمكن للرجل إما أن يقسم كل تركته بوصية، أو يتركها بدون تقسيم محدّدًا أنصبه الورثة في الإيراد.

الفصل التاسع

الديون

كتابة الديون

تعتبر كتابة الديون أحد الأوامر القرآنية: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بِيْنَكُم كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ... وَلَا تَسَامُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا" (سورة البقرة (٢): الآية (٢٨٢)).

ومن المستحب التعامل برفق مع المدينين: "وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية (٢٨٠)).

استحباب التيسير على المدينين

يشكل هذان الحكمان، أي كتابة الديون حسبما يمليه المدين في حضور شاهدين والتيسير على المُعسرين، أساس أحكام الديون في الإسلام ويكملهما كثير من التعاليم والوصايا المفصلة التي وردت في السنة النبوية. وينعكس اهتمام النبي (صلى الله عليه وسلم) بالمدينين في أقواله التي وردت بشأن الديون، وفيما يلي بعض هذه الأقوال: "رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَىٰ وَإِذَا اقْتَضَىٰ" (البخاري ٣٤: ١٦). "تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَالُوا أَعْمَلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا قَالَ كُنْتُ أَنْظِرُ الْمُوسِرَ وَأَتَجَاوِزُ عَنِ الْمُعْسِرِ قَالَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَجَوَّزُوا عَنْهُ" (البخاري ٣٤: ١٧). "مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظْلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي ظِلِّهِ" (مسند أحمد، الجزء الأول، ص. ٧٣). "مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فِتْحِ جَهَنَّمَ" (مسند أحمد، الجزء الأول، ص. ٣٢٧). "مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ... فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِيَنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ" (البخاري ٦٥، سورة الأحزاب (٣٣)، الباب الأول). "أَنَا أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَمَنْ تُوْفِّيَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيْ قَضَاؤِهِ وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلْيَوْرَثْتَهُ" (البخاري ٦٩: ١٥). تبين هذه الأحاديث الشريفة أن ديون المعسر غير القادر على السداد إما توضع عنه أو تسدها الدولة.

التشديد على قضاء الديون

في الوقت الذي يُنصح فيه الدائن في كثير من الأحاديث بالتيسير على المدين وعدم الضغط عليه أكثر من اللازم، ووضع قدر من الدين أو الدين كله عنه إذا كان معسراً، يؤمر المدين أيضاً بأن يكون حسن القضاء (البخاري ٤٠: ٥، ٦). ففي الحديث الذي يروي في هذه الأبواب، يروي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً". كما يؤمر الغني، بصفة خاصة، بعدم المماطلة في قضاء بالدين. وتوصف المماطلة في هذه الحالة بأنها ظلم (البخاري ٣٨: ١، ٢). كما يُدان الشخص الذي يستدين وليست لديه نية السداد (مسند أحمد، الجزء الثاني، ص. ٤١٧). وقد سبق أن استشهدنا بحديث يبين أن قضاء الدين أولى من التصدق. وفي حالة الميراث، لا يأخذ الورثة أنصباؤهم قبل قضاء جميع الديون (مسند أحمد، الجزء الرابع، ص. ١٣٦)؛ وعندما توجد وصية، يجب قضاء الديون قبل تنفيذها (مسند أحمد، الجزء الأول، ص. ٧٩).

التحذير من الاستدانة

رغم إقرار الاضطرار إلى الاستدانة في بعض الأحيان، ورغم ما يروي من أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه استدان عند الحاجة، فقد حذر صلى الله عليه وسلم في الوقت نفسه من الاستدانة. فيروي عنه صلى الله عليه وسلم في أحد الأحاديث الشريفة أنه "كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ وَيَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْتَمِ وَالْمُعْرَمِ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْمُعْرَمِ قَالَ إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا عَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ" (البخاري ٤٣: ١٠). وفي حديث آخر قال أنس بن مالك إنه كان يسمع النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَصَلَعِ الدِّينِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ" (البخاري ٥٦: ٧٤). كما يروي أيضاً أنه عندما كان صلى الله عليه وسلم يوتى بنعش الميت، كان يسأل عما إذا كان على الميت دين فإذا كان عليه كان يخبر الصحابة بأن يصلوا عليه صلاة الجنازة؛ وإذا أُخبر أنه ترك ما يسدد ديونه، كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يؤم صلاة الجنازة بنفسه (البخاري ٦٩: ١٥).

تحريم الربا

يتبين لنا مما سبق أن مساعدة المعسرين تعبر عن النظرة الأساسية للإسلام إلى المجتمع الإنساني. ويستند تحريم الربا على نفس الأساس. فحتى أوائل التنزيل المكي استتكرت الربا، وإن لم تكن حرمته بعد: "وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبَا لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُضْعِفُونَ" (سورة الروم (٣٠): الآية (٣٩)). وقد نزل تحريم الربا بعد ذلك وورد في الآيات التالية التي تعتبر من أواخر التنزيل: "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا" (سورة البقرة (٢): الآية (٢٧٥)). "يَمَحِّقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ" (سورة البقرة (٢): الآية (٢٧٦)). "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَإِن لَّمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ." (سورة البقرة (٢): الآيتان (٢٧٨) و(٢٧٩)). وإلى هذه الآيات يمكننا أن نضيف واحدة من أوائل ما نزل من الآيات: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (سورة آل عمران (٣): الآية (١٣٠)).

علة التحريم

من الواضح أن تحريم الربا في الآيات القرآنية سألقة الذكر مرتبط بالصدقة لأنه بقدر ما تشكل الصدقة الأساس العام للتعاطف بين البشر، فإن الربا يمحق كل مشاعر التعاطف بينهم. ويُشَبَّه أكل الربا بمن يتخطبه الشيطان من المس لدرجة أنه يعجز عن القيام. ذلك هو بالفعل أكل الربا الذي لا يتردد في أن يجعل المدين في عسر شديد إذا كان يمكنه بذلك أن يضاعف ماله. حيث تزداد أنانيته حتى يتجرد من جميع مشاعر العطف. بالإضافة إلى ذلك، فإن الربا ينمي عادات الكسل لأن أكل الربا، بدلا من أن يؤدي أي عمل جاد أو عمل يدوي، يصبح كالطفيل ينمو على حساب الآخرين. وفي الصراع الشديد الدائر بين رأس المال والعمل، يبحاز الإسلام إلى العمل، وبتحريمه للربا يسعى لإعادة التوازن بينهما بحيث لا يسمح لرأس المال بأن يستعبد العمل. وفي الإشارة إلى تمجيد الإسلام للعمل، قال تعالى في كتابه العزيز: "أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا" لأنه بينما يحتاج البيع للعمل والمهارة، فإن الربا لا يحتاج ذلك. وهدف الإسلام هو مساعدة المعسر في حين أن هدف الربا هو زيادة عسرة المعسر ومن ثم يوصف الربا بأنه "حَرْبٌ" مع الله ورسوله.

الأحاديث الواردة بشأن الربا

كما شددت السنة أيضاً على تحريم الربا. فلم تُدِنِ أكل الربا فحسب، وإنما أدانت أيضاً موكله^١ لأنه يناصر قضية الربا؛ ووفقاً لما ورد في أحد الأحاديث، يُدان أيضاً الشاهدان على الربا وكاتبه.^٢

١ البخاري ٣٤: ٢٥.

٢ المرجع السابق ٣٤: ٢٤.

كما تضاف أيضاً بعض التفاصيل التي تصف مقايضة الذهب بالذهب والشعير بالشعير والتمر بالتمر بأنها ربا إلا إذا كانت المعاملة يبدأ بيد^٣. وقد ورد حديث آخر يوضح ذلك. حيث روى أسامة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "لَا رِبَا إِلَّا فِي النَّسِيئَةِ" (البخاري ٣٤: ٧٩). مما يدل على أن الحالات التي تعتبر ربا هي تلك الحالات التي توجد فيها مقايضة شكلية فقط في حين تكون المعاملة في الحقيقة ربوية. فقد كان الذهب يعطى إلى الرجل بشرط أن يرد كمية أكبر من الذهب بعد وقت معين وكان الشعير يعطى بشرط أن يرد الرجل كمية أكبر من الشعير. فمن الواضح أن هذه معاملة ربوية رغم أنها تأخذ ظاهرياً شكل البيع. وفي هذا الصدد، يمكننا أن نضيف أن الحالة التي يعطي فيها المدين، بإرادته، إلى الدائن مبلغاً معيناً من المال زيادة على مبلغ الدين الأصلي لا تعتبر حالة ربا.^٤ فيروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه كان مديناً وعندما رد الدين، رد شيئاً زيادةً عليه. وتلك الزيادة في الحقيقة هدية من المدين يقدمها بمحض إرادته وليست مُحَرَّمَةً.

الفائدة

مما لا شك فيه أن أساس تحريم الربا هو مشاعر التعاطف مع المعسرين، ولكن الكلمة المستخدمة هي كلمة رِبَا (والربا في اللغة هو الزيادة)، أي الزيادة على رأس المال الأصلي المُقْرَض (تاج العروس؛ المعجم العربي - الإنجليزي للين)؛ ومن ثم، فرغم أن بعض الكتاب المعاصرين يرون أن الكلمة تستخدم فقط للإشارة إلى المعاملات الربوية، فإنه من الواضح أنها تشمل جميع أنواع الفائدة، سواء كان معدلها مرتفعاً أم منخفضاً وسواء أضيفت الفائدة أم لم تُصَف إلى رأس المال الأصلي بعد فترات زمنية محددة. وفي الحقيقة، فإنه من الصعب التفريق بين الفائدة والربا وبالفعل فإن الفائدة غالباً ما تأخذ، في النهاية، شكل الربا وتصبح مرهقة للمدين، وهي حقيقة يثبت صحتها تاريخ الاستدانة في جميع الدول. وأحياناً يُحْتَج بأن تحريم الفائدة سوف يشكل عقبة كؤوداً في طريق مزاولة التجارة وعقد المعاملات التجارية وتنفيذ الخطط القومية الهامة. فمن الصحيح أن هذا التحريم، إذا أُجِدَّ بمعناه الواسع، لا يتناسب مع الأوضاع العالمية المعاصرة، ولكن ليس من الصعب تحقيق الغاية السامية التي وضعها الإسلام نصب عينيه، كما أن الأمة الإسلامية العظيمة في أوائل الإسلام، التي كانت مترامية الأطراف وتقدمت أمم العالم العظيمة في مسيرة الحضارة، نفذت الأمر القرآني بتحريم الربا بأمانة. ورغم ذلك، أدت الحضارة الأوروبية المادية إلى نشوء أوضاع يبدو أنه من الصعب فيها تجنب الربا والفائدة وبذلك أُخْبِرَ المسلمون منذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان،

^٣ المرجع السابق ٣٤: ٥٤.

^٤ أبي داود ٢٢: ١١.

فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرَّبَا فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ بُخَارِهِ" قَالَ ابْنُ عَيْسَى "أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ" (أبي داود ٢٢: ٣).

الودائع في المصارف أو سندات الخزنة الحكومية

ذلك هو العصر الذي نعيش فيه، وإلى أن تنشأ حضارة جديدة تبنى على الأخلاق وتعاطف الإنسان مع أخيه الإنسان، يجب التوصل إلى حل ما للمشكلات الاقتصادية الكبيرة التي تواجه الدول الإسلامية. ويأتي على رأس هذه المشكلات النظام المصرفي الحديث. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل يتماشى هذا النظام مع تعاليم القرآن التي تحرم الربا؟ مما لا شك فيه أن هناك استنكارا عاما للربا في يومنا هذا رغم أنه مازال متفشياً في بعض الأماكن وأدى إلى الفساد الأخلاقي لدى المقرضين والمقترضين على حدٍ سواء، ولكن ينظر إلى النظام المصرفي بما ينطوي عليه من تحليل للفائدة على أنه شرط أساسي للحياة الاقتصادية ويبدو أنه لا يمكن تجنبه في ظل الأوضاع السائدة. فليس من الصعب أن يتجنبه المسلمون الذين يعيشون في ظل حكومات غير إسلامية فحسب، وإنما يبدو أيضاً أن الدول الإسلامية مضطرة إلى تطبيقه. فلنأخذ قضية التجارة، التي لم تعد قضية قومية فحسب وإنما صارت قضية عالمية، وسوف نجد أنها تعتمد كلياً على النظام المصرفي. ولو افترضنا أنه سوف يتم إنشاء النظام المصرفي من جديد، لكان من الممكن أن يبنى على النظام التعاوني الذي يشترك فيه صاحب رأس المال والعامل في الربح والخسارة؛ ولكن النظام المصرفي الحديث، كما هو عليه الآن، يُؤثر الرأسمالية وتراكم الثروة على توزيعها. ومهما كانت عيوبه، فإنه قائم وسوف يصيب غبار الربا الرجل الذي لا يأكله، كما ورد في الحديث الشريف.

الودائع المصرفية

يبدو أن قضية الودائع المصرفية، التي تدفع عليها فائدة، أشبه إلى حد ما بقضية التجارة التي تعتبر ضرورة لا يمكن تجنبها من ضرورات الأوضاع العالمية المعاصرة. حيث يتلقى المصرف الودائع ليس بصفته مقترضاً، وإنما بصفته أميناً، حيث يؤتمن على الأموال ويمكن سحبها وقت الحاجة. ولكن في الوقت نفسه لا يترك الأموال بدون تشغيل ويحقق بعض الربح منها الذي يأخذ معظمه شكل الفائدة. ويدفع المصرف إلى المودعين مبلغاً معيناً من الربح يتحدد بوجه عام حسب الأوضاع الاقتصادية السائدة في البلد المعني أو في العالم أجمع. ولا يحول كل الربح إلى المساهمين أو المودعين، وإنما يحول مبلغاً معيناً إلى صندوق الاحتياطي الذي يمكنه اللجوء إليه في السنوات الأقل ربحاً أو في حالة الخسارة. ومن ثم، فطالما كان هذا المبلغ جزءاً من الأرباح

التي حققها المصرف، فليس هناك ما يثير الاعتراض عليه، ولكن بما أن معظم ذلك الربح نفسه يعتبر فوائد مقبوضة، فإن قضية الربا تنشأ بشكل غير مباشر.

وليكون المودع في مأمّن من الوقوع في الربا، يمكنه أن ينفق المبلغ الإضافي الذي يتلقاه كفائدة على وديعته في أحد الأغراض الخيرية.° وفي الواقع، فإنه إذا أودع المودع أمواله بنية عدم استخدام الفائدة في غرض شخصي وعند تلقي المبلغ من المصرف يحوله بالفعل إلى جمعية خيرية ما، فإنه بذلك تنازل عن الربا، كما أمر القرآن. والفرق الوحيد هو أنه تنازل عن الربا، ليس لصالح المصرف الذي يقوم مقام المقترض في حالة الدين، وإنما لصالح إحدى الجمعيات الخيرية. ولكن رغم ذلك يكون المودع، الذي يقوم مقام المُقرض، تنازل عن الفائدة. وبقليل من التفكير، يتبين لنا أنه في هذه الحالة، فإن المتنازل له عن الفائدة ليس هو المصرف أو خزانة الدولة التي لا تحتاج لتلك المساعدة، وإنما المؤسسات الخيرية التي تعمل لخير الأمة الإسلامية جمعاء.

المصارف التعاونية

تتفق المصارف التعاونية مع روح تعاليم الإسلام لأن الفكرة التي تبنى عليها هي تحسين أحوال الفقراء الذين بذلك يتم إنقاذهم من براثن المقرضين للأموال الربوية. بالإضافة إلى ذلك، فإن الفرق بين المصرف العادي والمصرف التعاوني هو أن المصرف العادي يعمل بوجه عام لمصلحة الأثرياء والرأسماليين، في حين يعمل المصرف التعاوني لمصلحة الفقراء والعمال. كما أنه في المصرف التعاوني، يكون المساهمون هم أنفسهم المودعين والمقرضين لرأس المال وتكون الفائدة التي تدفع إلى المصرف تقريباً في شكل مساهمة ينتفع بها في النهاية مقترض المال.

الفائدة على رأس المال التجاري

تختلف فائدة رأس المال الذي يتم به تشغيل الشركة نوعاً ما عن الدين العادي. فهي في الواقع حالة يكون فيها صاحب رأس المال والعامل شركاء. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن

° أول من اقترح هذا المنهج هو مؤسس الحركة الأحمدية. فبسبب توقه الشديد إلى نشر الإسلام، أعلن أنه ينبغي إنفاق فائدة الودائع المصرفية في نشر الدعوة الإسلامية. كما أكد بصفة خاصة على أن الإصرار على تلقي الربا يوصف بأنه حرب مع الله ورسوله في قوله تعالى: "فَأَذْنُوبُ بَخْرَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ" (سورة البقرة (٢): الآية (٢٧٩)) وأنه بالتالي يجب إنفاق الأموال التي يتم تلقيها من الربا على نصرته الدين الإسلامي ونشره. كما تبنت أيضاً جامعة العلماء، وهي كيان يمثل رجال الدين المسلمين في الهند، الرأي القائل بوجوب إنفاق مبلغ فائدة الودائع المصرفية في الأغراض الخيرية.

الإسلام لم يحرم الشراكة التي يقدم فيها شخص رأس المال والآخر العمل. ولكنه أوجب أن يكون صاحب رأس المال والعامل شركاء في الربح والخسارة. ويدل دفع فائدة بمعدل ثابت على أن صاحب رأس المال سوف يأخذ دائماً ربحاً حتى لو كانت الشركة تعمل بخسارة. فمن الصحيح أنه عندما تحقق الأعمال ربحاً، قد يكون معدل الفائدة أقل بكثير من الربح المحقق، ولكن في كل هذه الأمور غير المؤكدة تكون وجهة نظر الإسلام أنه لا ينبغي أن يحصل أي من الطرفين على ميزة غير مشروعة أو يتكبد خسارة غير مشروعة. فإذا كانت الشركة تعمل بربح، فليكن لرأس المال النصيب الذي يستحقه من الربح، ولكنها إذا كانت تعمل بخسارة، فليتحمل رأس المال أيضاً نصيبه من الخسارة. ويُزعم أحياناً أن إمساك حساب الأرباح والخسائر لا يخدم الغرض المرجو، ولكن هذا ليس في الحقيقة صحيحاً لأنه يجب على كل رجل أعمال أن يمسك حساباً للأرباح والخسائر، حتى لو كان بغرض سداد الضرائب فقط. كما تمسك أيضاً جميع شركات المساهمة حسابات مماثلة وليست هناك صعوبة في إمساكها. فهذه الطريقة تفيد الصالح العام للمجتمع أكثر من طريقة فرض فائدة على رأس المال تنمي الرأسمالية وتظلم العمال.

اقتراضات الدول

يختلف اقتراض الدولة أو الشركة للأموال بغرض تنفيذ المشروعات الكبرى عما سبق. ففي هذه الحالات، تُدفع بوجه عام إلى المساهمين الذين يقدمون رأس المال حصص أرباح يتم تقديرها حسب الأرباح. ولكن أحياناً يُدفع إلى المساهمين معدل فائدة ثابت. والسؤال الآن هو هل تتدرج هذه الحالات ضمن نطاق تحريم القرآن للربا. والإجابة على هذا السؤال هي أنه رغم أن معدل الفائدة محدد بالتأكيد، فإن هذه الفائدة تُدفع رغم ذلك من الأرباح وتعتبر بوجه عام جزءاً من الأرباح. وأحياناً تكون أرباح المنشأة أقل من مبلغ الفائدة المدفوع أو ربما تتكبد الشركة خسارة، ولكن في هذه الحالات يوجد صندوق الاحتياطي الذي يتم اللجوء إليه. ورغم ذلك، لا يمكن أن ننكر أن دفع حصص أرباح متغيرة يتفق مع روح تعاليم الإسلام أكثر من دفع معدل فائدة ثابت.

الفصل العاشر

أحكام عامة

القسم الأول - الأطعمة

الإسلام يحث على النظافة

بالإضافة إلى القواعد والأحكام اللازمة لبلوغ كمال النفس وتقوية علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، توجد أحكام تقييدية معينة ذات طابع عام تهدف إلى تعليم الإنسان أساليب الحياة الطاهرة النظيفة. وترتبط هذه الأحكام بالأطعمة، والأشربة، والملبس، وعدة أشياء أخرى ولها فائدة جسدية ومعنوية. فمن المعترف به أن الطعام الذي يتناوله الإنسان، أو حتى الملابس الذي يرتديه، له تأثير ليس فحسب على تكوينه الجسدي، وإنما أيضاً على تكوين شخصيته، ومن ثم ففي منظومة الحياة الشاملة من الضروري أن يتعلم الإنسان النظافة في المأكل، والمشرب، والملبس، والمظهر ويكتسب عادات النظافة بشتى أنواعها. وهذه الأحكام أحياناً واجبة، ولكنها كثيراً ما تكون مندوباً إليها.

القواعد العامة للأطعمة

تُرْسَى أول قاعدة عامة للأطعمة، وهي تسري على الأشربة أيضاً، في قوله تعالى في كتابه العزيز: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً" (سورة البقرة (٢): الآية (١٦٨)).^١ وبالتالي، فإن أول شرط يجب توافره هو أن يكون الطعام والشراب حلالاً. والأشياء الحلال لا يُشترط فحسب فيها أن الشرع لم ينص على تحريمها، وإنما حتى الأشياء غير المُحرَّمة تصبح محرمة إذا تم الحصول عليها بطرق غير مشروعة، أي بالسرقة أو الغش أو الرشوة أو غيرها من

^١ الكلمة العربية حلال مشتقة من الفعل حل أي فك العقدة ومن ثم فالحل أو الحلال هو كون الشيء حرّاً أو مباحاً.

الطرق غير المشروعة. والشرط الآخر الواجب توافره هو أن يكون الطعام أو الشراب طيباً^٢. وكلمة طيب تحمل معنى كل ما هو حسن أو مستلذ أو حلو وكل ما هو طاهر أو غير نجس (المعجم العربي - الإنجليزي للدين). ومن ثم، ينبغي ألا يؤكل شيء نجس أو غير طاهر أو شيء يؤدي الذوق الحسن. وتسري نفس القاعدة على الأشربة.

استحباب الاعتدال في الطعام والشراب

يكمل القاعدة السالف ذكرها، أي اجتناب المحرمات والنجاسات، اثنان من الأوامر الهامة الأخرى ذات الطابع العام. أولهما تحريم الإسراف في الطعام والشراب: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" (سورة الأعراف (٧): الآية (٣١)). وقد يكون الإسراف إما في تناول الطعام، عندما يثقل المرء المعدة بالطعام، أو ربما يكون في تناول أنواع معينة من الأطعمة. فأَي طعام، مهما كان طيباً، يضر بالصحة إذا أسرفنا في تناوله. والاعتدال في الطعام يكفل الحفاظ على الصحة. وكما أن الإسراف في الطعام يضر الجسم، فكذاك أيضاً سوء التغذية يضعف الصحة. ومن ثم، يُعطى الأمر التالي: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا" (سورة المائدة (٥): الآية (٨٧)). وفي هذه الكلمات، تُستنكر جميع ممارسات حرمان النفس التي يحرم بها الإنسان نفسه إما من القدر اللازم من الطعام أو من أنواع معينة من الطعام. ولا ينبغي أن يحرم الإنسان نفسه من الطيبات التي تساعد على تكوين الجسم.

الأطعمة المحرمة

نزل تحريم أربعة أشياء صراحةً في القرآن: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ. إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ." (سورة البقرة (٢): الآيتان (١٧٢) و(١٧٣)). وقد نزل نفس التحريم من قبل تقريباً بنفس الكلمات في سورة النحل (١٦): الآية (١١٥) في الوقت الذي كان فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) مازال في مكة، في حين أنه في سورة الأنعام (٦): الآية (١٤٥)، وهي ضمن التنزيل المكي، تضاف علة التحريم، وفي سورة المائدة (٥): الآية (٣)، التي تعتبر من أواخر ما نزل في تحريم الأطعمة، تضاف عدة أشياء على سبيل التوضيح.

^٢ الكلمة مشتقة من الفعل طاب ومعناه حسن، أو سرّ أو أبهّج النفس، أو لذ لها، أو عُدّ كذلك، أو كان أو صار طاهراً أو غير نجس.

وعلى ذلك، تتمثل الأطعمة المحرمة فيما يلي:

١- الميتة.^٣ وفقاً لما ورد في سورة المائدة (٥): الآية (٣)، يندرج ضمن الميتة ما يلي: "الْمُخْتَفِقَةُ وَالْمُؤَفَّقَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ"؛

٢- الدم: الذي يرد بيانه في سورة الأنعام (٦): الآية (١٤٥) في قوله تعالى "كَمَا مَسَّفُوحًا".^٥

٣- لحم الخنزير: حرمت الشريعة الموسوية أيضاً لحم الخنزير (سفر اللاويين ١١: ٧). ويبدو أن المسيح عيسى بن مريم، شأنه شأن اليهودي الحق، كان يشمئز من الخنزير: "ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير" (متى ٧: ٦). كما يروى أيضاً أن عيسى (عليه السلام) أخرج بعض الأرواح النجسة التي سمح لها أن تمضي في قطيع الخنازير وبذلك تسبب في هلاكه (متى ٨: ٣٠-٣٢؛ مرقس ٥: ١١-١٣). مما يدل على أنه كان يعتبر الحيوان نجساً. وقد شبه القديس بطرس المذنبين الذين يرتدون إلى الخطيئة بالخنزير الذي يعاود التمرغ في الطين بعدما اغتسل (رسالة بطرس الثانية ٢: ٢٢).

٤- رابع نوع من الأطعمة المحرمة هو ما أهّل لغير الله به، أي ما دُكرَ غير اسم الله عند ذبحه. وفي سورة المائدة (٥): الآية (٣)، يضاف إلى الأطعمة المحرمة "مَا دُبِحَ عَلَى النُّصَبِ" (للأصنام)، ومن الواضح أنه يندرج ضمن هذا الوصف.

ويصف القرآن أول ثلاثة أطعمة محرمة، أي الميتة، والدم، ولحم الخنزير، بأنها نجاسات في حين يوصف الطعام الرابع، أي ما دُكرَ غير اسم الله عند ذبحه، بأنه فسق. والسبب في هذا التفريق هو أنه توجد نجاسة في حالة أول ثلاثة أطعمة لأن لها تأثيراً ضاراً على الجوانب العقلية والجسدية والمعنوية في الجسم؛ في حين أنه في الحالة الرابعة، يتأثر الجانب الروحي لأن ذكر غير اسم الله أو نحر الذبائح للأصنام، يجعل للفرد صلة بعبادة الأوثان. وفي هذه الحالة، ليس الشيء نجساً في حد ذاته، مثل الدم أو الميتة أو لحم الخنزير؛ وإنما هو محرم لأن تناول مثل هذا الطعام يجعل للإنسان صلة بعبادة الأصنام.

^٣ لحم الميتة حرام، ولكن جلدها يجوز الانتفاع به. فقد رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) شاة ميتة لم يسلم جلدها فقال إن المُخْرَمَ منها اللحم ولكن لا بأس من الانتفاع بجلدها (البخاري ٧٢: ٣٠). مما يستدل منه على جواز الانتفاع بالأجزاء الأخرى مثل العظام.

^٤ حرمت الشريعة الموسوية أيضاً الميتة أو الفريسة (سفر اللاويين ١٧: ١٥).

^٥ حرمت الشريعة الموسوية أيضاً الدم (سفر اللاويين ٧: ٢٦).

التنكية

وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، يجب ذبح^٦ جميع الحيوانات التي يحل أكلها بحيث يسيل الدم منها. والطريقة الشرعية في الذبح هي قطع *الحلقوم*، و*المريء*، و*الودجين*.^٧ والفكرة الكامنة وراء هذه الطريقة في الذبح بالذات هي تدفق الدم حيث لا تصبغ السموم التي يحتوي عليها جزءاً من الطعام.^٨ ويبدو أن هذه هي نفس علة تحريم الدم كطعام. ولا يحتاج السمك أو غيره من صيد البحر لتذكية^٩ وهو حلال بصرف النظر عن اصطاده؛ وكذلك أيضاً السمك الذي لفظه البحر أو النهر على البر أو الذي تبقي بعد انحسار الماء^{١٠} والذي بالتالي مات قبل صيده، بشرط ألا يكون فاسداً.

التسمية على الذبيحة

من الجدير بالذكر أيضاً أنه عند التنكية، يجب ذكر اسم الله على الذبيحة. فقد ورد في القرآن صراحةً قوله تعالى: "وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ" (سورة الأنعام (٦): الآية (١٢١)). ومن ثم، يجب عند تذكية الحيوان قول الكلمات التالية: "بِسْمِ اللَّهِ أَكْبَرُ". ويُتَسَبَّ هذا الفعل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم).^{١١} وإذا ترك المُذَكِّي هذا الذكر نسياناً، يكون لحم الذبيحة حلالاً،^{١٢}

^٦ كلمة ذبح تعني في الأصل شق طولياً؛ ومعناها العام قتل؛ ومعناها الاصطلاحي ذبح حيواناً بالطريقة الشرعية، أي بقطع الودجين أو بقطع الحلق من أسفل عند الجزء الذي يلي الرأس (المعجم العربي - الإنجليزي للين). ورغم ذلك، تستخدم هذه الكلمة في القرآن بمعناها العام في حين أن الكلمة الاصطلاحية المستخدمة للإشارة إلى ذبح الحيوان بطريقة معينة لاتخاذها طعاماً هي تنكية التي وردت في سورة المائدة (٥): الآية (٣). وكلمة تنكية هي الصيغة التوكيدية لكلمة ذكأ أو ذكأ التي تستخدم في الأصل للدلالة على اشتعال النار أو اشتداد لهبها وعبارة ذكأ النار معناها أوقد النار (المعجم العربي - الإنجليزي للين). ووفقاً لنفس مؤلف المعجم، فإن المعنى الحقيقي للتنكية (صيغة المصدر من الفعل ذكأ) هي إخراج الحرارة الغريزية، ولكنها تستخدم في الشرع خصيصاً للدلالة على إبطال الحياة على وجه دون وجه وبذلك تحمل نفس معنى ذبح.

^٧ انظر كتاب الهداية، الجزء الثاني، ص. ٤٢١.

^٨ قتل الحيوان بضربة واحدة لا يسمح بسيل الدم، ومن ثم فهو غير مرخص به للمسلمين. وكذلك أيضاً جميع طرق الذبح الأخرى التي لا يسيل فيها دم الذبيحة كله.

^٩ البخاري ٧٢: ١٢.

^{١٠} "أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ" (المائدة (٥): الآية (٩٦)) حيث يفسر "الطعام" باعتباره مميزاً عن "الصيد" في الأحاديث (البخاري ٧٢: ١١) بأنه السمك الذي لفظه البحر على اليابس أو الذي يوجد بعد انحسار الماء على ألا يكون فاسداً (البخاري ٧٢: ١١، ١٢).

^{١١} البخاري ٧٢: ١٦؛ مسند أحمد، الجزء الثالث، ص. ١١٥، ١٨٢. تحدث الإمام أحمد عن كل من التسمية (أي أن يقول الفرد بِسْمِ اللَّهِ) والتكبير (أي أن يقول الله أكبر) في حين تحدث البخاري فقط عن ذكر اسم الله الذي يشمل في الحقيقة التسمية والتكبير.

^{١٢} البخاري ٧٢: ١٥.

ولكن هناك اختلافاً في الرأي حول ما إذا كان لحم الذبيحة حلالاً أم حراماً إذا ترك الذكر متعمداً. فقد أحل الإمام الشافعي لحم الذبيحة في هذه الحالة بخلاف ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة.^{١٣} وعند تذكية الحيوان، يمكن استخدام أي آلة حادة تنهر الدم كما أن لحم الحيوان الذي ذبحته جارية بالحجر حلال.^{١٤} كما ورد صراحةً في القرآن تحليل طعام أهل الكتاب: "وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَالٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَالٌ لَهُمْ" (سورة المائدة (٥): الآية (٥)). ومن ثم، يجوز للمسلم دعوة أهل الكتاب لمائدته ويجوز له تناول الطعام على مائدتهم. ولكن السنة تبين بمزيد من الوضوح أنه يتم تحليل ذبيحة أهل الكتاب في هذه الآية. ويضيف الزهري أنه لو سُمِعَ المنكي يسمى بغير الله، فلا تؤكل الذبيحة، ولكنه لو لم يُسْمَع، تحل للمسلمين.^{١٥} كما أن ذبيحة غير المختن حلال أيضاً.^{١٦} وكما ذكرنا في مواضع أخرى، فإن عبارة "أهل الكتاب" تستخدم للإشارة إلى أصحاب جميع الديانات السماوية المنزلة، بما في ذلك المجوس، والهندوس، وغيرهم. وقد أحل النبي (صلى الله عليه وسلم) نوعاً معيناً من الطعام (الحجين) كان يعده المجوس رغم أنه أُخْبِرَ أنه عند تحضيره تُسْتَحْدَم الميتة؛ ولم يقل صلى الله عليه وسلم سوى: "سَمُوا اللَّهَ عَلَيْهِ".^{١٧} وقد بوب البخاري أحد أبوابه باسم "تَبِيحَةِ الْأَعْرَابِ" وفي هذا الباب أورد حديثاً روت فيه السيدة عائشة (رضي الله عنها) أن قوماً أتوا النبي (صلى الله عليه وسلم) وسألوه عن لحم أتى به إليهم قوم آخرون ولا يدرون ما إذا كان اسم الله ذَكَرَ عليه أم لا. فأجابهم النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله: "سَمُوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ وَكُلُوهُ" (البخاري ٧٢: ٢١). مما يعطي حرية تصرف كبيرة في الحالات الحرجة المشكوك فيها التي يضطر فيها المسلم للاعتماد على طعام يقدمه أو يعده له قوم آخرون.

الصيد

أباح القرآن الصيد صراحةً: "أَجَلٌ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ" (سورة المائدة (٥): الآية (٤)). وتوضح السنة^{١٨} أنه يجب ذكر اسم الله عند إرسال الحيوانات أو الجوارح للصيد. ويجوز أكل الصيد حتى لو قتلتها الحيوان أو الطير الجارح. ورغم ذلك، يُنْهَى عن قتل الصيد بالحصاة أو بالرمي بعبات الجوز.

^{١٣} الهداية، الجزء الثاني، ص. ٤١٩.

^{١٤} البخاري ٧٢: ١٨.

^{١٥} البخاري ٧٢: ٢١.

^{١٦} المرجع السابق.

^{١٧} مسند أحمد، الجزء الأول، ص. ٣٠٢.

^{١٨} انظر البخاري ٧٢: ١، ٤، ٥، ٨، ١٢ بخصوص محتويات هذه الفقرة.

وقتل الصيد بالسهم حلال لأن السهم ينهر الدم. وتسري نفس القاعدة على الصيد الذي تطلق عليه رصاصة البندقية، ولكن في كلتا الحالتين يجب التسمية قبل إطلاق السهم أو عيار البندقية وإذا قُتِلَ الصيد قبل إمساكه وذبحه لا حرج. وبالنسبة لصيد البحر أو الماء، يعتبر كله في حكم المذبوح.

ما حُرِّمَ من الطعام في السنة والفقهاء

وفقاً لما ورد في السنة، حرم النبي (صلى الله عليه وسلم) كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير.^{١٩} كما حُرِّمَ أيضاً الحمر الأهلية، ولكن الحمر الوحشية حلال،^{٢٠} وتحرم البغال ولكن الخيل حلال.^{٢١} والضب غير مُحَرَّم، ولكن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يأكله عندما قُدِّمَ إليه.^{٢٢} وورد في أحد الأحاديث الشريفة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يأكل الأرنب، رغم أنه لم ينة عن أكلها^{٢٣} كما لو كان لم يستطعها، ولكن هذا رأي عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) وآخرين بخلاف رأي العموم؛ فقد أورد البخاري حديثاً واضحاً يروى فيه أنه عندما اصطاد أبو طلحة أرنباً وأرسل جزءاً منها إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، قبله^{٢٤}، ومن ثم لا داعي للاعتقاد أنه كان يكرهها. وقد أضاف الفقهاء إلى قائمة المُحَرَّمات المذكورة في السنة ما يلي: الضبع، والثعلب، والفيل، والعرس، والبجع، والحدأة، والغراب الجيفي، والغداف، والتمساح، وكلب البحر، والحمار، والبغل، والدبور، وجميع الحشرات.^{٢٥} وكما ذكرنا في بداية هذا القسم، فإنه من بين الأشياء الحلال، هناك أشياء كثيرة تعتمد على الذوق الشخصي؛ فالشيء الذي قد يكون طيباً بالنسبة لشخص أو لقوم قد لا يكون كذلك بالنسبة لشخص أو قوم آخرين. وهناك أشياء معينة قد تكون طيبة ومفيدة كأطعمة، ولكن تناولها ينفر الآخرين؛ ولهذا السبب قال النبي (صلى الله عليه وسلم) إن كل من يأكل البصل والثوم غير المطهي ينبغي عليه ألا يقرب المسجد^{٢٦} لأن رائحته منفرة للآخرين؛ ولكن لا بأس من تناولهما مطبوخين^{٢٧} أو في صورة أخرى لا تؤدي إلى انبعاث رائحة كريهة أو في الأوقات التي ليس من المتوقع أن يظهر فيها الفرد بين الناس.

^{١٩} البخاري ٧٢: ٢٨؛ أبي داود ٢٦: ٣٢.

^{٢٠} البخاري ٥٦: ١٣٠؛ ٢٨: ٣.

^{٢١} أبي داود ٢٦: ٢٥.

^{٢٢} البخاري ٥١: ٧.

^{٢٣} أبي داود ٢٦: ٢٦.

^{٢٤} البخاري ٧٢: ٣٢.

^{٢٥} الهداية، الجزء الثاني، ص. ٤٢٤.

^{٢٦} البخاري ١٠: ١٦٠.

^{٢٧} الترمذي ٢٤: ١٤؛ مسند أحمد، الجزء الأول، ص. ١٥.

آداب الطعام

من المستحب^{٢٨} أن تُغسَل اليَدان قبل الطعام وبعده وأن يقول الفرد في أول الطعام "بسم الله" وأن يشكر الله أو يقول "الحمد لله" عندما يفرغ منه.

وفي حديث آخر،^{٢٩} يُسَبِّه الرجل الذي يشكر ربه بعدما يفرغ من الطعام بالصائم الصابر على المعاناة. ومن سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) المضمضة بعد الفروغ من الطعام.^{٣٠} كما أن هناك أيضاً أمراً بأن يأكل الرجل بيمينه.^{٣١} ويُنْهَى عن النفخ في الطعام أو الشراب.^{٣٢} ولا يُسْتَحَب أن يأكل الرجل متكئاً^{٣٣} أو أن يأكل أو يشرب واقفاً،^{٣٤} ولكن الإمام البخاري روى في صحيحه أن الإمام علياً (رضي الله عنه) تعمد الشرب واقفاً وأضاف قائلاً إنه رغم أن الناس يكرهون الشرب قياماً فإنه رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) يشرب واقفاً.^{٣٥} كما أن من آداب الطعام أيضاً أن يأخذ الرجل في طبقه من الطعام القدر الذي يكفيه بحيث لا يتبقى منه أي شيء بعد الأكل^{٣٦} وأن يأكل مما يليه.^{٣٧} ويروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يذم قطُّ الطعام الذي يقدم إليه؛ فإن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه.^{٣٨} ولم يرد في السنة ما يدل على استنكار تناول الطعام بالملعقة أو السكين. وإنما على النقيض من ذلك، يروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) استخدم السكين لتقطيع اللحم المطهي.^{٣٩} ومن آداب الطعام أيضاً إطعام الجوعان عندما يأكل المرء.^{٤٠} ويُنْهَى عن الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة^{٤١} لأنه ترف يمكن أن ينعم به الأغنياء على حساب الفقراء، كما أنه يتعارض مع روح المساواة في الإسلام.

^{٢٨} أبي داود ٢٦: ١١؛ البخاري ٧٠: ٢، ٥٤.

^{٢٩} البخاري ٧٠: ٥٦.

^{٣٠} البخاري ٧٠: ٥٢.

^{٣١} البخاري ٧٠: ٢.

^{٣٢} البخاري ٧٠: ٢٤؛ مسند أحمد، الجزء الأول، ص. ٣٠٩، ٣٥٧.

^{٣٣} البخاري ٧٠: ١٣.

^{٣٤} مسند أحمد، الجزء الثالث، ص. ١٩٩.

^{٣٥} البخاري ٧٤: ١٥.

^{٣٦} مسند أحمد، الجزء الثالث، ص. ١٧٧.

^{٣٧} البخاري ٧٠: ٣.

^{٣٨} البخاري ٧٠: ٢١.

^{٣٩} البخاري ١٠: ٤٣؛ الترمذي ٢٤: ٣٢.

^{٤٠} البخاري ٧٠: ١، ١١.

^{٤١} البخاري ٧٠: ٢٩؛ ٧٤: ٢٦، ٢٧.

الضيافة

لتقوية العلاقات الطيبة، يستحب ألا يتردد الرجل في تناول الطعام في بيت أقرابه أو أصدقائه: "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ" (سورة النور (٢٤): الآية (٦١)). من الواضح أن المقصود هنا أنه بين أقرب الأقارب والأصدقاء المخلصين، يجوز للرجل أن يأكل في بيت الآخر إذا حان وقت الطعام، رغم أنه قد لا يكون دُعي للطعام من قبل. وقد شددت السنة على إجابة الدعوة إلى الوليمة: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ دُعِيَ فَلَمْ يُجِبْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ".^{٤٢} كما شددت السنة أيضاً على الضيافة.^{٤٣} فقد ورد في أحد الأحاديث الشريفة أن النبي (صلى الله عليه وسلم)، عندما قدم المدينة، ذبح جملأ أو بقرة (ليولم على أصدقائه)^{٤٤}؛ مما يستنتج منه أنه عند القدوم من السفر، ينبغي على الشخص أن يضيف أصدقائه على الطعام. كما وردت صراحة في القرآن دعوة أهل الكتاب وإجابة دعوتهم: "وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلًّا لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ" (سورة المائدة (٥): الآية (٥)). ويتحدث القرآن عن تناول الأفراد الطعام جميعاً أو أشتاتاً: "لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا" (سورة النور (٢٤): الآية (٦١)). وقد رَغِبَت السنة في المناسبات الاجتماعية التي يجتمع فيها الناس على الطعام: "فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ".^{٤٥} ويؤكد تأثير الإسلام في إزالة الفوارق بين البشر نفسه في تناول الطعام ويُسْتَحَبُّ أن يجلس العبد على نفس المائدة مع سيده أو على الأقل أن يعطى جزءاً من الطعام الذي يأكله سيده.^{٤٦} وبالتالي، لم يجز الإسلام أي فوارق بين الرؤساء والمرؤوسين في الجلوس على نفس المائدة لتناول الطعام كما لم يجزها عند الوقوف في نفس الصف في الصلاة. وبذلك يعتبر الإسلام بجوانبه المادية والروحية دين الديمقراطية.

^{٤٢} أبي داود ٢٦: ١.

^{٤٣} أبي داود ٢٦: ٤.

^{٤٤} أبي داود ٢٦: ٣.

^{٤٥} أبي داود ٢٦: ١٥.

^{٤٦} البخاري ٧٠: ٥٥.

القسم الثاني - الأشربة

المُسْكِرَات

يُشار إلى الشراب الذي نزل تحريمه في القرآن باسم الخمر.^{٤٧} وهناك تفسيرات عديدة للكلمة الخمر حيث تعني ما أُسْكِر من عصير العنب أو عصير العنب عندما يَفور وتطفو رغوته ثم يخلو منها ويصبح ساكناً أو للكلمة استخدام عام حيث تشير إلى العصير المُسْكِر من أي شيء أو أي مُسْكِر يُكَاْمِر العقل أي يشوشه (المعجم العربي - الإنجليزي للين). ويضيف مؤلف المعجم قائلاً: "والاستخدام العام للكلمة هو الأصح لأنه نزل تحريم الخمر في الوقت الذي لم توجد فيه خمر من العنب وإنما كان مشروب سكان المدينة يُحَضَّر من التمر ... وكان يُحَضَّر أحياناً من الحبوب" (المرجع السابق). ويثبت القرآن في الآيات القرآنية المستشهد بها في الفقرة التالية صحة المعنى الأوسع للخمر التي كانت تُحَضَّر من أشياء أخرى غير العنب. ووفقاً لما رواه عمر (رضي الله عنه)، كانت الخمر، عندما نزل تحريمها، تُصنع من خمسة: العنب، والتمر، والحنطة، والشعير، والعسل.^{٤٨} ومن ثم، فإن الخمر مشروب مسكر يُحَضَّر من أي شيء.

وقد ورد الحديث عن الخمر في البداية بلغة الذم قبيل نهاية العهد المكي: "وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا" (سورة النحل (١٦): الآية (٦٧)). وتذكر الخمر هنا في مقابل الرزق الحسن. ورغم ذلك، يرجع تحريم الخمر إلى العهد المدني، وأول ما نزل في تحريمها ورد في أول سورة طويلة نزلت بالمدينة: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا لَأَكْبَرُ مِنَ نَّفْعِهِمَا" (سورة البقرة (٢): الآية (٢١٩)). هذه كانت المرحلة الأولى في تحريم الخمر، إلا أنه غلب على تلك المرحلة الندب إلى عدم تناولها مندوب إليه لأنه ورد في الآية الكريمة أن مضارها أكبر من منافعها. والمرحلة التالية هي التي نُهي فيها المسلمون عن دخول المساجد وهم سُكَارَى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ" (سورة النساء (٤): الآية (٤٣)). وأخيراً، نزل تحريم الخمر تحريماً قاطعاً: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ" (سورة المائدة (٥): الآية (٩٠)). وتذكر المراحل الثلاث لتحريم الخمر بوضوح في أحد الأحاديث.^{٤٩} وفي آخر

^{٤٧} كلمة خمر معناها في الأصل ستر أو غطى الشيء وهي مشتقة من نفس الجذر المشتقة منه كلمة خمار وهو غطاء رأس المرأة وقد سميت الخمر بهذا الاسم لأنها تُخْمَر العقل أي تستره.

^{٤٨} البخاري ٧٤: ٤.

^{٤٩} مسند أحمد، الجزء الثاني، ص. ٣٥١.

هذه المراحل، أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) منادياً ينادي بأن الخمر قد حُرِّمَتْ، وعندما سمع الناس المنادي أخلوا حوانيتهم من الخمر على الفور^{٥٠} لدرجة أن الخمر جرت في سكك المدينة.^{٥١}

وبما أن الخمر قد حرمت بسبب تأثيرها المُسْكِر، فقد ورد في السنة أن "كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ" (البخاري ٦٤: ٦٢). ومن ثم، تُحَرَّمُ الأعشاب والمخدرات التي يتم تعاطيها من أجل تأثيرها المخدر وكذلك كل المسكرات الأخرى؛ و فقط الشراب غير المُسْكِر حلال. وقد سُئِلَ النبي (صلى الله عليه وسلم) عن البَيْع - وهو مشروب مسكر يصنع من العسل (المعجم العربي - الإنجليزي للين) - فقال صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ" (البخاري ٧٤: ٣). كما يروى أيضاً أن أبا أسيد دعا النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى وليمة عرسه التي قدمت فيها زوجته - العروس نفسها - الطعام، وفي الوليمة قُدِّمَ مشروب التمر الذي لم تمر عليه سوى ليلة واحدة ولم يعترض صلى الله عليه وسلم عليه^{٥٢} لأنه لم يصبح مسكراً بعد. وقد سئل مالك بن أنس عن أُلْفَاعٍ - وهو مشروب يصنع من الشعير أو نوع من الجعة (المعجم العربي - الإنجليزي للين) ... فقال: "إِذَا لَمْ يُسْكِرْ فَلَا بَأْسَ" (البخاري ٧٤: ٣). والنيذ، أي عصير العنب الطازج الذي لم تمر عليه أكثر من ليلة أو يوم، حلال أيضاً. وعلى ذلك، ورد أن قوماً أتوا النبي (صلى الله عليه وسلم) وسألوه عما يصنعون بأعنانهم فأخبرهم بأن يصنعوا منها زيبياً ثم يستخدموا عصيره في المساء إذا كان منقوعاً في الصباح، ويتناولوه في الصباح إذا كان منقوعاً في المساء.^{٥٣} ولكن عندما يصبح الشراب مسكراً، فحتى القليل منه، الذي لا يسكر، حرام: "مَا أَشْكَرَ كَثِيرُهُ قَلِيلُهُ حَرَامٌ" (أبي داود ٢٥: ٥). أما السؤال عما إذا كان يجوز تناول القليل منه للتداوي فهو مختلف تماماً. فمن الصحيح أن هناك حديثاً شريفاً يروى فيه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نهى طارق بن سويد عن صنع الخمر وعندما أخبره أنه يصنعها للدواء قال النبي (صلى الله عليه وسلم) إنه ليس بدواء ولكنه داء.^{٥٤} ولكن من المرجح بقوة أن يكون هذا التحريم لصنع الخمر فقط؛ وكما شرح الإمام النووي، الشارح الشهير لصحيح مسلم، فإنه في الحالات الخطيرة عندما تكون الحياة معرضة للخطر يجوز تناول الخمر لإنقاذ الحياة لأنه حتى الميتة ولحم الخنزير يجوز تناولهما في هذه الحالة. وفي هذا الصدد، يمكننا أن نضيف أن النبي (صلى الله عليه وسلم) حرم أيضاً تجارة الخمر^{٥٥} وبالفعل كان من الضروري تحريم صنع الخمر والتجارة فيها في الوقت الذي نزل فيه تحريم شربها.

^{٥٠} البخاري ٧٤: ٢٤٦: ٢١.

^{٥١} مسند أحمد، الجزء الثالث، ص. ٢١٧.

^{٥٢} البخاري ٧٤: ٨.

^{٥٣} أبي داود ٢٥: ١٠.

^{٥٤} مسلم ٣٦: ٣.

^{٥٥} البخاري، ٣٤: ٢٤.

القسم الثالث - التزين

استحباب التزين والنظافة

أرسى القرآن قاعدة عامة للتزين في قوله تعالى: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ" (سورة الأعراف (٧): الآية (٣٢)). وتفهم كلمة زينة، في هذه الآية، بوجه عام على أنه يقصد بها الملابس، ولكن للكلمة في الحقيقة معنى أوسع يشمل الملابس والهيئة. كما فسرت الزينة أيضاً على أنها تشمل الزينة النفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة، والزينة البدنية كالقوة وطول القامة، والزينة الخارجية كالمال والجاه (المفردات في غريب القرآن). ويستحب التزين حتى عند الذهاب إلى المسجد: "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ" (سورة الأعراف (٧): الآية (٣١)). وقد شدد القرآن على النظافة وأولى لها مكانة تالية للتقوى عندما قال تعالى في واحدة من أوائل التنزيل: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ". (سورة المدثر (٧٤): الآيات (١-٥)). كما يتم التشديد أيضاً على طهارة الظاهر وكذلك طهارة الباطن من أول إلى آخر القرآن.

اللباس

لم توضع قيود على شكل أو نوع الملابس، سواء كان في القرآن أو السنة. فيروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "كُلُوا وَاشْرَبُوا وَانْسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ" (البخاري ٧٧: ١). وقال ابن عباس: "كُلُّ مَا شِئْتَ وَالْبَسُ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأْتُكَ اثْنَتَانِ سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ" (المرجع السابق). وبالتالي، لم يفرض الإسلام ملابساً معيناً. حيث يمكن للإنسان أن يأكل ويلبس ما يشاء. والشرط الوحيد هو أن يكون الملابس نظيفاً وحسناً.^{٥٦} وكل شيء يستر البدن حلال. فقد يخدم الغرض إزار بسيط أو بنطلون أو سروال وكذلك أيضاً القميص أو المعطف^{٥٧} طالما أنه يستر العورة. وتُعرَّف العورة بأنها: "العضو أو الأعضاء التي ليس من الحياء إظهارها؛ وفي الرجل تكون العورة منطقة ما بين السرة والركبتين، وفي المرأة الحرة جسدها كله عورة فيما عدا الوجه والكتفين حتى الرسغين" (المعجم العربي - الإنجليزي للين؛ تاج العروس). ولبس الحرير مُحَرَّمٌ بالنسبة للرجال، ولكنه يحل للنساء^{٥٨} مما يدل على أن الحرير لم ينبذ بالنسبة للرجال بسبب أي شوائب عالقة فيه، ولكن لأن ارتدائه لا يتفق مع

^{٥٦} أبي داود ٣١: ١٣.^{٥٧} البخاري ٨: ٩.^{٥٨} البخاري ٢٣: ٢٣؛ ٣٤: ٤٠؛ ٧٧: ١٢؛ ٧٧: ٣٠.

الحياة الشاقة التي يجب أن يعيشها الرجال لكسب رزقهم، ولأنه أيضاً ترف، ولأن المال الذي يُبَدَّد في شرائه يفضل إنفاقه في تحسين أحوال الفقراء. وفي بعض الحالات، يحل للرجال لبس الحرير. وعلى ذلك، يروى أن أحد صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ارتدى الحَزْرَ^{٥٩} الذي يفسر على أنه ما ينسج من الصوف المخلوط بالحرير أو ما ينسج من الحرير الخالص.^{٦٠} كما يروى نفس الشيء عن صحابي آخر ذكر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ نِعْمَةً، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ".^{٦١} وقد رخص النبي (صلى الله عليه وسلم) لعبد الرحمن والزيبر بلبس الحرير لإصابتها بالحكمة.^{٦٢} وذات مرة، أُهْدِيَ إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ثوب حرير فلبسه وصلى فيه؛ ولكنه بعد أن فرغ من صلاته خلعه كالكاره له.^{٦٣} كما ذم النبي (صلى الله عليه وسلم) مَنْ جر ثوبه الطويل أو من جر ذيل ثوبه لِيُنْظَرَ إِلَيْهِ، أو في خيلاء.^{٦٤}

وشأنه شأن اللباس، يعتبر تزين الرجل أو المرأة مسألة اختيارية. فالشعر الطويل جداً، في حالة الرجال، غير مستحب.^{٦٥} حيث يوجد أمر قرآني بتقصير الشعر بعد أداء الحج ومن ثم لا بأس بقص الشعر. كما يجوز للفرد حلق رأسه أو تقصير شعره أو تطويله. حيث يروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يصفف شعره بعدة طرق.^{٦٦} ورغم ذلك، فإن تشذيب اللحية وقص الشارب مندوب إليهما^{٦٧} بالإضافة إلى حلق العانة أو نتف الإبطين.^{٦٨} كما أن التطيب بالطيب مندوب إليه في أحاديث كثيرة،^{٦٩} وخاصة في أيام الجمعة عندما يكون هناك جمع من الناس^{٧٠} وللنساء بصفة

^{٥٩} مسند أحمد، الجزء الرابع، ص. ٢٣٣.

^{٦٠} المعجم العربي - الإنجليزى للين؛ تاج العروس.

^{٦١} مسند أحمد: الجزء الرابع، ص. ٤٣٨.

^{٦٢} البخاري ٧٧: ٢٩.

^{٦٣} البخاري ٧٧: ١٢.

^{٦٤} البخاري ٧٧: ٤، ٥.

^{٦٥} مسند أحمد، الجزء الرابع، ص. ١٨٠.

^{٦٦} أبي داود ٣٢: ٨، ٩.

^{٦٧} البخاري ٧٧: ٦٥.

^{٦٨} البخاري ٧٧: ٦٤.

^{٦٩} البخاري ٧٧: ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١.

^{٧٠} البخاري ١١: ٣، ٦.

خاصة.^{٧١} ورغم أنه يجوز للنساء أن يستخدمن أي حلي يَشَأْن،^{٧٢} فإنه لا يجوز للرجال سوى ارتداء الخاتم المنقوش فقد ارتدى النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه خاتماً من الفضة واستخدمه ليختم به الكتب التي يرسلها.^{٧٣}

^{٧١} البخاري ٦: ١٢، ١٤.

^{٧٢} مسند أحمد، الجزء الرابع، ص. ٣٩٢؛ أبي داود ٣٣: ٨.

^{٧٣} البخاري ٣: ٧.

الفصل الحادي عشر

الحدود

الحدود

يطلق على قانون العقوبات الإسلامي في الفقه والسنة اسم *الحدود*^١. وفي لغة الفقهاء، يقتصر استخدام كلمة حدود على عقوبات الجرائم المقررة في القرآن أو السنة، في حين أن العقوبات الأخرى المتروكة لتقدير الإمام أو الحاكم يشار إليها باسم *تعزيز* (والتعزيز في اللغة هو *التأديب*)^٢.

ويجدر بنا أن نذكر في بداية مناقشة قانون العقوبات الإسلامي أن الدولة لا تقرر عقوبات للتعدي على حدود الله بوجه عام؛ وإنما تقرر العقوبات في حالات التعدي على حقوق الآخرين. على سبيل المثال، لا عقوبة لمهمل الصلاة أو تارك الصوم أو الحج؛ ولكن في حالة الزكاة هناك فرق. فالزكاة صدقة وضريبة في نفس الوقت وقد عين النبي (صلى الله عليه وسلم) *جُباة* لجمع الزكاة التي كانت تدخل بيت المال مما يدل على أن جمع الزكاة أهد وأجبات الدولة الإسلامية. ومن ثم، فعندما حدث، بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم)، أن امتنعت بعض القبائل العربية عن دفع الزكاة، أرسل إليهم أبو بكر، أول الخلفاء الراشدين، قوات لمحاربتهم وقد اتخذ أبو بكر هذه الخطوة لأن امتناع قبيلة بالكامل عن الزكاة كان يعتبر بمثابة عصيان.

القاعدة العامة للعقوبات

جرائم الحدود في الشريعة الإسلامية هي تلك الجرائم التي تؤثر على المجتمع؛ وجرائم الحدود المشار إليها في القرآن هي القتل، والحراية أو قطع الطريق لسلب الأموال، والسرقعة، والزنا، والقذف.

^١ كلمة حدود هي جمع حد، والحد هو المنع أو النهي وبالتالي حد أو تشريع الله فيما يتعلق بالأشياء التي بين تحليلها وتحريمها (المعجم العربي - الإنجليزي للين). ويمضي نفس مؤلف المعجم قائلاً: "حدود الله عز وجل ضربان: ضرب منها حدود حدها للناس في مطاعهم ومشاربهم ومناكحهم وغيرها مما أحل وحرم؛ والضرب الثاني عقوبات جعلت لمن ركب ما نهى عنه."

^٢ الكلمة العامة التي تستخدم للإشارة إلى العقاب هي كلمة عقوبة (مشتقة من كلمة عقب وهو كل شيء يأتي بعد شيء آخر) وسميت بذلك الاسم لأن العقاب يأتي بعد تعدي حدود الله.

وقبل مناقشة العقوبات المختلفة المقررة في الحالات المتقدم ذكرها، يجدر بنا أن نذكر أن القرآن أرسى قاعدةً عامةً لمعاقبة مرتكبي الجرائم في قوله تعالى: "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ" (سورة الشورى (٤٢): الآية (٤٠)). وتسري هذه القاعدة الذهبية على نطاق واسع لأنها تسري على ظلم شخص لآخر على المستوى الفردي، وكذلك على الجرائم ذات الطبيعة الأقل خصوصية: أي الجرائم في حق المجتمع. وقد وردت في موضع آخر في القرآن تعاليم مماثلة بشأن معاقبة المجرمين: "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ" (سورة النحل (١٦): الآية (١٢٦))؛ "وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنَّزَرُهُ اللَّهُ" (سورة الحج (٢٢): الآية (٦٠))؛ "فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ" (سورة البقرة (٢): الآية (١٩٤)).

ورغم أنه في الآيات المتقدم ذكرها وفي آيات أخرى مشابهة، تُرسى قاعدة ذهبية للمظلوم تتص على أنه ينبغي عليه بادئ ذي بدء أن يعفو عن الظالم على أن يصلح من نفسه، فقد أُرسِيَ أيضاً في قوانين العقوبات بوجه عام أساس يكفل حماية المجتمع، وذلك الأساس، حسبما ورد في الآيات المتقدم ذكرها، هو أن جزاء السيئة بمثلها. وتستند إلى تلك القاعدة كل المدونات المتحضرة لقانون العقوبات، ويذكر هذه القاعدة العامة، أُفسِحَ المجال أمام الشعوب المسلمة والدول الإسلامية لصياغة قوانين عقوبات خاصة بها. ولهذا السبب، لم يخض القرآن في تفاصيل كثيرة ولم يتحدث عن العقوبة إلا في أبشع وأفظع الجرائم ضد الأشخاص والأموال. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن القرآن يستخدم بوجه عام نفس الكلمة للإشارة إلى العقوبة والجريمة في نفس الوقت. وعليه، ففي سورة الشورى (٤٢): الآية (٤٠)، يشار إلى السيئة وجزائها بكلمة سَيِّئَةٌ؛ وفي سورة النحل (١٦): الآية (١٢٦) وفي سورة الحج (٢٢): الآية (٦٠)، تستخدم كلمة مشتقة من كلمة عقوبة؛ وفي سورة البقرة (٢): الآية (١٩٤)، تستخدم كلمة اعتداء. ويدل استخدام نفس الكلمة، أي كلمة سَيِّئَةٌ، للإشارة إلى الجريمة والعقاب في نفس الوقت على أنه رغم أن الظروف تبرر العقوبة فإنها شر لا مناص منه.

عقوبة القتل

مما لا شك فيه أن القتل هو أبشع جريمة عرفها المجتمع حتى الآن. فالقتل جريمة استتكرت في أوائل التنزيل: "وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ" (سورة الإسراء (١٧): الآية (٣٣)؛ سورة الأنعام (٦): الآية (١٥١)). "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ

إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُنُونِ وَمَنْ يُعْلَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا" (سورة الفرقان (٢٥): الآيتان (٦٨) و(٦٩)).

ورغم ذلك، فُرِّرت عقوبة القتل في واحدة من التنزيل المدني: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَلْحُرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ (المظلوم) شَيْءٌ فَابْتِغَاءً (للدية) بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءً إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ." (سورة البقرة (٢): الآيتان (١٧٨) و(١٧٩)).

وكلمة قِصَاص مشتقة من الفعل قَصَّ أي قطعه بالمقص أو تتبع أثره ومن ثم تؤخذ الكلمة على أنها تعني القصاص في القتل، والجروح، والتمثيل بالأعضاء (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وقد امتد قانون القصاص لدى بني إسرائيل ليشمل كل الحالات المتقدم ذكرها، ولكن القرآن حصره صراحةً في القتل. فقد ورد في الكتاب العزيز أن القصاص في الجروح أحد أحكام الشريعة الموسوية (سورة المائدة (٥): الآية (٤٥))، إلا أنه لم يُذكر في أي موضع أنه قانون القصاص بالنسبة للمسلمين الذين لا يجب عليهم القصاص إلا في القتل (سورة البقرة (٢): الآية (١٧٨)). وقد ورد في بعض الأحاديث بما لا يدع مجالاً للشك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أمر بالقصاص في الجروح، ولكن هذا في أغلب الظن يرجع إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان يتبع الشرائع السماوية السابقة حتى يتلقى من ربه أمراً صريحاً خلاف ما جاء بها.

وتلي عبارة "القصاص في القتل" عبارة "الحرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى"، والتي أحياناً يساء فهمها على أنه يقصد بها أنه لو قتل حر يقتل حر مكانه وهكذا دواليك. ولكن ما يثبت عدم صحة هذا الفهم استخدام كلمة قِصَاص التي تقضي بقتل القاتل لا شخص بريء. وقد نزلت كلمات الآية للقضاء على عادة قديمة كانت سائدة بين العرب، لأن العرب قبل الإسلام كانوا يصرون، عندما يكون المقتول من أصل نبيل، على قتل أشخاص آخرين بجانب القاتل. لذلك، توضح الآية أنه أياً كان القاتل، حرّاً أم عبداً أم أنثى، فإن القاتل نفسه هو الذي يُقتل.

ورغم ذلك، يجوز التخفيف عن القاتل إذا عفا ولي الدم وقبِلَ الدية. والحالة الأخرى التي تحل فيها الدية محل عقوبة القتل حالة القتل الخطأ. حيث قال تعالى في كتابه العزيز: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ" (سورة النساء (٤): الآية (٩٢)).

قتل الذمي

في هذا الصدد، يجدر بنا أن نذكر أنه يُقصد بالقوم العدو، المشار إليهم في الاستشهاد السابق، أي قوم في حالة حرب مع الدولة الإسلامية. وتكون عقوبة قتل الذمي الذي يعيش في ظل حكم دولة إسلامية أو دولة غير إسلامية صديقة بالضبط نفس عقوبة قتل المسلم. فيروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا (أي غير المسلم الذي يعيش في حماية دولة إسلامية) لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا" (البخاري ٨٨: ٣٠؛ الترمذي ١٥: ١١؛ مسند أحمد، الجزء الثاني، ص. ١٨٦). وبذلك، فحتى من وجهة النظر الدينية البحتة، لا يُفَرَّقُ بأي شكل من الأشكال بين قتل المسلم وقتل الذمي، ومن ثم فإن أي فارق في العقوبة الدنيوية لمرتكب كل منهما غير وارد. وحيثما يتحدث القرآن عن القاتل، فإنه يتحدث دائماً عن قاتل النفس، وليس المسلم: "مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا" (سورة المائدة (٥): الآية (٣٢)). فمن الصحيح أن الإمام علياً (رضي الله عنه) كانت معه صحيفة ورد فيها أنه لا يُقْتَلُ مسلم بكافر،^٣ ولكن من الواضح أن هذا ينطبق على حالة الحرب وليس السلم؛ أما حالة السلم فقد تم الحديث عنها صراحةً في الحديث المتقدم ذكره. وفي الحقيقة، فإن حقوق الذميين في الدولة الإسلامية مساوية في جميع الجوانب لحقوق المسلمين لدرجة أنه يُطالب المسلمون بالقتال دفاعاً عنهم، كما يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال إن أموال الذميين ودماءهم لا تحل مثلما لا تحل أموال المسلمين ودماءهم. ووفقاً لحديث نبوي آخر، يروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "لَا تَحِلُّ أَمْوَالُ الْمُعَاهِدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا" (مسند أحمد، الجزء الرابع، ص. ٨٩).

تخفيف العقوبة في حالات القتل

تحدثت السنة عن حالات القتل التي يكون فيها قصد القاتل مشكوكاً فيه، وفي هذه الحالات أيضاً تُدْفَعُ الدية.^٤ وإذا تعذر اكتشاف القاتل، تُدْفَعُ الدية من بيت المال.^٥ ويبدو أنه لا توجد في الأثر أي حالة روي فيها أنه يجوز سجن القاتل في حالة القتل الخطأ، ولكن تخفيف العقوبة في هذه الحالات منصوص عليه صراحةً في القرآن. ونوع التخفيف المشار إليه في الكتاب الكريم هو دفع الدية، ولكن لا يبطل حق الدولة في منح ذلك التخفيف بأي شكل آخر.

^٣ البخاري ٨٨: ٣١.

^٤ البخاري ٥٦: ١٧٤.

^٥ أبي داود ٣٨: ١٨؛ مسند أحمد، الجزء الثاني، ص. ٣٦.

^٦ البخاري ٨٨: ٢٢.

حد الحِرَابَةِ

الجريمة الأخرى التي يجوز الحكم على مرتكبها بالقتل هي الحرابة. وتوصف الحرابة في القرآن بأنها حرب على الله ورسوله: "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ^٧ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ^٨ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (سورة المائدة (٥): الآية (٣٣)). وقد أجمع المفسرون على أنه يشار في هذه الآية الكريمة إلى المحاربين والقتلة الذين يشيعون الفتنة في مجتمع يسوده الاستقرار. وعقوبة الحرابة أربعة أنواع مما يدل على أن العقوبة التي تنزل بالمحارب في أي حالة بعينها تتوقف على ملاسبات الحالة. فإذا ارتكب القتل أثناء الحرابة، تكون العقوبة قتل المجرم، الذي قد يأخذ شكل الصليب إذا كانت الجريمة بشعة أو إذا أشاع المجرم الذعر بين الناس في الأرض إلى حد يكون معه ترك جسده على الصليب ضروريا كرادع للآخرين. وإذا طغى المحاربون وأفسدوا في الأرض، تقطع إحدى أيديهم وأرجلهم. وفي جرائم الحرابة الأقل خطورة، ربما تكون العقوبة السجن فقط.

حد السرقة

تعتبر السرقة الجريمة التالية من جرائم الحدود التي ورد ذكرها في القرآن: "وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ". (سورة المائدة (٥): الآيةان (٣٨) و(٣٩)). ويمكن أن يؤخذ قطع الأيدي مجازاً كما في قَطَعَ لِسَانَهُ، أي أسكته (لسان العرب). ولكن حتى لو أُخِذَ قطع الأيدي بالمعنى الحرفي، فليس كل نوع من السرقة موجبا للقطع وهي حقيقة أقرها جميع الفقهاء. وكما سبق أن ذكرنا، ففي جريمة الحرابة، تُذَكَّر أربع درجات من العقوبات تتفاوت من القتل أو الصليب حتى السجن. ومن الواضح أن السرقة ليست جريمة بنفس بشاعة جريمة الحرابة، وبالتالي لا يمكن أن تكون أقل عقوبة لمرتكبها أشد من أقل عقوبة لمرتكب الحرابة، وهي السجن، والعقوبة الأعلى درجة هي قطع الأيدي. ومن الواضح أيضاً أن المقصود هو أنه بينما تكون أقصى عقوبة لمرتكب

^٧ عبارة "مِنْ خِلَافٍ" قد تعني أيضاً بسبب المعارضة، وفي هذا المعنى إشارة إلى إشاعتهم الفساد في الأرض في حين يريد الله ورسوله استتباب الأمن الذي يكون فيه الإنسان آمناً على حياته وأمواله. وكلمة خِلَاف في الأصل تعني معارضة.

^٨ كلمة "نُفَاه" تعني طرده أو أبعدته (المعجم العربي - الإنجليزي للين). ومن ثم، فإن النفي قد يقصد به إما الإخراج من البلد أو السجن لأنه في السجن أيضاً ينفي الرجل من موطنه المعتاد. وقد أخذ الإمامان أبو حنيفة وأحمد النفي على أنه يقصد به السجن.

جريمة الحرابة هي القتل، فإن أقصى عقوبة لمرتكب السرقة هي قطع اليد. ومن ثم، فإن تحديد نوع العقوبة التي تتناسب مع حالة معينة متروك لتقدير القاضي. فقد تتطلب حالة المجتمع أحياناً الحكم بأقصى عقوبة على الجاني حتى في الحالات الأقل خطورة، ولكن توجد ملاسبات كثيرة من شأنها أن تبين أن أقصى عقوبة، أي قطع اليد، يمكن أن تُخصَّص عادةً للسرقات المتكررة. أولاً، يمكن اعتبار أقل عقوبة لمرتكب الحرابة، والتي سبق نكرها في الآية (٣٣)، على أنها أقل عقوبة لمرتكب السرقة الأقل خطورة بكثير من الحرابة مما يفي بغاية العدالة. ثانياً، ينبغي أن تُخصَّص عقوبة قطع اليد، وهي عقوبة الجرائم الأكثر خطورة التي تدخل ضمن الحرابة، للجرائم الأكثر خطورة التي تدخل ضمن السرقة، وجريمة السرقة تزداد خطورةً بوجه عام عندما تصبح متكررة. ثالثاً، توصف عقوبة قطع اليد، في حالات السرقة، بأنها عقوبة رادعة للغير، ولا يمكن إنزال هذه العقوبة بمرتكب الجريمة إلا في الحالات الخطيرة، أو عندما يكون المجرم اعتاد السرقة ولا يكون للعقوبة الأخف، أي السجن، تأثير رادع عليه. وأخيراً، تبين الآية (٣٩) أن الهدف من العقاب هو الإصلاح ولا يمكن أن تتاح فرصة الإصلاح إلا إذا كانت عقوبة الجريمة الأولى أو الثانية أقل تشدداً.

ومن الصحيح أنه ورد في السنة قطع اليد، حتى في حالة ارتكاب الجريمة لأول مرة، ولكن هذا ربما يرجع إلى الأوضاع الخاصة التي كانت سائدة في المجتمع آنذاك، ويُتْرَك تحديد العقوبة التي تتناسب الأوضاع لتقدير القاضي. على سبيل المثال، وفقاً لبعض الأحاديث، تُقَطَّع يد السارق إذا كان المبلغ المسروق ربع دينار فصاعداً؛ ووفقاً للبعض الآخر، تقطع يده في دينار فصاعداً^٩. ووفقاً لحديث آخر، لا تُقَطَّع يد السارق في السفر أو الغزو^{١٠}. وفيما يلي نص الحديث الذي ورد في سنن أبي داود: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا تُقَطَّعُ الْأَيْدِي فِي السَّرِّ". ربما كانت تُنْزَلُ بالسارق عقوبة أخرى في الحالتين المتقدم ذكرهما. وتوجد أحاديث أخرى تبين أنه لا قطع على سارق الثمار المعلقة^{١١}. كما يُحْرَمُ أيضاً قطع اليد في حالة الاختلاس^{١٢}. فعندما كان مروان بن الحكم حاكماً للمدينة، سرق عبد أشجار نخيل صغيرة من حديقة رجل وعندما أمسكه صاحب الحديقة سجنه مروان وكان ينوي قطع يده. فانطلق سيد العبد إلى رافع بن خديج الذي أخبره أنه سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول إنه لا قطع في ثمر، وعندما روى رافع ذلك لمروان، أطلق سراح العبد. ورغم ذلك، يروى أيضاً أن مروان جلده^{١٣}. وفي حديث آخر، يروى أن شخصاً ما سرق

^٩ أبي داود ٣٧: ١٢؛ النسائي ٤٦: ٧.

^{١٠} أبي داود ٣٧: ١٩؛ الترمذي ١٦: ٢٠؛ النسائي ٤٦: ١٣.

^{١١} أبي داود ٣٧: ١٣.

^{١٢} أبي داود ٣٧: ١٤.

^{١٣} أبي داود ٣٧: ١٣.

رداء شخص آخر قيمته ثلاثون درهماً من تحت رأسه، فعرض صاحب الرداء أن يبيعه إلى سارقه دون مطالبته بالدفع الفوري فقبل النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا الترتيب^{١٤}. تبين هذه الأمثلة أن للقاضي حرية كبيرة في اختيار العقوبة.

حد الزنا

يعتبر الزنا والذف جريمتين من جرائم الحدود وفقاً لما جاء في كتابه العزيز: "الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ" (سورة النور (٢٤): الآية (٢)). وفي حالة الإماء اللاتي يأتين بفاحشة، يكون الحد نصف الحد الذي يقام على المحصنة الحرة: "فَإِنْ أَتَيْنَ (الإماء) بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ" (سورة النساء (٤): الآية (٢٥)).

هذه هي الآيات الوحيدة التي تتحدث عن حد الزنا وهي تبين بوضوح أن الجلد، وليس الموت أو الرجم، هو حد الزنا. وفي الواقع، فإن سورة النساء (٤): الآية (٢٥) تستبعد بشكل حاسم أي احتمال لاعتبار الموت حداً للزنا في القرآن. فقد تحدثت الآية بوضوح عن حد الزنا في حالة الإماء المحصنات وكررت أيضاً أن الحد الذي يقام عليهن نصف الحد الذي يقام على المحصنات الحرائر. ويُعتقد بوجه عام أنه رغم أن القرآن قرر الجلد كحد للزنا عندما يكون الزاني بكاراً، فإن الرجم هو حد الزنا عندما يكون محصناً، ويُزعم أن هذا يستند إلى سنة النبي (صلى الله عليه وسلم). ولكن القرآن أورد صراحةً أن حد الزنا في حالة الإماء المحصنات نصف حد الزنا الذي يقام على المحصنات الحرائر، وبالتالي لا يمكن تصور الموت أو الرجم كحد محتمل للزنا لأن الموت أو الرجم لا يمكن أن يُقسّم نصفين، في حين أن هذا ممكن في حالة عقوبة السجن أو الجلد. وبالتالي، لم يورد القرآن فحسب أن الجلد، وليس الموت، هو حد الزنا، وإنما استبعد أيضاً بشكل قاطع عقوبة الموت أو الرجم.

الجلد

يمكننا أن نضيف بضع كلمات حول طريقة الجلد. والفعل جَلَدَ يعني ضرب أو أصاب جلده (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وبالتالي، فإن الجلد عقاب يشعر به الجلد ويهدف إلى إنزال الخزي بالمجرم أكثر من تعذيبه. ففي عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وحتى بعد وفاته ببعض الوقت،

^{١٤} أبي داود ٣٧: ١٥.

لم يكن هناك سوط وكان يتم الجلد بالجريد أو باليد أو بالنعال.^{١٥} كما ذكر أيضاً نفس المفسر الثقة أنه لم يكن المجرم يُجَزَّد من ملابسه لإقامة حد الجلد عليه؛ وإنما كان يطلب منه أن يخلع الملابس الثقيلة التي سوف تدفع الضربة كليله عنه. ووفقاً لحديث رواه ابن مسعود (رضي الله عنه)، فإن تعرية الظهر من أجل الجلد محرمة لدى المسلمين، وقد ذهب الشافعي وأحمد إلى أنه يجب أن يترك على الجسد قميص أو اثان.^{١٦} كما يروى أيضاً أنه يستحب توزيع الضربات على شتى أجزاء مختلفة من الجسم حتى لا يلحق الضرر بجزءه بعينه، ولكن يجب تقادي الضرب على الوجه والعورة.^{١٧}

الرجم في الشريعة اليهودية

كما ذكرنا آنفاً، لم يرد في أي موضع في القرآن الرجم كحد الزنا؛ ومن ناحية أخرى، يبين الأمر بإقامة نصف الحد في حالات معينة بوضوح أن الرجم لم يكن منصوباً عليه قط كحد للزنا في الكتاب الكريم. ورغم ذلك، ترد في السنة حالات كان حد الزنا فيها الرجم. وقد ورد صراحة أن إحدى هذه الحالات كانت حالة الرجل والمرأة اليهوديين اللذين زنيا: "عن ابن عمر أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ وَامْرَأَةٍ زَنِيَا فَأَمَرَ بِهِمَا فَرَجِمَا قَرِيبًا مِنْ حَيْثُ تَوَضَّعُ الْجَنَائِزُ عِنْدَ الْمَسْجِدِ" (البخاري ٢٣: ٦١). وقد ورد شرح هذه الواقعة بمزيد من التفصيل في حديث آخر يروى فيه أنه عندما رفع اليهود الأمر إليه صلى الله عليه وسلم سألهم عن حد الزنا المقرر في التوراة. فحاول اليهود في البداية إخفاء أنه الرجم، ولكن عندما أشار عبد الله بن سلام إليه،^{١٨} اعترفوا بالحقيقة وتم التعامل مع الزانيين وفقاً لتعاليم التوراة (البخاري ٦١: ٢٦). ووفقاً لرواية ثالثة أكثر تفصيلاً، قال اليهود الذين رغبوا في تجنب العقوبة الأكثر تشدداً، أي الرجم، بعضهم لبعض: "ذُهِبُوا بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ بُعِثَ بِالتَّخْفِيفِ فَإِنْ أَفْتَانَا بِقَتْلِنَا دُونَ الرَّجْمِ قَبْلِنَاهَا". ويروى بعد ذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ذهب معهم إلى مدراسهم (البيت الذي تقرأ فيه التوراة) وسألهم صلى الله عليه وسلم عن العقوبة المقررة في كتابهم المقدس. فحاولوا في البداية إخفاءها، ولكنهم اضطروا في النهاية للاعتراف بالحقيقة فأصدر النبي (صلى الله عليه وسلم) حكمه قائلاً: "فَأَنِّي أَخْكُمُ بِمَا فِي التَّوْرَةِ" (أبي داود ٣٧: ٢٦).

^{١٥} روح المعاني، الجزء السادس، ص. ٤.

^{١٦} المرجع السابق، ص. ٥.

^{١٧} المرجع السابق.

^{١٨} يعتبر عدم ورود الرجم كحد للزنا في التوراة الحالية بمثابة دليل قاطع على تحريف التوراة. وتبين الأناجيل أن الرجم ظل حد الزنا حتى عهد عيسى (عليه السلام): "وقدم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت في زنا. ولما أقاموها في الوسط قالوا له يا معلم هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترحم. فماذا تقول أنت. (يوحنا ٨: ٣-٥).

اتباع النبي (ص) تعاليم الشريعة اليهودية في البداية

لا تدع الأحاديث المتقدم ذكرها مجالاً للشك في أن الرجم هو حد الزنا في الشريعة اليهودية، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) أقام هذا الحد لأول مرة على المذنبين اليهوديين عندما قَدِمَ إلى المدينة المنورة. وتوجد أحاديث أخرى تبين أن نفس الحد أقيم في حالات معينة كان فيها المذنبان مسلمين، ولكن من الواضح أن هذا كان قبل نزول الآية (سورة النور (٢٤): الآية (٢)) التي أوردت أن الجلد هو الحد الذي يقام على الزاني والزانية، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يتبع الشرائع السماوية السابقة حتى يتلقى تنزيلاً محدداً في موضوع ما. وقد وردت إشارة إلى ذلك في الحديث التالي: "عَنِ الشَّيْبَانِيِّ سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى هَلْ رَجِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ قَبْلَ سُورَةِ النُّورِ (السورة (٢٤)) أَمْ بَعْدُ قَالَ لَا أَدْرِي" (البخاري ٨٧: ٦). والسورة المشار إليها في الحديث هي تلك السورة التي ورد فيها أن الجلد هو حد الزنا، ويبين السؤال المطروح بوضوح أنه من المعترف به أن الرجم كحد للزنا يتعارض مع الأمر القرآني الصريح الوارد في تلك السورة. ومن المحتمل أن سوء فهم ما نجم عن الوقائع التي حدثت قبل نزول الوحي القرآني بشأن هذه النقطة، وأن ذلك الفعل اعتبر من سنة النبي (صلى الله عليه وسلم). وقد رفض الخوارج، وهم أقدم الفرق الإسلامية، الرجم كحد للزنا في الإسلام^{١٩}.

ويبدو أنه قد أُثير في وقت مبكر السؤال عن كيف يرحم الزاني في الوقت الذي فرض فيه القرآن الجلد كحد الزنا الوحيد. فيروى عن عمر (رضي الله عنه) قوله: "إِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ مَا بَالُ الرَّجْمِ وَإِنَّمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ الْجُلْدُ"^{٢٠}. وقد رد عمر (رضي الله عنه) على هؤلاء المعترضين بقوله: "فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الرَّجْمِ فَعَرَفْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا رَجِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الزاني والزانية) وَرَجِمْنَا بَعْدَهُ فَأَحْسَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ وَاللَّهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ"^{٢١}. ووفقاً لرواية أخرى، يروى عن عمر (رضي الله عنه) أنه أضاف قائلاً: "أَوْلَا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عَمْرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَكُنْتُمْهَا"^{٢٢}. ولكن الحجة المنسوبة إلى عمر (رضي الله عنه) لا أساس لها من الصحة. فقد أقر عمر بأنه لم ترد في القرآن آية تفرض عقوبة الرجم على الزانيين كما يروى عنه في الوقت نفسه قوله إنه كان مما أنزل الله على النبي (صلى الله عليه وسلم) آية الرجم. فمن المرجح أن ما يقصده عمر، لو كان قال هذه الكلمات من الأساس، أن آية الرجم وردت في الكتاب المقدس لليهود،

^{١٩} روح المعاني، الجزء السادس، ص. ٦.

^{٢٠} مسند أحمد، الجزء الأول، ص. ٥٠.

^{٢١} البخاري ٨٧: ١٦.

^{٢٢} أبي داود ٣٧: ٢٤.

أي التوراة، التي تعتبر بلا شك تنزيلاً إلهياً، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) رجم الزاني والزانية. كما أن استخدام عبارة "كِتَابِ اللَّهِ" للإشارة إلى التوراة شائع في القرآن نفسه حيث يشار مراراً في القرآن إلى التوراة بأنها كِتَابِ اللَّهِ أو الكِتَابِ.^{٢٣} وأغلب الظن أن عمر (رضي الله عنه) كان يتحدث عن الرجم كحد الزنا في الشريعة الموسوية ولكن أسيء فهمه. وعلى أية حال، من المحال أن يكون عمر نطق الكلمات المنسوبة إليه. فلو كانت توجد مثل هذه الآية القرآنية، لاسترعى عمر (رضي الله عنه) انتباه الصحابة إليها عند إعداد مصحف مكتوب كامل في عهد أبي بكر بناءً على اقتراح عمر. وعليه، ليس للكلمات المنسوبة إليه في بعض هذه الأحاديث معنى. فكيف يعقل أن يقول إنه توجد آية قرآنية كان سيكتبها في القرآن، ولكنه خشي أن يقول الناس زاد عمر في القرآن، أي زاد فيه ما ليس منه؟ فلا يمكن أن يقال إن آية ما تعتبر من القرآن وليست منه في نفس الوقت.

كما توجد أدلة أخرى في كتب الحديث تثبت أن عمر (رضي الله عنه)، على الأقل في حالة واحدة رويت في حديث ما (وهو حديث صحيح)، عاقب زانيين بالجلد كما ورد في القرآن في سورة النور (٢٤): الآية (٢)، وليس بالرجم. ووفقاً لما رواه الإمام البخاري، علم شخص يدعى حمزة، وهو أحد المحدثين عن عمر، أن رجلاً محصناً زنى بجارية امرأته فعاقبه عمر بمائة جلدة فُرِفِعَ الأمر إلى عمر ثانية فأيد حكمه الأول.^{٢٤} ومن ثم، فإن تصرفه يثبت عدم صحة الحديث الذي يُنسب إليه رضي الله عنه قوله إن الرجم كحد للزنا أمر ورد في آية قرآنية. ويُقدّم أحياناً تبرير لذلك بأن تلك الآية نزلت ولكنها نُسخَت بعد ذلك، رغم أن الأمر الذي ورد فيها ظل معمولاً به. ولكن لا معنى بالمرّة لهذا التبرير. فلو كانت كلمات الآية نُسخَت، فإنه يستتبع ذلك بالضرورة أن يُنسخ الأمر الذي ورد فيها. وما من أمر يمكن أن يُعبّر عنه إلا في كلمات، وإذا كانت الكلمات نُسخَت فإن الأمر يُنسخ أيضاً. ومن ثم، فلو كانت هذه الآية نزلت من قبل (وهو ما لا يوجد دليل جدير بالذكر عليه)، فإن الإقرار بنسخ الآية يترك الأمر كما كان قبل نزولها.

حد القذف

تُعاقب جريمة القذف بعقوبة تكاد تساوي في شدتها عقوبة الزنا: "وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (سورة النور (٢٤): الآيتان (٤) و(٥)).

^{٢٣} سورة البقرة (٢): الآية (٢١٣)، وآيات أخرى.

^{٢٤} البخاري ٣٩: ١.

وفي هذا الصدد، يمكننا أن نضيف أنه، رغم أنه في الأمور العادية تطلب شهادة شاهدين،^{٢٥} فإنه في حالة القذف، يجب أن يؤتى بأربعة شهود. وعليه، لا تثبت حالة الزنا إلا بأقوى أدلة ممكنة. ويبين إمكانية قبول قرينة الأحوال ما ورد في القرآن نفسه بشأن حالة نبي الله يوسف الذي، عند اتهامه بالاعتداء على امرأة العزيز، تمت تبرئته من التهمة المنسوبة إليه استناداً إلى قرينة الأحوال.^{٢٦} كما توجد أيضاً بعض الأحاديث التي تبين أن قرينة الأحوال تقبل عندما تؤدي إلى إثبات واقعة معينة.

حد شارب الخمر

لم يتحدث القرآن عن حد شارب الخمر، ولكن توجد أحاديث شريفة تبين أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أقام الحد في هذه الحالات. ويبدو أن هذا الحد كان من أخف الحدود وكان لا يقام إلا عندما يسكر الرجل بشراب. وعلى ذلك، يروى أن شخصاً ما يدعى نعيمان أو ابن نعيمان أتى به إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو سكران، فشق ذلك علي النبي (صلى الله عليه وسلم) فأمر من كان في البيت أن يضربوه فضربوه بالنعال والجريد.^{٢٧} وتروى واقعة أخرى ضرب فيها شارب الخمر بالأيدي، والنعال، والأثواب.^{٢٨} وقد ظلت هذه هي الممارسة المتبعة في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي عهد أبي بكر (رضي الله عنه) وبعض الوقت أثناء خلافة عمر، وكانت تنزل بشارب الخمر عقوبة مخففة عبارة عن الضرب بالأيدي أو النعال أو الأردية (جمع رداء)، ولكن عمر أدخل بعد ذلك الجلد أربعين جلدة ثم رفع الحد لثمانين جلدة عندما وجد أن الناس عتوا وفسقوا.^{٢٩} ومن المرجح أن هذا الحد، أو على أية حال الحد الأكثر تشدداً، كان يقام بسبب إخلال شاربي الخمر بالأمن العام.

وصايا عامة لإقامة الحدود

يجب إقامة الحد دون مراعاة للأشخاص، ولا تُقبل الشفاعة في الحدود. فعندما، في حالة امرأة ما سُرقت، طلب بعض الناس الشفاعة لها من خلال أسامة بن زيد لأنها كانت من أسرة نبيلة،

^{٢٥} سورة البقرة (٢): الآية (٢٨٢).

^{٢٦} سورة يوسف (١٢): الآيات (٢٦-٢٨).

^{٢٧} البخاري ٨٦: ٤.

^{٢٨} البخاري ٨٦: ٥.

^{٢٩} البخاري ٨٦: ٤.

غضب النبي (صلى الله عليه وسلم) وقال لأسامة أتشفع في حد من حدود الله ثم قام فخطب في الناس جميعاً وقال: "إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ" (البخاري ٨٦: ١٢). ولكن بيدي الرفق بالمذنب عند إقامة الحد إذا تاب.^{٣٠} ويُنْهَى بشدة عن أن يؤخذ الرجل بجريرة أخيه.^{٣١} ولا يقام الحد على المجنون أو غير البالغ.^{٣٢} ويؤجل الحد الذي يقام على الحامل حتى تضع حملها.^{٣٣}

^{٣٠} البخاري ٨٦: ١٢؛ أبي داود ٣٧: ٩.

^{٣١} أبي داود ٣٨: ٢.

^{٣٢} البخاري ٨٦: ٢٢؛ أبي داود ٣٧: ١٧.

^{٣٣} ابن ماجه ٢١: ٢٢.

الفصل الثاني عشر

الدولة^١

هناك شيء مشترك بين جميع المفاهيم الحديثة للدولة؛ وهو أن المكاسب المادية أصبحت تسيطر على رؤية العالم المتحضر لدرجة أن الله والدين أصبحا في طي النسيان، وأهملت القيم السامية للحياة حتى في الدول التي ما زالت تدين بالولاء الاسمي للمسيح والمسيحية. فربما تختلف الدول الحديثة في إقرارها اللفظي بالسيادة العليا لله عز وجل، ولكن مما يدعو للاستغراب أنها تتفق في عبادة الإلهين الجديدين اللذين صنعتهما الحضارة الغربية بدلاً من الله الواحد الذي رفضته تلك الحضارة بوصفه شيئاً ينتمي إلى الماضي. وصارت الأمة والدولة الإلهيين الجديدين اللذين يخز الإنسان المتحضر ساجداً أمامهما. وجنباً إلى جنب مع إله المال القديم - الذي ربما يوجد من قديم الأزل - ظهر ثالث جديد ليحل محل ثالث الكنيسة. وبما أن تحقيق المكاسب الاقتصادية أو كسب المال أصبح الشيء الوحيد الذي يهم الإنسان المتحضر، أصبح الإنسان مستعداً لبذل أية تضحية تُطلب منه لتحقيق هذه الغاية باسم الدولة وفي سبيل الأمة. وبذلك، أصبح للمال، والأمة، والدولة أعلى مكانة في قلب الإنسان المتحضر وأصبح يعبد هذه الآلهة. وبما أن الرغبة في الانحناء كامنة داخل الطبيعة البشرية، فإنه إذا لم ينحن البشر أمام خالقهم، فسوف ينحنون حتماً أمام أشياء من صنعهم. ورغم ذلك، عادة ما تؤدي الأشياء غير الجديرة بالعبادة بالبشرية إلى الهلاك، وعبادة إله المال ورفيقه، أي الأمة والدولة، تؤدي الآن بالحضارة إلى الهلاك المؤكد. وأصبح شعار الدولة في الغرب، سواءً أكانت توصف بأنها دولة ديمقراطية أم فاشية أم شيوعية، هو التوسع، والعدوان، واستغلال الضعفاء. وليس ميكافيلي وحده هو الذي لا يقيم وزناً "لاعتبار العدل أو الظلم" والذي معه "يوضع الضمير جانباً" عندما تكون سلامة الدولة معرضة للخطر. وإنما حتى من أدانوه يسيرون على خطاه. وبما في حوزتهم من ذهب العالم وقنابل وقاذفات قنابل، يزعمون أنه لهم حقاً إضافياً في السيطرة على مصائر الآخرين لتحقيق المزيد من المكاسب الاقتصادية لشعبهم. وأصبح العدوان بشكل أو بآخر قوام الدولة المتحضرة. ولم يعد للضعفاء حقوق؛ وإنما أصبحت الحقوق تنتمي فقط إلى الأقوياء الذين لديهم من الجبروت والقوة ما يجعلهم يحظون باحترام العالم واهتمامه. وقد تبنت دول الغرب هذه الرؤية مما أدى إلى سعى الدول للتفوق

^١ لا يشكل الفصلان اللذان يحملان عنواني: "الدولة" و"الأخلاق" جزءاً من الكتاب الذي نُشر في الأصل. وإنما أخذت مادة هذين الفصلين من عمليتين لنفس المؤلف نشرهما فيما بعد؛ وهما: *التعاليم الخالدة الموحى بها إلى النبي الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)* (نشر أول مرة عام ١٩٤٧) و*النظام العالمي الجديد* (نشر أول مرة عام ١٩٤٤).

بعضها على بعض في الجيوش والأسلحة. والنتيجة صراع مميت بين الدول المختلفة والرغبة في تدمير بعضها بعضاً.

وتُلْقَى المسؤولية عن هذه الأوضاع بالكامل على عاتق المفهوم المادي للدولة. وأصبح يجب على كل دولة حتماً أن تكتسب القوة التي تساعد على التصدي للعدوان، وحماية الضعفاء، وإنصاف الجميع. وقد أدى التقدم العلمي إلى زيادة هذه القوة إلى آلاف الأضعاف. ومن ناحية أخرى، أدت النظرة المادية إلى الحياة إلى عدم تورع الإنسان عن استخدام القوة ضد أخيه الإنسان، ومع التقدم الذي أحرز في قهر الطبيعة وتسخيرها، توقف قهر النفس وكبح جموحها، الذي يعتبر وحده الرادع لظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وتراجع إلى الوراء. والنتيجة استخدام السلطات المتزايدة المخولة إلى الدولة، والتي يباشرها حتماً الأفراد، لاستعباد الإنسان وتدميره، وليس لتخليصه من الظلم ومساندة قضية الحق والعدل. وقد دُكِرَ عن حق أنه رغم أن العلم سخر للإنسان قوى تتناسب الآلهة، فإن الإنسان المتحضر يحمل عقلية همجية. وبدلاً من أن تساعد الدولة على تحقيق المزيد من السعادة للبشر وهو الهدف الأساسي لها، أصبحت الدولة مصدر خطر يهدد سعادة البشر، وأصبح هذا الإله الزائف يستعبد الفرد لدرجة أنه أصبح يعمل، طوعاً أو كرهاً، كجزء من منظومة تهدف لتدمير البشرية.

وللتصدي لهذا الشر، أوجب الإسلام إسناد سلطة الدولة إلى أشخاص يخشون ربهم قبل كل شيء. ورغم أن الدولة التي أسسها النبي (صلى الله عليه وسلم) كانت ذات قوة مادية، كما يجب أن تكون كل دولة حتماً، فإنه صلى الله عليه وسلم أسدى إلى البشرية خدمة فريدة من نوعها عندما أضاف الطابع الروحي على أعظم القوى المادية البشرية. ويطلق على رئيس الدولة في الإسلام اسم أمير (الأمير في اللغة هو الشخص الذي يأمر) وإمام (والإمام في اللغة هو الشخص الذي يُقْتَدَى به)، أي شخص على مستوى أخلاقي رفيع. فعلى فراش الموت، أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى من ينبغي أن يخلفه كرئيس للدولة الإسلامية عندما عين أبا بكر الصديق، وهو أنسب رجل باعتراف الجميع، ليؤم الصلاة في غيابه صلى الله عليه وسلم. وقد استمرت هذه الممارسة فترة زمنية طويلة وكان رئيس الدولة يؤم الصلاة. وكانت التقوى - أي خوف الله واحترام حقوق الغير - شرطاً أساسياً يجب توافره في الحاكم مثل الكفاءة للحكم. فالقوة الروحية وحدها يمكنها أن تساعد الإنسان على السيطرة على القوى التي تكسبه إياها السلطة الدنيوية والتي، في غياب تلك القوة، تكون معرضة لخطر سوء الاستغلال. ومن ثم، كان نموذج الدولة الإسلامية الأولى، الذي جمع بين منصب الزعيم الروحي والزعيم الدنيوي للأمة، أكمل نموذج شاهده تاريخ الحكم. حيث كان رئيس الدولة يعتبر نفسه مسؤولاً أمام ربه، في المرتبة الأولى، عن ممارسة السلطة الدنيوية المخولة إليه.

وبذلك، كانت أسس الدولة التي أرساها النبي (صلى الله عليه وسلم) أسساً روحية. كما كانت في الوقت نفسه أسساً ديمقراطية بالمعنى الحقيقي للكلمة. فيوجد اعتقاد خاطئ شائع في بعض المناطق بأن الدولة الإسلامية كانت دولة ثيوقراطية. ولكن رئيس الدولة الإسلامية لم يكن يعتبر نفسه خليفة الله في الأرض، وإنما كان يرى أنه يمثل الناس الذين اختاروه لخدمتهم؛ ورغم ذلك كان يعتبر نفسه بالتأكيد مسؤولاً أمام ربه عن كل عمل يُقَدِّمُ عليه أثناء ممارسة سلطته. والناس جميعاً، بمن فيهم الحاكم، لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ويخضعون لنفس الشريعة. وحتى النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه لم يطالب بأي حقوق غير تلك التي كان يتمتع بها غيره من المسلمين. وعند إدارة شؤون مؤسسة الدولة، التي كان صلى الله عليه وسلم مؤسسها ورئيسها، لم يكن هناك ما يميزه عن الآخرين. فقد جاء بعض الغرباء ذات مرة وسألوا الناس قائلين: من منكم محمد؟ مما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يحيا أبسط حياة ممكنة ولم تكن له أفضلية لكونه حاكماً للمسلمين. وعندما كانت قوات المسلمين تحفر خندقاً للدفاع عن المدينة، كان صلى الله عليه وسلم يحفر معهم بفأسه، وعندما كانوا يحملون أكوام التراب والحجارة، كان صلى الله عليه وسلم أحد العمال الذين غطاهم التراب. وإذا كان التاريخ قد شهد دولة ديمقراطية خالية من كل فوارق الوراثة أو المنزلة أو الامتيازات، فهي إنما كانت الدولة الديمقراطية التي أرسى النبي (صلى الله عليه وسلم) أسسها. وربما لم يشهد التاريخ فاتحاً أعظم من عمر، ثاني الخلفاء الراشدين، حيث كان فاتحاً وحاكماً في نفس الوقت. ورغم ذلك، لم يكن رضي الله عنه يُشكِّت حتى أقل رعاياه عندما يبكته أمام الناس. فيروى أن أحد رعاياه ذات مرة قاطعه مراراً وقال له: "اتق الله يا عمر"؛ وعندما أراد الآخرون إسكاته، تدخل عمر (رضي الله عنه) نفسه وقال: "دعه لا خير فيهم إن لم يقولوها لنا". وقد خرج هذا الإمبراطور الذي كان يحكم أربع ممالك ليلياً يعس أحوال الرعية فرأى خيمة بها جياح حيث وجد فيها امرأة ليس لديها من الطعام ما تطهيه لطفليها، فاندفع عائداً إلى المدينة حيث قطع مسافة ثلاثة أميال وحمل على ظهره جراب دقيق ليطعم المرأة الفقيرة وطفليها. وعندما عرض الخادم أن يساعده في حمل الحمل، قال عمر (رضي الله عنه): "إن تتعهد هذا العبء فمن يتولى عبء الذنوب عن عنق عمر". ورغم ذلك، عندما كان هذا الخادم العظيم للبشرية راقداً على فراش الموت ومدح أحد الشباب فضائله ومناقبه، قال له (رضي الله عنه) أنه يكفيه أن تُذَّهب حسناته ما ارتكبه من سيئات عند توليه السلطة. ذلك الأسلوب في التفكير وحده هو الذي يمكن أن يجعل الإنسان مؤهلاً لحكم إخوانه البشر. ولكن هذه العقلية لا يشكها سوى الإيمان القوي بالله وشعور الفرد بالمسؤولية أمام ربه.

تلك الحكومة المسؤولة هي الحكومة التي أنشأها الإسلام، حكومة تولاها رجال أدرکوا أنهم، فوق كل شيء، مسؤولون أمام ربهم عن كل ما يقدمون عليه من أفعال. فالرجال الجديرون بالتكريم - فإسناد السلطة إلى الرجل بالتأكيد تكريم له - هم أولئك الذين يؤدون واجباتهم على أكمل وجه.

أولئك الرجال هم الذين يحكمون الآخرين. "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا" (سورة النساء (٤): الآية (٥٨)).^٢ وقد ورد في السنة أن كل إنسان تسند إليه أي سلطة راع في مجاله ومسؤول أمام ربه عن رعيته: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" (البخاري (١١: ١١)). وبذلك، يوضع الحاكم أو رئيس الدولة جنباً إلى جنب مع ولاة الأمور في نفس مرتبة الخادم. فكما أن الخادم يؤتمن على مال يسأل عنه أمام سيده، وكذلك الأشخاص الذين توكل إليهم سلطة الدولة، أيأ كان المنصب الذي يشغلونه، يُعهد إليهم برعاية الشعب وحماية حقوقه، ولضمان أداء واجباتهم على أكمل وجه فإنهم مسؤولون، في المرتبة الأولى، أمام سيدهم الحقيقي، الله عز وجل، ثم أمام الشعب الذي عهد إليهم بهذه المهمة. وأول متطلبات مؤسسة الدولة القويمة هو تبنى هذه الرؤية من جانب كل فرد من أفرادها، ومن ثم يتم التأكيد على هذه الرؤية في المفهوم الإسلامي للدولة.

كما تبين الآيات والأحاديث المتقدم ذكرها أن فكرة الملكية بالوراثة غريبة على مفهوم الدولة في الإسلام. كما أن الدولة الإسلامية ليست دولة أوتوقراطية لأنه لا تتناط برئيس الدولة في الإسلام سلطة مطلقة. فقد سبق أن ذكرنا أن القانون واحد للجميع والجميع سواسية أمام القانون، بما في ذلك الرجل المنوطة به السلطة العليا، وبما في ذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه الذي كان يخضع لأحكام الشريعة^٣ شأنه شأن أي من أتباعه. فعن أبرز صفات المسلمين، يورد القرآن الصفة البارزة التالية في قوله تعالى: "وَأْمُرُهُمْ سُورَىٰ بَيْنَهُمْ" (سورة الشورى (٤٢): الآية (٣٨)). وتسمى السورة التي ترد فيها هذه الآية سورة الشورى لأنه يُرْسَى فيها مبدأ الشورى الديمقراطي العظيم كأساس للدولة الإسلامية في المستقبل. وسورة الشورى واحدة من أوائل التنزيل عندما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) مازال يحيا حياة المصلح المُضطَّهد الذي لا حول له ولا قوة وتبين كيف تمتزج فكرتا إضفاء الطابع الديمقراطي والروحي على الدولة: "وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" (سورة الشورى (٤٢): الآية (٣٨)).^٤ وتبرز الآية الكريمة

^٢ يتناول كل القسم الوارد في سورة النساء (٤)، الذي ترد فيه الآية المتقدم ذكرها، موضوع إيتاء الملك للمسلمين الذين يُطلب منهم في الآية الكريمة أن يعهدوا بشؤون الدولة إلى أشخاص أهل للمسؤولية. والكلمات التي تليها - "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل" - تعزز هذا المعنى لكلمة *أمانات* وكل الآية تشير إلى الواجبات المتبادلة بين المحكومين والحكام. وفي تفسير معنى كلمة *أمانات*، قال ابن عباس أنها تعني الواجبات. وقد فسر النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه كلمة *أمانة* (مفرد *أمانات*) على أنها تعني الحكم أو شؤون الدولة. فقد قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال يا رسول الله كيف قال إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة" (البخاري ٨١: ٣٥).

^٣ "إِنْ أَتَبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" (سورة يونس (١٠): الآية (١٥)).
^٤ في هذه الآية الكريمة، يؤمر المسلمون كالمعتاد بإقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله. ورغم ذلك، يرد بين هذين الأمرين،

الأعمال العظيمة اللازمة لإضفاء الطابع الروحي على الإنسان: الاستجابة لله، وإقام الصلاة، وتكريس النفس لخدمة البشرية، في الوقت الذي ترسي فيه مبدأ إدارة شؤون الدولة. كما تبين أيضاً الآيات التي تليها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يرغب في التهذيب الروحي لأتباعه عندما يستعدون لإدارة شؤون الدولة: "وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (سورة الشورى (٤٢): الآيات (٣٩-٤٣)). وتبين هذه القواعد الممتازة - الموضوعية لنصرة الأمة الإسلامية، التي كانت مظلومةً ومضطهدةً آنذاك، وللعفو عن العدو الذي كان عاقد العزم على إبادتها - بوضوح أنه، في الآيات المتقدم ذكرها، يُرسي أساس الدولة الإسلامية لأنه لا يمكن العفو إلا عن العدو المهزوم. وفي محنتهم يُطلب من المسلمين العفو عندما يأتي دورهم للانتقام من العدو المهزوم. وبذلك، تمحى من قلوبهم الرغبة في الانتقام من البداية ويُضفى الطابع الروحي على القوة المادية للدولة بإخضاعها للاعتبارات الأخلاقية.

والدولة الإسلامية دولة ديمقراطية بالمعنى الحقيقي للكلمة. فقد كان أول الخلفاء الراشدين أبا بكر الصديق الذي تم اختياره رئيساً للدولة بموافقة جميع الأطراف، وكذلك أيضاً تم اختيار الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين جاءوا بعده. وقد أوضح أبو بكر في أول خطبة له السبب وراء الحاجة لمؤسسة الدولة والوضع الدستوري لرئيس الدولة: "فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، ألا إن القوى فيكم ضعيف عندنا حتى نأخذ الحق منه، والضعيف فيكم هو القوي عندنا حتى نأخذ له بجهه... فإن أحسنت فأعينوني، وإن أخطأت فقوموني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم. فإن عصيته، فلا طاعة لي عليكم".

وقد كان رئيس الدولة يعتبر موظفاً في الدولة يتقاضى راتباً ثابتاً لإعالة نفسه وأسرته من بيت المال، شأنه شأن سائر الموظفين الحكوميين. وقد عمل بهذه القاعدة أبو بكر، أول الخلفاء الراشدين (البخاري ٣٤: ١٥). ولم تكن لرئيس الدولة امتيازات خاصة، وبصفته الشخصية كان يمكن مقاضاته في المحكمة شأنه شأن أفراد الأمة. فقد مثل سيدنا عمر (رضي الله عنه) أمام المحكمة كمدعى عليه. وكان من بين الأوامر التي أعطها عمر (رضي الله عنه) لحكام الولايات

الذين دائماً ما يقترنان في القرآن والذين يشكلان أساس الحياة الإسلامية الصحيحة، أمر ثالث: "وَأْمُرْهُمْ شُورَى تَبِيَهُمْ". ومن الواضح أن الهدف من نزول هذا الأمر في هذه الفترة الأولى هي إعداد المسلمين لإدارة الشؤون الهامة للدولة وتولي جميع الأمور المرتبطة بأحوال الأمة من سراء وضراء. ويلاحظ أن "أمرهم" وردت في الآية للإشارة إلى شؤون المسلمين، وعبارة "أمر الله" كثيراً ما تشير إلى إقامة مملكة الله التي ترمز إلى المملكة الإسلامية. ومن ثم، تُستخدَم كلمة "أمر هنا للإشارة إلى المملكة الإسلامية التي يجب إدارة شؤونها بالشورى.

أنهم ينبغي ألا يمتنعوا من لديه شكوى من الدخول إليهم في جميع أوقات النهار، وألا يكون على أبوابهم حارس يمنع الناس من الدخول إليهم. كما ينبغي عليهم أن يتعودوا على الحياة الشاقة. وكان رئيس الدولة يدير شؤون البلاد بمساعدة الوزراء، وكانت جميع الأمور الهامة يفصل فيها مجلس يتم تشكيله لهذا الغرض.

وكان يُطالب الذين يُعهد إليهم بالحكم بالعمل لمصلحة الرعية: "مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رِعِيَةً فَلَمْ يَحْطُهَا بِنَصِيحَةٍ إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ" (البخاري ٩٤: ٨). كما كانوا يُطالبون بالرفق بالرعية ويُنهون عن عمل كل ما قد يؤدي إلى النفور منهم (البخاري ٦٤: ٦٢). ويؤمرون بأن يحيوا حياة بسيطة وأن يدخل إليهم من يحتاج لمساعدتهم (مشكاة المصابيح ١٧: ١)، وأن يتقوا الله (البخاري ٩٤: ١٦)، وأن يُحصَلوا الضرائب من شتى فئات الرعية كل حسب مقدرته، وأن يعولوا من لا يستطيع كسب قوته، وأن يحترموا حقوق أهل الذمة شأنهم شأن المسلمين (البخاري ٦٢: ٨). ولم يكن واجباً على الدولة فحسب أن تكفل الأسر التي لا عائل لها، وإنما كان يجب عليها أيضاً أن تقضي الديون التي تم التعاقد عليها لحاجة مشروعة (البخاري ٤٣: ١١).

ومسؤولية الرعية إزاء الدولة هي احترام قوانينها وطاعة أوامرها طالما أنه ليس فيها معصية لله ورسوله. فقد قال أول الخلفاء الراشدين، أبو بكر الصديق، في أول خطبة ألقاها على من بايعوه: "فإن أحسنت فأعينوني، وإن أخطأت فقوموني". كما قال أبو بكر أيضاً: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم. فإن عصيته، فلا طاعة لي عليكم". وتكون السيادة للشريعة القرآنية والنبي (صلى الله عليه وسلم) هو الذي أرسى قاعدة سيادة القانون في قوله: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ مَا لَمْ يُوَازِ بِالْمَعْصِيَةِ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"^٥ (البخاري ٥٦: ١٠٨). وعليه، فرغم أن كلمة الحق عند سلطان جائر تعتبر فضيلة من الفضائل إذ قيل عنها "أَفْضَلُ الْجِهَادِ" (مشكاة المصابيح ١٧)، فإنه يُنهى عن المعارضة الشديدة للسلطة القائمة أو عصيانها لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) وضع شرط السمع والطاعة "فِي مَشْطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةَ عَلَيْنَا وَأَنْ لَا نَنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ" (البخاري ٩٣: ٢).

^٥ يتفق هذا مع الأمر القرآني، الذي يرد فيه، بعد إرساء مبدأ الحكم بالشورى، قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (سورة النساء (٤): الآية (٥٩)). ترسي هذه الآية الكريمة ثلاث قواعد إرشادية هامة في المسائل المتعلقة بخير الأمة الإسلامية، وخاصة فيما يتعلق بشؤون الدولة. وتتمثل هذه القواعد فيما يلي: أولاً، طاعة الله ورسوله؛ ثانياً، طاعة أولي الأمر من المسلمين؛ ثالثاً، الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله في الأمور التي يتنازع عليها المسلمون مع ولاة الأمر. وعلى ذلك، فإن الله ورسوله هما المرجع الأخير الذي يرجع إليه.

ورغم أن السيادة بالفعل للشريعة القرآنية، فإنه لا مانع من سن القوانين حسب احتياجات الناس طالما أنها لا تتعارض مع روح الشريعة المنزلة. فعندما عُينَ معاذ حاكماً لليمن، سأله النبي (صلى الله عليه وسلم) كيف يقضي إذا عرض عليه قضاء. فأجاب معاذ: "يُكْتَابُ اللَّهُ". فقال صلى الله عليه وسلم: "فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ". قال معاذ: "فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". فسأله النبي (صلى الله عليه وسلم) ثانية: "فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". فأجاب معاذ: "أَجْتَهِدُ رَأْيِي". فرفع النبي (صلى الله عليه وسلم) يديه وقال: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ" (سنن أبي داود، كتاب الأفضية).

ورغم ذلك، يوضع ما يلزم من قوانين بالتشاور وفقاً للأمر القرآني العام الذي ورد في كتابه العزيز: "وَأْمُرُهُمْ سُورَى بَيْنَهُمْ" (سورة الشورى (٤٢): الآية (٣٨)). فرداً على سؤال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عن كيف يفصل في القضايا التي لم يرد فيها أمر محدد في القرآن، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "اجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد". وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه يأخذ بالشورى في جميع الأمور الهامة. ومثال ذلك أنه عندما هاجمت قريش المدينة ثلاث مرات كان النبي (صلى الله عليه وسلم) كل مرة يتشاور مع أتباعه حول كيفية لقاء العدو. وذات مرة، أخذ برأي الأغلبية وخرج من المدينة للقاء العدو رغم أنه شخصياً كان يرى أنه ينبغي على جيش المسلمين عدم مغادرة المدينة. وقد أمر صلى الله عليه وسلم أتباعه بالشورى عند الفصل في أمر هام: "ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم". وعندما عصى بعض الأفراد أوامره في إحدى الغزوات وأدى هذا العمل إلى إنزال خسائر فادحة بجيش المسلمين، أمره ربه رغم ذلك بمشاورتهم في الأمر: "قَاعَفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَشَاوَرُهُمْ فِي الْأَمْرِ" (سورة آل عمران (٣): الآية (١٥٩)).

ويتبين لنا مما ورد في القرآن أن الناس كانوا يجتمعون للشورى في كثير من المناسبات الهامة: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ" (سورة النور (٢٤): الآية (٦٢)).

ونظراً لهذه التعاليم الواضحة بسن القوانين لأنفسهم والفصل في الأمور الهامة الأخرى بالشورى، كان لدى الخلفاء الراشدين مجالس تساعدهم في الفصل في كل هذه الأمور. وفي أوائل التاريخ الإسلامي أيضاً، استخدم الأئمة العظام أمثال الإمام أبي حنيفة، على نطاق واسع، القياس في

وعبارة "أولي الأمر" تحمل معنى واسعاً، بحيث إن أولي الأمر يختلفون حسب المسائل المختلفة المرتبطة بحياة الإنسان. وعلى ذلك، يعتبر قائد إحدى فرق الجيش من أولي الأمر (البخاري ٦٥: الباب الرابع، ١١).

القضاء وكان الاجتهاد معترفاً به كأحد مصادر التشريع في الإسلام جنباً إلى جنب مع الكتاب والسنة. وبذلك، أرسى النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه مبدأى الديمقراطية، وهما سيادة القانون والشورى عند سن القوانين الجديدة والفصل في الأمور الهامة الأخرى. كما أقر صلى الله عليه وسلم أيضاً ثالث مبدأ من مبادئ الديمقراطية، أي اختيار رئيس الدولة. وقد ذهب صلى الله عليه وسلم إلى حد القول بأنه حتى الحبشي يمكن توليته لحكم العرب وتكون الطاعة واجبة له شأنه شأن أي رئيس دولة آخر (البخاري ١٠: ٥٤). ونظراً لتعاليمه صلى الله عليه وسلم، كان اختيار رئيس الدولة الإسلامية أول عمل قام به الصحابة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

وعندما انتشر خبر وفاته صلى الله عليه وسلم، اجتمع المسلمون وتباحثوا حول من ينبغي أن يخلف النبي (صلى الله عليه وسلم) كأمر للمسلمين. فقد كان الأنصار، سكان المدينة، يرون أنه ينبغي أن يولّى أميران على المسلمين، أمير من قريش وأمير منهم، ولكن أبا بكر أوضح عدم صحة هذا الرأي في خطاب يبلغ ذكر فيه أن الدولة لا يمكن أن يكون لها سوى أمير واحد (البخاري ٦٢: ٦). وعليه، بايع المسلمون أبا بكر حيث كان، على حد قول عمر (رضي الله عنه)، خيرهم وأنسب المسلمين لإدارة شؤونهم (البخاري ٩٣: ٢). والأهلية للحكم هي المعيار الوحيد الذي يحسم مسألة الاختيار، كما ورد بالفعل في الأمر القرآني التالي: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا" (سورة النساء (٤): الآية (٥٨)).

وقد ذُكِرَ أن العدل هو حجر أساس الدولة التي أسسها النبي (صلى الله عليه وسلم)؛ وعند العدل بين الناس، لا يَفْرَقُ بين صديق وعدو، وبين من يحبهم المرء ومن يكرههم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (سورة المائدة (٥): الآية (٨)). "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (سورة النساء (٤): الآية (١٣٥)). وفي الدولة، يُولى بعض الأشخاص بالضرورة على البعض الآخر، ولكن يُحَدَّرُ ولاة الأمور مراراً بأنهم سوف يكونون مسؤولين أمام ربهم، في المقام الأول، عما يقدمون عليه من أفعال عند ممارسة السلطة. والتحذير لنبي الله داود إنما هو تحذير لكل مؤمن حق: "يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" (سورة ص (٣٨): الآية (٢٦)).

الفصل الثالث عشر

الأخلاق

خدمة البشرية

تم التأكيد حتى في أوائل ما نزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) على الصلاة بنفس قدر التأكيد على خدمة البشرية، وربما كان التأكيد على خدمة البشرية أكبر. وفي الواقع، فإن الصلاة لا تتفع صاحبها إذا لم تقترن بخدمة البشرية. وإلا استصبح مجرد مرآة تُستنكر بشدة. وقد خُصّصت لهذا الموضوع سورة كاملة من أوائل ما نزل من قصار السور: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ. وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ. فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاوُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ." (سورة الماعون (١٠٧): الآيات (٧-١)). ومن ثم، فإن الصلاة لا تتفع صاحبها إذا لم تؤدّ إلى خدمة البشرية. ومن الاثنين، أي الصلاة وخدمة البشرية، تعتبر خدمة البشرية المهمة الأصبغ. فهي عقبة: "وهديناه (أي الإنسان) النجدين. فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة. فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. بيتما ذا مقربة. أو مسكيناً ذا متربة." (سورة البلد (٩٠): الآيات (١٠-١٦)). ولم يدع القرآن إلى مساعدة اليتيم والمسكين فحسب، وإنما دعا أيضاً إلى إكرامهما: "كلاً بل لا تكرمون اليتيم. ولا تحاصون على طعام المسكين. وتاكلون الثرثالث أكلاً لئماً. وتحبون المال حباً جمماً." (سورة الفجر (٨٩): الآيات (١٧-٢٠)). وفي موضع آخر، قال تعالى في كتابه العزيز: "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب" (سورة البقرة (٢): الآية (١٧٧)). وقد شدد القرآن على أن الله لم يهب المال ليكتنزه؛ وإنما للمحتاجين حق في مال الأغنياء: "وفي أموالهم حق للسائل والمخروم" (سورة الزاريات (٥١): الآية (١٩)). وفي آيات أخرى مما نزل، يتوعده الله أصحاب المال الذين لا يساعدون المساكين بالهلاك (سورة القلم (٦٨): الآيات (١٧-٢٧)).

ومنذ بداية حياته، ناصر النبي (صلى الله عليه وسلم) بشدة قضية الضعفاء والمظلومين. فعندما ذهب إلى عمه أبي طالب وفد وراء الآخر من وفود أعدائه، أي قبيلة قريش، لإقناعه بتسليم النبي (صلى الله عليه وسلم) إليهم، تغنى أبو طالب بمدحه صلى الله عليه وسلم في كلماته الشهيرة التي وصلت إلينا في واحدة من قصائده الشعرية، عندما تعجب من أن يسلم إليهم ملجأ اليتامى والساعي

على الأرامل. وعندما تلقى الدعوة، ارتعش النبي (صلى الله عليه وسلم) خشية ألا يتمكن من أداء المهمة العظيمة الملقاة على عاتقه والمتمثلة في إصلاح حال البشرية، وواسته زوجته بالكلمات التالية: "... مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ" (البخاري ١ : ١).

وقد ترك النبي (صلى الله عليه وسلم) مراراً في نفس من سمعوه انطباعاً بأن خدمة البشرية غاية الحياة الكبرى. وذات مرة، شبهه صلى الله عليه وسلم المسلمين بالجسد الواحد؛ إذا اشتكى عضو منه، مرض سائر الجسد (البخاري ٧٨ : ٢٧). وقد وضع صلى الله عليه وسلم الساعي على الأرامل والمساكين في نفس منزلة المجاهد في سبيل الله أو القائم الليل والصائم النهار (البخاري ٦٩ : ١). كما يصف كافل اليتيم بأنه معه صلى الله عليه وسلم في الجنة (البخاري ٧٨ : ٢٤). كما قال صلى الله عليه وسلم في كلمات واضحة: "لَيْسَ مِثْلًا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَفِّرْنَا كَبِيرَنَا" (مشكاة المصابيح ٢٤ : ١٥). كما كان صلى الله عليه وسلم ذا قلب رقيق رؤوف حتى بالحيوانات وقد نهى تحديداً عن القسوة عليهم؛ حيث ذكر أن الرفق بالحيوان له أجره (مشكاة المصابيح ٦ : ٦).

الصدقة

كان تصدق النبي (صلى الله عليه وسلم) يضرّب به المثل. فقد وصفه الصحابة لجيل التابعين بأنه "كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ". وجنباً إلى جنب مع موضوع طاعة الله، يُشَدّد في القرآن وفي أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) على التصدّق على الناس. كما يُؤكّد أنه ينبغي إخراج الصدقة لوجه الله. فقد قال تعالى في واحدة من أوائل التنزيل: "وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا." (سورة الإنسان ٧٦): الآيتان (٨) و(٩). وفي واحدة من أواخر التنزيل، قال تعالى: "لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ" (سورة البقرة ٢): الآية (١٧٧). والصدقة النابعة من هذا الدافع الخالي من المنفعة تنمي وتزيد المال: "... وَمَا آتَيْتُمْ مِّنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ" (سورة الروم ٣٠): الآية (٣٩). وتُشَبِّه زيادة المال التي تأتي في أعقاب الصدقة بالحبّة التي تنبت أضعافها: "مِثْلُ الَّذِي يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِثَّةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ..." (سورة البقرة ٢): الآية (٢٦١).

ويجب أن يكون التصدق خالياً من المراءاة وجميع الدوافع الدنيئة مثل تحقيق مكسب شخصي أو حتى إلزام المتصدق عليه بشيء ما: "الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ..." (سورة البقرة (٢): الآيات (٢٦٢-٢٦٤)).

ويجب إخراج الصدقة من الطيبات، أي من الأشياء التي تطيب للإنسان: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ" (سورة البقرة (٢): الآية (٢٦٧)). وفي موضع آخر، قال تعالى في كتابه العزيز: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ" (سورة آل عمران (٣): الآية (٩٢)). ويجوز التصدق إما جهراً (علانية)، مثلاً لخير الأمة، أو سراً، مثلاً لمساعدة الفقراء: "إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ..." (سورة البقرة (٢): الآية (٢٧١)). ولا تكون الصدقة التي يخرجها المسلم مقصورة على أخيه في الدين (سورة البقرة (٢): الآية (٢٧٢)). ويجب التصدق بصفة خاصة على المتعفين (سورة البقرة (٢): الآية (٢٧٣)). والأهم من ذلك كله أن الإسلام يرغب في أن يكتسب المؤمنون به رؤية جديدة تماماً إزاء امتلاك المال بتخليصهم من حب المال وكنزه، وبما ورد فيه صراحة من أن للفقراء حقاً في أموال الأغنياء. ففي وصف المسلمين الحقيقيين في الآخرة، ورد في كتابه العزيز أن صفاتهم في الحياة الدنيا هي: "كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ." (سورة الذاريات (٥١): الآيات (١٧-١٩)). وفي موضع آخر، يُوصف المسلمون الحقيقيون بأنهم: "الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ. وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ. لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ." (سورة المعارج (٧٠): الآيات (٢٣-٢٥)).

وعلى ذلك، تعتبر الصلاة والصدقة شرطين أساسيين لنيل البر. ويختلف ما يشار إليه هنا من "حق" أو "حق معلوم" عن الزكاة التي تعتبر نوع من الضريبة لأنها واجبة وتُجمع بمقدار معين ولأنها حق للدولة. وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في قوله: "إِنَّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ" (الترمذي، كتاب الزكاة). فليس كل المال الذي يكسبه العبد ملكه وحده. وإنما يُخرج جزء منه على سبيل الصدقة، مهما كانت شدة الظروف التي يعيشها العبد. وقد كان من أوامر النبي (صلى الله عليه وسلم) الواضحة أنه "عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ" (البخاري ٥٦: ٧٢). فسأله الصحابة (رضي الله عنهم)

^١ يختلف التصدق جهراً عن التصدق "رئاء الناس" (سورة البقرة (٢): الآية (٢٦٤)). ويقصد بالتصدق جهراً إنفاق المال على الأعمال ذات المنفعة العامة وخير الأمة والجهود المنظمة الرامية لتحسين أوضاع الفقراء والتي بدونها يصبح النمو القومي مستحيلًا.

عمن لم يجد. فأجاب صلى الله عليه وسلم بقوله: "يَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ". فقالوا له ثانية فإن لم يجد. فأجاب (صلى الله عليه وسلم) بقوله: "يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ". فقالوا له فإن لم يجد. فقال صلى الله عليه وسلم: "فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ" (البخاري ٤٦: ٢).

وقد كان مفهوم النبي (صلى الله عليه وسلم) للصدقة أوسع مفهوم ممكن للكلمة: "كُلُّ سَلَامَى عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ يُعِينُ الرَّجُلَ فِي ذَاتِهِ يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ" (مشكاة المصابيح ٦-٦). "يُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ" (البخاري ٤٦: ٢). وحتى لقاء الإنسان لأخيه الإنسان بوجه طلق صدقة: "كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَإِنْ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلِقٍ وَأَنْ تَفْرَغَ مِنْ ذَلُوكَ فِي إِئَاءِ أَخِيكَ" (مشكاة المصابيح ٦: ٦)

وبذلك، أراد النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يجعل الناس يدركون أن الإحسان يمثل الإنسانية. وأبرز سمتين في النظام الديني الذي أرساه صلى الله عليه وسلم هما إقامة الناس للصلاة وتصدقهم من أجل خدمة البشرية.

بناء شخصية المسلم

من الأعمال الأولى التي عكف عليها النبي (صلى الله عليه وسلم)، كما يتبين من أوائل التنزيل، بناء شخصية المسلم. وقبل إجراء أي إصلاحات في العلاقات الاجتماعية أو سياسات الدولة بفترة زمنية طويلة، تم التأكيد فيما نزل من سور على سمو الأخلاقي للعبد، وهو تأكيد في محله لأنه حتى القوانين الجيدة لا يمكن أن تتفع الناس إلا إذا طبقها رجال على مستوى أخلاقي رفيع.

وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم)، بشهادة الأصدقاء والأعداء، أصدق الرجال. ففي مناسبات متكررة، شهد ألد أعدائه بصدقه الشديد، الذي بسببه أُقْبِ بِالْأَمِينِ. ولأنه صلى الله عليه وسلم كان صديقاً، فقد شدّد على الصدق كأساس الشخصية ذات الأخلاق الكريمة: "إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصُدَّقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا وَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا" (البخاري ٧٨: ٦٩). وقد ورد في القرآن أن الصدق من أبرز صفات المسلمين الحقيقيين: "... وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية (٣٥)). فعن التحول العظيم الذي أحدثه النبي (صلى الله عليه وسلم)، يشهد القرآن على صدق المسلمين في قوله تعالى عنهم إنهم لا يشهدون الزور (سورة الفرقان (٢٥): الآية (٧٢)). كما أرسى القرآن أيضاً أساس مجتمع يجب فيه على كل

فرد أن يوصي بالحق كل من تربطه بهم علاقة (سورة العصر (١٠٣): الآيتان (٢) و(٣))، كما ورد فيه مراراً أنه بالحق يزهق الباطل. كما دعا القرآن مراراً إلى اتباع الحق مهما كانت الظروف حتى لو تعارض ذلك مع مصلحة الفرد أو مصلحة أصدقائه وأقاربه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ... فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَسُوا فَمَا فِي اللَّهِ فِتْنَةٌ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (سورة النساء (٤): الآية (١٣٥)). ويجب عدم العدول عن الحق حتى لو كان ذلك لصالح العدو: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ..." (سورة المائدة (٥): الآية (٨)). وحتى لو دُعِيَ الرجل لقول الحق عند حاكم ظالم، يجب أن يقوله: "أَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ قَالَ كَلِمَةً حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ" (مشكاة المصابيح (١٧)). فقط الصدق سوف ينفع صاحبه يوم الحساب: "... هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (سورة المائدة (٥): الآية (١١٩)).

ويتميز النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه جعل البشر يسلكون الطرق التي بيننا لهم. وقد كانت صفة الصدق راسخة في قلب أتباعه حتى إنها لم تكن محببة إليهم فحسب، وإنما أيضاً تعرضوا لأشد المحن من أجلها. وبعد ذلك بقرنين من الزمان، عندما وضع النقاد بعض القواعد للحكم على صدق رواة الحديث، أجمعوا على أمر واحد، وهو أنه لم يكذب أي صحابي عمداً، ولو مرة واحدة. وفي الواقع، فإن واحدة من أواخر ما نزل من القرآن تثبت صحة هذا: "... وَكَانَ اللَّهُ حَبِيبَ الْإِيمَانِ وَرَبِّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ" (سورة الحجرات (٤٩): الآية (٧)). والإيمان يشمل جميع الفضائل التي غرسها النبي (صلى الله عليه وسلم)، والصدق أحد أبرز هذه الفضائل.

إن الثبات في المحن صفة أخرى شدد عليها القرآن، وبرزت في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) وحياته أتباعه. فرغم اضطهاد النبي (صلى الله عليه وسلم) من جميع الجوانب، وتعرضه لأشد المحن دون أن يلوح في الأفق أمل بالنصر، فقد وقف صلى الله عليه وسلم صامداً عندما هدده أعداؤه بالموت. وقد ظل صلى الله عليه وسلم أيضاً صامداً عندما عُرِضَتْ عليه الإغراءات الدنيوية. وأثناء الهجرة إلى المدينة، عندما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) مختبئاً في غار يقف على بابه فريق يبحث عنه، واسبى صلى الله عليه وسلم صاحبه، أبا بكر (رضى الله عنه)، بهذه الكلمات: "لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا" (سورة التوبة (٩): الآية (٤٠)). ويبين القرآن بوضوح أن الثبات في سبيل الحق يُنَزِّلُ الملائكة من السماء لمواساة العبد (سورة فصلت (٤١): الآيتان (٣٠) و(٣١)). وقد رُسِّخَتْ صفتا الصبر والثبات مراراً في أوائل وأواخر التنزيل أيضاً (سورة إبراهيم (١٤): الآية (١٢)؛ سورة الشورى (٤٢): الآية (١٥)؛ سورة هود (١١): الآيتان (١١٢) و(١١٣)؛ سورة هود (١١):

الآية (٤٩)؛ سورة آل عمران (٣): الآية (٢٠٠)). كما ورد في كتابه العزيز أن الصلاة والصبر هما البابان اللذان يدخل منهما عون الله للعبد: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ" (سورة البقرة (٢): الآية (١٥٣)).

والشجاعة صفة أخرى جليلة شدد عليها القرآن. فالقلب الذي تُغرس فيه خشية الله لا يمكن أن يخشى أحداً غير الله، مما يجعل المسلم غير هياب في وجه أشد المعارضة: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضَّلْنَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ. إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ". (سورة آل عمران (٣): الآيات (١٧٣-١٧٥)). "لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى" (سورة طه (٢٠): الآية (٤٦)). "الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا" (سورة الأحزاب (٣٣): الآية (٣٩)). "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (سورة الأحقاف (٤٦): الآية (١٣)). "أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (سورة يونس (١٠): الآية (٦٢)). وبسبب جسارة المسلمين وما كانوا يتحلون به من شجاعة أخلاقية كبيرة، استطاعوا في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) الدفاع عن أنفسهم في معارك كانت فيها أعداد العدو ما بين ثلاثة أضعاف إلى عشرة أضعاف قوات المسلمين وانتصروا في كل هذه المعارك. وفيما بعد، في المعارك التي اضطر المسلمون لخوضها ضد بلاد فارس والإمبراطورية الرومانية، لم تكن أعدادهم تُذكر بالمقارنة بأعداد قوات العدو وانتصروا تقريباً في جميع المعارك. وفي الواقع، فإن الشجاعة التي أبداها المسلمون في ساحة القتال ترجع إلى إيمانهم الراسخ.

ولكن رغم مواجهتهم بجرأة شديدة كل صور المعارضة لدعوة الحق، فقد أمر المسلمون بالتخلي بصفة التواضع: "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا... (سورة الإسراء (١٧): الآية (٣٧))؛ "وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ" (سورة لقمان (٣١): الآية (١٨))؛ "إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ" (سورة النحل (١٦): الآية (٢٣)). وفي الواقع، فإن صفة التواضع ينبغي أن تكون راسخة في قلب المسلم بسبب الصلوات اليومية الخمس عندما يركع المسلمون جميعاً، الذين يقفون أمام ربهم سواسية، ويسجدون لربهم كجسد واحد. والنبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الشأن قدوة يُتَدَبَّرُ بها. ففي معاملاته مع الآخرين، كان صلى الله عليه وسلم متواضعاً، ولم يضع نفسه قط في مرتبة أعلى من الآخرين. وبالإضافة إلى صفة التواضع، هناك صفة إنكار الذات، وهي صفة حميدة أخرى سلح بها الإسلام كل مسلم ليخوض معركة الحياة. فتوجد في القرآن أوامر متكررة بأنه يجب أن تكون مرضاة الله هي الدافع الوحيد وراء أعمال العبد، وليس مكاسبه الشخصية أو خسائره.

كما شدد الإسلام أيضاً على الوفاء بالعهود وأداء الأمانات: "وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ"، وقد ورد هذا الوصف للمؤمنين الحقيقيين مرتين في القرآن (سورة المؤمنون (٢٣): الآية (٨)؛ سورة المعارج (٧٠): الآية (٣٢)). وفي موضع آخر أيضاً، يؤمر المسلمون بذلك في قوله تعالى: "وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا" (سورة الإسراء (١٧): الآية (٣٤))؛ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ" (سورة المائدة (٥): الآية (١)) حيث لا ترمز كلمة عُقُود (جمع عَهْد) فحسب إلى العهود، والعقود، والاتفاقات، والأحلاف، والمعاهدات، والارتباطات، وإنما أيضاً إلى أحكام الله (المعجم العربي - الإنجليزي للين). وقد اقترن في سورة النحل (١٦): الآيتين (٩١) و(٩٢) ذكر الالتزام بالوفاء بعهد الله والالتزام بالوفاء بالعهود بين الناس، وخاصة بين الأمم. وعلى ذلك، يوضع احترام الشريعة الدينية على قدم المساواة مع احترام العهود الدنيوية. وبسبب إيمانهم بهذا المبدأ، أوفى النبي (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه بعهودهم حتى في ظل أصعب الظروف.

ولم يسجل التاريخ حالة واحدة نكث فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه بعهدهم مع أي أمة أخرى. ومثال ذلك، في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)، صلح الحديبية الذي تم بموجب شروطه إعادة أبي جندل، وهو شخص اعتنق الإسلام ولجأ إلى النبي، وكان العدو يعذبه بسبب إسلامه. وفي عهد عمر (رضي الله عنه)، اضطر قائد المسلمين أبو عبيدة للجلاء عن أرض حمص المحتلة، التي كان العدو سوف يحتلها، وأمر بإعادة الجزية التي أُخِذت من أهلها لحمايتهم، لأنه لم يعد المسلمون قادرين على حمايتهم. ولا نكاد نجد هذا النموذج للأمانة الشديدة والوفاء بالعهود في أمة أخرى.

كما يُسْتَتَكِر النفاق في القرآن بأشد لهجة. حيث يوصف المنافقون بأنهم "فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ" (سورة النساء (٤): الآية (١٤٥)) كما يُسْتَتَكِر مراراً قول المسلم ما ليس في قلبه.

كما تُعْرَس جميع الصفات التي تجعل الإنسان على مستوى أخلاقي رفيع واحدة وراء الأخرى. ومن بين هذه الصفات صفة الشكر: "لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ" (سورة إبراهيم (١٤): الآية (٧)). "كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" (سورة البقرة (٢): الآية (١٧٢)). "إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ" (سورة الزمر (٣٩): الآية (٧)). كما يؤمر الإنسان بأن يشكر أخاه الإنسان أيضاً. فيروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ". ويقصد بشكر الناس رد الإحسان إليهم: "هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ" (سورة الرحمن (٥٥): الآية (٦٠)).

والأخلاق الكريمة التي وصفت في القرآن هي أخلاق النبي (صلى الله عليه وسلم)، وفي هذا القلب أراد صلى الله عليه وسلم أن يشكل شخصية أتباعه. وباللقاء نظرة سريعة على حياة الصحابة والخلفاء الراشدين الأربعة، الذين كانوا حكاماً لإمبراطورية مترامية الأطراف، يتبين لنا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أحرز نجاحاً كبيراً في هذا الشأن. وقد ورد في القرآن أحد الأوصاف العديدة للمستوى الأخلاقي الرفيع للصحابة (رضي الله عنهم) وذلك في قوله تعالى: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا. وَالَّذِينَ يَبِيئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا... وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا. وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ... وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا. وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْزَاقِنَا ذُرِّيَّتًا قَوَّةً وَغُزًى لِمُنْعِنِينَ إِمَامًا. أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا." (سورة الفرقان (٢٥): الآيات (٦٣-٧٥)).

السلوك الاجتماعي

تعتبر الأخلاقيات والسلوكيات الحميدة، كما ورد في الكتاب والسنة، المقياس الحقيقي للفضيلة داخل الإنسان: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" (سورة الحجرات (٤٩): الآية (١٣)). كما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: "إِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا" (البخاري (٦١: ٢٣)). وفي أخلاق الإسلام، يحتل احترام الوالدين والإحسان إليهما مكانة رفيعة. "وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا." (سورة الإسراء (١٧): الآيتان (٢٣) و(٢٤)). كما يتبين أيضاً من آيتين أخريين تشديد القرآن على واجب طاعة الوالدين: "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ... أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ..." (سورة لقمان (٣١): الآيتان (١٤) و(١٥)). وهنا لا تجوز عدم طاعة الوالدين إلا إذا كان فيها ما يتعارض مع واجب العبد تجاه خالقه. وحتى في هذه الحالة، يؤمر العبد بالإحسان إليهما. وقد شدد النبي (صلى الله عليه وسلم) بصفة خاصة على تقدير الأم لدرجة أنه وصف الجنة بأنها تحت قدميها. فيروى في أحد الأحاديث الشريفة أن صحابياً جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) واستشاره في انضمامه إلى صفوف القتال. فسأله النبي (صلى الله عليه وسلم) عما إذا كانت أمه على قيد الحياة. وعندما تلقى الرد بالإيجاب، قال صلى الله عليه وسلم: "فَالزَّمْهَا فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا" (النسائي (٢٥: ٦)).

وذات مرة، سأل صحابي آخر النبي (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي" فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): "أُمَّكَ". فسأله الرجل ثانية: "تُمْ مَنْ؟" قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "تُمْ أُمَّكَ". فسأله ثالثة: "تُمْ مَنْ؟" قال النبي (عليه الصلاة والسلام): "تُمْ أُبُوكَ".

ومن ناحية أخرى، يؤمر الوالدان بالعطف على أبنائهما والرفق بهم. وقد وصف النبي (صلى الله عليه وسلم) المعاناة التي يتحملها الوالدان عند إعالة أبنائهما وحمايتهم بكونها "حِجَابًا مِنَ النَّارِ" للوالدين (البخاري ٢٤: ١٠). وفي أحد الأحاديث، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا" (مشكاة المصابيح ٢٤: ١٥). وكلمات هذا الحديث عامة ولا تنطبق على صغار أو كبار السن فحسب، وإنما أيضاً على درجات الوظائف والسلطة.

يعتبر التآلف والأخوة بين البشر أحد المفاهيم الأساسية في الإسلام. ورغم ذلك، يُصَحِّح المسلمون بصفة خاصة بالتراحم ومساعدة بعضهم بعضاً. وكثيراً ما يوصف المؤمنون في القرآن بأنهم إخوة، كما ورد صراحةً في كتابه العزيز وصفهم بأنهم "رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ" (سورة الفتح ٤٨): (الآية ٢٩)). كما يُنْهِي المسلمون بصفة خاصة عن السخرية من الآخرين أو النظر بازدراء إلى المسلمين الآخرين أو اللمز وسوء ظن بعضهم ببعض، وغير ذلك من الصفات البغيضة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ بِنِسِ الْأَسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ". (سورة الحجرات ٤٩): (الآيتان ١١) و(١٢)). كما تصف السنة المسلمين بأنهم أجزاء بنيان واحد وتشبههم بجسد الإنسان، عندما يمرض عضو فيه يمرض سائر الجسد. فيروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى" (البخاري ٧٨: ٢٧). وتوجد في كتب السنة أحاديث كثيرة مماثلة يُذَكَّر بعضها أدناه:

"الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ (ليكون ضحية ظلم شخص آخر) وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (البخاري ٤٦: ٣).

"انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا". فقال الصحابة: "يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نُنصِرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ نُنصِرُهُ ظَالِمًا؟" قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ" (البخاري ٤٦: ٤).

"الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ" (البخاري ٨: ٨٨).

"لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا وَلَا يَجِدَ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ" (البخاري ٧٨: ٥٧).

وأخيراً، قال النبي (صلى الله عليه وسلم) في خطبة الوداع في منى: "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا" (البخاري ٢٥: ١٣٢).

كما يُذكر في بعض الأحاديث حسن معاملة الجيران وإقامة علاقات طيبة معهم. فيروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ" (البخاري ٧٨: ٣١). ووفقاً لحديث آخر، يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورِثُهُ" (البخاري ٧٨: ٢٨). كما يُذكر حسن معاملة الأجير والموظف والسخاء معهم في بعض الأحاديث الشريفة (البخاري ٢: ٢١، ٧٨: ٣٩) مع الأمر بمعاملتهم على أساس المساواة، ولكن الأهم من ذلك أنه تم التأكيد على الإحسان إلى الأرامل واليتامى وحسن معاملتهم، كما سبق أن أوضحنا في الفصل الحالي.

الحياة الأسرية

البيت هو وحدة المجتمع البشري، ومن ثم تعتمد السعادة البشرية ومدى استقرار المجتمع، إلى حد كبير، على استقرار البيت والسعادة التي تسوده. وبما أن الرجل والمرأة يكوّنان البيت معاً، فمن الضروري الوصول إلى فهم سليم لمكانة كل منهما والعلاقات بينهما. وفي هذا الصدد، من الجدير بالذكر أن المرأة، قبل عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)، كان ينظر إليها على أنها أحد ممتلكات الزوج. ولم يكن لها حق امتلاك المال أو إجراء المعاملات باسمها. حتى جاء الإسلام وأحدث تحولاً جذرياً في النظام الاجتماعي القائم آنذاك. وحتى في أوائل ما نزل على النبي (صلى الله عليه وسلم)، يوصف الرجال والنساء بأنهم سواسية عند الله^٢ كما يُذكر أيضاً أن الله سوّى الذكر والأنثى على حدٍ سواء^٣. كما يُوضّح أيضاً في أوائل التنزيل أن المرأة مساوية للرجل في الجانب الروحي^٤. كما ورد

^٢ سورة النجم (٥٣): الآيات (٤٤-٤٦)؛ سورة الليل (٩٢): الآيات (٣-١).

^٣ سورة القيامة (٧٥): الآيات (٣٧-٣٩).

^٤ سورة النحل (١٦): الآية (٩٧)؛ سورة غافر (٤٠): الآية (٤٠).

أيضاً في كتابه العزيز أن المرأة نزل عليها الوحي الإلهي،^٥ وهو أعظم هبة روحية. واصطفها الله عز وجل وطهرها كما اصطفى وطهر الرجل.^٦ وبوجه عام، توصف النساء بأنهن مساويات للرجال في جميع الجوانب الروحية.^٧

ورغم ذلك، فقد ذهب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أبعد من ذلك وأدخل إصلاحاً أصبحت المرأة بسببه شخصاً حرّاً بالمعنى الكامل للكلمة. فأصبح في إمكانها أن تكسب المال، وترثه، وتمتلكه. "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْتُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَ" (سورة النساء (٤): الآية (٣٢)). هذا الأمر القرآني فتح أمامها جميع مجالات العمل، ورغم أن إعالة المرأة أحد شروط الزواج، فإنه أصبح في إمكانها أن تعول نفسها بل أن تصبح عائل الأسرة إذا كانت في حاجة لذلك. بالإضافة إلى ذلك، كان لدى العرب موروث يعارض بشدة حق المرأة في الميراث. ولكن الإسلام حمل رسالة جديدة لها: "... وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا" (سورة النساء (٤): الآية (٧)). وفي الواقع، فإن كل امرأة أصبحت في ظل الإسلام تمتلك بعض المال عند زواجها ولم يكن هناك حد لمبلغ المهر.^٨ وقد كانت هذه خطوة عملية للنهوض بمكانة المرأة. وقد اعترف الإسلام بمكانة المرأة حتى قبل الزواج بتأكيد أنه لا يجوز نكاح المرأة إلا بإذنها أو رضاها.^٩ وفي الواقع، فإن الزواج يوصف في القرآن بأنه ميثاق^{١٠} (أي عقد)، ولا عقد بدون رضا الطرفين.

ولاستقرار المجتمع، أمر كل فرد بأن يتزوج. وقد ورد في القرآن أمر صريح بذلك: "وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ" (سورة النور (٢٤): الآية (٣٢)). كما يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: "إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين". وبذلك، يُعترف بالزواج كوسيلة للرفق الأخلاقي للإنسان، وهو في الحقيقة كذلك. فالحب المتبادل بين الزوج والزوجة وحب الوالدين للأبناء يؤدي إلى تنمية شعور الحب بين البشر، مما يؤدي بدوره إلى خدمة البشرية المنزهة عن أي غرض. فمن خلال الزواج، يصبح البيت ساحة يتدرب فيها الإنسان على تنمية الشعور بالحب وخدمة البشرية. وهنا يجد الإنسان السعادة الحقيقية في المعاناة من أجل الآخرين، وبالتالي ينمو ويزداد الشعور بخدمة البشرية.

^٥ سورة القصص (٢٨): الآية (٧).

^٦ سورة آل عمران (٣): الآية (٤٢)؛ سورة الأحزاب (٣٣): الآية (٣٣).

^٧ سورة الأحزاب (٣٣): الآية (٣٥).

^٨ سورة النساء (٤): الآية (٢٠)؛ سورة المائدة (٥): الآية (٥).

^٩ سورة النساء (٤): الآية (١٩)؛ البخاري ٦٧: ٤٢، ٤٣.

^{١٠} سورة النساء (٤): الآية (٢١).

ويؤكد في الإسلام بصفة خاصة على الحقوق والمسؤوليات المتبادلة للأزواج والزوجات. ووفقاً لما رُوِيَ عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، فإن مكانة المرأة في الأسرة أشبه بمكانة الحاكم (البخاري ٦٧: ٩١)، وقد أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) في بعض الأحاديث على حقوق المرأة.

كما يطالب الإسلام الزوج بأن يعول زوجته ويوفر لها المسكن حسب استطاعته المالية.^{١١} ويجب على الزوجة حسن معاشرته وزوجها، والحفاظ على ماله من الخسارة أو الضياع، والامتناع عن عمل كل ما يعكر صفو الأسرة.^{١٢} وقد تم التأكيد على حسن معاشرته الزوجة: "فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ" (سورة البقرة (٢): الآية (٢٢٩)). "وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (سورة النساء (٤): الآية (١٩)) هي النصيحة التي وردت مراراً في الكتاب لدرجة أنه يُوصَى بالمعاشره بالمعروف حتى لو كان الرجل يكره زوجته (سورة النساء (٤): الآية (١٩)). كما أن حسن معاشرته الزوجة مقياس للأخلاق الكريمة: "خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ" (مشكاة المصابيح ١٣: ١١-٢). وعندما كان النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) يسدي النصيح إلى أتباعه في حجة الوداع، قال صلى الله عليه وسلم ما يفيد أن للأزواج حقوقاً على زوجاتهم وللزوجات حقوقاً على أزواجهن وأنها أمانة الله التي أودعها في أيديهم ولذلك يجب معاشرتهن بالمعروف.^{١٣}

العمل

يؤكد الإسلام بشدة على ضرورة العمل الجاد بالإضافة إلى تأكيده على كرامة العمل. وقد أُرْسِي في أوائل التنزيل في كلمات واضحة المبدأ القائل بأنه ما من أحد لا يعمل يأمل في أن يجني ثماراً وأن للعامل جزاءه الأوفى: "وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى." (سورة النجم (٥٣): الآيات (٣٩-٤١)). "فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ" (سورة الأنبياء (٢١): الآية (٩٤)). كما يؤكد في القرآن بالتساوي على الإيمان والعمل: ويوصف المؤمنون مراراً في القرآن بأنهم: "الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ".

وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه يعمل دون كلل. فرغم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم نصف الليل بل وحتى ثلثيه، فإنه كان يؤدي جميع أنواع الأعمال في النهار. ولم يكن هناك عمل وضيع بالنسبة له. فقد كان صلى الله عليه وسلم يحلب الماعز، ويرقع ملابسه، ويصلح حذاءه.

^{١١} سورة النساء (٤): الآية (٣٤)؛ سورة الطلاق (٦٥): الآية (٧).

^{١٢} البخاري ٦٧: ٨٧.

^{١٣} مشكاة المصابيح ١٥: ١٩.

وكان ينظف بنفسه بيته ويساعد زوجته في أعمالها المنزلية. كما كان يتسوق بنفسه ليس لقضاء حاجات أسرته فحسب، وإنما أيضاً لقضاء حاجات جيرانه وأصدقائه. وكان صلى الله عليه وسلم يعمل كالعامل الأجير في بناء المسجد. كما أنه عندما كان الخندق يحفر حول المدينة لتحصينها من الهجوم الشديد، شوهد صلى الله عليه وسلم يعمل بين الجنود العاديين. ولم يكن صلى الله عليه وسلم يحتقر قط أي عمل مهما كان وضيعاً، رغم علو قدره كنبى، وقائد عام، ومملك. وبذلك أثبت صلى الله عليه وسلم بالقدوة الشخصية أن كل عمل شرف للرجل وأن مهنة الرجل، سواء كانت مهنة رفيعة أم وضيعة، لا تشكل مقياساً للحكم على مكانته. "مَا أَكَلْ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ" (البخاري ٣٤: ١٥). وقد بيّن صلى الله عليه وسلم في أقواله الشريفة الأخرى أن كل عمل شريف بالمقارنة بالسؤال. وقد تأسى الصحابة (رضى الله عنهم) به صلى الله عليه وسلم وكان أشرفهم نسباً لا يحتقر حتى عمل البواب.

والعلاقة بين العامل وصاحب العمل هي علاقة طرفين متعاقدين على قدم المساواة. وقد أرسى النبي (صلى الله عليه وسلم) قاعدة عامة بشأن العقود في قوله: "الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ" (البخاري ٣٧: ١٤). فالسيد والخادم يعتبران طرفين متعاقدين بمعنى أن السيد ملزم بشروط العقد مثل الخادم. وقد بين النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا في قوله: "قَالَ اللَّهُ ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ خُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوَفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ" (البخاري ٣٤: ١٠٦).

ويندرج ضمن فئة الأجير الموظفون العاملون في الدولة، والقائمون على الزكاة، والموظفون التنفيذيون، والقضاة. كلهم من حقهم الحصول على أجر نظير عملهم، ولكن لا يحق لهم قبول أي هدية من عامة الناس. وحتى من كانوا يعلمون القرآن يحق لهم الحصول على أجر: "إِنَّ أَحَقَّ مَا أُخِذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ" (البخاري ٣٧: ١٦). فذات مرة، عين النبي (صلى الله عليه وسلم) عمر قائماً على الزكاة وعندما أُعطي أجراً قال إنه لا يحتاجه. ورغم ذلك، أخبره النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يقبله ثم يتصدق به إن شاء (البخاري ٩٤: ١٧). وبذلك، أرسى المبدأ القائل بأن كل موظف، وكل أجير، وكل عامل من حقه الحصول على أجر.

وقد كانت التجارة تعتبر من أشرف المهن وقد خص النبي (صلى الله عليه وسلم) بالمدح التاجر الصدوق الأمين (الترمذي ١٢: ٤). كما أمر الناس بالكرم في معاملاتهم بعضهم مع بعض، وفي البيع والشراء، وفي المطالبة بمستحقاتهم (البخاري ٣٤: ١٦). ويجب أن تكون الأمانة المبدأ الأساسي في جميع المعاملات: "فَإِنْ صَدَقًا وَبَيْنَنَا (العيب، إن وجد، في المبيع) بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كُنْتَمَا

(العيب) وَكَذَبَا مُجَعَّتْ بَرَكَتُهُ بِنِعْمَتَا" (البخاري ٣٤: ١٩). كما يُنْهَى بِشِدَّةٍ عَنِ الْمَضَارِبَةِ فِي الْحُبُوبِ بِصِفَةِ خَاصَةٍ: "مَنْ ابْتِاعَ طَعَامًا فَلَا يَبِيعُهُ حَتَّى يَبْقِيَهُ" (البخاري ٣٤: ٥٤). كما دَعَا النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَى الزَّرْعِ وَالغَرَسِ (البخاري ٤١: ١). كما يَرُوي أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَوْلَهُ: "مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ (بِمَلَكيَتِهَا)" (البخاري ٤١: ١٥). وَأَوَّلُكَ الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ رِيقًا شَاسِعَةً مِنَ الْأَرْضِ لَا يَمَكْنُهُمْ زَرَعَتُهَا بِأَنْفُسِهِمْ يُنْصَحُونَ بِالسَّمَاكِ لِلْآخِرِينَ بِزَرَعَتِهَا بِلَا أَجْرٍ: "أَنْ يَمْنَحَ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ (أَرْضًا تَزْرَعُ) خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِ خَرْجًا مَعْلُومًا" (مَشَاكَاةُ الْمَصَابِيحِ ١٢: ١٣). وَلَكِنْ يَجُوزُ لِصَاحِبِ الْأَرْضِ أَنْ يَعْطِيَ أَرْضَهُ إِلَى الْآخِرِينَ لِيزْرَعُوهَا مَقَابِلَ نَصِيبٍ مِنَ الْمَحْصُولِ أَوْ مَبْلَغٍ مَعِينٍ مِنَ الْمَالِ (البخاري ٤١: ٨، ١١، ١٩). وَعَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ أَقْرَبَ الْإِسْلَامُ حَقَّ الْأَفْرَادِ فِي مَلَكيَةِ الْأَرْضِ وَكَذَلِكَ حَقَّهُمْ فِي بَيْعِهَا أَوْ شِرَائِهَا أَوْ إِعْطَائِهَا لِلغَيْرِ لِزَرَعَتِهَا. وَرِغْمَ ذَلِكَ، أُعْطِيَ تَحْذِيرٌ مِنْ أَنْ الَّذِينَ يَنْشَغُلُونَ بِالزَّرَاعَةِ فَقَطْ، دُونَ إِيْلَاءِ أَيِّ اهْتِمَامٍ إِلَى مَجَالَاتِ التَّنْمِيَةِ الْآخَرَى، لَنْ يَرْفَعَهُمُ اللَّهُ إِلَى مَكَانَةٍ رَفيعَةٍ (البخاري ٤١: ٢).

التحول الذي أحدثه النبي (ص) في حياة البشر

من أبرز سمات حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) النجاح المذهل الذي أحرزه في إحداث تحول جذري في حياة أتباعه في جميع النواحي. وكل هذا حدث في فترة زمنية قصيرة تزيد عن ٢٠ عاماً بقليل. فما من مصلح وجد قومه في هذا الانحطاط والتدهور الذي وجد فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) العرب وما من مصلح ارتقى بقومه على المستوى المادي والأخلاقي والروحي إلى الأفاق التي ارتقى بهم إليها. فلم تمح فحسب عبادتهم الراسخة للأصنام والخرافات التي كانوا يؤمنون بها، ولم تستيقظ الأمة فحسب على الشعور بالكرامة الحقيقية لبني البشر القائمة على دين عقلائي، وإنما حدث أيضاً تحول جذري في شخصيتهم. وقد جاء الإسلام فطهر العرب من الرذيلة المتأصلة داخلهم والانحلال الأخلاقي السافر؛ وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحترق رغبةً في القيام بأفضل وأنبى عمل ليس فحسب لخدمة بلد أو أمة وإنما لخدمة البشرية. كما قُضِيَ على العادات البالية التي كانت تنطوي على ظلم الضعفاء وحلت محلها قوانين عادلة ومعقولة. واختفت تماماً ظاهرة شرب الخمر التي كانت الجزيرة العربية معتادة عليها منذ قديم الأزل، وأصبح لعب الميسر ظاهرة غير معروفة، وحل محل العلاقات غير الشرعية بين الجنسين الالتزام بالعفة. وأصبح العربي الذي كان يتفاخر بجهله محباً للمعرفة ينهل من جميع مناهل المعرفة التي يستطيع الوصول إليها. وتغيرت شخصية الأمة جمعاء. وبذلك، ألف الدين الإسلامي ونبي الإسلام بين قوم سادت بينهم الفرقة والتنافر والرذائل والخرافات، وحولهم إلى أمة واحدة مليئة بالحياة والحيوية والفضيلة، انهارت أمام زحفها إلى الأمام أعظم ممالك العالم. فما من أحد نفخ هذه الحياة

الجديدة في البشر على هذا النطاق الواسع، وما من دين آخر أحدث هذا التحول في حياتهم الذي كان له تأثير على جميع فروع النشاط البشري - تحول في حياة الفرد، والأسرة، والمجتمع، والأمة، والبلد، وبقظة على المستوى المادي والأخلاقي والفكري والروحي - مثل الدين الإسلامي.

كتب عن الإسلام

منشورات ذات شهرة عالمية

"ربما لا يوجد رجل على قيد الحياة قدّم خدمة أطول بقاءً أو أكثر قيمةً لقضية الصحوة الإسلامية من 'مولانا محمد علي' من لاهور. إن أعماله الأدبية، مع أعمال الراحل/ خواجه كمال الدين، قد أكسبتنا حركة الأحمديّة شهرة وتميزاً" - م. بكتال، مفكر بريطاني مسلم، و مترجم معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية.

كتب من تأليف مولانا محمد علي:

ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية **The Holy Qur'an**؛ ١٣٣٠ صفحة.

النص العربي للقرآن مع ترجمة معانيه إلى الإنجليزية، وتفسير موسّع، ومقدمة شاملة، وفهرس كبير بالإنجليزية. ترجمة رائدة لمعاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية. أنثرت منذ سنة ١٩١٧م على ملايين البشر في مختلف أنحاء العالم. كان لها أثر كبير في الترجمات اللاحقة لمعاني القرآن الكريم. نَقِحتَ تنقيحاً موسعاً سنة ١٩٥١م.

"إن إنكار امتياز ترجمة 'محمد علي' والتأثير الذي أحدثته والفائدة الهادية لها هو إنكار لضوء الشمس" - مولانا عبد المجيد داريابادي، أحد قادة الرأي المسلم المحافظ في الهند.

"أول كتاب ينشره مسلم، يتسم بالدقة الواجبة للدراسات القرآنية، ويحقق معايير المنشورات الحديثة" - أمير علي، في "قرآن الطالب" Student's Quran ، لندن، ١٩٦١م.

The Religion of Islam الدين الإسلامي

عمل شامل وبارز عن مصادر الإسلام وعقائده وعباداته وأحكامه. طبع لأول مرة سنة ١٩٣٦م. "... عمل مفيد للغاية، لا يكاد يستغني عنه دارسو الإسلام" - الدكتور السير/ محمد إقبال، الفيلسوف المسلم المعروف.

"إننا نلمس الحاجة الكبيرة إلى مثل هذا الكتاب، عندما نرى في كثير من البلدان الإسلامية أشخاصاً يتوقون إلى إحياء روح الإسلام، ويقعون في أخطاء بسبب افتقارهم إلى فهم المعرفة التي يتيحها هذا الكتاب" - مجلة "الثقافة الإسلامية" "Islamic Culture"، عدد أكتوبر ١٩٣٦م.

دليل الحديث **A Manual of Hadith**؛ ٤٠٠ صفحة

بحث في سيرة حياة النبي الكريم، يمحص الروايات الصحيحة من الروايات المدسوسة، ويصحح كثيرا من المفاهيم الخاطئة المتصلة بحياة النبي الكريم.

محمد النبي (صلى الله عليه وسلم) **Muhammed The Prophet**؛ ٢٨٠ صفحة

يحتوي هذا الكتاب على السيرة الذاتية للرسول الكريم والتي تم بحثها بدقة شديدة ، ولقد قام المؤلف بتخير التفاصيل الحقيقية من المستندات الزائفة . كما يقدم هذا الكتاب تصحيح للأفكار الخاطئة والتي تتعلق بحياة الرسول الكريم .

الخلافة الراشدة **Early Caliphate**؛ ٢١٤ صفحة

تاريخ الإسلام في ظل حكم الخلفاء الأربعة الأوائل.

"(١) إن كتابي "محمد النبي" Muhammad The Prophet، و"الخلافة الراشدة" "The Early Caliphate"، من تأليف محمد علي، يشكلان معا أوفى وأروع المراجع، التي كُتبت حتى الآن باللغة الإنجليزية عن التاريخ المبكر للمسلمين" - مجلة "الثقافة الإسلامية" "Islamic Culture"، عدد أبريل ١٩٣٥م.

التعاليم الخالدة الموحى بها إلى النبي الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم

The Living Thoughts of The Prophet Muhammad؛ ١٥٠ صفحة.

حياة النبي الكريم، وتعاليمه في أمور شتى.

النظام العالمي الجديد **The New World Order**؛ ١٧٠ صفحة.

الحلول التي يقدمها الإسلام للمشكلات الرئيسية التي يواجهها العالم المعاصر.

مؤسس حركة الأحمديّة **Founder of the Ahmadiyya Movemen**؛ طبعة ١٩٨٤،

الولايات المتحدة الأمريكية

سيرة حياة حضرة ميرزا، بقلم مولانا محمد علي، الذي عمل عن قرب معه خلال السنوات الثماني الأخيرة من حياة مؤسس الحركة.

منشورات رئيسية أخرى:

تعاليم الإسلام **The Teachings of Islam**، تأليف حضرة ميرزا غلام أحمد؛ ٢٢٦ صفحة.
شرح رائع، حظي بقدر كبير من الترحيب، لسبيل الإسلام من أجل التقدم المادي والخلقي والروحي للإنسان. وقد قُدم للمرة الأولى كمحاضرة سنة ١٨٩٦م.
"... أفضل وأروع العروض التي صادفناها للعقيدة التي أتى بها محمد" -
"Theosophical Book Notes".

وهناك ترجمات إنجليزية وكذلك كتب أصلية باللغة الأوردية لحضرة ميرزا، متاحة لدينا أيضا.

محمد في الأسفار الدينية العالمية Muhammad in World Scriptures، تأليف مولانا عبد الحق فيديارثي، ١٥٠٠ صفحة في ثلاثة مجلدات.
بحث فريد كتبه عالم متبحر في الكتب الدينية المقدسة واللغات، يبين النبوءات المتصلة بمجيء النبي الكريم محمد في كل الكتب المقدسة الرئيسية في العالم.

الأحمدية في خدمة الإسلام Ahmadiyyat in the service of Islam، تأليف نصير أ. فاروقي، الرئيس السابق للإدارة المدنية الباكستانية، ١٤٩ صفحة، طبع في الولايات المتحدة الأمريكية، سنة ١٩٨٣.
يتناول الكتاب معتقدات ودعاوى ومنجزات حضرة ميرزا غلام أحمد، وأعمال حركة الأحمدية في لاهور.

الأديان الكبرى في العالم The Great Religions of the World، تأليف السيدة/ يو. صمد؛ ٢٥٨ صفحة.

مشاهد من حياة النبي محمد Anecdotes from the Life of the Prophet Muhammad، تأليف ممتاز أ. فاروقي؛ ١٠٢ صفحة.

الإسلام والمسيحية Islam and Christianity، تأليف نصير أ. فاروقي.

بخصوص أسعار وتوزيع هذه الكتب، وللاستفسار عن الكتب الأخرى، وللحصول على مطبوعات مجانية، يرجى الاتصال بالعنوان التالي:

الدار الإسلامية للنشر

P.O.Box 3370, Dublin, Ohio 43016, USA

تليفون: ٦١٤-٨٧٣١٠٣٠ فاكس: ٦١٤-٨٧٣-١٠٢٢

عنوان البريد الإلكتروني: aail@aol.com